أرنولد توينبي

تاريخ البشرية

نقله إلى العربية
الدكتور نقولا زياده

الأهلية للنشر والتوزيع

تاريخ البشرية

الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت - 2004
هاتف: 01/756116 فاكس: 01/754116
ص.ب.: 5433 113 - بيروت

أرنولد توينبي

تاريخ البشرية

نقله إلى العربية
الدكتور نقولا زياده

الأهلية للنشر والتوزيع

المحتويات

تصدير

في سنة ١٨٩٧ احتفل باليوبيل الماسي لاعتلاء الملكة فكتوريا عرش بريطانية. وقد أعاد هذا الأمر الى الفكر تاريخ الستين سنة التي خلت من قبل. وقد أدى هذا الاستعراض إلى نظرة الى ذلك التاريخ بأكمله، وهي نظرة بدت واضحة بسيطة. فبين سنتي ١٨٣٩ (سنة اعتلاء الملكة العرش) و ١٨٩٧ أتمّ الغرب توطيد سيطرته على بقية أنحاء العالم. وقد كان ذلك إتماماً لمسيرة كانت قد بدأت قبل سنة ١٨٩٧ بأربعمئة سنة، لما عبر كولمبوس المحيط الأطلسي، وغادر فاسكو دي غاما البرتغال ودار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل الى الهند. ففي خلال هذه القرون الأربعة كانت الأقطار غير الغربية، باستثناء اثنين منها هما أفغانستان والحبشة (أثيوبيا)، اما انها قد وقعت تحت السيطرة الغربية او أنها أنقذت استقلالها بأن تقبلت طوعاً الى درجة معينة، أساليب الحضارة الغربية المزدهرة. كان بطرس الأكبر قد بدأ تحديث روسيا على الأسلوب الغربي سنة ١٦٩٤، وسار صانعو ثورة ميبجي في اليابان على الدرب نفسه سنة ١٨٦٨. وفي سنة ١٨٩٧ كانت ست من الدول السبع الكبرى آنذاك دولاً غربية، وكانت الدولة السابعة، وهي روسيا، دولة كبيرة لأنها تمكنت من قبول الأساليب الغربية الى درجة كبيرة خلال القرنين السابقين لذلك. اما اليابان فلم تكن قد بلغت مرتبة الدولة الكبيرة ـ ذلك بأنها لم تشن حرباً على روسيا وتنتصر فيها حتى ١٩٠٤ـ ١٩٠٥.

وهكذا فإن ترسيخ السيطرة الغربية، مع أنه كان حديث العهد، ظهر وكأنه أمر كتب له البقاء. فقد بدا العالم، في سنة ١٨٩٧، وكأنه قد قبل ان يكون تصريف أموره في يد الغرب. ومن الواضح ان التاريخ بلغ نهاية مطافه في قيام الوحدة السياسية في كل من ايطالية وألمانية سنة ١٨٧١. وإذا كان « التاريخ » مرادفاً في معناه لما حفلت به الحضارة الغربية في ماضيها الصاخب من اضطراب وسير حثيث (كما كان كثيرون قد قبلوا

ذلك سنة ١٨٩٧) فمعنى ذلك ان التاريخ قد تخلى عنه الناس راضين، وذلك في فترة لا تزال ذكراها عالقة في الأذهان. وعلى ذلك فإن سنة ١٨٩٧ بدت وكأنها نقطة تاريخية يتخذها الملاحظ منطلقاً لالقاء نظرة خلفية على المسيرة التاريخية ولتفحصها تفحصاً وئيداً وكلياً من نقطة من الزمن كان فيها الملاحظ نفسه قد خرج من تخبطه في التغير الدائم للتاريخ.

وبدا التاريخ، وقد استعرض في تلك اللحظة، وكأنه انتهى به المطاف الى حالة من الاستقرار أساسها سيطرة الغرب، وأن مخطط التاريخ، أخذاً بهذه النظرة، قد أصبح واضحاً. وقد بدا عندئذ كأن التاريخ تكون من أحداث سابقة معينة هي التي انتهت بسيطرة الغرب الحالية. وأما غيرها من الأحداث السالفة فلم تعد من صلب التاريخ. ومن ثم فمن الممكن تجاهلها. حقاً كان العالم كله كأنه قد ضم الى نطاق الغرب. ومن ثم فقد دخل مجال التاريخ. لكن أخذ العالم بالأساليب الغربية كان حديث العهد. والأقطار التي قبلت بالصيغة الغربية للحياة كانت تابعة أو على حال هامشية. وعلى سبيل المثال فقد أدخلت الهند في نطاق الغرب لأنها أصبحت، سنة ١٧٤٦ إحدى حلبات المنافسة بين دولتين غربيتين هما بريطانية وفرنسة. وفي سنة ١٨٩٧ كان للهند مكانة في العالم على أنها جزء من الامبراطورية البريطانية. وقد أصبحت روسيا دولة كبرى بسبب ما كان لبطرس الأكبر من بصيرة. على ان روسيا، مع الاعتراف بقوتها، لم تكن قد بلغت من الحضارة الغاية؛ فهي، من حيث الثقافة، لم تكن بعد عضواً من الدرجة الأولى في نادي الغرب. أما أخذ اليابان بالحضارة الغربية فقد كان أمراً عجيباً، لكنه كان فريداً.

أما وقد عرف التاريخ على أنه سلسلة من الأحداث التي أدت إلى سيطرة الغرب، فقد أصبح من الممكن تحديده بدقة. فالاسرائيليون القدامى وأحفادهم اليهود قد أسهموا، ولا ريب، في التاريخ على الأقل الى سنة ٧٠ للميلاد. ذلك بأن تاريخهم كان مقدمة لتاريخ المسيحية - كاثولكية وبروتستانتية على السواء. وهذه هي دين الغرب. وإسهام أغارقة العصر الهليني في التاريخ كان كذلك لا ريب فيه. فالفلسفة الاغريقية المتحدرة من العصر الهليني كانت قد استخدمت في صياغة اللاهوت المسيحي، ولم يقتصر الأمر على الفلسفة، بل ان ما كان عند الهلينيين من أدب وفنون مرئية وعمارة كانت، منذ النهضة، مصدراً روحياً لثقافة الغرب الحديثة.

كانت اليهودية والهلينية المصدرين الرئيسين للحضارة الغربية. وقد تولدت هذه بسبب

ما كان بين اليهودية والهلينية من صدام، ولم يكن من المحتم على المؤرخ، عندما يحاول التعرف الى الماضي، ان يسير في تيار الماضي إلى أبعد من ذلك. ومع ذلك فإن رجال الآثار الغربيين كانوا، خلال السنوات الستين من حكم الملكة فكتوريا، أي حتى سنة ١٨٩٧، ينبشون بغضب حضارات سابقة زمنياً لحضارة الاسرائيليين القدامى والهلينيين. وعلى سبيل المثال حضارة مصر الفرعونية والحضارة الأشورية، والحضارة الميكانية في وقت أقرب عهداً. وقد كان تصور رجال الآثار هؤلاء لهذه الحضارات القديمة، الى ذلك الحين، شرائحياً ومبهماً. ولكن هذه الحضارات المنبوشة كان يحق لها أيضاً أن تضم الى التاريخ، فيما اذا تبين انها كانت قد أضافت شيئاً ما الى أصلي الحضارة الغربية اليهودي والهليني.

وقد بدا، في سنة ١٨٩٧، انه من اليسير ان نتابع التقدم الذي أصاب العالم الذي قبل الحضارة الغربية من أيام اليهودية، والهلينية الى ذلك الوقت. فاليهود والأغارقة اندمجوا في الامبراطورية الرومانية. وهذه كانت الرحم السياسي للمسيحية. وكانت الامبراطورية الرومانية قد اعتنقت المسيحية قبل سقوط الامبراطورية في ولاياتها الغربية. واعتناق البرابرة الذين فتحوا البلاد التي كانت تابعة للرومان في الغرب هو الذي أدى الى انتشار تدريجي للمسيحية الغربية، وهو الانتشار الذي كان قد بدأ في العقد الأخير من القرن الخامس من التاريخ المسيحي. ومنذ ذلك الحين كانت بقية أجزاء العالم تدخل في مجال التاريخ بالطريقة ذاتها وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه هذه البقية تضم الى نطاق الغرب، هذا النطاق الذي كان يتسع باستمرار.

هذه النظرة الاستعراضية للتاريخ كانت مقبولة في سنة ١٨٩٧، لأنه في ذلك التاريخ ظهر للعيان وكأن السيطرة العالمية التي بلغها الغرب هي دائمة البقاء. وفي سنة ١٩٧٣ كانت سيطرة الغرب تبدو وكأنها لم يسبق لها مثيل في انتشارها العالمي الواسع، إلا انه كان يبدو أيضاً وكأن هذه السيطرة هي عابرة، على نحو ما كانت السيطرات السابقة، وهي التي لم تكن عالمية والتي عرفها المغول والعرب، والهون والرومان والاغريق والفرس والأشوريون والأكديون. وإذا كان من المحتمل ان تكون سيطرة الغرب هامشية أيضاً، فإنه لا يمكن اعتبارها الغاية التي انتهى اليها التاريخ بأكمله. إذن فمجال التاريخ لا يمكن، بعد ذلك، ان يحصر ضمن حدود هي الحدود السابقة تاريخياً للحضارة الغربية. وعندما يمحى هذا التحديد التحكمي، تتضح لنا الكمية الهائلة من التاريخ التي طرحت جانباً في سبيل

خلق صورة للتاريخ مبنية على البقية التي لم تطرح، وهي الصورة التي كانت ترمي، في سنة ١٨٩٧، الى ضم كل شيء اعتبر مطابقاً للحالة التي بلغتها شؤون البشر في تلك السنة.

فالصورة التي عرضت سنة ١٨٩٧، كانت قد أخرجت من التاريخ تاريخ اليابان قبل ١٨٦٨، وتاريخ الصين قبل ١٨٣٩، وتاريخ الهند قبل ١٧٤٦، وتاريخ روسيا قبل ١٦٦٤ . وكانت قد استثنت التاريخ الكامل للبوذية والهندوكية والاسلام، مع العلم، بأن هذه كانت في سنة ١٨٩٣ كما كانت في سنة ١٩٧٣، ثلاثة من الأديان الأربعة التي كان لها أكبر عدد من الأتباع، وان البوذية والاسلام كانا دينين من الأديان الثلاثة التي تنطوي على دعوة عالمية. وقد كان مدى كل منهما متسعاً اتساع مدى المسيحية. والصورة التي رسمت سنة ١٨٩٧ كانت قد أخرجت ايضاً ثلاثة من الفروع الأربعة الرئيسة نفسها أي النسطورية وأهل الطبيعة الواحدة والأرثوذكسية الشرقية، مع أنه، في سنة ١٨٩٧، كان أتباع الكنائس الأرثوذكسية الشرقية، مثل البروتستانت والكاثوليك (الغربيين)، من حيث عددهم وأهميتهم في ذلك التاريخ.

وكان ثمة نواح في الصورة اكثر إمعاناً في الغرابة. فاليهود قد أقصوا من التاريخ اعتباراً من سنة ٧٠م وهي السنة التي هدم فيها الرومان الهيكل في القدس، كما أقصي الإغريق منذ سنة ٤٥١م، وهي السنة التي صيغت فيها قرارات مجمع خلقدونية على أيدي لاهوتيين مسيحيين يونانيين. (وقد أعيد اليونان الى الحظيرة اعتباراً من سنة ١٨٢١ لأنهم في تلك السنة ثاروا ضد الإمبراطورية العثمانية رغبة منهم في ان يقبلوا في عضوية المجتمع الغربي).

والطريقة التي عولج بها تاريخ الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي كانت الأمعن في الغرابة. ففي ذلك القرن كانت الامبراطورية الرومانية لا تزال قائمة في المشرق، وهو المكان الذي كان دوماً مركز الثقل في الناحيتين البشرية والاقتصادية، لكنها كانت قد انهارت في ولاياتها الغربية التي كانت متأخرة نسبياً. ومع ذلك فإن مخطط التاريخ الذي كان سائداً سنة ١٨٩٧ تجاهل، اعتباراً من سنة ٤٧٦م (وهي السنة التي خلع فيها آخر الأباطرة الرومان العاجزين في الجزء الغربي من الامبراطورية) الإمبراطورية الرومانية مع أنها كانت لا تزال حية في المشرق ومع أنها استمرت في القيام بدور في الشؤون العامة الى مختتم القرن الثاني عشر. وفي واقع الأمر فان مخطط التاريخ الذي

كان مألوفاً سنة ١٨٩٧ تجاهل، في سنة ٤٧٦م، العالم المتحضر القائم يومها والممتد من اليونان الى الصين، ومن الصين الى أميركا الوسطى والبيرو. وهذا المخطط، البالغ في الغرابة، ركز اهتمامه، اعتباراً من سنة ٤٧٦م، على الدول البربرية التي ورثت الامبراطورية الرومانية في ولاياتها الغربية المتداعية.

وقد اتضح، في سنة ١٩٧٣، انه لا يمكن أن يشطب أي جزء من هذه الكمية الضخمة من التاريخ الذي كان قد طرح جانباً باعتباره غير ذي موضوع. مثال ذلك أن حضارة أميركا الوسطى، التي بدا وكأن كورتيز قد محا أثرها، بدت وكأنها قد أخذت تظهر ثانية خلال طلاء بال من الحضارة الغربية في المكسيك وغواتيمالا. وفيما يتعلق بتاريخ آسية الشرقية فإن أي شخص يلقي نظرة على الصين واليابان سنة ١٩٧٣ كان لا بد له من القول بأن ما كان في هذين البلدين من التجارب التاريخية السابقة، عودة الى العصر الحجري الحديث في شرق آسية، لم تكن بأقل أهمية من تجارب الغرب المعاصر. ولم يكن في مقدور مؤرخ في سنة ١٩٧٣ ان يتخلى عن القسم الأكبر من التاريخ الذي كان على استعداد لطرحه جانباً سنة ١٨٩٧. كان عليه يومها ان يسترد ذلك كله وأن يعيد صياغته مع ما كان قد قُبِل، والذي أدى الى ما كان عليه الغرب سنة ١٨٩٧، والذي كان مخطط التاريخ المألوف في سنة ١٨٩٧ قد احتفظ به دون غيره.

في سنة ١٩٧٣ أصبح المسح التام للتاريخ أمراً حتمياً، لكن هذا العمل كانت ترافقه مشاكل جسيمة من حيث الاختيار والعرض على السواء.

فأية حكاية، مهما كان الأمر الذي تعالجه، لا بد من ان يرافقها اختيار. فالعقل البشري لا يتمتع بالقدرة على إدراك جماع الأمور في نظرة شاملة واحدة. فالاختيار أمر لا مفر منه، وهو أيضاً أمر تحكمي حتماً، وبقدر ما تكون مادة الأخبار التي يطلب الاختيار منها أكبر، يكون النقاش حول تخير الباحث أشدّ. فعلى سبيل المثال فإن الاختيار من الأحداث التاريخية الذي بدا مقبولاً سنة ١٨٩٧، قد ظهر غريباً سنة ١٩٧٣. وفي القصة التي أقدمها الآن تجنبت أن أضفي على حضارة الغرب وسابقاتها الأهمية البالغة التي اعتادت الدراسات الغربية لتاريخ العالم ان تسبغها عليها. والى ذلك فقد حاولت ان أتجنب الوقوع في خطأ مقابل أي إعطاء الغرب وسابقاته أقل مما يستحق. وعلى كل فإن الصيني الذي يقرأ حكايتي هذه قد يحكم علي بأنني منحت الغرب مدى أوسع من

اللازم، فيما قد يكون حكم القارىء الغربي عليّ هو أنني بذلت من الجهد الكثير لضغط الحضارة التي تنتمي كلانا اليها، ووضعها في مكانها المناسب لها.

في هذه الحكاية التي وضعت سنة ١٩٧٣ كان تناول المراحل الأولى والأخيرة في تاريخ البشرية أقل صعوبة من تناول المراحل الواقعة بين هذه وتلك، ففي العصر الحجري القديم المبكر (وهو يكون خمسة عشر او ستة عشر جزءاً من فترة تاريخ البشرية الى الآن) كانت الحياة متسقة. فمع أن الاتصال بين الجماعات كان بطيئاً، فان مسيرة التغير في حياة المجتمعات كانت بعد أبطأ. اما خلال القرون الخمسة الأخيرة فقد أصبح موطن الجنس البشري وحدة على المستويين التكنولوجي والاقتصادي وإن لم يبلغ ذلك على المستوى السياسي بعد، وذلك لأن التسارع في سير التغير قد سبقه تسارع في وسائل المواصلات. وفي المرحلة الواقعة بين هذه وتلك، وخصوصاً في الأربعة آلاف ونصف أي حول ٣٠٠٠ ق.م. الى ١٥٠٠م، كان التغير أسرع من تطور وسائل المواصلات، ومن ثم فإن التباين بين انماط الحياة الاقليمية بلغ الذروة.

وثمة فترات، حتى في هذه الحقبة ذاتها، كانت فيها أجزاء كبيرة من موطن الانسان مرتبطة بعضها بالبعض الآخر، وقد أفدت من ذلك لتقديم نظرة شاملة الى القارىء. فمن أمثلة الآفاق الواسعة التي يضعها العالم القديم امامنا، هذا التحول في الحياة الروحية الذي عرفه القرن السادس قبل الميلاد، وانتشار الحضارة الهلينية نتيجة حياة الاسكندر الكبير، والتوحيد السياسي للعالم القديم الذي تم على يد المغول في القرن الثالث عشر للميلاد والذي لم ينج منه سوى طرفي ذلك العالم. وقد كان هناك فترات مماثلة في التاريخ الأندي التي تمثلها آفاق تشافن وتياهواناكو. وعلى كل فإن الغالب على الحقبة الممتدة من ٣٠٠٠ ق.م. الى ١٥٠٠م أنه كان لكل من المناطق التي تتقسم موطن الانسان سبيلها الخاص بها. فالانعزال والتباين تغلبا على الاتصال والتمثل والحضارات الاقليمية تعايشت دون أن تتلاحم.

هذه حقيقة تاريخية لا بد من ان تنعكس على الرواية التاريخية. ولذلك فإن الكاتب يواجه مشكلة التحدث عن عدد من سلسلة أحداث متعاصرة. وقد لجأت الى حيل المشعوذين في الاحتفاظ بعدد من الطابات في الهواء في وقت واحد، وسرت على خطة تتلخص في أن أتناول تاريخ كل منطقة ثم أتخلى عنه بالتتابع، وقد ضحيت بمعالجة

مستمرة لمناطق معينة، وبذلك تمكنت من تقديم تاريخ لعالم ككل في شكل زمني منتظم تقريباً.

وكل من الأسلوبين - أسلوب العرض الروائي وأسلوب التحليل والمقارنة - له فوائده الواضحة ونقائصه. وقد كان هدفي من هذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء هو أن أقدم عرضاً مجملاً واضحاً لتاريخ البشرية بأسلوب الحكاية.

١ــ الغاز في الظواهر الطبيعية

بعد أن يحبل بالكائن البشري ثم يولد، قد يموت الطفل قبل أن يستيقظ فيه الوعي. وحتى القرن العشرين كانت نسبة مئوية عالية الى حد القسوة من الأطفال تموت قبل مرحلة الوعي في الحياة، إذ كانت وفيات الأطفال أمراً عادياً بشكل فظيع، حتى في المجتمعات البشرية التي كانت تتمتع بقسط نسبي من الأمن والثراء، والتي كان لها أيضاً، ولو نسبياً، حظ من المعرفة والعناية الطبية.

وقد كانت وفيات الأطفال بين البشر قبل العصر الحديث على درجة من الجسامة نفسها التي كانت بين الأرانب، فضلاً عن ذلك فإن الطفل الذي قد يعيش طويلاً بحيث يحس بفجر الوعي، قد ينقصف عمره في أي من مراحل حياته إما عمداً أو بسبب حادثة ما أو مرض ما أو اصابة ما بحيث تعجز المهارة والعدة الطبية والجراحية، التي يمكن الحصول عليها في الوقت والمكان المعينين، عن شفائه من أي منها.

وعلى كل فإن طول المدة المحتملة للعمر قد زادت زيادة تدعو الى الدهشة في المجتمعات التي تصل مبكرة الى النضج في الناحيتين الطبية والاجتماعية. وحتى في المجتمعات المتأخرة نسبياً بدأ هذا الطول بالتزايد. ففي أيامنا هذه قد يستمر الوعي عند الكائن البشري سبعين أو ثمانين سنة قبل أن يضع الموت حداً له، او قبل ان تغيبه الشيخوخة، حتى قبل الموت الطبيعي. وخلال هذه السنوات، السبعين أو الثمانين، من الوعي يدري الكائن البشري بالظواهر الطبيعية. وهذه الظواهر الطبيعية تضع أمامه عدداً من الألغاز، والألغاز النهائية لم يوضحها بعد ما وصلت اليه المعرفة والفهم العمليان من تقدم ـ على ما في هذا التقدم من سرعة واتساع تتمتع بهما في العصر الحديث.

لقد أخذ العلماء حديثاً في الكشف عن التركيب الكيماوي للمادة وأشكالها التكوينية التي تنتج عنها الأحوال الطبيعية التي تبعث الحياة في المادة وتوقظ الوعي في الكائن

الحي. وهذا التقدم العلمي حمل الينا معه اكتشافاً سلبياً واحداً وهذا قد يلقى القبول بين أتباع الأديان الآلهية، لكنه يقابل بالرفض العنيف من العقائد التقليدية، لأنه يتناقض مع هذه العقائد المؤصلة في النفس البشرية، رغم أنها لم تثبت بعد ولن يتاح لها ان تثبت. فلم يعد بالامكان اليوم الاعتقاد بأن الظواهر التي يعيها الكائن البشري قد وجدت بأمر من إله خالق هو على صورة الانسان. فهذه الطريقة التقليدية لتفسير الظواهر كان قوامها اتخاذ الأعمال البشرية مقياساً للتفسير، وهو أمر لا مبرر له. إن البشر يصيغون من الموجود من « المواد الخام » الجامدة أدوات وآلات وثياباً وبيوتاً وغيرها من الأشياء المصنوعة. ويسبغون على هذه المصنوعات وظيفة ونمطاً، وهما ليسا أصيلين في طبيعة « المواد الخام ». فالوظيفة والنمط ليسا شيئاً عادياً، وهما، من وجهة النظر المادية، مخلوقان من العدم. اما ما يقدم من تفسير لوجود الظواهر الطبيعية من حيث انها ناتجة عن نشاط قوة خلاقة هي على صورة الانسان، فقد فقد قدرته على الاقناع، لأن وجود إلهٍ خالق هو على صورة الانسان انما هو فرضية لم يقم دليل على إثباتها. إلا أن هذه الفرضية التقليدية، التي لا سبيل الى قبولها، لم يحلّ محلها بديل مقنع الى الآن.

وما نتمتع به من ازدياد في معرفتنا للأحوال الطبيعية التي تبعث الحياة والوعي والقصد في البشر، لم يحمل معه فهماً جاداً لطبيعة الحياة والغاية منها (هذا إذا كان ثمة غاية) والوعي. فهذه صيغ للوجود تختلف واحدتها عن الأخرى، كما تختلف عن المادة المركبة عضوياً والمتعلقة بها، على نحو ما تدلنا تجربتنا. فكل كائن بشري حي يعرفه كائن بشري آخر او يعرف عنه، بما في ذلك الكائن نفسه، انما هو روح واع ذو قصد معين، ويعيش في جسم مادي. ولم يحدث قط أن أياً من العناصر التي يتكون منها الكائن البشري الحي أمكن التعرف عليه منفصلاً عن البقية. فالعناصر تكون دوماً مرتبطة واحدها بالآخر، ومع ذلك فإن هذه الصلة القائمة بينها ليس من سبيل إلى إدراكها.

لماذا تكون بعض أجزاء من الظواهر المادية مرتبطة مؤقتاً بالحياة (كما تكون هذه الأجزاء في الكائنات الحية من كل نوع) ومرتبطة أيضاً بالوعي (كما تكون في الكائنات البشرية) فيما تكون الأجزاء الأخرى (التي يبدو انها تكوّن القسم الأكبر من جماع المادة في المنظومة الكونية) جامدة لا وعي لها دوماً؟ وكيف تم، في مر مجرى المكان ـ الزمان، وفي نقطة ـ لحظة معينة منه (أي في هذا المحيط الحيوي الواهي الذي يغلف كرتنا الزائلة تغليفاً موقتاً) للحياة والوعي أن يرتبطا بالمادة؟ ولماذا تجهد الحياة

نفسها، وهي المجسمة في مادة مركبة تركيباً عضوياً، في تخليد ذاتها، او عندما تكون الحياة ممثلة بأحياء جنسية وفانية، تحاول استيلاد ذاتها على صورتها الصحيحة؟ من الواضح ان الحفاظ على أي نوع من الكائنات الحية يكلف جهداً عظيماً. فهل هذا الجهد متأصل « في طبيعة النوع وفي نسله »؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون هذا الجهد متأصلاً في طبيعة عناصر المادة لعضوية، في حالتين: قبل أن تكون عضوية وبعد كونها كذلك، ما دام تشكلها العضوي يكون، الى حد كبير، فصلاً قصيراً في تاريخها؟ واذا كان الجهد ليس متأصلاً بل دخيلاً، فما هي الوساطة التي تدخله، إذا نحن تخلينا عن الفرضية التي تقبل فكرة تدخل إله خالق؟

وبعد، فلنقبل حقيقة التبدل الخلقي بالنسبة الى بناء الأحياء ووظائفها. ولنقبل أيضاً صحة الرأي الدارويني بأن التبدل الخلقي، المصحوب بالانتخاب الطبيعي لمدة كافية، يوضح، بشكل دقيق، التباين في الحياة الى أنواع مختلفة، وكذلك نجاح بعض الأنواع في البقاء وفشل أنواع أخرى. حتى لو قبلنا كل هذا فان التبدلات الخلقية نفسها تظل دون توضيح. فهل إن التبدلات الخلقية عرضية أو إنها مصممة أو إنها خروج على التصميم؟ أم ترى هذه الأسئلة الثلاثة هي في غير موضعها عندما تثار بالنسبة الى الظواهر التي لا تملك الوعي ولا القدرة على التصميم؟ ولنفرض أننا نسمح لأنفسنا أن نعنى بالأنواع غير البشرية في حدود موصوفة بالبشرية فإننا سنواجه أسئلة أخرى. إن تعرض نوع من الأنواع لأن تمر به تبدلات خلقية هو نزعة مغايرة لجهد النوع في الحفاظ على ذاته او لاستيلادها على مثاله. فهل الحفاظ على الذات المماثلة هو غاية النوع، وهي ان التبدلات الخلقية لا تعدو كونها قصوراً في النوع عن تحقيق ذاته؟ ام هل ان النوع مهيأ للتبدل، وما محاولته في الحفاظ على الذات المماثلة إلا عقبة في سبيل هذا التبدل، وهي محاولة أساسها قوة الاستمرار؟

هذا التباين في الحياة الذي نراه في الأنواع المختلفة يحمل في طياته المنافسة بين بعض الأنواع المختلفة وبعضها الآخر، والتعاون بين غيرها من الأنواع. فأي من هذين الصنفين من العلاقات المتناقضة هو السنة الأسمى للطبيعة؟ ليس في العلاقات التي تقوم فيما بين الأنواع اللاواعية، سواء في ذلك التعاون او المنافسة، ما هو فعل صادر عن اختيار متعمد، ولكن الاختيار متعمد في الكائنات البشرية، وهو بالنسبة إلينا، مرتبط بالحس البشري للفرق والتناقض بين الصواب والخطأ وبين الخير والشر. فما هو مصدر هذه الأحكام

الخلقية التي هي، على ما يبدو، ذاتية بالنسبة الى الطبيعة البشرية لكنها غريبة بالنسبة الى طبيعة الأنواع غير البشرية؟

وأخيراً فالكائن البشري الواعي والذي له مقصد معين والذي يملأه الحس بالتمييز بين الصواب والخطأ والذي يحمل (حتى ولو كان هذا منافياً للباعث الخلقي) على أن يفعل ما يبدو له صحيحاً - هذا الكائن البشري ما هو مكانه وأهميته في الكون؟ إن الكائن البشري يشعر كأنه مركز الكون، لأن وعيه بالذات هو، بالنسبة اليه، النقطة التي يرى منها المنظر الشامل الروحي والمادي للكون. وهو أيضاً أناني بمعنى ان الباعث الطبيعي عنده هو ان يتخذ من كل ما تبقى من الكون أداة لخدمة أغراضه. على أنه يدري، في الوقت ذاته، أنه فضلاً عن قصوره عن أن يكون مركز الكون حقاً، فهو نفسه زائل مستهلك، يضاف الى ذلك أن ضميره ينبئه بأنه عندما يسلم نفسه للأنانية، فإنه يقع في الخطأ، خلقياً وعقلياً.

هذه هي بعض الألغاز التي تطرحها الظواهر الطبيعية لمام الكائن البشري الذي يعيها. قد يستمر العلم في تقدمه، وقد لا يستمر في ذلك. وفيما إذا كان العلم سيسير قدماً أم أنه سيأسن ليس مسألة مقدرة عقلية في الإنسان. إذ يبدو انه لا حدّ لمقدرة الانسان العقلية في الاستزادة من المعرفة العلمية، وفي وضع هذه المعرفة في موضع التطبيق وللتقدم في التكنولوجيا. ذلك بان مستقبل العلم او التكنولوجيا يعتمد، بعض الاعتماد، على المجتمع أي فيما اذا كان هذا المجتمع سيستمر في تقدير هذه النشاطات هذا التقدير الكبير، وفيما إذا كان سيستمر في تقديم المكافأة السخية على نحو ما جرى عليه في الأزمنة الحديثة. كما يعتمد ذلك المستقبل بعض الشيء أيضاً على موقف أصحاب القدرات العقلية الممتازة، أي فيما اذا كان هؤلاء الأشخاص سيستمرون بالعناية بالعلم والتكنولوجيا - ليس ثمة ما يضمن هذا الأمر - ذلك بأنه في مجالات النشاط البشري جمعاء تتبدل الأنماط. فمن المعقول ان يعود الدين او الفن الى مركز الصدارة من حيث اهتمام أصحاب العقول القادرة بهما، على ما كان عليه الحال في الماضي، في أماكن وأوقات مختلفة. وعلى كل فحتى لو أتيح للعلم أن يستمر في تقدمه بالمسيرة نفسها، فمن المنتظر ان لا تنقله انجازاته المقبلة الى حدود أبعد مما وصل اليه في الماضي والحاضر. قد تزداد معرفتنا عن الطريقة التي يسير فيها الكون الظاهر، لكن العلم لا يؤمل له ان

ينجح في المستقبل، أكثر مما نجح في الماضي، في تمكيننا من فهم السبب في أن الكون يسير على الطريقة التي يسير عليها او حتى في واقع الأمر، لماذا الكون موجود.

وعلى كل فالكائن البشري يتحتّم عليه أن يعيش ويعمل، خلال حياته المضطربة (جسداً وعقلاً) في المحيط الحيوي. ومتطلبات العيش والعمل تفرض عليه ان يزود نفسه بأجوبة مؤقتة للألغاز التي تضعها الظواهر الطبيعية أمامه، هذا مفروض عليه حتى ولو عجز عن الحصول على هذه الأجوبة من العلم، وحتى لو كان يعتقد بأن المعرفة العلمية هي المعرفة الوحيدة الحقة. على ان هذا الاعتقاد ليس في حرز من التشكيك فيه. ومع ذلك فإنه من الصحيح أن الأجوبة التي نعثر عيها خارج حدود العلم هي أفعال إيمان لا يمكن التثبت منها. فهي ليست شرحاً عقلياً، إنما هي حدس ديني. ومن ثم يبدو من المحتمل ان الحياة سترغم الكائنات البشرية في المستقبل، كما أرغمتها في الماضي، على ان تصيغ أجوبتها، بالنسبة للقضايا النهائية، في عبارات حدسية دينية لا يمكن التثبت منها. وقد يبدو للمناظر إلى الأمور نظرة سطحية ان التعابير الدينية العائدة إلى ما بعد عصر العلم ستكون بعيدة بعداً شاسعاً عن تلك العائدة الى ما قبل عصر العلم. وكل تعبير ديني سابق كان يعدل بحيث يتناسب مع النظرة العقلية للعصر والمكان حيث صيغ ذلك التعبير بالذات. ولكن الجوهري الذي هو ركيزة الدين هو، ولا ريب، ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاتها. فالدين، في الحقيقة، هو صفة ذاتية ومميزة للطبيعة البشرية. فهو الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الظواهر الطبيعية. هذا هو التحدي الذي يواجه الكائن البشري بسبب أنه يملك هذه القدرة البشرية الفريدة ـ قدرة الوعي.

٢ــ المحيط الحيويّ

هذه الكلمة هي من وضع تيار دوشاردان، وهي كلمة جديدة اقتضاها وصولنا الى مرحلة جديدة في مسيرة اكتشافاتنا العلمية بسبب ما نملك من قوة مادية. والمحيط الحيوي يتكون من طبقة من الأرض اليابسة والماء والهواء وهي تغلف كرة (أو الكرة تقريباً) سيارنا الأرض. وهو الآن الموطن الوحيد ـ وسيظل، بقدر ما يمكننا أن نرى ذلك الآن، الموطن الوحيد الذي يمكننا الوصول اليه ـ لجميع أنواع الكائنات الحية المعروفة، بما في ذلك البشر.

والمحيط الحيوي محدود الحجم بشكل ثابت، ومن ثم فإنه يحتوي على قدر محدود من الموارد التي تعتمد عليها مختلف أنواع الكائنات الحية في الحفاظ على كيانها. بعض هذه الموارد متجدد، والبعض الآخر لا يمكن تعويضه، وأي نوع من الأحياء الذي يفرط في استهلاك الموارد المتجددة، او يستنزف ما لا يمكن تعويضه من الموارد، يقضي على نفسه بالانقراض. وعدد الأنواع المنقرضة التي خلفت آثارها في الطبقات الجيولوجية هو كبير بشكل مذهل، إذا ما قورن بعدد الأنواع التي لا تزال موجودة.

والصفة البارزة للمحيط الحيوي هي صغر حجمه نسبياً، وضآلة الموارد التي يحتوي عليها، فمن حيث الحدود الأرضية فالمحيط الحيوي رقيق جداً. فحده الأعلى يقابل أقصى ارتفاع في الجو تظل فيه الطائرات، محمولة على الهواء، وحده الأدنى هو العمق الذي يتمكن فيه المهندسون من التعدين أو النقب، وذلك تحت سطح الجزء الصلد منه. فثخن المحيط الحيوي بين هذين الحدين، دقيق للغاية اذا قورن بطول نصف قطر الكرة التي يغلفها كالجلد الرقيق. والكرة هذه أبعد ما يمكن عن أن تكون أكبر السيارات الشمسية، وكذلك كونها أبعد هذه السيارات عن الشمس، هذه السيارات التي تدور حول الشمس في مدارات هي، في الحقيقة، اهليليجية وليست دائرية. فضلاً عن ذلك فشمسنا إنما هي

واحدة من عدد لا يصدق من الشموس التي تكّون كوكبتنا، وهذه نفسها إنما هي واحدة في عدد من الكوكبات التي لا يعرف عددها (فعدد الكوكبات المعروف يتزايد مع كل اتساع في مجال الرؤية للمراقب التي نستعملها). وهكذا فإن أبعادنا في محيطنا الحيوي بالمقارنة مع الأبعاد المعروفة للكون الطبيعي، هي دقيقة الى درجة متناهية.

والمحيط الحيوي ليس من عمر الكرة التي يغلفها الآن. إنه نتوء - يمكن ان يسمى إما هالة او قشرة - ظهر الى الوجود بعد ان بردت قشرة الكرة التي يغلفها، بحيث تم لأجزاء من مركباتها الغازية الأصلية أن تصبح سائلاً ثم تجمّد. يكاد يكون من المؤكد انه المحيط الحيوي الوحيد الموجود الآن في نظامنا الشمسي، ومن المحتمل أنه لم يوجد في نظامنا الشمسي محيط حيوي آخر، أو أنه يمكن ان يوجد في المستقبل. من المحتمل ان شموساً أخرى - ولعلها كثيرة - غير شمسنا لها سيارات، وأن البعض من بين هذه السيارات الممكن وجودها، ما يدور، كما تدور أرضنا، حول شمسه على بعد يمكنه من ان يتكون على سطحه محيط حيوي، على نحو ما عندنا. ولكن فيما لو أمكن، في الحقيقة، وجود محيطات حيوية أخرى، فلا يمكن القول بأنها حتماً مواطن لكائنات حية، كما هي الحال في محيطنا الحيوي. ففي المواطن الممكنة الحياة فيها، ليس من الضروري لهذه الحالة التي نعيشها أن تتحقق.

ان التشكل الطبيعي للمادة المركبة عضوياً قد أصبح الآن معروفاً. ولكن، كما لاحظنا من قبل، نجد ان الوعاء الطبيعي للحياة والوعي والقصد ليس هو الشيء ذاته كالحياة والوعي والقصد. نحن لا نعرف كيف أو لماذا وجدت الحياة والوعي والقصد حول سطح أرضنا. وعلى كل فإننا نعرف أنه بسبب التفاعل بين الأحياء والمادة غير العضوية، قد أعيد توزيع العناصر المادية مكانيا. كما أن هذه العناصر أعيد تركيبها كيماوياً. ونعرف أن إحدى النتائج التي ترتبت على تكون الأحياء « البدائية » كانت تزويد المحيط الحيوي بمصفاة للاشعاع المسلط عليه باستمرار من شمسنا ومن مصادر أخرى خارجية. وبذلك أصبح هذا الاشعاع يدخل محيطنا الحيوي الآن بدرجة من القوة ليست محتملة فحسب، ولكنها صالحة لأنماط من الحياة العليا (إن تعبير « العليا » يقصد به ما كان من أشكال الحياة قريباً من النوع المعروف باسم الانسان العاقل Homo Sapiens - وهو استعمال نسبي وذاتي لكلمة « عليا »).

ونحن نعرف أيضاً أن المادة التي يحتوي عليها محيطنا الحيوي كانت، ولا تزال، في

تبادل أو تداور مستمر بين الأجزاء من هذه المادة التي هي، في لحظة معينة، جامدة وحية. وأن بعض أقسام الجزء الحي، في تلك اللحظة المعينة بالذات هي نبات والبعض الآخر حيوان، وفي القسم الحيواني بعض النماذج غير البشرية والبعض الآخر بشريّ. والمحيط الحيوي يوجد ويبقى حياً بواسطة تنظيم ذاتي وصيانة ذاتية دقيقتين لتوازن القوى. وعناصر المحيط الحيوي يتكل واحدها على الآخر، والانسان يعتمد في صلته ببقية المحيط الحيوي كما يعتمد أي من عناصر المحيط الحيوي الحالية. وعندما يكون ثمة فعل تفكير فإن الكائن البشري يمكنه أن يميز نفسه عن بقية البشرية وعن بقية المحيط الحيوي، وعن بقية الكون الطبيعي والروحي. ومع ذلك فإن الطبيعة البشرية، بما في ذلك الوعي والضمير البشريان والكيان البشري أيضاً ـ هذه الطبيعة البشرية قائمة في المحيط الحيوي. وليس لدينا أي دليل على ان الكائنات البشرية، كأفراد، أو أن البشر بأجمعهم، أمكنهم أن يوجدوا، أو أنهم وجدوا، خارج نطاق الحياة التي يوفرها المحيط الحيوي. وفيما لو فقد المحيط الحيوي إمكانه في أن يكون موطن الحياة فإن البشرية، على حد ما نعرف، تتعرض للهلاك، الأمر الذي سيصيب حينئذ أشكال الحياة جمعاء.

يضاف الى ذلك أن أقرب محيط حيوي محتمل وجوده الى محيطنا (هذا إذا كان وجوده، اضافة الى محيطنا، ممكنا في المنظومة الكونية) قد يكون على بعد مئات الملايين من السنين الضوئية من سيارنا. ففي جيلنا نحن تمكن عدد من البشر من ان يهبطوا على سطح قمر سيارنا، وبعد قضاء فترة قصيرة هناك، أمكن إعادتهم أحياء الى الأرض في كل حالة تقريباً، وقد كان نصراً عظيماً للعلم المعتمد على التكنولوجيا، إلا أنه كان نصراً أكثر روعة للتآلف الاجتماعي، اذا اعتبرنا أنه، الى الآن: كان نجاح الكائنات البشرية في تنظيم علاقاتها بعضها مع البعض الآخر أقل منه في سيطرتها على الجزء اللابشري من الطبيعة. فهذا العمل البارع علمنا بضعة دروس ذات أهمية علمية في تقدير مستقبلنا واختيار سياستنا على الأرض.

إن القمر أقرب الى الأرض من أي نجم آخر، وهو تابع لسيارنا. ومع ذلك فإن إرسال بضعة رجال الى القمر لبضع ساعات اقتضى عملاً مدبراً تدبيراً دقيقاً وتعاوناً بالغاً في الحماسة وقام به بضع مئات من آلاف الكائنات البشرية. واقتضى كذلك إنفاق كميات هائلة من الموارد المادية كما تطلب قسطاً كبيراً من الشجاعة والمقدرة، وهي من أندر وأثمن ما تملكه البشرية. وحتى لو ثبت ان القمر غني في موارده اللازمة للحياة البشرية

غنى الاميركيتين، فإن استغلال هذه الموارد لن يكون مثمراً من الناحية الاقتصادية. فاستعمار أناس من الأرض للقمر استعماراً مستمراً لن يكون عملياً. فالأجسام البشرية لها تركيب طبيعي يمكنها من تحمل جذب الكتلة الأرضية والضغط المعين للغلاف الهوائي المحيط بالأرض، دون أن تشعر هذه الأجسام بأي إرهاق، وتحتاج هذه الأجسام الى طعام بشكل مواد عضوية مختلفة، إما نباتية أو حيوانية، وقد كانت هذه الأمور والضروريات جاهزة في الأميركيتين للأوروبيين لما وصلوهما عبر المحيط الأطلسي في القرن العاشر الميلادي من اسكندنافيا وفي القرن الخامس عشر من اسبانية. وكان التقاؤهم بالبشر الذين سبقوهم الى الاميركيتين واحتلوهما دليلاً على أن تلك الأجزاء الأخرى من الأرض اليابسة لكرتنا كانت مأهولة.

القمر لا يصلح موطناً لأي شكل من أشكال الحياة، والمادة القمرية الوحيدة التي يمكن ان تكون مصدراً للكائنات البشرية هي مادة جامدة، وهي مادة لم تكن قط مادة عضوية ولو مؤقتاً. ولكي يمكن الاستفادة من هذه المادة القمرية فإنه يتوجب ان يقوم بنقلها، من القمر الى الأرض، أناس ينصبون خيامهم على القمر ويعملون هناك حيث تعترض سبلهم أحوال صعبة للغاية. ولن يكون في ذلك ربح، كما كان في حمل التبغ من اميركا الى اوروبة، واستغلال نباتات أخرى - مثل الذرة الصفراء والبطاطا - في أوروبة وآسية. وهذه النباتات كان قد دجنها في أميركا أولئك الذين سبقوا الأوروبيين، والذين كانوا قد وصلوا أميركا من الجهة المقابلة.

مع أنه لا القمر ولا السيارات الشقيقة للأرض - وكلها أبعد عن الأرض من القمر - صالحة لأن تكون موطناً لسكان محيطنا الحيوي، فإنه من الجائز ان يكون لشمس غير شمسنا - ربما تكون شمساً في كوكبة أخرى - سيار قد يصلح لسكنانا. ولكن حتى لو تمكنا من تعيين سيار آخر صالح للعيش فيه، فإنه لن يكون من المتيسر للمسافرين من محيطنا الحيوي الوصول اليه. ولنفرض اننا اكتشفنا كيف نتبع مساراً دون ان ننجذب في طريقنا الى واحد من هذه الأفران المتأججة النيران من الشموس الدائمة الحركة عبر الفضاء، فان الرحلة قد تحتاج الى مئة من السنوات. ومن ثم فإنه يتحتم علينا ان نصنع سفينة فضاء بحيث يتمكن المسافرون فيها من انجاب اولاد يعيشون في السفينة، وينجبون هم الأولاد والأحفاد بدورهم، قبل ان تهبط مركبتنا وتنزل الجيل الثالث أو الرابع. وحتى اذا كان الجيل الواصل هناك يأمل في الحصول على هواء صالح للتنفس وماء مناسب

للشرب وطعام نافع للأكل وضغط جوي وجذب محتملين في هذه البقعة المطابقة لمحيطنا الحيوي، فإن المركبة (وهي فلك نوح مصنوع على طريقة حديثة) التي تنقلهم من محيط حيوي صالح للعيش الى آخر، يجب ان تخزن فيها حاجات أجيال متابعة بحيث تكفيهم لقرن - حاجات من الهواء والماء - يبدو أنه من غير المتوقع ان مثل هذه الرحلة يمكن أن تتم حقاً.

إذن فإن معرفتنا وتجربتنا الحاليتين تشيران الى القول الفصل بأن موطن سكان المحيط الحيوي على سطح الأرض سيظل مقصوراً على هذه الكبسولة التي ظهرت فيها الحياة، على الشكل الذي نعرفه. ومع أنه من المحتمل ان تكون هناك محيطات حيوية أخرى، صالحة لسكان محيطنا الحيوي، فإنه من غير الممكن ان يكون باستطاعتنا الوصول إلى أي منها واستعماره، بحيث ان مثل هذا الاحتمال لا يمكن النظر اليه نظرة عاقلة. هذا الخيال المغرب هو، في الواقع طوباوي.

إذا كنا نستنتج أن محيطنا الحيوي الحالي، الذي كان موطننا الوحيد حتى الآن، هو أيضاً الموطن الطبيعي الوحيد الذي يمكن ان يكون لنا، فمثل هذا الاستنتاج سيحملنا على تركيز تفكيرنا وجهدنا على هذا المحيط الحيوي: على التعرف الى تاريخه، والتفكير بمستقبله، والقيام بكل ما يستطيع الفعل البشري أن يقوم به لنتأكد من ان هذا المحيط الحيوي - والذي هو بالنسبة لنا هو المحيط الحيوي - سيظل صالحاً للعيش الى أن يفقد هذه الخاصية في نهاية المطاف بسبب القوى الكونية الخارجة عن السيطرة البشرية.

إن القوة المادية التي تتمتع بها البشرية قد ازدادت الآن الى درجة قد تجعل المحيط الحيوي غير صالح للسكن، وفي الواقع فإنها ستؤدي الى هذه النتيجة الانتحارية في فترة قصيرة من الزمن، هذا ما لم يقم سكان العالم الآن بعمل مشترك فوري وحازم لوقف التلوث والنهب اللذين يفرضهما على المحيط الحيوي الطمع البشري القصير النظر. وفي الناحية الأخرى فإن قوى البشرية المادية لن تتوقف عن التأكد من ان المحيط الحيوي سيظل صالحاً للسكن ما دمنا نحن نمتنع عن تدميره، ذلك أنه مع أن المحيط الحيوي غير محدود، فهو لا يملك الاكتفاء الذاتي، والأرض الأم لم تتولد فيها الحياة تولداً عذرياً. فقد ظهرت الحياة في المحيط الحيوي نتيجة تلقيح الأرض الأم من أب: آتون إله الفرعون أخناتون، قرص الشمس، وهو الشمس التي لا تقهر، والتي كان أباطرة الرومان الاليريون يقبلون بها من عهد أورليان إلى أيام قسطنطين الكبير.

ومعين المحيط الحيوي من الطاقة الطبيعية - وهو في الوقت ذاته مصدر الحياة ومصدر القوة الطبيعية الكائنة في الطبيعة الجامدة وهي الطبيعة التي سخرها الانسان الآن - لا ينشأ في المحيط الحيوي بالذات. فهذه الطاقة الطبيعية كانت تشع، ولا تزال تفعل ذلك باستمرار، الى المحيط الحيوي من شمسنا، ومن غيرها من المصادر الكونية. ودور المحيط الحيوي في تقبل هذا الاشعاع الذي يأتيه من خارج حدوده لا يعدو ان يكون انتقائياً. لقد ذكر ان المحيط الجوي يصفي الاشعاع الذي يأتيه فيسمح للأشعة المعطية للحياة ويرفض القاتلة، لكن هذا الدور الخير الذي يقوم به الاشعاع من المصادر الخارجية بالنسبة الى المحيط الحيوي سيستمر خيراً ما دامت المصفاة لا تعطل عن القيام بعملها، وما دامت مصادر الاشعاع تبقى ثابتة، وشمسنا مثل كل شمس أخرى في الكون النجمي، يصيبها التبدل باستمرار. ومن المعقول ان هذه التبدلات الكونية - سواء في شمسنا او في نجوم غيرها - قد تُبدِّل، في وقت ما في المستقبل، الاشعاع الذي يتقبله محيطنا الحيوي بحيث يصبح ما هو الآن محيط « حيوي » مكاناً غير صالح للعيش. وفيما إذا، او عندما، يتعرض محيطنا الحيوي لمثل هذه المصيبة، يبدو انه من غير المحتمل أن قوى البشر المادية ستكون كبيرة بحيث تقاوم تبدلاً مميتاً في فعل القوى الكونية.

ولننظر الآن في الأجزاء المركب منها المحيط الحيوي وفي طبيعة العلاقة بينها. هناك ثلاثة أجزاء يتركب منها المحيط الحيوي: أولها مادة لم تصبها الحياة بعد إذ لم يصبها بعد تركيب عضوي؛ ثانيها مادة عضوية حية؛ وثالثها مادة جامدة كانت في وقت من الأوقات حية وعضوية، وهي لا تزال تحتفظ ببعض صفات القوى العضوية. نحن نعرف ان المحيط الحيوي احدث عهداً من السيار الذي يغلفه، ونحن نعرف أيضاً أن الحياة والوعي، في داخل المحيط الحيوي نفسه، لم يكونا موجودين للمدة ذاتها التي كانت المادة التي ارتبطا بها موجودة. والطبقة من المادة التي هي الآن محيط حيوي كانت في وقت ما جامدة ولا واعية كلياً، على ما لا يزال عليه الجزء الأكبر من مادة الأرض الآن. ولا نعرف كيف أو لماذا أصبح جزء من الكيان المادي للمحيط الحيوي في النهاية حياً. كما لا نعرف كيف ولماذا أصبح جزء من هذه المادة الحية واعياً. ونستطيع أن نصوغ السؤال ذاته بالعكس: كيف ولماذا أصبحت الحياة والوعي مجسمين؟ ولكن الجواب، حتى على هذه الصيغة المعكوسة لا يزال يمتنع علينا.

والجزء الذي كان من قبل عضوياً من المحيط الحيوي ضخم الى درجة مدهشة، وقد

زود البشرية ببعض أهم الموارد التي صانت الحياة البشرية. وقد أصبح من المعروف ان الرفوف المرجانية والجزر إنما انتجتها آلاف مؤلفة من الحيوينات التي أضاف كل منها إضافة بالغة في الصغر من الصخر الصناعي الصلب الدائم. والعمل الذي قامت به هذه الحيوينات، عبر الحقب الطويلة، قد أضاف إضافة محسوسة الى الأرض الجافة من المحيط الحيوي التي تصلح لمعيشة الأشكال غير المائية من الحياة. وقد بنت هذه الأحياء الدقيقة، وهي كثيرة وكدودة، مساحة إجمالية من الأرض الجزيرية أكبر مما بنته القوة الجامدة بفعل البراكين. وهذه كانت تباري الحيوينات التي تصنع المرجان في تكويم مادة صلبة تحت الماء حتى تصبح جزيرة تظهر فوق سطح الماء.

إنه من المعروف اليوم أن الفحم الحجري هو نتاج بقايا الأشجار التي كانت حية في وقت ما، وأن التربة الخصبة تستمد جزءا من خصبها عن طريق مرورها بأجسام الدود وعن طريق وجود أنواع من البكتيريا التي تزيد من مقدرة التربة على تغذية النبات؛ إلا أن الرجل العادي تأخذه الدهشة إذا ذكر له جيولوجي ان الصخر الكلسي، الذي تقع عليه العين الآن في الآفاق المشرخة لبعض سلاسل الجبال الحالية في المحيط الحيوي، إنما هو ترسبات قرون طويلة من القواقع والعظام التي خلفتها الحيوانات البحرية التي اختفت في قيعان البحار؛ وأن تلك الترسبات الأفقية من المادة التي كانت حية عضوية إنما تعوّجت - في وقت قريب من أيامنا بحساب الأوقات التي يأخذ بها الجيولوجيون - بسبب تقلص في قشرة الأرض حتى تغضنت هذه المادة واتخذت اشكالها المعوجة الحالية. وقد تزداد دهشة الرجل البادىء إذا قيل له إن الاحتياطي الكبير من الزيت المعدني المخزون في جوف الأرض قد يكون هو أيضاً من مادة كانت عضوية - أي إنه قد يكون أقرب الى الفحم الحجري منه الى الحديد أو حجر الغرانيت: وهاتان المادتان لم تمرّا قط بمرحلة عضوية في تشكل الجزئيات التي تكوّنها.

والحجم المذهل لكمية المادة العضوية سابقاً في المحيط الحيوي تستدعي انتباهنا الى نواح مزعجة في تاريخ الحياة (وهو الذي يسمى خطأ « التطور » وهي كلمة لا تعني التغير الأصيل بل تعني فقط « نشر » شيء كان دوماً موجوداً في حالة كامنة). فقد تباينت الحياة الى أجناس وأنواع، وكل نوع يتمثل في عدد من النماذج. وتعدد الأنواع والنماذج كان الوضع الدافع لتقدم الحياة من الأحياء البسيطة والضعيفة نسبياً الى تلك

المعقدة والقوية نسبياً، ولكن ثمن هذا التقدم الذي تم عن طريق الانقسام والتباين كان المنافسة والصراع. فكل نوع وكل نموذج من كل نوع كان ينافس غيره في سبيل كسب تلك العناصر من المحيط الحيوي، الحي منها والجامد على السواء، التي كانت بالنسبة الى نوع معين والى نماذجه مورد الغذاء، بمعنى انها كانت واسطة ناجعة للحفاظ على الحياة. وقد كانت المنافسة في بعض الحالات غير مباشرة. فقد يبيد نوع، أو نموذج من نوع آخر مثله، لا بالهجوم عليه او استئصاله، بل بأن يستحوذ لنفسه على حصة الأسد من مورد غذاء هو، بالنسبة الى كلا المتنافسين، من ضرورات الحياة. فعندما تتنازع نماذج من أنواع غير بشرية، أي من الحيوان، على الطعام أو الماء او التزواج فالخاسر، على ما هو معروف عنها، يطلب مأوى من الرابح ويحصل على ذلك لقاء خضوعه. ومن المعروف ان الكائنات البشرية هي الحيوانات الوحيدة التي تقتتل فيما بينها حتى الموت، وأنها تثخن قتلاً في نساء « العدو » وأطفاله وشيوخه كما تفعل ذلك بالمقاتلة من الذكور. وهذه الصفة البشرية المميزة من الوحشية كانت تمارس في فيتنام في اللحظة التي كنت أكتب فيها هذه الكلمات في لندن. وقد امتد الاحتفال بها (وبذا نالت اللعنة بدون قصد) في أعمال فنية صنعت خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة: مثال ذلك ملونة نارمر، ونقوش أيناتوم، ونصب نارامن وآثار من تبعه من مضاهيه الأشوريين، والملاحم الهوميرية الإغريقية، وعامود تراجان في روما.

ومن هنا فإن تقدم الحياة كان، على خير ما فيه، طفيلياً، أما في أسوأ حالاته فقد كان سلابياً نهابياً. فمملكة الحيوان كانت، بالنسبة الى مملكة النبات، طفيلية. فالحيوانات (على الأقل الحيوانات غير البحرية) ما كانت لتظهر إلى حيز الوجود لو لم تكن النباتات قد سبقتها إلى الظهور. فكانت بذلك مصدراً يزود الحيوانات بالهواء وبالطعام اللازمين لحياتها؛ وبعض أنواع حيوانات تحافظ على كيانها بقتل أنواع أخرى من الحيوانات وافتراسها، والانسان أصبح من صنف آكلة اللحوم منذ الوقت الذي نزل فيه من ملجأه القائم في الأشجار وغامر على سطح الأرض قاتلاً، أو مقتولاً. أما الفرائس التي دفعت ثمن تقدم الحياة فهي الأنواع التي انقرضت وتلك، التي تمثل الأنواع الباقية المعرضة للتقتيل باستمرار. وقد دجن الانسان بضعة أنواع من الحيوانات (غير البشرية) وذلك ليستحوذ على نتاجها ـ كالحليب والعسل ـ وهي حية، ثم ليقتلها بقسوة ليستعين بلحمها طعاماً، وبعظامها وأوتارها وجلودها وفرائها خامات لصنع الأدوات والثياب.

وقد سطت الكائنات البشرية بعضها على البعض الآخر. فأكل لحوم البشر والاسترقاق عرفتهما مجتمعات متطورة - فكلا الأمرين الفاحشين عرفا في ميزو - أميركا في الزمن السابق لوصول كولمبوس، والرق عرفته المجتمعات اليونانية - الرومانية والاسلامية والغربية الحديثة. فالرقيق هو كائن بشري لكنه يعامل كما لو كان حيواناً أليفاً غير بشري؛ وخلال القرنين الماضيين ظهرت حركة لإلغاء استرقاق الكائنات البشرية. وفي هذه الحركة اعترف ضمنا بالشناعة التي عامل بها الانسان الحيوانات غير البشرية. فضلاً عن ذلك فإن تحرير العبيد القانوني قد لا يؤدي الى تحريرهم واقعياً، ذلك بأن المحرر قانونياً قد يستغل بطريقة فيها معنى العبودية. فالمعمر الروماني من أهل القرن الرابع الميلادي الذي كان حراً اسماً، ومعاصره الروماني كانا أقل حرية في الواقع من رقيق روماني من أهل القرن الأول للميلاد، الذي قد يكون راعياً أو مدبراً لمزرعة للرقيق أو كاتباً (رقيقاً) في حاشية الامبراطور أو مملوكاً مسلماً (ولكن بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعي قد يفتح امامه الطريق ليصبح سيد عدد من المحررين قانوناً أي المعتقين شرعاً، ولكن العتق يشمله هو أيضاً). والسود في الولايات المتحدة الذين حرروا قانوناً في سنة ١٨٦٢ لا يزالون يشعرون الى الآن، وقد مرّ على تحريرهم اكثر من قرن، بأن الغالبية البيضاء من مواطنيهم لا تزال تنكر عليهم حقوقهم المدنية الكاملة، وهم في شعورهم هذا على شيء كثير من الحق.

والبشاعة التي يختص بها البشر والتي هي صائرة الى الزوال بخطى وئيدة هي القتل عن طريق تقديم الضحايا البشرية بشكل طقسي. لقد أدين القتل عندما يكون الدافع اليه الطمع الشخصي او الحقد. والقتل عقاباً للقتل أمر مستنكر باستمرار. ولم يقتصر الالغاء على الثأر الدموي الشخصي، بل تعدى ذلك الى الاعدام الرسمي في بعض الدول المعاصرة. والقتل الطقسي حرم أيضاً في الحالات التي يكون فيها الإله الذي تقدم له الضحية البشرية تجسيماً لأحد المصادر الطبيعية اللازمة للحفاظ على الحياة البشرية - على سبيل المثال المطر والغلات والأنعام. ومع ذلك فإننا نجد: انه منذ ان تفوق الانسان على الطبيعة غير البشرية، أن الآلهة التي عبدت بالتقوى والتعصب والقسوة أكثر من سواها هي الآلهة المجسدة للقوة البشرية المجتمعة المنظمة التي مكنت الانسان من هذا الانتصار على الطبيعة غير البشرية.

إن الدول ذات السيادة كانت، خلال الخمسة آلاف سنة الماضية، أسمى ما يعبد،

وهذه الآلهة هي التي طلبت قرابين كثيرة من الضحايا البشرية ونالتها. فالدول ذات السيادة تحارب واحدتها الأخرى، وتجند في سبيل ذلك خيار مواطنيها الشباب ليقتلوا مواطني الدولة العدو، وبذلك تعرضهم لخطر قتلهم أنفسهم على يد أولئك المفروض ان يكونوا فريسة لهم. وحتى الوقت الذي تعيه ذاكرة الأحياء كانت الكائنات البشرية، باستثناء أقليات ضئيلة ـ مثل أعضاء جمعية الأصدقاء (الفرندز او الكويكرز) ـ تعتبر القتل والسقوط في المعركة أمراً حرياً بالثناء وليس أمراً مشروعاً فحسب. فالقتل في الحرب، مثل القتل لتنفيذ حكم بالاعدام، كل يتغاضى عنه باعتباره ليس قتلاً، وهو أمر فيه من التناقض ما فيه.

فهل كان تقدم الحياة في المحيط الحيوي أمراً يستحق مثل هذا الثمن من الألم الشديد؟ هل الكائن البشري أثمن من الشجرة، وهل الشجرة أثمن من جرثومة الأميبا؟ إن تقدم الحياة أنتج سلسلة متصاعدة من الأنواع، هذا اذا قدرنا التصاعد بمعنى القوة. فالبشرية هي أقوى الأنواع التي ارتقت الى الآن، لكن البشرية وحدها شرّ، فالكائنات البشرية فريدة في مقدرتها على الشر، لأنها الوحيدة التي تملك الوعي لما تفعل ولما تختار بقصد. كان الشاعر وليام بلايك William Blake يرى أن المخلوقات الحية، حسب النظرة التقليدية، هي من صنع إله خالق على صورة الانسان، ومن ثم فقد هاله حقاً أن يخلق النمر. ولكن النمر، على عكس كل من الانسان والاله الخالق الغرضي، بريء. فالنمر الذي يرضي جوعه، عندما يقتل فريسة ويأكلها، لا يتألم من وخز الضمير. وفي الناحية الأخرى فإن الأمر الذي ليس له غاية ولا ضرورة والذي يبلغ الغاية في الاثم هو أن يكون إله قد خلق النمر ليفترس الحمل، وخلق الكائن البشري ليقتل النمر، وخلق الميكروب والفيروس ليحتفظ بنوعه عن طريق قتل الانسان بالجملة.

ومن ثم فإن تقدم الحياة يبدو ـ من النظرة الأولى، شراً. شرّ من الناحية الموضوعية، حتى ولو اطرحنا جانباً الاعتقاد بأن هذا الشر خلقه إله قصداً، فيما لو أنه فعل ذلك متعمداً، لكان هو نفسه أمعن في الشر من أي كائن بشري كان في مقدوره ان يكون شريراً. وعلى كل فهذا الحكم الأولي على آثار التقدم في الحياة يشهد على انه إضافة الى الشر الموجود في المحيط الحيوي، يوجد في هذا المحيط الحيوي ضمير هو الذي يدين ما هو شر ويكرهه.

والضمير مستقر في الانسان. وثورة الضمير البشري ضد الشر دليل على ان الانسان

قادر أيضاً على ان يكون خيراً. ونحن نعرف من التجربة أن الكائنات البشرية بإمكانها ان تتصرف لا أنانياً ولا سعياً وراء غاية، الى حد أنها تضحي بنفسها في سبيل الآخرين. وهي لا تملك القدرة على الفعل فقط، ولكنها أحياناً تفعل ذلك. ونحن نعرف أيضاً أن التضحية بالنفس ليست فضيلة مقصورة على البشر. والباعث المعروف للتضحية بالنفس هو حب الأم لأطفالها، والأمهات من البشر لسن اوحيدات في التضحية بأنفسهن في هذا السبيل. فالتضحية بالنفس على أساس حب الأم لصغارها موجودة في أنواع أخرى من الثدييات، وفي الطيور أيضاً.

فضلاً عن ذلك فإن تلك الأنواع التي تحافظ على نفسها بطريقة التوالد تلقى من نماذجها الحية تعاوناً بين ممثلين للجنسين، وهو تعاون لا تجني الأفراد نفسها منه فائدة مباشرة، بل هو خدمة تقوم بها لمصلحة النوع. وإذا ألقينا على الأمر نظرة شاملة يمكننا أن نرى أن التفاعل بين مختلف أنواع الحياة لا يتخذ دوماً سبيل المنافسة والصراع. ففيما تكون العلاقة بين المملكة النباتية والمملكة الحيوانية: من ناحية، علاقة مضيف مستغل وطفيلي فتاك، نجد، من ناحية أخرى، ان المملكتين تتصرفان كشريكين يعملان في سبيل مصلحة عامه هي الحفاظ على المحيط الحيوي، صالحاً للعيش للنبات والحيوان على السواء. وهذا التفاعل التعاوني هو الذي يضمن، على سبيل المثال، توزيع الأوكسيجين وثاني أوكسيد الكربون ودوراتهما في حركة متواترة تجعل الحياة ممكنة.

وهكذا فإن تقدم الحياة في المحيط الحيوي يبدو أنه يكشف في نفسه عن نزعتين لا أخلاقيتين ومتضادتين. وعندما يستعرض كائن بشري تاريخ المحيط الحيوي الى الآن، يجد انه انتج الشر والخير، والفجور والفضيلة، وهذه كلها، بطبيعة الحال، مفاهيم بشرية. فالكائن الذي يملك الوعي هو الوحيد الذي يمكنه التميز بين الشر والخير، والذي يستطيع الاختيار في أن يتصرف تصرفاً فاجراً أو تصرفاً فاضلاً. فهذه المفاهيم لا وجود لها في المخلوقات الحية غير البشرية، ولذلك فإن الأحكام البشرية هي التي تراها شريرة أو خيّرة.

هل معنى هذا هو أن المقاييس الخلقية يفرضها اعتباطاً أمر بشري، وأن مثل هذا الأمر لا ارتباط له بحقائق الحياة وهو إذن طوباوي؟ لعله كان يتوجب علينا ان نصل الى هذه النتيجة لو ان الانسان لا يعدو ان يكون مشاهداً ومراقباً ينظر الى المحيط الحيوي ويقدره من الخارج. من المؤكد ان الانسان هو مشاهد ومراقب. فهذان الدوران هما نتيجة مقدرته على الوعي، وبالتالي قدرته وحاجته، اللتين لا يمكن التملص منهما لانتقاء

اختيارات خلقية وإصدار أحكام خلقية. ولكن البشرية هي أيضاً فروع من شجرة الحياة؛ ونحن أحد منتوجات التقدم في الحياة. وهذا يعني ان ما عند الانسان من مقاييس وأحكام خلقية هي ذاتية وملازمة للمحيط الحيوي. ومن ثم فهي كذلك بالنسبة للحقيقة الكلية التي يكون المحيط الحيوي جزءا منها. وإذن فالحياة والوعي والخير والشر ليس أقل في حقيقتهم من المادة المقترنة بهم بشكل غامض في إطار المحيط الحيوي. وإذا كنا نخمّن ان المادة عنصر فطري من الحقيقة. فليس هناك سبب للقول بأن هذه المظاهر غير المادية للحقيقة ليست عنصراً فطرياً كذلك.

وعلى كل حال ففي تقدم الحياة في المحيط الحيوي نجد ان الوعي ظهر في زمن حديث بالنسبة الى ظهور الانسان، وقد أدركنا، إدراكاً متأخراً ومفاجئاً، أن وجود الانسان يهدد الآن صلاحية المحيط الحيوي للعيش لكل أشكال الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية نفسها. فالى الوقت الحاضر أدت المنافسة والصراع، اللذان كانا وجهاً من وجوه تقدم الحياة الى انقراض عدد من أنواع الكائنات الحية كما ابتليا بنماذج لا تحد أعدادها من كل الأنواع بالموت السابق لأوانه وكان موتاً عنيفاً ومؤلماً. وقد دفعت البشرية ضريبة من الضحايا البشرية من ابنائها اضافة الى انها وجهت ضربات قاتلة لأنواع مزاحمة لها من الضواري وأبادت عدداً من أنواع النبات، حتى أسماك القرش والبكتيريا والفيروس لم يعد باستطاعتها ان تكون أنداداً لخصومها من البشر. وعلى كل فإن القضاء على أنواع خاصة ونماذج فردية من بعض الأنواع لا يظهر انه يحمل في طياته تهديداً لاستمرار الحياة بالذات، حتى يومنا هذا. فحتى الآن، كان فناء بعض الأنواع من الأحياء يتيح الفرصة لأنواع أخرى بأن تترعرع.

وقد كان الانسان أبعد الأنواع نجاحاً في التحكم في أجزاء المحيط الحيوي الأخرى، الحية منها والجامدة على السواء. ففي فجر وعيه وجد الانسان نفسه تحت رحمة الطبيعة غير البشرية فصمم على ان يجعل من نفسه سيداً للطبيعة غير البشرية، وقد تقدم بتؤدة نحو بلوغ هذا الهدف. ففي غضون العشرة آلاف السنة الماضية تحدى الانسان الانتخاب الطبيعي واستعاض عنه بالانتخاب البشري، بقدر ما كان ذلك في مقدوره، فشجع بقاء النباتات والحيوانات التي دجنها لحاجته الخاصة. وعمل على إبادة بعض الأنواع الأخرى التي وجدها بغيضة وضارة، وقد سمى هذه الأنواع غير المرغوب فيها أعشاباً وحشرات، وباعطائه إياها هذه الأسماء المزدراة فقد أنذرها بأنه عازم على بذل جهده لابادتها. وبقدر

ما نجح الانسان في الاستعاضة بالانتخاب البشري عن الانتخاب الطبيعي فقد أنقص عدد الأنواع الباقية.

على أنه في غضون المرحلة الأولى من وجوده، وهي التي كانت الى الآن أطول مرحله، لم يترك الانسان على المحيط الحيوي طابعاً يقارب في الأثر الطابع الذي تركته الكائنات الحية المعايشة له من الأنواع الأخرى. إن أهرام الجيزة وأهرام تيوتيهوا كان والجبال التي بناها الانسان في تشولولو وسكاي تجعل الهياكل والكاتدرائيات وناطحات السحاب التي شادها فيما تلا من العصور تبدو شيئاً صغيراً. ولكن أضخم الآثار التي أقامها الانسان هي ضئيلة اذا قورنت بعمل الحيوينات التي بنت الجزر المرجانية.

منذ فجر المدنية، قبل نحو خمسة آلاف سنة، وعى الانسان القدرة الفائقة التي آلت اليه في المحيط الحيوي. وقبل بدء الحقبة المسيحية كان قد اكتشف أن المحيط الحيوي هو غلاف « محدود » يحيط بسطح نجم هو الكرة الأرضية. ومنذ القرن الخامس عشر والأوروبيون يستولون على أجزاء المحيط الحيوي الأرضية التي كانت من قبل قليلة السكان ويستوطنونها. ومع ذلك فإن البشرية كانت، حتى الجيل الحاضر، تتصرف كما لو أن المخزون من موارد المحيط الحيوي والتي هي غير قابلة للتعويض - مثل المعادن - غير قابل للنفاذ، وكما لو أن البحر والهواء غير قابلين للتلوث.

وفي واقع الأمر فإن عناصر المحيط الحيوي كانت تبدو، حتى الى قبل فترة قصيرة، غير محدودة، إذا قيست بمقدرة الانسان على استهلاكها او تلويثها. في حداثتي (أنا مولود سنة ١٨٨٩) كان يعتبر من الوهم حتى ان يتخيل المرء أن الانسان قد يملك من القدرة ما يمكنه من تلويث كل الجو المغلف للمحيط الحيوي، مع انه في لندن، حيث ترعرعت ومانشستر وسانت لويس وفي عدد من المدن التي كانت تتضخم باستمرار - في هذه كان الدخان المتصاعد من إحراق الفحم الحجري في المنازل والمصانع ينتج الضباب الذي كان يحجب نور الشمس ويختنق به البشر أياماً طويلة. مثل هذا الخطر الذي كان يهدد نقاء الجو كان يصرف النظر عنه على أنه لا يزيد عن إزعاج محلي وعابر. أما احتمال تلويث البحر بسبب النشاطات البشرية فقد كان ينظر اليه على أنه وهم في غاية السخف.

وفي حقيقة الأمر فإن البشرية كانت، الى الربع الثالث من القرن العشرين الميلادي، تقلل من أهمية التزايد الحديث في قدرتها على التأثير على المحيط الحيوي. وقد نتج هذا

التزايد عن تحولين جديدين: أولهما متابعة البحث العلمي المنظم الهادف، وتطبيق هذا على تقدم التكنولوجيا، وثانيهما تسخير الطاقة الطبيعية، الظاهرة او المسترة، الموجودة في العناصر الجامدة في المحيط الحيوي، في خدمة الأغراض البشرية. وعلى سبيل المثال الطاقة المائية التي تجري دوماً في اتجاه سفلي نحو البحر، بعد ان تكون قد حملت من سطح البحر الى الجو. فهذه القوة المائية المنحدرة بقوة الجذب، والتي كانت لا تستعمل من قبل إلا لطحن الحبوب، أصبحت منذ بدء الثورة الصناعية في بريطانية، قبل مئتي سنة، تسخر لإدارة الآلات التي تقوم بصنع أصناف عدة من السلع المادية. وقد صعدت قدرة القوة المائية الى درجة أكبر من الفاعلية لما حولت الى قوة بخارية وقوة كهربائية. ومن الممكن توليد الكهرباء من القوة الطبيعية للشلالات الطبيعية او المصطنعة، لكن الماء لا يمكن تحويله الى بخار دون ان يسخن وذلك بإحراق الوقود. والوقود استعمل لا في سبيل تحويل القوة المائية الى قوة بخارية وقوة كهربائية فحسب، ولكن في سبيل الاستعاضة بالوقود عن استعمال القوة المائية نفسها حتى في أكثر حالاتها فعالية. وفضلاً عن ذلك فإن الفحم الذي يمكن سد النقص في كميته من الحطب، قد استعيض عنه بوقود لا يمكن ان يعوض: الفحم الحجري والزيت المعدني وفي النهاية اليورانيوم.

اليورانيوم، وهو أحدث المستغلات من الوقود يطلق طاقة ذرية. ولكن الانسان في محاولته تسيير هذه القوة الجبارة بدأ، منذ سنة ١٩٤٥، السير في مغامرة انتهت بشكل مميت لما حاول نصف الإله الأسطوري فيتون ان يغتصب مركبة الوالد المقدس الشمس. فإن خيل مركبة هيليوس (الشمس) خرجت عن الخط المرسوم لها لما أحست بأن الأعنة أصبحت في أيدي كائن بشري ضعيف، فاندفعت خارج مسارها الصحيح، وقد كان من الممكن ان يتحول المحيط الحيوي الى رماد لو ان زفس لم ينقذه من الدمار، وذلك بضرب الكائن البشري المجترىء، الذي حاول ان يكون بديلاً للشمس، بصاعقة قاصفة. وأسطورة فيتون هي قصة رمزية للخطر الذي عرض الانسان نفسه له لما جرب اللعب بالطاقة الذرية، وسنرى فيما اذا كان الانسان سيتمكن من الافادة من هذه القوة المادية الهائلة دون الوقوع في شرها. ان قوتها لم يسبق لها مثيل في العظم، ولكن مثل ذلك يقال أيضاً عن الخطر الساء الناشىء عما يعقبها من الإشعاع الذري. وها هو الانسان قد تدخل الآن في الطريقة التي كان المحيط الحيوي - وهو الأرض الأم للحياة - يلقح بها الاشعاع الشمسي في حدود هي نافعة للحياة، لا قاتلة لها. وهذا

النجاح المنذر بالشر للتكنولوجيا العلمية البشرية، اضافة الى النتائج الأصغر للانجازات السابقة التي قامت بها الثورة الصناعية هي التي تهدد بجعل المحيط الحيوي مكاناً غير صالح للعيش.

وهكذا فإننا نقف الآن عند نقطة حاسمة في تاريخ المحيط الحيوي وفي التاريخ الأقصر زمناً لواحد من منتوجاته والدخلاء عليه أي البشرية. فالانسان كان أول واحد من أبناء الأرض الأم الذي أخضع أم الحياة وانتزع من أيدي موجد الحياة، أي الشمس، الزخم المخيف للقوة الشمسية. وقد أطلق الانسان الآن العنان لهذه القوة، عارية ودون قيد، وذلك للمرة الأولى منذ أن أصبح المحيط الحيوي مكاناً صالحاً للعيش. ولسنا ندري اليوم فيما اذا كان الانسان سيكون مستعداً او قادراً على أن يجنب نفسه وما يرافقه من الكائنات الحية، المصير المحتوم الذي انتهى اليه فيتون.

والانسان هو أول نوع من الكائن الحي في محيطنا الحيوي الذي اكتسب القوة التي تمكنه من تحطيم المحيط الحيوي، وبتحطيمه يقضي على نفسه. والانسان، باعتباره كائناً حياً يعاني من الاضطراب النفسي، خاضع لقانون لا يتبدل من قوانين الطبيعة، والذي تخضع له أيضاً كل الأشكال الأخرى من الحياة. فالانسان، مثل كل مرافقيه من الكائنات الحية من كل الألوان، هو جزء لا يتجزأ من المحيط الحيوي، فإذا أصبح المحيط الحيوي غير صالح للعيش، فالانسان ينقرض، كما تنقرض كل الأنواع الأخرى.

كان باستطاعة المحيط الحيوي ان يحتضن الحياة لأنه كان تجمعاً تتسق الحركة فيه بين الأجزاء الأصلية المتممة لبعضها البعض. ولم يحدث قط، قبل ظهور الانسان، أن أياً من أجزاء المحيط الحيوي الأصلية هذه ـ العضوية والعضوية سابقاً وغير العضوية ـ اكتسب القوة التي تمكنه من الاخلال بهذا التوازن المضبوط بدقة، والذي كان ينظم تفاعل القوى بحيث أصبح المحيط الحيوي موطناً للحياة. وأنواع الكائنات الحية السابقة للبشر، والتي كانت إما عاجزة عن المحافظة على الانسجام مع الحياة أو أنها كانت معادية له، قد انقرضت بفعل هذا الاتزان، وبوقت طويل قبل ان يتاح لضعفها او لعدوانها حتى من ان يقترب الى حد تهديد التوازن الذي كانت تعتمد عليه حياتها وحياة الأنواع الأخرى جمعاء. فقد كان المحيط الحيوي أقدر من أي من مخلوقاته السابقة للبشرية.

والانسان هو أول مخلوقات المحيط الحيوي الذي هو أقوى من ذلك المحيط نفسه. واكتساب الانسان الوعي مكنه من التخيير في الأمور، ومن ثم من وضع الخطط

وتنفيذها بحيث تحول دون الطبيعة ودون إهلاكه كما أهلكت الأنواع الأخرى التي كانت مصدر إزعاج وخطر للمحيط الحيوي فإنه سيقضي على نفسه كما سيقضي على كل أشكال الحياة المضطربة الموجودة على سطح أم الحياة، الأرض.

من هذه النقطة يمكن إذن ان نطلق للقيام باستعراض رجعي، نصل فيه الى هذا اليوم، لتاريخ الصدام بين الأرض الأم والانسان، الذي هو أشد بأساً وأكثر غموضاً من أبنائها جميعاً. أما الغموض فيقوم على لحقيقة المبهمة وهي أن الانسان هو وحده من سكان المحيط الحيوي الذي يقيم في مجال آخر أيضاً ـ مجال روحي، هو غير مادي وغير منظور. في المحيط الحيوي الانسان كائن مضطرب نفسياً وهو يتصرف في عالم هو مادي ومحدود، وعلى هذا المستوى من انشاط البشري كان هدفه، منذ ان اكتسب الوعي، أن يسود بيئته غير البشرية، وقد كاد ان ينجح في هذه المحاولة في يومنا هذا ـ ومن المحتمل ان يكون دماره في ذلك. ولكن بيت الانسان الآخر، العالم الروحي، هو أيضاً جزء أساسي من الماهية الكلية، وهو يختلف عن المحيط الحيوي في أنه غير مادي وغير محدود، وفي حياته هذه في العالم الروحي يجد الانسان ان رسالته هي أن لا يبحث عن سيادة مادية لبيئته غير البشرية بل لسيادة روحية على نفسه. وهاتان المتناقضتان، والمثلان الأعليان المتباينان اللذان يحفزانه الى تينك الغايتين قد وضح أمرهما في متون مشهورة. والتوجيه الكلاسيكي الذي يدعو الانسان الى التحكم في المحيط الحيوي موجود في العدد ٢٨ من الاصحاح الأول من سفر التكوين:

« وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض ».

والتوجيه صريح وقوي، ومثل ذلك نجد ان الرد عليه صريح وقوي. فقولنا « لا تدخلنا في التجربة ولكن نجنا من الشرير »، يبدو كأنه جواب مباشر للتوجيه الوارد في سفر التكوين. وقد سبق العهد الجديد الى ذلك تاوته تشنغ Tao té Ching في قوله بأن إنجازات الانسان التكنولوجية والتنظيمية إنما هي شرك لاصطياده:

كلما ازدادت الأسلحة الحادة،
تزداد الأرض كلها انغماساً في الظلام
وكلما ازداد عدد الصناع الحاذقين
تزداد الآلات المتلفة التي تخترع.

كلما ازدادت القوانين التي تشرع،
يزداد عدد اللصوص وقطاع الطرق.
شد القوس الى النهاية،
وستمنى لو أنك توقفت في الوقت المناسب.

وقد ينتهي الأمر الى القول بأنه مع وجود آلات مع الناس تقتضي عملاً عشر مرات او مئة مرة أقل، فإنهم لن يستعملوها... وقد يكون هنك بعد قوارب وعربات ولكن أحداً لن يدخلها، وقد يكون هناك أسلحة للقتال ولكن لن يتدرب عليها أحد. وهذه النبذ المأخوذة من تاوته تشنغ لها ما يقابلها في إنجيل متى:

« ولماذا تهتمون باللباس. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ولا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها ».

هذه تكون ردا على الدعوة التي تحملنا على وقف أنفسنا على تجميع القوة والثروة. إنها تنفي الجو لدعوتنا الى التعلق بمثل أعلى مناقض لذلك تماماً.

« ودعا الجمع مع تلاميذه وقال لهم من أراد أن يأتي ورائي فليتكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي ومن أجل الانجيل فهو يخلصها، لأنه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه؛ لأن من استحى بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطىء فان ابن الانسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين » (الانجيل).

إذا فقد الكائن البشري روحه، فإنه يفقد انسانيته، ذلك بأن جوهر الكيان البشري هو إدراك لوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية، والكائن الحي إنما يتصل بهذا الوجود الروحي، بوصفه روحاً لا بوصفه حياً مضطرباً نفسياً، وقد يكون حتى توأماً للوجود الروحي على ما يعرف من تجربة المتصوفة.

وبسبب أنه يعيش في وقت واحد في المحيط الحيوي وفي العالم الروحي، فالانسان، كما دعاه السير توماس براون Sir Thomas Brown بدقة هو حقاً حيوان برمائي، وفي كل من الوضعين، حيث يشعر أنه منسجم مع الوضع، يكون له غاية خاصة، ولكنه لن يتمكن من متابعة كل من الغايتين او ان يخدم كلا من السيدين، بإخلاص تام. فلا بد لواحدة من الغايتين ولواحد من الولاءين من أن يحظى بمكانة سامية، بل انه قد

يحظى بتفان مطلق اذا اتضح ان الاثنين (أي الغايتين او الولاءين) متنافيان وغير قابلين للتوفيق فيما بينهما.

فأي البديلين يختار؟ كانت المناقشة حول هذه المسألة صريحة في الهند في زمن بوذا، حول منتصف الألف الأول قبل الميلاد. وقد كانت صريحة في زمن القديس فرنسيس الأسيزي في القرن الثالث عشر للميلاد. وفي الحالتين انتهى الأخذ باختيارين متضادين الى اختلاف المسيرة بين الأب وابنه. ولعل القضية كانت تناقش بصراحة منذ فجر الوعي، ذلك بأن واحدة من الحقائق الأليمة التي يظهرها الوعي واضحة للكائن الحي وهي التكافؤ الخلقي في الطبيعة لبشرية. وعلى كل فإن الناس كانوا يتجنبون في أكثر الأوقات والأمكنة حتى يومنا هذا، البحث على المكشوف في المسألة التي حملت بوذا والقديس فرنسيس، كلا بدوره، على ان يقطع الصلات الطبيعية التي كانت تربطهما بأسرتيهما. وفي عصرنا فقط أصبح الاختيار أمراً لا مفر منه للبشرية ككل.

ففي عصرنا نجد أن سيادة الانسان التامة على المحيط الحيوي بأكمله تهدد بإحباط نوايا الانسان وذلك بتحطيم المحيط الحيوي والقضاء على الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية نفسها. ومنذ القرن الثالث عشر والانسان الغربي يكرم علماً فرنسيسكو برناردوني، القديس الذي تخلى عن إرثه من تجارة عائلية مربحة جداً، والذي كوفيء على تمسكه بالفقر بأن ظهرت على جسمه العلامات (آثار المسامير) التي ظهرت على جسم السيد المسيح. ولكن المثال الذي احتذاه الانسان الغربي لم يكن مثال القديس فرنسيس، فالانسان الغربي قلد أباه، بيترو برناردوني، التاجر الناجح الذي كان يتاجر بالأقمشة بالجملة. ومنذ بدء الثورة الصناعية جند الانسان الحديث نفسه، على نحو مَلَكَ عليه نفسه أكثر من أي من أسلافه، في تتبع الغاية التي وضعها نصب عينيه، اي الفصل الأول من سفر التكوين.

يظهر أن الانسان لن يستطيع إنقاذ نفسه من الدمار الذي تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير نفسه كليا بحيث يحفزه ذلك الى ان يتخلى عن غايته الحالية، ويعتنق المثل الأعلى المخالف لذلك تماماً. فورطته الحالية، والتي أوقع نفسه فيها،وضعت أمامه تحدياً حاسماً. فهل باستطاعته ان يقبل، باعتباره إنساناً عادياً في مقدرته الخلقية، القواعد التي يدعو إليها ويطبقها القديسون، على أن تكون هي لهذا الانسان القواعد الاساسية العملية للسلوك، (وهي القواعد التي اعتبرت الى الآن نصائح

طوباوية تؤدي الى الكمال)، صالحة للانسان العادي الشعور؟ إن المناظرة حول هذه القضية التي طال عليها الزمن، والتي يبدو كأنها تكاد تبلغ نهاية تصعيدها في يومنا هذا، هي الموضوع الذي يتناوله التأريخ للصدام بين البشرية والأرض الأم، وهو هذا التأريخ الموضوع بين يديك.

٢ـ تحدّر الانسان

ثمة على الأقل ثلاثة معان يمكن ان تستعمل لكلمة « تحدّر » بالنسبة الى كلمة الانسان. فقد هبط أسلافنا من العيش عاليا على الأشجار الى الأرض، وهذا هو المعنى الطبيعي الحرفي للكلمة. وهم متحدرون أيضاً، من حيث الأصل الحيوي، من أشكال من الحياة هي سابقة للبشر. وهناك من يرى ايضاً (مع ان هذه الفكرة موضع خلاف) انهم انحطوا خلقياً لما استيقظ الوعي فيهم.

من المؤكد انه ليس ثمة ما يبرر الاستعمال الثالث لكلمة « تحدّر ». صحيح ان الكائن الواعي يمكن ان يكون شريراً، بينما لا يمكن للكائن غير الواعي ان يكون كذلك. لكن العجز عن ان يكون الكائن شريراً لا يقابله، بالضرورة، ان يكون فاضلاً، والكائن الواعي يمكن ان يكون فاضلاً، اضافة الى احتمال ان يكون شريراً، والكائن غير الواعي يمكن ان يكون فاضلاً، أو شريراً. إذ بالنسبة الى الكائن غير الواعي ليس ثمة تمييز خلقي بين الشر والخير، ولا يمكن أن يوجد، فالأخلاق ظهرت في المحيط الحيوي لأول مرة مع الوعي، والوعي والأخلاق يكونان، مجتمعين، نمطاً للوجود ـ النمط الروحي ـ لم يكن ممثلاً في المحيط الحيوي من قبل. ومن ثم فليس ثمة اساس للمقارنة بين الانسان وأسلافه غير الواعين من حيث النواحي الأخلاقية. من الممكن المقارنة بين الانسان وأسلافه على المستوى البيولوجي، وعلى هذا المستوى من الممكن التعرف الى انتسابه اليهم وتتبع ذلك، ولكن ليس ثمة أساس مشترك بينه وبينهم على المستوى الخلقي لأن هذا المستوى موجود بالنسبة الى الكائنات الواعية فقط.

على المستوى الخلقي نجد أن أبرز ناحية وأكثرها إبهاماً في الطبيعة البشرية هي امتداد السلسلة الخلقية عند الانسان. فمجال إمكاناته الخلقية بين القطبين الممثلين للسلوك الشيطاني والقداسة هي ناحية من الحياة البشرية لا تقل غرابة عن البعد الخلقي ذاته.

والناحيتان كلتاهما خاصتان بالانسان من دون جميع المخلوقات الموجودة في المحيط الحيوي. اما وقد امتلك الانسان القدرة على تحطيم المحيط الحيوي، فليس لدينا ما يؤكد انه لن يقترف هذا الجرم الانتحاري؛ إننا لا نستطيع أن نجزم أيضاً أنه لن ينقذ المحيط الحيوي من حالة الطبيعة التي يقوم فيها، حتى الآن، خلاف بين المحبة والصراع وهو خلاف لا ينتهي الى نتيجة. من المعقول ان الانسان، بدل أن يحطم المحيط الحيوي ان يستعمل سلطته على المحيط الحيوي لتبديل الحالة الطبيعية هذه بحالة النعمة حيث تسود المحبة. إن شيئاً كهذا ينقل الحياة من جحيم الى مجتمع قديسين.

عندما نتناول كلمة تحدر بمعناها الحيوي فإنها تجابهنا بسؤال حول عمر الجنس البشري. من حيث الظاهر ثمة فكرة مقبولة وهي ان الانسان مجايل لكل الأنواع الأخرى من الكائنات الحية التي لا تزال باقية، بل وفي الواقع فإنه مجايل للحياة نفسها، لأنه مع ان التطور بدأ بالتباين، فإن الأنواع المختلفة التي أنتجها هذا التباين مرتبطة بعضها بالبعض الآخر مثل أغصان شجرة واحدة وكلها تستمد من جذر مشترك. وإذا بحثنا في تاريخ تكوين الانسان بشكل متميز، فإننا سنفرد جانباً التاريخ الذي تفرعت فيه فصيلة الاحياء الشبيهة بالانسان عن غيرها من الفصائل في رتبة الحيوانات العليا من الثدييات. هذا التفرع في الطرق الحياتية يعين نقطة اللارجوع. فبالنسبة للأحياء الشبيهة بالانسان فقد قطعت عليها الطريق لأن تصبح من نوع الهيلوباتيد (hylobatidae) (مثل الغبون) او من نوع البونغيدا (pongidae) (مثل الأوران - أو تانغ أو الشمبانزي أو الغوريلا). فلما تجاوز الأب الأول للأحياء الشبيهة بالانسان نقطة التفرع هذه، وتجاوزها باتباعه طريق الأحياء الشبيهة بالانسان، لم يبق أمام هذه الأحياء إلا أحد احتمالين بديلين: فأما ان تصبح بشرية او انها تعجز عن البقاء. وفي واقع الأمر فإن الصنف الوحيد الذي استمر في البقاء من فصيلة الأحياء الشبيهة بالانسان هو الانسان، والنوع الوحيد الذي استمر من الجنس البشري هو الانسان العاقل (وهي تسمية فيها الكثير من المديح المبالغ فيه، وقد ألصقها بنفسه هذا النوع الوحيد المستمر من الأحياء الشبيهة بالانسان وفيها الكثير من خداع النفس الساذج). فإذا حسبنا ان الانسان قديم قدم الزمن الذي أصبح فيه متعذراً على أجدادنا ان يصبحوا شيئاً آخر سوى بشر، هذا اذا ارادوا ان يستمروا في البقاء، فإن هذا يعني ان الانسان قد نشأ على شكل متميز من أشكال الحياة، في الحقبة

الوسطى، ومعنى هذا هو أن الانسان قد مرّ على وجوده حتى اليوم، بين عشرين مليوناً وخمسة وعشرين مليوناً من السنين.

هل من الممكن ان نعين تاريخ البشرية بشكل أدق عن طريق واحدة أو أكثر من خصائص الانسان التشريحية المميزة أو عاداته وانجازاته المتميزة؟ هل يمكن القول بأن أجدادنا أصبحوا بشراً لما انحدروا من الأشجار الى الأرض؟ أو لما اكتسبوا القدرة على المشي والركض معتمدين على زوج واحد من الأطراف للحركة، وبذلك حرروا الزوج الآخر لاستعمال الأدوات؟ أو لما نمت أدمغتهم لا من حيث انها أصبحت أكبر حجماً من بقية الأحياء الشبيهة بالانسان فقط، بل أصبحت اكثر تنظيماً بمعنى ان عدد الأساليب البديلة التي يمكن لخلايا الدماغ ان تستعملها في الاتصال فيما بينها ازداد زيادة كبيرة؟ أو هل بإمكاننا ان نؤرخ لتكون الطبيعة البشرية بالنسبة الى الوقت الذي حققت فيه إنجازات معينة مثل التجمعات او مثل اللغة (أي نظام للأصوات يحمل في طياته معاني يفهمها جميع أعضاء الجماعة، مغايرة لمجموعة من الهتافات التي تدل على التأثر)؟ أو هل ان بروميثيوس جعل من أجدادنا بشراً إذ علمهم كيف يحتفظون بالنار مشتعلة وكيف يستعملونها في التدفئة والطبخ وذلك دون أن يحرقوا أصابعهم، وكيف يمكنهم ان يشعلوها بدل ان يرتعبوا من هذه القوة التي بالامكان ان تكون نافعة، لكن بإمكانها ان تكون أيضاً خطرة ومخربة؟

والجواب، بالتأكيد هو أن الحادثة التي تؤرخ لظهور الطبيعة البشرية في المحيط الحيوي ليست تطور خاصية تشريحية، ولا هي تحقيق إنجاز ما؛ الحادثة التاريخية هي استيقاظ وعي الانسان، وتاريخ هذه الحادثة يمكن ان يستنتج فقط من البقايا المادية التي خلفها أجدادنا (مثل العظام والأدوات). وليس هناك، ولم يكن من الممكن ان يوجد، إدراك معاصر لهذه التجربة، ومن ثم فلم يكن من الممكن ان تدون. فالكائن البشري يدرك انه مستيقظ عندما يكون مستيقظاً فعلاً، ولكنه لا يستطيع أن يحس بنفسه إحساساً واعياً إما أنه في سبيل اليقظة او في طريق النوم. وإذن فليس بإمكاننا ان نفعل شيئاً سوى ان نخمن تاريخ يقظة الوعي في الانسان في حدود تطوره التشريحي واكتسابه منجزات اجتماعية وتكنولوجية معينة.

وإذا أخذنا بالاستنتاج من استمرار أجدادنا بالبقاء بعد نزولهم من ملجأهم على الأشجار الى الأرض الخطرة نسبياً، فقد نخمّن أنهم في ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا

حيوانات اجتماعية او انهم كانوا على الأقل في سبيل ان يصبحوا كذلك أثناء عملية تغيير مسكنهم. ذلك بأن الأحياء الشبيهة بالانسان إذا كانت متفرقة تكون معرضة، على سطح الأرض، لأن تصبح فريسة سهلة للمفترسة من الأحياء غير الشبيهة بالانسان، والتي لم يكن أجدادنا عندها قادرين على مقاومتها إن لم يتحدوا. ومن المؤكد ان الانسان قد أصبح حيواناً إجتماعياً قبل ان يخترع اللغة؛ ولكن اختراعه للغة قد يكون حادثة أحدث عهداً من اكتسابه للتجمع؛ ذلك بأنه ثمة أصناف أخرى من الحيوانات الاجتماعية (مثل الحشرات الاجتماعية) التي تتواصل فيما بينها بصورة مجدية للحفاظ على التعاون الاجتماعي اللازم دون ان يكون لها لغة صوتية. فالنحل، على سبيل المثال، يبدو وكأنها توصل الأخبار والتعليمات واحدها الى الآخر بتهريج طبيعي، الأمر الذي يمكن ان نصفه بأنه رقص، فيما لو كان النحل أحياء بشرية.

أما فيما يتعلق بتحرير الأيدي بحيث يمكن استعمالها لغير حاجة الحركة، واستكمال الدماغ فلنا ان نخمن ان تطور اليدين والدماغ كانا متعاصرين وأنه، في كل مرحلة، كان هناك تفاعل بينهما، الأمر الذي أعان على تطور كل منهما. ويجوز لنا ان نخمن أيضاً أن تطور هذين العضوين المتفاعلين معاً كان الوضع التشريحي الذي يسّر للانسان ان يستيقظ وعيه. فالانسان كان ولا شك واعياً لما تغلب على الخوف من النار، وهو الخوف الذي لا يزال يساور أنواعاً عدة من الحيوانات غير البشرية اللامدجّنة. وما كان الانسان يخشى النار التي تشتعل تلقائياً لما كان قد اكتشف كيف يحتفظ بها مشتعلة، وأن يستعملها، وأخيراً أن يشعلها صناعياً.

وهل نستطيع ان نؤرخ لفجر الوعي في حدود الحقب الجيولوجية أو حتى، بشيء من القحة، في حدود سنوات قبل الميلاد؟ إن محاولة تأريخه تزداد صعوبة إذا خمّنا ـ ويبدو ان هذا التخمين معقول ـ ان الأمر كان عملية تدريجية قد تبدو سريعة، إذا قسناها بحدود المقياس الزمني الجيولوجي ولكنها احتاجت دهوراً في حدود المقياس ـ الزمن بالنسبة الى التاريخ المدون (وهو تدوين لم يتجاوز تقييده نحو خمسة آلاف سنة على ما نعرف الى الآن). ونحن واثقون من ان الفرع الوحيد المستمر الى الآن من نوع الجنس البشري هو الانسان العاقل، على ما سمى هو نفسه، وأن هذا الانسان لم يكن الفرع الوحيد من الأحياء الشبيهة بالبشر الذي كان يتمتع بالوعي. فمن الآراء المقبولة ان الانسان النيندرتالي Neanderthal Man كان يتخلص من موتاه بطريقة شعائرية، بدل

ان يعتبر جثثهم كأنها أقذار. واذا كان هذا الدليل مقنعاً فمعنى هذا ان الانسان النيندرتالي، كان يشترك مع الانسان العاقل في الفكرة القائلة بأن الطبيعة البشرية لها كرامة لا تنتشر بين بقية أشكال الحياة.

ويبدو أن الانسان النيندرتالي استمر بقاؤه الى فترة الانتقال من العصر الحجري القديم المبكر الى العصر الحجري القديم المتأخر اي الى قبل ما بين ٧٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ من السنين. بل ثمة دلائل تشير الى وجود مجتمعات مختلطة من الانسان النيندرتالي والانسان العاقل؛ وإذا وجدت هذه المجتمعات فمن المحتمل أن هذين الضربين من الأحياء البشرية كانا شبيهين الى حد انهما توالدا فيما بينهما، كما تتوالد جميع ضروب الانسان العاقل. وإذا كان الأمر كذلك فإن الانسان النيندرتالي والانسان العاقل يمكن اعتبارهما نوعين متفرعين من نوع واحد. وعلى كل حال فان إنسان بكين Peking Man، الذي يخمن بأن تاريخه يعود الى نحو نصف مليون من السنين، يجب ان يعتبر أنه نوع مختلف؛ وإذا صح ان إنسان بكين كان يحذق في استعمال النار، فإن وعيه كان قد تقدم كثيراً. ولا بد ان بريقاً من الوعي كان لازماً كي يفكر الحي في ترقيق الحجارة ليصبح استعمالها كأدوات أكبر أثراً من استعمال الأشياء الطبيعية غير المحورة. وصنع الأدوات بواسطة ترقيق الحجارة يعزى الى الانسان الاسترالي البدائي - وهو حي شبيه بالبشر ويخمن تاريخه على انه كان قبل مليونين او ثلاثة ملايين من السنين. وهذا الانسان الاسترالي البدائي يصنف على انه شبيه بالبشر لا على انه انسان Homo، وليس من المؤكد أنه هو جدّ الانسان هذا. وقد أخرجت في سنة ١٩٧٢ جمجمة تشبه جمجمة الانسان العاقل كثيراً وكانت تحت طبقة من الرماد البركاني المقدرّ عمرها بنحو ٢,٦٠٠,٠٠٠ سنة.

وحتى هذان التاريخان التقديريان لجمجمة الانسان الاسترالي البدائي وجمجمة الانسان الشبيه بالانسان العاقل هما حديثان عندما يقارنان بالتاريخ المفروض فيه أن أجدادنا المشتركين قد اختلفوا، بشكل نهائي، عن أسلاف أبناء عمومتنا من الهيلوبتيدا والبونغيدا. ومن الناحية الأخرى إذا كان العصر الحجري القديم المبكر معاصراً للانسان الاسترالي البدائي الذي اندثر منذ زمن بعيد، فإن العصر الحجري القديم المبكر يقابل تسعة وخمسين جزءا من ستين جزءا من فترة الأحياء الشبيهة بالبشر، وربما يساوي أربعة عشر جزءا من خمسة عشر جزءا من فترة الانسان homo بما في ذلك إنسان بكين والانسان

النيندرتالي وكذلك الانسان العاقل. هناك بقايا أثرية على أشكال من أدوات مرقّقة بطريق المصادفة هي قديمة قدم الانسان الاسترالي البدائي، لكن أقدم الآثار التي صنعت خصيصا لتستعمل كأدوات تعود الى ما بين ٢٠,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ سنة فقط؛ هذا اذا كانت الرسوم العائدة الى العصر الحجري القديم المتأخر والموجودة على جدران الكهوف في فرنسة واسبانية هي أقدم البقايا المصنوعة قصداً.

والمقيدات التي لها شكل صوري والتي كانت السلف للكتابة التجريدية لم تظهر، على ما نعرف، حتى الألف الخامس ق.م. وفي ذلك الوقت، على ما نعرف أيضاً، في سومر فقط. وبعد، فالبقايا المادية التي خلفتها المجتمعات البشرية المنقرضة، والتي لا يدخل في عدادها وثائق مكتوبة، لما عرفت وترجمت أمدتنا بمعلومات ولكنها ناقصة عن حياة الشعب الذي خلف مثل هذه الآثار المادية غير الموثّقة عن وجوده. فالبينة الأثرية السابقة للتدوين تنبئنا عن التكنولوجيا، ولكن التكنولوجيا هذه لا تزيد عن كونها الوضع المساعد للعناصر غير المادية التي تتكون منها طريقة الانسان في الحياة: شعوره وأفكاره، مؤسساته واراؤه ومثله العليا وهي مظاهر أكثر أهمية في الدلالة على طبيعة الانسان من التكنولوجيا، ذلك بأنه من الخصائص الأنبل والمميزة للانسان هي انه لا يعيش بالخبز وحده. ومع أن الركام المادي للتكنولوجيا يلقي شيئاً من الضوء على بعض نواحي الحياة البشرية غير المادية، فإن هذا الضوء قاتم. فالاستدلال مما هو مادي على ما هو روحي، إنما هو، في أحسن حالاته، تخبط في الظلام. وعندما يكون كل ما بين أيدينا هو الشاهد المادي، فإن ذلك يترك بعض نواحي الحياة الروحية يكتنفها الغموض التام.

وهكذا فإن معلوماتنا عن الخمسة آلاف سنة الماضية من التاريخ ـ الخمسة آلاف سنة الموثقة ـ هي أغزر وأشد وضوحاً منها عن المليون الأول او نصف المليون الأول من السنين التي تلت فجر الوعي التدريجي الذي يحتمل حدوثه. فهل تتناسب أهمية هذه الفترة الأخيرة والأقصر زمناً من هاتين الفترتين مع درجة ما نعرفه عنها؟ يجب ان نكون حذرين في اعتبار هذا الأمر قضية مفروغاً منها. إن الشيء الأقرب الينا والأوضح يبدو الأكبر ولا شك، ومع ذلك فإن هذا المظهر قد لا يتفق مع الحقيقة. إن المساق الذي نسميه عصر ما قبل التاريخ ـ ونحن نعني العصر الذي سبق تدوين القيود التي وصلتنا والتي حلت رموزها وترجمت ـ كان (بقدر ما يمكن تتبع ذلك) يسير على نمط واحد، فضلاً عن انه كان هائلاً في طوله، بالمقابلة مع مساق العصر الموثق الذي تلاه. ونحن إذا نظرنا الى

الأمر على أساس خلفية ما قبل التاريخ، وجدنا أن التاريخ المدون بكامله هو، في الواقع، تاريخ معاصر بالمعنى الحرفي، وهو كذلك بالمعنى الذاتي الذي ذهب اليه بندتو كروتشي Benedetto Croce من أن التاريخ كله تاريخ معاصر. إن المراقب الذي يستعرض الماضي من نقطة معينة زماناً ومكاناً، بالنسبة اليه، يظهر له هذا الماضي حتماً بشكل ذاتي.

فهل لنا ان نخلص الى القول بأن هذه الخمسة آلاف سنة المعاصرة هي، في الواقع، الجزء الوحيد من التاريخ الذي يحسب له حساب؟ مثل هذا الاستنتاج منطو على التناقض، ويرفضه الواقع، لأن عصر ما قبل التاريخ كان قد شق له الطريق أكثر الأحداث أهمية الى أيامنا، في التاريخ البشري؛ والحادثة الهامة هي ظهور فجر الوعي في المحيط الحيوي. وقد كان هذا الانجاز جسيماً، والجهد الذي تطلبه ذلك كان منهكاً، بحيث انه ليس ثمة أي شيء من الغرابة في أن يكون مليون او نصف مليون من سني السبات قد مرّت بعد ذلك، قبل أن يبدأ الانسان بممارسة القدرة الروحية والمادية التي وفرتها له يقظة الوعي بطريقة فعالة. واذا نحن نظرنا الآن الى الماضي من اللحظة الحاضرة الى الفجر (فجر الوعي)، واذا اعتبرنا التاريخ البشري بأكمله، منذ الفجر، على أنه حقبة واحدة، فربما وجدنا الايقاع العادي لهذه الحقبة في السبات النسبي الذي عرفه العصر الحجري القديم المبكر وعندئذ فإن التسارع والعنف والتنوع التي عرفتها الفترة التي تمتد من ٧٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ سنة، والممتدة من بدء الثورة الصناعية التي ظهرت في العصر الحجري القديم المتأخر الى تسخير الطاقة الذرية ـ تلك الأمور لن تظهر على أنها كل ما يهم، بل على انها الفصل الكبير الذي يؤدي الى الذروة.

وهذه الذروة قد تكون إبادة تامة للحياة عن طريق تحطيم المحيط الحيوي، بكل ما عند الانسان من شر وجنون، بعد أن تمكن الشيطان المتجسم في الانسان من تسليح نفسه بالقوة التكنولوجية الكافية لذلك. والبديل لذلك هو في أن تكون الذروة هذه عبوراً من الحقبة الأولى في التاريخ البشري الى حقبة ثانية، أو على الأرجح، الى سلسلة طويلة من الحقب المتتالية، ذلك لأن فترة المليوني سنة التي مرت منذ أن رقّق الانسان الأسترالي البدائي الأحجار ليجعل شكلها أسهل استعمالاً، لا تزيد عن طرفة عين، إذا ما قوبلت بالألفي مليون المقدر أنها باقية من عمر المحيط الحيوي بحيث يظل مكاناً صالحاً للعيش، هذا إذا سمح الانسان بذلك. ولسنا نستطيع التنبؤ بالمستقبل، ولكننا نستطيع أن نتكهن بأننا نقترب من مفترق طرق خلقي هو الذي سيكون حاسماً، كما كان المفترق

البيولوجي، قبل عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً من السنين، حاسماً بين الطريقين ـ الطريق الذي أدى الى الانسان والطريق الذي انتهى الى القرود الشبيهة بالانسان. ومرة ثانية: قد يكون البديلان يبعد واحدهما عن الآخر بعد القطب الواحد عن الآخر. والحكاية، في ما تبقى من هذا الكتاب، تصل بالقصة الى حافة توضيح هذه الأحجية التي لا يزال الظلام يلفها.

٤ـ الأويكومين

أويكومين تعبير إغريقي شاع استعماله في العصر الهليني من التاريخ الاغريقي بعدما اتسع العالم الهليني الاغريقي، أولا غرباً ثم شرقاً، من مجاله الأصلي الذي كان يمتد عبر البحر الايجي. وقد وصل امتداده غرباً الى سواحل الأطلسي في أوروبة وشمال غرب افريقية والى بريطانية، أكبر جزيرة تقع عبر البحر بالنسبة الى غرب أوروبة. وامتداده الشرقي الذي تلا ذلك وصل الى اواسط آسية والى الهند. وكان فتح الاسكندر الكبير لفارس وقضاؤه على الامبراطورية الفارسية الأولى هو الذي مهد السبيل للامتداد الشرقي لذلك العالم. وفي الزمن الذي تلا عصر الاسكندر بالنسبة للتاريخ الهليني شاع استعمال كلمة أويكومين، ومعناها الحرفي « الجزء المسكون » من العالم، ولكن الأغارقة الذين وضعوا الكلمة ونشروها حصروا معناها، عملياً، في الجزء المسكون من العالم الذي كانت تقيم فيه المجتمعات المسماة « متمدنة ». وقد كانت المجتمعات المسهمة في ذلك هي التي أطلقت على نفسها كلمة « متمدنة » الى يومنا هذا، حتى تبين لنا، من تجربتنا المروعة والمهينة فيما اقترفنا من فظائع، أن المدنية لم تصل بعد الى تحقيق إنجاز واقعي، بل هي لا تعدو ان تكون محاولة أو أملاً.

حتى بموجب الاستعمال الأصلي للكلمة، التي تجاهل تحديدها البرابرة الذين كانوا يعيشون على حافة المدنيات، فإن أويكومين، على ما استعملت في العصر الاغريقي التالي للاسكندر، كانت تشمل فقط مجالات المدنيات التي كان الأغارقة أنفسهم قد سمعوا بوجودها على الأقل منذ أيام المؤرخ هيرودوتس في القرن الخامس ق.م. كان الأغارقة يدرون، بشيء من الإبهام، بوجود مدينة تقوم في مكان قاص يقع وراء الريح الشمالية، وكانت لها اتصالات مع الدول ـ المدن الاغريقية التي كانت موجودة على ساحل البحر الأسود الشمالي، وهذه الاتصالات كانت تتم بواسطة طريق رفيع ممتد عبر السهوب

الأوراسية التي كانت بدورها تكّون المنطقة الداخلية للمستعمرات الاغريقية البحرية. ولنا أن نخمن، رغم التسمية التي أُطلقها الاغريق على هذه المجتمعات، بأن موطنها لم يكن وراء الريح الشمالية، بل الى الشرق من السهوب، وأن هذا كان، في الحقيقة، المجتمع الصيني الذي عرفه الأغارقة والرومان في الزمن التالي للاسكندر باسم سيرس اوسيناي.

لما تم للقسم الأكبر من العالم الاغريقي الروماني ان يتوحد سياسياً في الامبراطورية الرومانية، كان الحرير يستورده العالم الاغريقي الروماني، برا وبحراً. ولكن الشعوب المسماة متمدنة، والتي كانت تعيش في الطرفين لشرقي والغربي للعالم القديم كانت معرفة الواحد منها بوجود الآخر معرفة ضئيلة فقط. وكان يقابل الاويكومين الاغريقي عند الصينيين قولهم « جميع ما هو تحت السماء ». ولكن بالنسبة للصينيين فإن تا تشين Ta Chin التي هي نسخة كبيرة للامبراطورية الصينية، والتي كانت تقع في الطرف الغربي للقارة، كانت شيئاً مبهماً بقدر ما كانت سيرس او سيناي او جماعة ما وراء الريح الشمالية، مبهمة بالنسبة الى الأغارقة والرومان. وقد تم الوصل بين طرفي القارة الأبعدين في وقت متأخر فقط: أولا بشكل مؤقت لما ضمت شواطيء السهوب الأوراسية كلها في القرن الثالث عشر في إطار امبراطورية المغول السريعة العطب؛ وبعد ذلك، بشكل دائم، لما تم لشعوب أوروبة الغربية ان تقهر المحيط قبيل نهاية القرن الخامس عشر. اما في ما يتعلق بمدنيات أميركا الوسطى والمنطقة الضيقة في الانديز من اميركا الجنوبية، فإنها لم تكن معروفة للعالم القديم حتى بعد ان ألقى كولمبوس مراسيه على الجهة الأميركية من المحيط الأطلسي. وبعد فلعل مدنيات اميركا الوسطى والبيرو وصلت عصرها الذهبي وقت بدء التاريخ المسيحي. أما الفترة التكوينية السابقة لهذه الحضارات الاميركية الراقية فلعلها تكون قد بدأت ـ بالنسبة لأميركا الوسطى على كل حال ـ في فترة زمنية مبكرة تتفق مع بدء أي من مدنيات العالم القديم، باستثناء المدنية السومرية ـ الأكدية والمدنية الفرعونية.

إذا نحن استعملنا التعبير أويكومين بالمعنى الحرفي الدال على مستوطن البشرية، فإننا نرى ان مدى الاويكومين هو أوسع بكثير من رقعة العالم المتمدن الذي عرفه الاغريق والرومان، ولكننا نرى أيضاً ان هذا الاويكومين الشامل هو، رغم كل ذلك، أصغر بكثير من المحيط الحيوي. والقسم الأكبر من سطح المحيط الحيوي يحتله البحر، والهواء المغلف للمحيط الحيوي يحتسب الجزء الأكبر من المحيط الحيوي نفسه. ومن المعتقد ان البحر

كان الموطن الأصلي للحياة، وأنه لا يزال غنياً في النبات والحيوان كليهما. ولكن منذ أن أصبح أسلاف الانسان حيوانات برية، فإنهم لم يتخذوا من البحر موطناً لهم على نحو ما فعل القرناء من الثدييات مثل الحوت والدلفين. والأحياء البشرية لم تصبح حيوانات برمائية على نحو ما تم لقرناء أخر مثل عجل البحر وكلب الماء. لقد اكتشفت الكائنات البشرية كيف تجتاز الأنهار والبحار في القوارب والسفن، وكيف تغطس تحت سطح البحر، ولو أن الغطس لم يكن لأعماق بعيدة ولا لمدة طويلة في المرة الواحدة. ولكن الكائنات البشرية بالنسبة الى الماء هي عابرة فقط؛ فهي ليست من سكانه، هي في الواقع ليست أنواعاً مائية.

وفي القرن العشرين للميلاد اخترع الانسان الطائرة؛ لكن الانسان سبق الى الطيران في الهواء منذ وقت طويل، سبقته الحشرات والطيور والخفاشات، ولكن ليس باستطاعة الخفاش او الطائر او الحشرة او الكائن البشري ان يعيش في الهواء كما تعيش الأسماك والأنواع البحرية من الثدييات في الماء، وليس ثمة نوع من الكائنات الحية يمكن ان يكون في الهواء سوى عابر سبيل والنوع المجنح قد يعتمد على كونه يُحْمَل في الهواء للحصول على رزقه، ولكنه لا يستغني عن أن يكون له موضع للتحرك - إما أرضاً أو ماء، حتى السنونو ترتكز على أعمدة التلغراف وتبني عشوشها من الطين لتتمكن من تربية صغارها.

وأويكومين البشرية يقوم بأكمله على سطح الأرض من المحيط الحيوي، مع أن سكان الأويكومين من البشر يجتازون سطح الماء المحيط الحيوي، وهم الآن يجتازون الهواء المغلف له أيضاً، وذلك في تنقلهم من نقطة الى أخرى في الاويكومين؛ لكن الاويكومين لم يكن دوماً يشغل المساحة نفسها من سطح الأرض في المحيط الحيوي، ومدى رقعته تبدلت في حدود سواحل الأرض اليابسة كثيراً على ما يبدو من الجفاف الفتاك الحالي في الساحل، أي في منطقة السافانا الأفريقية الواقعة بين طرف الصحراء من جهة والطرف الشمالي لغابات الأمطار المدارية من جهة أخرى. بعض هذه التبدلات قد سببتها جزئياً تغيرات جغرافية طبيعية ومناخية، وهي أشياء لم يكن للانسان يد في إيجادها كما أنه لم يمكنه تعديلها. وهناك بعض هذه التبدلات المسببة عن الفعل البشري المتعمد او غير المقصود. والعوامل غير البشرية التي عينت شكل الأويكومين كانت الى قبل نحو ١٠,٠٠٠-١٢,٠٠٠ سنة هي المتغلبة على الفعل البشري.

وفي مساق تاريخ سيارنا الأرض كانت التبدلات الجغرافية الطبيعية والمناخية في تكوين

السيار جسيمة. من المرجح انها كانت غاية في التطرف والعنف في الحقب الأولى من وجود الأرض، قبل أن يظهر المحيط الحيوي على سطح الأرض. إن البقايا المتحجرة من النبات والحيوان في طبقات من القشرة الأرضية التي كانت على سطح الأرض قبل تاريخ ظهور الانسان قد أظهرت لنا ان مناطق هي اليوم معتدلة او شبيهة بالباردة كانت من قبل ذات مناخ حار، وثمة تفسيرات متنوعة لهذه التبدلات المناخية الاقليمية: ثمة احتمال ان يكون محور الأرض قد انحرف أو مال وأن النقطتين اللتين تعينان الآن القطبين على سطح الأرض كانتا في وقت من الأوقات على خط الاستواء أو قريبتين منه؛ ولكن، إذا صح هذا فإنه من العسير أن ندرك كيف استطاعت الأرض ان تحافظ على انتظام حركتها في الدوران وعلى فلكها الاهليلجي، دون ان تلقي بها النقلة المفترضة عن وضعيتها خارج مساقها، وهناك احتمال بديل بأن القارات قد تكون انساقت عبر سطح الأرض، كما لو كانت طوفاً يسبح على سطح مستنقع، لا طبقات من الحجر ترتكز الى صخر. ونظرية انسياق القارات، مثل نظرية تبدل القطبين هي موضع جدل، ولعلها لا يمكن التثبت منها، ولكنها تبدو وكأنها تكسب الأنصار، بشكل أو بآخر. ومما يشفع بها بأنها، على عكس النظرية البديلة، لا تفترض تبدل الجهات في الكرة بأكملها، بل تفترض تبدلاً في تكوين سطح الكرة فقط.

وعلى كل حال فإن الوجود الغامض للمتحجرات المدارية في المناطق التي هي ليست مدارية الآن هي مشكلة « متعلقة » بحقبة جيولوجية تسبق ظهور الأحياء الشبيهة بالبشر بملايين السنين. أما الظاهرة المناخية التي عاصرت ظهور الأحياء الشبيهة بالبشر في المحيط الحيوي فهي سلسلة الفترات الجليدية، التي كان يتخللها ذوبان الجليد، في الحقبة الأحدث، أي في غضون المليوني سنة الأخيرة. وأحدث فترة جليدية (ولا شك أنه من التسرع بمكان الفرض بأن هذه ستكون آخر فترة جليدية بالمرة) هي التي عقبها الذوبان الحالي قبل ١٢,٠٠٠ او ١٠,٠٠٠ سنة.

ويبدو أنه في الفترات الجليدية لم يغمر الجليد أكثر من جزء صغير من سطح اليابسة في المحيط الحيوي. والمساحات التي غمرها الجليد كانت تقع في الغالب على مقربة من المنطقتين القطبيتين، اضافة الى رقاع متباعدة غطاها الجليد. وهذه كانت أقل بعداً من تلك عن خط الاستواء. وعلى كل فهذه التغطية من الجليد استثنت مؤقتاً بعض الأراضي الخصبة من الأويكومين (على سبيل المثال في سكاني وفي الجزء الجزري من الدانمرك،

وفي مدلوثيان وفي كاثنس) التي كانت غاية في الانتاج منذ ان بدأ استغلالها. وفضلا عن ذلك فان النسبة في التغطية المحلية للجليد كانت تتغير بين البحر واليابسة وذلك لمصلحة اليابسة، وترتب على ذلك أن كمية ضخمة من المياه تكومت في الغطاء الجليدي وتجمدت في مكانها، بحيث أن سطح البحر انخفض انخفاضاً محسوساً حول الكرة جميعها. وظهرت قيعان البحار الضحلة جافة والبحار الضيقة ازدادت ضيقاً وبعض المضايق ظهرت فيها البرازخ، وأثر هذه التغطية الجليدية المحلية كان ضئيلاً إذا قيس بمعدل عمق البحر ونسبة البحر الى اليابسة في تكوين سطح السيار؛ ولكن هذا الأثر كان كبيراً بما أتاحه من فرصة في توسيع مدى أويكومين الانسان في زمن كانت وسيلة الانسان الوحيدة للتنقل على الأرض هي قدماه، وكانت فيه صناعة السفن وفن الملاحة لا يزالان في طفولتهما.

وحتى إذا أخذنا في الاعتبار تيسير الهجرة الناشيء عن انخفاض موقت في سطح البحر، فإن بلاء الأحياء الشبيهة بالبشر، التي جاءت في وقت مبكر، في توسيع رقعة الاويكومين يبدو مذهلاً في عين إنسان اليوم. ويرجع السبب في هذا الى ما اخترعناه في المئة والخمسين سنة الأخيرة من سلسلة وسائل النقل الميكانيكية، بدءا من السفن والقطارات الميكانيكية الى السيارات والطائرات. وسنشعر أن نجاح الأحياء الشبيهة بالبشر لا يثير مثل هذه الدهشة عندما نقابل ذلك بنجاح الحيوانات الرئيسة من غير الأحياء الشبيهة بالبشر. فإن هذه قد استعمرت لاميركيتين كما استعمرت آسية بما في ذلك من أشباه جزر وجزر تقبع عبر البحر. ومن الناحية الأخرى فلم يتمكن أي من أصناف أسرة الأحياء الشبيهة بالبشر باستثناء الجنس البشري ولا أي نوع من الجنس البشري سوى الانسان العاقل، من الوصول الى الاميركيتين بحراً من جنوب إفريقية المداري، وهي المنطقة التي بدأ فيها التباين بين الأحياء الشبيهة بالبشر وأبناء عمومتهم من القرود الكبار. فجميع السكان البشريين الذين كانوا في الاميركيتين قبل كولمبوس متحدرون من ممثلي الانسان العاقل الذين وصلوا الى الاميركيتين برا من القارة، وذلك في غضون الفترة الجليدية الأخيرة. وقد وصل الاميركيون السابقون لكولمبوس من الزاوية الشمالية الشرقية لآسية عن طريق برزخ موقت هو الذي غمره فيما بعد مضيق بيرنغ. اما الأميركيون الذين يرجعون الى الفترة التالية لكولمبوس، والذين شقوا الطريق قبل النورسيين من الزاوية الشمالية الغربية الأوروبية لآسية، فهم الوحيدون الذين عبروا المحيط الأطلسي.

إذا كان الانسان العاقل ظهر أول ما ظهر في شرق إفريقية المدارية، على نحو ما ظهر رفاقه من الأحياء الشبيهة بالبشر التي انقرضت الآن، فإنه، في انتقاله على الأقدام الى تيرا دلفوغو، يكون قد اجتاز مسافة جغرافية طويلة. ومثل ذلك فان الزمن الذي احتاجه كان طويلاً. يضاف الى ذلك أن الانسان، مثل بقية أشكال الحيوان متنقل، فهو ليس ملتصقاً بالأرض على نحو ما يلتصق أكثر النبات الذي ينمو في المحيط الحيوي. على ان النباتات انتشرت انتشار الحيوانات رقعة، ولو أن أكثر النباتات تعتمد، في انتشارها، على عمل الحشرات والرياح. وبعد ان يقال كل ما يمكن قوله، فإن المدى الذي انتشر فيه الانسان في العصر الحجري أمر رائع. فقد وصل الانسان تيرا دلفوغو واسترالية أيضاً، في وقت مبكر يعود الى حوالي ٦٠٠٠ ق.م. مع أن الطريق البري من آسية الى استرالية كان يعترضه نحو خمسين كيلومتراً من الماء، بين بورنيو وسيليبيس. هذا في الوقت الذي وصل سطح البحر الى حده الأدنى. وأعجب ما حققه إنسان العصر الحجري كان استعمار بولينيزيا، بما في ذلك جزيرة الفصح Easter Island. وقد جاس الأوروبيون الغربيون والمستعمرون منهم فيما وراء البحار في غضون الخمسمئة سنة الأخيرة سطح المحيط الحيوي بأكمله، ومع ذلك فإنه باستثناء المناطق القطبية لم يعثروا إلا على القليل من الأماكن التي لم يكن قد استقر فيها الناس منذ عصر ما قبل الأوروبيين.

والانسان غريب أمره بين الحيوانات العليا في انه فقد فروته باستثناء بقع قليلة تغطي جزءا صغيراً من جسمه. وكانت الكائنات البشرية بحاجة إلى أن تكسو نفسها بفراء صناعي لتتمكن من العيش في المناطق المدارية حيث لا توجد ستارة من أوراق الشجر تفصل الجسم البشري العاري عن الشمس؛ وكذلك احتاجت الكائنات البشرية ثياباً للعيش في المناطق الباردة او الشبيهة بالقطبية، حيث كانت معرضة للصقيع. فالعربي البدوي المتنقل والأسكيمو يستعملان الثياب السميكة - فالبدوي يستعمل الثياب الصوفية والاسكيمو يلجأ الى الجلود. واليوم يلجأ القوم الى التكنولوجيا الحديثة لتوسيع مناطق الاستغلال، إن لم تكن مناطق العيش، الى أقاصي الشمال في روسيا وكندا.

إن المناطق التي تغطيها الثلوج دوماً في غرينلاند وفي القارة الأوسع في القطب الجنوبي، لا تزال خارج حدود الأويكومين، ومثل ذلك الحال بالنسبة الى جهات في المناطق المدارية ذات الغابات الكثيفة والبلاد الجبلية المغطاة بالثلوج والصحارى الجافة. ولكن الانسان يبدو وكأنه يستطيع العيش في مناطق أكثر تنوعاً في المناخ من تلك التي

تعيش فيها الحيوانات العليا. إذا اجتزت واحداً من الأودية الضيقة العميقة التي نجدها في التربة البركانية الناعمة في إثيوبيا، فإنك تنحدر من السطح المعتدل في الهضبة الى مستوى تعيش فيه القرود؛ ولكن قبل ان تصل القاع، فإنك تكون قد خلفت مساكن القرود وراءك. وتنحدر الى انخفاض حيث يكون الوادي حاراً أكثر مما تتحمله القرود. ولكن ليس ثمة مكان مهما كان ارتفاعه، من الهضبة المعتدلة الى أحواض الأنهار المدارية في إثيوبيا لا يستطيع الانسان العيش فيه.

إن تشكيل الأيوكومين لم يتبدل كثيراً منذ أن انحسرت موجة الجليد الأخيرة قبل ما بين ١٢,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ سنة. وسطح الأرض اليابسة الصالح للعيش يتكون من قارة واحدة كبيرة هي آسية بما في ذلك أشباه جزرها والجزر القابعة في البحر. وأهم أشباه الجزر الآسيوية هي أوروبة والجزيرة العربية والهند والهند الصينية. وكان من المحتمل أن تكون هذه الأخيرة أوسع الأربع مساحة لو انها امتدت باستمرار من الملابو الى استرالية ونيوزيلاندة؛ لكن في الواقع فان الجزء المتوسط منها تفسخ، وسقط جزئياً في البحر. وأسترالية الآن مفصولة عن آسية بالبحر الضيق الذي هو أرخبيل اندونيسيا ـ وهوتيه من المضايق والجزر. وأكبر جزر آسية القابعة في البحر هي إفريقية والاميركيتان وأبعد الجزر هي المنطقة القطبية الجنوبية. ويصل برزخ السويس إفريقية بآسية، ويصل برزخ بنما أميركا الجنوبية بأميركا الشمالية. وهذان البرزخان جعلا ممرين اصطناعيين لما خرقهما الانسان بالقناتين اللتين حفرهما فيهما، وأهم الممرات المائية الطبيعية هو مضيق ملقا الذي يزود المحيطين الأطلسي والهادي بطريق بحري يصل بينهما.

إن أفضل سبل المواصلات لنقل المسافرين من جزء من الأويكومين الى جزء آخر هي في الواقع خارج نطاق الأويكومين، ذلك بأن أفضل العناصر توصيلا هما الهواء والماء، وهذان العنصران تستطيع الكائنات البشرية أن تجتازهما، ولكنها لا تقدر على العيش فيهما. وحتى الوقت الذي تم فيه اختراع القاطرات التي تسير بقوة البخار على السكك الحديدية، وذلك في القرن التاسع عشر، كان النقل النهري والبحري أسرع وأرخص من النقل البري. وقد كانت القوة العضلية البشرية والحيوانية هي القوة الحركية الوحيدة التي كان الانسان يستطيع استخدامها في السفر والنقل براً في العصر السابق للسكة الحديدية. اما بالنسبة للنقل المائي، في الناحية الثانية، نان القوة العضلية البشرية، التي كانت تسير المردي والمجذاف، كانت، حتى قبل فجر المدنية، قد أضيف اليها تسخير قوة الريح

للشراع، وقوة الريح كانت القدرة الطبيعية الجامدة الأولى التي سخرها الانسان وكانت أول ما تخلى عنها أيضاً. لقد أصبحت فائضة عن الحاجة لما سخرت قوى طبيعية جامدة غيرها لادارة الآلات.

وفي عصر النقل المائي كانت طرق المواصلات الرئيسة تحددها تشكيلات سطح الماء في المحيط الحيوي. وقد كانت الممرات المائية أفضل الطرق البحرية مثلاً، إضافة إلى مضيق ملقا، المضايق الضيقة التي تصل البحر الأسود بالبحر الأيجي، ومضيق جبل طارق، ومضيق دوفر، ومجموعة المياه الضيقة التي تصل البحر البلطي ببحر الشمال. والطرق المائية الداخلية النافعة كانت الأنهار البطيئة والصالحة للملاحة. والمثل الكلاسيكي على ذلك هو نهر النيل شمالي الشلال الأول. ففي هذه المسافة المائية، كانت القوارب الشراعية تنحدر مع النهر يدفعها التيار، وتسير صعداً ضد النهر باستعمال الشراع، إذ أن الريح الشمالية هي الريح الغالبة في مصر إضافة الى ذلك فانه بعد التوغل في مصر لم يبق مستوطن بشري أو حقل او حتى مقلع للحجارة بعيداً بعداً كبيراً عن مجرى مائي يصلح للملاحة. وقد كانت وسائل المواصلات في مصر، قبل اختراع السكة الحديدية، أفضل من مثيلاتها في أي قطر في مثل تلك المساحة.

في عصر النقل المائي كانت الأجزاء التي تصلح لأن تكون مفاتيح نقل على سطح الأرض في الأويكومين هي التي وفرت سبل النقل من بحر الى بحر آخر، أو من نهر صالح للملاحة الى نهر آخر. وكانت مصر بالذات منطقة نقل، إذ أن النيل يفرغ ماءه في البحر المتوسط، وثمة مسافتان قصيرتان للنقل البري من النيل الى شاطىء البحر الأحمر: الأولى من الذراع الشرقي للنيل الى السويس عبر وادي توميلات والأخرى عبر وادي حمامات من قفط، في مصر العليا، الى القصير القديمة (لوكس ليمن). وحقيقة الأمر ان النقل براً عبر برزخ السويس هو جزء من مجال للنقل البري يشمل مصر في الغرب والعراق في الشرق. ففي هذه المنطقة نجد أن البحر المتوسط، وهو متجمع ماء خلفي للمحيط الأطلسي، والبحر الأحمر والخليج العربي، وهما متجمعان مائيان خلفيان للمحيط الهندي إنما تفصل بينهما أضيق فسحة من اليابسة. فالجواز من البحر المتوسط الى البحر الأحمر عبر النيل يكرر نفسه في الجواز الى الخليج العربي عبر نهر الفرات.

هذه التسهيلات الفريدة للمواصلات جعلت مصر وجنوب غرب آسية الدولاب الجيوبوليتيكي للأويكومين في العالم القديم. ومن المؤكد انه ليس من قبيل المصادفة أن

كانت هذه المنطقة مهد أولى حضارات العصر الحجري الحديث، وبعدها مهد أقدم مدنيتين. وقد كان ثمة مجالان آخران للنقل كان لهما أهمية تاريخية بارزة: المجال النقلي بين الأنهار التي تصب في البحر البلطي والأنهار التي تصب في البحر الأسود، وبحر الأسود وبحر قزوين (الخزر) في الجهة الراحدة، والمجال النقلي عبر سهل الصين الشمالية بين المجاري الدنيا لنهر يانغتسي والنهر الأصفر ونهر باي هو - وهو مجال أصبح ممراً مائياً لما حفرت القناة الكبيرة. وعلى كل فإن هذين المجالين النقليين - الصيني والروسي هما على هامش أويكومين العالم القديم؛ فقد سبقهما في الأهمية التاريخية المجال النقلي الرئيس بين البحر المتوسط والمحيط الهندي.

في حدود هذا المجال الشامل الممتد من مصر الى جنوب غرب آسية، تركزت التجارة في منعرجين: أحدهما في شمال سورية بين انحناءة نهر الفرات والزاوية الشمالية الشرقية للبحر المتوسط وثانيهما يقع في أفغانستان الحالية، عبر جزء من سلسلة جبال هندكوش التي تخترقها ممرات تصل حوضي سيحون (اوكسس) وجيحون (جاكسارتس) العلويين بالحوض الأعلى لنهر السند (الاندس). وسورية الشمالية متصلة برا وبحرا بمصر، وبحرا بكل شواطىء البحر المتوسط ومياهه الخلفية، وبالمحيط الأطلسي عن طريق مضيق جبل طارق. وتتصل سورية بأوروبة براً عن طريق ممرات كيليكيا، وبحرا عبر مضيقي الدردنيل والبوسفور، ومع الممرات الخزرية وحوض سيحون - جيحون (ما وراء النهر)، ومع الهند، وتتصل أيضاً انحداراً مع الفرات الى الخليج العربي والمحيط الهندي، ومع المحيط الهادي مروراً بمضيق ملقا. وأفغانستان متصلة بأرض الرافدين وشمال سورية عبر الممرات الخزرية ومع حوض الفولغا انحداراً مع نهر جيحون وعبر السهوب الأوراسية. وتتصل أفغانستان بالصين بطريق سيكيانغ، ومع الهند بطريق الممرات التي تخترق سلسلة جبال سليمان.

قبل ما توالت اختراعات السكك الحديدية والطائرات كانت التجارة التي تتلاقى في المنعرجين وتتفرع عنهما تفيد من النقل المائي، النهري والبحري، حيثما كان ذلك ممكناً عملياً. وعندما كان الناس والمتاجر يضطران الى التنقل براً، قبل اختراع الآلة، كان الانسان يقع تحت رحمة الأرض، فقد كان من الممكن الدوران حول الجبال أو تسلقها. أما الغابات، المعتدلة منها والمدارية على السواء، فكانت عقبات بشكل خاص. وأما السهوب فقد كانت صلة وصل ممتازة. وفي الحقيقة فإن مناطق السهوب الثلاث

المتصلة ـ الأوراسية والعربية والشمال افريقية أصبحت صلة وصل تكاد تعادل البحر ذاته لما دجن الانسان الحيوانات الصالحة للخدمة: الحمير والخيل وفوق هذا كله الجمال، وأصبح بإمكان الكائنات البشرية ان تجتاز السهوب تقريباً بمثل السرعة التي تجتاز بها البحر، وذلك بمساعدة حيوانات الركوب وحيوانات الحمل وحيوانات الجر، لكن استعمال كلا العنصرين اقتضى تنظيماً ونظاماً. فالقافلة، مثل السفينة، كان لا بد لها من قائد، وكانت أوامره واجبة الطاعة.

وحتى لما سخرت السهوب، كما سخرت البحار والأنهار الصالحة للملاحة، سبلاً للمواصلات بين مختلف أجزاء الأويكومين، فان وسائل التواصل البشرية ظلت ناقصة الى عصر الآلة. وحتى مع النقص في هذه الوسائل فقد قامت امبراطوريات عاشت طويلاً ناجحة، والأديان التي انتشر دعاتها ليهدوا البشرية بأجمعها قد كسبوا أتباعاً وحافظوا عليهم في رقعة أوسع مما حققته أية امبراطورية دنيوية. فالامبراطورية الفارسية الأولى والامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية والخلافة العربية والأديان الثلاثة ذات الدعوة العالمية: البوذية والمسيحية والاسلام، إنما هي آثار شاهدة على انتصار قوة الارادة البشرية على العوائق الطبيعية. ولكن الحدود التي بلغها النجاح تظهر أيضاً حدود المدى الذي كان ممكناً عملياً للمجتمعات البشرية أن تبلغه بدون مساعدة وسائل المواصلات الميكانيكية التي اخترعت منذ مطلع القرن التاسع عشر.

والشاهد الذي يدعو الى الانتباه اكثر من غيره على عجز وسائل النقل قبل بدء عصر الآلة هو اللغات المختلفة، التي كانت تستعمل محلياً في مختلف أنحاء الأويكومين، والتي لا يمكن تبين أية صلة بين الواحدة منها والأخرى. واللغة مقدرة بشرية عالمية، ولم يسمع بجماعة بشرية لا لغة لها. وإذا أخذنا هاتين الحقيقتين معا فإن ذلك يوحي إلينا أنه قبل ان ينتشر الانسان العاقل على سطح الأرض في المحيط الحيوي من شرق افريقية المدارية (إذا صح ان هذه هي المنطقة التي ظهر فيها هذا الصنف من النوع البشري لأول مرة) فان البشرية ككل كانت ولا ريب في سبيل استعمال النطق، ولكنها لم تكن قد طورت هذه الامكانية بعد. وهذه الفرضية قد تفسر لنا كيف تم للمجتمعات البشرية جمعاء ان تكون لها لغات. ولكن اللغات، بخلاف الكائنات البشرية التي تتكلمها، ليس بينها قرابة واضحة، وبطبيعة الحال فإن الكائنات البشرية الوحيدة التي نعرفها من مخلّفاتها، الخارجة عن العظام والأدوات، ليست سوى الكائنات الممثلة للأنواع

الباقية وحدها، ولسنا نعرف فيما اذا كانت أي أنواع أخرى من النوع البشري، أو أي نوع من فصيلة الكائنات الشبيهة بالبشر، قد تعلمت الكلام، أو أن هذا الانجاز كان خاصاً بالانسان العاقل، كما أنه لا سبيل لنا الى الكشف عن ذلك.

واللغات المعروفة التي تتكلمها المجتمعات المختلفة التي هي من نوعنا، انتشرت في مجالات متباعدة في مداها. فقد كان في غابات غرب إفريقية المدارية، قبل أن يدخلها المهاجمون من خارج المنطقة، لغات متعددة متقاربة في مواقعها، إلا أنها على ما يبدو، لم تكن ذات صلة واحدتها بالأخرى. وقد كان مجال استعمال كل من هذه اللغات صغيرا للغاية. فقد يعجز سكان قريتين، لا يفصل بينهما سوى بضعة كيلومترات من الغابات، من التواصل معا بشكل واضح عن طريق الكلام. وكانت اللغة الشائعة هي الاشارات. واللغات المحكية الآن في غرب افريقية جاءت من الخارج: فلغة الهوسا (الحوسا) على سبيل المثال، جاءت من سهوب شمال افريقية والفرنسية والانكليزية جاءتا من الساحل.

وبالمقارنة مع انغلاق الغابات فإن البحر قد حمل لغات الملايو الى جزر الفيليبين في اتجاه شمال شرقي، والى مدغشقر في اتجاه جنوبي غربي، وكذلك حمل البحر اللغة البولينيزية الى كل جزر أوقيانوسية، اي: الى أمكنة بعيدة من القارة مثل جزيرة الفصح ونيوزيلاندة. والبحر المتوسط كان، في زمن مضى، عاملاً في نشر اللغات البونية (الفينيقية) واليونانية واللاتينية في شواطئه. والمحيط الأطلسي نقل اللغات الأسبانية والبرتغالية والانكليزية والفرنسية من غرب اوروبة الى الامريكتين. والسهوب نقلت اللغات الى أماكن بعيدة على نحو ما فعل البحر. واللغات الهندية ـ الأوروبية أولا واللغات التركية فيما بعد، اجتازت السهوب الأوراسية وانتشرت وراء شواطئها في اتجاهات متضادة. وقد انتقلت اللغة العربية من الجزيرة العربية الى شواطىء المحيط الاطلسي عبر السهوب الشمال افريقية.

وانتشار اللغات عن طريق الوسائل غير البشرية قوامه العمل البشري المقصود الذي اتخذ شكل النشاط التبشيري الديني والاحتلال العسكري والتنظيم السياسي والتجارة. فالدويلات والقبائل الآرامية كانت عاجزة سياسياً وقد خضعت للأشوريين، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة الآرامية في جنوب غرب آسية، كما انتشرت الالفباء الآرامية شرقا الى منغوليا ومنشوريا، وذلك بسبب الاستعمال الاداري للآرامية في الامبراطورية الأشورية والامبراطورية الفارسية الأولى، ولأن النساطرة والمانويين استعملوها في الطقوس الدينية.

ومن الجهة الثانية فإن نجاح اللغة اليونانية في التغلب على الآرامية في جنوب غرب آسية وفي مصر يعود الى قضاء الاسكندر الكبير عسكرياً على الامبراطورية الفارسية الأولى؛ كما كان الاحتلال العسكري واسطة نقل اللغات الرومانسية الى رومانية شرقا والى شيلي في الاتجاه الجنوبي الغربي، وذلك من الوطن الأصلي الصغير للغة اللاتينية، وهو الوطن الذي كان يقوم أصلاً على شاطىء المجرى الأدنى لنهر التيبر الايطالي.

وقد قامت الأنظمة المختلفة بأدوار رئيسة في أوقات مختلفة من تاريخ الأويكومين. وإذا كانت منطقة إفريقية الاستوائية والمنطقة الجنوبية الشرقية من إفريقية هي في الحقيقة مهد الأحياء الشبيهة بالبشر، ومن بينها الأصناف العاقلة من النوع البشري، فمعنى هذا أن شرق افريقية والأويكومين كانا أصلاً متطابقين في حدودهما. وقبل نهاية العصر الحجري القديم المتأخر اتسعت حدود الأيوكومين من شرق افريقية بحيث شملت القسم الأكبر من القارة، وكانت الأحياء البشرية تنتشر في الأميركيتين. في هذه المرحلة كان الدور الرئيس، على ما يبدو، قد انتقل الى التخوم الجنوبية من مناطق الجليد الأوروبية الشمالية، حيث كان صيادو العصر الحجري يجدون الصيد الوفير قبل موجة الذوبان الحالية، ومع ذلك فقد تكون الظاهرة لأوروبة في هذا العصر وهو ناشىء عن النقص في ما لدينا من المعلومات. وإذا أتيح لمخلفات إنسان العصر الحجري القديم المتأخر الموجودة في بقية العالم ان يكشف عنها القناع في النهاية، على نحو ما كشف القناع عنها في أوروبة الى الآن، فقد تظهر الصورة عندها مختلفة عما هي عليه الآن.

ونحن أكثر تأكداً من أن جنوب غرب آسية والأجزاء الشمالية القصوى من وادي النيل، قامت بالدور الرئيس في العصر الحجري الحديث، وبأن سومر - وهي السهول الرسوبية في الجزء المنخفض من وادي الرافدين - كانت مهد أقدم المدنيات. هذا مع العلم بأنه، في ما سبق من العصر الحجري الحديث، لم يكن هذا الجزء من جنوب غرب آسية صالحاً للعيش. وفي القرن الثالث عشر للميلاد، لما خسرت هذه المنطقة الرسوبية أخيراً قدرتها على الانتاج، انتقل الدور الرئيس في الأويكومين، والى مدة قصيرة هي فترة جيلين، الى منغوليا، ويعود ذلك الى ان السهوب الأوراسية صالحة للتنقل، والى أن هؤلاء البدو الأوراسيين، الذين كانوا رعاة، كانت لهم المقدرة على الحركة، وكانوا يتمتعون بالشجاعة الفائقة والنظام. وقد تمكن هؤلاء، وقد اتحدوا مؤقتا تحت إمرة المغول، من إخضاع كل قلب القارة، ولم يسلم منهم إلا أشباه الجزر والجزر البعيدة عن الشاطىء.

ومن ثم فقد انتقل الدور الرئيس في الأويكومين الى أوروبة في القرن الخامس عشر، وذلك لما تمكن ملاحوها من السيادة على المحيط ـ وكان المحيط سبيلاً للتنقل أوسع من السهوب الأوراسية.

وفي القرن العشرين، بعد أن خسر غرب أوروبة سيطرته العالمية، بسبب أنه شن حربين طاحنتين بين الأشقاء، انتقل الدور الرئيس الى الولايات المتحدة. ويظهر، عند كتابة هذه الصفحات، كأن السيادة الاميركية ستكون قصيرة الأجل، كما كانت السيادة المغولية. إن المستقبل لغز؛ لكن يبدو أنه من المحتمل أن القيادة قد تنتقل من أميركا الى آسية الشرقية في الفصل التالي من تاريخ الأويكومين.

٥ـ الثورات التكنولوجية حول ٧٠,٠٠٠/ ٤٠,٠٠٠ـ ٣٠٠٠ ق.م.

كل نوع من الكائنات الحية وكل نموذج من كل نوع يؤثر في المحيط الحيوي ويبدل فيه بسبب ما يبذله من جهد للاحتفاظ بحياته في الفترة القصيرة التي يعيشها. ومع ذلك فلم يكن لأي من الأنواع السابقة للأحياء الشبيهة بالانسان من القوة ما يمكنه من السيطرة على المجال الحيوي او تحطيمه. ومن الناحية الثانية فإنه لما قام واحد من الأحياء الشبيهة بالانسان بترقيق حجر، رغبة منه في جعله أداة أصلح، الأمر الذي لعله تم قبل مليوني سنة، كان هذا الفعل التاريخي إيذاناً بأنه في يوم من الأيام سيتمكن نوع ما من أحد أصناف العائلة الشبيهة بالانسان من الحيوانات الثدية العليا من وضع المحيط الحيوي تحت رحمته، ولن يكتفي بالتأثير فيه وتبديله فقط. وقد تم للانسان العاقل، في أيامنا هذه السيطرة على المحيط الحيوي.

وهذه القدرة التي تملكها عائلة الأحياء الشبيهة بالانسان، والتي تمكّن هذه العائلة من السيطرة على المحيط الحيوي، لم يتح لها ان تصبح أمراً واقعياً خلال هذين الملونين من السنين، التي صنعت فيها الأدوات، إلا خلال السبعين أو الأربعين الفا الأخيرة من السنين. كان هناك ولا شك شيء من التقدم التكنولوجي خلال العصر الحجري القديم المبكر، ولكن التقدم في تلك الحقبة كان بطيئاً وضعيفاً، وكل من التجديدات التكنولوجية المتتالية التي ظهرت كانت تنتشر انتشاراً متسقاً في الأوركومين (وهذا لم يشمل، في العصر الحجري القديم المبكر، الاميركيتين). وانتشار التجديدات التكنولوجية العائدة الى ذلك الزمن كان بطيئاً، ذلك بأن الضرب الجديد من الأداة كان ينقله الناس بأنفسهم من مجتمع الى آخر، ومن الواضح أنه في هذه المرحلة الاقتصادية التي كان قوامها جمع الغذاء، لم يكن من الممكن للمجتمعات البشرية أن تكون مساكنها متقاربة، إذ أن كل فريق كان يعوزه حيز واسع يتجول فيه سعياً وراء لقمة العيش.

يضاف الى ذلك أن الأحياء الشبيهة بالانسان من أهل العصر الحجري القديم المبكر، بما في ذلك أكثر أنواعها نجاحاً أي الانسان العاقل، كانت ذات عقلية محافظة، وأنها كانت تنفر من قبول شيء جديد، حتى ولو كان الصنف الجديد في متناولها. ومع ذلك فالسبب في ان الانتشار كان متسقاً في الأويكومين بالنسبة الى الأدوات الجديدة، مع أن النقل كان بطيئاً، يعود الى ان التجديد لم يكن يحدث كثيراً. فقد كانت الفترات الزمنية بين التجديدات المتتالية طويلة، بحيث تتيح لكل تجديد أن ينتشر في الأويكومين، قبل ان يتبعه التجديد التالي.

وفي تاريخ التكنولوجية نجد أن الثورة التي قامت في العصر الحجري القديم المتأخر وذلك قبل ٧٠,٠٠٠/ ٤٠,٠٠٠ سنة، كانت حدثاً حاسماً. ومن ذلك الوقت والى يوم الناس هذا، تسارعت التحسينات في الأدوات من كل الأصناف. ومع انه كان ثمة توقف محلي وموقت، وحتى في بعض الأحيان نكسات، فإن التسارع هو النزعة الأسمى في تاريخ التكنولوجية في هذه المرحلة الأخيرة.

وفي الفترة الممتدة من حول ٣٠٠٠ ق.م. الى ١٥٠٠م انعكس الأمر بالنسبة الى سرعة الانتشار وسرعة التجديد في مقابل ذلك. فقد كانت تخترع ضروب جديدة من الأدوات، قبل ان يتاح للأصناف الموجودة ان تنتشر في أنحاء الأويكومين. وترتب على ذلك ان هذا الاتساق العالمي الذي كان صفة ملازمة للعصر الحجري القديم المبكر حل محله، في العصور التالية، التباين. فلم يكن للمخترعات الجديدة من الوقت ما يسمح لها بالانتقال من موطنها الأصلي الى أقاصي الأويكومين، قبل ان تتغلب عليها مخترعات أحدث في المنطقة، ولم تلحق سرعة الانتشار سرعة الاختراع وتتغلب عليها ثانية إلا بعد القرن الخامس عشر للميلاد إذ أن قدرة الأويكومين على التوصيل ازدادت فجأة لما اخترعت شعوب غرب أوروبة شكلاً جديداً من السفن الشراعية التي كانت تتمكن من المكوث في البحر شهوراً متطاولة بحيث أنها وصلت الى كل شاطىء، بل وتمكنت من الدوران حول الأرض.

خلال الخمسمئة سنة الماضية أصبحت سرعة كل من الانتشار والاختراع أكبر بكثير جداً مما كانت عليه خلال المليونين الأولين من السنين التي مرت على صنع الأدوات؛ لكن العصر الحديث والعصر الحجري القديم المبكر يشتركان في صفة واحدة. ففيهما قصرت سرعة الاختراع عن سرعة الانتشار. وقد ترتب على ذلك،

في كلتا الحالتين، قيام حالة من الاتساق العالمي على درجة عالية، وذلك على المستوى التكنولوجي.

في العصر الحجري القديم المتأخر انتقل الانسان العاقل من شمال شرق آسية إلى شمال غرب اميركا الشمالية، ومن هناك انتشر حتى وصل الى الطرف الجنوبي لأميركا الجنوبية. هؤلاء المعمرون من العصر الحجري المتأخر فقدوا صلتهم بآسية، باستثناء سكان شواطىء المحيط الهادي حيث تقوم اليوم ولايتا أوريغون وواشنطن ومنطقة كولمبيا البريطانية. وقد مرت فترة لعلها كانت عشرين ألف عام بين استعمار الاميركيتين من شمال شرق آسية وبين الاستعمار الثاني من أوروبة، التي هي شبه جزيرة لآسية. وخلال هذه الفترة المعترضة تطور المجتمع والحضارة في الاميركيتين تطوراً مستقلاً. ومراحل هذا التطور لا تتفق زمنياً مع تلك المراحل المعاصرة لها التي عرفتها آسية وملحقاتها. يضاف الى ذلك أن الأسماء والتواريخ التقليدية لمراحل تاريخ العالم القديم، منذ نهاية العصر الحجري القديم المتأخر، هي خاطئة هنا أيضاً الى درجة معينة.

فعلى سبيل المثال نجد ان العصر الحجري القديم المبكر لم يتميز فقط بتقدمه في تقنية قشر الأدوات الحجرية وترقيقها. لقد تم له على الأقل ثلاثة اختراعات رائدة: تدجين الكلب، والرمي بالقوس، وتصوير الحيوانات والأحياء البشرية وصياغة نماذج لها. إن نجاح صيادي العصر الحجري القديم المبكر في تأنيس الكلاب بحيث أصبحت للانسان خادمته المطيعة، بعد أن كانت الخصم المزاحم له، كان أول نجاح للانسان في أن يجعل الحيوانات غير البشرية تقوم على خدمته. ولما اخترع هذا الانسان القوس سخر قوة طبيعية غير حية، وهي مرونة الخشب لتمكن قوة عضلاته، وذلك بشد القوس، من ان تطلق سهماً الى مسافة أبعد مما يمكن للذراع البشري من إطلاقه دون عون. اما في ما يتعلق بالتصوير وصياغة النماذج فهما أقدم الأعمال الفنية المنظورة المعروفة. فإن الذين صوروا على جدران الكهوف في فرنسة واسبانية، أفادوا من السطوح الخشنة فجعلوا هيئة الحيوانات المصورة عليها تبدو وكأنها بارزة. وفي لبينسكي فير، على شاطىء نهر الداتوب الأيمن، عند البوابة الحديدية، خطا فنانو العصر الحجري القديم المتأخر خطوة أبعد فصاغوا أشكالاً ثلاثية الأبعاد تماماً، ولعله كان للصور الكهفية غاية دينية او على الأقل غاية سحرية. ومركز الطقوس في لبينسكي فير كان بالتأكيد حرماً دينياً. فموقع لبينسكي فير كان نقطة نهاية طبيعية لمسيرة جامعي الغذاء والصيادين، وقد نستنتج من ذلك أن البشرية

مع أنها كانت مضطرة، قبل اختراع الزراعة، الى السير المستمر في سبيل الحصول على لقمة العيش، فقد كانت ثمة جماعات من أهل العصر الحجري القديم المتأخر اتخذت لها نقاطاً ثابتة كانت تزورها في أوقات منتظمة، قلت او كثرت، رغبة منها، على الأرجح، في القيام بطقوس جماعية. ويبدو أن مثل هذه النقاط الطقسية (للعبادة) كانت أصل مراكز السكن الدائمة.

وهكذا فإن « الحجري القديم » هو اسم غير صالح لوصف النشاطات والانجازات التي تمت على يد ما نسميه إنسان العصر الحجري القديم المتأخر، وبالأحرى فإن الحقبة التي بدأت بعيد ابتداء الذوبان الحالي (الجليد) - اي لنقل قبل اثنتي عشرة أو عشرة آلاف سنة - لا يصح تسميتها « بالحجري الحديث ». صحيح أن أقدم اختراع تكنولوجي في العصر الحجري الحديث هو اكتشاف الطرق التي تمكن بها للانسان من شحذ أدواته على الشكل الذي يريده، بدل ان يقشر الصوان أو أي نوع من الحجارة القابل للانشقاق. إذ أن هذا اختراع لم يؤد فقط الى صنع أدوات مناسبة تماماً لقضاء مآربه، بل إنه مكّن الصناع من أن يختاروا موادهم الخام من مجال أوسع لصنع أدواتهم. ومع ذلك فإن الانجاز الذي كان فاتحة عهد جديد لم يكن فن شحذ الأدوات. إنه كان تدجين بعض اصناف من النبات والحيوان. يضاف الى ذلك ان الاختراعات التي تمت في العصر الحجري الحديث مثل الغزل والحياكة وصنع الفخار بدلت في الحياة البشرية تبديلاً لا يقل عن اختراع الزراعة وتربية الحيوان.

ومن المؤكد أن الزراعة وتربية الحيوان كانا أهم الاختراعات البشرية حتى يومنا هذا. ذلك أنهما لم يخسرا قيمتهما كأساس اقتصادي للحياة البشرية، حتى ولا في الأزمنة والأمكنة التي يبدو وكأن التجارة والصناعة قد تغلبتا عليهما. واذا نحن ألقينا نظرة نحو الماضي وجدنا ان الزراعة وتربية الحيوان كانا وسيلتين مباركتين للتوفيق بين تطور قوة الانسان التكنولوجية والحفاظ على سلامة المحيط الحيوي. وهذه السلامة هي الشرط اللازم لاستمرار كل أصناف الحياة، بما في ذلك الحياة البشرية ذاتها. ولما كان الانسان قد نجح في تدجين أصناف من النبات والحيوان، فإنه قد استعاض عن الانتخاب الطبيعي بالانتخاب البشري. وإذ فرض اختياره من أجل غاياته الخاصة، فانه أفقر المحيط الحيوي في سبيل إغناء البشرية، وقد حلت مزروعات الانسان وبساتينه وأغنامه وأبقاره محل العديد من الأصناف التي لا فائدة منها للانسان أو أنها عدوة له، والتي حسبها الانسان

« أعشاباً » و « سامة »؛ ومن ثم فقد حكم عليها بالفناء، ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وفي الوقت ذاته ضمن الانسان بقاء تلك النباتات والحيوانات التي اتخذها لنفسه. لقد تعلم ان يحتفظ بجزء من حصاده السنوي لتزويده بحاجته من البذار للعام التالي، وكان يجدد أغنامه وأبقاره بالاحتفاظ ببعض حملانه وعجوله أحياء كل سنة. وفضلاً عن ذلك فإنه، إذ كان يلجأ الى تخير في التلقيح الحيواني، تمكن من تبديل بعض الأصناف المدجنة بطريقة أسرع وبشكل جذري أكثر، مما لو ترك الأمر للطبيعة لتغيرها بوسيلتها الخاصة.

وقد كان اختراع الفخار سبيلاً لتزويدنا بثبت منظور للتباين في الحضارة. ففي الفخار تتبدل أنماط الشكل والتزويق بسرعة تكاد تشبه التبدل في الثياب؛ وقطع الفخار لا تبلى، فيما تهترىء الثياب، إلا في الحالات النادرة إذ تحفظ في الرمل الجاف او في الخُثّ المعزول عن الهواء. ومن هنا كان تصنيف قطع الفخار طبقات في المكان الذي قطنه الانسان بالنسبة الى الزمن الذي مر بين اختراع الفخار واختراع الكتابة، هو أدق مقياس للزمن التاريخي، وهو أيضاً أضمن ما يدل على الحدود الجغرافية للحضارات المتميزة، ومؤشر لتمازج الحضارات أو انصهارها عن طريق انتشار الفنون وعن طريق الهجرة او الفتح. ففي العالم القديم والاميركيتين على السواء نجد ان تنوع أساليب الفخار هو مفتاح لتاريخ تطور الحضارات الاقليمية وتباينها في العصر السابق للمدنية - وحتى بعد ظهور المدنيات في الأمكنة التي لم يرافق هذا الظهور فيها اختراع الكتابة، او حتى اذا اخترعت الكتابة لكنها أهملت في ما بعد، ولم تحل رموزها الى الآن.

وقد خلفت حضارات العصر الحجري الحديث الاقليمية حضارة العصر الحجري القديم المتأخر في أكثر أقسام العالم القديم من الأويكومين. (في الاميركيتين، كما لاحظنا من قبل، اتخذت حضارة العصر الحجري القديم المتأخر، التي حملها المستعمرون الآتون من شمال شرق آسية، في تطورها سبلها الخاصة بها). وقد تطورت حضارة العصر الحجري الحديث - في العالم القديم - في منطقة معينة، هي جنوب غرب آسية بشكل تدريجي الى حضارة العصر النحاسي عبر دور انتقالي سمي الخلكوليثي. وهو عصر استعمل فيه الحجر والنحاس متعاصرين باعتبارهما المادة الخام لصنع الأدوات. وفي واقع الأمر فان الحجر ظل معتمداً لصنع بعض الأدوات - أعم الأنواع وأنفعها - لمدة طويلة حتى بعد ان استعمل النحاس والبرونز والحديد، كل بدوره، لصنع الأسلحة والحلي. ومن هنا فان العصور التي سميت بأسماء المواد المختلفة التي استخدمت في صنع الأدوات كانت

تتداخل فيما بينها زمنياً. فالعصر الحجري الحديث لم ينته حقاً إلا لما خلف الحديد الحجر نهائياً بوصفه المادة التي تصنع منها الآلات الزراعية والأوعية المنزلية غير الفخارية - وكان هذا في تواريخ مختلفة ومناطق مختلفة.

فيما أصبح تدجين النباتات والحيوانات الوحشية لحمة الحياة البشرية وسداها، فان اختراع التعدين هو عنوان الروعة التكنولوجية للانسان. فالتعدين هو نهاية سلسلة من الاكتشافات الناجحة، ولم تكن نهاية هذه السلسلة بينة من قبل. فكل حلقة منها كانت بنت عمل عقلي فذ. فقد وقع نظر إنسان العصر الحجري الحديث، أول الأمر، على قطع من المعدن الخالص على سطح أرض الأويكومين. وقد تعامل مع هذه القطع المعدنية كما لو كانت حجارة، واكتشف انها، على خلاف الحجارة العادية، هي طيعة. ثم اكتشف، فيما بعد، أنها، اذا أحميت أصبحت مرنة موقتا. واذا رفعت حرارتها الى درجة عالية، تذوب. وهكذا فقد عثر الانسان، في المعدن، على مادة خام هي، مثل الدلغان (الصلصال)، أكثر قبولاً للتشكل من الحجر. وكان الاكتشاف التالي هو أن المعادن يعثر عليها، لا في حالتها الخالصة فحسب، ولكن كعناصر في ركاز (معدن خام)، وأنه اذا أحميت الخامة المعدنية الى درجة عالية بحيث يذوب محتواها المعدني، فان المعدن الأصلي يمكن تخليصه من الشوائب. وكانت الخطوة الأخيرة هي ان الانسان اكتشف أن أغنى المخزون من الركاز موجود تحت سطح الأرض، ثم جاء اختراع تقنية التعدين.

عند هذه الوقفة كان قد مرّ على استخدام التعدين في العالم القديم من الأويكومين نحو ستة آلاف سنة، ونحو ٢٨٠٠ سنة في البيرو على وجه الاحتمال. وقد كان له آثار ثورية على كل الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للحياة البشرية وعلى التفاعل بين الانسان والمحيط الحيوي الذي هو المكان الوحيد الصالح لعيشه. فقد رفع التعدين مستوى الحياة المادية للبشرية، لكن الثمن الذي دفعه المجتمع لقاء الخبرة التعدينية ظهر في تقسيم العمل. أما من ناحية البيئة فقد كان الثمن الاستهلاك المستمر للمادة الخام التي هي في الوقت نفسه نادرة وغير قابلة للتعويض.

لقد كان الحداد والمعدِن أقدم المتخصصين في العمل. فقد كان على كل منهما أن يخصص كل وقته لصناعته، بدل الاستمرار في أن يكون صاحب كارات مختلفة، على نحو ما كان عليه صياد العصر الحجري القديم أو مربي الحيوانات في العصر الحجري

الحديث. فقد كان تقسيم العمل هذا نتيجة للتكنولوجيا، وترتب على ذلك، اجتماعياً، تبادل المنتوجات الناشئة عن تنوع الأعمال. وقد خلق هذا مشكلة لم تحل بعد، ولعلها غير قابلة للحل، وهي المشكلة الأخلاقية - فما هو المبدأ الذي يمكن اتباعه في تقسيم منتوج المجتمع بكامله على الفئات المختلفة من المنتجين؟ فالمنتوج بكامله هو ثمرة عمل تعاوني يقوم به جميع المسهمين في المجتمع، لكن ما ينتجه كل واحد ليس متكافئاً في تأثيره او قيمته. والتفاوت ظاهر، لكن هل من الممكن ان ينعكس ذلك في توزيع الحصص بحيث يرى فيه جميع الفرقاء أنه توزيع منصف؟ هل من اللازم ان تكون ثمة محاولة لتوزيع منصف؟ أم هل انه من الصحيح، أو على الأقل مما لا يمكن تجنبه، أن ينال حصة الأسد اولئك الذين يتمتعون بالقوة الراجحة؟

إن اختراع التعدين زرع بذور التباين الطبقي والخصومة الطبقية. واسم العائلة « الحداد » هو دليل على أنه في القرية الخلكوليثية، كان هو يعتبر أنه قروي من نوع يختلف عن الغالبية غير المتخصصة من سكان القرية. ولعله من الصحيح ان العصر الحجري القديم قد عرف مبادىء التخصص التكنولوجي - فانسان العصر الحجري القديم عرف ان الأنواع المختلفة من الصوان كانت ذات قيم مختلفة بالنسبة الى صنع أدواته؛ لكنه من غير المحتمل ان يكون أي عامل، قبل اختراع التعدين، قد أصبح متخصصاً متفرغاً، بحيث أنه يستطيع أن يحصل على قوت يومه عن طريق المبادلة فقط، دون ان يكون له اية مشاركة مباشرة في العمل الأساسي الذي تقوم به الجماعة لتزويد نفسها بالمواد الغذائية.

والتبديل الثاني من التبديلات الحاسمة التي نشأت عن اختراع التعدين هو استعمال المواد الخام التي لا يمكن تعويضها والنادرة كذلك. إن تعويض الزارع عن محاصيله الزراعية وحيواناته كان مضموناً له، بسبب أن هذه كانت أشياء حيّة، والحياة قادرة على استيلاد ذاتها طبيعياً، ما لم يحل بين « الطبيعة » وعملها. فكل ما كان يطلب من الانسان، لضمان الاستمرار في النباتات والحيوانات المدجنة، هو أن يكون له بعد نظر، وأن يضبط نفسه بعد في ذلك. فالفلاح يجب ان يوفر القدر الكافي من حصاده وحملانه وعجوله ليزود نفسه، في العام التالي، بالبذار وليحافظ على عدد مواشيه وأبقاره. ويتوجب عليه أيضاً أن يتورع عن التمادي في استغلال الأرض الأم. يجب عليه ان يقاوم الرغبة الجامحة في اجهادها (الأرض الأم) عن طريق الزيادة في الزرع أو الرعي. وعلى شرط ان يكون للفلاح بعد نظر وأن يضبط نفسه، تستمر « الطبيعة » في خصبها

لمصلحته. وفي الواقع فليس ثمة سبب يحول دون ان يستمر العمل في الزراعة وتربية المواشي، بعد ان اخترعتا، وذلك الى ان يصبح المحيط الحيوي غير صالح للعيش فيه. وبالمقابلة فإن تاريخ التعدين هو تاريخ البحث المستمر عن مصادر جديدة للمعدن للاستعاضة بها عن المصادر التي كان قد تم اكتشافها وكانت قد استهلكت. فالمعادن، بما أنها مادة غير حية، لا تكمل النقص في ما يتطلبه الانسان منها عن طريق الاستيلاد، وهذا ينطبق على المواد التي كانت عضوية من قبل مثل الفحم الحجري. وفي وقتنا هذا بلغ استخراج المصادر الطبيعية التي لا تعوض درجة بالغة الخطورة، بحيث اننا أصبحنا على قاب قوسين من استهلاك كل المخزون منها التي تصل أيدينا اليه.

وثمة اتساق، في الزراعة وفي تربية المواشي، بين قدرة الانسان التكنولوجية وانتاجية « الطبيعة ». وأما مع اختراع التعدين فقد أصبحت مقدرة الانسان التكنولوجية تتطلب من « الطبيعة » ما ليس باستطاعتها تلبيته عبر الزمن الذي سيظل فيه المحيط الحيوي صالحاً للعيش فيه. واذا نحن أخذنا العشرة آلاف سنة الماضية من التاريخ البشري أساساً للألفي مليون من السنين التي تأمل البشرية في إمكان استمرار حياتها عبرها، فقد نصل الى نتيجة هي أنه كان من الأفضل لأحفادنا لو ان التعدين لم يخترع قط، ولو أن الانسان، وقد بلغ مستوى العصر الحجري الحديث في التكنولوجيا، لم يوفق الى الوصول الى مستوى أرفع في إنجازه التكنولوجي. ولو أن نجاح الانسان في تقنية صنع أدواته توقف قبل استعماله المعادن، لكانت أعداد البشرية وثروتها المادية اليوم، ولا شك، جزءا فقط مما هي عليه الآن. ومن الناحية الأخرى فان بقاء البشرية واستمرارها كان أضمن، إذ لن نقع في خطر استهلاك المصادر التي لا تعوض. حقاً إن الحجر الصلب هو الآخر مثل المعدن، لا يمكن تعويضه لأنه ليس بذات حياة ومن ثم فإنه لا يجدد نفسه؛ لكن، من الناحية الثانية، فإن الحجر، إذا قورن بأقل المعادن ندرة، وافر بحيث يبدو وكأنه لا يمكن أن يستهلك. كان من الأيسر والأقل إيلاماً لأجدادنا من أهل العصر الحجري الحديث أن يظلوا في مستوى ما قبل المعدن، مما هو بالنسبة لأحفادنا في أن يعودوا الى ذلك المستوى، فيما اذا بدا لهم ان هذا هو البديل الوحيد لفنائهم.

ولكن اين اخترعت الزراعة وتربية الماشية والتعدين، في الأويكومين، للمرة الأولى؟ والكلمتان الاخيرتان من هذا السؤال هما جوهرة؛ إذ ليس ما يؤكد لنا ان اختراعات الانسان تمت في مكان واحد وزمن واحد فقط. فأي اختراع يتم في زمن أو مكان معين

يمكن بالطبع ان يقتبس في مكان آخر وفي وقت لاحق، وثمة سبيل غير مباشر للانتشار هو المعروف « بالحافز على الانتشار ». فان رؤية اختراع أجنبي أو الأخبار عنه قد يدفع بالقوم لا الى اقتباسه كما هو، بل الى خلق مقابل له على أسلوب خاص بهم، ومع ذلك فانه من الممكن ان تتم اختراعات متطابقة تماماً في بضعة أماكن وأزمنة وتكون، مع ذلك، مستقلة. إن ذلك ممكن لأن الاختراعات هي من صنع الطبيعة البشرية، والطبيعة البشرية متسقة بمعنى ان لها صفات روحية سيكولوجية فيزيولوجية معينة، والتي تشترك فيها كل النماذج للنوع الواحد، ولو ان هذه النماذج تعبر عن هذه الصفات المشتركة بطريقتها الفردية الخاصة بها، وكل اختراع قد يكون له أي من هذه البدائل الثلاثة التاريخية. وفي الكثير من الحالات ليس لدينا دليل ليوضح لنا فيما اذا كان اختراع معين ظهر في مكان أو زمان معين، قد كان خلقا مستقلاً أم أنه كان استجابة لحافز أم انه اقتبس كما هو تماماً.

ونحسب أنه التزاماً بهذه الأوضاع التي ذكرناها، يمكننا القول بشيء من الثقة بأن الزراعة وتربية الماشية والتعدين وأيضاً تقنية قلع قطع كبيرة وثقيلة من الحجر ونقلها ـ هذه كلها قد اخترعت للمرة الأولى في جنوب غرب آسية وهي رقعة النقل الرئيسة في الجزء المعروف بالعالم القديم من الأيوكومين، وباستطاعتنا حتى تحديد الرقعة في المنطقة بشكل أدق ـ إنها لا تشمل الجزيرة العربية، إلا في زاويتها الجنوبية. إذ أنه لما كانت الزراعة وتربية الماشية في طريق اختراعهما، كان الجزء الأكبر من الجزيرة العربية، بما في ذلك طرفها في أقصى الشمال، وهو بادية الشام اليوم، قد أصبح جافاً بحيث لم يكن مسرحاً ملائما لتدجين النبات والحيوان. والزاوية الجنوبية من الجزيرة العربية هو الجزء الوحيد الذي ظل خصباً بسبب الأمطار الموسمية. وهذه الزاوية من اليمن عزلها عن غيرها تشقق بقية الجزيرة العربية قبل اختراع السفن البحرية وتدجين الجمل العربي.

إن مهد الزراعة وتربية الماشية والتعدين في منطقة جنوب غرب آسية لم تشمل الغرين الذي حمله نهرا دجلة والفرات في مجريهما الأدنيين. إذ أنه قبل ان تنزح المياه عن هذا الغرين ويروى بحيث يصبح صالحاً لسكنى الناس فيه واستغلاله زراعياً، لم يكن يسمح للانسان وحيواناته ونباتاته المدجنة التماس المأوى فيه ـ فقد كان متاهة من مجاري المياه التي تخترق الأقصاب ـ وهي كالمستنقعات (الأهواز) التي تغطي المنطقة الواقعة في مجرى الفرات الأدنى اليوم. ومن الناحية الثانية، فإن المنطقة التي اخترعت فيها الزراعة

وتربية المواشي والتعدين لأول مرة كانت تشمل، إضافة إلى الجزيرة الفراتية (ميزوبوتاميا) وسورية ولبنان وفلسطين، جزءا على الأقل من جنوب آسية الصغرى وغرب إيران وتركستان. والحبوب والحيوانات التي دجنت في هذه المنطقة، خلال زمن العصر الحجري من تاريخها، كانت موجودة من قبل في حالتها البرية. أما في الأماكن الأخرى فان هذه النباتات والحيوانات بالذات يبدو أنها نقلت من جنوب غرب آسية إما بواسطة مستعمرين خرجوا من هذه المنطقة ذاتها، أو عن طريق شعوب محلية أصلية، هي التي اقتبست هذه الاختراعات. وهي، باقتباسها إياها، تم لها بدورها الانتقال من حياة العصر الحجري القديم الى حياة العصر الحجري الحديث، وفي النهاية الى حياة العصر الخلكوليثي فالعصر النحاسي فالعصر البرونزي.

وفي الوقت الذي يصنف فيه هذا الكتاب كانت مواضع قليلة من العصر الحجري الحديث في جنوب غرب آسية ومصر قد تم الكشف عنها؛ وباستمرار أعمال التنقيب، يستمر تصورنا لحالة العصر الحجري الحديث، في هذه المنطقة حيث ظهرت هذه الحياة لأول مرة، في التغير، كما كان يتغير دوماً في ضوء أعمال الكشف والتنقيب والحفر المتتالية. ومع ذلك فثمة بضع نقاط أصبحت واضحة أمامنا. وأماكن الاستقرار التي تم التنقيب عنها يتراوح ابتداؤها بين حول سنة ١٠,٠٠٠ ق.م. (وهو التاريخ المقدر بالنسبة الى أريحا في العصر السابق لاختراع الفخار) والألف الخامس ق.م. وفي أماكن غير أريحا يبدو ان الاستيطان بدأ في الألف السابع أو أوائل الألف السادس ق.م. ونعرف أيضاً أن الانتقال من جمع المواد الغذائية والصيد الى الزراعة وتربية الماشية تم في واحات تغذيها الينابيع او في سهول فيضانية ذات تربة خصبة حملتها الأنهار الصغيرة الى السهول الواقعة عند أطراف الجبال التي تنحدر تلك الانهار منها. وكل هذه الحقول المحتمل تطورها كانت تروى بطريقة طبيعية. وهذه الأماكن، على كل، يختلف واحدها عن الآخر في الارتفاع والمناخ. فأريحا تقع في واد ينخفض عن سطح البحر ومناخها مداري وفي الناحية الثانية فان شطال هيوك، الواقعة في هضبة آسية الصغرى، وتبي سيالك في الهضبة الايرانية تغطيهما الثلوج جزءا من السنة.

وفي السهول الفيضانية وفي الواحات التي تغذيها الينابيع، تعوض الطبيعة عن الإنهاك الذي يصيب التربة بسبب استغلالها. ذلك بأنها تجدد خصب الحقول بما تحمله من الطمي. فواحة أريحا وغوطة دمشق تحافظان على خصبهما بهذه العملية الطبيعية. على ان

هذه المنحة نادرة الوجود، ذلك بأن القسم الأكبر من منطقة جنوب غرب آسية، حيث اخترعت الزراعة، كانت ولا تزال، منطقة أمطار. وبعض الجماعات الزراعية في جنوب غرب آسية كانت تعتمد حتى في الحصول على مياه الشرب على الأمطار فقط. والمطر لا يحمل طمياً، ومن ثم فان المنتوج في الزراعة التي تعتمد في ريها على مياه المطر ينقص بسرعة. وأيسر السبل - عند الناس - أن ينظر الى التربة التي أصابها الانهاك موقتا، كما لو كانت منجماً تم استهلاك موارده؛ هذا فيما اذا كان الفلاح يعرف انه على مقربة منه توجد أرض بكر يمكنه ان ينتقل اليها. حتى في العصر الحديث نجد ان المعمرين الزراعيين الذين ذهبوا من أوروبة الى اميركا الشمالية ستمروا في الاتجاه غرباً، كما نجد ان الفلاحين الروس زحفوا شرقاً، مع أن أسلافهم كانوا قد اكتشفوا قبل وقت طويل تقنية تمكنهم من تجديد خصب التربة المروية بماء المطر دون مساعدة « الطبيعة ».

وقد تم اكتشاف هذه التقنية تدريجا. ففي مناطق الغابات لجأ الناس الى حرق الأشجار التي قطعت للحصول على أرض جديدة لاستنبات النباتات المدجنة، وبذلك حصلوا على تسميد صناعي (من الأشجار المحروقة) لتمكينهم من القيام بزراعة بعلية مستقرة. فالرماد المسمد يسر للمزارع ان يغنم منتوج موسم أو موسمين من الأرض الجديدة. وكان من الممكن لهذه العملية ان تستمر فيما لو سمح، بعد ذلك، للأشجار ان تنمو ثانية في الأرض الجديدة. وبهذه الطريقة، طريقة القطع والحرق، كان من الممكن لقطعة من الأرض ان تستغل مرة كل عشر سنوات. واذا كان للمزارع عشر قطع تحت تصرفه لاستغلالها، كان باستطاعته ان يتنقل في دائرة محددة. اما مشكلة الحصول على الحاجات الغذائية من الزراعة البعلية دون التنقل، حتى ولو محلياً، فقد حلت نهائياً لما لجأ الناس الى تسميد الأرض المتروكة (البور) بروث الماشية بدل انتظار نمو الأشجار كي تزود الأرض بالرماد من جديد؛ ولكن في الفترة السابقة إلى مثل هذا الاكتشاف، كان مضطراً الى الانتقال الى مناطق غير مستغلة في الأويكومين، على نحو ما يفعل الباحث عن المعادن باستمرار حتى يوم الناس هذا.

وفي الوقت ذاته انتشرت الزراعة وتربية الماشية، تلازمها فنون الغزل والحياكة وصنع الفخار ويتبع ذلك فنون التعدين وقطع الحجارة الضخمة ونقلها من وطنها الأول في جنوب غرب آسية عبر الجزء الأكبر من العالم القديم. وقد تم هذا الانتشار إما عن طريق الهجرة او عن طريق الاقتباس. وسنجد ان مختلف المدنيات الاقليمية في العالم القديم

تنمو، في أزمنة متباينة، من هذا الأساس المشترك العائد الى العصر الحجري الحديث الذي امتدت أسبابه ـ في أزمنة متفاوتة أيضاً ـ الى مدى بعيد عن موطنه الأصلي في جنوب غرب آسية. وعلى كل حال فإن هذا الانتشار للحضارة السابقة للمدنية في العالم القديم، في شكله الأخير، لم يكن تاماً ولا كان متسقاً.

فقط ظلت استرالية، على سبيل المثال، حظيرة لفئة من جامعي الغذاء من الانسان العاقل من السابقين للعصر الحجري الحديث، التي أتيح لها ان تجتاز الخط الجغرافي الفاصل بين منطقتين: الواحدة تعيش فيها النباتات والحيوانات القارية والأخرى تعيش فيها النباتات والحيوانات الاسترالية. وكان هؤلاء المستوطنون الأوائل من الأناس في استرالية مع كلابهم أول الثدييات غير ذات الجراب التي وصلت الى تلك الديار، ولم يكن ثمة من يمكن ان يجاورهم من أهل العصر الحجري الحديث، وبذلك ظلوا يحتلون ملجأهم البعيد دون ان يتحداهم أحد، حتى « اكتشفت » استرالية في القرن الثامن عشر على أيدي الأوروبيين الغربيين المحدثين. لقد نجح ملاحو العصر الحجري الحديث في احتلال الأرخبيل البوليتزي، لكن نيوزيلاندة، التي كانت أثمن غنيمة من الأرض، لم يصلوا اليها إلا قبل ان يدركهم التوسع العالمي الحديث لأوروبة الغربية بنحو ستة قرون فقط.

إن التباين في سبل الحياة التي عرفها العصر الحجري الحديث، عبر الزمن الذي اجتازته في انتشارها من مصدرها الأصلي في جنوب غرب آسية، تصوره لنا المقارنة بين التنوع الاقليمي لأشكال فخاريات العصر الحجري الحديث وتزويقها وبين الاتساق المسكوني لأدوات العصر الحجري القديم. لقد أشرنا من قبل الى أن القطع الفخارية هي مؤشرات منظورة لسبل العيش، ويبدو ان التباين في الأساليب المحلية لفخار العصر الحجري الحديث يعود، في غالبيته، الى روح المبادرة المحلية، فمما يدعو الى التساؤل ان نتمكن من العثور على إيحاء من أرض المشرق قد يصل الى البقايا المغليثية التي أقيمت على سواحل غربي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي من أوروبة، وفي الجزر القابعة عبر هذه السواحل، من جنوب اسبانية والبرتغال الى الدانمرك ومن مالطة الى ستونهنج.

يبدو أن المغليث (الحجارة الضخمة غير المشذبة) في أوروبة، مثل أهرام مصر الفرعونية، ستصمد مدة أطول من كل الأعمال المحلية التي صنعها الانسان. ويبدو انها قد أقيمت (أي المغليث) خلال الألفين من السنين الواقعة بين ٣٥٠٠ و ١٥٠٠ ق.م. وهي الفترة التي انتقلت فيها أوروبة الغربية من العصر الحجري الحديث عبر العصر

الخلكوليثي الى العصر النحاسي فالعصر البرونزي. ومع أن البنائين الذين أقاموها كانوا لا يعرفون الكتابة، فان هذه الأبنية بالذات، وما يرافقها من أعمال فنية منظورة، تشهد صامتة على أنها أقيمت لخدمة عبادة الأسلاف و « الهة أم »، وهما شيئان لهما مقابلان مشرقيان، ومع ذلك فإن الصلة بين المغليث في أوروبة الغربية والمشرق أمر غامض جداً. ففي المقام الأول نجد أن المنطقة التي انتشرت منها ديانة المغليث وتكنولوجيته على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي في أوروبة الغربية كانت جنوب إسبانية والبرتغال - ولنقل في الطرف الأوروبي الأبعد ما يكون عن مصر والبحر الأيجي، وفي المقام الثاني لجد ان بعض الأعمال المشرقية التي تشبهها أنصاب المغليث في أوروبة الغربية، هي أحدث عهدا من هذه لا أقدم منها. والقبور القفيرية في لوس ميلارس، الواقعة على شواطىء البحر المتوسط في جنوب اسبانية، يبدو أنها أقدم من نظيراتها في ميكاني بأكثر من ألفي سنة. ومع ان ستونهنج يكاد يكون أحدث عهداً من أهرام الأسرة الرابعة من فراعنة مصر بنحو ألف سنة، فإن أبنية لقبور في لوس ميلارس الأقل ضخامة قد تكون أقدم ببضعة قرون من البناء الذي هو نظير لها في هرم زوسر من الأسرة الثالثة الموجود في سقارة.

والتباين في المراحل الأخيرة من حضارة قبل المدنية يبدو في كل أعمال التدجين الأصلية، فالكرم والزيتون والتين والخوخ والكرز والدراق والتفاح والإجاص وكذلك الأبقار والماعز والخراف تبدو وكأنها أصيلة في جنوب غرب آسية، وكأنها دجنت هناك في العصر الحجري الحديث؛ لكن الأرز والنباتات الجذرية والأشجار الحمضية والموز، وكذلك الأبقار ذات السنام والفيلة والجمال، بنوعيها العربية والأوسط آسيوية، دجنت في مناطق تقع خارج جنوب غرب آسية. على أساس ما نعرف يبدو ان هذا العمل الكبير في التدجين قد تم بشكل مستقل تماماً، ولعلها لم تكن بإيحاء من جنوب غرب آسية حتى ولو نتيجة للباعث الانتشاري. ولعل شجرة النخيل لم تدجن إلا لما تم شق الأرض في سومر ومصر، المنطقتين الشديدتي الحرارة والرطوبة. وأقدم عصر لدينا قيود منه عن الجمال العربية المدجنة هو الجزء الأخير من الألف الثاني ق.م. وأقدم دليل عن تدجين الجمل الأوسط آسيوي لا يعدو ٦٠٠ ق.م. هذا إذا صح أن اسم زرادشت تفسيره الصحيح هو « مع الجمال الذهبية ».

وبالنسبة للأميركيتين فان الحيوان المدجن الوحيد الذي حمله المستعمرون من آسية

معهم هو الكلب، والحيوانات الأميركية الأصلية التي دجنوها هي اللاما والألبكا والنحل والخنزير الهندي. وفي الناحية الأخرى فان عدد النباتات الأميركية الأصلية التي دجنت هناك يقابل عدد النباتات التي دجنت في العالم القديم. والأميركيتان والعالم القديم لم يكد يكون بينهما أية نباتات مدجنة مشتركة قبل وصول الناس من غرب أوروبة الى الاميركيتين.

ويبدو ان هذا يشير الى ان الزراعة لخترعت في الاميركيتين مستقلة تماماً، ونحن إذا قبلنا بهذه النتيجة فلنا ان نحسب أن اختراع البرونز (أي النحاس الممزوج بالقصدير) في البيرو جاء أيضاً مستقلا عن اي إيحاء من العالم القديم. أما قضية المدنيات الأميركية السابقة لكولمبوس، وفيما اذا كانت خلقاً مستقلاً أم لا، فهي لا تزال موضع جدل عنيف. ولعل قلة من الباحثين يرفضون الرأي القائل بأن بعض عناصر المدنيات الأميركية له أصل من العالم القديم؛ ولكن الرأي السائد الآن هو أن هذه العناصر التي جاءت من العالم القديم ذات أهمية ضئيلة، وأن المدنيات الأميركية السابقة لكولمبوس كانت، من حيث الجوهر خلقاً مستقلاً تم في المكان نفسه على أيدي المهاجرين من أهل العصر الحجري القديم المتأخر.

إن فجر أقدم المدنيات في العالم القديم يؤرخ بحوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. وفي هذا الوقت بالذات كانت الحضارات الأميركية السابقة لكولمبوس، والتي ازدهرت في ما بعد، اصبحت مدنيات تضاهي مدنيات العالم القديم. هذه كانت قد أخذت، على وجه التقريب، الخطوات الأولى في سبيل تدجين الذرة الصفراء، التي قيض لها ان تصبح فيما بعد الغذاء الزراعي الرئيسي. فقد عثر في كهف كوكسكاتلان قرب بوبلا في مرتفعات المكسيك، في أميركا الوسطى، على أكواز من الذرة الصفراء، في طمي رسوبي يعود الى حوالي سنة ٤٠٠٠ ق.م، وقد تكون هذه نوعاً من نبات الذرة البريّ أو لعلها من نبات طرأ عليه شيء من التبدل بسبب الخطوات الأولى في سبيل تدجينه. وكذلك وجدت أكواز في كهف بات في نيو مكسيكو داخل طمي رسوبي يعود تاريخه الى حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م، وفي هذه تظهر عملية التدجين بشكل أوضح. وهكذا فإن فجر الحياة الزراعية في أميركا الوسطى كان مواكباً زمنياً لفجر المدنية في العالم القديم، وكان بذلك متأخراً نحو أربعة آلاف سنة عن بدء الزراعة في العالم القديم في جنوب غرب آسية.

فحضارات العالم القديم وحضارات أميركا قبل كولمبوس كانت تتطور وفق مسارات

منفصلة. وفي حدود العالم القديم بالذات دشن فجر المدنية عصراً كان فيه التباين الاقليمي يتزايد، وقد مر نحو من ٤٥٠٠ سنة قبل أن يقهر الأوروبيون الغربيون المحيط وبذلك دفعوا بالتيار نحو التساوق ونحو الوحدة أيضاً، الأمر الذي لم يكن له مجال في العصر الحجري القديم المبكر. وفي وقت تصنيف هذا المؤلف نجد ان القوى المفرقة التي سادت الموقف، عبر العصور التي مرت بين الزمنين، لا تزال تقاوم بضراوة، وليس ثمة ما يدل على ان الحركة التي تؤيد الوحدة يمكن ان تربح المعركة. ومع ذلك فإن الذي يمكن رؤيته الآن هو أن الشرط الذي لا يتم بقاء البشرية إلا به، هو توحيد الأويكومين بجملته، وهذا ليس على المستوى التكنولوجي فحسب، بل على كل مستوى للحياة بمجملها.

٦ــ شق غرين دجلة والفرات وخلق المدنية السومرية

أشرنا في الفصل السابق إلى أن اختراع الزراعة خلق مشكلة وهي كيف يمكن التوصل إلى تقنية تجعل من الزراع جماعة مستقرة، وذلك بعد أن كان هؤلاء الزراع قد تخطوا الحواجز القائمة في الواحات الصغيرة، والقليلة السكان، الواقعة في جنوب غرب آسية، وهي الواحات التي كانت تروى طبيعياً، والتي يبدو أن الانتقال من جمع الغذاء إلى إنتاجه قد تم فيها.

وأما في المناطق البالغة الاتساع في العالم القديم من الأويكومين، حيث كان على الزارع ان يعتمد على ماء المطر لريّ مزروعاته، فقد كان ثمة تقدم تدريجي على مراحل. فحالة الزراعة المتنقلة حيث كان الحقل الذي أنهكه الاستغلال يهجر بالمرة، حلت محلها، في المجال الأول، الزراعة التي تعتمد الدورة الزمنية. وقد تم ذلك عن طريق تسميد الأرض الموقت بإحراق الأشجار، فأصبح من الممكن أن تستغل التربة ثانية لكن بعد فترة زمنية تسمح للاشجار البرية الجديدة بالنمو فيها لتسميد الأرض المتروكة فيما بعد.

وقد مر على الإنسان أجيال، بل لعلها قرون، في المنطقة التي تعتمد على الأمطار، قبل أن يكتشف كيفية تحصيل قوت كاف من مجموعة من الحقول المتقاربة بحيث يمكن للزارع وعائلته أن يستغلوها من مكان سكن ثابت، ومن ثم يمكنهم ان يورثوا أحفادهم البيت والحقول مجتمعة. وهذا الالتصاق بقطعة من الأرض الصالحة للاستغلال أصبح يعتبر فيما بعد نوعا من العبودية، وذلك في المجتمعات التي كانت تزود أبناءها بإمكانات اقتصادية بديلة. أما في الأصل فقد كان استقرار الزراع في أرض معينة مكافأة اجتماعية طال انتظارها، إذ أنه بذلك حقق غاية تكنولوجية مر عليه زمن وهو يتابعها.

بعض الذين هاجروا ـ بل لعل ذلك يشمل الغالبية منهم ـ من الواحات إلى منطقة الأمطار من الأويكومين وتفرقوا في أنحائها فعلوا ذلك قبل ان يتعلموا الاستقرار في مكان

واحد دون الاعتماد على الريّ الطبيعي. وعلى كل فقد كان ثمة منطقة واحدة، تقع على مقربة من مهود الزراعة في واحات جنوب غرب آسية تنتظر شقها وحفرها بتصفية مياهها وريها صناعياً، لتزويد الرواد بمردود أكبر مما كان يحصل عليه في واحة الأجداد فضلا عن أن يكون على مقياس أرضي أكبر بكثير. وهذه الأرض المرجوة كانت المستنقع ـ الغاب في حوض دجلة والفرات الأسفل. فقد كان هنا مزيج في غاية الفوضى بين غرين غنيّ بعناصر الخصب الى ماء غني كذلك بالسماد.

وقد كانت السيطرة على المستنقع ـ الغاب إنجازٌ اجتماعياً أكثر منه إنجازاً تكنولوجيا. وفي الواقع فان كل الإنجازات التكنولوجية التي تمت على يد البشرية، كانت انجازات اجتماعية ايضاً. فالانسان كائن اجتماعي، فما كان لأسلافنا من أهل ما قبل الانسان ان يستمروا ويصبحوا بشرا، لولا أنهم قد صاروا حيرانات اجتماعية قبل ذلك. ويبدو أن محدودية الانسان الاجتماعية هي التي كانت تحد من تكنولوجيته غير المحدودة. فالاجتماعية هي الشرط اللازم لصنع حتى أبسط الأدوات واستعمالها. ولعل مستغلي الأرض في الواحات الصغرى في جنوب غرب آسية كانوا قد اكتشفوا كيف يمكن تحسين هبة الطبيعة المحلية للري بطريقة صناعية.

وكان على الإنسان، في سبيل استغلال هبة الرافدين من الغرين، أن يطبق هذه التقنية التي حذقها في الري الصناعي، على مقياس كبير كان يتطلب تعاونا بين عدد من الناس أكبر بكثير من أي عدد من الناس تعاونوا في السابق، في أي مشروع كان. وهذا الفرق في مقياس التعاون لم يكن مساويا للفرق في الدرجة فقط بل كل فرقا في النوع. وقد كانت هذه ثورة اجتماعية ولم تكن ثورة تكنولوجية.

وقد خطط لتغلب الإنسان على الغرين زعماء ذوو مخيلة وبعد نظر وضبط للنفس بحيث كانوا يعملون لمردود هو كبير في النهاية، لكن ليس آنياً. وما كانت خطط هؤلاء الزعماء لتتجاوز أحلاما بعيدة عن التحقيق لو أنهم عجزوا عن إقناع عدد كبير من رجالهم من السير قدما نحو أهداف لعلهم لم يدركوا كنهها. وقد كان للجماهير إيمان بزعمائها، ومثل هذا الإيمان بالزعماء كان قائما على إيمان بآلهة تتمتع بالقدرة والحكمة، الأمرين اللذين كانا يعتبران حقيقة بالنسبة إلى الزعماء وأتباعهم. والأداة الجديدة الوحيدة التي لم يكن عنها غنى هي الكتابة. فقد كان الزعماء بحاجة الى هذه الأداة لتنظيم الناس، وتقدير الماء والتراب بكميات ودرجات كانت أكبر من أن تدبر بدقة بالاعتماد

على تذكر ترتيبات وتعليمات شفوية دون قيود. وقد كان اختراع الكتابة السومرية رائعة من روائع العبقرية الخلاقة؛ لكن هذه الكتابة، وهي اقدم نظام معروف، كانت معقدة وملتفة، ومن ثم فقد ظل استعمالها مقصوراً على فئة محدودة؛ ولكنها خدمت المجتمع ككل وفي الوقت ذاته ثبت تفوق الكاتب على الغالبية الأمية.

وقد خلق السومريون، عن طريق فتح الغرين في حوض دجلة والفرات الأدنى، نوعا جديدا من المجتمع البشري ـ هو المدنيات الاقليمية، ونحن نعزو هذا الإنجاز إلى السومريين لأن الكتابة السومرية، وقد حلت رموزها، إنما تنقل إلينا لغة السومريين في ذلك الدور من تطورها؛ لكننا لا نستطيع الجزم بأن السومريين هم الذين اخترعوا الأساس الأول لهذه الكتابة، أو أنهم هم أقدم الطلائع من سكان المستنقع ـ الغاب الذي تحول فيما بعد إلى أرض سومر. والسومريون الذين روضوا المستنقع ـ الغاب ما كان من الممكن ان يكونوا ابناءه، ذلك لأن هذه المناطق الوحشية لم تكن، قبل ترويضها قابلة لسكنى الكائنات البشرية. وبعض أقدم المستوطنات السومرية ـ مثل اور (المقير) أوروك (الوركاء) واريدو (ابو شهرين) ـ انما قامت على الطرف الجنوبي الغربي للمستنقع الكبير، في جوار بلاد العرب؛ لكن من المستبعد أن يكون السومريون قد جاءوا من بلاد العرب فليس للغتهم أية قرابة مع عائلة اللغات السامية، وكل الجموع التي هاجرت من بلاد العرب الى آسية وافريقية كانت سامية اللغة.

والمدنية السومرية هي أقدم المدنيات الأقليمية التي نملك وثائق تتعلق بها وهي أيضاً الوحيدة التي من المؤكد أنها تطورت عن مجتمع او مجتمعات ما قبل المدنية، والتي لم تنق عن أي مجتمع شبيه بها كان قائما قبل ذلك، بل ولم تكن نتيجة إيحاء من أي مجتمع من هذا النوع (ومن المحتمل أن تكون مدنية أميركا الوسطى قد نشأت مباشرة عن سابقات حضارية تعود إلى فترة ما قبل المدنية؛ لكن اصالة تلك المدنية ليست محترفا بها عالمياً). وقد أظهر التنقيب الأثري الحديث التطور التدريجي في ما يتعلق بناحيتين متميزتين من المدنية السومرية: الكتابة والمعمار الديني (أي المتعلق بالهيكل).

نستطيع أن نتابع خلق الكتابة من الصور (أي التمثيل المنظور للناس والأشياء والأحداث والأفعال). والعمل الخلاق كان اختراع الرموز (أي الإشارات التقليدية التي لم تكن بالضرورة ممثلة، حتى ولو بشكل رمزي، ومع ذلك كان لها معان مماثلة بالنسبة الى جميع أعضاء المجتمع السومري المتعلم). والمرحلة الاخيرة كانت اختراع الفونيم (أي

الإشارات التقليدية التي تمثل الأصوات المستعملة في الكلام المحكي). ولم يصل السومريون إلى دور الفونيم التام، فقد كانت كتابتهم جمعا غامضا واعتباطيا من الفونيم والرموز. والصعوبة بالنسبة للرموز هي أنها بالضرورة كبيرة العدد. أما أفضلية الرموز بالنسبة إلى الفونيم فهي أن الفكرة والإشارة يمكن أن يضم كل منهما إلى الآخر بشكل دائم، فيما الصوت والإشارة كما في الفونيم يفقدان ما بينهما من صلة تقليدية أصيلة بتغير الأصوات المستعملة في اللغة المحكية مع توالي الزمن، ومع ذلك فان أفضلية الفونيم بالنسبة إلى الرموز هي أن الأولى محدودة في عددها. فثمة حدود لعدد الأصوات التي يمكن للصوت البشري أن ينطقها. وفي الواقع فان كلا من اللغات البشرية تستعمل فقط عددا مختاراً من هذه الذخيرة البشرية.

وفي أقدم المراحل التي نملك عنها مستندات صورية أو مكتوبة، نجد أن المدنية السومرية تظهر صفات تشترك فيها مع انواع من المجتمع التي تمثل هي أقدم نماذجه المعروفة.

لما استغل السومريون الغرين في الزراعة، كانوا أول مجتمع في العالم القديم من الأويكومين الذي كان في إنتاجه فائض، فوق الحاجات السنوية الضرورية للاستمرار في العيش. وهذا الفائض لم يوزع بالتساوي على جميع المسهمين من أفراد المجتمع الذين كانت لهم جهود مشتركة في ما أنتجه المجتمع، بطرق مختلفة ودرجات متنوعة. ولو أن هذا الفائض وزع على الجميع أجزاء متساوية، لكانت حصة الفرد الواحد منه ضئيلة للغاية؛ ذلك بان الفائض كان ضئيلا بالنسبة الى الناتج الكليّ اللازم للاستمرار في العيش، ولو أن إنتاج أي فائض، مهما كانت كميته، كان اتجاها ثورويا جديدا. وفي الواقع فان هذا الفائض احتفظ به لاستعمال فئة قليلة متميزة، وهي التي حررت طاقتها ووقتها من استعمالها في إنتاج الغذاء، الأمر الذي كان لا يزال يستأثر بكل الحياة العاملة للغالبية. وتخصيص هذا الفائض لأقلية في المجتمع كان الأساس الاقتصادي لتباين الطبقات. ولكن مع أن هذا الوضع كان العامل المعين الذي مكّن للطبقة الحاكمة من التمتع بامتيازاتها، فقد كانت مثل هذه الامتيازات مكروهة بحيث لا يمكن للجمهور تحمله، لولا ان الجمهور كان واثقا من أن هذه الأقلية كانت تحصل على امتيازاتها لقاء الخدمات التي تقدمها للمجتمع بكامله، وهذه الخدمات كانت حقيقية، وكان لا بد منها فيما إذا كان المجتمع، الذي خلقه فتح الغرين، سيستمر في الأحوال المربحة، الناشئة عن ذلك ولو أنها

اصطناعية. وعلى كل حال فان الأقلية الحاكمة استولت على الفائض الاقتصادي من الزراعة الغرينية، وعندها صرفت وقت الفراغ الذي حصلت عليه لا في القيام بالخدمات العامة فحسب، بل في التمتع بحياة الرفاهية الخاصة.

والخدمة العامة التي توجب على الحكام القيام بها كانت إدارة جماعة ذات نواة مدنية بحيث كان ما سبقها من الجماعات القروية التي عرفها العصر الحجري الحديث تبدو قزمة في حجمها، كما ان هذه الجماعات الجديدة لم يكن لها مثيل من حيث التعقيد. وعلى عكس ما كان عليه الحال بالنسبة لمستغلي الأرض في العصر الحجري الحديث، فان الفلاح السومري لم ينظم عمله الخاص به بنفسه. فقد كانت صيانة نظام الري شرطا أساسيا لبقاء الجماعة بأجمعها؛ وقد كانت السخرة العامة لصيانة السدود والقنوات جزءاً من واجبات الفلاح، كما كان استغلال حقوله الخاصة جزءاً من واجبه. وكانت عملياته جمعاء تقع تحت إشراف السلطات العامة، إذ أن توزيع ما يلزمه من ماء الري اللازم في كميات معينة وفي فصول معينة كان يقتضي وجود قيادة واحدة تتمتع بقوة لا تقاوم.

ذكرنا أن سلطة الحكام البشرية كان يؤيدها دعم من القوى الغيبية. فاضافة إلى ما كان يقوم به الحكام من إدارة نظام الريّ، الذي كان الأهم من بين المصالح العامة، اذ أنه كان الأساس للعيش والعمل في الغرين، كان هؤلاء الحكام يقومون بدور الوسيط بين الجماعة والآلهة. وقد كان الاعتقاد الشائع بقدرة الآلهة وحكمتها هو القوة الروحانية التي تحفز المسهمين في المدينة ـ الدولة السومرية على العمل المشترك، على رغم أعدادهم وتقسمهم طبقات اجتماعية مختلفة، وقد كان الحكام ينفقون جزءاً من ثروتهم وأوقات فراغهم في نواح من الرفاهية الخاصة: الخدمة الخاصة التي كان الاتباع يقدمونها، والاعمال الفنية التي أخذت الآن تظهر الى جانب الأدوات المعدنية. (وقد كانت الأدوات الحجرية التي يستعملها الفلاحون في استغلال الأرض، في الغالب، مصنوعات بيتية).

وكان ثمة مظهر جديد آخر للمدنية السومرية وهو تجمع أقلية من العمال غير الزراعيين في المدن، وهذه الأقلية كانت أيضاً تعيش على الفائض من المنتوج الزراعي للغالبية. ولعل هذه المدن قامت أصلا كمراكز للعبادة، حيث كانت الجماعة يلتئم شملها في أوقات معينة للقيام بطقوس دينية، ولتنظيم الأعمال العامة العائدة بالفائدة عليها، وكلا الأمرين كانا متلازمين. ولعل مراكز العبادة هذه كان يستقر فيها أصلا فئة قليلة من

السكان، ولكنها تطورت بعد لتصبح مدنا، حيث تحيط المنازل بالمعابد، وحيث يتزايد عدد الأقلية غير الزراعية، وتتوزع الوظائف بين الكهان والإداريين المدنيين (ولم يكن الفريق الواحد يتميز عن الآخر في بادىء الأمر)، وكتّابهم ومراقبيهم وصنّاعهم.

وكان التباين الطبقي، الذي عززته العزلة الطبقية الجغرافية بين الريف والمدينة، اول الشرور الاجتماعية التي هي ثمن ولادة المدنية في سومر. والشر الفطري الثاني للمدنية كان الحرب. وكان الوضع الذي هيأ للشرين هو إنتاج الفائض. فالجماعة التي يعمل جميع الأشداء من أفرادها طوال يومهم على إنتاج الغذاء، ليس لديها وقت زائد عن حاجتها بحيث تمنحه، ولو جزئيا، للإداريين او الكهان أو الصناع أو الجنود.

ما هو التجديد الجوهري في هذا النوع من المجتمع الذي أوجده السومريون؟ فائض في الإنتاج وتباين في الطبقات والكتابة والعمارة الضخمة والمستقرات المدنية والحرب، كانت جميعها مظاهر جديدة ومميزة ـ ولكن التغيير الجذري كان في صفة الآلهة ووظيفتها.

أن الديانة التي عرفتها المجتمعات البائدة السابقة لعصر الكتابة يمكن الحدس بشأنها من فنها المنظور: الصور الموجودة على جدران كهوف العصر الحجري القديم المتأخر، والأشكال ذات الأبعاد الثلاثة التي وجدت في لينسكي فير والتماثيل الصغيرة العائدة الى العصر الحجري التي تمثل الأم الخصبة. فنحن نستطيع فقط أن نخمن ما كان لها من طقوس وما أحاط بها من أساطير؛ لكن اقدم الوثائق التي يمكن قراءتها في كتابة السومريين ولغتهم تلقي فيضا من النور على الديانة السومرية كما تنير سبيل فهم نواح أخرى من الحياة السومرية. ففي هذه الوثائق نقع على مجمع (بانثيون) للآلهة السومرية، ونجد أن هذه الآلهة كانت قد بلغت الفصل الثاني في تاريخها.

ونجد أنه بعد ولادة المدنية السومرية كانت آلهتها لا تزال تمثل قوى الطبيعة تمثيلا جزئيا، ونرى ان هذه كانت وظيفة الآلهة الوحيدة أصلاً، إلا أن بعض هذه الآلهة أصبح لها الآن دور مزدوج. فكل واحد منها أصبح يمثل أيضاً القوة البشرية الجماعية لمدينة ـ دولة سومرية معينة، وهذه الازدواجية في دور الإله السومري تعكس ثورة في العلاقة بين الإنسان والطبيعة. ففي الوقت الذي كانت فيه الالهة السومرية تتخذ شكلها لأول مرة، كان الإنسان لا يزال تحت رحمة الطبيعة. ولكن فتح الغرين للاستغلال واستقرار الانسان نتيجة للعمل المشترك نقل توازن القوى بين الإنسان والطبيعة الى مركز كان في مصلحة

الانسان. والإنسان الذي أصبح الآن يقوم بعمله كحيوان اجتماعي صار بمقدوره فرض إرادته على مناطق من عالم الطبيعة كانت من قبل مستعصية عليه. وقد أبرز الانسان معنى هذا الانتصار البشري الكبير بأن اتخذ له من قوته المشتركة شيئا يعبده، الى جانب القوى غير البشرية التي كان من قبل يشعر بأنها قادرة على كل شيء. فالسومريون الذين روضوا الغرين أظهروا هذا التبدل في الأوضاع إذ جندوا آلهة الطبيعة التي ورثوها عن الأجداد لتصبح الحماة السماوية لدول ذات سيادة بشرية ـ أو لعلهم جندوها لتكون خداما ذات صبغة دينية لهذه الدول.

وقد استمرت الآلهة السومرية، بوصفها ممثلة لقوى الطبيعة، بالقيام بدورها كجزء من التراث الحضاري المشترك للمجتمع السومري ككل. أما كممثلة للدول فقد أصبحت هذه الآلهة متباعدة، وصارت تمثل جماعات سومرية قد تتصادم مصالحها. فمن الناحية السياسية كان دور الآلهة يدعو الى التفرقة، ولم يعد دورها موحدا. وهذا الدور الجديد، الذي اتخذته الآلهة في الوقت الذي تبيه أقدم المدونات السومرية التي بين أيدينا، كان نذير سوء بالنسبة لمستقبل المدنية السومرية. فالثمار التي جناها الانسان من انتصار المجتمع البشري على الطبيعة قد تذهب هدرا فيما لو أنه استعمل قوته العظيمة المشتركة لا في سبيل السيطرة على الطبيعة غير البشرية واستغلالها فحسب، بل في سبيل الحرب المبيدة بين قوى بشرية محلية جيدة التنظيم قوية العدة..

٧ـ شق الغرين النيلي وخلق المدنية الفرعونية المصرية

أعطينا في الفصل السابق ما كان للسومريين من فضل إذ أنهم قد خلقوا مجتمعا من نوع جديد ـ وهو مدنية إقليمية ـ بسبب عدد من الأمور الجديدة توصلوا إليها أثناء قيامهم بعملية تصريف المياه من المستنقع ـ الغاب الغريني وريه، وهو المستنقع ـ الغاب الذي كان موجودا في الحوض الادنى لنهري دجلة والفرات. وإذا نحن أخذنا بالأسس نفسها فللمصريين الفراعنة الحق في أن يعطى لهم الفضل نفسه لأنهم خلقوا المدنية الثانية في القدم من المدنيات الإقليمية إذ أنهم شقوا المستنقع ـ الغاب في الحوض الأدنى للنيل وفي دلتيه.

وقد تم للمصريين بدورهم، على نحو ما تم للسومريين، أن يكون عندهم فائض في الإنتاج يفوق حاجتهم لمجرد العيش والبقاء. وكما حدث في سومر، رافق هذا الإنجاز في مصر تباين طبقي وعمارة ضخمة واستقرار مدني وحروب وتبدل جذري في الديانة. على أن المصريين، على العكس من السومريين، لم يتم لهم هذا الانطلاق الجديد بدون مساعدة. فمع أنهم هم الآخرين أقاموا مدنيتهم على الأسس التي وضعها أجدادهم من العصر الحجري والعصر الخلكوليثي، فقد جاءهم إيحاء من مجتمع كان قائما، وهو مجتمع شبيه بنوع المجتمع الذي كانوا ينشئونه. فثمة إجماع بين علماء المصريات المعاصرين بأنه من الممكن تتبع الأثر السومري في المدنية المصرية الفرعونية. ولنذكر، على سبيل المثال، طريقة ختم الأشياء بأسطوانات محفور عليها صور، واستعمال الآجر في اسلوب البناء المفرّغ وتقليد بناء السفن السومرية، وفي عدد من الأسس الفنية، وفي كتابة كانت فيها الرموز الفكرية تكملها الفونيم دون أن تحل محلها.

وهذا الشكل من الكتابة كان عجيباً. فليس من الممكن أن يخترع بناء مطابق تماما لما سبق ومستقلا للمرة الثانية، فيما تشير الدلائل على أن الأثر السومريّ المعاصر كان

موجودا في الوقت الذي كانت فيه الكتابة المصرية في دور التطور، اضافة الى ذلك فأن الدلائل الأثرية تشير إلى أن الكتابة المصرية قد ظهرت فجأة، على عكس ما عرفناه من تطور الكتابة السومرية التدريجي من السابقة الصورية. فالتركيب السومري للكتابة المصرية، إذا قرن بظهورها المفاجىء، هو أنوى دليل منفرد يشير الى أن التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت الى ولادة المدنية المصرية الفرعونية.

ليس لدينا أي مؤشر الى الطريق الذي انتقل عبره التأثير السومري إلى حوض النيل الأدنى. فقد عثر على الدليل في مصر العليا بالذات، وليس في الدلتا، لأن مناخ مصر العليا يمكّن للمصنوعات البشرية أن تحافظ على نفسها، فيما نجد ان مناخ الدلتا وطبيعه جغرافيتها هما عدوان لذلك. فالمناخ في عروض الدلتا ليس جافا على ما هو عليه في مصر العليا، مع أن المطر نادر في الدلتا، باستثناء زاويتها الشمالية الغربية. فضلا عن ذلك فان البقايا المادية التي تعود الى العصر الفرعوني مدفونة في الدلتا تحت طبقة رسوبية لا نعرف سمكها، وهي الطبقة الرسوبية التي تقوم فوقها مدن حديثة فوق الأماكن التي كانت تقوم عليها مدن العصر الفرعوني. ولهذه الأسباب فان الدلتا لم تخرج بعد القيود الأثرية العائدة لتاريخها الفرعوني، على عكس ما حصلنا عليه من دلائل للعصر السابق للمدنية من التاريخ المصري في مصر العليا، في مواقع تعود الى العصر الحجري الحديث وهي المواقع التي تكون في أماكن تشرف على الغرين، وهذه لها ما يماثلها في الدلتا في ميرماد التي تشرف على الجزء الأعلى من الدلتا من الأرض المرتفعة إلى الغرب منها.

وهذه الفجوة في القيود الأثرية بالنسبة للدلتا تبدأ في الوقت الذي جازف فيه سكان مصر العليا القدامى في المرتفعات القائمة على جانبي النهر، وهبطوا إلى الغرين وبدأوا بشقه، على ما تظهره لنا القيود الأثرية من المنطقة نفسها. وبسبب فقدان أية معلومات أثرية، إيجابا أو سلبا، عن التاريخ المعاصر للدلتا فان أية محاولة للبحث في الأحوال التي سبقت ولادة مدنية إقليمية في مصر الفرعونية هي ضرب من التخمين - إن ما وصل إلينا من قيود أثرية في مصر العليا يترك في نفوسنا انطباعا بأن ظهور المدنية في مصر كان حدثا مفاجئا، إذا ما قوبل هذا بالظهور التدريجي للمدنية في سومر. فهل هذا الانطباع لا يعدو كونه فكرة عارضة لا تلبث ان تزول فيما لو تمكنا من العثور على أدلة أثرية من الدلتا عن الفترة التي سبقت ازدهار المدنية المصرية الفرعونية؟ أم هل يمكن لمثل هذا التنقيب الأثري الناجح هناك ان يؤيد انطباعنا الحالي بأن الدلتا، على عكس مصر العليا،

كانت لا تزال، إلى درجة كبيرة، على حالها البدائي، أي مستنقعا ـ غابا، توحدت سياسيا مع مصر العليا؟

إذا صح الاحتمال الثاني من البديلين فقد تكون الدلتا حاجزا لا يمكن اختراقه بالنسبة للاتصال البري بين سومر ومصر. وفي الوقت الذي كان الأثر السومري يتحسسه المصريون، وقد كانت هذه الفترة قصيرة، فان هذا الأثر فقد المصريون الشعور به حالا بعد توحيد مصر سياسيا. وإذا كان شق الدلتا قد تم في عصر المملكة القديمة الذي تلا ذلك التوحيد، فان التأثير السومري ما كان له ان يصل مصر العليا برا عبر الدلتا؛ فلا بد أنه وصل مصر مباشرة عن طريق البحر. وفي هذه الحالة قد تكون السفن السومرية الكبرى قد وصلت موانىء مصر العليا الواقعة على البحر الأحمر، او، رغبة في تقديم رأي آخر، لعل البحارة المصريين والسومريين قد التقوا على أحد السواحل الواقعة بين البلدين ـ إما، على سبيل المثال، في سواحل اليمن أو بلاد الصومال، وهي التي كانت تصدر البخور، او على الشواطىء غير المعروفة تماما التي كان يصدر منها النحاس والتي عرفها السومريون باسم ماغان ـ وقد لفت النظر من قبل إلى أنه، قبل عصر السكك الحديدية، كانت الأسفار البحرية الطويلة أسرع وأيسر من الأسفار البرية الأقصر منها.

ومع ذلك فان الفجوة في قيودنا الأثرية بالنسبة للدلتا تترك لنا المجال لتخمين آخر هو، في الوقت ذاته، مشروع لكنه غير قابل للبت بشأنه. وهذا التخمين البديل هو القول بأن الدلتا هي التي لعبت الدور الرئيس بالنسبة الى ظهور المدنية المصرية الفرعونية، لا مصر العليا. فلنا أن نتصور الدلتا وقد بلغت، قبيل نهاية الألف الرابع ق.م.، المرحلة ذاتها التي بلغتها سومر ـ وهي مرحلة كان فيها الإنسان قد سيطر جزئياً على الغرين، والتي ظهرت فيها مدن في طور النشوء. وعلى أساس هذه الفرضية يكون التأثير السومري قد وصل الدلتا قبل ان يصل مصر العليا، وأنه انتقل لا عن طريق البحر بل عن الطريق البري عبر بلاد الشام.

وعلى كل فان التأثير السومري على المدنية المصرية الفرعونية الناشئة لم تكن مدته قصيرة فحسب، بل لم يعدُ أن يكون أثرا، ذلك بأنه لم يبلغ حد نشر المدنية السومرية بالذات في مصر جاهزة دون تبديل. وعلى سبيل المثال فان الكتابة المصرية مع كونها سومرية في تركيبها فهي مصرية متميزة في أسلوبها؛ والهيروغريفات (الصور الهيروغليفية) هي خلق أصيل، وليست تقليدا لنظيراتها السومرية، وقد اختفت

الموضوعات السومرية من الفن المصري المنظور، كما أننا نجد أن المصريين لم يستمروا في استعمال الآجر لإقامة ابنيتهم الضخمة، على نحو ما فعل السومريون، فقد استعاضوا بالحجر عن الآجر في إقامة الأبنية الضخمة؛ فآثارهم المعمارية الضخمة بنيت من قطع الحجارة الكبيرة. والعمارة في الأسلوب الفخم وعلى المقياس الضخم هي إنجاز وطني لم يكن المصريون مدينين به لا للسومريين ولا لغيرهم من الأجانب. والزيغورات السومرية المبنية من الآجر لا يسمح لها حجمها فقط بأن تكون على مستوى الأهرام، فهذه لا مثيل لها إن من حيث المهارة في تصميمها او من حيث الدقة في إقامتها.

وعجز السومريين عن مجارات فن العمارة المصرية لا يحكم على السومريين بأنهم دون المصريين خيالا أو مهارة ـ إنه في الواقع مما يذكرنا بأن تحويل مستنقعات دجلة والفرات الى مقر للمدنية كان عملا أكبر وأقدم من العمل المماثل واللاحق له أي تحويل المستنقع النيلي، وترويض مصر العليا كان، نسبيا، عملا يسيرا ـ فقد كان هنا نهر واحد فقط بحاجة الى السيطرة عليه، وكان واديه ضيقا، ومنطقة المستنقع ـ الغاب في هذا القسم من حوض النيل كانت قريبة من الحروف العالية على كل من جانبيه، حيث كانت تقوم مواقع الاستيطان التي استقر فيها أجداد مصر الفرعونية من أهل العصرين الحجري الحديث والخلكوليثي، وقد كانت الدلتا الجزء الوحيد في مصر الذي كان نظيرا، من ناحية جغرافيته الطبيعية، لحوض دجلة والفرات. ويبدو أن الدلتا تم شقها تدريجيا فقط.

يضاف الى ذلك أن مصر بكليتها، بما في ذلك الدلتا، كان لها في متناول يدها بعض من المواد التي لا غنى عنها لخلق المدنية والاستمرار في صنعها. فهناك الكثير من أجود أنواع الصخر الصالح لغايات البناء والنقش، والمسافة بين المقلع وشاطىء النهر قصيرة، وحتى المسلة يسهل نقلها متى وصلت سطح الماء لتحمل عليه. والمناجم الواقعة إلى الشرق من السويس ـ إذا صح أنها كانت مناجم نحاس ـ هي أيضاً يسهل الوصول منها بطريق البحر إلى مصر العليا، مع مسافة برية قصيرة عبر وادي الحمامات. واذا لم تسد مناجم سيناء كل حاجات مصر من النحاس، فقد كان باستطاعة جزيرة قبرص ان تفعل ذلك، إذ ان موانىء كل من قبرص وبلاد الشام كانت في متناول أيدي الحكام في مصر العليا، بمجرد استيلائهم على الدلتا وعلى موانئها الواقعة على البحر المتوسط. وقد كان باستطاعة مصر ان تستورد الأخشاب من لبنان عبر ميناء بيبلوس (جبيل) الفينيقية،

وقد استوردتها فعلاً؛ ولعل المشاركة التجارية بين مصر وجبيل كانت متعاصرة مع قيام مملكة مصر المتحدة. لقد كانت الطرق البحرية تنقل الأخشاب والنحاس إلى أبواب مصر، كما كان النيل، حتى الشلال الأول، يزود مصر بطريق مائي داخلي يمتد من الطرف الواحد من البلاد إلى الطرف الآخر. فضلاً عن ذلك، فان هذا الطريق المائي، مع أنه كان نهرا فقط، كان يستعمل للنقل صعودا وهبوطا. فالنهر هنا يتجه من الجنوب الى الشمال، فيما تغلب على مصر الرياح الشمالية كما أشرنا الى ذلك قبلا.

وقد كانت سومر، بمقارنتها مع مصر العليا، تشكو من معوقات كبيرة بالنسبة الى وسائل المواصلات وبالنسبة للحصول على المواد الخام، وانه امر يدعو إلى العجب أن تظهر أقدم المدنيات، القائمة اقتصادياً على ترويض المستنقعات، لا في مصر العليا، بل في الحوض الأدنى لدجلة والفرات. فالسومريون لم يسبقوا المصريين فقط في مغامرتهم بل تفوقوا عليهم. فالسومريون جازفوا بمستقبلهم اعتمادا على استغلال مادة واحدة فقط من المواد الخام، وهي الغرين؛ وهم، بعملهم هذا، أي بنزولهم الى هذه البقعة وشقها، كانوا يخلفون وراءهم الموارد التي كانت لأجدادهم من حيث تزويدهم بالحجر، كما كانت تزودهم بالنحاس والأخشاب كذلك. وقد كان رأس المال الوحيد المحلي، في الأرض الجديدة التي روضوها وأقاموا فيها وأخذوا باستغلالها، هو التربة الخصبة. وقد أظهر السومريون حصافتهم في الألمعية التكنولوجية التي تمت على يدهم، فتوصلوا الى صنع أدوات زراعية من الصلصال (الدلغان، الطفل) المشوي الى درجة تقرب المعادن صلابة وحدة، ولكن هذا الاختراع لم يغنهم عن النحاس. لذلك اضطروا الى جلب النحاس من الاماكن البعيدة ـ من حوض دجلة والفرات الأعلى. بل لعلهم جاءوا به من المناجم الواقعة في منقلب المياه المواجه للبحر الأسود، الذي هو ناشىء عن خطط تقسيم المياه الذي يفصل الفرات عن أنهار آسية الصغرى الشرقية التي تصب في البحر الأسود من الجنوب. وكان على السومريين ان يأتوا بالأخشاب من جبال أمانوس. اما استيراد الحجر فقد كان أبعد من متناول البنائين السومريين؛ ومن ثم كان عليهم أن يبذلوا جهدهم لعمل أفضل ما يمكن من الآجر المصنوع من الطين المحلي. صحيح انهم استوردوا الحجر لاستعماله مادة في النحت وصنع التماثيل، لكن استيراد الحجر الصالح للنحاس في سومر كادت كلفته ان تكون ككلفة استيراد الذهب او الفضة.

لم يكن على السومريين أن يستوردوا النحاس والاخشاب فحسب، بل كان عليهم أن

يدفعوا أثمان هذه المستوردات من منتوجهم الخاص ـ مثلا الحبوب (وهي مادة ذات حجم كبير من حيث النقل) والأقمشة، التي كان الصوف اقدم مادة استعملت في صنعها في سومر. وقد كانت التجارة السومرية بالضرورة، اكثر نشاطا من التجارة المصرية، وكان مجال نقلها اوسع بكثير، وقد سارت قدما عن طريق إقامة مستعمرات سومرية، فأشور، على دجلة الأعلى، وتل براك في الجزيرة (ميزوبوتاميا)، وهما اقدم المستوطنات، ويبدو انهما كانتا سومريتين لا ساميتين. وهذا التوسع التجاري إلى المشارف العليا للنهر برا، كان يقابله توسع تجاري في الخليج العربي، بل لعله تجاوز ذلك إلى دلتا نهر السند، وحتى من المحتمل انه وصل إلى ساحل البحر الأحمر في مصر العليا؛ ولكن اهم عمل كبير في النقل والمتاجرة كان توسع السومريين التجاري برا بي الاتجاه الشمالي الغربي.

عندما كانت الاخشاب تقطع من جبال أمانوس كانت تنقل برا إلى شاطىء الفرات الغربي، كما كان النحاس المستورد من أرغانا مادن ينقل برا (والمسافة اقصر من الأولى) إلى اجزاء دجلة والفرات العليا، وعندها كانت هذه الأحمال الضخمة توضع على أطواف تحملها المياه هبوطا مع النهرين، فيما كان الركاب ينتقلون في قوافل مصنوعة من القصب مكسوة بالجلد. وقد كان النقل مع الماء الهابط يسيرا وسريعا، لان التيار في كل من دجلة والفرات كان أقوى من التيار في النيل في اسفل أجزاء مجراه. إلا أن السومريين، وللسبب ذاته، لم يكونوا يستطيعون استعمال الرافدين للسفر أو النقل صعوداً مع المجرى، فحوض دجلة والفرات لا تسود فيه رياح جنوبية شرقية على نحو الرياح الشمالية التي تسود في مصر، والتي هي إحدى أثمن هبات الطبيعة لمصر. ومن ثم فقد كان على مستثمري النحاس والأخشاب من السومريين أن ينتقلوا إلى الجهة الشمالية الغربية عبر الطريق البري بكثير من العناء. والتجار السومريون، الذين كانوا يسيرون في أعقاب المستثمرين، كان عليهم أن ينقلوا متاعهم المصدر لدفع ثمن ما يستوردون، بالطريق الشاق نفسه.

وكان الحمار هو الدابة الوحيدة التي كانت لدى السومريين لما كانوا يشقون الغرين، وكان هذا هو الحمار الوحشي المدجن. وقد كان تدجينه، وهو أسرع ذوات الأربع وأكثرها طواعية، لا يقل براعة عن صنع الأدوات الزراعية من الصلصال (الدلغان، الطفل). لم يكن لدى السومريين لا الحصان ولا الجمل، فقد دجن هذان في السهوب على أيدي أقوام أخرى وفي أزمنة لاحقة.

وإذن فقد تفوق السومريون على تلاميذهم المصريين في فن خلق المدنية على المستوى الاقتصادي. وفي الناحية الثانية، فإن المصريين سبقوا اسومريين في المجال السياسي. فعندما ترتفع الستارة عن الفصل الأول من مأساة التاريخ السومري، نجد المجتمع السومري مقسما سياسيا بين عدد من المدن ـ الدول المحلية. وهذا التفسخ السياسي في العالم السومري كان متناقضا مع وحدته على المستويات الحضارية والاقتصادية والجغرافية الطبيعية. كانت المدنية السومرية بحاجة، في سبيل بقائها، إلى سيطرة وإدارة فعالة للمياه في حوض دجلة والفرات الأسفل، ومثل هذه السيطرة ما كان لها ان تكون فعالة تماماً إلا إذا تم لها، قيادة موحدة. وهذه الوحدة السياسية، وهي التي لم يكن عنها غنى في نهاية المطاف، جاءت متأخرة، بالنسبة للتاريخ السومري، وبعد ما كانت قد كلفت الكثير من الخراب والآلام التي سبقتها، وحتى لما تمت لم يكن إنجازها على أيدي السومريين انفسهم. لقد فرضت عليهم، في النهاية، على أيدي جيرانهم الأكديين.

وفي الناحية الأخرى، فقد توحدت مصر العليا والدلتا سياسيا عند فجر المدنية المصرية الفرعونية. إن قسوة الحرب التي انتهت باحتلال الدلتا وضمها الى مصر العليا، توضحها بشكل ساذج المناظر المحفورة على نقش نارمر. ولكن مصر كسبت، بهذا الثمن، وحدة سياسية ومن ثم سلاما ونظاما في الداخل. وهذه الهبات استمرت مدة تزيد عن الثلاثة آلاف سنة من التاريخ المصري الفرعوني، وذلك باستثناء « فترات متوسطة » قليلة وقصيرة نسبيا كانت تعترض هذا التاريخ وعندها كانت تفتقد حالة الوحدة العادية والسلام الداخلي.

من الواضح أن توحيد مصر العليا والدلتا كان حدثا فجائيا ومسرحيا، لكننا نجهل الخطوات التي سبقته. وقد قسمت مملكة مصر الفرعونية المتحدة في جزئيها، في ما تلا من العصور، إلى أقسام إدارية، وقد كانت هذه حقائق اجتماعية. وكان لسكان كل من هذه الأقسام وطنية محلية. لكن هذا ليس دليلاً على أن هذه الأقسام كانت موجودة كدويلات محلية ذات سيادة قبل أن يتم توحيد مصر السياسي، بحيث تكون نظيرات للمدن ـ الدول المحلية ذات السيادة في سومر. إن اليونان استعملوا لفظة « نومري » لهذه الوحدات التي قسمت البلاد اليها. والمعنى الحرفي للكلمة اليونانية هو « وحدات إدارية ». ولعله من المحتمل أن هذه « النومات » المصرية، بدل أن تكون معوقات سابقة للتوحيد، كانت تقسيمات مصطنعة على نحو ما نجد في الوحدات الادارية في فرنسا اليوم، الغاية

من إيجادها ان تحل محل وحدات إدارية كانت قائمة في ما سبق من التاريخ وأن تزيل أثرها، الأمر الذي قد يكمن فيه خطر داهم بالنسبة للحفاظ على الوحدة السياسية فيما لو سمح لذكراها وللرابطة العاطفية نحوها أن تستمر.

وقد انعكس تاريخ المجتمع الاقتصادي والسياسي في مصر، كما في سومر، على التاريخ الديني. ونحن عندما نقابل التاريخين على المستوى الديني نجد ان تصنيف المجتمع المصري الفرعوني إنما هو نموذج للنوع ذاته أي السومري، على أنه في الوقت ذاته يبين الشخصية الفردية للمدنية المصرية.

كانت الآلهة، في مصر وفي سومر على السواء، تمثل قوى الطبيعة التي كانت تضع الانسان تحت رحمتها، لكن في مصر أضيف الى عبادة الطبيعة عبادة القوى البشرية الجماعية. وقد وجدت هذه الديانة الجديدة التعبير نفسه الذي عرفته سومر. فقد جندت بعض آلهة الطبيعة، في سومر ومصر الفرعونية على السواء، لتمثل قوة الانسان وقوة الطبيعة في وقت واحد، ومما يسر هذه الاضافة إلى وظائف الآلهة، هو ان هذه الآلهة، مع أنها كانت مشتركة بين المجتمع بكامله، سواء في ذلك آلهة الطبيعة والطبيعة ذاتها، اصبحت مرتبطة بأماكن معينة حيث اصبح للمزار المحلي اعتبار عالمي. وحتى الإله الشمس المصري رع - وهو إله كوني عى أعلى مستوى - كان له موطن خاص في هيليوبوليس، على ضفة النيل الشرقية قرب رأس الدلتا.

وحورس، وهو الابن الصقر للاله أوزيريس، إله الحياة النباتية المسكوني، تولاه حكام المدينتين التوأم، نخن - نخب (هيراكونبوليس) في اعماق مصر العليا. وقد كان هؤلاء هم الذين وحدوا مصر عند ابتداء تاريخ لمدنية الفرعونية حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م. وقد فتحوا الدلتا تحت رعاية حورس. ونتج عن هذا الحادث السياسي الرائع، أن أصبح للاسطورة التي روت قتال حورس مع قريبه الشرير ست، وانتصار الأول على الثاني، معنى تاريخي إضافي. فقد كانت هذه الأسطورة أصلا رمزا لأمر يتجدد في سياق الطبيعة - موت الحياة النباتية وعودتها إلى الحياة سنويا، وخصوصا الحبوب التي كان إنسان العصر الحجري الحديث قد دجنها. وقد أصبح الحصاد شرطا لبقاء الانسان، منذ أن انتقل من مرحلة جمع المواد الغذائية الى مرحلة انتاجها - وقد قتل ست الشرير أخاه أوزيريس، روح الحياة النباتية، ولم يكتف بذلك بل قطع جثته إربا ونثرها أشلاء؛ لكن إيزيس، اخت اوزيريس وزوجته المخلصة، وجدت هذه الأشلاء وجمعتها، فعاد أوزيريس

الى الحياة ثانية، وسلم مملكته إلى ابنه الوفي حورس، وكان هذا قد انتقم لقتل أوزيريس بان تغلب على ست القاتل. وبعد أن ضمت مصر العليا الدلتا إليها، صارت هذه الأسطورة المنتزعة من الطبيعة رواية لإحياء ذكرى هذا الحادث السياسي التاريخي. كان المركز الأساسي لعبادة ست في الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا، في الطرف القصي من مصر المقابل لنخن - نخب. ومن ثم فقد اصبح انتصار حورس على ست يمثل انتصار مصر العليا على مصر السفلى، أي لاتحاد التاجين الذي تلا ذلك.

دشن توحيد مصر السياسي عهد المدنية المصرية الفرعونية واستمر يتحكم في تاريخها لمدة ثلاثة آلاف سنة. وقد كان هذا مظهرا للتعاون البشري الجماعي لم يسبق له مثيل، وعبادة هذا التعاون اتخذ شكلا جديدا. فموحد مصر ومن خَلّفه من بعده الذين كانوا يلبسون تاج مصر المزدوج كانت تقدم لهم العبادة على أنهم « تجسد » للقوة الساحقة التي كانت مركزة في التاجين المتحدين الآن فوق رأس الفرعون. والفرعون (في العبرية تعني هذه الكلمة المصرية القصر الملكي القائم في العاصمة النهائية للمملكة المتحدة، ممفيس) كان إلها بشريا حيا - وهو قائم بلحمه جنبا الى جنب مع الآلهة الأقدم التي كانت حياتها زيفا، وكانت تظهر في التماثيل المحفور عليها الطقوس الدينية الحية فقط.

ان توحيد مصر العليا والدلتا السياسي على يد نارمر ظهر له اخيرا نظير في وادي دجلة والفرات في توحيد سومر مع أكد على يد لوغالزغيري؛ ولكن إتمام هذا التوحيد لم ينجز إلا بعد أن كانت المدنية السومرية قد بلغت سبعة قرون من العمر. وقد قبل التوحيد، دون حماسة، على أنه أهون الشرين، إذا قورن بالبابل أي باستمرار الفوضى الدولية المريرة، ومن ثم فلا لوغالزغيري ولا سرجون، الذي انتزع من يد الأول الامبراطورية التي كان قد صنعها، كوفىء بالتأليه. ومع ان بعضا من خلفائهما - مثلا نارامسن (نحو ٢٢٩١- ٢٢٥٥ ق.م) وشلغي (حول ٢٠٩٥- ٢٠٤٨ ق.م) غامر وادعى الألوهية، فأنهم لم يسنوا قاعدة لذلك. ففي سومر وأكد كان الاله البشري الحي هو الأمر المستثنى لا القاعدة.

٨ـ سومر واكد: نحو ٣٠٠٠ـ ٢٢٣٠ ق.م.

تسمية المدنية السومرية بهذا الاسم أمر مطابق للواقع لأن شق الغرين في وادي دجلة والفرات الأدنى والاستيطان فيه - وهو إنجاز قامت به قوة بشرية جماعية هي التي ولدت هذه المدنية - كان عمل شعب واحد، هو الشعب السومري، الذي كانت له لغة وديانة وحضارة مشتركة. وعلى كل فلم يكن للقوة البشرية الجماعية للشعب السومري، في أول الأمر، وحدة سياسية تجمع شملها في دولة مسكونية تتحكم في المجال الغريني الذي كان السومريون قد امتلكوه. والعمل الرائد قامت به فئات سومرية مختلفة، مستقلة واحدتها عن الأخرى سياسياً، وقد تولت امر شق الغرين في نقاط مختلفة. ونستدل على هذا من التركيب السياسي للعالم السومري الذي نجده في أقدم الوثائق المدونة بالكتابة السومرية، التي تعود إلى الوقت الذي دونت فيه هذه الوثائق التي حلت رموزها والممكن قراءتها. ففي فجر تاريخ المدنية السومرية كانت سومر قطعة فسيفساء مكونة من مدن - دول محلية ذات سيادة، والوحدة الثقافية التي عرفها العالم السومري لم تكن بعد قد وازتها وحدة على المستوى السياسي.

ويبدو أن هذه المدن - الدول تعايشت، خلال القرون الخمسة او الستة الأولى من تاريخ المدنية السومرية (حول ٣٠٠٠- ٢٥٠٠ ق.م .)، دون أن تتصادم فيما بينها. ومما لا ريب فيه هو أن الغرين كان قد شق تدريجا، وأن الحقول المروية والمروج المائية التي صنعها مؤسسو كل من هذه المدن كانت، إلى مدة طويلة، لا تعود كونها واحدة تعزلها عن غيرها من أراضي المدن مساحات من المستنقع البكر، وأن هذه المساحات كانت، في جملتها، أوسع بكثير من الواحات جمعاء. وفي خلال الفصول المبكرة من تاريخ المدنية السومرية، كان المدى الذي تمتد فيه المستنقعات البكر الواقعة خلف الأرض التي كانت كل مدينة قد شقتها لنفسها، وهي التي كان بامكان كل مدينة ان تتصرف

بها، يبدو كأنه لا نهاية له. يضاف الى ذلك ان كل مدينة كان بإمكانها ان تتحكم بالمياه في مداها الخاص بها، دون أن تتدخل في الأعمال المماثلة التي كانت الجماعات الأخرى تقوم بها في الوقت ذاته في الأراضي الأخرى.

وقد جاءت اللحظة الخطرة سياسيا لما أخذت أملاك المدن ـ الدول المحلية في الاتساع بحيث أنها أزالت المناطق العازلة من المستنقع، وأصبحت هذه المدن ـ الدول مجاورة مباشرة الواحدة منها للأخرى. وهذا الاستكمال لفوز الانسان التكنولوجي على الطبيعة في سومر خلق مشاكل سياسية على مستوى العلاقات البشرية. ولم يستجب السومريون لهذا التحدي الاجتماعي فورا باللجوء الى الطريقة الأساسية للتوحيد المسكوني على نحو ما تم في مصر لما ظهرت المشكلة الاجتماعية ذاتها هناك. فلما اقتربت قطع الفسيفساء السياسية، التي كانت معزولة قبلا، واحدتها من الأخرى لم تلتحم بعضها بالبعض الآخر حالا ولم تكون مملكة واحدة على نحو ما حدث في مصر، بل استمرت المدن ـ الدول، حتى بعد تماسها واحدتها بالأخرى، في الحفاظ على استقلالها وسيادتها المحلية.

وقد كانت إنتاجية غرين دجلة والفرات في هذه المرحلة كبيرة بحيث أن جزءاً منه كان يكفي أعضاء « المؤسسة » في مدينة ـ دولة سومرية ان يعيشوا ـ ويموتوا ـ برفاهية. والحفر الأثري في القبور الملكية للأسرة الأولى لمدينة ـ دولة واحدة، اور، أظهر لنا ان الملك كان يملك من الصناع عددا يمكنهم من أن يصنعوا الحلى الدقيقة للملكة. كما أنه كان يسير معه لا الثيران التي تجر العربة الملكية فحسب، بل جماعة من الأتباع من الجنسين لخدمته في حياة أخرى افتراضية، وهؤلاء إما أنهم كانوا يقتلون، أو أنهم كانوا ينتحرون تطوعا، في نهاية الطقوس الجنازية للملك. وهذه الدرجة المتباينة في تطرفها من التباين الطبقي التي نجدها في أور في هذا الفصل المبكر من تاريخ المدنية السومرية، كانت، على ما يبدو، امرا مألوفاً للأحوال الاجتماعية في كل أنحاء العالم السومري المعاصر.

عندما نصل إلى الدور التالي في التاريخ السومري، وهو الذي يبدأ في منتصف الألف الثالث ق.م. نجد أن الصفة البارزة هناك لم تكن الحفاظ على الوضع المميز الذي كان « للمؤسسة »، في كل من المدن ـ الدول، بل كان صداماً فيما بين هذه المدن ـ الدول. وثمة نقش نافر لايناتم ملك لاغاش (تلو) يصور انتصار هذه المدينة على جارتها أوما (جوها)؛ ويرينا هذا النقش ان الحروب بين دول سومر قد بلغت درجة كبيرة من

التنظيم، وأنها كانت نسبياً ضارية ومدمرة، ولم يكن جنود إيناتم فقط مزودين بالخوذ (لعلها كانت معدنية) والتروس الثمينة بكثرة، بل كانوا قد دربوا على القتال في صفوف من الكتائب، وقد أظهرهم نقش يناتم وقد صفوا متكاتفين متراصي الصفوف فيما تبرز أسلحتهم من الصفوف الأمامية عبر التروس المتلاصقة، وكانت جثث القتلى من العدو المهزوم مطروحة تحت أقدام الجيش الظافر وقائده. ولعل ملوك المدن ـ الدول السومرية كانوا يتطلبون الآن ضحايا بشرية على مقياس أوسع من الذين يقاتلون في المعارك، وقد كانت ضحايا الحروب خيرة المحاربين من شباب الجماعات.

كان النزاع بين لاغاش وأوما في أيام يناتم يدور حول امتلاك قناة تقع على تخوم الدولتين، وهذه القناة المرموقة كانت تروي أرضاً مجاورة وتصرّف مياهها، ومن ثم فقد كانت إنتاجية تلك الأرض تعتمد على هذه القناة، وامتلاك القناة يحمل معه التمتع بانتاج تلك الأرض. ويدعي إيناتم انه كان المنتصر في الحرب التي دارت رحاها حول القناة التي تمنح الحياة. وحتى لو كان هذا الظفر حقيقيا فاننا نتصور أنه كان انتصارا باهظ الثمن. وعلى كل يبدو أن التوازن الاجتماعي الداخلي المتقلقل في لاغاش قد اضطرب. ذلك بأن الفلاحين السومريين كانوا يتقبلون امتيازات « المؤسسة » على اعتبار أن الغالبية التي لا تتمتع بأية امتيازات تستمر في اعتقادها بأن الأقلية ذات الامتيازات إنما كانت تقوم بخدمات اجتماعية بشكل فعال، وأن هذه الخدمات الاجتماعية كانت مما لا يستغنى عنه بالنسبة إلى مصلحة الجماعة كليا. ويبدو أن هذا الاعتقاد أصابته هزة في أيام الملك اوروكاجينا ملك لاغاش (حوالي ٢٣٧٨- ٢٣٧١ ق.م .) الذي استطاع ان يتحدى سلطة الكهنة.

اذا كان اوروكاجينا حاول القيام بثورة اجتماعية فقد أحبط مسعاه عندما تغلب عليه لوغالزغيري الذي كان قد وطد سلطانه على مدينتين ـ دولتين هما أوما وأوروك، وأخذ لوغالزغيري يوسع سلطانه لا بضم لاغاش فقط بل بضم كل المدن ـ الدول السومرية الأخرى، وقد اتسعت امبراطوريته حتى خارج نطاق سومر إذ امتدت من « البحر الى البحر » أي من رأس الخليج العربي حتى شواطىء المتوسط في شمال بلاد الشام.

وقد وسع لوغالزغيري (حوالي ٢٣٧١- ٢٣٤٧ ق.م .) إمبراطوريته بحد السيف، ومع ذلك فان حروبه التوسعية كانت أقل شرا على البلاد من الحروب الأهلية المستمرة الشاملة، التي كان السومريون أنفسهم يقعون فريسة لشرها. وفي الواقع فان التوحيد

السياسي المفروض عليهم كان العلاج الوحيد لهذه الآفة الاجتماعية. ذلك بأن شبكة الأقنية التي كانت قائمة في الحوض الأدنى لدجلة والفرات، الطبيعي منها والاصطناعي، كانت وحدة لا تقبل التقسيم، وما لم تقم سلطة واحدة، قادرة على تنظيم المياه وتوزيعها ـ والمياه كانت عصب الحياة ـ فان إدارة هذه المياه لا يمكن أن تكون لا فعالة ولا سليمة. ومن المحتم ان يكون هذا سببا لإثارة الحرب بين الدول المحلية المستقلة، ذلك بأن هذه كان لا بد من أن تتنافس وتتنازع فيما بينها، إذ تحاول كل منها أن يكون لها القسط الأكبر من السيطرة على الماء لمصلحتها. فعمل لوغالزغيري في توحيد سومر سياسيا، ثم في توسيع إمبراطوريته إلى الشمال الغربي، جعل قيام سلطة واحدة تشرف على مياه دجلة والفرات أمراً ممكنا للمرة الأولى؛ كما أن هذا العمل مكّن لحاكم سومر من أن يستولي على مصدر الأخشاب اللازمة لسومر وهو جبل أمانوس. ولعل الشيء نفسه تم بالنسبة الى مصادر النحاس، التي هي أبعد مسافة.

وعلى كل فان الثمار التي غرسها لوغالزغيري في بناء الأمبراطورية لم يجنها هو نفسه، ولا حتى أي إمبراطور آخر من الأمة السومرية ـ ذلك بأن الأمبراطورية التي ضم لوغالزغيري اجزاءها واحدها إلى الآخر انتزعها من يديه ضابط أكدي سامي اللغة اسمه سرجون الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكما لكيش (الأحَيْمر)، وقد انسحب سرجون من كيش وأنشأ لنفسه مدينة في أغاد. والمكان لم يهتد الباحثون إلى تعيينه بعد، لكن يظهر أنه كان على مقربة من الموقع الذي أُقيمت عليه بابل فيما بعد، وقد كان اختيار المكان موفقا، ذلك بأن موقعه حيث هو في الطرف الشمالي الغربي للغرين، حيث يقترب مجرى دجلة ومجرى الفرات واحدهما من الآخر الى أقرب نقطة، يسر للمستولي عليه إمكان السيطرة على كل الشبكة المائية من الطرف الواحد إلى الآخر من الغرين حتى مصب الرافدين.

لعل استيلاء سرجون على أمبراطورية لوغالزغيري لم يكن البروز الأول لأحد المتكلمين بلغة سامية في التاريخ المدون. فمن المحتمل أن سكان بيبلوس كانوا يتكلمون لغة سامية لما بدأت صلاتهم التجارية والحضارية مع مصر الفرعونية لأول مرة، وقد تم هذا نحو ما بين ٦٠٠، ٧٠٠ سنة قبل ايام سرجون. وعلى كل فان إمبراطورية سرجون السومرية الأكدية كانت أول دولة كبرى استعمل حكامها لغة سامية، فأكد التي انشأها سرجون، والتي كانت أغاد عاصمتها الأمبراطورية، كانت تقوم عبر نهري دجلة والفرات إلى

الشمال من سومر، وكانت تمتد شمالا في غرب الى النقاط التي كان ينتهي الغرين عندها. ولسنا نعرف فيما إذا كان توطن شعب سامي اللغة في هذا الموقع الاستراتيجي كان من عمل سرجون، أم أن الأكديين كانوا قد انساحوا في هذا الجزء من حوض دجلة والفرات في وقت سابق لذلك. وعلى كل فانه من الممكن أن نفترض أن الأكديين، ومثلهم الكنعانيين، الذين كانوا أقدم من استوطن سورية وفلسطين من الشعوب المتكلمة بالسامية، كانوا قد جاءوا من الجزيرة العربية؛ ذلك بأن الموجات المتعاقبة من الشعوب المتكلمة بالسامية، كالموجة العمورية والموجة العبرية الآرامية الكلدانية والموجة العربية، والتي اندفعت عبر شطآن السهوب العربية الى الهلال الخصيب - هذه الموجات جاءت من تلك المنطقة (أي الجزيرة العربية).

ولغات الأسرة السامية تربطها واحدتها بالأخرى روابط متينة، والأسرة السامية بالذات لها صلات بعيدة مع مجموعات من اللغات في الشمال الافريقي - كاللغة المصرية القديمة (المتمثلة اليوم باللغة القبطية) واللغات « الكوشية » في شمال شرق افريقية (مثل البجا والدناقل والغلا والصومال) واللهجات البربرية في شمال غرب إفريقية. ويعود الفضل إلى ما في السهوب من تيسير للتوصيل في انتشار اللغات السامية أكثر من غيرها، باستثناء اللغات الهندية - الاوروبية والتركية. واللغة العربية، التي كانت آخر لغة سامية حملها انسياح الشعوب من الجزيرة العربية، شائعة اليوم عبر جنوب اسية الغربي والشمال الافريقي من موطىء جبال زغروس وشواطىء الخليج العربي الشرقية الى شواطىء الأطلسي في شمال افريقية. واللغة السريانية، وهي الصيغة الحديثة للغة الآرامية، لا تزال تستعمل في بعض أمكنة على مقربة من دمشق، واللغة العبرية تستعمل الآن في بعض اجزاء من فلسطين.

لقد حكم سرجون من نحو ٢٣٧١- ٢٣١٦ ق.م.، والأسرة التي أسسها استمرت حتى حوالي سنة ٢٢٣٠. والامبراطورية التي انتزعها سرجون من لوغالزغيري والتي أورثها احفاده هي، بالنسبة للتاريخ السومري الأكدي، نظيرة المملكة القديمة في تاريخ مصر الفرعونية؛ لكن المملكة القديمة كان تتفوق على إمبراطورية سومر وأكد من ناحيتين: إنها قامت عند فجر تاريخ المدنية المصرية الفرعونية، التي كانت لحظة ميمونة في التاريخ، وإن مؤسسيها لم يكونوا غرباء عن البلد، فقد كان المكان الذي نشأوا فيه، وهو المدينتان التوأمان، نِخِن - نِخب، يقع تماماً داخل الحدود الجنوبية لمصر، وقد كان حكامها حماة

مستنقعات مصر الجنوبية. ولعلهم بسبب هذا الدور الذي كانوا يقومون به، قد تمرسوا بالبراعة الحربية الفائقة التي ظهرت أخيرا في الحرب بين الأخوة التي مكنتهم من فرض الوحدة السياسية على العالم المصري. وعلى العكس من ذلك فان أكد، وعاصمتها أغاد، كانت تقع تماما خارج الحدود الشمالية الغربية لسومر، وقد كان الأكديون متطفلين شبه برابرة، وكان سرجون وأحفاده، مثل لوغالزغيري، سلف سرجون، رجال حرب، فيما نعمت مصر بنحو الف سنة من السلام، منذ أن قامت المملكة القديمة في مصر الفرعونية.

وقد روي أن سرجون قاد بنفسه حملة عسكرية إلى شرق آسية الصغرى تلبية لاستغاثة مستوطنة من التجار ـ من المحتمل أنهم كانوا أكديين ـ الذين كانوا يلقون معاملة سيئة على أيدي أهل البلاد. وقد تكون قصة هذه الحملة السرجونية اسطورية، ولعلها قصة سابقة تاريخيا لاستيطان تجار أشوريين مستوثق من وجودهم هناك من القرن العشرين إلى أواخر القرن التاسع عشر ق.م. في ضاحية لمدينة كانش، حيث اكتشفت محفوظاتهم. وعلى كل فان حملة نارام سن السرجوني إلى جبال زغروس لا ريبة في أمرها. إن الحفر النافر على حجر نارام سن يؤيدها ـ وهي وثيقة منظورة لا تقل في شراستها عن الحفر النافر على حجر نارام سن الموجود في إيناتوما.

وحملة نارام سن، مع أنها كانت ضارية وقد انتهت بالفوز على ما يظهر، فقد كانت على الأرجح عملية هجومية ـ دفاعية، على ما يبدو من نتائجها؛ وإذا كان عمله دفاعيا فهو لم يكن يدافع عن أكد فحسب، بل كان يدافع عن سومر وعن المدنية السومرية. فقد أسرت هذه المدنية الأكديين الذين قهروها، ونبسوها بكليتها تقريباً، بما في ذلك كتابتها وحتى ديانتها. فأكثر الآلهة الأكدية كانت آلهة سومرية تخفيها غلالة رقيقة من الأسماء السامية، واللغة الاكدية دونت في حروف سومرية، مع أن هذه كانت آلة غير ملائمة للتعبير عن لغة من الأسرة السامية، من حيث أن جذر الكلمة السامية ليس سلكا ينتظم مقاطع، بل مجموعة من ثلاثة حروف صامتة.

ولما أخذ الاكديون بلباب المدنية السومرية كانت هذه قد طورت ظاهرتيها البارزتين. وكانت إحدى هاتين الظاهرتين التقوى الدينية، وكانت الأخرى المهارة التجارية، وقد عبر عن التقوى الدينية بكثير من الحيوية في الأشكال الصغيرة للمتعبدين، وهي التي كانت ضربا هاما من الفن المنظور السومري الأكدي. فان المتعبد تنقل يداه المطويتان وعيناه

الجاحظتان إلى الناظر اليه الآن العنف العميق الذي يلفه في صلاته. وآثار المهارة التجارية السومرية الأكدية هي هذه الالاف من ألواح الآجر المدونة عليها المعاملات التجارية المتنوعة. كان الآلهة أكبر أصحاب الأملاك، ومديرو هياكلها قد يكونون روادا في تنظيم الأساليب السومرية للقيام بالأعمال التجارية على نطاق واسع، إلا ان القطاع العام للاقتصاد السومري كان يعادله القطاع الخاص. فقد كان السومريون ينصرفون الى اعمالهم بكليتهم كما كانوا يعنون بعبادتهم. وقد ضاهى الأكديون السومريين في حقلي النشاط المذكورين، وتمثلوا روحهم.

قضى على الأسرة السرجونية الغوتيان الجبليون، أي البرابرة القادمون من الجهة الشمالية الشرقية، نحو سنة ٢٢٣٠ ق.م. وقد وقعت سومر وأكد تحت حكم الغوتيان من نحو ٢٢٣٠ الى حوالي ٢١٢٠ ق.م. واثناء فترة سيطرة الغوتيان تسلل العموريون المتكلمون بالسامية الى أكد من الجهة الجنوبية الغربية، وانشأوا مدينة بابل تبعا لذلك. وقد قضي على الغوتيان او لعلهم أخرجوا من البلاد في آخر المطاف، وذلك لأن الاكديين والسومريين كانوا يكرهونهم. اما العموريون الذين انتهكوا حرمة الأراضي الأكدية فقد استمروا هناك، وكان أن قاموا بدور رئيس في التاريخ السومري الاكدي في ما بعد.

٩ـ مصر الفرعونية، نحو ٣٠٠٠ـ ٢١٨١ ق.م.

منذ أن انبلج فجر أقدم المدنيات الأقليمية في سومر، نحو نهاية الألف الرابع ق.م، ظهر واختفى عدد من المجتمعات من هذا النوع. وثمة مدنيات أخرى لا تزال حية، مع أن أقدم هذه المدنيات الحية، واعني المدنية الصينية، هي أحدث عهدا من سابقتيها السومرية والمصرية الفرعونية، بما لا يقل عن ١٥٠٠ من السنين. وقد ميزت المدنية المصرية الفرعونية نفسها، في عصرها الأول أي « المملكة القديمة » (نحو ٣١٠٠ـ ٢١٨١ ق.م .)، عن غيرها من المدنيات الاقليمية، باستقرارها النسبي. ففي هذه الفترة الزمنية التي دامت قرابة ألف سنة، كانت المملكة القديمة أكثر استقرارا من أي نظام ظهر في تاريخ مصر ذاتها أو في أية منطقة أخرى، وقد عاشت بعض إنجازات المملكة القديمة حتى بعد زوال تلك المملكة. فأسلوب الفن المنظور المميز ونظام الكتابة كما أوجدها المصريون الفراعنة عند بروز مصر القديمة، والديانة التي ورثوها، حافظت على شخصيتها إلى القرن الثالث الميلادي باعتبارها أشياء مستمرة، ولم تزل قائمة حتى القرن الخامس. لا شك أنها تعرضت لتغيرات وتبديلات خلال هذه الثلاثة آلاف ونصف الألف من السنين؛ ولكن استمرار التقليد الحضاري المصري الفرعوني ظل على حاله خلال هذه الفترة الزمنية. أما في ما يتعلق بتنظيم المياه في حوض مجرى النيل الأدنى، إلى الشمال من الشلال الأول، فقد حوفظ عليه إلى يوم الناس هذا. وهذا التنظيم هو الذي مكّن للمصريين من قلب المستنقع ـ الغاب السابق، من أرض ماحلة قاسية إلى حقول ومراع خصبة.

فارض سومر القديمة، وهي مساحة من الأرض في حوض الفرات الأدنى، لم تسلم من العودة الى حالتها الطبيعية الأولى؛ وفي كل الجزء الغربني في جنوب شرق دولة العراق الحالية، نجد أن أساليب السيطرة على الماء التي أنشأها السومريون قبل خمسة او

ستة الاف سنة، يجب أن يبدأ بها من جديد. فيما لم يسمح ورثة المملكة القديمة في مصر الفرعونية قط لأساليب السيطرة على المياه التي بدأها أسلافهم بأن تخرب في أي جزء من أجزاء مصر. وقد اكد هيرودوتس، المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الخامس ق.م.، ان مصر « هبة النيل ». فكان آنذاك يفكر بالطمي الذي كان النهر يلقي به، والذي ظل يجدده بزيادة سنوية حتى تم إنشاء سدّ أسوان سنة ١٩٠٢. إلا أنه يكون أقرب الى الصواب القول بأن مصر هي الهبة التي قدمها المصريون، سكان البلاد في الزمن السابق للأسر وزمان الأسر الاولى، إلى الأجيال المتعاقبة. وهبة النيل لم تزد عن تزويد المواد الخام التي قلبت المستنقع ـ الغاب الغريني الى جنة غرينية. اما تطوير الأراضي البرية اصلا إلى الأرض المصرية الخصبة، فقد تم إنجازه بسبب ما كان للمصريين انفسهم من نشاط اجتماعي وجد ومهارة وقدرة إدارية.

لقد كان الإنجاز الرئيس للمصريين الفراعنة تنظيم حكومة مركزية فعالة لمصر بأجمعها من الشلال الأول إلى البحر. فقد تم توحيد مصر سياسيا وإداريا عند بدء تاريخ المدنية المصرية الفرعونية. وقد كان هذا العامل السياسي المعين لاستمرار زراعة الري في مصر، وقد استمرت على هذا المنوال إلى يوم الناس هذا، مع أنه تخللها فترات أصابتها فيها نكسات عادت أثناءها مصر إلى الانقسام خلال العصر الفرعوني. ويسمي علماء المصريات هذه النكسات « فترات معترضة »، لأنهم يرون، وهم على حق، ان الوحدة الفاعلة كانت النظام السياسي العادي في مصر منذ اليوم الأول الذي قام فيه الفرعون الذي وحد مصر. وهذا الإنجاز السياسي الثابت والمستمر، الذي هو فريد في قدمه، مكن له، ولا شك، نظام المواصلات المصري الداخلي الممتاز، والذي ظل كذلك فريدا حتى اختراع السكة الحديدية قبل قرن ونصف القرن من الزمان.

والقدرة البشرية الجماعية التي كانت مركزة تحت تصرف حاكم فعال يحكم مصر بأكملها، كانت تنتج من لوازم الحياة المادية فائضا كبيرا لم يسبق له مثيل، ويزيد كثيرا عن الحاجات الأساسية، هذا إذا استخدمت هذه القدرة، بمهارة وتنظيم، في سبيل استغلال إمكانات الغرين المصري المروض للإنتاج الزراعي. وهذه القدرة الجماعية نفسها، عندما كانت تستخدم في الأعمال المعمارية الضخمة، التي لم تكن منتجة بالمعنى المادي، وخصوصا عندما يضم الى هذه القدرة الجماعية جزء من الوقت الذي وفره الشعب من العمل الرئيس لإنتاج الغذاء ـ عندما يجتمع هذان فإنهما يمكنان الفرعون من إشباع رغبة

خاصة به وبحلقة داخلية من أتباعه ذوي الامتيازات. وهذه الرغبة كانت موضع الاهتمام الأول عند كل مصري في كل مرافق الحياة طيلة العصر الفرعوني.

كان للمصريين توق لضمانة الحياة الأبدية لانفسهم بعد الموت؛ وقد تابعوا هذه الغاية التي تلي الوفاة بجدّ يفوق جهدهم في ملاحقة أي غاية قد تتحقق في مدى الحياة البشرية. فقد كانوا ماديين في تفكيرهم. كانوا يتلذذون بالأشياء المادية ـ الطعام وحيازة الأشياء ـ التي يمكن الحصول عليها في هذه الحياة. وقد تصوروا الخلود بعد الموت في إطار من التمتع بالطيبات من النوع نفسه. وما دامت الحياة قبل الموت قصيرة، وبما أن الحياة بعد الموت قد تكون أبدية، فقد انفقوا من المال والجهد على القبر أكثر مما انفقوا على البيت، وعلى تحنيط الجثة أكثر منه على تزيين الجسم الحي. وعلى هذا فبدلا من ان يخشوا فكرة الموت، كانوا يسرون بانتظارها عقلبا عن طريق الإعداد لدور من الحياة أطول وأكثر أهمية ـ إذ كانوا يعتقدون أن هذا الدور يدشن الموت طريقه لهم، فيما لو أعدوا انفسهم بالعمل اللازم له مسبقا.

ولم تكن عقائد المصريين بالحياة بعد الموت وحدوية كما أنها لم تكن منسجمة واحدتها مع الأخرى. فالمحافظة الطبيعية على الجثة المحنطة في قبر ضخم، كان يتفق مع عقيدة ترى أن مثل هذا العمل يمكن لجزء من الروح أن يصاحب الجثة. وكانوا يعتقدون أيضاً بأن الفرعون، على كل حال، سينضم الى بقية الآلهة بجزء آخر من روحه. بل إنهم كانوا يقبلون عقيدة بدائية همجية وهي أن الفرعون سيلهم في الواقع رفاقه من الآلهة وبذلك يستولي على قوتهم. وثمة عقيدة ثالثة كانت تقول بأن اوزيريس ـ روح الحياة النباتية الذي مات ثم بعث حيا ـ سيمكّن لعباده من أن يحققوا مثل هذا التحول، وإنه عندها يدخلهم الى الجنة الخضراء في الغرب، حيث يقيمون معه في سعادة دائمة الى الأبد. وأسطورة اوزيريس المصرية كبيرة الشبه بأسطورة أدونيس الكنعانية وأسطورة أتيس في آسية الصغرى؛ ولكن إذا كانت اسطورة اوزيريس قد جاءت مصر من الخارج فلا شك أنها توغلت في صميم حياة المصريين الدينية في مرحلة مبكرة من تاريخ المدنية المصرية الفرعونية. وخلال هذا المساق الطويل لهذا التاريخ كانت عبادة اوزيريس تزداد شعبية، وانتهى بها الأمر إلى أنه صار لها محتوى أخلاقي. فقد أصبحت العقيدة عندهم أن الموت سيتبعه حساب، ولا يقبل في جنة أوزيريس إلا تلك الأرواح التي ترجح افعالها الخيرة على أفعالها الشريرة في ميزان القضاة الذين يقومون بذلك في ما بعد الموت.

وفي الوقت ذاته أدت العقيدة القائلة بأن الخلود يمكن تحقيقه، إذا دفن الميت في قبر ضخم، الى اختراع اسلوب ضخم في البناء بالحجر. وقد أشرنا من قبل إلى تطور المهارات عند الحجارة والمعماريين والبنائين في مصر الفرعونية، وقد كشف النقاب عن بناء يعود الى زمن الأسرة الأولى؛ لكن الإنجازات المعمارية الضخمة على مقياس كبير جاءت فجأة على نحو ما جاء توحيد مصر السياسي وخلق الكتابة الهيروغليفية من قبل - وقد بني أقدم هرم حجري في سقارة للملك زوسر (نحو ٢٦٦٨- ٢٦٤٧ ق.م .) على يد وزيره امحوتب. وقد كان هذا تجربة فقط. فقد قطعت الحجارة على قياس الآجر، وجمعت بعضها إلى بعضها الآخر على نحو ما كان يجمع الآجر. وفضلا عن ذلك فقد كان هناك أكثر من تغيير واحد في الخطة اثناء العمل. والأثر الطموح الذي بني كان أكبر من المحاولات الأولى المتواضعة التي أدخلت في حساب صنعه.

ان امحوتب لم يتذكره الأحفاد فحسب، بل قد نال احترامهم، وحتى وصل الى حد التأليه. وقد كان الرجل حريا بهذا الاحترام الدائم، ذلك لأنه، في حقيقة الأمر، كان اب المعمار الحجري الضخم في مصر. فبعد مدة لم تتجاوز نصف القرن الا قليلا، كان الملك سنوفرو (نحو ٢٦١٣- ٢٥٩٠ ق.م .)، وهو الذي انشأ الأسرة الرابعة، يبني هرما (أو لعله بنى هرمين) من الحجارة الكبيرة في دهشور، ثم تلا ذلك بسرعة مذهلة ان بنى كيوبس (خوفو نحو ٢٥٨٩- ٢٥٦٧ ق.م .) هرم الجيزة الأكبر، وكفرون (خفرع نحو ٢٥٥٨- ٢٥٣٤ ق.م .) الهرم الثاني في الجيزة ثم مكيرينوس (منكوره) الهرم الثالث في الجيزة.

وازدهر الحفر تماما مع فن المعمار. فقد رافقت براعة البناء في الحجر لتشييد هذه الأبنية الضخمة مهارة الحفار في الحجر لصنع التماثيل لتخليد الصفات المميزة للشخصية. فالتماثيل الرائعة التي تمثل خوفو وخفرع لا تزال حية بعد ما مرت خمسة واربعون قرنا على الحياة الزائلة التي عاشها جسماهما. فالتقاطيع، كما أظهرها النحات، جليلة. ويبدو هؤلاء الفراعنة وكأنهم كانوا يتصرفون بسلطانهم القوي دون أي جهد، على نحو يتناسب مع تصرف الآلهة التي كانوا يدعون أنهم هي ومع ذلك فان الفرعون من المملكة القديمة قد يكون إنساناً رقيقا. فقد أمر منكوره (نحو ٢٥٢٣- ٢٤٩٦ ق.م .) بأن ينحت تمثال زوجته قرب تمثاله، وكان ذراع كل منهما يلتف حول خصر الآخر. ومن الواضح أنه حتى العلاقة بين الفرعون وزوجه كانت علاقة حب وتقدير متبادلين،

والإنسانية في هذه العلاقة تبدو أكثر وضوحا في التماثيل التي تعود الى أيام المملكة القديمة للرجال وزوجاتهم، حتى من غير فئة الفرعنة، حيث كانوا يجلسون جنبا الى جنب في الوضع نفسه وهو وضع الضم المتبادل.

وهذا التمثيل الثلاثي الأبعاد للأزواج هو واحد من أصناف الفن في المملكة القديمة. ويوحي إلينا هذا أن الزواج، في ذلك العهد من التاريخ المصري، كان مؤسسة ترضي الحاجات العاطفية للشريكين. فاذا صح هذا فقد كان مؤسسة ثابتة، ولعل ثباتها كان أحد العوامل التي دعمت ثبات المملكة القديمة ذاتها.

ومع ذلك فحتى المملكة القديمة المصرية كانت عرضة للموت، وقد تعرضت، في مساق تاريخها الطويل، إلى الإجهاد والتوتر. ففي نصف الألف الأول من تاريخها، كانت مركزية الحكومة تزداد باضطراد، كما كان تركيز السلطات بيد الفرعون يتزايد ايضاً. وقد كانت نخن - نخب، موطن موحدي مصر الأصليين، قريبة بشكل مزعج من أقصى أطراف مصر العليا. وبعد توحيد التاجين، نقلت العاصمة مع مجرى النهر، اولا إلى تينيس (على مسافة قصيرة من أبيدوس) ثم إلى ممفيس، وهي مدينة جديدة، تقع شمالي الدلتا، وقد كانت اكثر المواقع ملاءمة كعاصمة للمملكة المتحدة. وبلغ استبداد الملكية الفرعونية المطلق غايته في زمن الأسرة الرابعة (نحو ٢٦١٣- ٢٤٩٥ ق.م .)، إلا أن الجو الذي يضفيه خوفو على هذه السلطة المطلقة العفوية قد يكون فيه شيء من الخداع، إذ أن استبداده لم يمر دون تحد في واقع الأمر. ذلك بأن تأليه حامل التاج المزدوج لم يكن الشكل الوحيد للتعبير عن توحيد مصر على المستوى الديني. فقد كان على الفرعون أن يأخذ في الحساب جمهرة من الآلهة اللابشرية التي كانت تعبد في مصر قبل أن يؤله الفرعون الأول.

ان توحيد مصر السياسي أثار مسائل عدة حول الالهة القديمة التي كانت تمثل قوى الطبيعة المحلية في كل مكان، أما وقد أصبحت المزارات المحلية لهذه الآلهة تقع ضمن إطار واحد، فان الآلهة نفسها أصبحت الآن أعضاء في جمعية مقدسة واحدة. فماذا كانت العلاقات النسبية والطبقية اي الوظائفية بينها؟ قد تم تنظيم هذه العلاقات في ترتيب لاهوتي وضع في هليوبوليس، مدينة إله الشمس رع. ويبدو أن هذا التنظيم الهليوبوليسي للألوهية، بأنها مجمع لتسعة آلهة لا بشرية برئاسة رع، تتضارب مع معتقد الأسرة الرابعة القائل بأن الألوهية كانت تجسدا في الفرعون.

والانتقال من الاسرة الرابعة الى الاسرة الخامسة (نحو ٢٤٩٤- ٢٣٤٦ ق.م .) لا يظهر انقطاعا في سلسلة النسب، بل تحولا في اللاهوت الفرعوني الذي كان، في الواقع، تنازلا من قبل الحكومة في ممفيس لكهنوت هليوبوليس. وهذا التبدل في ميزان القوى ينعكس في فن المعمار الفرعوني. ففراعنة الأسرتين الخامسة والسادسة لم يحاولوا أن ينافسوا اسلافهم في بناء أهرام ضخمة، بل بدلا من ذلك أقاموا الهياكل تكريما للعضو الأعلى رتبة في المجمع الهليوبوليسي، أي إله الشمس رع. لقد كان الفرعون دوما ينظر إليه على أنه أحد الآلهة، لكنه بدءا من قيام الأسرة الخامسة أصبحت الوهيته تستمد من كونه ابنا لرع، ولم تكن ام الفرعون ـ المرأة تلده نتيجة لفعل جنسي مع أبيه ـ الرجل، بل نتيجة فعل غير طبيعي يقوم به الأله.

كانت الأسرة الرابعة قد وصلت بالمدنية المصرية الفرعونية الى القمة في إنجازاتها في كل الميادين، والأسرة الخامسة كانت مَعْلَماً لتحول لاهوتي، وشهدت الأسرة السادسة (نحو ٢٣٤٥- ٢١٨١ ق.م .) انحطاطا انتهى بالسقوط. وبيبي الثاني، الذي لم يكن آخر فرعون من الأسرة السادسة وحسب بل آخر فرعون في المملكة القديمة ذاتها، حكم مدة أطول من أي ملك حفظت لنا القيود سني حكمه. فقد تولى العرش حوالي أربع وتسعين سنة (نحو ٢٢٧٨- ٢١٨٤ ق.م .). تولى العرش طفلا، وعاش ليرى بأم عينيه التفسخ يتسارع في الدولة التي ضمها الفرعون الأول من الأسرة الأولى بعضها إلى البعض الآخر.

ويمكن تبين ثلاثة أسباب لانحطاط المملكة القديمة وسقوطها نهائيا. فالسبب السياسي المباشر هو التبدل التدريجي في موظفي التاج. فبعدما كانوا موظفين محليين وادعين أصبحوا امراء يتولون مناصبهم على أساس حق وراثي، وليس بتعيين يمكن إلغاؤه. وقد استولى هؤلاء على فرق الجيش المصرية الوطنية، وعجزت الخطوة التي اتخذتها الحكومة الفرعونية ضد ذلك ـ أي استخدام المرتزقة النوبيين ـ عن إنقاذ سلطة الفرعون العسكرية العليا. والسبب الثاني لانحطاط المملكة القديمة وسقوطها كان العبء المالي المتراكم بسبب ما شاده الفرعون من المدافن والهياكل.

ولم ينشأ العبء بسبب بناء هذه الآثار بالذات. فقد كانت حقول مصر تنتج فائضا، والنيل، بحمله السماد، كان يحول دون القيام بالأعمال الزراعية في فترة الفيضان السنوي. فالفائض من منتوج السنة الحالية، جنبا الى جنب مع العطلة السنوية الإجبارية

من العمل في الزراعة، كان يتيح للقوى البشرية الموسمية ان تتحرر من العمل بينما كانت تطعم كفاية لتقوم ببناء هذه الآثار الكبيرة؛ ولكن الذي فرض هذا العبء المتراكم كان وقف الأرض ومنتوجها للمحافظة، باستمرار، على الطقوس التي كان يتوقف عليها خلود كل من الفراعنة المخلدين. ومعنى هذا، من الناحية العملية، هو الانفاق الذي ليس له مردود اقتصادي على جمع من الكهنة كان يتزايد باستمرار. وهؤلاء كانوا، على عكس العمال الموسميين الذين يقومون ببناء هذه الآثار، طفيليين يعيشون على حساب إنتاجية مصر.

والسبب الثالث الذي انتهى بالمملكة القديمة الى السقوط هو الشك المتزايد، ومن ثم التململ الذي عم عامة الشعب. فان التباين الطبقي بين الغالبية التي لا امتيازات لها و « المؤسسة » صاحبة الامتيازات في عصر المملكة القديمة كان أكبر مما كان عليه الحال حتى في عصر المدن - الدول المتناحرة في سومر، وفي الامبراطورية السرجونية التي عقبتها. فتجنيد العمال لتشييد الأعمال الفرعونية الضخمة ما كان ليتحقق لو أنه كان قسرياً كلياً. ولنا أن نخمن بأن العمال المجندين كانوا يعتقدون أنهم كانوا يقومون بالعمل في سبيل شيء هو أكبر أهمية وقيمة، من الناحية الاجتماعية والدينية، من مجرد تعظيم شخصي للفرعون. ولنا أن نخمن ايضاً أنهم لما فقدوا هذا الإيمان المفترض كان رد الفعل العاطفي عندهم على مقياس الجبال التي كان هذا الإيمان قادرا على زحزحتها.

استقينا معلوماتنا عن تفكك المجتمع المصري الفرعوني الذي تلا وفاة الفرعون المئوي بيبي الثاني من أعمال أدبية يبدو أنها صنفت في عصر المملكة المتوسطة (نحو ٢٠٤٠- ١٧٣٠ ق.م). وإذا كان هذا هو في الواقع تاريخ الدليل الذي بين أيدينا، فهذا الدليل لم يكن معاصرا لتلك الأحداث، ومع ذلك فإنه يترك في نفوسنا الانطباع بأنه يضع بين أيدينا صورة صادقة للاضطرابات الاجتماعية التي يصورها لنا عبر الماضي. ويبدو لنا ان هذه « الفترة المعترضة » الأولى في تاريخ مصر الفرعونية شهدت ثورة اجتماعية لم يقض عليها في المهد، على نحو ما تم لثورة اوروكاغينا الجهيضة في لاغاش. فصورة الثورة المصرية التي تركت طابعها على ذاكرة الشعب كانت انطباعا يمثل ثورة عارمة اختلت فيها الموازين وانقلبت الأدوار. فقد نهب الفقراء الأغنياء؛ وأصبح السادة السابقون عبيدا لعبيدهم السابقين، وتخلى القوم عن خدمة الطقوس الجنائزية الفرعونية القديمة. فالطقوس والفراعنة والاهرام والهياكل وكل ما عرفته المملكة القديمة من الأجهزة

الفرعونية الثقيلة العبء شوهت سمعته وسخر منه ورفض. وهذه الثورة هي أقدم ثورة اجتماعية شاملة تملك قيودا عنها.

ثمة ما يشير الى أن الأسرة السادسة الفرعونية قد قضى عليها هجوم بربري من الجهة الشمالية الشرقية، كما قضى هجوم بربري آخر على الأسرة السرجونية في عالم سومر وأكد قبل ذلك بنصف قرن؛ لكن الدليل الظاهر على هجوم بربري على مصر خلال « الفترة المعترضة » الأولى ليس حاسما، على عكس الدليل الذي لا يتسرب اليه الشك في أن الغوتيان احتلوا سومر وأكد. وعلى كل فليس ثمة ريب في ان المتحكمين المحليين (حكّام الولايات) نجحوا في أن يتحولوا من كونهم موظفين ووكلاء يعينهم الفرعون، إلى أمراء سادة في الواقع. والدليل على هذا ليس منتزعا من أخبار عبر الماضي. ذلك بأن فراعنة الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١- ١٧٨٦ ق.م .)، الذين جاؤوا بعد توحيد مصر السياسي ثانية في مطلع عصر المملكة الوسطى، وجدوا أنه يترتب عليهم أن يخطوا بحذر وبكثير من البطء لتحقيق هدفهم في إعادة حكام المقاطعات الى وضعهم السابق، بعدما كان هؤلاء مستقلين في الواقع لمدة لا تقل عن مئتي سنة.

١٠ـ الأفق العالمي نحو ٢٥٠٠ــ ٢٠٠٠ ق.م.

ان سقوط الامبراطورية السرجونية في سومر وأكد وسقوط المملكة القديمة المصرية الفرعونية يبدو أقل مدعاةٍ للدهشة من إقامة نظام سياسي موحد في كل من البلدين بعد فترة فراغ إداري دامت ما يزيد عن القرن في سومر (نحو ٢٢٣٠- ٢١٢٠ ق.م .)، ونحو قرن ونصف القرن في مصر (نحو ٢١٨١- ٢٠٤٠ ق.م .). وعودةُ العافية اليهما كان أمرا رائعا، ذلك بأن سقوط النظام السياسي الموحد في كليهما، رافقه تفكك ظاهري في المدنية. والذي تلا ذلك دل على انّ هاتين المدنيتين الأقليميتين كانتا أقوى وأقدر على التكّيف مما بدا عليهما لما نزل بهما الانهيار الاول. وبعد عودة الحياة إليهما عاشت المدنية السومرية الأكدية ٢٢٠٠ سنة، والمدنية المصرية الفرعونية استمرّت الزمن نفسه، بل وأطول منه. وعلى كلّ، عندما تمت لهما العودة الجديدة، لم يكتب لهما أنْ تكونا المدنيتين الوحيدتين الأقليميتين في الأويكومين. فقد ظهر غيرهما إلى جانبهما. وكان قد تم ظهور مدنية إقليمية جديدة في آسية الصغرى وقبرص، بسبب التوسّع التجاري للمجتمع السومري الأكدي الى الجهة الشمالية الغربية، والمدنية الجديدة التي ظهرت معاصرة لها في كريت قد تكون تلقت الايحاء لا من سومر وأكد فحسب، بل من مصر أيضاً.

والمدنية الجديدة في آسية الصغرى كانت تدور في فلك المدنية السومرية الأكدية بسبب أنها نقلت عنها عناصر هامة بما في ذلك الكتابة وبعض الآلهة. والكتابة التي نقلت لم تستعمل لكتابة اللغة الأكدية فحسب، بل لتدوين اللّغات الوطنية كذلك، ومجمع الآلهة الوطني حافظ على كيانه إلى جانب الآلهة الأكدية المستوردة.

إن جزر البحر المتوسط والبرّ القارّي كانت قد إستوطنت في العصر الحجريّ الحديث.

وقد كان ثمة تفاوت في الزمن بالنسبة إلى استيطان الجزر. ولكن ما لبث الناس ان حذقوا الملاحة البحرية حتى أصبحت الجزر المشرقية أماكن ملائمة للاستيطان. وعلى سبيل المثال فان مناجم النحاس في قبرص أصبحت عنصراً اقتصادياً هاماً لمصر وسومر، كما كانت الغابات في جبال لبنان وأمانوس عنصراً هاماً في اقتصاد وادي دجلة والفرات الأدنى ووادي مصر الأدنى في الوقت الذي كانت فيه هذه المناطق تنتقل من العصر الحجري الحديث الى العصر الخلكوليثيّ، ثم إلى العصر النحاسيّ والبرونزيّ. والمدنيات التي ظهرت في قبرص وكريت وجزر الأرخبيل خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. جاءها الإيحاء، ولا ريب، من سومر ومصر. إلاّ أنّ الإصالة في مدنيات الجزر كانت تتناسب مع المسافة التي تفصلها عن المناطق التي جاءها منها الحافز. فبينما ترى أن دين آسية الصغرى القارية الحضاري لسومر وأكد واضح، تجد أنّ دين المدنية الكريتية لسومر وأكد ولمصر أقل بروزاً من التميّز الذي يبدو في مظاهر تلك المدنية نفسها. وقد سمّى علماء الآثار المحدثون، وهم العلماء الذين أخرجوا المدنية الكريتية الى النور، هذه المدنيّة « المينويّة »، وهم يشيرون بذلك الى الملك الكريتيّ الأسطوري مينوس، ملك البحار. وقد خلقت المدنية المينوية فنّاً يتّسم بالطبيعية، وهو فن لم يكن له نظيرٌ معاصر إلاّ في مدنية حوض السند، وهي المنطقة البعيدة جغرافياً عن كريت. وعنيت المدنية المينوية أيضاً باستثمار فنّ الملاحة البحريّة التي كانت مدينة له بوجودها.

كان السبج المادة الخام التي لا مثيل لها لصنع نصلٍ حاد، وذلك في العصر السابق لاستعمال المعدن. والسبج مادة زجاجية ناجمة عن التفجر البركاني. والسبج نادر ندرة القصدير الذي لا غنى عنه لتحويل النحاس إلى برونز، وثمة مترسبات منه في جزيرة ميلوس، القريبة من كل من كريت وجزر الأرخبيل، كما توجد ترسّبات منه أيضاً في جزر ليباري البركانية، الواقعة في البحر التّيراني، في الجهة البعيدة من مضيق مسينا. وبالنسبة إلى الملاّحين القادمين من البحر الأيجي، وملاحو جزر الارخبيل الذين غلبهم على أمرهم منافسوهم ملاّحو البحر الأيجي بالنسبة إلى السيطرة على السبج الموجود في ميلوس ـ كانوا، على ما يبدو، الروّاد في ما يتعلق باكتشاف السبج في جزر ليباري واستغلاله. وقد لحق الملاّحون المينويون جيرانهم ملاحي جزر الارخبيل الى المياه الغربية، وهناك تاجروا على مقياس أوسع، وكان لديهم سلع أكثر تنوعا. وهكذا فلم تدخل شواطىء بلاد اليونان فحسب، بل دخلت شواطىء إيطالية الجنوبية الغربية وصقلية ايضاً

مجال المدنية المعروفة إلى ذلك الوقت، مع أن كريت كانت لا تزال أبعد نقطة غربا حيث كانت مدنية اقليمية مزدهرة قائمة في ذلك الحين.

توجد الى الشرق من سومر، حيث يوجد الغرين الذي رسبه دجلة والفرات، ترسبات غرينية أصغر من تلك التي خلفتها أنهار كارخاه وديز وقارون. وهنا، في عيلام، قامت مدنيّة يمكن ان تصنّف على أنّها تابعة للمدنية السومرية الأكدية، أو انها حقيقة تقع في منطقة نفوذها. وكان العيلاميون قد أوجدوا، كما أوجد المصريون من قبل، كتابة خاصة بهم، وهي التي كانت تشبه الكتابة السومرية في بنائها لكنها كانت تتألف من أشكال اخترعت مستقلة، وكانت ذات أسلوب مميّز لها. إلاّ أنّ العيلاميين اخذوا أنفسهم، خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. باستعمال الكتابة السومرية للغتهم، على ما نحو ما فعل الأكديون في بادىء الأمر. ولما ضمت عيلام إلى إمبراطورية سومر وأكد، بعد تأسيسها ثانية في أيام أسرة اور الثالثة، نحو سنة ٢١١٣ ق.م.، قبس العيلاميون حتى اللغة الاكدية ـ وكان هذا في المعاملات التجارية كما كان في المعاملات السياسية. وكان العيلاميون، في القرن الثالث عشر ق.م.، قد استعادوا استقلالهم اللغوي، لكنهم لم يعودوا الى استعمال كتابتهم الأصلية التي لم تكن سومرية أصلا.

والمدنية العيلامية ـ أو المنطقة العيلامية التي كانت تقع في حيز نفوذ المدنية السومرية الأكدية ـ كانت على كل حال مجتمعاً صغيراً. ومع ذلك فانّ العيلاميين اعتدوا على العالم السومري ـ الأكدي سياسياً في الالف الثاني ق.م. واستطاعوا الحفاظ على شخصيتهم المميزة المدة الكافية للتمكين للغتهم، التي ظلّت تستعمل الكتابة السومرية، كي تصبح واحدة من اللغات الرسمية في الامبراطورية الفارسية الأولى.

لم يكن ثمة دليل اثري، حتى إلى قبل مدة قصيرة، على وجود مدنية تعود الى الألف الثالث ق.م. في المنطقة الواقعة بين عيلام وحوض السند. أما الآن فثمة مدينة ـ تعود في تاريخها الى الفترة الواقعة بين ٢٩٠٠ و ١٩٠٠، على ما أظهرته التجارب العلمية ـ يعمل فيها المنقبون في شرهيسوختا وهو مكان في سجستان الإيرانية، يقع تماما داخل إيران على الحدود الإيرانية الأفغانية، التي كانت (الحدود) في وقت من الأوقات تتاخم أسفل مجرى نهر هلمند قبل أن يغيّر مجراه إلى المجرى الحاليّ، وكان السكان يعرفون الزراعة وتربية الحيوان والتعدين (النّحاس) وصنع الفخار والحياكة والصباغة. ويقرر المنقبون أن مدنية شرهيسوختا كانت مستقلة عن المدنية السومرية الأكدية، إلا أنه هناك دلالة على

أنها كانت تتاجر مع سومر، وأيضاً مع المناطق التي تكوّن اليوم أفغانستان وتركمنستان. وسنظل في ظلام حول هذه القضية إلى أن يتقدم التنقيب هناك وتنشر تقارير أوفى. فنحن لا نعرف أصول مدنية شرهيسوختا ولا خصائصها، فيما إذا كان لها أيّ خصائص تميّزها.

وقد يلقي التنقيب في شرهيسوختا ضوءاً على ظهور المدنية الكبرى التي قامت في حوض السند في النصف الثاني للألف لثالث ق.م. وهو الوقت الذي تمثّلت فيه المدنية السومرية الأكدية المدنبة العبلامية، وقامت فيه مدنية في آسية الصغرى كانت تدور في فلك المدنية السومرية الاكدية.

إنّ المنطقة التي كشفت فيها الآثار المادية للمدنية السندية تبلغ المسافة بينها وبين سومر، عبر البرّ، ضعف المسافة بين هذه الأخيرة وبين أي من مصر أو آسية الصغرى؛ فليس من المستغرب إذن أنه لم يقم بعد دليل على أن صانعي المدنية السندبة استوحوا أي تأثير منبثق من سومر. ويبقى أصل المدنية السندية مبهما إلى أن تحل رموز كتابتها وتفسر هذه الكتابة.

على أن المدنية الاقليمية في حوض السند، مثل مدنية مجرى النيل الأدنى، تبدو وكأنها قد ظهرت فجأة وأنها ظهرت تامة النمو. وإذا كانت المدنية السومرية قد امتدّ شعاعها في اتجاه جنوبي شرقي، بطريق البحر، كما امتدّ شمالا في غرب برا، فلا يمكننا أن نستبعد إمكان ولادة المدنية السندية بحافز ثقافي من سومر، إذا أخذنا في الاعتبار أن الطريق البحري من شمال الخليج العربي الى دلتا السند هو أقل من نصف المسافة البحرية بين نقطة الابتداء نفسها وساحل البحر الأحمر في مصر العليا. يضاف الى ذلك أنّنا نعرف أن مدنية السند كان لها اتصال مع المدنية السومرية، ولو أنّ الأولى لم تتلق الايحاء اصلا من الثانية، ذلك بأن اختاما منقوش عليها كتابة سندية قد عثر عليها في سومر في طبقات آثارية أقدم من الأسرة السرجونية. وهذا دليل على أن المدنية السندية كانت قد أصبحت امراً قائماً في وقت مبكر يعود الى سنة ٢٥٠٠ ق.م.

نعرف من تاريخ وجود المدنية السندية في حوض السند أن اللغة التي تعبر عنها الكتابة التي لم تحل رموزها بعد ليست سنسكريتية اولية لأن المهاجمين الذين حملوا هذه اللغة الهندية - الأوروبية إلى شبه القارة الهندية لم يصلوا تلك المنطقة إلاّ بعد ما لا يقل عن الف سنة بعد سنة ٢٥٠٠ ق.م. لكننا لا نعرف فيما إذا كانت لغة نقوش المدنية

السندية هي واحدة من أسرة اللغات الدرافيدية، التي سبقت السنسكريتية الأولية، أو أنها لغة من لغات الأسرة الأسترية - الآسيوية، التي يبدو أنها وصلت شبه القارة قبل كل من اللغة السنسكريتية الأولية أو اللغة الدرافيدية.

وكتابة المدنية السندية لم تكن الصفة المميزة الوحيدة لهذه المدنية. إن الفن المنظور فيها كان طبعياً إذا قورن بالفن التقليدي في سومر وأكد أو في مصر، على ما أظهرته منمنمات الفنّ السندي التي استخرجت من بين الأنقاض. وفن العمارة في المدنية الهندية، سواء في ذلك ما هو عام منه وما هو بيتيّ، يترك في النفس الانطباع أنه عمل مجتمع ذي عقلية نفعية. فالتمديدات المائية والمجاري والحمامات والأحواض في الموانىء ذات مستوى شبيه بمستوى ما كان في الإمبراطورية الرومانية، بل في الواقع تكاد تصل المستوى الغربي الحديث. والزراعة المروية التي كانت أساس اقتصاد المدنية السندية لم تكن، بطبيعة الحال، خاصة بها؛ كما ان معرفة تقنية الغزل والنسيج والصياغة او استعمال دولاب الخزاف لم تكن خاصة بها كذلك. وعلى كل فان شجيرة القطن، التي كانت تزود سكان السند بالمادة اللازمة للمنسوجات الخفيفة، قد يكون تدجينها تم على ايدي هؤلاء القوم بشكل مستقل، ولعلهم كانوا هم أيضاً المدجنين الأصليين للبقر ذي السنام (الدرباني او الزبو).

وثمة مظهر آخر يميّز المدنية السندية عن نظيرتها في حوض دجلة والفرات وحوض النيل الأدنى وهو اتساع رقعتها الجغرافية. فالمدينتان السنديتان الرئيسيتان اللتان اكتشفتا حتى الأن هما موهنجودارو في السند وهربا في البنجاب، والمسافة بينهما ٦٤٠ كيلومترا، وهذه المسافة لا تقلّ عن المسافة بين أسوان والقاهرة. ومجال المدنية السندية لم يقتصر على حوض السند بالذات. فقد امتدت الى بلوخستان شرقا وإلى غوجرات غربا. أما في الشمال فقد شملت على الأقل المجاري العليا لحوض جومنا - غنجز. وأعمال التنقيب الأثري المستمرة، في الاتجاه الشرقي، تكشف لنا عن بقايا متزايدة للمدنية السندية، ولم نتمكن بعد من التأكد من حدودها الشرقية.

وهكذا بينما كان عدد المدنيات الاقليمية يتزايد، كانت الزراعة وتربية الحيوان تنتشر في العالم القديم من الأويكومين من موطنهما الأصلي في جنوب غرب آسية، إلى ما وراء حدود هذه المدنيات الإقليمية التي كانت قائمة في سنة ٢٥٠٠ ق.م.. ولعلّ الزراعة كانت، على أيّ حال، معروفة في أميركا الوسطى في ذلك الوقت أيضاً، إلا أنها، على

وجه التأكيد لم تنتشر هناك من العالم القديم، بل اخترعت في العالم الجديد بطريقة مستقلة. والتقديرات التي اعطيت لأقدم النماذج من الذرة التي وجدت في هذه المنطقة تتراوح بين النصف الأول من الألف الرابع وسنة ٢٥٠٠ ق.م. وإذا كانت عرانيس الذرة التي عثر عليها في ترسبات كهف كوكسكاتلان، والتي يرجع تاريخها الى نحو سنة ٤٠٠٠ ق.م، على ما ذكر قبلا، هي بريّة وليست مدجنة ولو قليلا، فمعنى هذا انّ النبتة البرية التي ولدت منها الذرة المدجنة أصبحت معروفة. وعلى كل فان الجماعات القروية التي كانت تعتمد على الزراعة في سدّ حاجاتها لم تكن قد ظهرت سنة ٢٠٠٠ ق.م. في الاميركتين بينما نجد انّ حضارة العصر الحجري مع ما كان عندها من نباتات وحيوانات مدجنة، كانت قد انتشرت في العالم القديم من جنوب غرب آسية غربا عبر الشواطىء القارية والجزرية في حوض البحر المتوسّط الى المناطق الأفريقية والأوروبية الواقعة خلف البحر المتوسط. وقد كانت طريقة الحياة هذه قد عمّت، سنة ٢٥٠٠ ق.م.، غربا حتى الشواطىء الشرقية لشمال المحيط الأطلسي، بما في ذلك الجزر الواقعة عبره وجنوب أسوج، التي كانت، في الواقع واحدة من هذه الجزر، إذ أنّ الوصول اليها لم يكن ممكناً إلاّ عبر الماء المالح.

حافة شمال المحيط الأطلسي من العالم القديم في الأويكومين يكاد بعدها عن جنوب غرب آسية يكون ضعف بعد هذه المنطقة الأخيرة عن حوض السند؛ اما الأجزاء الدنيا من حوض النهر الأصفر في الصين فبعدها عن جنوب آسية أكبر من بعد هذه المنطقة عن حافة شمال المحيط الأطلسي. وأقدم حضارة من العصر الحجري الحديث التي عثر على آثار لها في حوض النهر الأصفر هي حضارة يانغ ـ شاو. وقد سميت كذلك نسبة الى قرية في هونان الحالية وهي القرية التي اعتبرت موقعا نموذجيا لتلك الحضارة. لكن يبدو أنّ هذه الحضارة قد بدأت قبل ذلك، واستمرت وقتا أطول من ذلك، في ما يسمى اليوم كانسو، وهي أقصى ولاية في شمال غرب الصين الأصلية. والفخار الملون الخاص بهذه الحضارة وهو مظهرها المميز لها، يشبه فخار تريبولجي الملون من حضارة العصر الحجري الحديث التي كانت قد قامت في اوكرانيا الغربية، قبل انقضاء الألف الثالث ق.م.. وقد لا يكون هذا الشبه مجرّد مصادفة، فقد يكون دليلا على اتصال تاريخي. فكانسو واوكرانيا تقعان على الطرفين الأبعدين للسهوب الأوراسية ـ والسهوب، كالبحر، سبيل للتوصيل. فقد يكون رواد من أهل العصر الحجري الحديث وصلوا شطآن السهوب

الأوراسية الجنوبية في منطقة عبر قزوين، ولعلهم ساروا عبر السهوب شمالا في غرب إلى أوكرانيا، وشمالا في شرق إلى كانسو في الوقت نفسه. وقد تكون حضارة العصر الحجريّ اليانع شاوية قد قامت هناك، أي في شمال غرب ما يسمى الصين الآن، في النصف الثاني من الالف الثالث ق.م.

وهكذا فقد يكون التوصيل الذي تقوم به السهوب الأوراسية قد سهل انتشار الزراعة وتربية المواشي من جنوب غرب آسية الى الصين في العصر الحجري الحديث، وفي العصر الخلكوليثي الذي تلاه سهلت السهوب بلا ريب انتشار لغات الأسرة الهندية الأوروبية. واللغات الهندية الأوروبية التي قد تكون نشأت أصلاً في شرق اوروبة، على حافة السهوب الأوراسية، كان انتشارها أوسع من انتشار اللغات السامية. فاللغات الهندية الاوروبية يتكلم بها اليوم من البنغال وسيبيريا الشرقية في أقصى الشرق وحتى شواطىء المحيط الهادي في الاميركتين في أقصى الغرب، وكذلك في أسترالية ونيوزيلاندا، وايضاً في إفريقية الجنوبية، وإن كان المتكلمون بها هنا هم أقلية ضئيلة من السكان. وليس من المصادفة ان المتكلمين باللغات الهندية الأوروبية، مثل الناطقين باللغات السامية، خرجوا من السهوب أو عبرها في المرحلة الأولى من هجراتهم. فالتوصيل الموجود في السهوب كان القوة الدافعة الأولى لهذا الانتشار الواسع غير العادي للغات هاتين الأسرتين.

وأقدم القيود الوثائقية لأي من اللغات الهندية الأوروبية هي الوثائق الحثية. وقد كانت مملكة خطي (وهو الاسم العبريّ للحثيين) قائمة في شرق آسية الصغرى، وكانت تدون وثائقها قبل نهاية القرن السابع عشر ق.م.، بلغة حكامها الهندية الأوروبية، وبكتابة مقتبسة عن الكتابة السومرية. ويقدر بأن اللغة الهندية الأوروبية، التي كانت قد توطدت في خطي في ذلك الوقت، ولغة لوفيان الهندية الأوروبية التي هي وثيقة الصلة بالأولى، والتي وطدت نفسها في غرب آسية الصغرى، قد حملها مهاجرون جاؤوا في وقت مبكّر نحو سنة ٢٣٠٠ ق.م.

وثمة لغة هندية أوروبية أخرى، هي اليونانية، التي يقدر دخولها الى بلاد اليونان القارية نحو سنة ١٩٠٠ ق.م.. وقد ظهر، حوالي هذا الوقت نوع مميز من الفخار (سمي خطأً الخزف المنياني) في بلاد اليونان القارية وفي منطقة طروادة. ونجد في بلاد اليونان دليلا على تدمير معاصر لذلك، وقد كان قوياً بحيث أنه أدى الى نكسة في الحضارة الإقليمية. وإذا نحن وضعنا هذه النتف من الدلائل الأثرية، جنباً الى جنب، فقد نرى في

ذلك وصول مهاجمين برابرة الى بلاد اليونان. وإذا صح الدليل، فمعنى ذلك أن هؤلاء المهاجمين هم الذين حملوا اللغة اليونانية معهم، ذلك بأنّ حل رموز الوثائق المدونة بالكتابة « المستقيمة ب »، يدل على أن اللغة اليونانية كانت تستعمل في بلاد اليونان قبل أن تدهمها الموجة التالية من الهجمات البربرية، التي لم تبدأ إلاّ نحو سنة ١٢٠٠ ق.م.

فاللغة اليونانية ولغة لوفيان ـ الحثية كلتاهما لغتان هنديتان اوروبيتان من الفئة المعروفة باسم « كنتم »، اذ أنّ الصوت « ك » الأصلي فيها استمر بلفظه، بدلاً من ان ينقلب، في بعض حالات الكلام الصوتية الى صوت « س »، كما حدث في فئة اللغات المعروفة باسم « ساتم »، بسبب هذا الانحراف الجديد. واللغات من فئة « كِنْتُم » موجودة في أقصى طرفي العالم الناطق باللغات الهندية الأوروبية. فاللغات الهندية الأوروبية التي وطدت نفسها في أوروبا الغربية ـ الإيطالية والقلتية والتيوتونية ـ هي لغات « كنتمية » مثل اليونانية ومثل اللوفيان ـ الحثية. إلا انّ لغة هندية اوروبية « كنتمية » أخرى كان يتكلمها التوخاروي (الذين يسمون يوه ـ تشي باللغة الصينية). وهذا الشعب ظل حتى القرن الثاني ق.م. يقطن مكاناً قصيًا الى الشرق، في جزء من السهوب الأوراسية الذي يجاور الآن الطرف الغربي لسور الصين الكبير.

ليس لدينا اية معلومات عن الجهة التي وصل منها هؤلاء المعتدون، الذين حملوا معهم اللغتين الهنديتين الاوروبيتين ـ الحثية واللوفيانية، إلى آسية الصغرى. يمكن أن يكونوا قد خرجوا من السهوب عند طرفها الغربي ووصلوا آسية الصغرى بطريق جنوب أوروبة ومن ثم عبر المضائق التي تصل البحر الأسود بالبحر الأيجي. هذا الطريق الغربي هو الطريق الأنسب. ومن المؤكد ان اللغة اليونانية نقلت من السهوب الى بلاد اليونان عبر طريق يسير إلى الغرب من البحر الأسود. وفي المقابل، وهو ممكن ولو أنه أقل احتمالا، قد يكون الناطقون بالحثية وباللوفيانية، اللغتين الهنديتين الأوروبيتين، خرجوا من السهوب عند شاطئها الجنوبي، حيث تقع تركمنستان اليوم، ودخلوا آسية الصغرى من الشرق، بعد ما اجتازوا شمال إيران.

وقد افترض ايضاً أن الحثيين على أي حال، إن لم يكن اللوفيانيون أيضاً، من الهنود الأوروبيين قد وصلوا من السهوب باجتيازهم سلسلة جبال القفقاس. هذا الفرض هو غير واقعي. فمع أنّ طريقاً ما عبر القفقاس قد يكون قصيراً نسبياً، فأنّ القفقاس بالذات تكون حاجزا لا يقهر بالنسبة إلى شعب مهاجر. وقد نجحت الجيوش أحياناً في شق طريقها

بالقوة بين الطرف الجنوبي الشرقي للقفقاس وبحر قزوين، ومع ذلك فلم ينجح شعب هندي أوروبي في الاستقرار في القفقاس، أو حتى عند أقدام الجبال، باستثناء الآلان الذين أعطوا اسمهم لمّر داري آل عبر منتصف السلسلة القفقاسية. وفي يوم الناس هذا تقطن جبال القفقاس كلّها باستمرار من شاطىء بحر قزوين الغربي الى الشاطىء الشرقي للبحر الأسود، شعوب تنطق بلغات غير اللغات الهندية الأوروبية. وهناك الآن شعوب تنطق بالتركية وأخرى تنطق بالهندية الأوروبية على جانبي سلسلة جبال القفقاس؛ لكن المنطقة القفقاسية، التي يتكلم سكانها لغات غير التركية وغير الهندية الأوروبية، لا تزال تعزل الشعوب الشمالية عن الجنوبية، أي الناطقة باللغة التركية والمتكلمة باللغة الهندية الاوروبية، الواحد عن الآخر.

ما الذي دفع بالشعوب الهندية الأوروبية الى الانطلاق من السهوب الأوراسية في سلسلة من الهجرات التي أدّت في النهاية الى بذر لغات هذه الأسرة في أنحاء المعمور؟ إنه من المهم أن اسية الصغرى هي المنطقة التي لنا فيها أقدم دليل على استعمال لغة هندية أوروبية؛ إذ أن أقرب منطقة إلى السهوب الأوراسية التي كانت المدنية قد وطدت نفسها فيها، قبل نهاية الألف الثالث ق.م.، هي آسية الصغرى. والجزء الأخير من ذلك الألف بالذات هو الزمن الذي أخذت فيه الشعوب المتكلّمة باللغة الهندية الأوروبية بالهجرة، على ما هو مفترض. ويبدو كما لو أنّ حجر المغنطيس الذي جذبهم هو الثراء النسبي لمدنية مجاورة، كان مجالها في متناول البرابرة لنهبه. لا شك في ان مدنية آسية الصغرى انتشر تأثيرها خارج حدودها بالذات، وانّ البرابرة الذين بهرهم بريق الحضارة التي كانت اقدر على الإنتاج مما كان عندهم، انجذبوا نحو هذه الثمرة الناضجة، كما تنجذب الفراشة نحو لهيب الشمعة.

والقدر الذي تجلبه الفراشة على نفسها هو تشبيه موفّق للنقمة التي تحلّ بالبرابرة الذين يهاجمون المجتمعات الثرية التي لا تملك القوة الحربية لصد اعتداء جيرانهم البرابرة. فطمع البرابرة المهاجمين هو بحد ذاته يهدم نفسه، ذلك بأن المعتدين إذا لم تقض عليهم هجمة معاكسة، كما قضي على الغوتيان الذين فتحوا سومر وأكد، فإنهم يستمرون في الحياة كي يشاركوا الذين هزموهم الفاقة التي أوقعوها بالمهزومين. ومن سخرية القدر أن هذه كانت النتيجة التي تلت فتح البرابرة لبلاد اليونان، وهم الذين يحتمل أن يكونوا قد ادخلوا اليها اللغة اليونانية نحو سنة ١٩٠٠ ق.م.

١١ـ أويكومين العالم القديم نحو ٢١٤٠ـ ١٧٣٠ ق.م.

كان البرابرة الغوتيان الذين هاجموا سومر وأكد قد تغلبوا على السرجونيين الأكديين وحلوا محلهم. وقد كان من المنتظر ان يكون قادة الثورة الوطنية، التي أفنت الغوتيان أو طردتهم، بعد ما يزيد عن القرن قليلا من السيطرة الغوتيانية (نحو ٢٢٣٠ـ ٢١٢٠ ق.م .)، من الأكديين الذين كانوا ضحية الغوتيان. لكن في الواقع فإن محرر أكد، وسومر كذلك، لم يكن أكديا بل سومرياً. لقد كان أوتوكيغال حاكم اورك (الورقاء حكم نحو ٢١٢٠ـ ٢١١٣ ق.م .) لكن لم يجن لا أوتوكيغال ولا مدينته ـ الدولة ثمرة انتصاره، إذ انّ الصولجان انتقل الى مدينة ـ دولة سومرية أخرى هي أور. فإمبراطورية سومر وأكد التي انشأها الفاتح السومري لوغالزغيري، والتي كان قد انتزعها من يد لوغالزغيري سرجون الأكدي ملك أغاد، أعاد بناءها الآن سومريّ آخر هو أور ـ نامو ملك اور(حكم نحو ٢١١٣ـ ٢٠٩٦).

ومن حيث ان سومر كانت مهد المدنية السومرية الأكدية وليس أكد، فقد كان من المنتظر أن تكون إمبراطورية سومرية أكدية، تتمركز حول مدينة ـ دولة سومرية، أقوى أسساً من الامبراطورية الأكدية شبه البربرية التي حكمها السرجونيون. والواقع هو أنّ الامبراطورية السومرية الأكدية التي أعاد بناءها أور ـ نامو، وأسرة أور الثالثة التي أسّسها بنفسه، دامت ما يزيد عن القرن قليلا (نحو ٢١١٣ـ ٢٠٠٦)؛ وفي خلال هذه الفترة من السيطرة السياسية السومريّة، تمكنت أكد من بسط لغتها على سومر، وأصبحت سومر ثنائية اللغة اولا، ثم صارت تتكلم اللغة الأكدية بلا استثناء. ومع أنّ اللغة السومرية لم يسدل عليها ستار النسيان نهائيا في العالم السومري الأكدي إلاّ حين سقوط أشور وتدميرها في ٦١٢ـ ٦٠٩ ق.م.، فقد ظلت لغة كلاسيكية، فقط، من حيث أنها كانت الأداة التي حفظت المعرفة التقليدية للمدنية السومرية الأكدية.

قضى على أسرة أور الثالثة ثورة قام بها اتباعها اعيلاميون. فقد نهبوا مدينة أور - وهي نكبة لم تقم لأور بعدها قائمة - وتوزع الأمبراطورية فيما بينها عدد من الدول الخليفة المحلية المتنازعة، ولم تستعد عيلام استقلالها فحسب، بل فُرضت أسرة عيلامية على لارسا (سنكرة) المدينة - الدولة السومرية. وقد اتخذت المدينة - الدولة السومرية إيسين (بحريات) لقب إمبراطورية سومر وأكد، دون أن تتمكن من إعادة بناء الإمبراطورية واقعيا. والمدن - الدول المحلية الأخرى التي خلفت إمبراطورية أسرة أور الثالثة الزائلة كانت أشنونا (الواقعة شرقي دجلة، في شمال غربي عيلام) وأشور (على شاطىء دجلة، شمال أشنونا) وبابل (على شاطىء الفرات في أكد) وماري (تل الحريري على شاطىء الفرات في مجراه الأوسط شمال شرقي بابل) وكركميش (جرابلس على شاطىء انحناءة الفرات الغربية) ويمخد (حلب) وقطنا (الواقعة جنوبي حلب في وادي العاصي). وكل هذه الدول الخليفة لإمبراطورية أسرة أور الثالثة، باستثناء قطنا ويمخد وعيلام، أعاد اليها وحدتها حمورابي ملك بابل (حكم من ١٧٩٢- ١٧٥٠)، اذ قام بتسع حملات سنوية متوالية شنها ضدها بين السنة الثلاثين والسنة الثامنة والثلاثين من حكمه؛ ولكنّ إعادة البناء الثانية هذه كانت أسرع إلى الزوال من إعادة البناء الأولى التي تمت على يد أور - نامو السومريّ.

كان مصدر الخطر على إمبراطورية حمورابي: على نحو ما كانت عليه الحال في إمبراطورية نارام سن قبل ذلك بنحو خمسة قرون، سكان الجبال في غوتيوم. وقد جرّب حمورابي تفادي هذا الخطر القائم في غوتيوم، كما جربه نارام سِن من قبل، بالمبادرة بالهجوم؛ وقد كانت هذه الخطة، للمرّة الثانية، لا نفع فيها. إذ لم تمض سوى عشر سنوات على إتمام حمورابي لفتوحه، وفي السنة الثامنة من حكم خليفته المباشر سمسو - ألونا (أي في سنة ١٧٤٣ ق.م). انقض البرابرة الكاشيون من غوتيوم وقاموا بأوّل اعتداء لهم على بابل، وهو الاعتداء الذي وصلتنا أخباره مدوّنة (يبدو أنهم أرّخوا قيام الحكم البابلي نحو سنة ١٧٣٢ ق.م). وخلال حكم سمسو - ألونا انفصلت أشور وماري وكركميش وحتى البلاد البحرية في المستنقعات الواقعة على رأس الخليج العربي - عن بابل. وفي سنة ١٥٩٥ ق.م. جاء دور بابل لتشرب الكأس التي شربتها أور، فقد نهبها المهاجمون، الذين لم يكونوا هذه المرة عيلاميين، بل كانوا من الحثيين بقودهم الملك مورشيليش الأول. لقد جاء الحثيون وذهبوا؛ لكن الكاشيين هم الذين جنوا

الشمر. قضى الحثيون على أسرة بابل الأولى، ولكن الكاشيين احتلوا بابل ووحدوا كل سومر وأكد، باستثناء الأرض البحرية، تحت سلطة بربرية دامت حتى نحو سنة ١١٦٩، اي ما يكاد يساوي أربعة أضعاف الزمن الذي عاشته سلطة الغوتيان البرابرة الذين جاؤوا البلاد في أعقاب الحكم السرجوني.

وهكذا فقد كان توحيد امبراطورية سومر وأكد السرجونية سياسياً للمرة الثانية جهيضاً. ففي فترة تمتدّ ٣٧٠ سنة (٢١١٣- ١٧٤٣ ق.م .) كان ثمة وحدة فعالة لمدة ١٣٠ سنة فقط، مقابل ٢٤٠ سنة من الخلاف والنزاع والفوضى السياسية. على أنه في هذه الفترة التي امتدت عبر ٣٧٠ سنة حصل تطوران، في غير الميدان السياسي، وسارا بنجاح حثيث، كان احد هذين انتشار اللغة الاكدية. فهذه اللغة لم تأسر السومريّين فحسب، بل تعدتهم الى العموريين الذين كانوا قد انساحوا في أكد، في الوقت ذاته الذي جاء فيه الغوتيان، وانشأوا الأسرة البابلية الأولى نحو سنة ١٨٩٤ ق.م. (وقد انتقل العموريون ولا ريب بيسرٍ الى التكلم بالأكدية لأن لغتهم الأصلية كانت سامية مثل الأكدية). والتطور الثاني كان التوسع الأشوري التجاري شمالا في غرب. وقد أظهرت القيود التي تعود الى مستوطنة أشورية كانت تقوم خارج أسوار دولة كانش الوطنية، في شرق آسية الصغرى، مدى النشاط الذي كانت تتمتع به هذه التجارة في القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م. وقبيل انقضاء هذه الفترة كان التّجار الأشوريون قد وسعوا نشاطهم بحيث وصلوا الى مدينة خطوشاش (بوغازكاله).

أما في مصر فقد أختلفت النتيجة التي نشأت عن سقوط المملكة القديمة عن ذلك. فلم يكن في مصر فتح أو احتلال بربريّ أخذ البلاد بأجمعها. كان هناك ثورة اجتماعية أهلية، وترتب على ذلك أن المملكة القديمة انهارت وتقسمتها حكومات محلية. وقد حالت هذه الفوضى دون الاستمرار في تنظيم مياه النيل لمصلحة مصر بأجمعها؛ ولما كانت حياة الناس في مصر، بل بقاؤهم، تعتمد أصلا على الحصول على الماء للريّ، فقد اقتتلت الجماعات المحلية في ما بينها للإشراف على الماء، كما حصل فعلا في سومر قبل أن يفرض لوغالزغيري وخلفاؤه السرجونيون وحدة سياسية على سومر وأكد.

ولم تكن هذه الحالة مما يمكن تحمله سواء في مصر أو في سومر. وفي وقت مبكر يعود الى نحو سنة ٢١٦٠ ق.م. كانت قد قامت محاولة لإعادة بناء المملكة الفرعونية المتحدة وذلك على يد أسرة جديدة كان مركزها هيراكليوبوليس، وهي مدينة تقع في

الجزء الشمالي من مصر العليا إلى الجنوب من ممفيس، عاصمة المملكة القديمة. وقد أثبت الحكم الهيراكليوبوليسي عجزه، لكن الحاجة الملحة لإعادة مصر إلى وحدتها تم على يد الأسرة الحادية عشرة (نحو ٢١١٣- ١٩٩١) التي كانت طيبة (اوبت) مستقرها الأصلي. وطيبة هذه كانت في جنوب مصر العليا، ومع ذلك فلم تكن بعيدة عن المدينة التوأم نِخِن - نِخِب، التي انجبت الموحدين الأوائل لمصر. والبلد الذي يعتمد على الإشراف على الماء في سبيل حصول السكان على الحد الأدنى من الحاجات، يمكن لقوة تتمركز في أعلى النهر أن تتفوّق على منافساتها في المجرى الأدنى للنهر. فليس من المستغرب ان يتغلّب الطيبيون على سكان هيراكليوبوليس. والرجل الطيبي الذي وحد مصر كان منتوحوتب الثاني (نحو ٢٠٦٠- ٢٠١٠ ق.م). وقد حقّق هدفه في توحيد البلاد نحو سنة ٢٠٤٠، ودامت المملكة المتوسطة التي أنشأها نحو ثلاثة قرون تقريباً.

وهذه الفترة كانت ثلاثة اضعاف الفترة الزمنية لإمبراطورية سومر وأكد التي أعادها نارام - سن الى الوجود، لكنها بلغت فقط ثلث الفترة الزمنية التي عاشتها مملكة مصر القديمة. ومع أن الحياة في أيام المملكة المتوسطة كانت نسبيا حياة أمن وازدهار، إذا ما قورنت بما كانت عليه الأحوال في « الفترة المعترضة » الأولى في تاريخ مصر (نحو ٢١٨١- ٢٠٤٠ ق.م)، فإن فراعنة المملكة المتوسطة كانوا في جهاد مستمر لتثبيت سلطانهم. ويبدو أن أمنمحات الأول (١٩٩١- ١٩٦٢)، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، كان وزيراً قبل أن يصبح فرعونا، كما يبدو وكأنه قد مات اغتيالاً. هذا ما يقرأ بين السطور في الوصية المزعوم أنه تركها لخليفته سيزوستريس (سنوسرات) الأول (١٩٧١- ١٩٢٨ ق.م).

كان على فراعنة المملكة الوسطى ان يضعوا حدّا لسلطة الأمراء المحليين، وقد كانت هذه مهمة بطيئة وعسيرة. يضاف الى ذلك أن هؤلاء الفراعنة، على عكس أسلافهم في عصر المملكة القديمة، وسّعوا إمبراطوريتهم في اتجاهين: أولهما صعودا مع وادي النيل إلى النوبة ما وراء الشلال الأول، والثاني في اتّجاه شمالي شرقي إلى فلسطين، بل لعلهم وصلوا حتى دمشق شمالا. وثمة دليل على وجود تأثير مصري من عهد المملكة المتوسطة حتى في شمال سورية - في اوغاريت (رأس الشمرا) على الساحل وفي الألخ في الداخل. ولسنا ندري فيما إذا كان توسع المملكة المتوسطة في آسية لقي أية مقاومة،

ولكننا نعرف أن توسعها في النوبة قابله شيء من ذاك. والآثار الخاصة بالأسرة الثانية عشرة ليست أهراماً ولا هياكل، وإنما هي حصون. وقد شاد سيزوستريس (سنوسرات) الثالث (حكم ١٨٧٨- ١٨٤٣ ق.م .) ثمانية حصون منيعة بين وادي حلفا، تحت الشلال الثاني، وسمنه فوقه، وهي، مثل اهرام الاسرة الرابعة، آية في فن المعمار، لكنها صممت من أجل غاية مختلفة. فالهرم كان يبنى ليضمن للفرعون الخلود بعد الموت، أما حصون سيزوستريس الثالث فقد اقيمت لتضمن له السيطرة، في حياته، على أرض استولى عليها بصعوبة.

كان حكم منتوحوتب الثاني، موحد مصر، معاصرا للنصف الثاني من الفترة الزمنية لأسرة اور الثالثة (نحو ٢١١٣- ٢٠٠٦ ق.م .). والمحفوظات التي كشف عنها التنقيب في ماري (تل الحريري) تمتد لفترة اثنين وخمسين سنة، ١٨١٧- ١٧٦٥ ق.م.، وخلال هذه الفترة كانت ماري على اتصال بكل الدول المحلية في العالم السومري الاكدي، بما في ذلك ما كان منها غربي الفرات. ومع ذلك ليس في المحفوظات أي قيد يدل على وجود المصريين في سورية، وبالمقابل ليس في قيود مملكة مصر المتوسطة أية إشارة إلى إحياء امبراطورية سومر وأكد الذي تم على يدي أور - نامو أو على يد حمورابي بعد ذلك. صحيح أنّ الأسرة الثانية عشرة، التي بلغت مملكة مصر المتوسطة القمة في عهدها، لم تعتل العرش إلاّ بعد سقوط أور بخمس عشرة سنة، وانتهى أمرها بعد أربع سنوات فقط من تولي حمورابي، وقبل خمس وعشرين سنة من تاريخ الحملة الأولى من الحملات السنوية التسع التي قادها حمورابي والتي أدّت الى إعادة بناء إمبراطورية أور - نامو. ومع ذلك فإنه أمر يدعو إلى العجب أن كلا من هذين العالمين ظل يتجاهل واحدهما الآخر في الوقت الذي كانا فيه قريبين جداً واحدهما من الآخر.

والمرجح أن المدنيّة السنديّة كانت خلال هذه القرون الثلاثة، من نحو ٢١٤٠- ١٧٣٠ ق.م.، لا تزال قائمة، وأنّ المدنية المينويّة في كريت كانت مزدهرة. لقد أشرنا من قبل إلى أن الإشارة الوحيدة، التي نملك حتى الآن، حول زمنيّة المدنيّة السنديّة هي الكشف عن أختام منقوش عليها بالكتابة السنديّة، والتي عُثِرَ عليها في طبقات موثّق تاريخها من البقايا المادّيّة من المدنيّة السومرية الأكدية. وأقدم هذه الطبقات التي تحتوي على أختام سندية هي من زمن ما قبل السرجونيين، لكن النهاية الزمنية لوجود هذه الاختام السندية

في سومر وأكد ليس مؤكدا. والدليل الأثري الذي حصلنا عليه من مراكز المدنية السندية نفسها يشير إلى أن هذه المدنية كانت نهايتها مفاجئة ومدمرة.

واذا كان الامر كذلك فمن الجائز ان يكون القوم الذين دمروها هم أنفسهم البرابرة الذين حملوا إلى الهند اللغة الهندية الأوروبية، وهي اللغة التي دونت بها الآداب الفيدية، وهي اللغة التي عرفت في ما بعد باسم السنسكريتية بعد إحيائها لتصبح لغة كلاسيكية. وقد كانت اللغة الدرافيدية واللغة الأوسترية ـ الأسيوية شائعتين في شبه القارة الهندية في الوقت الذي سبق هجوم القوم الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية، والذين جاؤوا البلاد من الشمال الغربي. وثمة لغة كانت شائعة في بعض اجزاء بلوخستان في القرن الحالي تسمى براهوي، وهي لغة من العائلة الدرافيدية. اما تاريخ وصول اللغة السنسكريتية الأولى الى الهند فليس مؤكداً شأنه في ذلك شأن التاريخ الذي دمرت فيه المدنية السندية. ويبدو أن الكاشيين، الذين انقضوا على بابل من الهضبة الإيرانية في القرن الثامن عشر ق.م. كان بينهم فئة كانت تستعمل اللغة السنسكريتية الأولى، إذا اعتبرنا وجود سورياش، إله الشمس الفيدي، في مجمع الآلهة الكاشي أساسا لذلك. وقد كان هناك آلهة فيدية في مجمع مملكة ميتاني في ميزوبوتاميا (الجزيرة) في القرن الخامس عشر قبل الميلاد؛ لكن هذه الآثار التي خلفها المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية في بلاد بابل وفي الجزيرة في تلك الأزمنة لا تدلنا على الزمن الذي خرب فيه أقاربهم المدنية السندية.

وبلغت المدنية المينوية في كريت غاية ازدهارها في الربع الأول من الألف الثاني ق.م. ففي المدة من نحو ٢٠٠٠ـ ١٧٠٠ ق.م. بنيت القصور الأولى: كنوسوس وفايستوس واياتريادة ومليا وبلاكاسترو ولم تكن هذه القصور محصنة. وقد يستدل من ذلك أن هذه لم تكن عواصم لهذا العدد من الدول المستقلة المحلية ذات السيادة. وقد يستدل أيضا على أنه في هذا العصر أحس الكريتيون بأنهم في مأمن من هجوم بحري. ومع ذلك فهذه المجموعة الأولى من القصور المينوية دمرت بين نحو سنة ١٧٥٠ و ١٧٠٠ ق.م. وليس ثمة دليل مؤكد على أن هذا التدمير الكلي كان من صنع الإنسان، فقد يكون سببه زلزالا، إلا أن المصادفة في أن يقع هذا في وقت قريب من زمن الهجوم الكاشي على بابل، ومن وقت هجوم الهكسوس على مصر قد تحملنا على القول بأن تدمير القصور الكريتية قد يكون فعل اعداء هاجموا البلاد يومها.

في الربع الأول من الألف الثاني ق.م. كانت مرحلة يانغ ـ شاو من حضارة العصر الحجري الحديث الإقليمية قد خلفتها مرحلة لونغ ـ شان. ولم يكن هذا في أسلوب الفخار فقط من حيث استبدال الخزف الأسود بالخزف الملون. إن شعوب لونغ ـ شان كان عندها من الحيوانات المدجنة تنوع أكبر، وكانت على الأقل واحدة من مستوطناتهم مدينة بها أسوار من التراب الممهد. على أن حضارة العصر الحجري الحديث الأرقى التي عرفت في آسية الشرقية لم تكن قد وصلت بعد إلى مدنية من النوع ذاته الذي كان معروفا الى الغرب من تلك المنطقة، في حوض السند وحوض البحر الإيجي وما بينهما.

١٢ـ تدجين الحصان ونشوء البداوة الرعوية في السهوب الأوراسية

بدأ البرابرة الكاشيون انحدارهم الأول من الطرف الغربي للهضبة الإيرانية نحو بلاد بابل سنة ١٧٤٣ ق.م.، واستمروا في الاعتداء حتى احتلوا مدينة بابل، التي كان الحثيون الناطقون بلغة هندية أوروبية قد نهبوها سنة ١٥٩٥ ق.م. ويبدو أنّ المملكة المتوسطة المصرية قد لاقت نهايتها على طريقة مماثلة نتجت عن اعتداء تدريجي قام به البرابرة المعروفون باسم الهكسوس الذين انساحوا في الزاوية الشمالية الشرقية لدلتا النيل نحو سنة ١٧٣٠ او ١٧٢٠ ق.م. وانتهى بهم الأمر إلى احتلال ممفيس في سنة ١٦٧٤ ق.م.، وبذلك قضوا على الأسرة الثالثة عشرة. وإذا نحن نظرنا إلى الأسماء الشخصية التي اتخذها الهكسوس، بدا لنا أنّ الهكسوس كانوا يستعملون لغة سامية؛ واذا كانت لغتهم الأصلية لغة سامية غربية فمعنى هذا أنهم لم يكونوا من أقارب الكاشيين. إلا أن معاصرة هجوم الهكسوس على مصر والهجوم الكاشي على بلاد بابل والتخريب التام لمجموعة من الهياكل الأولى في كريت، كل هذا يحملنا على القول بأن هذه التحركات قد تكون كلها نتيجة ضغط جاء من الخلف بالنسبة إلى هذه الجماعات.

فمن المؤكد أن التحرك الهكسوسي نحو مصر جاء بسبب تحركات مكثفة من الحوريين الذين جاؤوا حديثاً من مرتفعات تركية الشرقية، الى الجزيرة وبلاد الشام. إلا أنه، كما ذكر قبلا، ثمة دليل لغوي يحملنا على القول بأن المهاجمين الذين انشأوا مملكة ميتاني في الجزيرة في القرن الثامن عشر ق.م.، ومثلهم الكاشيين الذين فرضوا سلطانهم على بلاد بابل في الوقت نفسه ـ كان بين هاتين الجماعتين من المهاجمين فئات ممن يتكلمون اللغة السنسكريتية. هذا الدليل اللغوي يحملنا على القول بأنه، اضافة الى الضغوط المحلية، كان هناك عامل أساسي أدى الى هذه التحركات، وقد يكون هذا تفجرا سكانيا بين شعب كان يتكلم اللغة السنسكريتية الأولية بدأ من المنطقة الخلفية لجنوب غرب آسية.

وهذه المنطقة الخلفية هي السهوب الأوراسية، فهي التي يمكن الوصول اليها من المكان الذي يحتمل ان تكون اللغات الهندية الأوروبية قد نشأت فيه أصلا، أي مكان ما في شرق اوروبة، فيما تجاوز شطآنه الجنوبية جنوب غرب آسية في تركمنستان. وإذا كانت السهوب قد خبرت تفجرا سكانيا، فلعل هذا جاء في أعقاب تدجين الحصان، الأمر الذي مهد الطريق للبداوة الرعوية. لقد عثر في طروادة على عظام الخيل في أسفل طبقة من المدينة (طروادة) السادسة، والتي يرجع تاريخها الى نحو سنة ١٨٠٠ ق.م. ومن الناحية الأخرى لم يكن السومريون الأكديون في عصر أسرة بابل الأولى، ولا المصريون في عصر المملكة المتوسطة، يملكون الخيول. ويدل هذا على أن الحصان قد دجن في السهوب الأوراسية قبل سنة ١٨٠٠ ق.م. بوقت قصير، كما يدل على أن اختراع آلة حربية جديدة ـ العربة التي تجرها الخيول ـ ونشرها، يفسر عنف الهجمات على سومر وأكد وعلى مصر في القرن الثامن عشر ق.م.، كما يوضح سر نجاح المهاجمين.

والبداوة الرعوية، مثل الحياة المدنية، هي أسلوب في الحياة غير زراعي، إلا أنه طفيلي يعيش على الزراعة، وما كان له أن يوجد إلا على مقربة من السكان الزراعيين وبالمشاركة معهم، إذ أن هؤلاء السكان ينتجون فائضا من الطعام يزيد عن حاجاتهم الضرورية. وسكان المدن يبتاعون الطعام من العاملين في الزراعة مقابل مصنوعاتهم وخدماتهم، والبدو الرعاة هم بحاجة الى شراء منتوج الجماعات المستقرة مقابل الحيوانات والجلود. ومع أن البدو الرعاة أنفسهم قد تخلوا عن الزراعة، فإن أسلوب حياتهم الجديد كان ممكنا فقط في تكامل مع جيران كانوا قد استمروا في العمل الزراعي. فاذا انتظم هذا الأمر عندها تكون البداوة الرعوية أكثر الطرق إنتاجا لاستغلال المراعي الجافة دون إتلافها، وقد تعطي زراعة هذا النوع من الأراضي مردودا أكبر في المدى القصير؛ لكن في هذه الحالة يكون منتوج كلّ سنة أمرا فيه الكثير من الشك، وجزاء الاقدام على حرث الأرض واقتلاع العشب تحويل المراعي الى صحراء، والبديل لهذا هو استعمال المراعي للصيد والقنص، كما كان سكان أميركا الأصليون يصنعون في مراعي أميركا الشمالية الى القرن التاسع عشر، لما جاءها المستوطنون من أوروبة فقضوا على الثور الأميركي (بيسون) واستبدلوه « بمملكة الأبقار » القصيرة العمر. فالبداوة الرعوية هي أربح الوسائل البشرية التي يمكن استخدامها في المراعي لاستغلال الطبيعة دون أن يؤدي ذلك إلى العقم.

ويتحتم على البدوي الراعي، إذا أراد للمراعي الجافة أن تعيل أكبر عدد من

الحيوانات، ان ينتقل بها من أرض معشوشبة الى أخرى في مجال ذي مواسم منتظمة. ولن يتمكن من تسيير قطعانه ومواشيه في تنقلاتها المتعددة دون الاستعانة بالأعوان من غير البشر مثل الخيل والجمال. وإذا كان لا بد من التخطيط للتنقل بعناية وتنفيذه بدقة، تجنبا لما قد يحل به من مصائب، توجب على الراعي البدوي ان يكون هو وأعوانه من الحيوان ومواشيه خاضعاً لنظام شديد. ففن السوقيات في التنقل عند الجماعة البدوية الرعوية يشبه الفن اللازم في العمليات العسكرية. وبالنتيجة فان البداوة الرعوية تؤدي بالذين يمارسونها بشكل ذاتي إلى شن الحروب المتحركة، ولو أنهم في العادة يقومون بالدورة السنوية دون أن يصطدموا لا بأقوام بدوية أخرى، ولا بجيرانهم البدو المستقرين وشركائهم في التجارة.

وقد مكن تدجين الحصان للانسان أن يحصل على عون غير بشري هو الذي فتح للبداوة الرعوية المجال لتصبح عملية؛ لكن الحصان الأصلي الذي دجن كان حيوانا ضعيفاً، فلم يكن يستطيع حمل رجل. وكانت اربعة من الخيول لازمة لجر عربة ذات دولابين مصنوعة من أخف المواد. وقد مر ألف من السنين من إنجاب الخيل حتى أمكن إنتاج حصان يستطيع أن يحمل حتى الفارس الخفيف السلاح. ومرت بضعة قرون أخرى حتى أنتج الحصان الكبير، الذي ينقل أسلحة ويحمل فارسا مدججاً بالسلاح من الرأس إلى القدم. على أن البدوي الراعي كان، من أول الأمر، يثير الرعب عسكرياً في المرات القليلة التي كان يخرج فيها من السهوب التي هي موطنه العادي. ولعل الهجمات التي ذاقت بلاد بابل ومصر وويلاتها، وقد يكون نال كريت من ذلك نصيب أيضاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق.م. انما هي آثار غير مباشرة للتفجر البدوي الذي عقبته سلسلة من التفجرات، التي استمرت في السهوب الأوراسية حتى القرن الثامن عشر للميلاد، وفي السهوب العربية الشمالية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

يبدو أن الذين صنعوا البداوة الرعوية في السهوب الأوراسية كانوا هم المتكلمين باللغة السنسكريتية الأولية، وهم الذين تركوا، فيما وراء الحدود الجنوبية للسهوب آثارا مؤقتة في بلاد بابل وفي الجزيرة، كما تركوا آثارا باقية في الهند. على أن البداوة الرعوية لم تكد أن تصنع حتى انتهى احتكار شعب واحد لها. فالسهوب الأوراسية استوطنتها على توالي الأيام شعوب تتكلم اللغة السنسكريتية الأولية والإيرانية والتركية والمغولية والفنية (لغة المجريين). ولما دجن الجمل ذو السنام الواحد في السهوب العربية قبل انتهاء الألف

الثاني ق.م.، ولما تأقلم الحصان هناك قبل بدء التاريخ الميلادي، اتّسع مجال البداوة الرعوية فشمل بلاد العرب، ومن بلاد العرب انتقلت البداوة الرعوية إلى شمال افريقية. وقد صنع البدو الرعاة التاريخ منذ القرن الثامن عشر ق.م. حتى زمن لا يزال الكثيرون من الأحياء يذكرونه.

١٣ـ العلاقات بين المدنيات الإقليمية نحو ١٧٣٠ـ ١٢٥٠ ق.م.

خمّنا في الفصل السابق، أن تدجين الحصان مهد الطريق لاصطناع أسلوب البداوة الرعوية في الحياة في زمن مبكر في الألف الثاني ق.م.، وأن تدفقا من البدو الأوراسيين المتكلمين بالسنسكريتية الأولية وجد طريقه الى جنوب غرب آسية في القرن الثامن عشر ق.م. واذا كان مثل هذا التدفق قد حدث فقد كان قصير الأمد، وقد ترك هؤلاء البدو الأوراسيون أثرا ضئيلا في السكان المستقرين الذين وصل هؤلاء المهاجمون الى مواطنهم. ومن ناحية أخرى، إذا كان هذا التدفق البدوي هو القوة التي دفعت بالحوريين إلى الجزيرة وبلاد الشام، والهكسوس الى مصر، فان الأثر غير المباشر لهذا التدفق البدوي على العلاقات بين المدنيات الاقليمية كان هائلا، ذلك ان انسياح الشعوب هذا حمل المدنيات الاقليمية في المشرق على إقامة علاقات في ما بينها. وقد كانت هذه العلاقات فعالة وجوهرية على مقياس لم يسبق له مثيل.

المدنية السومرية، وهي أولى النماذج للأنواع الإقليمية، لم تتفرد ببقائها النموذج الوحيد مدة طويلة. فالمدنية الفرعونية كانت قد ظهرت في مصر عند منقلب الألف الرابع إلى الألف الثالث ق.م.، وظهرت كذلك مدنيات إقليمية أخرى في النصف الثاني من الألف الثالث في آسية الصغرى وكريت وحوض السند. ومع ذلك فان الحالة الوحيدة التي قامت فيها صلات وثيقة بين مدنيتين إقليميتين حتى القرن الثامن عشر ق.م. كانت تتمثل في الدَّيْن الحضاري للمدنية السومرية الأكدية على لمدنية التي قامت في آسية الصغرى.

وقد كانت مدنية آسية الصغرى، في الواقع، تدور في فلك المدنية السومرية الأكدية، لكن هذه الدرجة من التبعية كانت أمراً استثنائياً. والتأثير السومري على مصر في فجر المدنية المصرية كان حافزاً، وهو الذي قد يفسر جزئياً قيام المدنية المصرية بشكل يبدو وكأنه كان فجائيا، وقد كان التأثير السومري هنا قصير الأجل. وخلال القرون الإثني

عشر أو الثلاثة عشر الأولى من تاريخ المدنية الفرعونية كانت هذه المدنية تشق طريقها الخاص بها، وتطورت في خطوط متميزة خاصة بها.

وقد أشرنا إلى أن كلا من المدنيتين الفرعونية والسومرية الأكدية تبدو وكأنها قد تجاهلت وجود الأخرى، حتى في الربع الأول من الألف الثالث ق.م. حينما كانت رقعتاهما متماستين، أو لعلهما كانتا حتى متشابكتين، والعلاقة بين المدنية السومرية الأكدية ومدنية السند كانت حتى أضعف من ذلك. إن الأختام السندية التي عثر عليها في طبقات الآثار المادية التي خلفتها المدنية السومرية الأكدية تشير إلى وجود علاقة تجارية بين المجتمعين السندي والسومري في وقت مبكر يعود الى نحو سنة ٢٥٠٠ ق.م.، لكن البقايا المادية لمدنية السند لم يظهر فيها بعد أي أثرٍ يدل على تأثير سومري، وليس في حوض السند نظائر لما تركته المدنية السومرية من آثار على مصر في العهد السابق لقيام الأسر وفي عصر الأسر الأولى. هذه الندرة في الاتصال بين المدنيات الاقليمية في المشرق حتى القرن الثامن عشر ق.م.، يقابلها بشكل واضح تعدد وتقارب في هذه الاتصالات في ما بين القرن الثامن عشر والقرن الثالث عشر ق.م.

كانت المدنية المصرية هي التي قامت بالدور الأول في المجالات العسكرية السياسية في المشرق خلال هذه القرون الخمسة. ويعود القضاء على العزلة التي كانت قائمة بين المدنيات الإقليمية المشرقية على العموم إلى العمل الذي قامت به مصر، وقد يبدو هذا غريبا لأن المدنية المصرية كانت من قبل أقل تطلعا إلى الخارج، وأقل رغبة في التوسع، من المدنية السومرية الأكدية. ومع ذلك فانا نرى أن الانطواء الذاتي التقليدي للمجتمع المصري ولد فيه كرها عدوانيا للأجانب، لما تمكن المهاجمون البرابرة، لأول مرة في تاريخ المجتمع المصري، من إقحام أنفسهم في ملكه. وقد دفع هذا الكره للأجنبي المصريين إلى طرد المعتدين الأجانب اولا، ثم إلى تعقبهم، بعد طردهم بحملة ضدهم إلى عقر دارهم في فلسطين وسورية حيث كانت القاعدة الأصلية للعمليات العسكرية.

وقد كانت هذه المنطقة قد انجذبت، منذ زمن طويل، الى منطقة النفوذ الحضارية المرتبطة بالمدنية السومرية الأكدية، وترتب على ذلك أن الشدة في رد الفعل المصري، السياسي والحربي، ضد الاعتداء الأجنبي جعلت مصر تتصل بحضارة أجنبية كانت تجابهها عسكرياً.

في العقود المتأخرة من القرن الثامن عشر ق.م. خضع البابليون للسلطان الذي فرضه

عليهم الكاشيون البرابرة، كما أن الأشوريين، اللذين اغتنموا اول فرصة سنحت لهم لنزع النير البابلي، تقبلوا، على ما يبدو سيادة الميتانيين البرابرة. وقد تحمل البابليون الحكم الكاشي نحو ستة قرون. ولعل السيطرة الميتانية على أشور دامت نحو ثلاثة قرون ونصف القرن، قبل أن يصفيها الشعب المستعبَد في ثورة عارمة. وقد بدأ إنسياح الهكسوس في مصر نحو سنة ١٧٣٠ او ١٧٢٠ ق.م. وبلغ حدّه سنة ١٦٧٤ ق.م.، لما احتل الهكسوس ممفيس. والآن، ولأول مرة منذ ان توحد التاجان، عادت مصر للمرة الثانية إلى الانقسام السياسي: مملكة شمالية ومملكة جنوبية، ولكن في هذه الفترة المعترضة الثانية، كانت المملكة الشمالية دخيلة غريبة الأصل، بينما كانت المملكتان في الفترة المعترضة الأولى ـ المملكة الهيركلوبية والمملكة الطيبية اصليتين. وقد تمثل الهكسوس المدنية الأسمى التي كانت موجودة عند رعاياهم من المصريين، لكن هذا لم يستأصل حقد المصريين عليهم. وقد أعيدت الوحدة السياسية الى مصر، في القرن السادس عشر ق.م. كما كان قد تم مثل ذلك في القرن الحادي والعشرين ق.م. وذلك بأن احتلت المملكة الجنوبية، وعاصمتها طيبة، المملكة الشمالية.

طُرد الهكسوس من مصر نحو سنة ١٥٦٧ ق.م. وقد كان المحرر الطيبي هو أحمس (اموسيس) (حكم من نحو ١٥٧٥ـ ١٥٥٠ ق.م) والأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس، حكمت من نحو ١٥٧٥ـ ١٣٠٨ ق.م. والفترة الزمنية الكاملة للمملكة الحديثة، من بدء الأسرة الثامنة عشرة إلى سقوط الأسرة العشرين، كانت خمسة قرون على وجه التقريب (١٥٧٥ـ ١٠٨٧ ق.م). وقد كانت هذه الفترة نصف الفترة الزمنية للمملكة القديمة، لكنها كانت ضعف الفترة الزمنية للمملكة المتوسطة تقريباً. وفضلا عن ذلك فقد كانت المملكة الحديثة إمبراطورية عالمية. لقد أشرنا من قبل إلى أن سيزوستريس الثالث، من ملوك المملكة المتوسطة، كان قد وسع حدود أملاكه في الجنوب بحيث وصلت الى سمنه، فوق الشلال الثاني على النيل، واتخذ في كرمه فوق الشلال الثالث، مركزا تجاريا. وبعد تأسيس المملكة الحديثة نقل تحوتمس (طتميس) الأول (حكم من نحو ١٥٢٨ـ ١٥١٠ ق.م) وهو الخليفة الثاني لأحمس، حدوده الجنوبية الى نبتا تحت الشلال الرابع. فأصبح الآن وادي النيل بأكمله، من الشلال الأول الى الشلال الرابع، ملحقاً بالمدنية الفرعونية. ويدعي تحوتمس الأول، في نقش يعود الى السنة الأولى من حكمه، أن ملكه امتد في الجهة الشمالية الشرقية الى الفرات.

كان سكان وادي النيل فوق الشلال الأول برابرة، وقد كانت علاقتهم الثقافية، تحت السيطرة المصرية في اتجاه واحد. فقد تقبل الكاشيون المدنية المصرية دون أن يكون لهم يد في تقديم مقابل حضاري ذي قيمة. والحكم المصري، في المناطق المسماة الآن النوبة والجزء الشمالي من السودان النيلي، كان، على المستوى السياسي، قويا باستمرار إلى أن انتهى امر المملكة الحديثة سنة ١٠٨٧ ق.م. وعلى العكس من ذلك فإن مدى السلطة السياسية المصرية ودرجتها في فلسطين وسورية كانت، في الفترة ذاتها، متأرجحتين؛ لكن التأثير الحضاري في ما بين المصريين ورعاياهم الآسيويين كان متبادلا، وكانت نتيجته تراكمية. وقد تلقى المصريون من التأثير الحضاري من الآسيويين أكثر مما نفحوهم به.

لسنا ندري فيما إذا شملت مملكة الهكسوس التي قامت في الدلتا البلاد الآسيوية التي كانوا قد جاؤوا منها. لكن من الواضح أن المصريين، بعدما قضوا على حكم الهكسوس، وقادوا حملاتهم إلى فلسطين وسورية، وجدوا المنطقة قد تقسمتها إمارات صغيرة متعددة. وقد أقام المصريون حاميات في نقاط استراتيجية، وعينوا مقيمين مصريين. وقد كان ضبط هؤلاء لحكومات الدول التابعة يتوقف على مدى النشاط الذي تبديه الحكومة الإمبراطورية في طيبة لهؤلاء المقيمين، هذا إذا اهتمت بذلك. إلا أنه يبدو أن الحكومة الإمبراطورية لم تكن تفرض حكما مباشرا على أي جزء من أملاكها الآسيوية، على نحو ما فعلته بالنسبة لأملاكها في وادي النيل فوق الشلال الأول. ولعل الأثر الحضاري الآسيوي على الحياة المصرية في عصر المملكة الحديثة جاء بعضه نتيجة الجهد الذي بذله المهاجرون من الولايات الآسيوية الى مصر نفسها. وقد كان بعض هؤلاء المهاجرين اسرى حرب، وجاء آخرون عن طيبة خاطر في سبيل البحث في مجالات اقتصادية مربحة. والمهاجرون من كلا النوعين، حملوا معهم عباداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد وجد المصريون هذه الأشياء جذابة. والكره للأجانب الذي كان الرد المصري على الفتح العسكري الآسيوي لمصر، لم يثره الانسياح الآسيوي السلمي الى مصر.

فُرضت السيطرة السياسية المصرية لأول مرة في أيام تحوتمس الأول. ويبدو أنها كانت معطلة في أيام الملكة حتشبسوت (١٤٩٠- ١٤٦٩ ق.م .) اذ ان شريكها في الحكم، تحوتمس الثالث، حيل بينه وبين تسلمه السلطة في حياتها. وهذا الملك هو نفسه الذي قاد، بعد وفاتها مباشرة، سلسلة من اثنتي عشرة حملة متتالية، بين السنة الثانية

والعشرين والسنة الثالثة والثلاثين من حكمه (أي من ١٤٦٩- ١٤٥٨ ق.م .) وقد وصل، في آخر هذه الحملات، الى الفرات. ووجد هناك نصبا كان قد أقامه تحوتمس الأول، وأقام لنفسه نصبا آخر قرب الأول، واجتاز الفرات مقاتلا، وأجبر مملكة ميتاني في الجزيرة على الاعتراف بسيادته. وقد بلغت السيادة المصرية في فلسطين وسورية غايتها في الفترة الممتدة من هذه السنة، ١٤٥٨، حتى تسلم اخناتون العرش. وتُسف الحكم المصري في تلك المنطقة أيام حكم أخناتون (نحو ١٣٦٧- ١٣٥٠ ق.م .) ولم يعد إلى ما كان عليه قبل قط.

وكان اخناتون ثوريا. ولم تكن ثورته الأولى في تاريخ مصر. فقد كانت هناك ثورة مزدوجة في الفترة المعترضة التي جاءت بين انحلال المملكة القديمة وقيام المملكة المتوسطة. ففي أيام الأسرة السادسة نجح المشرفون على الأقضية في أن يصبحوا امراء وراثيين مستقلين محليين بدل أن يظلوا الموظفين الذين يعينهم الفرعون، ولم يعودوا الى وضعهم السابق بحيث يكونون خاضعين لحكومة مركزية منتظمة إلاّ تدريجياً وذلك في أيام الأسرة الثانية عشرة. وقد كان ثمة فترة من الفراغ السياسي، الذي عقب القضاء على الأسرة السادسة مباشرة، وهي فترة استمرت إحدى وعشرين سنة (نحو ٢١٨١- ٢١٦٠) قامت خلالها ثورة اجتماعية عنيفة. وكانت هاتان الثورتان المصريتان السابقتان مختلفتين نوعا. ففي الحالة الأولى نجحت المؤسسة في أن تزيح نير الفرعون، وفي الحالة الثانية ثارت الجماهير ضد المؤسسة نفسها. ولكن ثورتي الفترة المعترضة الأولى كانتا مشتركتين في أمر واحد. فقد كانتا ثورتين من الأسفل إلى الأعلى، وإن كانتا على مستويين مختلفين وعلى درجتين متفاوتتين. أما ثورة أخناتون فقد جاءت من فوق.

كان صدام أخناتون الكبير مع الجناح الكهنوتي من المؤسسة. فقد تخاصم أخناتون، كما فعل سلفه الأسبق خوفو من الاسرة الرابعة، مع الكهنة حول قضية لاهوتية، ولكن الكهنة كانوا يومها قد أصبحوا أقوى نفوذا. فقد كان خصوم خوفو من رجال الكهنوت هم كهنة هيليوبوليس، مدينة رع المقدسة. ومنذ أن صارت طيبة العاصمة السياسية لمصر الموحدة من جديد، أصبح رع، رئيس المجمع الديني المصري، مطابقا تماماً لآمون، وهذا كان إلها محليا في طيبة في وقت مبكر يعود على الأقل إلى حكم أمنمس الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة. وكان تحوتمس الثالث قد نظم كهنة آلهة مصر المحلية جمعاء في مؤسسة مصرية تحت رئاسة الكاهن الأعلى لآمون - رع.

كان أخناتون يضع سلطة الفرعون المطلقة الرسمية عمليا على محك التحدي لأكبر سلطة في العالم المصري عدا سلطة الفرعون نفسه. ولعل أخناتون كان باستطاعته ان يتغلب على الكهنة لو أنه حصل على تأييد الشعب، ولعله كان يمكنه ان ينجح في هذا لو أنه تحدى الكاهن الأعلى لآمون ـ رع نيابة عن الإله اوزيريس؛ ذلك بأن اوزيريس هو واهب الخلود، والخلود كان أسمى غايات المصريين. وعلى كل فان أخناتون لم يكن يناضل في سبيل الخلود، بل في سبيل الوحدانية؛ ومثل الوحدانية لم تجعل الحرارة تشع في قلوب الشعب، اضافة الى أنها اعتبرت خطرا يهدد المصالح الثابتة للكهنة. وكان إله أخناتون الأوحد، وهو درع الشمس (آتون)، مجرد إله رجل واحد؛ ومع ان الرجل الوحيد هذا كان فرعونا، فلم تكن حتى قوة الفرعون من الدرجة بحيث تتغلب على مؤسسة كهنوتية كانت تخدم مجمعا دينيا قدسته التقاليد.

فلم يكن من المستغرب أن يفشل أخناتون في أن يستبدل آمون ـ رع وبقية المجمع التقليدي بآتون، إلا أنه من الجدير بالاهتمام أن ثورة أخناتون، على كل حال، تركت أثرا دائماً. فقد أعيد الى آمون ـ رع اعتباره، إلاّ أنه تبدل مظهره بحيث أصبح يشبه الإله الأوحد الذي حاول أخناتون ابدال آمون ـ رع به، ولكن دون جدوى. وقد نظم أخناتون ترنيمة لآتون باعتباره واهب الحياة لكل المخلوقات في الكون؛ والتراتيم التي نظمت لآمون ـ رع في الفترة التي عقبت ذلك تمثل لنا الإله القديم في هيئة الإله الجديد الذي لم يتم محوه.

ونقل أخناتون العاصمة الى مدينة جديدة، وكان قد سبقه الى ذلك كثيرون. فقد رحل فراعنة المملكة القديمة من نخن ـ نخب نزولا من النهر أولا الى نيخبس ثم إلى ممفيس. ومؤسس الأسرة الثانية عشرة رحل من طيبة إلى إز ـ تاوي، وهي مدينة جديدة لا تبعد كثيرا عن ممفيس صعودا مع النهر. ولما وحّد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة الطيبي مصر ثانية، عادت طيبة الى مكانتها كعاصمة. ورحل أخناتون الى اخناتون (تل العمارنة الحالية) التي كان قد بناها في نقطة متوسطة تقريبا بين طيبة وممفيس. وهجرت هذه المدينة الجديدة بعد وفاة أخناتون، وعادت العاصمة إلى طيبة. ولم تكن طيبة قريبة إلى الحدّ الجنوبي للعالم المصري بحيث يشكل ذلك إزعاجاً للحكم، إذ أن الامبراطورية كانت قد امتدت حدودها إلى نباتا في أعالي النيل. ومع ذلك فلم تنعم طيبة طويلاً بهذا المجد الذي استعادته، وهو كونها العاصمة الوحيدة للمملكة الحديثة. فقد نقلت العاصمة

الحربيّة الى الشمال، وقد كانت أبعد شمالا بكثير من موقع اخناتون، وذلك لمقابلة الضغط من المناطق الشمالية الشرقية الذي بدت آثاره حتى في ايام اخناتون. وقد حكم الجندي الفخور حور محب (الحاكم الفعلي من نحو ١٣٤٩- ١٣١٩ ق.م .) الإمبراطورية من ممفيس. وقبل أن تلفظ المملكة الحديثة أنفاسها انتقلت العاصمة الحربية إلى مكان أبعد في اتجاه شمالي شرقي هو تنيس في الزاوية الشمالية الشرقية من الدلتا، في الموقع الذي كانت تقوم فيه عاصمة الهكسوس أفاريس او على مقربة منه.

كان أخناتون ثائرا في مجاليّ الأدب والفن المتطور كما كان كذلك في مجالي الدين والسياسة، وترك طابعه في هذين المجالين ايضا. فقد أخذ نفسه باستعمال لغة زمنه الحية في الأدب وعدل عن الكتابة القديمة، واستمر هذا التجديد بعده عصورا حتى أصبحت هذه اللغة الحية بالذات، اي لغة القرن الرابع عشر ق.م.، بدورها لغة ميتة. وفي مجال الفن كان يدعم الطبيعة والصدق في تمثيل الحياة بما في ذلك تماثيله الشخصية التي هي عادية المظهر.

لعل أخناتون اقتبس تذوق الطبيعة من المنويين. توجد على جدران القبور المصرية التي تعود إلى المملكة الحديثة صور تمثل منويين يحملون ما يبدو كأنه مصنوعات ميكانية لا منوية، وهذا دليل على أن صلات تجارية وحضارية كانت قائمة بين مصر والعالم الإيجي في ذلك الوقت. كان اخناتون تدفعه عبقريته الى العمل، وفضلا عن ذلك فقد استوحى زمانه ومكانه. فالإمبراطورية التي ورث عرشها كانت مسكونيّة - ولم يكن هذا بالطبع بالمدلول الجغرافي للكلمة أي أنها كانت تغمرالأويكومين بأكمله، بل بالمدلول الحضاري إذ كانت تدخل في تركيبها نماذج طيبة من مختلف الحضارات البشرية. فقد كانت هذه أول امبراطورية مسكونية بهذا المعنى. وليس من قبيل المصادفة ان يكون أحد ملوكها أول موحد حفظ لنا التاريخ خبره؛ ذلك بأن توحيد أخناتون كان فكرة المسكونية، التي عبر عنها بالرمز الديني. فلم يتصور آتون إلها محليا، بل رب الكون كله، وقد دلل على أن آتون حاضر في كل مكان بأن بنى له الهياكل في سورية وفي النوبة كما شادها في مصر.

ولم يكن للامبراطورية المصرية المسكونية نظير في المشرق خلال القرنين الأولين من وجودها. فقد كانت بلاد بابل الواقعة تحت حكم الكاشيين البرابرة، عاجزة سياسيا. وعلى كل فلم تكن من الناحية الحضارية في ميعة شبابها. وقد كان هذا العصر هو

العصر الذي دونت فيه الموضوعات الملحمية، التي ورثت عن السومريين في القوالب الكلاسيكية باللغة الأكدية: مثل غلغامش في بحثه عن شجرة الحياة؛ هبوط عشتار (أنانا) إلى العالم السفلي، قهر الإله الشاب مردوخ للفوضى، وترؤسه لمجمع الآلهة السومرية ـ الأكدية جزاء له على إعادة النظم إلى الكون. وقد تداول الناس هذه القصائد الأكدية حيثما نطق باللغة الأكدية، وقد كانت يومها قد أصبحت لغة العلاقات الدولية في المشرق، بما في ذلك الإمبراطورية المصرية. وقد كان من الإدارات التي لا غنى عنها للحكومة المصرية في هذا الوقت مكتب للمحفوظات حيث كان الكتاب يكتبون اللغة الاكدية بالخط السومري على ألواح الآجر. اذ بهذه الوسيلة كانت الحكومة المصرية تتراسل مع الدول التابعة لها في سورية ولبنان وفلسطين. فقد كانت سيطرة مصر العسكرية السياسية تقابلها السيطرة الحضارية للغة الأكدية.

ولم يتح لمصر أن تسلم من التحدي على المستويين السياسي والعسكري. لقد ظل الحثيون هادئين منذ غزا مرشيليش الأول بابل في سنة ١٥٩٥ ق.م. ولكنهم عادوا الى شنّ الحروب بقيادة شيبلوليوما (حكم نحو ١٣٧٥- ١٣٣٥ ق.م .) وكان ذلك في أيام أخناتون. وقد أخضع شيبلوليوما كيزووادنا، جارة خطيّ في الجهة الجنوبية من آسية الصغرى، وسحق ميتاني ونجح في أن يحمل دول سورية الشمالية التي كانت تابعة لمصر على نقل ولائها إليه، وذلك اما بالتودد إليها أو بإرغامها على ذلك. ونجح خليفة شيبلوليوما الثاني مرشيليش الثالث (نحو ١٣٣٤- ١٣٠٦ ق.م .)، في احتلال ارزاوا في غرب آسية الصغرى وضمها إلى دولته، وهي التي كانت إلى ذلك الوقت مساوية لخطي. وقد تمّ ذلك قبل نهاية القرن الرابع عشر ق.م.، وفي بداية القرن الثالث عشر ق.م. وكانت خطي قد أصبحت دولة على مستوى مصر، ومن ثم فقد اقتتل رمسيس الثاني (حكم ١٢٩٠- ١٢٢٤ ق.م .) وحفيد شيبلوليوما، موا تاليش (حكم نحو ١٣١٦- ١٢٨٢ ق.م .) في سبيل السيطرة على بلاد الشام. ولم يكن انتصار الحثيين حاسما في معركة قادش التي جرت نحو ١٢٨٦/ ٥ ق.م.، فرأت الدولتان المتقاتلتان عندها أنه لم يعد في وسعهما ان تستمرا في الحرب في ما بينهما. وذلك بسبب أنهما كانتا معرضتين لأعداء مشتركين، كانت قوتهم تتزايد باستمرار. ومن ثم فقد اتفقتا على عقد صلح لمصلحة الفريقين، سنة ١٢٧٠ ق.م. اقتسما بموجبه بلاد الشام في ما بينهما. إلا أن تنبهما إلى واقع الحال جاء متأخرا. ففي الشرق كانت أشور مصدر الخطر، وفي

الغرب كان المعتدون هم الميكانيون وجموع أخرى من شعوب البحر القلقة السريعة التنقل.

كان الأشوريون، في القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م. تجارا نشيطين في المدى البعيد، وذلك قبل ان يطغى عليهم طوفان الانسياح الشعبي الميتاني. وفي ايام أشور أبالت (حكم ١٣٦٥ - ١٣٣٠؟ او ١٣٥٦ - ١٣٢٠؟ ق.م .) عاد الأشوريون إلى الظهور في دور خطر جديد كمحاربين معتدين. وقد قاد أدد - نيراري الأول (حكم ١٣٠٧ - ١٢٧٥) وشلمنصر الأول (حكم ١٢٧٤ - ١٢٤٥) جيوشهما غربا الى كركميش عبر الجزيرة. وقد احتل توكلتي - نيترا (حكم ١٢٤٤ - ١٢٠٨ أو ١٢٣٤ - ١١٩٧ او ١٢٣٠ - ١١٩٨ ق.م .) بلاد بابل احتلالا موقتا. على أنه قبل أن يتاح للأشوريين ان يجتازوا الذراع اليمنى لنهر الفرات ردهم على أعقابهم انسياح شعوب جديدة، إلى موقف دفاعي. وهذا الانسياح كان قد بدأ قبل نهاية القرن الثالث عشر ق.م.

فالمدنية المينوية، في حوض البحر الإيجي، لم تنهض من كبوتها التي دمرت فيها القصور الكريتية نحو ١٧٥٠ - ١٧٠٠ ق.م. فحسب، بل بلغت القمة خلال ربع الألف التالي - في الفترتين المسميتين المينوية المتوسطة الثالثة والمينوية المتأخرة الأولى. ولا شك ان الهجوم البربري، الذي لف البر اليوناني نحو سنة ١٩٠٠ ق.م، والذي يعود إليه إدخال اللغة اليونانية هناك، أخّر ولادة مدنية إقليمية هناك. أما كريت، التي سلمت من هذا الهجوم، فقد سبقت البر الأصلي بعيدا في غضون القرون الثلاثة التالية، بحيث ان البر الأصلي تلقى، وبشكل فجائي، فنون المدنية المينوية في وقت متأخر من القرن السابع عشر او وقت مبكر من القرن السادس عشر ق.م.

وقد بدا وكأن البر الأصلي، بسبب تلقيه القوي والبعيد المدى لهذه المدنية، كان على وشك ان يستوعبه العالم المينوي ثقافيا، على نحو ما استوعبت سومر أكد في الألف الثالث ق.م. وعلى كل فقد أكد البر الأصلي اليوناني على وجود شخصية حضارية ذاتية متميزة على نحو ما فعلت آسية الصغرى لما تلقحت بالتأثير الحضاري السومري الأكدي. وقد تطورت المدنية الميكانية القارية - سميت بهذا الإسم لأن ميكاني كانت ألمع بقعة فيها - جنبا إلى جنب مع المدنية المينوية في الفترة المينوية المتأخرة الأولى، وفي نحو ١٤٨٠ - ١٤٥٠ ق.م. قضت عليها.

كانت المدنية المينوية قد نجت من كارثة طبيعية عظيمة، وهي الانفجار الكبير الذي حدث في الجزيرة البركانية تيرا (سنتوريني) نحو ١٥٠٠ ق.م. وقبل الانفجار كانت تيرا نفسها قد خرّبها زلزال. وقد وصل ثُر الانفجار (لا الزلزال الذي سبق) إلى سواحل كريت الشمالية أو الشرقية. لكن لنكبة التي حلت بكريت في ما بعد، نحو ١٤٨٠- ١٤٥٠ ق.م. كانت أشد فتكا؛ وتشير الدلائل الأثرية إلى أن هذه النكبة الثانية كانت من صنع البشر. وقد سلم كونسس، وهو القصر الرئيس في كريت في هذه المرة، بينما دمرت كل القصور الموجودة في الجزيرة. وترتب على ذلك أن ظهرت في كنوسس، حالا بعد ذلك، حضارة محلية هي المعروفة باسم المينوية المتأخرة الثانية، التي لم تسهم فيها بقية جزيرة كريت. وقد كانت هذه الحضارة الكنوسسية المحلية عسكرية النزعة، وحكما مبني على ما عثر عليه من الأسلحة؛ وقد كان فخارها ميكانيا في أسلوبه. ويبدو من الدليل الأثري أن جماعة من المهاجمين من ميكاني احتلوا كنوسس، نحو ١٤٨٠- ١٤٥٠ ق.م. واتخذوها قاعدة لعمليات عسكرية لمهاجمة مراكز المدنية الأخرى وتدميرها.

كانت هذه النكبة الأولى في سلسلة من النكبات البشرية الصنع التي حلت بسكان حوض البحر الإيجي في غضون القرون الثلاثة التالية. فقد دمر قصر كنوسس بعيد ١٤٠٠ ق.م ـ ولعل هذا تم على أيدي موجة ثانية من المهاجمين القاربين من ميكاني. ودمر القصر الميكاني في طيبة حوالي الوقت ذاته أو لعله بعد ذلك ـ نتيجة لقتال داخلي، هذا فيما إذا كان هناك ذرة من الحقيقة في الأسطورة التي عاشت حتى العصر الهليني للتاريخ اليوناني. وعلى رغم هذه النكبات كلها، فإن المدنية الميكانية ازدهرت في القرن الرابع عشر ق.م. ولعله بسبب احتلال كنوسس نحو ١٤٨٠- ١٤٥٠ ق.م. كان أن اخترعت كتابة مقطعية صوتية ـ التي تعرف باسم الخط ـ ب B، تقليدا للكتابة المعروفة باسم الخط ـ أ A. وكانت الأولى تستعمل لتدوين صيغة اللغة اليونانية الممثلة للعصر الميكاني، بينما كانت الثانية قد اخترعها المينويون قبلا لتدوين لغتهم، وهي اللغة التي لم تحل رموزها بعد. وقد بلغ الصناع الميكانيون المستوى الذي كان عند معلميهم المينويين. والميكانيون الذين بنوا القبور الشبيهة بقفير النحل نافسوا نظراءهم من المصريين في للهاجرة والدقة في فن البناء. وقد كانت للميكانيين تجارة واسعة في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. مع الشرق، بحيث وصلت تجارتهم إلى أوغاريت (رأس شمرا)

الواقعة في أقصى طرف الى الساحل السوري الشمالي، ووصلت الى مصر جنوبا، وغربا بلغت صقلية. وقد كان هؤلاء الميكانيون على استعداد للاتجار والغزو، والاختيار كان متوقفا على أي النشاطين كان أوفر ربحا.

اشتدت النزعة العسكرية في ميكاني ضراوة في القرن الثالث عشر ق.م. فالقصور الميكانية في الجهة الشرقية من بلاد اليونان في ميكاني نفسها، وفي تيرنس بمنطقة أرغوليد، والأكروبوليس في أثينا، على سبيل المثال - زيدت تحصيناتها قوة، وبذل جهد كبير لضمانة الماء اللازم للمدافعين فيما إذا حوصرت القلعة. وقد أصاب الشاطىء الشرقي للبحر الإيجي ايضا، في القرن نفسه، نكبات بشرية متعددة: فقد دمر المهاجمون مدينة طروادة السابعة نحو سنة ١٢٦٠ ق.م. كما كانت الإمبراطورية الحثية، الواقعة الى الجنوب من ذلك، تعاني الاضطراب المتزايد. فقد كان أيسر على الحثيين ان يقضوا على منافستهم إمبراطورية ارزاوا من أن يسيطروا على البلاد سيطرة فعالة. وقد تحدّى الثوار المحليون والمتدخلون الميكانيون الحكم الحثي في غرب آسية الصغرى. وقد كانت الإمبراطورية الحثية والإمارات الميكانية في بلاد اليونان القارية وفي كريت مزودة بالآلة الإدارية الدقيقة والكتابة. لكننا نخمن، بناء على ما حدث في ما بعد، ان الطبقة المتعلمة، في آسية الصغرى وفي بلاد اليونان كانت أقلية ضئيلة، وأن البيروقراطية كانت عبئا ثقيلا لم تتحمله الأسس الاقتصادية للدولة دون أن يمسها من ذلك جهدٌ كبير.

ومعنى هذا ان المنطقة الواقعة إلى الغرب من مصر ومن العالم السومري الأكدي كانت، في القرن الثالث عشر ق.م.، تتمخض عن اضطراب. والوضع المعاصر في الهند كان يلفه الغموض. فليس لدينا أي دليل أثري يمكنن من تعيين الزمن الذي قضى فيه المهاجمون المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية على المدنية السندية. فاذا كان هؤلاء قد تدفقوا من السهوب الأوراسية في القرن الثامن عشر ق.م.، فلعلّهم وصلوا إلى الهند بالسرعة نفسها التي وصلوا بها الى بلاد بابل والجزيرة؛ إلا أنه من الممكن أنهم احتاجوا الى بضعة قرون إضافية حتى اكتشفوا طريقهم من حوض اوكسس - جاكسارتس (ام داريا - وسرداريا، بلاد ما وراء النهر) الى حوض السند عبر جبال هندوكوش.

وظهرت مدنية إقليمية في الصين - سميت شانغ (اوين) باسم الأسرة المؤسسة - وذلك نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. واقتبست بعض عناصرها من المرحلة السابقة (اي مرحلة الفخار الأسود اللونغ - شاني) وهي حضارة العصر الحجري الحديث الاقليمية؛ ولم يرافق ظهور

المدنية في الصين تبديل في الموقع، على نحو ما حدث في الهلال الخصيب في جنوب غرب آسية أو في مصر. ففي الصين، كما كانت الحال في المشرق، كانت حضارة العصر الحجري الحديث الإقليمية تعتمد على الامطار لري المزروعات. إذا أنها كانت قائمة في منطقة مرتفعة نسبياً ومكونة من تربة رسوبية تسفيها الرياح، وهي التربة التي كانت قد ترسبت في كانسو وفي حوض واي، رافد النهر الأصفر وفي مكان أبعد شرقا في مجال لتقسيم المياه بين النهر الاصفر، من جهة، ونهري هان وهواي من جهة ثانية. وهذا هو المكان نفسه الذي قامت فيه مدنية شانغ التي خلفت حضارة العصر الحجري الحديث اللونغ شانية. وبناة هذه المدنية لم يشقوا التربة الغرينية المترسبة في قيعان الأودية للزراعة والاستقرار. ولم يصبح ضبط الماء على المستوى السومري والمصري ظاهرة بارزة في الاقتصاد الصيني إلا بعد مرور نحو ألف سنة على ظهور أقدم مدنية في الصين.

فمن هذه الناحية كانت الفجوة بين هذه المدنية وبين سابقتها اي حضارة العصر الحجري الحديث في حوض النهر الأصفر أقل مما كان بين المدنية السومرية وسابقتيها اي حضارتي العصر الحجري الحديث في ما بين النهرين وايران. إلا أنه كان هناك انطلاق جديد ينطبق على المكانين وتصح المقارنة فيه. ذلك بأن الانتقال من حضارة العصر الحجري إلى المدنية في الصين، لازمه كما حدث في سومر قبلا، تباين واضح في الثروة والامتيازات بين الحكام والمحكومين. فالمقابر الملكية في انيانغ، وهي آخر مدينة اتخذت عاصمة لأسرة شانغ، تشبه قبور الأسرة الأولى في أور، مع أن هذه أقدم من تلك بما يزيد عن الألف من السنين. فقبور شانغ، هي الأخرى، فخمة، ومحتويات القبر، التي تضم بينها ضحايا بشرية، فيها طابع السخاء. ففي سومر يسر ازدياد الثروة الجماعية، الناشىء عن شق الغرين للزراعة، لاقلية مسيطرة ان تعيش - وان تموت - برفاهية. أما في الصين فقد فرض هذا التبدل المثير للأحقاد على الجماعة دون ان يصاحبه أي زيادة في جماع الموارد الاقتصادية للجماعة.

وقد ظهرت في الصين عند فجر المدنية، تجديدات تذكرنا بتلك التي رافقت ظهور المدنية المفاجىء، على ما يبدو، في كل من حوض السند وفي مصر، على أن المدنية هنا أيضاً قد تمت ولادتها بحافز من الخارج، على عكس التطور الذاتي الظاهر في المدنية السومرية.

وأحد هذه التجديدات المفاجئة كان استعمال المركبات التي تجرها الخيول، ولا بد أن

هذا قد وصل إلى الصين في عصر شانغ من السهوب الأوراسية في القرن الثامن عشر ق.م. أو بعد ذلك. والتجديد الثاني هو استعمال الكتابة. واختراع كتابة عصر شانغ في الصين، والتي اشتقت منها بالتأكيد الحروف الصينية الكلاسيكية، لا بد أنه كان نتيجة ايحاء بتأثير من النموذج السومري، على نحو ما حدث من اختراع الكتابة الهيروغليفية المصرية. وقد يكون التأثير هذا بعيدا وغير مباشر. والحروف الصينية، مثل الهيروغليفيات المصرية، لها اسلوب مميز خاص بها، لكن تركيب الكتابة بالذات هو سومري. وهذا التركيب ـ وهو استعمال غير منطقي، كما أنه تنقصه الرشاقة لصور فكرية فونيمات مصفوفة واحدتها إلى جانب الأخرى ـ أغرب من أن يعقل انه اختراع تمّ مستقلا في ثلاث مناسبات. وثالث هذه التجديدات المفاجئة الذي نجده في الصين عند فجر المدنية هو استعمال البرونز لصنع الأدوات والأسلحة والأوعية المستعملة في طقوس التضحية؛ وهذا الفن لا بد أنه وصل الى الصين من الغرب أيضاً. والبرونزيات الشانغية، مثل الكتابة الشانغية، لها أسلوب خاص بها كان قد أصبح صينيا متميزا؛ فالأوعية البرونزية دقيقة الصنع، والتقنية التي تبرزها هي على درجة عالية من المهارة. ومن الممكن أن هذه الأوعية كان لها طرز بدائية من الخشب صنعت في العصر الحجري الحديث وقد ضاعت آثارها بالمرة. لكن هذه الفرضية (وهي ليست أكثر من ذلك) قد تفسر ما يبدو أنه ظهور مفاجيء للإسلوب الفني وحده، إلا أن الاكتساب المفاجيء للتقنية التعدينية يظل بحاجة الى تفسير.

يوجد في البرونز الشانغي محتوى عال من القصدير ـ سبعة عشر بالمئة ـ وأقرب مصادر النحاس إلى حوض النهر الأصفر هي الملايو واليونان؛ لكن تقنية مزج النحاس بالقصدير وصبّ المنتوج المركب لا يمكن أن تكون قد وصلت الى حوض النهر الأصفر من الجنوب. فإن أقدم صناعة للبرونز في جنوب شرق آسية ـ وهي المسماة دونغ سون، باسم مكان في شمال فيتنام ـ لا تعدو النصف الثاني من الألف الأول ق.م. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون المعدنان قد استوردا من الجنوب إلى حوض النهر الأصفر، حتى ولو أن تقنية العمل فيهما قد جاءت من مكان آخر. وقد تكون منطقة آسية المدارية مصدر المعدنين بالنسبة إلى الصين الشانغية، لأن المدنية الشانغية فيها عنصر أساسي من أصل مداري، اضافة الى العناصر التي ورثتها مما سبقها من حضارة العصر الحجري الحديث في شمال الصين، واضافة كذلك الى العناصر الأخرى التي كانت قد وصلت

شمال الصين من الغرب عبر السهوب الأوراسية. فقد كان صينيو العصر الشانغي يزرعون الأرز كما كانوا يزرعون القمح والذرة؛ وكان عندهم الجاموس المائي كما كان عندهم الأبقار العادية؛ وواحد من نوعي الخنزير المعروفين عندهم كان من أصل جنوبي.

ولا بد أن الجاموس المائي ونبتة الأرز قد تم تدجينهما أصلا في منطقة مستنقعية مدارية. والجماعة التي دجنتها كانت ولا ريب على مستوى حضاري مساو لمستوى أهل العصر الحجري الحديث، وهم اولئك الذين سبق وجودهم المدنية الشانغية في شمال الصين. إلا أنه يبدو أنه ليس ثمة من دليل على وجود حضارة من مستوى حضارة العصر الحجري الحديث السابق للعصر الشانغي في أي مكان في المنطقة المدارية في آسية الى الجنوب من حوض النهر الأصفر. والمدنية الاقليمية التي كانت، على بعدها، الأقرب الى حوض النهر الأصفر جغرافيا هي المدنية السندية. ولكن حوض السند وحوض النهر الأصفر تفصل بينهما لا مجرد المسافة نحسب بل هناك ايضا سلسلة حواجز جبلية. يضاف الى ذلك أنه ليس ثمة من دليل على أن المدنية الهندية امتدت شرقاً وجنوباً إلى الأجزاء الهندية التي نجد اليوم فيها أن الأرز هو المنتوج الزراعي الأساسي لا القمح.

وهكذا فإن مصدر العناصر المدارية في المدنية الشانغية لا يزال لغزا. تقول الرواية الصينية إن المنطقة الواقعة الى الجنوب من حوض النهر الأصفر والتي اصبحت جزءاً من الصين، وبالأولى ما اصبح الآن فيتنام، انما وصلتها المدنية لما تصينت (اي اصبحت صينية). وقد تم جزء من هذا عن طريق تمثل شعبها الأصلي، والجزء الآخر جاء عن طريق انسياح المستوطنين الصينيين من الشمال إلى المنطقة. ولا يمكن صرف النظر عن هذه الرواية لمجرد اعتبار أنها تعكس تحاملا حضاريا صينيا، ذلك أنها تلقى تأييدا في الوجود المستمر لمناطق صغيرة حتى القرن التاسع عشر م. يقطنها مواطنون متفردون بدائيون حضاريا في الأجزاء الجبلية الصعبة المرتقى في الجزء الجنوبي من حوض ينغتسي تانغ. كما أنه لا يزال هناك شعوب بدائية تعيش في محاذاة التخوم بين الحد الجنوبي للصين الحالية وجيران الصين في جنوب شرق آسية. ولا بد لنا بعد من العمل على الكشف عن المنطقة التي دجنت فيها نبتة الأرز والجاموس المائي أصلا.

في الوقت الذي كانت المدنية الشانغية تظهر في حوض النهر الأصفر في الصين، كانت أميركا الوسطى تبدأ المرحلة « التكوينية » في الحضارة. ونستطيع نحن ان نعادل هذا بالعصر الحجري الحديث في العالم القديم، اذا اعتبرنا ان اختراع الزراعة لا اختراع

تقنية صقل الأدوات الحجرية، هو الانجاز المميز للعصر الحجري الحديث. ففي نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. كانت شعوب اميركا الوسطى قد انتقلت من « العصر البائد »، وهو العصر الذي كانوا فيه يعتمدون على جمع الأغذية والصيد لتحصيل قوتهم، إلى عصر جديد يسمى « التكويني » الذي اعتمدوا فيه على الزراعة لتوفير حاجات المعيشة. ولا يكاد يساورنا شك في أن تدجين الذرة الصفراء قد تم على يد الإنسان العاقل الأميركي الذي كان يقطن البلاد قبل وصول كولمبس. والذرة الصفراء لم تكن معروفة في العالم القديم إلا لما استوردها من أميركا الأوروبيون الذين وصلوا العالم الجديد لما عبروا المحيط الأطلسي. ومع ذلك فإنه كان هناك تأخر زمني، بين تدجين نبتة منتجة للطعام وبين إقامة نظام اقتصادي بحيث تصبح فيه زراعة هذه النبتة الوسيلة الأساسية للغذاء، الأمر الذي لم يكن له نظير في تاريخ العالم القديم الاقتصادي. ففي العالم القديم جاء الانتقال من جمع الأغذية إلى الاعتماد على الزراعة كوسيلة أساسية للعيش، على ما يبدو، بعيد نجاح التدجين. وليس ثمة ما يدل على وجود تأخر زمني. وقد كان التأخر الزمني في اميركا الوسطى نحو ١٠٠٠ سنة، ومن الممكن انه وصل حتى ٢٥٠٠ سنة. وهذا الفرق في السير في هذه المرحلة، هو الذي يوضح لنا السبب في التأخر الاقتصادي والتكنولوجي في المدنيات الاميركية السابقة لكولمبس، والذي لا يزال بحاجة إلى تفسير.

١٤ـ انسياح الشعوب في العالم القديم نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م.

إنّ كل المدنيات الإقليمية في العالم القديم، من المينوية والميكانية في حوض البحر الإيجي، إلى الشانغية في وادي النهر الأصفر، تعرضت، في غضون القرون الثلاثة الممتدة من ١٢٥٠ الى ٩٥٠ ق.م.، الى هجوم عنيف قامت به شعوب همجية نسبيا؛ وقد أدّت هذه الاضطرابات الى تنقلات هامة في السكان. وحتى المهاجمون الذين كانوا قد ردوا على أعقابهم انتهى بهم المطاف الى الاستيلاء، عن طريق التسلل السلمي على الأرض التي فشلوا في الحصول عليها بقوة السلاح. وترتب على ذلك في النهاية تبدل واسع النطاق في خارطة المدنيات الإقليمية للعالم القديم. فقد أضعف هذا الأمر المدنيات الأقدم منها ودمرت بعض من المدنيات الأحدث، كما ظهرت بضع مدنيات جديدة في الصدوع الجغرافية التي تفتقت عنها الأنقاض. وقد كان لانسياح الشعوب هذا أثر ثوري أكبر من ذلك الذي حدث في القرن الثامن عشر ق.م.

ونحن نملك دليلا وثائقيا مصريا معاصرا للانسياح الذي تم بين ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. وهذا الدليل فريد من نوعه، وهو يلقي الضوء على مسيرة انسياح الشعوب ونتائجه في مناطق أخرى. والدليل الأثري من المنطقة الايجية ينسجم تماماً مع الدليل المصري الوثائقي؛ فهو معاصر له مثله في ذلك مثل الدليل المصري، ولكنه يختلف عن هذا الأخير في انه صامت. فالدليل المصري يضع بين أيدينا معلومات عن تواريخ تمت فيها هجرات الشعوب، وعن أسماء الشعوب المهاجرة، وهي أمور لا يمكن استخراجها من تسلسل الفخار الزمني، ومن آثار الخراب الذي أحدثه الإنسان في المنطقة الإيجية. والضوء الذي يلقيه الدليل المصري على انسياح الشعوب في المناطق الأبعد الى الشرق ينير لنا الطريق لكنه ليس واضحاً كلياً.

فنحو سنة ١٢٢٠ ق.م. هاجم الليبيون (ليبو) مصر من الغرب، وفي صحبتهم

المشوش وغيرهم من الشعوب البربرية، كما كانوا قد تقووا بخمسة « شعوب بحرية » واستطاعوا الوصول الى الزاوية الشمالية الغربية من الدلتا قبل ان يصدهم او يهزمهم الفرعون مرنفتاح (حكم نحو ١٢٢٤- ١٢١٤ ق.م .)، ولم تكن هذه غزوة، بل ولا حملة حربية؛ لقد كانت محاولة للهجرة، ذلك بأن القادمين حملوا معهم نساءهم وأولادهم وأنعامهم وأموالهم المنقولة. وقد كان أحد الشعوب [البحرية] الخمسة المقهورة هو شعب لوكا الذين من المؤكد انه جاء من جنوب غرب آسية الصغرى؛ وكان الإخائيون شعبا آخر من هذه الشعوب، الذي لعله جاء من بلاد اليونان القارية او من كريت حيث كانت جماعة واحدة على الأقل من المهاجمين الاخائيين قد استوطنت هناك. والشعوب الثلاثة الأخرى المقهورة من شعوب البحر، كانت الشكلش والشردن والتورشا. وهذه الشعوب الثلاثة ظهرت، بعد نحو خمسمئة سنة، من جديد بأسماء الصقلي والسرديني والترزينوي (الأترسكيين)، فيما يظهر المشوش من جديد باسم الماكسي (أو الماخسي) في ما يسمى اليوم البلاد التونسية. لكن هذه المواقع الغربية لهذه الشعوب كما تبدو في الألف الأخير ق.م. قد لا تكون هي المواطن ذاتها التي هاجروا منها في سنة ١٢٢٠ ق.م. فهذه المواقع التي انتهوا إليها قد تكون الملاجيء التي اتخذها هؤلاء المهاجرون بعد ما فشلوا في الاستيطان في مصر.

وقد نقش مرنفتاح، في وقت لاحق، أخبار إنجازاته العسكرية، ولكنه لم يكتف بذكر انتصاره الساحق على الليبيين، بل ذكر أن « خطّي » كانت تتمتع بالسلم وأن أرض كنعان قد تعرضت للنهب واحتلت بعض أجزائها وأن إسرائيل قد دمرت. ويستفاد من ذكر هذه الأمور ان الإمبراطورية الحثية لم يكن قد قضي عليها بعد في أيام مرنفتاح، كما أنها لم تحاول ان تتخطى الحدود بين منطقة نفوذها ومنطقة النفوذ المصري التي اتفق عليها في سنة ١٢٧٠ ق.م. وذكر إسرائيل يدل على ان الهجرة من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب كانت قد بدأت. وهذه الهجرة لم تحمل فقط قبائل إسرائيل ويهودا الى أرض كنعان، بل حملت أيضا جماعة من المتكلمين باللغات السامية وهم الكلدانيون، إلى الجزء الجنوبي الغربي من سومر، وجماعة أخرى مثلهم: وهم الآراميون شمالا إلى الطرف الشمالي من وادي الخلع الكبير، فيما هو اليوم تركية، وشرقا إلى حدود أشور الغربية وجنوبا في شرق إلى البلاد الواقعة بين ضفة دجلة الشرقية والمنحدر الغربي للهضبة الإيرانية.

وقد صد رعمسيس الثالث (حكم نحو ١١٩٨- ١١٧٦ ق.م .) هجمات أخرى على مصر من الغرب، وذلك نحو سنتي ١١٩٤ و ١١٨٨. ولكن البرابرة (الليبيين والماكسيين والقبائل الأخرى معهم) لم يتقووا بالشعوب البحرية في هاتين المناسبتين. ذلك بأن الشعوب البحرية، هاجمت مصر مستقلة هذه المرة وجاءتها من الجهة الشمالية الشرقية. وللمرة الثانية لم يكونوا يقصدون الغزو، بل الهجرة. وقد بدأوا تحركاتهم من نقطة في الأرخبيل الإيجيّ (الذي لعله لم يكن موطنهم الأصلي) وساروا، برا وبحرا في وقت واحد، عبر آسية الصغرى وبلاد الشام وسواحلهما، فقضوا على الامبراطورية الحثية، ولم يكتفوا بتخريب الجزء الأصلي منها أي خطّي بل إنهم خربوا ارزاوا في غرب آسية الصغرى، وكودي (كيليكيا الشرقية؟) وكركميش الواقعة على الكوع الغربي للفرات، والاشيا (قبرص) كذلك. وبعد ذلك اتخذوا لهم محطة جديدة في عمور - وهي المنطقة التي سميت باسم العموريين الذين خرجوا من الجزيرة العربية نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م. وهذه المنطقة يرجح أنها كانت تقع في الجزء الجنوبي من الأملاك السورية التابعة للإمبراطورية الحثية، التي كان قد قضي عليها الآن. ومن هنا تقدمت « الشعوب البحرية » براً وبحراً في وقت واحد، كما فعلت من قبل.

يظهر ان رعمسيس الثالث اهتم اهتماما بسيطا بالدفاع عن أملاك مصر في فلسطين وجنوب سورية. ويبدو أن المهاجرين الإسرائيليين والآراميين كانوا قد استقروا هناك في ذلك الوقت. وقد ركز رعمسيس الثالث اهتمامه على مقاومة اسطول « شعوب البحر » وأنقذ مصر في السنة الثامنة من حكمه (اي سنة ١١٩١ ق.م .) إذ انتصر في معركة بحرية على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا. إلا إن هذه النكبة البحرية لم تحل دون «شعوب البحر » والانتقال من عمور برا والاستقرار نهائيا على الساحل الذي كان جزءا من أملاك مصر الآسيوية. وقد ظهر الشكلش بين « شعوب البحر » في سنة ١١٩١ ق.م. كما كانوا قد ظهروا في سنة ١٢٢٠ ق.م.، لكن بقية أعضاء التحالف لم يكونوا أنفسهم في المرتين. ففي سنة ١١٩١ ق.م. كان حلفاء الشكلش هم الدانو (داناوي) والتجكر (تويكروي) والبلست (الفلسطينيون) والوشش (لم يتعرف عليهم بعد). ويبدو وكأن الدانو استقروا في كيليكيا الشرقية والتجكر في دورا، الواقعة جنوبي جبل الكرمل. فيما انشأ البلست خمس دول - مدن في الطرف الجنوبي من فلسطين الساحلية.

وقد حفظت القيود المصرية اسمي القائدين الليبيين اللذين قادا تحالف الشعوب المهاجرة. وقد رد أولهما مرنفتاح نحو سنة ١٢٢٠ ق.م.، اما القائد الآخر فقد صده رعمسيس الثالث نحو سنة ١١٨٨ ق.م. إلا أن اسما أشهر من ذلك هو موسى، وهو، بحسب الرواية الاسرائيلية، الذي قاد الإسرائيليين في تنقلهم من مصر الى عبر الاردن الأمر الذي كان منطلقا لاحتلال بعض البلاد السورية [الفلسطينية] التي استولوا عليها في ما بعد، لكن القيود المصرية لا تثبت تاريخية موسى. وثمة على الأقل مصريان يسميان موسى يظهران في القيود المصرية العائدة لى القرن الثالث عشر ق.م. ويبدو أن الاسم، بهذا الشكل الذي يظهر به، هو اختصار لاسم الهي مركب آخر هو موس أو مسه، ويكون عندها الجزء الأول من المركب هو اسم لإله. والأمثلة المعروفة على هذا هي احمس (اموزيس) وتحتمس (تحتميس) ورامس (رعمسيس). وبحسب الرواية الإسرائيلية فإن موسى ربي في مصر وكان موحدا. وإذا كان في هذه الرواية شيء ذو قيمة فإن الأغلب احتمالا هو أن اسم موسى الكامل هو آتون ـ موسى، لأن عبادة آتون هي الدين التوحيدي الوحيد الذي له قيد في التاريخ المصري الفرعوني.

من المؤكد أنه بعد ان حلت اللعنة على ذكرى الفرعون اخناتون، ما كان من الممكن أن يعطى اسم مركب مع اسم قرص الشمس لأي مواطن مصري، دون أن يتعرض مثل هذا الشخص للعقوبة. على أن الرواية الإسرائيلية تمثل موسى وكأنه قد قضى بعض الوقت، قبل أن يقود الإسرائيليين في خروجهم من مصر، في أرض كانت خارج سيطرة الحكومة المصرية. ومعنى هذا أنه إذا كانت ديانة اخناتون قد اتيح لها ان تستمر، فإن ذلك كان في أرض ليست مصرية، ولكنها كانت مصرية سابقا. وتظهر الرواية الإسرائيلية ان موسى قد عقد اتفاقا، بعد الخروج، بين اسرائيل وإله اسمه يهوه. وقيل ان اسم هذا الإله لم يكن معروفا عند الإسرائيليين. وقد فسر اسمه (يهوه) تفسيرا مبدئيا بأنه يعني « الحياة » او « الواهب الحياة »، وهذان كانا من صفات اتون.

وهذه الاعتبارات توحي بأن موسى قد يكون شخصا حقيقيا، مثل نظيريه الليبيين واللذين قد يكونان معاصرين له وهما مارايي ومشر، الثابت وجودهما تاريخيا. وحتى لو أنه لم يقد الإسرائيليين خارج مصر فلعله كانت له خلفية حضارية مصرية. فتاريخية موسى لا تكذبها الأسطورية الواضحة في العناصر الواردة في الرواية التي تقص تاريخ حياته. فبعض الشخصيات الشهيرة التي لا يرقى الشك إلى تاريخها، أصبحت توهم

أبطالا فولكلوريين أسطوريين. وعلى سبيل المثال فليس من ريب في تاريخيّة كورش الثاني، مؤسس الإمبراطورية الأشمونية، ومع ذلك فإن القصة الأسطورية المتعلقة بنجاة بطل بإعجوبة في طفولته من خطرٍ كبيرٍ كان يهدد حياته، التصقت بقصة حياة كورش الثاني الطفل، على نحو ما التصقت بطفولة موسى.

أنقذ المصريون بلادهم من فتح واحتلال بالقوة على أيدي مهاجرين برابرة، لكن الثمن كان غاليا. فقد أجهدت مصر وانقسمت البلاد نحو ١٠٨٧ ق.م. إلى دولتين (وهذا دليل ساطع على ضعف مصر) وقد استمرت طيبة عاصمة لواحدة منهما، فيما كانت تنيس، الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية للدلتا، عاصمة الثانية، ويبدو أنّ هذه اصبحت عاصمة للعمل العسكري المصري منذ أيام رعمسيس الثاني نحو سنة ١٢٩٠ ق.م. ولما ارسلت حكومة طيبة وينامون (دين آمون) نحو سنة ١٩٠٩ ق.م. الى جبيل (بيبلوس) ليبتاع الأخشاب من هناك، عومل باحتقار، حتى في هذه المدينة التي كانت شريكا تجاريا لمصر لمدة نحو ألفي سنة. فقد رفض ملك جبيل أن يقطع الأخشاب من جبل لبنان لوينامون، الى أن تلقى ثمنها من الحكومة المصرية في تنيس. (لقد كانت الحكومتان المصريتان على وفاق في علاقتهما الواحدة بالأخرى).

وعلى كل فقد كانت النتيجة الأهم لصد المصريين للهجوم الحربي الذي قام به الليبيون وشعوب البحر هي قيام حكم ليبي في مصر في نهاية الأمر؛ وقد تم هذا بطريقة تدريجية قوامها « الانسياب السلمي ». فقد قامت اسرة جديدة (الأسرة الثانية والعشرون) نحو سنة ٩٤٥ ق.م. ولبس فراعنتها التاج المزدوج وتسموا، زعماء المشوش. ولا نعرف فيما إذا كان هؤلاء هم أحفاد أسرى الحرب الذين أسروا في السنوات ١٢٢٠ و ١١٩٤ و ١١٨٨ ق.م. أم أنهم كانوا نسل الليبيين الذين دخلوا مصر سلما فيما بعد، وبموافقة المصريين أنفسهم. وعلى كل حال فإنه يبدو وكأن تسلم المشوش للحكومة الفرعونية نحو سنة ٩٤٥ ق.م. كان سلميا وأن الأمر قد تم الاتفاق عليه بين الجندية الليبية والكهانة المصرية. فقد احترم الليبيون الاستقلال الذاتي لأربع دول هياكل - لا لطيبة فقط، وهي التي كانت تحت حكم الكاهن الأعلى لآمون - رع منذ نحو سنة ١٠٨٧ ق.م.، بل أيضاً لهليوبوليس وممفيس وليتوبوليس؛ وقد تركت تحت حكم الكهنة المحليين للآلهة رع وفتاح وحورس.

وهكذا فقد استسلمت مصر في النهاية إلى انسياح الشعوب البربرية. فالليبيون الذين

كان المصريون قد دحروهم ثلاث مرات على الأقل انتهى بهم الأمر إلى إنشاء طبقة عسكرية في مصر، وبالاشتراك مع الكهانة المصرية الوطنية، وذلك لما ظهروا في مصر وهم مدججون بالسلاح. وقد دون تاريخ انسياح الشعوب في مصر في قيود معاصرة له. أما في غير ذلك من الامكنة، وذلك باستثناء ما يمكن أن يؤخذ من المعلومات المصرية الموثقة التي قد تشير الى مناطق خارج مصر، فإن الدليل المعاصر هو أثري، أما دليلنا الأدبي فهو رجعي الرواية اذ أنه مستمد من روايات كانت قد مرت عليها، في بعض الحالات، أجيال عدة قبلما دونت. وفي المنطقة الإيجية ثمة تناقضات في عدد من الأمور بين الدليل الأثري والرواية، وهذا ينقص من قيمة الرواية، لكنه لا يضع بين أيدينا المعلومات الإيجابية الصحيحة. وتاريخ انسياح الشعوب في حوض البحر الإيجي بين نحو ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. يجابهنا بالكثير من الأحاجي التي لم يستطع الدليل الأثري أن يحلها إلى الآن.

لدينا الدليل الأثري على أن الضواحي الواقعة خارج القصر الحصين في ميكاني قد تعرضت لهجوم قبل نهاية القرن الثالث عشر ق.م. ونُهب كل القصور الميكانية، باستثناء الأكروبوليس في أثينا، نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. وقد نهب قصر ميكاني للمرة الثانية نحو سنة ١١٥٠ ق.م. ومن ناحية ثانية، فليس ثمة دليل أثري على حدوث تخريب مماثل في كريت أو تساليا؛ وقد نجت أتيكا الشرقية والجزر الإيجية تماما كما نجت الجزر الأيونية ايضا. وقد أصبحت الزاوية الشمالية الغربية من البلوبونيز، المجاورة للجزر، ملاذا للاجئين الذين حملوا حضارة أجدادهم الميكانية معهم. ويشير الدليل الأثري ايضا إلى أن موجات متعاقبة من اللاجئين الميكانيين احتلت قبرص خلال القرن الثاني عشر ق.م. وليس ثمة تناقض بين هذا الدليل الأثري الإيجي والدليل المصري الموثق المعاصر له؛ ذلك بان رعمسيس الثالث لما ذكر أن هجرة « شعوب البحر » - وهي الهجرة التي أوقفها هو - قد بدأت من الجزر الإيجية لا يقول بأن الجزر نفسها قد خربت، إلا أنه يقول بأن قبرص كانت واحدة من البلاد التي دمرها المهاجرون وهم في طريقهم الى مصر.

كان الميكانيون قد دمروا الحضارة المينوية، والآن جاء دور مدنية الميكانيين بالذات لتنال حظها من التدمير. وبعد النكبة التي حلت نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. فقد حوض البحر الإيجي ألفبائيته. وقد نشأت كتابة مقطعية مستوحاة من واحدة من الكتابات الإيجية الخطية، إن لم تكن مشتقة منها أصلا، واستعملت في قبرص لكتابة اللغة

اليونانية؛ وهي التي يبدو أن المهاجرين اليونان الميكانيين قد ادخلوها الى قبرص في القرن الثاني عشر ق.م. وهذه الكتابة استمرت حتى بعد إدخال الحروف الهجائية الفينيقية، وظلت تستعمل جنبا إلى جنب مع هذه حتى القرن الثالث ق.م. أما في كريت وبلاد اليونان القارية فقد دخلت الكتابات الإيجية غياهب النسيان. وقد اكتشفت النقوش في آخر الأمر، وحلت رموز النقوش المدونة بالخط ب B تبعاً لذلك في القرن العشرين للميلاد. على أن الألفبائية لم تكن الخاصية الحضارية الوحيدة التي فقدتها بلاد اليونان لما سقطت المدنية الميكانية، إذ أن فن العمرة أهمل ايضا. ولم تصنع المصابيح بعد ذلك. وكان ثمة فقر عام. واختفى الذهب وتخلى الناس عن زي اللباس الأنيق الذي كان الميكانيون قد نقلوه عن المينويين. وإذا نحن أخذنا في الاعتبار عدد الأماكن التي نعرف انها استوطنت في القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م. على التوالي، وجدنا أنه كان هناك هبوط كبير جدا في عدد السكان في المنطقة التي كانت المدنية الميكانية منتشرة فيها بشكل عام، ولو أنه كان هناك زيادات محلية في مناطق استقر فيها اللاجئون.

ليس ثمة دليل قاطع على أن المناطق التي دمرت، والتي هرب منها اللاجئون، قد احتلها المدمرون انفسهم. فإذا كان هؤلاء هم « شعوب البحر » فقد استمروا في سيرهم لنهب مناطق أخرى إلى الشرق والجنوب، على ما يبدو من شهادة الوثائق المصرية. ويبدو أن الجزء الجنوبي من البلوبونيز (مسينيا ولاكونيا) قد أقفر من أهله تقريبا خلال القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م. ولكن حتى نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. كان السكان الباقون في المناطق المدمرة، لا يزالون يحتفظون بالمدنية الميكانية على صورة منحطة. وفي هذا الوقت بالذات أخذت مدنية جديدة، ذات أسلوب مميز خاص بها، تظهر في المنطقة التي كانت من قبل تقع تحت نفوذ المدنية الميكانية التي عُفي عليها الآن.

ثمة دليل أثري على أن استعمار أيونيا (وهي الجزء المتوسط من ساحل آسية الصغرى الغربي) على أيدي سكان جاؤوا من بلاد اليونان بدأ في القرن العاشر ق.م. ولكن ليس هناك دليل أثري على وصول الشعب الذي كان يتكلم اللهجة الشمالية الغربية من اللغة اليونانية والذي عرف في زمن لاحق باسم الدوريين. والدليل على هجرتهم هو خارطة اللهجات للعالم الناطق باللغة اليونانية في الألف الأخير ق.م. ونجد على هذه الخارطة ان المنطقة التي يقطنها الناطقون باللهجة الشمالية الغربية تمتد امتداداً قطريا من ابيروس في الشمال الغربي الى الدوديكانيز وإلى الزاوية الجنوبية الغربية من آسية الصغرى القارية في

الجنوب الشرقي. وقد كانت ثمة لهجة مختلفة، هي الأركادية ـ القبرصية، تستعمل الآن على جانبي منطقة اللهجة الدورية. وهذه اللهجة الدورية لا بد ان يكون قد جاء بها إلى قبرص اللاجئون الميكانيون اليونان الذين استقروا هناك. ولا بد أنها احتفظ بها في أركاديا لأن هذا الجزء، وهو قلب البلوبونيز، كان معقلا طبيعيا لذلك. وفي الواقع فإن اللهجة الأركادية ـ القبرصية من اليونانية التي تعود الى الألف الأخير ق.م. وثيقة الصلة باللهجة اليونانية من العصر الميكاني والتي تحتوي عليها الكتابة المعروفة بالخط ب B.

ليس من الممكن ان يكون الانتشار الجنوبي الشرقي للناطقين باللهجة اليونانية الشمالية الغربية قد تم في وقت متأخر عن القرن العاشر ق.م. والدليل الأثري على استمرار الأسلوب الميكاني للحضارة المادية في المنطقة التي دمرت نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. لا يحول دون احتمال وقوع الهجرة المسماة بالهجرة الدورية في وقت مبكر يعود الى القرن الثاني عشر. فالمهاجمون البرابرة يمكن ان يمحوا آثار سيرهم باقتباس الحضارة المادية التي كانت لضحاياهم المتمدنين.

وقد بلغ التدمير الذي تم بسبب انسياح الشعوب بين نحو ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. حدّه الأقصى في حوض البحر الإيجي. ثمة عدد من الحالات المعروفة التي يحدث فيها أن تستبدل جماعة الفبائية كتابة بأخرى، لكن انعدم الألفبائية بالذات في حوض البحر الإيجي نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. هو بحد ذاته حدث فريد، وهو يدلنا على عنف النكبة التي ادت إليه. وقد كان حظ مدنية آسية الصغرى أفضل. فمع أن الإمبراطورية الحثية قد قضي عليها، كما قضي على الامارات الميكانية، إلا إن الدول التي خلفتها استمرت في شمال سورية وهي المنطقة التي انتزعها الحثيون من أيدي المصريين؛ وهؤلاء اللاجئون الحثيون استمروا في استعمال الكتابة الهيروغليفية النوفيانية، التي كانت قد اخترعت في آسية الصغرى قبل انسياح الشعوب، مع أنهم تخلوا عن استعمال الكتابة السومرية في كتابة اللغة الهندية الاوروبية الحثية واللغة الأكدية.

لقد كان للقضاء على الإمبراطورية الحثية نتيجة باقية وكان لها أهمية عالمية. فقد قضى ذلك على الحظر الذي كان مفروضا على انتشار تقنية إنتاج الحديد المطاوع الذي كان كالبرونز في قسوته. ويبدو أن هذه المعرفة كانت قد اكتشفت في آسية الصغرى. ولما وصل اليونان الى البحر الأسود عزوا هذا الاختراع الى شعب أسطوري، هو الخاليبس، والذي عيّنوا موطنه على شاطىء آسية الصغرى الشمالي. وهذه المنطقة لم

تدخل في نطاق الإمبراطورية الحثية، ولكن الحثيين تمكنوا من احتكار الاختراع والحفاظ عليه لأنفسهم على أنه سر ثمين للدولة. وقد كان ملوك الحثيين يهدون، بين الفينة والفينة، مصنوعات حديدية على أنها هدايا مختارة تقدم إلى الحكام الأجانب؛ ولكن الحديد ظل يهتم به، خارج الإمبراطورية الحثية وحتى سقوطها، على أنه واحد من المعادن الثمينة.

ففي واقع الأمر نجد ان تقنية صنع الأسحة والأدوات من الحديد المطاوع هي أكثر تعقيدا وأصعب نسبيا في حذقها، من تقنية المعدات المساوية لها في الصلابة من البرونز. والدافع الى استعمال الحديد يعود إلى يسر الحصول على الحديد الخام من كل مكان تقريباً (طبعاً باستثناء اماكن معينة مثل المناطق الرسوبية في حوض دجلة والفرات الأدنى). فالحصول على النحاس الخام، إذا قوبل بالحصول على الحديد الخام هو نادر؛ وأندر منه الحصول على القصدير. ولما كان البرونز هو مزيج من النحاس والقصدير فالأحوال التي تمكّن المرء من إنتاجه هي أصلا إمكان نقل الكتل المعدنية مسافات طويلة. ومن ثمّ فهناك أفضلية لاستعمال الحديد بدل البرونز في الأماكن والأزمنة حيث تتعطّل وسائل المواصلات.

وقد حدث هذا بعد سلسلة النكبات التي أصابت العالم الإيجي في القرن الثاني عشر ق.م.، ومن ثم فلم يكن من الغرابة في شيء ان يبدأ استعمال الحديد لصنع الأدوات والأسلحة في أثينا نحو سنة ١٠٥٠، ق.م. وأثينا تقع على مقربة من آسية الصغرى. وقد استمر استعمال الحديد هنا، على أنه المعدن الصناعي الأول، لمدة القرنين التاليين، ولكن إذ بدأت بعد ذلك وسائل الاتصال بالتحسن عاد البرونز الى السوق لبعض الأغراض، لكنه كان يستعمل جنبا الى جنب مع الحديد. وفي الجهة الثانية فان الحديد لم يأخذ محل النحاس كمادة للأدوات إلا نحو القرن السابع ق.م. فقد صدّ المصريون « شعوب البحر »، ولم يصب حياتهم الاضطراب التام، وقد اصبح المصريون محافظين نتيجة رد الفعل على الثورة التي تلت سقوط المملكة القديمة. وقد كانت كمية الحجارة التي قطعت في مصر الفرعونية أكبر من أية كمية قطعت في أي مكان آخر وفي أية فترة تلت ذلك. ومع ذلك فإن أكثر ما قطعه المصريون من الحجارة تم قطعه بأدوات مصنوعة من النحاس غير الممزوج بأي معدن آخر. ذلك بأنهم لم يتقبلوا حتى البرونز بيسر. وقد كان حوض النهر الأصفر بعيدا عن المراكز المشرقية للمدنيات القديمة، ومع ذلك فان الصينيين كانوا

قد حذقوا في صنع البرونز نحو القرن الخامس عشر ق.م. وقد اصبحت مهارتهم كصانعين للبرونز كبيرة. وكانت المصادر التي يحصلون منها على الحديد والقصدير دوما في متناول أيديهم. وهذا يفسر بعض الشيء السبب في أن الحديد لم يتغلب على البرونز باعتباره المادة الأساسية لصنع الأدوات والأسلحة حتى نحو القرن الرابع ق.م.

تظهر خارطة اللهجات في آسية الصغرى في الألف الأخير ق.م. منطقة مقحمة للغة تركية ـ فريجية تمتد قطريا من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي، على نحو ما كانت تمتد المنطقة اليونانية « الدورية »، في حوض البحر الإيجي. وتكرر هنا ما حدث من قبل وهو أن اللغات التي كانت منتشرة قبلا، وهي اللوفائية والحثية في هذه الحالة، استمرت على جانبي المنطقة: الحثية في شمال سورية واللوفائية في غرب آسية الصغرى (اي في ليكيا وكاريا وليديا). ولم يكن الفريجيون، على وجه التأكيد، مماثلين « لشعوب البحر ». وقد دخلوا آسية الصغرى من تراكيا، لا من الأرخبيل الإيجي، وملأوا فراغا كانت « شعوب البحر » قد احدثته. لكن الدليل الأثري لم يبين لنا تاريخ هجرتهم، كما أنه لم يبين لنا تاريخ هجرة اليونان المتكلمين بالدورية.

ويبدو ان تحركات الكلدانيين والاسرائيليين والآراميين كانت قد تمت قبل ذلك بمدة. فقد كان الاسرائيليون في فلسطين قبل نهاية حكم الفرعون مرنفتاح اي قبل ١٢١٤ ق.م. ومن الجهة الثانية فإن ضغط الآراميين على الجزيرة وشمال سورية لا يبدو أنه كان شديداً في أيام الملك تغلت ـ فلسر الأول الأشوري (حكم نحو ١١١٤ـ ١٠٧٦ ق.م .)، اذا تذكرنا انه نجح في مسيرته غربا حتى وصل الى شاطىء البحر المتوسط. وأشور لم يمسها أذى من انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م. على نحو ما أصابها من انسياح الشعوب في القرن الثامن عشر ق.م. فقد وقعت في هذه الفترة تحت سيطرة ميتاني. اما في فترة ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م. فقط حافظت على استقلالها. ولم « تعبر » شعوب البحر، في هجرتها المخربة التي انتهت سنة ١٢٩١ ق.م. نهر الفرات؛ كما أن نهر الفرات وسلسلتي جبال طوروس وانتيطوروس كانت حواجز قوية في طريق الفريجيين في سيرهم باتجاه أشور.

تاريخ الهند بين سنتي ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م. غير معروف. فقد يكون المهاجمون الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية قد دخلوا حوض السند ودمروا المدنية السندية قبل ذلك بربع الألف من السنين. والرأي البديل هو أن لا يكون هؤلاء قد

وصلوا حوض السند إلا نحو سنة ١٢٥٠ ق.م. وعلى هذا فإذا كان هذا هو تاريخ وصولهم هناك، فقد تكون هجرتهم نتيجة لزحزحتهم على أيدي مهاجرين انقضوا عليهم من السهوب الأوراسية من الخلف.

قضى على أسرة شانغ في حوض النهر الأصفر أتباعهم التشو وقاموا مكانهم في سنة ١١٢٢ ق.م.، إذا نحن قبلنا التأريخ المعترف به رسمياً، أو في سنة ١٠٢٧ ق.م.، إذا اتبعنا حساباً آخر قد يكون أقرب إلى الصواب. وقد هاجم التشو سهل شمال الصين من حوض الواي، وهو رافد للنهر الأصفر، اي من الجهة التي يُعتقد أنها أوصلت للصين، في ما سبق من الزمن، بعض عناصر الحضارة من المناطق الواقعة الى الغرب وذلك عن طريق السهوب الأوراسية. ولكن الدليل الأثري لا يشير الى أن التشو حملوا معهم أية تجديدات حضارية. والتبديل السياسي من شانغ إلى تشو لا يبدو أنه أحدث صدعا في الاستمرار الحضاري، على نحو ما حدث في بلاد اليونان نتيجة للقضاء على الإمارات الميكانية. ويبدو أن التشو كانوا صينيين، او على الأقل أنهم قد أصبحوا صينيين تماما حضاريا، قبل أن يحلوا محل شانغ. ففنا الكتابة وصنع البرونز لم يبقيا بعد تبدل الحكم فحسب، بل استمرا في التقدم.

فضلا عن ذلك فإن تبديل الأسرة لا يبدو أنه أدى إلى تبديل هام حالي في التركيب السياسي للمجتمع الصيني. والدليل الأثري الذي يوضح النظام الشانغي لا يشمل مصنوعات فحسب، بل وثائق ايضا أي نقوشا على عظام الموتى. فالذي كشف عنه التنقيب في انيانغ، التي كانت بحسب الرواية التقليدية، العاصمة الخامسة من خمس عواصم متتابعة لأسرة شانغ، يشير إلى ان هذه الأسرة كانت الدولة النافذة في حوض النهر الأصفر في فترة انيانغ. ولم يكتشف بعد مكان معاصر يمكن أن يكون مركزا لدولة قد تنافسها على منزلتها. وقد ظن أن تشنغ ـ تشو، الواقعة على نحو مئة ميل الى الجنوب، كانت من قبل عاصمة لدولة شانغ نفسها. وعلى كل فان نقوش وعظام الموتى، تظهر ان شانغ كان يقض مضاجعها الخوف من الأعداء ـ وقد أظهرت الحوادث ان هذا الخوف كان في محله.

لسنا نستطيع أن نتبين من الدليل الأثري لا مدى ما كان يقع تحت نفوذ شانغ مباشرة، ولا مدى نفوذهم السياسي؛ إلا أنه من الواضح أن الدولة الشانغية لم تكن إمبراطورية مزودة بإدارة للولايات تحت إشراف فعال للسلطة المركزية على نحو ما بدت

عليه الإمبراطورية الصينية في تطوراتها المختلفة بعد توحيد الصين سياسيا في سنة ٢٢١ ق.م. على يد تشين شيه هوانغ - تي. ولقب « شيه هوانغ - تي » (الإمبراطور الأول) الذي تسمى به الملك تشنغ، وهو ملك الدولة المحلية تشن، الذي انتصر في محاولته، كان اختيارا موفقا، ذلك بأنه لم تقم من قبل في الصين امبراطورية مركزية تضم كل المنطقة التي كانت تحت نفوذ المدنية الصينية الحضاري. ولم تكن المملكة الشانغية من ذلك النوع. ومن البين أنها كانت أقرب الى النظام الذي خلفها مباشرة أي نظام تشو، على ما صورته الرواية الصينية في ما بعد، في نظرتها التي ترنو الى الزمن السابق.

وحتى في أيامها الأولى، وقبل أن تحل بها النكبة (سنة ٧٧١ ق.م .) التي اضعفتها تدريجا وبشكل عضال، لم تحكم أسرة تشو حكما مباشراً سوى جزء صغير من البلاد. فقد كان حكمها، غالباً، لا يعدو كونه سيادة على عدد من الأتباع المستقلين استقلالا ذاتياً، وكان عددهم سبعين او تسعين تابعا. وقد كان حكم تشو ضعيفاً، حتى في عزه، إذا ما قورن بالنظام الوحدوي الذي فرضه شيه هوانغ - تي على العالم الصيني لمدة تقارب الثمانمائة سنة. ومن الجهة الثانية فإن حكم تشوكان الراجح حكما قوياً، اذا ما قورن بحكم شانغ الذي سبقه. فقد حكمت أسرة تشو العالم الصيني المعاصر لها، حتى ولو أن الحكم كان غير مباشر. ويبدو أن أسرة شانغ، التي تغلبت عليها اسرة تشو، كانت تسيطر على جيرانها بالغارات التي لم تؤد الى إقامة أية علاقات قائمة على مؤسسات بين الدولة المسيطرة والمجتمعات شبه المستقلة التي تقع في متناولها، والتي كانت تثير الرعب بين أبنائها، لكنها كانت تخشاها ايضاً.

١٥ـ ظهور مدنية « أولمك » في ميزو ـ اميركا

إن انسياح الشعوب (بين نحو ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م .) الذي كانت له آثار مزعجة، كالتي ذكرنا، في العالم القديم من حوض البحر المتوسط، في الجهة الواحدة، إلى حوض النهر الأصفر في الجهة الأخرى، لم يؤثر على الاميركتين؛ إلا أن حدثا واحدا قد وقع، في الفترة ذاتها، على الأقل في منطقة صغيرة من اميركا الوسطى. فنحو سنة ١٢٥٠ ق.م. انتهت مرحلة التكون الحضاري إلى ظهور مدنية هناك. ومرحلة التكون هذه، في دوريها القديم والمتوسط في العالم الجديد، هي نظير مرحلة العصر الحجري الحديث في العالم القديم. والموقع الذي ظهرت فيه المدنية هناك يسمى اليوم سان لورنزو، ويقع في مرتفع من الأرض مكسو بالغابات، ويشرف على وادي كولزا كولكوس، وهو النهر الذي يحمل مياه الجهة الشمالية من برزخ تهوانتبك الى خليج المكسيك. وهذا هو أقدم موقع اكتشف حتى الآن لأقدم مدنية معروفة في الأميركتين - وهي المدنية التي أطلق عليها مكتشفوها المحدثون « اولمك ».

لم تكن مدنية أولمك في سان لورنزو قد وصلت دور الألفبائية بعد، لكنها أنتجت أعمالا ضخمة في البناء والنحت. ففي مجال البناء أقيم مركز لإقامة الشعائر الدينية، وقد وسع عن طريق توسيع الأرض ومناظرها وهندستها من جديد على مقياس واسع. وأعمال النحت المتميزة في سان لورنزو، وفي المواقع التي تلت ذلك، هي رؤوس بشرية ضخمة نحتت في حجارة بازلتية نقلت الى سان لورنزو من مكان يبعد خمسين ميلا. وهذه الآثار المادية الباقية هي الأدلة الظاهرة على وجود سلطة بشرية كان بإمكانها أن تعبىء المهارة والقوى البشرية على هذا المقياس العظيم في سبيل تحقيق هدف ديني. وقد اتخذت لإله الأولمك الرئيس تماثيل مهولة هي هجين بين كائن بشري ونمر، [من النوع الأميركي الاستوائي المنقط]. وعبادة هذا الإله كانت، ولا شك، القوة الروحية التي

دفعت الأولمك الى تحقيق هذه الإنجازات المادية. ولنا أن نخمن ان مثل هذه الإنجازات كانت في بعضها على الأقل، نتيجة عمل تطوعي قام به المؤمنون، إلا أنه يجوز لنا ان نخمن أيضاً أن هذه الإنجازات كانت في جزء منها نتيجة السخرة الذي قام بها غير المؤمنين ممن كانوا قد غلبوا على أمرهم في الحروب؛ ذلك بأن سان لورنزو والأولمكية دمرت بعنف يدل على ما كان يضمره المدمرون من استياء وغيظ.

بلغت مدنية اولمك الذروة في سان لورنزو بين نحو سنة ١١٥٠ و ٩٠٠ ق.م. قبل ان يقضى عليها بعنف في هذا الموقع. ولكن في مواقع أخرى، هي أقرب إلى ساحل خليج المكسيك، فقد ازدهرت مدنية اولمك بين نحو ٨٠٠ و ٤٠٠ ق.م.، ولم تزل هناك قبل أن تركت آثارها في حضارة عددٍ من الأجزاء الأخرى من أميركا الوسطى.

وقد تناولنا في الفصل الحادي والعشرين [تحت] المراحل الأخيرة من مدنية اولمك كما فعلنا مثل ذلك أيضا بنظيرتها، مدنية تشافن، في الأنديز. وعلى كل فلنلحظ هنا بعض صفات غريبة في آثار مدنية اولمك على ما اكتشفت في سان لورنزو. ففي المقام الأول ان مدنية تظهر إلى الوجود بعد ٢٥٠ سنة فقط من وصول الحضارة المحلية مرحلة التكون، هو أمر يدعو إلى الغرابة، كما يدعو الى الغرابة وجود فرجة زمنية مدتها ألف سنة على الأقل، وقد تصل الى ٢٥٠٠ سنة، بين تدجين الذرة الصفراء في أميركا الوسطى، وبين الوقت الذي تم فيه إنتاج هذا النبات المدجن بحيث استعيض به عن جمع الغذاء والصيد كمصدر ثابت للحصول على المواد الغذائية هناك ـ وقد تم هذا الانتقال نحو سنة ١٥٠٠ ق.م.. وفي المقام الثاني، من الغرابة، هو ان الموقع في سان لورنزو لا يبدو أنه كان مركزاً لإقامة الشعائر فقط، بل مكانا لاستيطان دائم، ولعل عدد السكان فيه قد بلغ نحو الألف. وفي المقام الثالث هو أن مدنية اولمك في سان لورنزو كانت قد بلغت القمة في الفن والتكنولوجيا، بين نحو ١١٥٠ و ٩٠٠ ق.م.، واستمرت على هذا المستوى في المواقع المتأخرة التي وجدت فيها.

وفي الوقت ذاته كانت الحضارة « التكونية » التي ظهرت في أميركا الوسطى نحو سنة ١٥٠٠ ق.م. آخذة في الانتشار وبخاصة نحو الجنوب. وفي سنة ٨٠٠ ق.م. كانت مدنية اولمك تظهر في الأراضي المنخفضة في ساحل المكسيك. كما كانت مدنية تشافن آخذة في الظهور في البيرو. وفي ذلك الوقت كانت الحضارة التكوينية، لاميركا الوسطى ـ بما في ذلك فن صنع الفخار وزرع الذرة الصفراء ـ قد انتشرت في الأجزاء

الرئيسة من الأميركتين ـ من أميركا الوسطى الى البيرو، وهذان المكانان داخلان. ويغلب القول على أن زرع الذرة الصفراء قد انتشر من أميركا الوسطى إلى الأجزاء الرئيسة من الأميركتين الواقعة الى الجنوب من أميركا الوسطى ـ بما في ذلك البيرو والأجزاء المتوسطة من أميركا وكولومبيا والأكوادور الحاليتين. نالدلائل تشير إلى أن أميركا الوسطى كانت المنطقة التي دجنت فيها الذرة الصفراء اصلا. وعلى كل فمهما كان الزمن الذي وصلت فيه الذرة الصفراء الى السواحل الشمالية من البيرو من أميركا الوسطى، فمن المؤكد ان سكان البيرو كانوا يومها قد اخترعوا الزراعة لأنفسهم، وذلك باستقلال عن أميركا الوسطى وعن العالم القديم. وثمة نوعان من النباتات المحلية التي دجنها سكان البيرو، وهما البطاطا (البطاطس) والكوينو، وهما من الممكن إنتاجهما في مرتفعات البيرو العالية، وحتى في المنحدرات الجبلية المدرّجة صناعيا التي تعلو فوق الهضبة. فالزراعة لم تستمر بعد في مثل هذه الارتفاعات في أي مكان من الأويكومين.

١٦ـ العالم السومري ـ الأكدي ومصر نحو سنة ٩٥٠ـ ٧٤٥ ق.م.

كانت المدنية السومرية ـ الأكدية والمدنية المصرية قد قامتا بالقدر الأكبر من إنجازاتهما الخلاقة الكبيرة في كل مجالات النشاط الإنساني، قبل نهاية الألف الثالث ق.م. وكانتا قد فقدتا، في سنة ٢٠٠٠ ق.م. المميز السابق لهما، وهو انهما كانتا من قبل المدنيتين الوحيدتين في الأويكومين. فقد ظهرت مدنيات إقليمية أخرى الى جانبهما، وحدث في الوقت ذاته ان تعرضت كل منهما، وهما أقدم مدنيتين في العالم لنكبة قضت عليها. وعلى كل فقد استجمعت كلتاهما قواهما، قبل بدء الألف الثالث ق.م. وهذه المقدرة على استجماع القوى، نتج عنها قوة وقدرة على المقاومة مكنت المدنية السومرية الأكدية من البقاء حتى بعد بدء التاريخ الميلادي، كما مكنت المدنية المصرية الفرعونية ان تستمر حتى القرن الخامس الميلادي.

عرضنا في الفصل الثالث عشر وصفا للدور الذي قامت به المدنيتان الأوليتان في تنمية العلاقات بين كل المدنيات الإقليمية في المشرق. ففي عصر المملكة الحديثة أقامت المدنية الفرعونية إمبراطورية عالمية النزعة وهي التي أصبحت بوتقة لصهر الحضارات. وفي العصر ذاته أصبحت اللغة الأكدية، التي احتوتها الكتابة السومرية، وسيلة لاضفاء صيغة كلاسيكية على الآثار الأدبية السومرية الأصل. وقد أصبحت هذه الآثار، في هذه الصيغة، جزءا من التراث الحضاري لمناطق كانت تقع خارج حدود العالم السومري الأكدي ـ وعلى سبيل المثال سورية وآسية الصغرى ـ وصارت اللغة الأكدية، في الوقت ذاته وسيلة المراسلات الدبلوماسية ليس فقط بين الدول ذات السيادة في المشرق، بما في ذلك مصر، بل بين الحكومة المصرية والدول التي كانت تدور في فلكها في فلسطين وسورية ولبنان.

ضعفت سومر وأكد بسبب الفشل السريع الذي تعرضت له الإمبراطورية التي أعادها

حمورابي الى الوجود (١٧٦١- ١٧٣٥ ق.م .) والتي كانت العالم السومري الأكدي بكامله، بما في ذلك اشور وماري وكركميش. وأنهكت مصر وتدنت الى المستوى نفسه من العجز السياسي بسبب الجهد الذي بذلته في صد هجمات الليبيين وشعوب البحر بين سنتي ١٢٢٠ و ١١٨٨ ق.م. ومع ذلك فقد ظل لكل من هذين المجتمعين الهرمين ولاية بعيدة هي التي احتفظت بحيويتها. ان اشور، كما ذكر، مع أنه كان قد تغلب عليها الانسياح الشعبي الميتانيّ في القرن الثامن عشر ق.م.، عادت الى الظهور في القرن الرّابع عشر ق.م. كدولة محاربة. ومع أن أشور اضطرت الى اتخاذ موقف دفاعي، للمرة الثانية، اثناء الانسياح الشعبي الطويل الأمد، نحو ١٢٥٠- ٩٥٠ ق.م. فقد نجحت في الحفاظ على هويتها السياسية واستقلالها. وعادت أشور الى الاعتداء على جيرانها (من نحو ٩٣٢- ٧٤٥ ق.م .) لكنها لم تكن قد بلغت درجة الحماسة الطائشة والعنف الوحشي، وهما الأمران اللذان أديا بها إلى الامّحاء في نهاية المرحلة الثالثة من تاريخها، وهي المرحلة التي بدأت لما تولى تغلت فلسر العرش سنة ٧٤٥ ق.م.

لم تعد مصر ولا المدنية السومرية الأكدية، في الفترة الممتدة من ٩٣٢ الى ٧٤٥ ق.م.، مصدرا رئيسا للخلق الحضاري، ولا حتى عاملا رئيساً في التواصل الحضاري. ففي هذه الفترة قامت المدنيات الإقليمية الحديثة التي ولدت نتيجة لآخر انسياح للشعوب، بهذين الدورين ـ أي الخلق والتواصل الحضاريين. وهذه الحضارات الحديثة كانت السورية واليونانية الهلينية والهندية الفيدية والصينية ـ مع أن الصين عرفت استمرارية حضارية بين عصر تشو وعصر شانغ الذي سبقه، أكبر من الاستمرارية التي كانت بين المدنيات الحديثة (التي قامت إلى الغرب من الصين) ونظائرها من المدنيات السابقة لها. ومع ذلك فإن أقدم مدنيتين إقليميتين لم تكونا قد استنفذتا كل مقدرتهما على الخلق الحضاري. فقد كان لهما بعد من الجاذبية ما يستهوي الأنصار المؤيدين. فقد نفذت المدنية المصرية، بعد سنة ٩٥٠ ق.م.، الى منطقة حضارية جديدة في النيل الأعلى بين الشلالين الثالث والرابع. وفي الفترة نفسها نفذت المدنية السومرية الأكدية إلى منطقة حضارية مماثلة تقع الى الشمال من الحاجز الجبلي الذي يفصل بحيرة فان، وروافدي نهر الفرات الأعلى عن سهول أشور والجزيرة وعن الحوض الأعلى لدجلة.

كان الحكم الليبي الذي اقامته الأسرة الثانية والعشرون (نحو سنة ٩٤٥- ٧٣٠ ق.م .) بعيداً عن الأحداث الهامة، ومثل ذلك يقال عن الحكم الكاشي في بلاد بابل

وعن الحكم الوطني الذي خلف الكاشيين نحو سنة ١١٦٩ ق.م.. والأعمال الوحيدة التي قام بها الفراعنة الليبيون كانت غزوات عرضية إلى فلسطين، والتي لم تسفر عن أية نتيجة. ومع ذلك فقد كان هذا هو العصر الذي أصبحت فيه نبتا، التي كانت حصنا على حدود المملكة المصرية الحديثة، العاصمة السياسية والحضارية لدولة كان سكانها، مع أنهم لم يكونوا مصريين دما، قد تقبلوا الديانة المصرية الفرعونية بحماسة، كما قبلوا بقية عناصر الحضارة الفرعونية. وثمة منطقة خصبة التربة تمتد على ضفتي النيل، فوق بنتا وتحتها، لا تزال تتجاوب مع الري فتعطي غلات غنية.

وأصبحت مملكة بنتا الكوشية، بسبب هذا الثراء الزراعي، نحو سنة ٧٣٠ ق.م. كثيرة السكان وقوية بحيث أثارت في نفوس حكامها الرغبة في محاولة إعادة توحيد العالم المصري بأكمله، بما في ذلك الدلتا بالذات، تحت نفوذ الملوك الكاشيين من لابسي التاج المزدوج.

كانت المنطقة الحضارية الجديدة التي نفذ إليها العالم السومري الأكدي بعد سنة ٩٥٠ ق.م. هي أورارتو، وقد أشرنا إلى موقعها الجغرافي في ما سبق. ومن هذه المنطقة بالذات انحدر المهاجرون الحوريون إلى الهلال الخصيب مع انسياح الشعوب التي جاء في القرن الثامن عشر ق.م.. والأورارتيون (او الخلدي) الذين عرفوا في الألف الأخير ق.م.، هم أحفاد الحوريين الذين ظلوا في موطنهم الأصلي. وقد اتحدت الدويلات الأورارتية الحورية في القرن التاسع ق.م. وكونت مملكة واتخذت عاصمة لها توشبا الواقعة على الشاطىء الشرقي لبحيرة فان. ولعلنا نخمن ان هذا التوحيد السياسي كان الباعث عليه الخوف من الاعتداء الأشوري. وفي الواقع فقد هاجم شلما نصر الثالث اورارتو في السنة الأولى من ملكه (حكم نحو ٨٥٨ـ ٨٢٤ ق.م). وكانت أشور الأكثر تنظيما واستعدادا من الناحية العسكرية، ومع ذلك فلم يتمكن الأشوريون من احتلال اورارتو. وكانت اورارتو لا تزال باقية على الخارطة السياسية لجنوب غرب آسية في سنة ٦١٢ ق.م. وهي السنة التي سقطت فيها نينوى، عاصمة أشور.

والجغرافية الطبيعية تفسر لنا لماذا لم تخضع اورارتو للدولة التي تمكنت، قبل زوالها، من التوسع جنوبا في غرب حتى مصر، وجنوبا في شرق حتى عيلام. إن اورارتو معقل طبيعي. إن المسافة الى توشبا حتى من أشور، وهي أقدم عواصم الأشوريين وأبعدها جنوبا، هي أقصر قليلا من المسافة بين أشور وبابل، على نحو ما تطير الطائرة. ولكن إذا

نحن أردنا السير برا من أشور إلى بابل، استطعنا ذلك على أقصر خط بين المكانين، إلا أن السير على خط مستقيم من أشور إلى توشبا متعذر تماماً.

فالجيش الأشوري الذي كان يقصد توشبا لم يكن بإمكانه ان يصعد في الوادي الأعلى لنهر الزاب الكبير ذلك لأن هذا هو معقل طبيعي مثله مثل حوض بحيرة فان بالذات. كما أنه يتعذر عليه ان يجتاز سلسلة الجبال المرتفعة التي تكوّن سطح تجمع المياه الجنوبي لحوض بحيرة فان. ومن ثم فإن المهاجمين الأشوريين لأورارتو كان عليهم ان يتجهوا من الجزيرة الى وادي دجلة اولا، لا شمالا، بل شمالا في غرب عبر الجبال الأقل إعاقة. وبعدها كان عليهم ان يتجهوا شمالا في شرق ليتسلقوا الممر الطويل الشديد الانحدار الذي يؤدي عبر بتليس، الى الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة فان. والطريق الذي يجاري شاطىء البحيرة الجنوبي كان يحتمل أن يكون أقصر طريق إلى توشبا. إلا أن هذا الطريق شاق طبيعيا، حتى في أيامنا هذه، وكان الخطر فيه كبيرا بحيث يصعب استعماله عندما يجابه المهاجم مقاومة عسكرية. وعند الزاوية الجنوبية الغربية لبحيرة فان لدى المهاجم الأشوري واحدا من خيارين عمليين وهما: إما أن يدور بالشواطىء الشمالية والشرقية للبحيرة أو أن يسير في دورة أطول عبر الريف المكشوف نسبياً في الوادي الجنوبي للفرات الأعلى (المسمى هنا مرات سو). وهذا يفسر لنا لماذا ندر أن تصل الجيوش الأشورية الى توشبا ولماذا فشلت دوما في البقاء هناك. ومن الجهة الثانية كان باستطاعة جيوش أورارتو ـ وقد كانت الجبال تسترها والشعوب المجاورة التي كانت تشارك الأورارتيين تقززهم من الخضوع لأشور، ترحب بها ـ هذه الجيوش كان باستطاعتها ان تقاوم محاولات الأشوريين في أن يجتازوا الجبال، سواء شمالا في شرق نحو إيران أم شمالا في غرب نحو آسية الصغرى.

ومن ثم فإن اورارتو كانت، من الناحية الحربية، أكبر خصوم اشور فعالية وثباتا في الألف الأخير قبل الميلاد. اما في الجهة الثانية فإن الأورارتيين قبسوا، في القرن التاسع ق.م.، حضارة الأشوريين طوعا، في الوقت ذاته الذي ذاقوا الأمرين من الاعتداء الأشوري. وقد نقشوا نقوشهم بلغتهم الحورية لكن في الصورة الأشورية للشكل الأكدي للكتابة السومرية. لقد كانت أشور وريثة الحضارة السومرية الأكدية، وهذا التراث الغني القديم أضفى على أشور ثوبا حضاريا جذابا، على رغم انها كانت هي منفردة بذاتها. ومع ذلك فإن الأورارتيين لم يكونوا مجرد متقبلين عاديين سلبيين لحضارة غريبة عنهم.

فقد بزوا معلميهم في واحد من الفنون العظمى على الأقل ـ فن البناء بالحجر ـ إذ أن البنائين الأورارتيين تفوقوا على معلميهم وكادوا أن يصلوا الى المستوى المصري ـ ليس في الضخامة ولكن في الدقة.

وبالنسبة الى الأشوري المعتدي فلم يكن يتبع الخط الأضعف في المقاومة بالسير في اتجاه شمالي أو شرقي، بل بالسير في اتجاه غربي عبر الجزيرة الفراتية الى سورية، او في اتجاه جنوبي نحو بلاد بابل. وقد كان الوضع في القوى الحربية للبابليين والأشوريين قد انعكس تماما منذ القرن الثامن عشر ق.م.، لما تمكن حمورابي من إخضاع أشور. ومنذ القرن الرابع عشر ق.م. أصبح البابليون عاجزين عن مجاراة الأشوريين عسكريا؛ ولكن الأشوريين رغم حملاتهم المتعددة ضد بلاد بابل، وحتى احتلالهم لها احتلالا موقتا(كما حدث في ايام الملك الأشوري توكلتي نينرتا الأول) كانوا يعاملون بابل ببعض الاحترام والكياسة باعتبارها موطن المدنية المشتركة للبلدين. وظل الأمر كذلك إلى أيام تغلت فلسر الثالث (تولى العرش سنة ٧٤٥ ق.م .) الذي أوصل آلة الحرب الأشورية الى المرحلة النهائية المفجعة.

وقد كان المجال الذي قامت فيه أشور باعتداءاتها بين سنتي ٩٣٢ و ٧٤٥ ق.م.، هو المناطق الواقعة غربيها. ففي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٣٢ و ٨٥٩ ق.م. احتلت أشور الجماعات الأرامية التي كانت قد أقامت لنفسها كيانات شرقي الفرات وحتى مداخل موطن الأشوريين. وفي سني ٨٥٨ و ٨٥٦ ق.م. استولى شلما نصر الثالث على بيت عديني، الدولة الآرامية التي كانت تقتعد انحناءة الفرات الغربية، وبذلك ضمن لأشور مدخلا إلى سورية. إلا أن الخطر المشترك الذي أحاق الآن بالدويلات السورية حملها على أن تنحي خصوماتها جانبا، مؤقتا. وقد كسر شلما نصر الثالث في سنة ٨٥٣ ق.م. في معركة قرقر على نهر العاصي الى الشمال من مدينة حماة، اذ انتصر عليه التحالف السوري. وقد كرر حملاته في ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٥ ق.م.، الى ان تمكن، بسبب انفصام عرى التحالف السوري، من احتلال دمشق سنة ٨٤١ ق.م. وفرض السيادة الأشورية على أحلاف دمشق السابقين. وعلى كل فقد لقي شلما نصر الثالث، في سنة ٨٣١ ق.م. صدمة في اورارتو. ففي سنة ٨٢٧ ق.م. قامت عليه ثورة داخلية جمدته كما جمدت خليفته شمشي ـ أدد الخامس، الى سنة ٨٢٢ ق.م. وقد نجح الأورارتيون، إذ توحدوا في دولة منافسة قوية تحت امرة ملكهم ارجيشتس الأول (٧٨٥- ٧٥٣

ق.م .) في أن يزاحموا الأشوريين للسيطرة على شمال سورية وشرق كيليكيا. وكانت هذه المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة تحت النفوذ الأوراراتي لا النفوذ الأشوري.

وكان معنى هذا ان المحاولة التي بدأها شلما نصر الثالث لجعل أشور الدولة السيدة في المشرق قد باءت بالفشل. ولكن، حتى مع هذا، فإن القوة الحربية التي كان باستطاعة أشور أن تعدها في المنطقة، بين سنتي ٩٣٤ و ٨٥٣ ق.م.، كانت مدعاة للإعجاب. والأساس الاقتصادي الذي ترتكز إليه كان منطقة زراعية غنية في موطن الأشوريين تقع بين شاطىء دجلة الأيسر والنهاية الجنوبية الغربية لسلسلة جبال زغروس. وهذا الجزء الخصب لأشور كان أكبر مساحة من الأرض الزراعية حول بنتا، التي كانت المرتكز الاقتصادي لقوة كوش الحربية، إلا أنها كانت أصغر بكثير من المنطقة الصالحة للاستغلال في بلاد بابل. وعلى العكس من كل من بابل وكوش، كانت اشور تعتمد، على العموم، لا على الري بل على الأمطار للحصول على الماء اللازم لمزروعاتها. وقد كانت بعض المواقع التي تعود إلى العصر الحجري الحديث والتي قامت فيها زراعة تعتمد على الأمطار، قبل أن يشق الغرين في الوادي الأدنى لدجلة والفرات تقع في الجزء الذي أصبح في ما بعد بلاد الأشوريين. وهذه الحقيقة التاريخية تثير السؤال التالي: هل كان انتقال مركز القوة في حوض دجلة والفرات صعدا ـ من سومر الى أكد أولا، ثم من أكد الى أشور ـ يعود سببه، ولو جزئيا، الى تدهور ني نظام الري الذي يعود إليه الفضل أصلا في استصلاح الحقول الخصبة من أراضي المستنقعات والصحارى السابقة؟.

من الممكن ان يعود تدمير أنظمة الري إلى الإنسان أو إلى الطبيعة. فقد تُوقفها عن العمل المنازعات التي تقوم بين الجماعات المحلية، او الفتوح الخارجية. وفي الجهة الثانية قد يؤدي عمل الطبيعة الى ان تصبح الحقول التي ينشئها الإنسان مجدبة، إما عن طريق ترسيب الأملاح التي تحملها مياه الري، او عن طريق امتصاص الملح من طبقات التراب السفلى. وهذا العمل المؤذي للطبيعة قد أبطل، ولو جزئيا، بعض منشئات الري الحديثة ـ مثلا في البنجاب والمكسيك. أما عمل الإنسان الضار فهناك أدلة كثيرة عليه في تاريخ سومر وأكد منذ البداية.

كانت الطبيعة أكرم في وادي النيل منها في وادي دجلة والفرات. فقد كان فيضان النيل يرسب في مصر كل سنة طبقة طازجة من الغرين المخصب، ولم يكن باستطاعة الطبيعة أو الإنسان ان يمنع هذه الهبة ـ وقد استمر ذلك الى سنة ١٩٠٢ لما بنى السد

الأول في اسوان. فهل من الممكن أن يعود السبب في سقوط سومر وأكد وقيام أشور إلى أن الري في الوادي الأدنى لدجلة والفرات كان مصطنعا، ومن ثم معرضا للتلف؟

من المؤكد أن نظام الري في العراق توقف تماما في الوقت الذي تم فيه هجوم المغول على تلك البلاد سنة ١٢٥٨ م، ولم تبدأ الأعمال الجديدة لإعادته إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ولكن هل من الممكن أن يكون الخراب المفاجيء الذي تم على يد الإنسان سنة ١٢٥٨ م قد سبقه جدب تدريجي لتربة العراق بسبب قوى طبيعية؟ ليس لدينا من المعلومات ما يمكننا من الإجابة على هذا السؤال مباشرة، إلا أن الإجابة غير المباشرة عنه واردة في أن بلاد البابليين ظلت بعد سقوط أشور، خصبة بما فيه الكفاية لتزود سلسلة طويلة من الإمبراطوريات بمرتكز اقتصادي، بدءاً بدولة الكلدانيين التي خلفت أشور، وختاما بالخلافة العباسية التي كانت اراضيها الخصبة خارج حدود بلاد البابليين أقل مما كانت داخل الحدود.

١٧ـ المدنية السورية نحو ١١٩١ــ ٧٤٥ ق.م.

كل حضارة بشرية من تلك التي أتيح لها أن تتكون، استمرت تؤثر في ما تبعها من مسير القضايا البشرية. وقد يكون أثر الحضارات المنقرضة فعالا بعد. والأثر المستمر للمدنيات السومرية الأكدية والفرعونية المصرية يوضح هذه النقطة. وعلى كل فإن أثر الحضارات المنقرضة غير مباشر. ومن بين امدنيات التي كتب لها البقاء ثمة واحدة، وهي المدنية الصينية، التي ظهرت نحو منتصف الألف الثاني ق.م. وأخرى، وهي المدنية الهندية، ولعلها هي التي دمرت مدنية السند السابقة وحلت محلها، وذلك في التاريخ نفسه تقريبا. ومن المدنيات الحديثة التي قامت على انقاض الخراب الذي خلّفه انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م. فان واحدة منها، وهي الهلينية قد انقرضت الآن، لكن معاصرتها التي قامت في سورية، بأوسع معنى جغرافي للتسمية، لا تزال تمثلها الى اليوم جماعتان: اليهود والسامريون.

إن اليهود لم يستمروا في البقاء فحسب، بل لقد انتجوا أدبا وحفظوه، على نحو ما تم للصينيين وللهنود. ويعتقد أن أقدم أجزاء هذا الأدب قد دونت في القرن العاشر ق.م. ومجموعة هذا الأدب اليهودي هي، بدون جدال، أضخم مصادرنا وأشهرها للتاريخ الديني والاجتماعي والسياسي لا ليهودا واسرائيل فحسب، ولكن للمدنية السورية بكاملها. وقد ظهرت مؤخرا دلالات مستقلة عن الأسفار اليهودية (وهي التي يسميها المسيحيون العهد القديم) وذلك عن طريق علم الآثار، لكن هذه الدلالات، رغم انها موضحة، فهي قليلة وغير مترابطة. أما الأسفار فهي نسبيا ظرفية وشاملة. والباحث في تاريخ المدنية السورية يجد نفسه، بدون هذه الأسفار، وكأنه يتحسس طريقه في الظلام. على أن هذا المصدر الذي لا غنى عنه يؤدي الى الضلال لو أنه قبل على علاته، وذلك لسببين: إن الاسفار تروي القصة من زاوية جماعتين فقط من الجماعات التي تنتظمها

المدنية السورية، كما أنها لا تروي حتى هذه القصة المغرضة في صيغتها الأصلية. فمنذ الوقت الذي دونت فيه أقدم كتب العهد القديم، مرت بالدين اليهودي تبدلات كانت، إذا أخذت بشكلها التراكمي، ثورية. وقد عدلت المتون المرة بعد المرة بحيث تتفق مع الفكرة القائلة بأن هذه التبدلات لم تكن تجديدات بل كانت عودة إلى الإيمان والطقس الأصليين.

وهكذا فإن الأسفار، على النحو الذي هو بين أيدينا، تعطي ليهودا واسرائيل صورة بعيدة عن واقع الحياة، وبالتبعية، تعطي مثل هذه الصورة لجيرانهم. ومن الممكن تصحيح هذه الصورة جزئيا فقط عن طريق فحص الدلائل الداخلية للأسفار اليهودية، ومقابلتها بجماع المعلومات التي يزودنا بها التنقيب الأثري، وهي معلومات ضئيلة لكنها آخذة في التزايد. والفئة التي استمرت في البقاء والتي تحتكر رواية قصة ما هي موضع جدل ـ هذه الفئة يكون لها تفوق كبير على الفئات التي انقرضت دون أن تترك حتى صيغة مناظرة لتلك القصة بحيث يمكنها أن تدحض الاولى. فلو كان ثمة أسفار فينيقية أو فلسطينية لكانت اختلفت بشكل درامي عن الأسفار اليهودية.

وهذه الأسفار التي بين أيدينا الآن تحتوي على عدد من الأفكار التي ما كان معاصرو اسرائيل ويهودا في سورية ليتقبلوها لا في الوقت الذي استقرت فيه هاتان الجماعتان هناك ولا في الزمن الذي تلا ذلك. وهذه الأفكار يقبلها الآن اما اليهود الأرثوذكس وإما أتباع واحد من الدينين اللذين ورثا اليهودية أي المسيحية والإسلام. والفكرة الأولى هي أنَّ إله اليهود يهوه هو قائم وهو الإله الحق الأوحد، وهو خالق الكون وسيده. والفكرة الثانية هي أن يهوه اختار الإسرائيليين ليكونوا، بمعنى خاص، شعبه الخاص. وقد أكد يهوه هذا الاختيار بواسطة عهد، أو سلسلة من العهود، مع الإسرائيليين. وأنهم هم وآباؤهم الأبعدون كانوا، من وجهة نظرهم، موحدين من أيام ابراهيم (ربما في القرن الثامن عشر ق.م .)، مع أن يهوه لم يظهر بنفسه لهم إلا في أيام موسى (ربما في القرن الثالث عشر ق.م .).

لا تاريخ المدنية السورية، ولا تاريخ البشرية والكون يمكن أن يفسره مؤرخ في حدود هذه الأفكار، إلا إذا كان المؤرخ أرثوذكسيا في اتباعه لواحد من الأديان المذكورة. إلا أن المؤرخ غير المتدين يتحتم عليه أيضاً أن يستعمل العهد القديم على أنه مصدره الرئيس لتاريخ المدنية السورية. ولن تسلم لا الصيغة اللادينية ولا الصيغة الارثوذكسية لهذه الفترة

من جدل عنيف حولها ـ وهذا الأمر مدعاة للأسف ـ لأن هذا الفصل من تاريخ سورية كان له أثر عميق على التاريخ اللاحق لنصف الجنس البشري تقريبا.

إن مثل هذا التحذير هو تمهيد ضروري لوصف تاريخ المدنية السورية الذي يقدمه مؤرخ غير متدين؛ إنه لا يستطيع أن يقبل الأفكار الارثوذكسية، ويجب عليه أن يبذل جهده لينظر في مسيرة الأحداث نظرة موضوعية، ويجب عليه أن يعرض صيغته الخاصة للقصة دون جدل عنيف.

لقد نكبت سورية، بسبب انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م. بدرجة القسوة نفسها التي نكبت بها آسية الصغرى وحوض البحر الإيجي. فالكارثة من حيث الدمار المادي والتبديل في تركيب السكان لم تكن هناك أخف منها هنا. وعلى كل فقد عادت الحياة الى سورية من الخراب المشترك الذي ألم بالجميع بأسرع مما حدث في تينك المنطقتين. فقد كانت المدنية ضربت جذورا أعمق في سورية قبل أن يصيبها انسياح الشعوب. إذ أن كلتا المدنيتين السومرية الأكدية والمصرية كان قد مر عليهما قرابة الفين من السنين وهما تتسربان إلى سورية، وكانت هاتان المدنيتان الأجنبيتان متغلبتين إلى حد أنهما لم تمكنا سورية من خلق مدنية أصيلة خاصة بها، حتى فقدت كل من مصر وبلاد بابل الكثير من الحيوية. إلا أن سورية كانت، حتى قبل الثوران الذي عم المشرق نحو سنة ١٢٥٠ ق.م.، قد بدأت تظهر قدرتها الوطنية على الخلق. فقد خطت خطواتها الأولى لاختراع حروف الهجاء، وقد أصبحت هذه الآن بأشكالها المختلفة كتابة العالم بأكمله، باستثناء اسية الشرقية.

نحو سنة ١٥٠٠ ق.م.، او حتى قبل ذلك، كانت قد حفرت نقوش، على الصخور القائمة في المناجم المصرية الموجودة في الجهة الغربية من شبه جزيرة سيناء في ما يسمى الكتابة السينائية؛ وهناك نقوش بالكتابة ذاتها عثر عليها في جنوب سورية. وقد قامت محاولات لحل رموز هذه المتون على افتراض ان الكتابة الفبائية وأن اللغة سامية. ولم تنل أي من هذه المحاولات لحل الرموز قبولا عاما بعد، ولكن إذا ثبت أن هذه الكتابة هي الفبائية، فقد ثبت أيضاً أن هذه هي الأصل المشترك للألفبائية الفينيقية والألفبائية السامية الجنوبية التي عرفت في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية (اليمن).

وتبدو بعض الحروف في الكتابة السينائية وكأنها موحى بها من الهيروغليفية المصرية. وفي الثلث الأول من القرن الرابع عشر ق.م.، صنف فينيقيو أوغاريت (رأس شمرا)

الواقعة على مقربة من الطرف الشمالي للساحل السوري، اعمالا أدبية بلغتهم واستعملوا « الفباء » مؤلفه من بعض حروف انتقيت من المجموعة السومرية الأكدية الضخمة من الرموز والفونيم. وهذه التجربة الفينيقية الأولى لاختراع كتابة ألفبائية لم تقو على مقاومة انسياح الشعوب (نحو ١٢٥٠- ٩٥٠). وأقدم النقوش المعروفة المدونة بالألفبائية الفينيقية التي اخترعت في ما بعد، والتي اشتقت منها كل الصيغ الألفبائية المعروفة اليوم، قد لا تسبق القرن الحادي عشر ق.م. وهذه الألفبائية الفينيقية الثانية التي قيض لها النجاح، قد اوحت بها الهيروغليفية المصرية، كما يدو من اسماء عدد من الحروف ومن أشكالها الأصلية. وقد استعار الفينيقيون، في ألفبئهم التاريخية، وفي ألفبائهم السابقة الجهيضة، حروفا من كتابة كانت مزيجا من رموز وفونيمات مقطعية. لكنهم، في كل مرة، كانوا يجعلون هذه الحروف صالحة للتعبير عن مجموعة من الأصوات التي شملت كل الحروف الصامتة الموجودة في لغتهم الخاصة بهم في اللغة السامية الكنعانية.

يمكننا ان نرى السبب في أن مخترعي الألفباء كانوا من المتكلمين بالسامية الذين رسخوا استقلالهم الحضاري عن المدنيتين القديمتين، المدنية السومرية والمدنية المصرية، وهما اللتان كانتا قد سيطرتا على الشعوب المتكلمة بالسامية من سكان الهلال الخصيب من قبل. إن الشعب المتكلم بالسامية الذي أصبح « ألفبائيا » أولا هم الأكديون، وقد فرض عليهم موقعهم الجغرافي ان يقتبسوا الكتابة السومرية وأن يستعملوها على الطريقة السومرية. إلا أن الكتابة المكونة من مزيج من الرموز والفونيم لا يتفق تركيبها مع تركيب لغة سامية. فجذر الكلمة السامية يتكون من ثلاثة حروف صامتة، وهي التي تحتفظ بهويتها وترتيبها خلال ما يطرأ عليها من تعديل في المعنى الذي ينشأ من وضع بادئة أو لاحقة للكلمة، أو بإضافة حروف علة أو حذفها. نتركيب أية لغة سامية يقتضي اختراع كتابة بحيث تمثل الحروف كل الحروف الصامتة في اللغة والتي يكون مجموع الحروف فيها محدودا بالعدد الذي تحتاجه هذه المجموعة المحدودة من الحروف الصامتة لتصويرها.

لسنا نعرف أي لغة كان يتكلمها سكان المغاور في جبل الكرمل في العصر الحجري القديم، أو مؤسسو اريحا من أهل العصر الحجري الحديث. لكن لم تترك اية لغة سابقة للغة السامية أي أثر في بلاد الشام. وكل الهجرات للشعوب غير المتكلمة بالسامية - الحوريين في القرن الثامن عشر ق.م. والفلسطينيين واللاجئين الحثيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد - وازنها دخول جماعات جديدة ضخمة من المتكلمين

بالسامية ـ على سبيل المثال كان هناك العموريون الذين وصلوا في أواخر الألف الثالث ق.م. والعبرانيون والآراميون الذين جاؤوا في القرن الثالث عشر ق.م.. والكنعانية، التي كانت أقدم لغة سامية في بلاد الشام، كانت تنتقل بالعدوى. فقد تقبلها المهاجرون الذين لم تكن لغة الأم عندهم لغة سامية ـ مثل الفلسطينيين ـ كما تقبلتها الشعوب التي كانت لغتها سامية لكنها لم تكن كنعانية. فالعموريون، وبعدهم العبرانيون (في مؤاب وعمون وإسرائيل ويهودا وأدوم) أصبحوا جميعا يتكلمون الكنعانية، مع أن المفروض أن العبرانيين كانوا أصلا يتكلمون لغة سامية مختلفة ولكنها قريبة من اللغة التي تكلمها الآراميون الذين دخلوا بلاد الشام في زمن انسياح الشعوب ذاته. والآراميون وحدهم، وهم الذين استوطنوا في اواسط بلاد الشام وشمالها وفي الجزيرة الفراتية، لم يقبلوا اللغة الكنعانية. وقد قبسوا الألفباء بسرعة ـ ويقدر تاريخ أقدم نقوش ارامية معروفة نحو سنة ٨٥٠ ق.م .ـ لكنهم لم يستعملوها لكتابة اللغة الكنعانية، وهي التي اخترعت الألفباء اصلا لاستعمالها. لقد قبسوا الألفباء لاستعمالها لغتهم الآرامية السامية الخاصة بهم.

وهكذا فإن احدى الصفات المشتركة للمدنية التي ظهرت في بلاد الشام بعد انسياح الشعوب (نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م .) كانت استعمال الألفباء لكتابة اللغات السامية المحلية. ومن بين هذه اللغات الوطنية احتفظت اللغة الكنعانية بسيطرتها في الفترة الواقعة نحو ٩٥٠ـ ٧٥٠ ق.م. وكانت ثمة صفة أخرى مشتركة للمدنية السورية هي ديانتها. فقد أصبحت بلاد الشام بلادا زراعية قبل القرون الأخيرة من الألف الثاني ق.م. بوقت طويل، وأصبح المهاجرون من البدو والرعاة زراعا بسرعة حين استقروا في الأرض السورية. والأعياد الخاصة بالسنة الطقسية اليهودية يفترض فيها الآن أنها تحيي ذكرى أحداث (صحيحة كانت أم أسطورية) في تاريخ الإسرائيليين؛ إلا أن هذه الأعياد تحمل في طياتها أنها كانت أصلا احتفالات لمواسم تتكرر سنويا، وكانت مرتبطة بحياة جماعة زراعية وعملها.

كانت الزراعة أصلا نشاطا دينيا كما كانت نشاطا اقتصاديا. فالغاية الرئيسة للديانة الزراعية هي أن ترعى خصب النباتات والحيوانات المدجنة ومثلها خصب الكائنات البشرية التي كانت تحصل على قوتها بالعيش في تكامل مع أصناف الحياة الأخرى هذه. وفي اكثر الجماعات الزراعية الموجودة حول العالم نجد أن أحد الوصفات لإثارة الخصب كانت من السحر المرتبط بالجنس. وقد كان هذا الأمر لا يزال استعماله شائعا في بلاد

الشام في الألف الأخير ق.م.. وثمة تعبير آخر عن الديانة الزراعية، التي شاركت فيه بلاد الشام مناطق أخرى في المشرق، هو الأسطورة والطقس المتعلقان بالإله الذي يموت عند الحصاد لكنه يعود الى الحياة عندما تطلع نباتات السنة التالية براعمها. والإله الذي كان يموت ليبعث ثانية كان يسمى تموز في سومر وأكد، وأتيس في آسية الصغرى، وأوزيريس في مصر الفرعونية، وأدوناي (سيدي) في بلاد الشام، واسمه الآخر بعل (ومعناه ايضا السيد) وذلك في أوغاريت القرن الرابع عشر ق.م.. ولا بد أن أسطورة الإله الذي يموت وقصة الطقس المرتبط بذلك كان لهما أصل مشترك. فأوجه الشبه بين الصيغ الإقليمية المتعددة متقاربة إلى حد لا يسمح لها بأن تكون وليدة المصادفة.

كان تقديم الضحايا البشرية، في كل المدنيات وحتى يومنا هذا، يتم عن طريق الحرب. ومنذ أن اخترع الطيران لم تعد ضحايا العمليات الحربية تقتصر على الجنود الذين يسقطون في ميدان المعركة وعلى سكان المدن المدنيين الذين يقتلون بسبب الهجوم الصاعق. لكن كثيرا من الشعوب التي كانت تفخر بالحروب التي تشنها، كانت، والأمر يبدو غير منطقي، تصاب بصدمة بسبب الضحايا التي يجهز عليها في أيام السلم، سواء كانت الضحايا خداما للملك الذين كانوا يحملون على مرافقته إلى عالم الموتى القصي، أم كانت بواكير أبناء مؤمن متحمس كان يأمل أن يحمل إلها ما ان يستجيب لصلاته، بسبب أنه قدم لهذا الإله أثمن ما يمكن من التضحية. ويبدو أنه ليس ثمة ما يدل على أن أيا من شكلي التضحية البشرية اللاحربية هذه قد عرف في مصر الفرعونية، كما أن قتل خدم الملك المتوفى قد تخلى القوم عنه في سومر بعد الأسرة الأولى في أور. ويبدو أن عملية حرق الأطفال أحياء كانت امرا خاصا ببلاد الشام والجاليات التي كانت تابعة لها في ما وراء البحار، وذلك في الألف الأخير ق.م. في العالم القديم. فقد قدم ملك ميشع المؤابي أحد أبنائه لما كانت عاصمة مملكته يحاصرها حلف من اعدائه نحو سنة ٨٥٠ ق.م. وقد قدم ملك يهودا أحاز ابنه ليهوه نحو سنة ٧٣٥ ق.م. في ظروف مشابهة لتلك، وقد فعل ذلك أحد خلفائه واسمه منسى (حكم ٦٨٧- ٦٤٢ ق.م .)

وقد شاركت بلاد الشام، في الألف نفسه، ظاهرة دينية مع بعض المناطق المشرقية الأخرى، وهي وجود النذير. (ان الكلمة اليونانية بروفيتس Prophetes التي تترجم بها الكلمة الكنعانية نبي، تعني النذير لا المتنبىء، مع أن رسالة النذير قد تكون إرشادا). وقد كان النذير أصلا يتكلم وهو في حالة وجد. وأقدم مثل مدون بالنسبة إلى بلاد الشام

كان ذلك الذي شاهده وينامون المصري في جبيل (بيبلوس) نحو سنة ١٠٦٠ ق.م.. فقيما كان ملك جبيل (بيبلوس) يقدم الضحية أصابت احد رجاله حالة وجد، وبينما كان في هذه الحالة السيكولوجية تلفظ بأمر يتعلق بوينامون، كان من نتيجته أن تبدل حظ هذا الأخير. وقد تلقف شاوول، في اليوم الأول من حياته السياسية، وذلك قبل نهاية القرن الحادي عشر ق.م. فئة من النذر المصابين بالبحران، ولم يتمكن من التخلص من هذه الحالة النفسية التي أصابته في تلك المناسبة. وقد كانت هذه الحالات العنيفة تلازم شاوول بين الفينة والفينة في ما تبقى من عمره.

وهذه الظواهر التي عرفتها بلاد الشام كان لها نظائر في العالم الإغريقي. والنذير الذي كان في حاشية ملك جبيل (بيبلوس) هو نظير للبيثيا التي كانت تنطق بالوحي في دلفي وللعرافات التي قامت بمثل هذه الأدوار في المدن ـ الدول الهلينية الأخرى. وفئة النذر التي كانت تتجول وهي في هذيان يرافقه توقيع موسيقي، والتي أصابت شاوول بعدوها، تشبه فئة هلينية من الباخوسيين. وقد يكون المصدر المشترك لهذه الأمثلة من الظاهرات النفسية التي عرفتها بلاد الشام والعالم الإيجي هو أواسط آسية الصغرى. فقد كان المؤمنون من أتباع الآلهة سيبيل، وهي أم أنيس وزوجته، يمارسون هناك الارشاد الجماعي في حالة هذيان مصحوب بالموسيقى، وذلك في العصر السابق للمسيحية.

كانت بلاد الشام يتقسمها سياسيا عدد من الإمارات الصغيرة لما ضمت إلى الإمبراطورية المصرية في القرن الخامس عشر ق.م.. وقد كان أول أثر لانسياح الشعوب نحو ١٢٥٠- ٩٥٠ هو حل هذا التضامن السياسي السطحي الذي وجد هناك تحت حكم دولة أجنبية. وفشلت عندها السيطرة السياسية المصرية في الجنوب والسيطرة الحثية التي كانت قد حلت محل السيطرة المصرية في الشمال، وعادت بلاد الشام إلى تمزق سياسي بحيث أن هذا تجاوز الانقسام الذي كان سائدا في العصر السابق لأيام الفاتح المصري تحتمس الثالث. والمهاجمون الذين استقروا في بلاد الشام اثناء انسياح الشعوب لم يؤسسوا دولا وطنية وحدودية هناك. فالفلسطينيون، على سبيل المثال، أقاموا خمس دول ـ مدن مستقلة في الجزء الجنوبي من الأراضي الساحلية، والإسرائيليون، الذين احتلوا المرتفعات، كانوا مكونين من قبائل كانت تربط بينها عبادة إلههم القومي يهوه، لكنها كانت معزولة جغرافيا واحدتها عن الأخرى بالمناطق التي لم تحتل، والتي حافظ فيها الكنعانيون على استقلالهم. وقد استمرت الدول ـ المدن الفينيقية القديمة في الجزء الأوسط

من الساحل وكانت حالتها أقل قلقا. وقد كانت سلسلة جبال لبنان التي لم تكن قد عريت بعد من أحراجها تحميهم من المهاجمين.

أما في شمال بلاد الشام فقد أنشأ اللاجئون الحثيون عددا من الإمارات المحلية المستقلة. والوحدة السياسية الحثية لم تقم لها قائمة بعد سقوط الإمبراطورية الحثية في آسية الصغرى. وهكذا فان المدنية السورية بدأت مسيرتها المدنية في حالة تمزق سياسي. وبعدما أخذت الشعوب المهاجرة بالاستقرار، قامت في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م. محاولتان متاليتان، من الجنوب، لتوحيد بلاد الشام سياسيا، لكن المحاولتين باءتا بالفشل.

في القرن الحادي عشر ق.م. قهر الفلسطينيون القبائل الإسرائيلية المقيمة في الأراضي الواقعة إلى الشرق منهم. وقد كان الفلسطينيون مزودين بالسلاح تزويداً جيدا، كما أن دويلاتهم الخمس عملت متحدة لكن نقص القوى البشرية عندهم جعل سيطرتهم على الإسرائيليين المقهورين صعبة، ولذلك فإنهم حاولوا أن يجردوهم من سلاحهم ماديا واديا. وقد كان الرمز الذي يمثل عبادة يهوه عند الإسرائيليين بعامة، والوعاء المادي الذي يحتضن القوة التي كان من المعتقد أن تظهر على أيدي هذا الإله، كان صندوقاً ينقل من مكان إلى آخر (وهو تابوت العهد)، الذي كان بقية من المرحلة البدوية من حياة الإسرائيليين. وقد أسر الفلسطينيون التابوت وحملوه إلى بلادهم، إلا أن وجوده بينهم أنزل بالمدن الفلسطينية مصائب كبرى، بحيث ان الفلسطينيين أخرجوه من ديارهم. وقد جرد الفلسطينيون الإسرائيليين من سلاحهم مادياً بأن حرموهم من الحدادين. وسمحوا لهم بأن يحتفظوا بالأدوات الزراعية المعدنية (إذ لو أنهم جردوهم من هذه الوسائل التي تمكنهم من استغلال اراضيهم الصخرية، لما تمكنوا من الحصول على الضرائب المفروضة والتي كانت عينية). لكنهم فرضوا على الإسرائيليين ان يشحذوا أدواتهم عند الحدادين الفلسطينيين، وذلك كي يضمنوا ان لا يكون في اسرائيل حدادون يستطيعون ان يصنعوا أسلحة من الأدوات. وقد ردت القبائل الإسرائيلية على ذلك بأن وضعت نفسها تحت قيادة موحدة بامرة ملك، وكان هذا الملك هو شاوول، من قبيلة بنيامين. وكان هذا، بالنسبة للإسرائيليين، تجديداً سياسياً أثار جدلا كبيراً، ولم يوصلهم الى التحرير السريع. وقد سقط شاوول في أرض المعركة. وانتهى الأمر بالفلسطينيين إلى أن غلبوا وأجلوا عن الأرض الإسرائيلية على يد داوود، الذي كان من قبيلة يهودا وكان قائدا لشرذمة من المخربين. وقد حافظ الفلسطينيون على استقلالهم الى سنة ٧٣٤ ق.م، لما احتل الملك

تغلت فليسر الثاني الأشوري بلادهم. وهكذا فقد اضاعوا فرصة توحيد سورية سياسيا تحت حكم فلسطيني.

تمكنت قبيلة يهودا من توحيد جنوب سورية مؤقتا بقيادة داوود، باستثناء بلاد الفلسطينيين، بحيث وصلوا شمالا في الداخل الى الطرف الشمالي لسلسلة لبنان الشرقية (انتيلبنان) وإلى شمالي دمشق. وأدى انتصار داوود الحاسم على الفلسطينيين الى الحصول على ولاء كل القبائل الإسرائيلية (ذلك بأن الإسرائيليين بقبولهم شاوول ملكا عليهم، كانوا قد قبلوا بتوحيدهم السياسي في ملكية). وقد كسب داوود ايضا، بسبب انتصاره الحاسم على الفلسطينيين، صداقة صور. (ولم يكن الفينيقيون يحبون جيرانهم المهاجرين القاطنين الى الجنوب اي الفلسطينيين). وتغلب داوود على بقية العبرانيين والأدوميين والمؤابيين والعمونيين، كما احتل أيضا إمارتين اراميتين هما دمشق وزوباح، الأمر الذي اكسبه صداقة حماه، وهي أقصى إمارة أقامها المهاجرون الحثيون في شمال سورية.

ترك داوود إمبراطوريته لابنه سليمان. وقد امتد حكم الإثنين، الأب والأبن، من نحو سنة ١٠٠٠ الى سنة ٩٢٢ ق.م. لكن هذه الإمبراطورية التي أقامتها قبيلة يهودا كانت، مثل إمبراطورية الفلسطينيين السابقة، سريعة الزوال. فقد كانت يهودا (القدس) صغيرة رقعة، ومتأخرة حضاريا، وغير مناسبة من حيث موقعها الجغرافي، بحيث تتمكن من الحفاظ على ما احتله داوود. فثارت دمشق وأدوم وتحررتا في حياة سليمان، وبعد وفاته انشقت القبائل الشمالية وانشأت مملكتها الخاصة بها (إسرائيل). وقد كانت مملكة إسرائيل أقوى من مملكة يهودا، لكنها لم تكن لها من القوة ما يحول دون استقلال عمون ومؤاب. وكل ما تبقى من إمبراطورية داوود وسليمان، إضافة الى أرض قبيلة يهودا بالذات، هو الجزء الواقع في أقصى الجنوب من أرض قبيلة بنيامين، ومدينة القدس الكنعانية، التي كان داوود قد احتلها واتخذها عاصمة لمملكته.

والنتيجة الدائمة الهامة لإقامة امبراطورية على يد داوود كانت ضم الجيوب الكنعانية التي كانت قد حافظت على استقلالها داخل اراضي القبائل الإسرائيلية، إلى يهودا وإسرائيل ومزجها سياسيا وحضاريا. وقد كانت بين هذه الجيوب واهمها حضاريا القدس، المدينة اليبوسية السابقة التي أصبحت عاصمة يهودا، وأهمها اقتصاديا سهل مرج ابن عامر، الذي اصبح المستودع الاقتصادي لمملكة إسرائيل. والكنعانيون الذين حافظوا على

وجودهم داخل سورية لعلهم اتحدوا مع إسرائيل ضد الفلسطينيين، او لعل داوود قد تغلب عليهم بالقوة العسكرية التي انشأها. وعلى كل حال فإن استيلاء داوود على السكان الكنعانيين واتفاقه مع المدن ـ الدول الفينيقية الكنعانية المستقلة، أدتا الى تمثل تام بين القبائل اليهودية والقبائل الاسرائيلية. فمنذ القرن العاشر ق.م. أصبحت يهودا وإسرائيل جزءاً أصيلا من المجتمع الذي ظهر عقب انسياح الشعوب والذي كان في طريقه لأن تكون له صيغة خاصة في سورية.

كان كل من إمبراطورية الفلسطينيين وامبراطورية يهودا ظاهراً عابراً؛ أما الإنجازات الحضارية والاقتصادية التي تمت على أيدي الكنعانيين فقد كانت ثابتة. ففيما كان الفلسطينيون ويهودا يقيمون إمبراطورية ويخسرونها كان الفينيقيون يخترعون الألفباء. كما كانوا ايضا يطورون فنا تجاريا مولدا، مصري الأسلوب بعامة، لإنتاج مصنوعات للتصدير. فقد قدم أحيرام ملك صور إلى سليمان المساعدة الفنية والتكنولوجية التي كان بحاجة اليها لبناء هيكل ضخم ليهوه في القدس. واشترك الملكان في تأسيس تجارة بحرية في المحيط الهندي، كانت ميناء سليمان على رأس خليج العقبة منطلقها. وكان الجمل العربي قد دجن قبل ذلك. وتم هذا الإنجاز التاريخي بعد دخول العبرانيين والآراميين إلى سورية. لكن ثمة ما يدل على أن حملة بدوية قام بها جمّالون من الجزيرة العربية الى سورية، وقد ورد ذكرها في وثائق تعود الى وقت مبكر في القرن الحادي عشر ق.م. إن تدجين الجمل جعل بدو السهوب العربية أشد خطرا على جيرانهم المتحضرين من ذي قبل، الا ان هذا الإنجاز في التدجين جعل اجتياز السهوب نفسها أيسر على الناس. وقد كان أحد آثار هذا الشيء ان انتشر أثر المدنية السورية، عبر بلاد العرب الى المرتفعات الخصبة الواقعة في الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة.

ضم اليمن حضاريا الى سورية يؤكده العمل المشترك الذي قام به أحيرام وسليمان لفتح الطريق البحري عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندي. لسنا ندري فيما إذا كانت ملكة سبأ قد زارت سليمان حقا، وحتى فيما لو كانت القصة الشهيرة ليست تاريخا مؤكدا، فإن القرن العاشر ق.م. هو الزمن المقبول لبدء العلاقات التجارية بين سورية واليمن. ويبدو من الواضح أن البحر الأحمر أصبح الآن بحيرة سورية بعدما كان بحيرة مصرية لنحو الفي سنة.

إن انقسام امبراطورية سليمان لم يمنع الدول التي خلفتها من الاتجار في ما بينها. وقد

كانت دولتا دمشق واسرائيل متساويتين في لقوة، وكانت الحرب سجالا حول أرض تقع عبر الاردن، وكانت موضع الخلاف. ولم تكن الحروب حاسمة، ولكن الجزء الذي نتج عن تناوب الانتصارات الموقتة كان إقامة علاقات تجارية دائمة. فاذا قيض لدمشق أن تكون لها اليد العليا فانها كانت تفرض على إسرائيل ان تخصص حيا في عاصمتها السامرة للتجار الدمشقيين، وإذا أتيح لإسرائيل بالتالي أن تنتصر على دمشق، كانت تجبر دمشق على تخصيص حي فيها للتجار الاسرائيليين. ومع ذلك فإن انقسام امبراطورية سليمان أدى الى أن أصبح طريق صور إلى رأس خليج العقبة معرضا للخطر، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي حملت الفينيقيين على البحث عن مجال آخر لتوسعهم البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

قبل نهاية القرن العاشر ق.م. كانت اسرائيل ويهودا قد أخذتا انفسهما بوضع أدب مكتوب باللغة الكنعانية وقد دوّن بالالفباء الفينيقية. والكتابات اليهودية الدينية تتكون من أنواع مختلفة. فهناك الأسطورة والدعاء والشعر العامي والتاريخ والتشريع والأمثال الحكمية وآثار الأنبياء. ويبدو أن الأخبار التاريخية عن داوود وسليمان معتمدة على قيود رسمية كانت تقريبا معاصرة للأحداث. وقد تكون آثار نبي من الأنبياء قد دونها تلاميذه، وليس بالضرورة أن يكون النبيّ نفسه قد فعل ذلك. وقد ينال أحد كتّاب هذا النوع منزلة كبيرة، مثل اشعياء ـ وعندها قد تضاف إليه زيادات متتالية يقوم بها مؤلفون متأخرون مجهولون، فيما يستعملون اسم النبي الأصلي. فالأجزاء التاريخية من التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) وكتب الأنبياء هي أعمال أدبية إسرائيلية ويهودية اصيلة. لكن حتى الوثائق الموثوق بها التي تحوي آثار الأنبياء، والتي هي اصلا شخصية وفردية، ثبت أنها تحوي إشارات الى الأدب السابق للاسرائيليين، وقد اتضح هذا إذ ظهر بعض هذا الأدب الى الوجود.

إن بعض الأساطير الواردة في التوراة ـ مثل قصة الطوفان ـ هي ذات أصل سومري، وقد انتقلت عن طريق الأكديين والكنعانيين. والشريعة المسماة شريعة موسى إنما هي نسخة من مدونة القانون السومري الأكدي، وقد اكتشفت مؤخرا النسخ البابلية والأشورية والحثية منها. والنسخة البابلية هي القانون الذي جمعه حمورابي. وقد ظهر من اكتشاف النصوص الأدبية الفينيقية المدونة بالكتابة الأوغاريتية التي تعود الى القرن الرابع عشر ق.م.، ان المزامير إنما وضعت على نمط الترنيمة الكنعانية الأقدم عهدا، وان الفصول

(الإصحاحات) الثامن والتاسع من سفر الأمثال انما هي ذات أصل كنعاني. وأمثال غيرها في هذا السفر هي نص يكاد يكون حرفياً للحكم الواردة في نصائح اينموب، وهو كتاب مصري لعله صنف في القرن الرابع عشر ق.م. وقد وضع تحت تأثير أدب مصري من النوع نفسه، ولكنه أقدم عهدا. ولنا أن نخمن أنّ الأمثال المصرية هذه وصلت الى الإسرائيليين بوساطة الفينيقيين.

ومعنى هذا أنه كان تبادل أدبي، كما كان ثمة تبادل تجاري، بين الدول السورية في الفترة التي تلت عصر سليمان. وقد كان مضمون جزء من الأدب الذي عبر الحدود السياسية دينيا، ولا بدَّ أن هذا أدى إلى اتساق في الصلوات التي استعملت في عبادة الآلهة المحلية. لقد كان لكل جماعة محلية إلهها الخاص الذي كان المواطنون يشعرون بأنهم مدينون له بالولاء الأول. لكن هذا الولاء لم يكن بالضرورة على وجه الحصر. فكل جماعة كانت تؤمن بقوة آلهة الجيران، على نحو ما كانت تعتقد بقوة إلهها الخاص بها. وقد كان ثمة اعتقاد عام بأن كل إله محلي كان أقوى من الآلهة الأخرى جميعها، وذلك في حدود ملك الإله المحلي الخاص به. ففي اواسط القرن التاسع ق.م.، إذ كانت إسرائيل ويهودا وأدوم تحاصر ميشع ملك مؤاب في عاصمة ملكه، قدم ميشع ابنه الأكبر ضحية على أسوار المدينة لإله المؤابيين شموش، وعندها فك الحلفاء الحصار وانسحبوا. لم يكن المهاجمون ممن يعبدون شموش ولكنهم كانوا يعتدون على ملك شموش، ولم يعتقدوا بأن إلههم الخاص بهم يستطيع أن يحميهم إذا كان شموش، بسبب العمل الذي قام به ميشع، قد يتقدم لمساعدة ميشع.

كانت إحدى الوسائل التي تمكن للآلهة الأجنبية من الدخول الى حمى الإله المحلي هي الزواج بين أعضاء البيت المالك وأميرات أجنبيات. هذه المعاهدات السياسية المتصلة بالزواج كانت تمهد للعلاقات الودية بين الدول. فقد تزوج سليمان عددا من النساء الأجنبيات املا في دعم إمبراطوريته، التي كانت في طريق الإنهيار. وقد كان من الحقوق المألوفة أن تأتي الزوجات الأجنبيات بآلهتهن الخاصة بهن، أن يرافق الآلهة فريق من كهنة الآلهة الأجنبية وانبيائها. وقد لام عباد يهوه في يهودا واسرائيل سليمان بعد وفاته لأنه أدخل ألهة زوجاته الأجنبيات، الا ان معاصريه من هؤلاء العباد لم يثوروا عليه. لكن أخاب ملك إسرائيل (حكم نحو ٨٦٩- ٨٥٠ ق.م .) لقي المتاعب لما أدخل الى السامرة إله زوجته ايزابل الصيدونية بعل (الرب) مع أنبياء بعل وكهنته. ومع أن العمل

الذي اتبعه أخاب كان عرفا دوليًا مقبولا، فقد قاومه النبي الإسرائيلي المقيم عبر الأردن إيليا، وذلك نيابة عن يهوه. وتمكن خليفة إيليا الذي اختاره بنفسه وهو أليشع أن يدبر ثورة ضد الملك يحورام ابن أخاب بين أفراد الجيش الإسرائيلي الذي كان معسكرا في جلعاد، على الحدود بين إسرائل ودمشق. فقد أرسل أليشع أحد تلاميذه ليجعل ياهو، القائد المحلي، ملكا. ولما أصبح وجود ياهو شرعيا سار الى يزرعيل، حيث كان يحورام يتعافى من جراحه، وقتل ياهو يحورام نفسه والملكة الأم ايزابل وجميع الأفراد الباقين من أسرة الملك السابق أخاب وحاشيته وبعض الزوار من أسرة داوود الملكية من يهودا وجميع الإسرائيليين الذين كانوا يعبدون بعل الصيدوني.

ان تصفية اسرة أخاب على ايدي ياهو، وهي التي اثارها أليشع، هي مثل على قوة الأنبياء السوريين. وقد كان هؤلاء الأنبياء يرعون الملوك. وكانت النوبات التي تصيبهم تعتبر دلالة على أنهم يتلقون رسالة إلهية. ومن ثم فإن الملك الذي كان يتحدى نبيا منهم كان يجازف في احتمال أن يثير الرأي العام ضده. ولم يكن الأنبياء، من جهة ثانية، يخشون القيام بعمل سياسي. وقد نظم أليشع ثورة في دمشق قبل ان يدبر ثورة في إسرائيل. وأول نبي سوري حفظ لنا التاريخ اسمه - وهو الذي قابله وينامون في جبيل نحو سنة ١٠٦٠ ق.م .- تدخل في قضية وينامون. لقد فشل اخاب وايزابل في السيطرة على أنبياء يهوه وبعل لأنهما كانا يحتفظان بجماعات منهم على حساب الدولة. إن الملك السوري، أي ملك، لم يكن يستطيع ان يضمن أن يكون كل نبي حي تحت السلطة الملكية.

إن نبي جبيل المذكور، والذي عاش في القرن الحادي عشر ق.م.، هو النبي السوري الوحيد الذي وصلتنا أخباره، وذلك خارج أنبياء إسرائيل ويهودا، وباستثناء الأنبياء الصيدونيين الذين كانوا في حاشية ايزابل، وهذه ثغرة في معرفتنا لتاريخ المدنية السورية. فلا شك ان الأنبياء قد استمروا بالظهور، بعد القرن الحادي عشر ق.م. بين الجماعات السورية الأخرى، خارج إسرائيل ويهودا. فالأنبياء، مثل التجار والعرائس الملكية وآلهة هذه العرائس، كان باستطاعتهم ان يجتازوا الحدود السياسية. فقد عمل إيليا في أرض الصيدونيين في صرفند، ولو أنه كان يمانع في أن يعمل الأنبياء الصيدونيون في اسرائيل. ودخل أليشع الى دمشق. وكان عاموس من يهودا لكنه عمل في إسرائيل.

من الظاهر أن القضية بين إيليا وأخاب كانت دينية. هل كان ليهوه - في

اسرائيل - فقط التقدم على بقية الآلهة الأجنبية أم أن يعبد وحده حصرا؟ ولكن كتابات انبياء القرن الثامن عشر ق.م. تشير إلى أن قضايا اقتصادية واجتماعية كانت تثار في هذه الأحاديث الدينية. كانت إحدى النتائج المترتبة على تزايد الاتصالات النشطة بين دول العالم السوري، وعلى عدد من المستويات المختلفة، أن ظهرت توترات وانفعالات في الحياة الداخلية لهذه الدول السورية التي كانت « متخلفة » اقتصادياً واجتماعياً. ففي مثل هذه الدول - ولنأخذ مملكة إسرائيل نموذجاً على ذلك - جرّبت « المؤسسة » المحلية ان تقلد طريقة الفينيقيين في الحياة، وهي حياة كانت تتغلب فيها التجارة على الزراعة، وكانت سلطة المال تتفوق على الحقوق المعترف بها، فكانت النتيجة في بلد مثل إسرائيل، تبدلا كاد أن يكون ثورياً في توزيع الثورة بحيث وقع الحيف على الكثرة الفقيرة من السكان. ويبدو هذا واضحاً في ما كتبه النبي عاموس الذي كان يعمل في النصف الأول من القرن الثامن ق.م.

في أيام عاموس ازدادت حدة الأزمة الاجتماعية في العالم السوري بسبب الإنجاز الثاني الكبير الذي حققه الفينيقيون. كان الفينيقيون قد اخترعوا حروف الهجاء (الالفباء) في القرن الحادي عشر. وفي الفترة التي خف فيها الهجوم الأشوري بين سنتي ٨٢٧ و ٧٤٥ ق.م.، أقام الفينيقيون علاقات تجارية مع سردينية وشمال إفريقية وجنوب إسبانية، وبدأوا بانشاء مستعمرات في الحوض الغربي للبحر المتوسط. ولعل هذا الإنجاز الاقتصادي كان مما أدى إلى اضطراب اجتماعي في الدويلات الفينيقية بالذات؛ وكتابات عاموس هي دلالة واضحة على تأثير ذلك في إسرائيل. ولعل الشرور الاجتماعية التي كان عاموس ينكرها على الناس قد كانت مما أنكره إيليا على اخاب وايزابل. ولعله مما يلفت النظر هو أن إيليا كان من سكان عبر الأردن - وهي منطقة لم تكن الزراعة قد تغلبت فيها على حياة الراعي البدوي. ففي القرن التاسع ق.م. كان من الممكن أن تصعق الحياة في السامرة ويزرعيل رجلا تشبيا (اي من جلعاد)، هذا دون الخوض في حياة صور وصيدون.

إن انبياء إسرائيل الذين وصلتنا أقوالهم مدونة كانوا معنيين بالديانة وقضايا العدل الاجتماعي الداخلية والعلاقات الدولية. وهذه الأمور جمعاء إنما هي ثلاثة مظاهر لقضية اساسية واحدة.

١٨ـ المدنية الهلينية نحو ١٠٥٠ـ ٧٥٠ ق.م.

خلال القرون الثلاثة المنتهية بنحو سنة ٧٥٠ ق.م. كان السوريون قد اخترعوا الألفباء، وكانوا قد اكتشفوا سواحل الحوض الغربي للبحر المتوسط واستعمروها، وكانوا قد انتجوا أعمالاً أدبية ذات قيمة بما في ذلك أقدم ما دون من أقوال نبي. وإذا كان العبرانيون والآراميون كانوا أميين أيام استقرارهم في سورية، فإنهم لم يلبثوا أن قبسوا الكتابة الجديدة التي كانت كتابة السكان الكنعانيين الذين استقروا في ما بينهم. وليس ثمة ما يدل على أن الكنعانيين لم يستمروا في الكتابة باللغة الأكدية والخط السومري إلى أن أخذوا أنفسهم بالكتابة بلغتهم مستعملين الخط الجديد، الذي اخترعوه لأنفسهم. وعلى النقيض من ذلك فإن الإغريق، على ما يبدو، توقفوا عن استعمال الخط ب B بعد النكبة التي أصابتهم نحو سنة ١٢٠٠ ق.م.؛ وهم لم يقتبسوا الألفباء من الفينيقيين إلا نحو سنة ٧٥٠ ق.م.. وهكذا فإن الإغريق قد تأخروا نحو قرنين عن العبرانيين والآراميين في اقتباس الألفباء. فقد ظل الأغارقة أميين ما يقرب من ٤٥٠ سنة.

وهذه السنوات الأربعمئة والخمسون تمثل، بالنسبة الى حوض البحر الإيجي، عصراً مظلماً من ناحيتين: لم تنتج اية قيود مكتوبة، والحضارة المادية كانت في الحضيض إذا ما قورنت بما سبقها من نتائج العصر المينوي الميكاني وما تلاها في العصر الهليني. ومع ذلك فإن الأغارقة كانوا، خلال هذه العصور المعترضة المظلمة، يتلمسون طريقهم نحو ما يمكن أن يعد من أعظم إنجازاتهم المقبلة. فتطور أسلوب الفخار السابق للأسلوب الهندسي والأسلوب الهندسي نفسه، كانا مقدمة للفنون الهلينية المتطورة على اختلاف أنواعها. وتطور الشعر الملحمي الإغريقي المروي كان مقدمة لإنتاج جماع الأدب الإغريقي الهليني والأدب اللاتيني الذي كان نتيجة وحي من الأول. إن تطور شكل المدينة ـ الدولة على أنها الشكل السياسي في العالم الإيجي في هذا العصر المظلم، لم يكن إنجازا خاصاً

بالإغريق. فقد ظهرت المدن ـ الدول في سومر قبل ذلك بنحو الفي سنة، وقد كانت على الأقل واحدة من المدن ـ الدول الفينيقية أي جبيل، قديمة كقدم نيبور وأوروك وأور. وعلى كل فإنّ الشكل الخاص من المدينة ـ الدولة الذي طوره الأغارقة في حوض البحر الإيجي بعد سقوط امارات العصر الميكاني، أصبح تدريجاً النموذج المعترف به لحوض البحر المتوسط بكامله، وكذلك في مناطق تقع شرقي نهر الفرات.

إن حل رموز الوثائق المدونة بالخط ب أظهرت لنا الفرجة في الأنظمة السياسية الإغريقية بين العصر الميكاني والعصر الهليني. إن الإمارات الإغريقية الميكانية كانت نماذج مصغرة لامبراطورية سومر وأكد ومصر الفرعونية. وكانت إدارتها تقوم على تسلسل وظائفي تشرف عليه « مؤسسة » مهنية تعرف الكتابة. لكن هذه المدن ـ الدول لم تكن لا كبيرة ولا غنية بما فيه الكفاية لتتحمل بيسرٍ عبء هذه البنية الإدارية العملاقة، ومن ثم فإن الثقل في الوظائف العليا كان أحد أسباب سقوطها. والمدن ـ الدول التي قامت من بين انقاضها كانت أقدر على مواجهة الواقع الاقتصادي الإقليمي. فالمدينة ـ الدولة الهلينية النموذجية كانت، واستمرت على ذلك عبر التاريخ الإغريقي الروماني، جماعة زراعية صغيرة. وقد كانت اراضيها يحدها نصف قطر يمكن اجتيازه مشيا في نصف يوم من السوق أو القلعة، اللذين كانا نواتها. وهذه الجماعة كادت أن تكون، من الناحية الاقتصادية، مكتفية ذاتيا. وكانت تجارتها، التي لا بد من امتدادها خارج حدودها، على أدنى حد، وكانت حكومتها الداخلية بسيطة. ولم تكن ثمة مرتبات للوظائف العامة أصلا، فترتب على ذلك أن النفوذ السياسي كان حِكراً على الموسرين من أصحاب الأراضي.

ان الفرق بين الإمارة الميكانية والمدينة ـ الدولة الهلينية القديمة هو أمر بارز تماماً، إلا أنه ليس ثمة ما يدل على انقطاع مقصود عن الماضي بالنسبة الى المستوى السياسي. وتبدو الإدارة العامة الإغريقية في العصر الميكاني كأنها تقليد واعٍ للإدارة البابلية والحثية والمصرية الفرعونية؛ فيما تبدو الإدارة العامة الإغريقية في العصر الهليني وكأنها تطوير غير واعٍ للسياسة الإقليمية النموذج للأحوال الاقتصادية للمنطقة. ومن جهة ثانية فإن الأخذ بالأسلوب السابق للنموذج الهندسي للفخار يبدو وكأنه انطلاق جديد مقصود. فان الأخذ بالنماذج الزخرفية المجردة كان انقطاعاً تاماً عن التقليد المينوي الميكاني الذي كان الموضوع الغالب فيه هو رسم النبات والحيوان. وقد بدأ هذا الأسلوب السابق للهندسي

فجأة نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. وفي مكان واحد هو أثينا. وانتشر من أثينا بسرعة، مع العلم بأنه كان ثمة أجزاء من بلاد الإغريق قد تطورت فيها أنواع من الأسلوب السابق للهندسي، ثم الهندسي في ما بعد، وكان ذلك على ما يظهر، مستقلاً. وقد رافق الأخذ الفجائي بالاسلوب السابق للهندسي في الفخار في اثينا نحو سنة ١٠٥٠ ق.م. الاستعاضة، المفاجئة كذلك، بالحرق عن الدفن، على اعتبار أن ذلك هو القاعدة القياسية للتخلص من الموتى. وفي التاريخ نفسه استبدل البرونز بالحديد على أنه المعدن المقبول لصنع الأدوات والأسلحة. وهذا التعاصر في التبدل الفجائي في التكنولوجيا والفن هو أمر بارز تماماً. فهل يدل هذا على تبدل في السكان أو أنه كان تبدلا في الزي فقط؟ إن معرفتنا الأثرية تزودنا إلى الآن، بجواب قاطع لهذا السؤال الذي يدور حوله نقاش حاد.

ان خلق هذا الأسلوب الجديد ـ الأسلوب السابق للهندسي ـ في زخرفة الفخار كان ممكنا بسبب تجديد تكنولوجي وهو استعمال فراش متعددة مرتبطة بدوائر. ولعل هذا لم يكن اختراعاً أثينيا، بل لعل الاثينيين تعلموه من القبارصة في وقت عاد فيه الاتصال بين قبرص وحوض البحر الإيجي. وعلى كل فإن الناحية التكنولوجية في الثورة السابقة للهندسي في الفن الفاخوري ليست هي اهم ما في الأمر. فقد كان ثمة ثورة جمالية هي أكبر شأناً. فإن صناع المزهريات ومزخرفيها من الأثينيين الذين استعملوا الأسلوب السابق للهندسي كانوا يوائمون بين زخرفة المزهرية وشكلها. فقد كان الاتساق من الأمور التي يعنون بها عند وضع تصميم للنموذج؛ وقد كانوا يتوصلون إلى الأثر الفني عن طريق التعبير الأنيق للأفكار البسيطة. وهذه الهيئات الثلاث المميزة للفن الإغريقي السابق للهندسي والهندسي، استمرت على أنها صفات خاصة بالفن الهليني في انواعه المختلفة وعبر المراحل التالية للتاريخ الهليني، باستثناء المرحلة الأخيرة. ويتضح الاهتمام بالاتساق في موقف الفنان من استخدام صور الإنسان والخيل في زخرفة المزهريات الهندسية الأسلوب في الدور الأخير منه. ففي ذلك الزمان كان أثر الأعمال الفنية السورية، والتي كانت مزخرفة بصور الناس والحيوانات، قد أخذ يتحدى الأسلوب التجريدي الذي كان قد مر عليه ثلاثة قرون وهو الأصل المتبع في حوض البحر الإيجي. ومن البين أن الرسامين للمزهريات الذي أخذوا بالأسلوب الهندسي كانوا يترددون في أن يعرضوا الاتساق في صنع النماذج للخطر، وذلك عن طريق استعمال صور الأشياء الحية بغضّ النظر عن شكلها؛ ولما قبلوا بذلك أخيرا، فانهم هندسوا هذه الأشكال بجعلها تتسق مع

النماذج التي استعملت فيها. إن رسم الأشكال الجامدة التي لا حياة فيها هو دليل على اهتمام الفنان بالاتساق؛ إنه ليس دليلا على العجز لدى الفنان.

لقد كان ثمة انقطاع في الفن المتطور وفي النظم السياسية بين العصر المظلم التالي للعصر الميكاني وبين الماضي الميكاني في حوض البحر الإيجي، ويبدو كأن الفاخوري ومصور المزهرية قد انفصلا عن هذا الماضي الميكاني عمدا. والشاعر الراوية كان ايضا يعي الماضي الميكاني؛ لكن الذي كان يعني به لا الانقطاع عنه بل الاحتفاظ به على أنه المجال الذي ينظم فيه شعره، بقدر ما يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يعرض هذا الشعر لأن يكون غير مفهوم لمجتمع كان يتغير تغيرا بطيئاً، ولكنه تغير مستمر من جيل إلى جيل. ففي الأجيال التي كان واحدها يتلو الآخر كان المستمعون للشاعر يتطلبون كلا الأمرين: القديم والمفهوم، وكان على الشاعر أن يفي بالمطلبين معا. والعالم الذي كان يستحضره كان مزيجا خيالياً من سلسلة من العوالم الحقيقية. فقد انتظمت لدى الشاعر المراحل المتتالية للحياة الميكانية في صورة موحدة خداعة، وقد مزج بين هذا التعبير المضلل جزئيا للماضي الميكاني وبين مظاهر الحياة في الأجيال المتعاقبة لخلفاء العصر الميكاني المظلم. وقد كان الفعل دالا على الالمعية، وكان الفاعل يجب ان يتمتع بالقدرة الخاصة كي ينتج من هذه المادة المتغايرة في خواصها، عملا فنيا متسقا يمكن أن يجد فيه المستمعون شيئاً مقنعاً ومقبولا.

وقد كان المتطلب من قدرات الشاعر الفنية والسيكولوجية شيئاً ضخماً، وكان مما يزيد في صعوبة المهمة مشكلة تقنية دقيقة وهي نظم الشعر في وزن محكم. وقد حل الشعراء هذه المشكلة التقنية عن طريق وضع مجموعة كبيرة من صيغ البحور الشعرية وحفظها. فقد كان هناك صيغة لاسم كل من أبطال الملحمة، مزاوجة مع النعوت المتعددة لكل بطل، وكل هذا مع العناية بحالات الإعراب الخمس التي يتعرض لها الإسم في اللغة الإغريقية. وهذه الوسيلة التقنية مكنت الشاعر من عرض شخصياته المسرحية في شعر سداسي التفاعيل صحيح، وفي عدد كبير من تنوع الأوضاع. وكان الشعر يرتجل في كل تأدية، لكن أكثر الصيغ التي كان الشعر ينظم بها كانت مهيأة مسبقا. ولا ريب في أن صيغا جديدة كانت تصنع بين الفينة والفينة اثناء القيام بالتأدية، وكانت هذه تضاف الى جماع ما كان عند جماعة القائمين بالعمل. الا ان صنع الصيغة كان أندر من صنع قصائد مروية على صيغ وعتها ذاكرة الشاعر، وكان الشاعر قد نظمها قلادة أدبية.

إن التطور التدريجي الذي تم عند الإغريق الهلينيين في الشعر المروي والفن المتطور والنظم السياسية في القرون الثلاثة المنتهية نحو سنة ٧٥٠ ق.م. يبدو وكأنه لا أهمية له إذا قورن بالإنجازات التي تمت في الفترة ذاتها على أيدي معاصري الهلينيين من السوريين. إن أهمية الإنجازات الإغريقية التي تمت في فترة العهد المظلم مما تلا العصر الميكاني، يمكن أن يدرك مداها فقط على أساس النظرة الخلفية عندما ننظر الى ما تلاها. ففي اواسط القرن الثامن ق.م.، وقبل أن تقضي أشور بآلتها الحربية وفي حملتها الأخيرة والمباشرة على السوريين، وضع هؤلاء بين أيدي الهلينيين حافزا ثوريا مفاجئاً لما نقلوا إليهم الألفباء الفينيقية. وقد تلا هذه الهبة نقل الفن التجاري الفينيقي - وهو معدن خسيس حوله الهلينيون والأترسكيون إلى ذهب.

١٩ـ المدنية الهندوية ١٠٠٠ـ ٦٠٠ ق.م.

ذكرنا من قبل أن معرفتنا عن مدنية السند مستقاة أصلا من المصنوعات البشرية التي كشف عنها التنقيب الأثري، وأن تأريخها يعتمد على ما عثر عليه من مصنوعات المدنية السندية في العراق في طبقات من البقايا الخاصة بالمدنية السومرية الأكدية والمعروف تأريخها. وسيظل الأمر كذلك إلى أن تحل رموز كتابة المدنية السندية. ومعنى هذا أن أحدث تاريخ يدلنا على أن المدنية السندية كانت لا تزال قائمة هو نحو سنة ١٥٠٠ ق.م.، إلا أن هذا التاريخ الختامي ليس له ما يؤكده، وليس لدينا ما يؤكد لنا التاريخ الأول الذي بدأت فيه المدنية الهندية (أي الهندوية) وهي المدنية التي جاءت في أعقاب السندية. وتاريخ الهند السياسي، قبل الجزء الأخير من القرن السادس ق.م. ليس مدونا، والموثق منه في حياة البوذا سدهارتا غوتاما (لعل ذلك كان نحو ٥٦٧ـ ٤٨٧ ق.م .) لا يعدو كونه مصادفة بالنسبة الى حياة بوذا، وذلك لأن الأمر كله تعتمه الأسطورة. والفترة التي لعلها امتدت الف سنة، بين سقوط امدنية السندية وعصر النور البوذي، ليس ثمة ما يمثلها إلا القليل من المصنوعات البشرية التي عثر عليها في الآثار. والدليل الأثري لهذا الألف من التاريخ العلماني للهند يكاد يكون محصوراً في تسلسل ضئيل من البقايا الفخارية.

وفي مقابل ذلك نجد أن الدلائل على الفترة السابقة لبوذا في تاريخ المدنية الهندية هي كثيرة ومفيدة في مجال التاريخ الديني. والديانة هي أكبر التجارب والنشاطات البشرية أهمية، والكتب المقدسة للهندوية لا يمكن وضع تاريخ لها. فقد وضعت وانتقلت عبر الزمان شفويا لمدة من الزمن لا سبيل الى تحديد طولها، قبل أن تدون. إلا أن انتقالها الشفوي عبر هذه المدة يبدو وكأنه كان صحيحا، لأنه كان من المعتقد أن فعالية الأدعية كانت تعتمد على أن تعاد كلماتها إعادة صحيحة. يضاف الى ذلك أننا نستطيع أن

تتلمس الترتيب الذي لحقت فيه أنواع الأدب الديني الهندي واحدها الآخر، مع أننا لا نستطيع أن نتأكد من الزمن الذي استغرقه هذا التطور، ومن ثم فليس باستطاعتنا ان نخمن الزمن الذي وضعت فيه أقدم هذه الأنواع.

وأقدم هذه الأنواع هو الفيدا: وهي مجموعة من الترانيم الروحية والرقى التي كانت تقرأ في الأدعية التي كانت أفعالا وشعارات طقسية كما كانت صيغا مروية. والنوع الذي يتلو ذلك هو مجموعة من الأبحاث حول التمارين الدعائية والمسماة براهمانا. وهذان النوعان وهما الأقدم من الأدب الهندوي، ليسا متميزين، إذ أنه ثمة ما يوازيهما في الأدب الديني، المروي والمدون، عند الجماعات القديمة.

في هذه المرحلة كان اهتمام الهندويين منصبا قبل كل شيء على إقناع الآلهة أو إرغامها على الاستجابة إلى رغبات الذين يعبدوها. والآلهة الهندوية، مثل الآلهة الحثية واليونانية والأسكندنافية، كانت تحشر في مجمع. ولعل المجمعات الخاصة بالشعوب المتكلمة باللغات الهندية الأوروبية، مشتقة، في خاتمة المطاف، من النموذج السومري. فعبادة فريق من الآلهة، على أساس الطقس الصحيح، هي، بالنسبة الى عدد من الشعوب، خاتمة تاريخهم الديني، كما قد تكون بداءته. لكن الهندويين ذهبوا، في مجموعات الأرانياكا والاوبانيشاد، الى محاولة اكتناه سر الكون، وهي حال ينتقل الكائن البشري فيها الى الوعي. فقد تساءلوا عن طبيعة الحقيقة النهائية، وعن طبيعة النفس البشرية، ومن ثم عن العلاقة بين النفس والحقيقة النهائية. وقد انتهوا إلى أن النفس (اتمان) هي مطابقة تماماً للحقيفة النهائية (براهمان) في الكون وما وراءه، وأنه من الممكن التوصل الى الحدس بهذه المطابقة عن طريق الفحص الداخلي للمشاعر الإنسانية. وهذا الحدس تفسره ثلاث كلمات سنسكريتية، تات توام أسي: أي « ذلك ما هو أنت » أو « أنت ذلك » - و « أنت » هي النفس البشرية و « ذلك » هي الحقيقة النهائية.

والدور الثاني في الديانة الهندوية هو نتيجة مستغربة للدور الأول. ففي الدور الأول كان الهندويون معنيين بالناحية الخارجية للديانة، وفي الدور الثاني انتقلوا من الطقس الى التأمل، وقد قطعوا شوطا بعيداً في اكتشافهم للبعد البسيكي للكون.

بامكاننا ان نتتبع تطور الديانة الهندوية في مراحلها المتتابعة عبر ما تركه كل من هذه المراحل من أدب مقدس للخلف. وتطور تركيب المجتمع الهندوي يمكن استخراجه من مصادر ليست معاصرة له. فالمؤسسة الهندوية الاجتماعية المميزة هي « الطبقة »؛ وكلمة

فرنا، وهي الكلمة السنسكريتية التي ترجمت حديثا بكلمة طبقة، معناها أصلا « اللون ». وهذا معناه ان الطبقية هذه تعود جذورها الى محاولة قام بها المهاجمون للبلاد التي قهروها، والذين كانوا يختلفون عن المهاجمين في لون بشرتهم، كما كانوا يختلفون عنهم في سلوكهم وعاداتهم. وقد كان النظام العنصري هذا صارما، ولنا أن نحسب أن السبب في ذلك يعود إلى أن أهل البلاد كانوا أكبر عددا من المهاجمين، كما كان اولئك يتفوقون على هؤلاء مدنية. فأهل البلاد كانوا ورثة المدنية السندية، والمهاجمون الآريون كانوا « برابرة ».

وهذه المحاولة التي كان قوامها الحفاظ على عزلة الفاتحين عزلة عنصرية صارمة عن المغلوبين، كان لها أثر على التركيب الطبقي الداخلي للجماعة الآرية المتسلطة. فقد انقسم الآريون، كما حدث لشعوب أخرى في اماكن مختلفة متعددة في أجزاء العالم، الى ثلاث طبقات هي: المحاربون والكهنة والعامة، وقد كانت هذه الطبقات وراثية عند الآريين، كما كانت عند شعوب أخرى. لكن الآريين بعد أن أقاموا أنفسهم الطبقة الحاكمة في الهند، أصبح الانقسام الطبقي الداخلي عندهم لا يقل صرامة عن الفصل بين الآريين وأهل البلاد. وقد انتزع الكهنة (البراهمانيين) مع الوقت مع المحاربين (الكشاتريين) ما كانوا يتمتعون به من كونهم أرفع الطبقات ـ وهو عمل فيه براعة، إذا تذكرنا ان الثورة والنفوذ السياسي بقيا في أيدي طبقة المحاربين. وهكذا فقد أصبح الانقسام الطبقي بين الجماعة الآرية المسيطرة صارما كما كان في الطبقية بين الآريين وابناء البلاد. ومن ثم فقد انقسم المجتمع الهندي إلى أربع طبقات، وليس الى طبقتين اثنتين، يتصدرها الكهنة لا المحاربون. وقد تقسمت كل من هذه الطبقات الأربع في ما بعد الى طبقات تحتية، وذلك تبعا لتضخم المجتمع الهندي نفسه عن طريق الفتوح الجديدة، أو بسبب تمثل أهل البلاد عن طريق دمجهم في واحدة من هذه الطبقات الأربع الأساسية.

بما أن الآريين كانوا قد هبطوا الهند اصلا من السهوب الأوراسية، فإن الموطىء الأول الذي استقروا فيه في الهند كان في حوض السند. والدلالة الجغرافية التي نحصل عليها من أدب الفيدا، بقدر ما فيه من دلالة، يشير إلى أن هذا كان موطن الآريين في الوقت الذي وضع فيه هذا الأدب. وفي أيام بوذا كان قلب العالم الهندوي قد أصبح الجزء الأوسط من حوض جمنا ـ الكنز. وفي القرن الثاني للميلاد كان العالم الهندوي قد امتدّ

جنوبا الى شبه الجزيرة الهندية وجنوبا في شرق إلى ما هو الآن فيتنام الجنوبية واندونيسيا. وليس ثمة قيود لهذا التوسع المتابع للمدنية الهندوية ولكن ثمة شيء واحد بادٍ للعيان أنه كلما زاد هذا التوسع، كان التمثل يكبر، إذا قورن ذلك بالفتح والاستعمار. واللغة السنسكريتية وهي لغة الآريين، وما اشتق منها، لم تنتشر قط حتى في شبه القارة الهندية جمعاء. والمدنية الهندوية، بمؤسساتها الخاصة بها، مثل نظام الطبقات واستعمال السنسكريتية كلغة مقدسة، انتشرت في رقعة أوسع. ولما تجاهل بوذا نظام الطبقات، وتحدى الاعتقاد القائل بأن النفس هي مطابقة للحقيقة النهائية، ولدت في المدنية الهندوية ديانة تبشيرية هي التي أوقعت آسية بأجمعها في أسرها.

٢٠ـ المدنية الصينية ١٠٢٧ـ ٥٠٦ ق.م.

لعل العالم الصيني كان، خلال الربع الأول من الألف سنة التي حكمت فيها اسرة تشو، اكثر استقرارا مما كان عليه في أيام شانغ. ومن المؤكد أنه كان أكثر استقرارا مما كان عليه في القرون الخمسة التي انتهت في سنة ٢٢١ ق.م. وهي السنة التي تم فيها توحيد الصين سياسيا وبشكل فعال على يد شي هوانغ - تي من اسرة تشين. ويبدو أنه خلال الربع الأول من الألف سنة التي حكمت فيها اسرة تشو، كان إشرافها المتقلقل على اتباعها الأمراء، البالغ عددهم سبعين أو تسعين، فعّالاً بقدر ما كانت الأحوال تسمح بذلك. فقد كان نحو ثلثي هؤلاء الأتباع من أسرة تشو، ولعل جميع فروع الأسرة كانت تشعر بالحاجة إلى التضامن معا للحفاظ على سيطرتها على الشانغ وغيرها من الجماعات التي لم تكن تشوية ولكن كانت أسرة تشو قد قهرتها. إلا أن الباعث على هذا الولاء لأسرة تشو قد تآكل مع مرور الزمن. وبعد النكبة التي اصابت الأسرة سنة ٧٧١ ق.م. خرج هؤلاء الأتباع عن الطوق.

كان عدد هؤلاء الأتباع، في هذا الوقت [سنة ٧٧١ ق.م .]، قد زاد بحيث أصبح ثلاثمئة، وذلك بسبب تقسيم القطائع تدريجا. وترتب على فقدان السلطة والنفوذ في أسرة تشو أن أخذ هؤلاء الأتباع، الذين كانوا موجودين اسما فقط، يتصرفون وكأنهم أصحاب سيادة في الواقع، الى حدّ انهم كانوا يشنون الحروب واحدهم ضد الآخر. وهذه الحروب بين الدول بدأت قبل نهاية القرن الثامن ق.م. واستمرت عبر القرون الخمسة التالية. واستمرار القتال والحروب خلال هذه الفترة من التاريخ الصيني يميزها عن فترتي السلام نسبيا، سواء في ذلك الفترة التي سبقتها والفترة التي تلتها. إلا أن النصف الأول من فترة القرون الخمسة الواقعة بين فترتي السلام يختلف اختلافا بينا عن نصفها الثاني.

خلال القرنين المنتهيين في سنة ٥٠٦ ق.م. كانت الحروب مستمرة. وبسبب ان الدول الظافرة كانت تضم الدول المقهورة إليها، فقد نقص عدد الدويلات المحلية من نحو ثلاثمئة الى أقل من عشرين، بما في ذلك ما تبقى من رقعة الأرض المحيطة بلويانغ التي بقيت تحت السلطة المباشرة لأسرة تشو التي كانت صاحبة السيطرة رسميا. ومع ذلك فقد ظلت الحياة، في هذه الفترة من الحروب الأهلية، وباستثناء أقلية ضئيلة من السكان، مستقرة. وفي هذه المرحلة كان المقاتلون من الجماعة الأرستقراطية. وكانوا يقاتلون وهم في المركبات، وقد كانت الظروف والتغيرات التي تعرضوا لها بسبب أفعالهم هذه تخفف من حدتها روح الفروسية التي كانت تتحكم في مسيرة القتال. والفلاحون، وهم الطبقة الاجتماعية الأخرى إلى جانب النبلاء، لم يكونوا بعد قد فرض عليهم التجنيد لخدمة العلم. ولما كانت الفرص التي تسمح لهم بالوصول الى المستوى الاجتماعي الذي يجعل الحياة قلقة، فقد كانوا يشعرون بالكثير من الطمأنينة في اقامتهم في الأرض التي كانت تدر عليهم ما يكفيهم ويكفي سادتهم المقاتلين. وقد كان تركيب المجتمع الصيني يقوم إلى هذا الوقت، على معطيات تقليدية. والمنافسة الوحيدة كانت، إلى ذلك الوقت، هي المنافسة العسكرية بين النبلاء، ولم تكن المنافسة الاقتصادية قد ظهرت. وبشكل خاص فإن الأرض لم تصبح بعد متاعاً يتاجر به.

وخلال القرنين الخامس والرابع ق.م. أصبح المجتمع الصيني متحركا، وفقدت الحياة الصينية عنصر الاطمئنان، لا بالنسبة الى النبلاء فحسب، بل بالنسبة الى الشعب بأجمعه. وقد عاش كونفوشيوس (نحو ٥٥١- ٤٧٩ ق.م .) بحيث ادرك بدء هذا التبدل. وقد كانت فلسفته والتعاليم التي لجأ اليها لنقل فلسفته إلى أخوة التلاميذ أقدم ردود الفعل الروحية التي أثارها التبدل الاجتماعي في الصين.

كان أهم فرق بين الصين في عهد شانغ والصين في العصر الكونفوشي فرقاً جغرافياً. ففي عصر شانغ كانت رقعة العالم الصيني تقتصر على الحوض الأدنى للنهر الأصفر في سهل الصين الشمالية مضافا الى ذلك حوض رافده الأيمن نهر واي « في الأراضي الواقعة في ما وراء الممرات ». وفي سنة ٥٠٠ ق.م. كان العالم الصيني قد امتد جنوبا وشمالاً. ففي الجنوب شمل حوضي نهري هواي وهان والمنخفضات الواقعة في حوض نهر يانغتسي الأدنى. إن السكان الأصليين في هذا الامتداد الجنوبي لم يكونوا جزءا أصيلا من المجتمع الصيني، لكنهم كانوا قريبين من الصينيين عنصريا. ولغة الأم عندهم كانت وثيقة

الصلة باللغة الصينية، وكانوا قد اخذوا انفسهم باقتباس اساليب الحياة الصينية بسبب انخراطهم المتزايد في سياسة العالم الصيني الواقعية. وامتداد العالم الصيني المعاصر زمنيا شمالا وشمالا في غرب حمل الصينيين على الاحتكام المباشر مع البدو الرعاة الأوراسيين؛ وقد وجد الصينيون انفسهم هنا وجها لوجه مع غرباء لا يستسيغون التمثل. فالبدو هؤلاء لم يكونوا يتكلمون لغة لا صينية فحسب، بل كانت لهم طريقة عيش ليست صينية. وفي الوقت الذي اصطدم فيه الفلاحون الصينيون بالبدو الأوراسيين، كانت طرق الحياة في المجتمعين المتضاربين قد انخذت شكلها المحدد.

٢١ــ مدنية اميركة الوسطى والأنديز ٨٠٠ــ ٤٠٠ ق.م.

إن تاريخ مدنية اولمك في أميركة الوسطى، على ما عرفت في أقدم موقع معروف لها في سان لورونزو، قد أشير اليها في الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب. ولما تعرضت هذه المدنية الى نوازل عنيفة بحيث امحت سان لورونزو من الوجود، استمر وجودها في مكانين اقرب إلى شاطىء خليج المكسيك: في لافِنتا وهي جزيرة تقوم في مستنقع، وفي ترس زابورتس الواقعة في فسحة من الأرض في غابة مدارية. وفي هذين المكانين تعود الآثار المعمارية في سان لورونزو الضخم وفنها الى الظهور.

دمرت لافنتا، كما دمرت سان لورونزو من قبل، بشكل عنيف. فمن الواضح ان الأولمك كانوا فاتحين عنيفين بحيث انهم كانوا يثيرون، في نهاية الأمر، ضربات همجية توجه ضدهم. وعلى عكس ما كان عليه الأمر في سان لورونزو، فإن مركز الطقوس في كل من لافنتا وترس زابورتس لم يكن مرتبطاً ارتباطاً دائماً بمكان تجمع سكاني؛ إلا أنه في ترس زابورتس، التي استمر وجودها بعد دمار لافنتا، عثر على أقدم نموذج معروف للكتابة في أميركا الوسطى. وهي صور رمزية نافرة مثل النوع الذي حفره، في أزمان لاحقة، المايا في غواتيمالا ويوكاتان. وبعض هذه الصور الرمزية النافرة، بما في ذلك ما عثر عليه في ترس زابوتس، هي تاريخية. وقد حلت القيم العددية لهذه الصور، لكن ليس من المؤكد أن كل الصور الرمزية النافرة في اميركة الوسطى هي ذات قيمة تقويمية. فبعضها قد لا تعني ارقاما، بل رموزا اوقونيم، وهذه لا تزال تنتظر حل رموزها.

وأقدم ما نعرفه من المدنية الأندية كان، على وجه التقريب، معاصرا لدور لافنتا وترس زابوتس من مدنية اولمك. وقد تطورت هذه المدنية الأندية من الدور التكوني في الحضارة الأميركية في شافن، في اتجاه الطرف الشمالي الغربي للمرتفعات الوسطى للعالم الأندي. والإشارات الظاهرة لمدنية شافن هي آثار معمارية ونحت على نحو ضخم. ومن الواضح

أنها، مثل نظائرها الأولمكية، هي المظاهر الخارجية لديانة ما. والرمز الموضوعي البارز لمدنية شافن، مثل مدنية اولمك، هو هولة بين النمر الأميركي الاستوائي المرقط يغور، (وقد يكون يوما في البيرو) والكائن البشري. وتشترك المدنيتان في هذا الموضوع السنوري الفني، كما ان المدنيتين انبثقتا (ويظهر ان ذلك كان مستقلا في الواحدة عن الأخرى) من الدور التكوني لحضارة النواة الأميركية التي كانت شائعة ايضا في البيرو وميزو - اميركة والمناطق المعترضة بينهما في اميركة الوسطى والجنوبية. وعلى كل فإن المناطق المعترضة لم تنتج مدنيات محلية خاصة بها. ومدنية اولمك وشافن لم تكونا بعيدتين واحدتهما عن الأخرى جغرافيا فحسب؛ بل إن أساليبهما كانت تختلف في المدنية الواحدة عنها في الأخرى، ومثل ذلك يقال في إنجازاتهما.

فقد اخترع الأولمك كتابة كانت تحمل في طياتها، ولا شك، تواريخ بل لعلها كانت تحتوي على افكار وكلمات. ولكننا لا نجد اية اشارة يختلف في تفسيرها والتي قد يستدل منها على انها قد تكون حتى أبسط انواع الكتابة التي يمكن ان تكون قد اخترعت في اي مكان أو أي وقت سابق للبزاران العالم الأندي. وفي الناحية الأخرى كانت الشعوب الأندية، في عصر شافن، قد حذقت استعمال معدن واحد على الأقل، هو الذهب، بينما يبدو أن شعوب ميزو - اميركة لم تخترع التعدين اختراعا مستقلا. فقد تعلمت هذه الصناعة من العالم الأندي في دور لاحق من تاريخ ميزو - اميركة.

وفي حدود ما نعرف فان مدنية شافن ومدنية اولمك لم يتم بينهما أي اتصال قط، ولكن كلا منهما انتشرت من موطنها إلى أجزاء اخرى من « عالمها »، مع أن أيا منهما لم تنتشر انتشارا واسعاً حتى في حدود عالمها الخاص بها. فمدنية اولمك انتشرت غربا إلى هضبة المكسيك، وجنوبا الى السهل الساحلي للمحيط الهادي والمرتفعات الواقعة في ما يسمى الآن غواتيمالا. ومدنية شافن انتشرت جنوبا في غرب من المرتفعات الأندية الى السهل الساحلي للمحيط الهادي المجاور لها، ومن هناك في اتجاه جنوبي شرقي من واحد من أحواض انهار ساحل المحيط الهادي الى الحوض الآخر. وقد تم انتشار مدنية اولمك، جزئيا على الأقل، عن طريق الفتح العسكري. ويبدو أن انتشار مدنية شافن كان سلميا.

وقد كان انتشار كل من هاتين المدنيتين، حتى ضمن هذه الحدود، إنجازا هاما - كما كان، في واقع الأمر، الانتشار المبكر والأوسع للحضارة الأميركية التكونية. وثمة سبب واحد يعزى إليه قيام مدنيات في ميزو - اميركة والمناطق الأندية من اميركة وهو الوجود

المتكامل، في اميركة بأجمعها، في هذه المناطق بشكل خاص، لأشكال من الأرض طبيعية متجاورة، إلا أنها تختلف عن بعضها اختلافا تاما في السطح والارتفاع والمناخ.

إن مناخ ميزو ـ اميركة هو مداري في المنخفضات الساحلية على المحيطين الأطلسي والهادي كليهما، إلا أنه معتدل في المرتفعات. وعلى جهة المحيط الأطلسي، حول شاطىء خليج المكسيك وفي المنخفضات الممتدة الى الداخل، تقع شبه جزيرة يوكاتان العطشى والتي تجاورها جنوبا الغابات المدارية في شمال غواتيمالا، وفي ولايتي تبسكو وفيراكروز (في المكسيك) إلى الغرب والشمال الغربي. وهذه المنطقة الساحلية الضيقة من الغابات المدارية تجاورها في الشمال منطقة صحراوية ضيقة تعزلها عن المنطقة الساحلية الخضراء في تكساس. والصحراء الميزو ـ اميركة هذه تمتد من الساحل الى الساحل عبر المرتفعات المعترضة بينهما، باستثناء رقعة ضيقة من الأرض الصالحة للزراعة تقع في اقصى الغرب من المنطقة التي تحميها سلسلة الجبال من جهة الشرق. والجزء المرتفع من هذه الصحراء يجاور المرتفعات الصالحة للزراعة التي تمتد جنوبا من جنوب المكسيك الى داخل اميركة الوسطى.

والفروق في المنطقة الأندية هي بعد أكثر تطرفا. فالهضبة والجبال التي ترتفع عنها هي بعد اعلى من تلك. والأودية العريضة في المرتفعات اشد عزلة بطبيعتها واحدها عن الآخر، منها في نظائرها الميزو ـ اميركية والسهل الساحلي في البيرو، هو معتدل وذلك بسبب تيار هومبولت البارد الذي يتجه شمالا في موازاة الشاطىء، والذي يجعل من الساحل منطقة تكاد تكون معدومة المطر. وقد ترتب على هذا أن السهل الساحلي هو صحراء رملية تتخللها، على أبعاد، أشرطة من المناطق النباتية تقع في مجاري الأنهار التي تنحدر من الأنديز الى الشاطىء ـ واكثرها قصيرة وذات كمية محدودة من المياه الجارية. وأودية الأنهار هذه يمكن أن تستغل بشكل مكثف بواسطة الري. ومن الناحية الأخرى، فان الأجزاء الصحراوية التي لا تصلح للاستغلال من ساحل المحيط الهادي تزود الصيادين وجامعي المحار بحاجتهم من الغذاء.

هذه البيئات الطبيعية المتنوعة على ما هي عليه من تجاوز في المكان اتاحت للجماعات البشرية الفرصة لاكتشاف طرق متباينة تحول فيها الطبيعة غير البشرية الى المصلحة البشرية. وهذه العناصر الاقتصادية المتنوعة أدت الى قيام طرق مختلفة في الحياة. وقد انتهى ذلك الى قيام علاقات تجارية وحضارية بين جماعات متباينة واحدتها عن الأخرى؛

على ان الوصول من الواحدة الى الأخرى لم يكن بعيدا، وقد كانت هذه العلاقات حافزا حضارياً هاماً. ولكنها كانت، على كل حال، صعبة طبيعيا. ومن ثم فقد كان تاريخ المدنية السابقة لكولمبوس، في كل من ميزو ـ اميركة والعالم الأندي، تناوباً بين فترات يعيش فيها سكان كل من الأقسام الطبيعية للمنطقة معزولين نسبيا، وبين فترات أخرى كانت فيها المدنية التي تنشأ في قسم واحد تنتشر الى غيره. ومدنيتا الأولمك وشافن هما أقدم الأمثلة المعروفة للانتشار الحضاري. وكان تكرر الانتشار في العالم الأندي أدى الى انتشار اوسع من الانتشار المماثل لها في الميزو ـ اميركة. وهذا امر لافت، اذا اخذنا في الاعتبار بأن الحواجز الطبيعية التي تعوق التساوق الحضاري والاتحاد السياسي هي أقوى في العالم الأندي.

٢٢ـ الجولة الاخيرة للعسكرية الأشورية ٧٤٥ـ ٦٠٥ ق.م.

بعد أن تخلصت أشور من خضوعها لميتاني عادت الى الظهور في القرن الرابع عشر ق.م.، كدولة حربية. وخلال القرون الأربعة التي تلت ذلك كانت قوتها العسكرية تصرف في حملات لم يكن القصد منها احتلالاً دائماً، كما أنها لم تحقق شيئا من هذا. وقد كانت، على الأقل خلال المراحل المتأخرة من انسياح السكان (نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م .)، تتعرض في جانبها الغربي، لضغط الآراميين الذين استقروا في ما كان من قبل بلاد ميتاني، في ما بين النهرين (الجزيرة). ولم تبدأ حروب أشور التوسعية الا حول ٩٣٢ ق.م.، وكان الآراميون المستوطنون في الجزيرة اول فريسة لها. وقد مر بنا أن أشور انتصرت على الآراميين في الجزيرة وضمتهم اليها بين ٩٣٢ و ٨٥٩ ق.م. وبعد ذلك، في أيام شلمانصر الثالث، احتلت موطىء قدم لها على شاطىء الفرات الغربي عند تقوسه غربا، ووطدت النفس على احتلال سورية وضمها الى أملاكها. وقد انتهت هذه المرحلة الثانية من محاولة بناء إمبراطورية بالفشل. وللمرة الثانية كانت البلاد التي احتلتها أشور غربا حتى سنة ٧٤٥ ق.م. مقصورة على الجزيرة. وكان شمال سورية، وهو منقلب رئيس في شبكة المواصلات في العالم القديم، تحت سيطرة إمبراطورية اورارتو الحورية، منافسة أشور.

كان أسلوب الأشوريين في بناء الإمبراطورية اشد قسوة وأكثر تخريباً من أسلوب المصريين. لقد كان تحتمس الثالث وخلفاؤه يكتفون بأن يفرضوا سيادتهم على الدول التي احتلوا بلادها. وقد سمحوا لهذه الدول بأن يستمر وجودها تحت نفوذهم. إلا أن الأشوريين سبوا نخبة السكان من الدول المفتوحة ونقلوهم الى بقعة نائية من الأملاك الأشورية. وقد كان بين الذين نقلوهم مهرة العمال كما كان بينهم كبار رجال السياسة والمجتمع. وقد ترك الفلاحون الأميون في اماكنهم، إلا أن فئات من الذين نقلوا من

مناطق اخرى اسكنوا في ما بينهم، وأزيلت حدود الدول المغلوبة وأراضيها. وأعيد توزيع المنطقة التي ضمت بحيث أصبحت خارطتها فسيفساء تمثل باخاتي (ولايات) ذات حدود مصطنعة، يشرف على إدارتها موظفون أشوريون إشرافاً مباشراً. وكان الغرض من الأخذ بهذه الخطوات الجذرية مجتمعة تجزئة الجماعات المحتلة بلادها ومحو ذكرى أيام الاستقلال من نفوس المواطنين السابقين. وقد كانت هذه السياسة الأشورية ناجحة الى درجة كبيرة. وعلى سبيل المثال فإن دمشق التي ضمت سنة ٧٣٢ وإسرائيل التي ضمت سنة ٧٢٢ ق.م. لم تعد إليهما حياتهما الأولى أبداً، مع أن سكان كل من الدولتين كانوا يتمتعون بوعي وطني حي، قبل ان يخضعوا لأشور على نحو ما يظهر من الحروب التي تبادل الفريقان شنها واحدهما ضد الآخر.

وعلى كل حال فان الأشوريين انفسهم ورعاياهم الغريبين عنهم، أصبحوا فريسة النشاط الأشوري الذي بذل لبناء الإمبراطورية. فقد نقص السكان في موطن الأشوريين الأصلي، بسبب الذين سقطوا قتلى في الحروب، وبسبب ما فرضته إقامة المستعمرات والحاميات الأشورية في البلاد المفتوحة من نزيف في القوى البشرية (وهو نوع من نقل السكان في الاتجاه المعاكس). والثغرة التي حدثت في أرض الوطن الأشوري مُلِئت عن طريق استيراد أقوام غريبة، حتى ان سكان النواة الأشورية أصبحوا شبه ارامبين. يضاف الى ذلك ان التوتر الاجتماعي الذي فرضه على الشعب الأشوري تجنيده المستمر للحملات العسكرية البعيدة، والتي كانت تتزايد، أثار اضطرابات سياسية داخلية.

توفي شلمانصر الثالث سنة ٨٢٤ ق.م. اثناء ثورة امتدت من سنة ٨٢٧ الى سنة ٨٢٢ ق.م. وفي هذه الموجة من الشوران قامت المدن الأشورية - أشور ونينوى واربل - بالإضافة الى بعض الولايات، بالثورة. وفي سنة ٧٤٦ ق.م. ثارت كلخو (كاله) التي كانت العاصمة يومها، وقتل الملك أشور نيراري الخامس، واستولى على العرش الأشوري في سنة ٧٤٥ ق.م.، رجل مجهول الأصل، اتخذ تغلبت فيلسر الثالث اسما له. وكان خليفته المباشرة شلمانصر الخامس الذي خلفه على العرش، في سنة ٧٢٢، ملك من أسرة مختلفة، الذي كان اسمه، أو لعله اتخذ لنفسه اسماً مشهوراً، هو سرجون - الذي كان اسم مؤسس اسرة أغاد قبل ذلك بما يزيد عن ستة عشر قرنا. وليس ثمة ما يدل على قيام ثورة عنيفة في هذه المناسبة، لكن عندنا وثيقة من يهوذا بأن سنحاريب (ابن سرجون) قد اغتاله اثنان من أبنائه، وان ابنا آخر من أبنائه، وهو

أسرحدون، قد خاض غمار حرب أهلية ليضمن لنفسه وراثة العرش. وقد اقتتل اثنان من أحفاد سرجون في ما بينهما (٦٥٤- ٦٥٢ ق.م .) هما أشور بانيبال وأخوه شمش شوم - اوكين، الذي كان قد نصب ملكا على بابل. وفي هذا القتال قاد هذا الاخير، وهو امير من الدم الملكي الأشوري، حلفا من جماعات الرعايا العصاة. وبعد أشور بانيبال في سنة ٦٢٦ ق.م. كان الملوك يتاوبون على العرش الأشوري بالقوة الى سنة ٦٠٥ ق.م. حين زالت البقية الباقية من أشور.

وفي هذه الجولة الأخيرة للعسكرية الأشورية حاول تغلبت - فليسر الثالث وخلفاؤه حتى أشور بانيال بالذات، ان يفتحوا، ويضموا الى امبراطوريتهم، ما استطاعت ان تصل اليه أيديهم من الأويكومين. وقد أحبطت مقاومة اورارتو في الشمال ومقاومة القبائل الكلدانية والآرامية في بابل مسعاهم. وقد انتصروا اكثر من مرة على هؤلاء الخصوم، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم. وفي الوقت ذاته زاد الصدام بين أشور وخصومها من الجيران تعقيدا تفجر سكاني قوامه العرب الذين جاؤوا من الجزيرة وشعبان من البدو والرعاة (لعلهم كانوا من المتكلمين بالإيرانية) هما الكمريون والسكيثيون الذين خرجوا من السهوب الأوراسية. وقد جاء هؤلاء جميعهم في وقت واحد.

كان العمل الأول الذي قام به تغلبت - فيلسر الثالث لإعادة النشاط والتوسع للإمبراطورية الأشورية هو مهاجمة اورارتو. ففي سنة ٧٧٤ ق.م. هاجم الولايات التابعة لأورارتو في الشرق، وفي السنة التالية هاجم الولايات التابعة لها في الغرب. وقد تمكن من الانتصار على الملك سردوريس الثاني انتصاراً ساحقاً في الحملة الثانية. وبين سنتي ٧٤٢ و ٧٤٠ ق.م. اخضع تغلبت - فيلسر الثالث ارباد (على مقربة من حلب) التي كانت أقوى دولة في شمال سورية. وادى سقوطها الى اعتراف عدد من الدول الأخرى في سورية وكيليكيا الشرقية بالسيادة الأشورية اعترافاً مؤقتاً. وقد وصل تغلبت - فيلسر الثالث توشبا، عاصمة أورارتو، في سنة ٧٣٥ وحاصرها إلا أنه عجز عن احتلالها، ولم يستطع ان يحتل ايا من بلاد أورارتو احتلالا دائماً. وترتب على احتلال شمال سورية ثانية (ولعل ذلك تم في أيام شلمانصر الخامس بين ٧٢٧- ٧٢٢ ق.م .) فرض السيادة الأشورية على حزام من الإمارات في شرق أسية الصغرى، الواقعة الى الشمال من سلسلة جبال طوروس والى الغرب من أعالي الفرات. وقد عزل هذا أورارتو عن كيليكيا وسورية عزلا فعالا. لكن الجهد الذي صرف في سبيل الحفاظ على السلطة الأشورية في الولايات

البعيدة كان شديد الأثر. يضاف الى ذلك أن هذا الأمر فرض على اشور الدخول في حروب مع الفريجيين (المسكي) القاطنين الى الغرب من حدها الشمالي الغربي الجديد، وأدى الى تقارب بين هؤلاء الخصوم الجدد وبين اورارتو.

وفي سنة ٧١٤ ق.م. سار سرجون في الاتجاه المعاكس أي شمالا في شرق دون أن يلقى مقاومة، وتخطى سلسلة جبال زغروس ثم دار حول شاطىء بحيرة اورمية الشرقي وشاطىء بحيرة فان الشمالي. وقد عاد سالماً من هذا المسار الدائري عبر حوض دجلة الأعلى، لكنه، مثل تغلبت - فيلسر الثالث، فشل في الحصول على موطىء قدم ثابت في اورارتو، وابتعد عن توشبا. وكانت مملكة اورارتو لا تزال قائمة في سنة ٦٠٥ ق.م. لما تم القضاء على أشور في معركة كركميش على أيدي البابليين (الكلديين) والمصريين.

عزل تغلبت - فيلسر الثالث سورية عن مصر في سنة ٧٣٤ ق.م. لما هاجم فلسطيا (بلاد الفلسطينيين) واحتل غزة. ولم يكن ثمة دول مستقلة في سورية في سنة ٦٧٥ ق.م. سوى جزيرتين فينيقيتين هما أرواد وصور وثلاث إمارات برية هي جبيل وعسقلان ويهوذا. وقد حاصر الأشوريون صور سنة ٦٧٣ ق.م.، وفي سنة ٦٧٥ ق.م. هاجم اسرحدون مصر (وكان هذا المشروع في تخطيط سنحاريب سنة ٧٠٠ ق.م. لما هاجم مملكة يهودا لكنه لم يحتلها).

كان من السهل على الأشوريين ان يتغلبوا على منافسيهم النَبتين (الكوشيّين) في سبيل الاستيلاء على مصر. فقد كان ملوك نبت قد هاجموا مصر سنة ٧٣٠ ق.م.، ولبسوا التاج المزدوج اعتبارا من سنة ٧١١ ق.م.. وفي سنة ٦٦١ ق.م. تخلّوا عن الكفاح، ذلك بأن حكمهم لمصر كان ممقوتا. ولما جاء الأشوريون الى الدلتا وساندوا حركة المقاومة التي قادها الأمراء المحليون هناك، لم يكن نبتا في مستوى هذا التحالف. وتتبعهم الاشوريون جنوباً سنة ٦٦٣ ق.م. ونهبوا طيبة. الا ان اشور بانيبال ولى، في تلك السنة أحد امراء الدّلتا المصريين بساما تيخوس (بسامتك) الأوّل حكم كل ما كان تحت سلطة أشور من أراضي مصر. ولقب بساما تيخوس نفسه الفرعون في سنة ٦٦١/ ٦٦٠ ق.م.، وفي سنة ٦٥٥ ق.م. ركز سلطته في طيبة. وبين سنتي ٦٥٧ و ٦٥١ ق.م. أخرج الحاميات الأشورية من مصر، وقد وافق أشور بانيبال على ذلك ضمنا. فقد كانت مصر أبعد عن نينوى منها عن نبتا. واقنعت التجربة الأشوريين، كما اقنعت الكوشيّين، أنّ احتلال مصر باستمرار بقواهم الخاصّة كان قضية عسكرية ليس من

اليسير عليهم ان يحلوها. وكان الرابحون في خاتمة المطاف، من هذا التصادم بين قوتين أجنبيتين بعيدتين على ارض مصر، هم المصريون انفسهم. وقد ظلّت مصر قرنا وربع القرن أي إلى سنة ٥٢٥ ق.م. مستقلة سياسياً.

كان احتلال أشور العسكري لمصر، جهدا لا طائل تحته بالنسبة إلى قوتها. ولم ينتج عن خروجها من مصر أي تهديد لأمنها، كما أنه لم يؤذ مقّامها في جنوب غرب آسية. لكنّ الاختبار المرير للسياسة الأشورية جاء من علاقتها مع بابل.

فمنذ ان احتل حمورابي العموري البابليّ الذي قام ببناء إمبراطوريته، أشور احتلالا موقتا، قبل ايام تغلبت ـ فيلسر الثالث بما يزيد عن الف سنة، كان ثمة تبدّل في تناسب القوى بين الدولتين الرئيسيتين في العالم السومري الأكدي. إذ أنه منذ القرن الرابع عشر ق.م. كان التفوق في جنوب ارض الرافدين (بابل) بسبب استقرار القبائل الكلدانية في الجنوب الغربي وبعض القبائل الآرامية في الجنوب الشرقي. وهؤلاء المقتحمون على أطراف بابل لا هم اخرجوا، كما أصاب الغوتيان، ولا هم تمثلوا في السكان كما حدث للكاشيين. لقد ظلوا أجانب يحدوهم الشعور بالعصبية القبلية والروح الحربية الخاصة بهم.

ولم يرحب سكان بابل المستقرون الفلاحون منهم وسكان المدن على السواء، بوجود هؤلاء الذين كانوا أصلا بدوا رعاة من بلاد العرب. وقد كان من المنتظر ان يسهل مثل هذا الأمر، اي وجود هؤلاء البدو التقارب بين سكان بابل وأشور. فأشور كانت جماعة مستقرّة وكانت تشترك مع بابل في مدنية مستقاة من مصدر سومري أكديّ. وأشور كانت الحامي الطبيعي لبابل. إذ أنها كانت المدافع عن حدود العالم السومري الأكدي ضد سكان الجبال في زغروس. وعلى كل حال فقد كان لا بد من استكمال شرطين فيما اذا كان ثمة مجال لاتفاق بين بابل وأشور هما: أن يكون تصرف الأشوريين نحو البابليين بارعا لبقا، وأن لا يسمح للقبائل المقيمة في بابل ان تخرج عن الطوق. فاذا أتيح للقبائل ان تسيطر على المدن البابلية وعلى بابل بالذات قبل غيرها ـ فان الأشوريين يجدون أنفسهم أمام مأزق حرج، اذ يترتب عليهم واحد من أمرين، إما ان يقبلوا بخسارة سيطرتهم على بابل، أو أن يسترجعوا سيطرتهم على بابل بالقوة، وفي ذلك خطر الإساءة الى بابل ماديا، وجرح كبرياء البابليين. وعندها قد يحمل البابليون على الاتفاق مع القبائل الجامعة ضد الأشوريين بسبب موقفهم من إعادة فرض القانون والنظام.

قضى تغلبت ـ فيلسر موسم الحملات العسكرية الأول في سنة ٧٤٥ ق.م. في

تأديب القبائل مع موافقة « المؤسسة » البابلية. لكن في سنة ٧٣٤ ق.م. خرج الأمر من يد « المؤسسة » البابلية، وعندها استولى زعيم القبيلة الكلدانية، بت ـ اموكاني، على العرش. وفي سنة ٧٣١ ق.م. وهي السنة التي تلت سقوط دمشق اجتاح تغلبت ـ فيلسر الثالث بابل وقضى على رجال القبائل هناك، لكن الفراغ السياسي في بابل لم يملأ. وقد ملأ تغلبت ـ فيلسر الثالث هذا الفراغ بنفسه إذ « قبض على يدي بعل » ـ اي تولى السلطة على بابل ـ في سنة ٧٢٩ ومرّة ثانية في سنة ٧٢٨ ق.م. لكن في سنة ٧٢١ ق.م .ـ وهي السنة التي تلت سقوط السامرة ـ احتذى زعيم القبيلة الكلدانية بت ـ ياكين، مروداخ ـ بلدان (مردوك ـ ابا ليدينا) حذو تغلبت ـ فيلسر الثالث بعدما ضمن القبائل الآرامية في بابل ومعهم العيلاميين. وقد فشل سرجون في التغلب على هذا التحالف في سنة ٧٢٠ ق.م. ومن ثم فقد حكم مروداخ ـ بلدان في بابل اثنتي عشرة سنة. وقد تمكن سرجون من طرده سنة ٧١٠ ق.م. وفي سنة ٧٠٩ ق.م. أخذ يدي بعل، بدوره، إلا أن سرجون ترك مروداخ ـ بلدان مالكا للأرض التابعة لقبيلته الكلدانية.

وهكذا كان البابليون خصوما للكلدانيين وأصدقاء للأشوريين، وظل كذلك الى سنة ٧٠٣ ق.م. حين عاد مروداخ ـ بلدان إلى احتلال بابل ثانية. وقد أعانه على ذلك العيلاميون للمرة الثانية. وقد طرده الأشوريون للمرة الثانية في السنة ذاتها. ثم تمكن الأشوريون من الانتصار على القبائل، لكنهم لم يتمكنوا من اخضاعها. ونقل سنحاريب، في ٦٩٤ ق.م. سفنا وبحارة فينيقيين الى المياه البابلية، إلا أن قبيلة بت ـ ياكين نجت من حملتين، برية وبحرية، وذلك بعون من العيلاميين. ونتج عن ذلك ان انتقل حكم بابل إلى حاكم بابلي هو حليف للكلدانيين. ثم احتل سنحاريب بابل ثانية سنة ٧٨٩ ق.م. ونهبها؛ وهذه الوحشية الخرقاء اكدت التبدل الذي قام به البابليون. وقد ذكرنا من قبل انه حتى ملك بابل الأشوري، شمش ـ شوم ـ اوكين، شن في سنوات ٦٥٢ـ ٦٤٨ ق.م.، حربا ضد أخيه أشور ـ بانيبال ملك أشور، وكان على رأس تحالف شمل ليس الكلدانيين والآراميين البابليين فحسب بل العيلاميين والعرب والمصريين وبعض الامارات السورية. ويبدو ان الهزيمة الساحقة التي انزلها أشور بانيبال بعيلام سنة ٦٥٥ ق.م. لم تكن حاسمة. فقد دمر أشور بانيبال مملكة عيلام بين سنتي ٦٤٦ و ٦٣٩ ق.م. لكنه لم يقض على الأمة العيلامية. إلاّ أنّ الرابحين من سقوط عيلام لم يكونوا الأشوريين؛ لقد كان الرابحون الشعوب الإيرانية في الأرض الداخلية المصاقبة لعيلام.

فبعيد وفاة أشور ـ بانيبال، وفي سنة ٦٢٦ ق.م. وقعت بابل تحت سلطان نابوبولاصّر الكلداني. ولم يكن ليتسنى لمثل هذه الحركة المخاصمة لأشور ان تلقى عونا من عيلام، فقد كانت عيلام منهكة. إلا أن نابوبولاصّر لقي حليفا شرقيا أقوى وأشد رهبة هو ميديا. ذلك أن الخطر الأشوري أوجد في ايران في القرن السابع ق.م. الأثر السياسي واساسه التماسك، كالذي اوجده مثل هذا الخطر في اورارتو في القرن التاسع ق.م. وقد كانت القبائل الميديّة قد أقامت مملكة متحدة، ولعلّ مظهر عيلام وهي محطمة هو الذي حمل القبائل على اتخاذ هذه الخطوة. ولما ردّ نابوبولاصّر، بعد ما قام بالمبادرة الأولى ضدّ أشور، عن مدينة أشور سنة ٦١٥ ق.م.، تدخل كياكسارس، ملك ميديا، لمصلحة البابليين، فاحتل أشور ودمرها، سنة ٦١٤ ق.م.. واذ تقدم السكيثيّون لمساعدة الميديين والبابليين، تمكن هؤلاء من احتلال نينوى وتدميرها سنة ٦١٢ ق.م.. وهكذا امحت أول وآخر عاصمة لأشور كلية. وقد صمد الأشوريون لآخر مرة في حران ـ وهي موقع قديم للحضارة السومرية ـ الأكدية في ما بين النهرين. فقد تقدم الفرعون نخو الثاني، وهو ابن بساما تيخوس الأول الفرعون الذي كان تابعا لأشور بانيبال، والذي كان تولى الحكم بعد ابيه، الى نصرة الأشوريين؛ الا ان الهزيمة الساحقة التي الحقها نبوخذنصّر، ابن نابوبولاصّر، بنخو الثاني في معركة كركميش سنة ٦٠٥ ق.م.، كان ايذانا بزوال أشور.

لم يكن الورثة الحقيقيّون للإمبراطورية الأشورية الدول الوريثة للامبراطورية المحطمة؛ بل كان هؤلاء النسخة الآرامية للألفباء الفينيقية واللغة الآرامية التي كانت تلك الالفباء آلتها. فالكتابة بالالفباء واللغة الآراميتين على ورق البردي كانت أيسر وأسرع المجازا من الضغط على لوح من الطين باللغة الأكدية وبالشكل الأكدي للكتابة المطورة عن الكتابة السومرية. وثمة نقش بارز من قصر سنحاريب في نينوى يصور كاتبين يقفان واحدهما جنب الآخر: الواحد ينقش على لوح من لطين بالقلم المعدني؛ والآخر يكتب بالآرامية على لفة من ورق البردي مستعملا القلم لذلك. فقد أصبح هذا الخط« الموجة الطليعية ».

كان ثمة قبائل رعوية من الجزيرة العربية والسهوب الأوراسية قد أخذت تشترك في الخصومات بين أشور وجاراتها وذلك قبل نهاية القرن الثامن ق.م. ففي السنة التي احتل فيها الأشوريون دمشق (٧٣٢ ق.م .) قاتلوا العرب ايضا. وفي سنة ٧١٠ ق.م. قاد الأشوريون حملة هجومية في الجزيرة العربية، وتوغلوا في الجزيرة، حسب الرواية الأشورية، بحيث أن السبأيين، وكانت مملكتهم في الزاوية الجنوبية الغربية، دفعوا الجزية

لهم. وفي سنة ٧٠٣ ق.م. كان عرب يقاتلون مع حلف مرادوخ ـ بلدان الذي كان موجها ضد أشور. وقد كان ثمة حملة اشورية أخرى في الجزيرة العربية سنة ٦٧٦ ق.م.. ويظهر البدو الأوراسيون لأول مرة في القيود الأشورية في سنة ٧٠٧ ق.م. حيث يروى ان الكمريين انتصروا على ملك اورارتو ارغشتش الثاني.

ان التفجر السكاني من السهوب الأوراسية حمل بدوها غربا في موجتين اتخذت كل منها مجرى خاصاً بها. لقد تعقب السكيثيون الكمريين وانتهى الامر بالجماعتين ان هاجرتا غربا، الى شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الاسود وجنوبيهما. ففي الجنوب وصل المريون الى ساحل اسية الصغرى الغربي؛ وفي الشمال وصل الاودريساي (الأثرزوي) الى منطقة الفولد في هنغاريا والى حوض نهر ماريكا في تراقيا. ويبدو ان الكمريين لم يلقوا من النجاح أكثر مما لقيه الأشوريون في الاستقرار في أورارتو، إلا انهم تركوا اسمهم على شرق اسية الصغرى ـ وعلى غرب اسية الصغرى ايضاً. هذا فيما اذا كان السباردوي، وهم الذين اعطوا اسمهم (سباردا) للولاية الفارسية هناك في ما بعد، هم أحلاف الكمريين. اما السكيثيون، وهم خصوم الكمريين، فقد اصبحوا حلفاء الأشوريين. ولعل هذه المحالفة توضح، جزئيا، استمرار الامبراطورية الأشورية الى القرن السابع ق.م. كما توضح سقوطها بين سنتي ٦١٢ و ٦٠٥ ق.م.. ففي سنة ٦١٢ ق.م. انضم السكيثيون الى الميديين والبابليين في هجوم ناجح ضد نينوى.

كان بدو الجزيرة العربية في القرنين الثامن والسابع ق.م. يستعملون الإبل، إذ كانوا قد أصبحوا على هذه الحال في القرن الحادي عشر ق.م.، في واحدة من آخر موجة من انسياح السكان بين ١٢٥٠ و ٩٥٠ ق.م.. إن البدو الأوراسيين كانوا في الانسياح السكاني في القرن الثامن عشر ق.م. يستعملون المركبات، ولم يكونوا يركبون الحيوانات، ذلك بان الحيوان الذي دجنوه لاستعماله في التنقل لم يكن الجمل، بل كان الحصان، ولم يكن هذا الحصان، في ذلك الدور من إنساله، قد اصبح حيوانا كبيرا وقويا بحيث يحمل ثقل رجل. وخلال الالف سنة التي تلي القرن الثامن عشر قبل الميلاد تم انسال الحصان الركوب. وقد كان في الجيش الأشوري في الانطلاقة العسكرية الأشورية الاخيرة (٧٤٥ـ ٦٠٥ ق.م .) فرسان، كما كان فيه قادة المركبات، كما كان الكمريون والسكيثيون فرسانا يمتطون الجياد. ولسنا نعرف تاريخ تدجين الجمل ذي السنامين (البكتري، من آسية الوسطى). فالآثار الأشورية تظهر فيها صور للجمل العربي فقط.

وأقدم إشارة الى أن الجمل الآتي من اسية الوسطى قد دجن يتضمنها اسم النبي القادم من شمال شرق إيران، زاراتهوسترا (زرادشت)، اذا صح ان اسمه يعني « مع الإبل الذهبية ».

إن الإشارة الى الهجوم الذي قام به البدو الأوراسيون الى جنوب غرب آسية في القرنين الثامن والسابع ق.م. هي إشارة متعاصرة مع الأحداث، وهي ترد في المصادر اليهودية واليونانية كما ترد في المصادر الأشورية. أما الإشارة الى هجرة هؤلاء البدو الأوراسيين في جهات اخرى، فهي متأخرة عن تلك الاحداث. فقد ذكر هيرودوتس بانهم كانوا شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الاسود. وهيرودوتس دوّن أخباره في القرن الخامس قبل الميلاد. ووجودهم في حوض نهر السند تتضمنه الأوصاف والأسماء التي تعود الى بعض الشعوب التي قابلها الاسكندر هناك بين سنتي ٣٢٧ و ٣٢٥ ق.م. فهل هاجم البدو الأوراسيون الصين، ايضا، في القرن الثامن قبل الميلاد؟

ألمحنا من قبل إلى أن أسرة تشو أصابتها كارثة في سنة ٧٧١ ق.م. في الصين. فقد هاجم الأسرة في تلك السنة برابرة، ولقيت على أيديهم انكساراً ساحقاً، بحيث انها اضطرت الى نقل عاصمتها من حوض نهر واي، رافد النهر الأصفر، الى لويانغ في السهل الشرقي. وحوض نهرواي هو منطقة الدفاع الصينية، في الجهة الشمالية الغربية، عن الحظيرة، ضد البرابرة. وطالما كان التشو يقومون بالدفاع عن هذه المنطقة، فان خدماتهم للعالم الصيني بمجمله كانت كبيرة القيمة. فلما عجزوا عن القيام بدور المدافع، انحطت قوتهم وتدنى مقامهم. وقد جاء ني أعقابهم، للقيام بدور المدافع في حوض واي، تشين. وللمرة الثانية ترتب عليهم للقيام بهذا الدور، ان يسيطروا على العالم الصيني بأكمله. وعلى كل ليس لدينا ما يدل تماما على ان البرابرة الذين أجلوا التشو من حوض واي سنة ٧٧١ ق.م. هم بدو رعاة أوراسيون. فلعلهم كانوا برابرة محليين مستقرين. والأمر الذي يدل دلالة قاطعة على قيام اتصال مباشر بين الصين والبدو الأوراسيين يعود الى وثيقة من القرن الرابع قبل الميلاد تقول ان « ين »، وهي اقصى دولة صينية في الجهة الشمالية الشرقية في ذلك الزمن، قلدت البدو إذ نظمت قوة فرسان على الطريقة البدوية. وليس لدينا أيّ دليل على ان البرابرة الذين انتصروا على التشو، في سنة ٧٧١ ق.م.، كانوا جناحا من البدو الفرسان الذين هاجموا جنوب غرب آسية وجنوب شرق اوروبة قبل نهاية القرن الثامن.

ان القيود التي وصلتنا عن البدو الذين هاجموا جنوب غرب اسية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، تصورهم بانهم كانوا متوحشين مخربين لا اكثر ولا اقل. وليس في هذا الأمر غرابة، اذا اعتبرنا ان هذه القيود دونتها الفئات المستقرة التي كانت فريسة الهجوم البدوي. وعلى كل فانه من المحتمل ان البدو، في هذه المناسبة، قد اعطوا بعض الشعوب المستقرة التي أعتدوا عليها، مجموعة مميزة من العقائد والممارسات (الشعائر).

كان في كلي العالمين، الأغريقي والهندي، في القرن السادس ق.م. فئة من البشر كانت تعتقد بان الموت ليس نهاية وجود الحي. كانوا يرون ان الروح تستمر حية بأن تتقمص في كائن حي آخر، وهو قد يكون من النوع ذاته او ارفع او ادنى. وفيما اذا كان التقمص التالي سيكون ترقية او تدنية، فالأمر يتوقف على التصرف الخلقي للروح في التقمصات السابقة. وقد يكون عدد الولادات الجديدة لا نهاية له، وقد كان هذا ينظر اليه على انه اكبر معنى من الميتات المتعاقبة المعترضة. والمؤمن بالتقمص كانت الغاية عنده، على بعدها عن فكرة الخلود، هي ان يبلغ بسلسلة الولادات الجديدة نهايتها، وكان يؤمن بأن مثل هذا كان يمكن تحقيقه عن طريق العيش بتقشّف وفضيلة.

ان التشابه بين صيغتي الاعتقاد بالتقمص عند الإغريق والهنود، وما يترتب على ذلك من النتائج، قريب الى حدّ انه يصعب القول بأنه كان عرضيا. ويبدو أنه كان نتيجة اتصال تاريخي. وقد تكون العقيدة قد انتقلت من الهند الى بلاد الإغريق او من بلاد الإغريق الى الهند، او لعلها وصلت الى كل من بلاد الاغريق والهند من مصدر خارج عن كلي المنطقتين. ولعل الوسيط المحتمل للنقل المباشر في كل من الاتجاهين كان الامبراطورية الفارسية التي ضمت اجزاؤها، بعضها الى البعض الآخر، في القرن السادس قبل الميلاد، والتي ضمت كلا من الطرف الغربي من الهند والطرف الشرقي من عالم الإغريق. وقد رافق قيام الامبراطورية الفارسية تحسن في وسائل الاتصال في هذه الرقعة الواسعة التي شملتها الامبراطورية. وعلى كل فان صانعي الإمبراطورية الفارسية وسادتها من الايرانيين لم يشاركوا الهنود والإغريق عقيدتهم في التقمص، وهم (الايرانيون) الذين كان موطنهم في الألف الأخير قبل الميلاد يقع بين العالمين الهندي والاغريقي. ولذلك يتوجب علينا ان نعنى بالبحث عن احتمال بديل. فالاعتقاد بالتناسخ قد يكون جاء الهنود والاغريق من البدو الأوراسيين الذين هاجموا مناطقهم على التوالي في القرن السابع قبل الميلاد.

ان الاعتقاد بإمكان الروح مغادرة الجسم والعودة اليه لا يزال قائما الى يوم الناس هذا في شمال آسية. فروح الشامان [في سيبيريا] تدخل ثانية الجسم الذي تكون قد خرجت منه؛ انها لن تدخل جسما مختلفا قد يكون من نوع آخر. ومع ذلك فان عقيدة الشامان [الشامانية] هي الحالة الأساسية المؤاتية للاعتقاد بالتناسخ. وهكذا فانه من المحتمل، ولو انه لا سبيل للتدليل على ذلك، بان العقيدة المشتركة عند الفيثاغوريّين والأورفيّين الأغارقة، وعند معاصريهم الهنود، قد تكون ذات أصل بدويّ اوراسي.

٢٣ـ اعقاب العسكرية الاشورية ٦٠٥ـ ٥٢٢ ق.م.

لو أن الامبراطورية الأشورية استمرّت قائمة، لعلها كانت دمجت جنوب غرب اسية ومصر في وحدة سياسية، وكان من الممكن ان تؤدي الى قيام وحدة اجتماعية ودينية ايضا. وعندها لعله كان يتاح لهذا البناء الإمبراطوري أن يؤمن سلاما لمنطقة كانت قلب الاويكومين، ولو أن مثل هذا يمكن ان يكون باهظ الثمن. وعلى كل، فان وحشية العسكرية الأشورية حكمت على الإمبراطورية الأشورية بالموت المبكر. لقد نضبت بسببها موارد أشور البشرية، المحدودة اصلا، وأثارت حركات مقاومة عنيفة، تألّبت كلها عليها، فأصبحت اكبر مما تستطيع القوة الأشورية الآخذة في الانهيار من مقاومتها. والخراب الذي اسفر عن فرض الحكم الأشوري وعن تقويضه في ما بعد، زاد في حدّته هجمات الكمريّين والسكيثيين. وهذه المصيبة المزدوجة خلفت بعض الضحايا خائرة القوى، وحتى اولئك الذين قاوموا بنجاح انتهى الأمر بهم إلى أن أصابهم الوهن في قواهم على درجات متباينة. والنتيجة المباشرة لذلك كانت قيام توازن مضطرب في القوى بين الدول التي خلفت الامبراطورية الأشورية. والحلفاء المنتصرون اختلفوا في ما بينهم بعد انتصارهم المشترك الساحق على خصمهم العام. فقد اقتتلوا على توزيع الأسلاب، وخشي الضعفاء منهم أن يصبحوا هم، بدورهم، غنيمة للأقوى.

كانت المناطق التي اصابها الوهن هي بلاد ما بين النهرين وسورية جمعاء (باستثناء صور وجنوب فلسطين) وأورارتو وشرق آسية الصغرى ووسطها. أما الدول التي استمرت قائمة فهي ميديا وبابل ومصر وليديا.

كانت ميديا، بين هذه الدول الأربع، اقواها وأكثرها ثقة بالنفس - ولكن حتى ميديا لم تكن من المنعة بالدرجة التي بدت فيها، كما ظهر ذلك في السهولة التي استطاعت بها واحدة من الولايات التابعة لها، وهي برسيس (فارس) ان تضم الامبراطورية الميدية

اليها نحو سنة ٥٥٠ ق.م. وفي الوقت ذاته فان ميديا كانت، خلال الستين سنة التي بدأت بتدمير نينوى سنة ٦١٢ ق.م.، اكثر اعتداءً من اي من ورثة أشور. كان الميديون، إذا قوبلوا بالبابليين والسوريين والمصريين، متأخرين اقتصاديا وحضاريا، وكان تأخرهم هذا درعا واقيا لهم، اذ يسر لهم الانتعاش السريع؛ وعلى كل حال فان الضرر الذي لحق بهم بسبب الأشوريين، كانوا قد عوضوا عنه باكثر من فائدة بسبب الوحدة السياسية التي فرضتها الاحوال على قبائلهم بسبب الخطر الأشوري.

كانت أولى الإنجازات التي تمت على يد ميديا، بعد سنة ٦١٢ ق.م. خدمة مشتركة قدمتها للعالم المستقر. فقد قضت على البدو الذين هاجموا جنوب غرب اسية أو أخرجتهم من هناك أو أخضعتهم لنفوذها ـ وقد تمّ ذلك جزئيا باقتباسهم عن البدو عدتهم وتخطيطهم العسكريين. وقد حمل هذا الميديين على ضم اورارتو وشرق آسية الصغرى ووسطها. وأورارتو، خسرت الآن استقلالها على ايدي الميديين بعدما كان الأشوريون قد هاجموها، وتلاهم الكمريون دون ان يستتبع ذلك احتلال دائم. وهذا التوسع الميدي في اتجاه غربي جر ميديا إلى الاصطدام مع ليديا، التي كانت تتوسع من الجهة الغربية في اتجاه المناطق المهجورة من آسية الصغرى. وبعد جولة من الحرب الشرسة اتفقت ميديا وليديا، سنة ٥٨٥ ق.م.، على اعتبار المجرى الأدنى لنهر هاليس (قزل إرمّق) الحد الفاصل بين دولتيهما. وقد تم هذا الاتفاق بناء على وساطة بابل وكيليكيا، وهذه دولة وريثة للامبراطورية الأشورية في جنوب شرق آسية الصغرى.

كان المجرى الأدنى لنهر هاليس يعبر البلاد التي كانت تكوّن مملكة فريجيا من قبل. وقد كانت هذه أقوى دولة في اسية الصغرى قبل ان يقضي عليها المهاجمون الكمريّون، واصاب ليديا بعض الشر ايضا. فنحو سنة ٦٦٣ ق.م. كانت قد تغلبت على الكمريين ـ وذلك بمساعدة الأشوريين، بحسب رواية أشور بانيبال. إلا أن الكمريين احتلوا عاصمة ليديا، مدينة سارديس في سنة ٦٥٢ ق.م. احتلالا موقتا. وفي سنة ٦٤٦ ق.م. احتُلت سارديس ثانية، وكان ذلك على أيدي التريري، وهم شعب جاء من تراقيا وهاجم آسية الصغرى. ولعلّ هذا كان بسبب الضغط الذي وقع عليهم من الشطر الآخر من الكمريين والسكيثيين الذين كانوا ينساحون غربا الى شمالي بحر قزوين (الخزر) والبحر الأسود. الا ان ليديا، على عكس ما أصاب فريجيا، استطاعت ان تلتقط انفاسها، وبذلك اتيح لها أن تقوم بدور فعال في الصراع نحو تقسيم الرقعة التي كانت تابعة

للإمبراطورية الأشورية. وقبل أن تصطدم ليديا بميديا في القرن السادس قبل الميلاد، كانت الأولى قد أرسلت، في تاريخ سابق لسنة ٦٥٢ ق.م.، قوات من جيشها إلى مصر لمساعدة بساما تيخوس الأول في طرد الأشوريين من مصر.

كان الكلدانيون، الذين سيطروا على بابل، يتمتعون بكثير من القوة، في مقاومتهم لأشور. وقد وجد فيهم كل من الشعبين، المصري والسوري، قوة وعنفا على نحو ما كان للأشوريين، وذلك لما تمكن الكلدانيون من فرض انفسهم، بقوة السلاح، على الجزء السوري من أملاك الأشوريين السابقة. وقد كان الكلدانيون، اذ توجهوا غربا، اسودا مزمجرة، اما لما توجهوا شرقا وشمالا، في تجاه ميديا، فقد كانوا حملانا مرتجفة. كان موطن الأشوريين الأصلي قد تقاسمته ميديا وبابل وكان نهر دجلة الحدّ الفاصل بينهما. أما في المناطق الأبعد جنوبا فان بابل لم تستعد حدودها التاريخية، بما في ذلك الأرض البابلية الى الشرق من نهر دجلة، فحسب بل إنها استحوذت أيضاً على الجزء المنخفض من عيلام، بما في ذلك مدينة سوسة. وترتب على هذا التقسيم ان اضطرت بابل الى الاضطلاع بالقضاء على الجيش الأشوري في حران، في شمال ما بين النهرين، الأمر الذي أتمته بين سنتي ٦٠٩ و ٦٠٥ ق.م.، وذلك على رغم الدعم العسكري الذي قدمته مصر للأشوريين في وقفتهم الأخيرة. وتلا ذلك، على كل، أن وقعت حران في أيدي الميديين الذين احتفظوا بها حتى أتم الفارسيون القضاء عليهم نحو سنة ٥٥٠ ق.م.

ويبدو أن احتلال الميديين لحران كان خرقاً لاتفاق سابق بين الميديين والبابليين حول توزع الأسلاب الأشورية. وعلى كل فان مثل هذا العمل كان، بالنسبة للبابليين، مظلمةً كما كان خطرا. وقد اضطر البابليون، بسبب عجزهم عن طرد الميديين من حران، إلى الاعتراف بأنهم لم يكونوا صنوا لحلفائهم السابقين. وكانت الحامية الميدية في حران خطرا يهدد، وعلى مسافة قريبة، خطوط المواصلات البابلية مع املاكهم في سورية، عبر مجرى الفرات.

كانت الولايات الأشورية السابقة في سورية موضع نزاع بين البابليين والمصريين في السنوات ٦٠٩-٦٠٥ ق.م.. وقد تقرر قدر سورية لما انكسر المصريون في معركة كركميش سنة ٦٠٥ ق.م.. فمغامرة نخو الثاني (حكم ٦١٠- ٥٩٥ ق.م .) في الشمال انتهت بالفشل. إلا أن هذا كان فصلا بالغ الشؤم في الفترة التي انتزعت مصر استقلالها ثانية. فقد كانت هذه الفترة، بالنسبة لمصر على وجه العموم، فترة انجازات.

فالقرن السابع قبل الميلاد هو الزمن الذي أخذ فيه المصريون أنفسهم بصنع ادواتهم من الحديد بدل النحاس. وكان، على وجه التأكيد، القرن الذي دخلت فيه مصر في علاقات نافعة للفريقين مع اليونان. والجنود الذين بعث بهم غيغس، ملك ليديا، لمساعدة بساما تيخوس الأول في طرد الأشوريين كانوا مرتزقة من الإغريق والكاريين. وقد انزل بساماتيخوس هؤلاء الجنود في قضائين، كل في واحد من الزاويتين الشماليتين للدلتا. ثم جاء التجار في أعقاب الجنود، وقامت مستوطنة يونانية تجارية في نوكراتيس، على فرع مربوط من النيل، على مقربة من سايس، عاصمة بساماتيخوس.

سمح لليونان، بادىء الأمر، أن يمارسوا التجارة حيث شاؤوا في مصر. ولكن حوالي سنتي ٥٦٦- ٥٦٥ ق.م. اجبروا على التمركز في نيوكراتيس، وذلك نزولا عند رغبة قومية شعبية عارمة. لكن مصر استمرت في استخدام جنود مرتزقة من اليونان، فيما استمر التجار اليونان على مبادلة الخمر وزيت الزيتون اليونانيين بالحبوب المصرية.

ورغبة منه في التعويض عن خذلانه العسكري في سورية، أخذ نخو الثاني بحفر ترعة تصل اقصى فرع من النيل لجهة الشرق، برأس خليج السويس، عبر وادي توميلات؛ وقد أرسل، من الساحل المصري على البحر الأحمر، بعثةً بحرية فينيقية، وهي التي تمكنت من الدوران حول افريقية.

بين سنة ٦٥١ ق.م.، اذ طردت الحامية الأشورية من مصر، وسنة ٥٢٥ ق.م.، لما احتل الأمبراطور الفارسي كمبيس مصر، لم تقع مصر تحت احتلال عسكري أجنبي. وقد حمت الحامية اليونانية التي أقامها بساماتخيوس الأول في الزاوية الشمالية الشرقية من الدلتا مصر من السكيثين. وانكسار نخو الثاني في كركميش وخسارته سورية لم يتبعها احتلال البابليين لمصر.

ومع ذلك فان المصريين لم يكونوا واثقين من أنفسهم تماما في الفترة بين سنتي ٦٥١ و ٥٢٥ ق.م.. لقد تضعضعت ثقتهم بأنفسهم بسبب الانكسار السابق، وحز هذا في نفوسهم إذا ما قوبلت حالتهم بالمجد الذي عرفوه في فترات مبكرة من تاريخهم. ففي عصر دولة سايس كان المصريون يصيخون السمع الى ذكريات فترة أقدم وأكثر الفترات مجدا، وهي فترة المملكة القديمة. وكان ثمة إحياء لما درس من أسلوب الفن المنظور والبروتوكول الذي عُرِفَ في زمن المملكة القديمة. وجدير بالذكر أنه في بابل المعاصرة كان آخر الملوك الذين حكَموا في فترة استعادة الاستقلال، وهو نابونيدس (نابونائيد

حكم من ٥٥٦ الى ٥٣٩ ق.م .) كان ايضا معنيّا بالدارس من الأمور. والاهتمام بالقديم مؤشر لنوع من التهيب. وقد كان البابليون، في العصر اللاحق لأشور، مثل المصريين يشعرون بالكبرياء بسبب قدم مدنيتهم، كما كانوا يشعرون بالحرج نحو ذلك. ففي سنة ٦٠٠ ق.م. كان لا يزال امام المدنية الفرعونية المصرية مسيرة الف سنة اخرى، وكان أمام المدنيّة الأكدية ـ السومرية ستة قرون من المسيرة. إلا أن كلا المدنيتين كانتا تحسان بخلجات الموت؛ وفي واقع الأمر فان المستقبل كان يمتدّ امام مدنيات كانت احدث عهدا بنحو ألفي سنة من المدنيتين كليهما.

يبدو أن نبوخذنصر (حكم ٦٠٥ـ ٥٦٢ ق.م .)، ابن نابوبولاصر مؤسس الإمبراطورية البابلية الجديدة [الكلدانيّة] لم يهاجم مصر. ومن الجهة الأخرى فانه لم يكتف بالاستيلاء على كل الولايات السورية التي كانت تابعة لأشور، بل أنه اخضع دولتين سوريتين كانتا قد افلتتا من النير الأشوري. فقد أجبر نبوخذ نصر صور على التسليم بعد حصار دام ثلاث عشرة سنة (٥٨٦ـ ٥٧٣ ق.م .). وقد حاصر القدس واستولى عليها ثلاث مرات في ٥٩٧ و ٥٨٧ و ٥٨٢ ق.م. وكان كل احتلال يتبعه إجلاء السكان على الطريقة الأشورية. وحسب رواية النبي اليهودي ارميا المعاصر للاحداث فقد أجلى نبوخذنصر ٤,٦٠٠ شخصا. وهذا العدد يتفق مع الرقم الرسمي الأشوري (٢٧,٢٩٠) لعدد الأشخاص الذين أجلوا في سنة ٧٢١ ق.م. من المملكة الشمالية، وهي الأكبر مساحة والأكثر ثروة. وثمة ارقام أخرى أكبر من الرقم الذي اورده ارميا، عن عدد الذين أجلوا سنة ٥٩٧ وأعيدو سنة ٥٣٩ ق.م. وهذه الأرقام وردت في مصادر متأخرة، لكنها غير مقنعة.

كان الهدف من إجلاء مؤسسة الجماعة هو تحطيم هوية الجماعة، وقد كانت هذه السياسة ناجحة في اكثر الحالات. فعلى سبيل المثال ان اجلاء ٢٧,٢٩٠ شخصا من المملكة الشمالية في فلسطين سنة ٧٢١ ق.م. كان له هذا الأثر. إلا أن اليهود كانوا متميزين في اكتشاف السبل والوسائل للاحتفاظ بهويتهم واللجوء اليها في ظلّ المعاملة التي لقوها. فالسنوات بين ٥٩٧ و ٥٨٢ ق.م. شهدت نهاية المملكة الجنوبية وبدء تاريخ اليهود واليهودية. وقد كانت المملكة الجنوبية، مثل المملكة الشمالية [في فلسطين]، تتمتّع بفترة استقلال لبضعة قرون في الالف الأخير قبل الميلاد، شأنها في ذلك شأن عدد من الدول السورية. واليهود، على عكس أسلافهم في المملكة الجنوبية، كانوا، في حقيقة

الأمر، الشعب الغريب الذي ادعوه. وكي نفهم كيف تمّ لهم هذا الإنجاز يتحتم علينا أن نعود القهقرى في التعرف إلى تاريخ المملكة الجنوبية منذ نحو سنة ٩٢٢ ق.م.، وهو التاريخ الذي انقسمت فيه امبراطورية المحارب داوود، بعدما كانت تشمل جزءا من جنوب سورية. وفي فصول لاحقة سنبحث ردّ الفعل اليهودي لتحدي إجلاء السكان.

فاذا نظرنا الى تاريخ المملكة الجنوبية، بين سنتي ٩٢٢ و ٥٨٧ ق.م.، تلمسنا مظاهره المميزة في هذا التاريخ. فأولا تمكنت أسرة داوود من التمسك بالعرش الجنوبي باستمرار مدة تجاوزت اربعة قرون، اعتبارا من نحو سنة ١٠٠٠ ق.م. لما استولى داوود على العرش. وهذا الحكم المستمر لأسرة واحدة تمكن مقارنته بالحكم غير المستقر للدولتين المجاورتين لها اي المملكة الشمالية ومملكة دمشق. ففي كل من هاتين الدولتين ما أُكثر ما انتزع التاج باساليب عنيفة ممن كان يعتلي جاههم حينها. ولم تتمكن هاتان الدولتان من التخلص من الآثار الهدامة لأصلهما الثوري. إن سيرة داوود كانت شبيهة بسيرة ريزون الآرامي ويربعام ملك المملكة الشمالية [في فلسطين]. إن داوود ايضا انتزع التاج عن رأس حامله السابق ليضعه على رأسه هو؛ ومع ذلك فإن خلفاءه في المملكة الجنوبية احتفظوا بولاء من تبقى من رعاياهم بعد انهيار امبراطورية داوود التي لم تعمر طويلا.

إن من تبقى من السكان شمل قبيلة يهودا ومدينة القدس الكنعانية الاصل والطرف الجنوبي للمنطقة التي كانت مساكن قبيلة بنيامين. ويبدو عجيبا، في مثل هذه الأحوال، أن تمنح الأسرة الداوودية وعاصمتها نوعا من التقديس في تقدير اليهود.

ومن المستغرب أيضاً أن تنجو المملكة الجنوبية أيضاً من احتلال أشور لها، إذا اخذنا في الاعتبار أن الملك حزقيا (حكم ٧١٥- ٦٨٧/ ٦ ق.م) كان ضالعا في الحلف الكداني ميروداخ - بلادان الموجه ضد أشور. وقد عاشت المملكة الجنوبية ١٣٤ سنة بعد المملكة الشمالية و ١٤٥ سنة بعد مملكة دمشق. وفي ايام الملك حوزيا (حكم نحو ٦٣٧- ٦٠٩ ق.م .) أسهمت المملكة الجنوبية في التكالب على اقتسام الأسلاب التي نشأت عن انحلال الامبراطورية الأشورية. وقد تمكن حوزيا من إحياء مملكة داوود احياء موقتا، وهي الدولة التي كانت قد تقسمت، قبل ذلك بثلاثة قرون، بسبب الانقلاب الذي قام به ريزون في دمشق وانقلاب يربعام في المملكة الشمالية. وقد فقد حوزيا حياته، وانتهى امر مملكته، سنة ٦٠٩ ق.م. لما حاول التصدي، بشيء من التسرّع، لحملة الفرعون نخو الثاني، حليف الأشوريين، في طريقها من النيل الى الفرات. وأصبحت

المملكة الجنوبية بعد ذلك تابعة لمصر اولا، ثم بعد ٦٠٥ ق.م. لبابل. ومع ذلك فان الملكية الداوودية تجاوزت حتى هذا الانحدار. ذلك بأنه لم يقض عليها الا في سنة ٥٨٧ ق.م.

وهذا الاستمرار المستغرب للمملكة الجنوبية اتاح الفرصة لظهور سلسلة طويلة من الانبياء اليهود. فأشعياء، مستشار الملك حوزيا، وارميا، خصم الملك يهوياكيم، كانا معنيين بالدرجة الأولى بالسياسة الخارجية. وقد نصح كلا هذين النبيين الملك بأن يتجنب تحدّي القوة الإمبراطورية التي كانت قائمة وقتها؛ وقد اثبتت الأحداث بأن نظرة إرميا، الذي عاش بعد القضاء على المملكة، كانت صائبة.

لم يكن الأنبياء ظاهرة خاصة باليهود؛ فعلى نحو ما ذكر قبلا كانوا ظاهرة من حياة المجتمع السوري إجمالا. ولم تكن نواحي الحياة الدينية الأخرى في المملكة الجنوبية خاصة بهذه الدولة السورية. فقد كان للمملكة الجنوبية، مثل المملكة الشمالية، ومثل بقية الفئات السورية، إله قومي خاص بها. لكن عبادة الإله القومي كانت تسير جنبا الى جنب مع طقوس دينية أخرى. إلا أن هذه الدلالة، بالنسبة الى مجتمع المملكة الجنوبية، قد احتفظ بها حتى في الشكل المنقح من الأسفار اليهودية. فوصف الهيكل في القدس على نحو ما أعده سليمان وكما وجده حزقيا وحوزيا، قد ينطبق في الغالب على بيت إيل في المملكة الشمالية وعلى هياكل ملكوم في عمون وشموش في موآب وريمون في دمشق. فلما قدم الملكان أحاز ومنسى، من ملوك المملكة الجنوبية، ابنيهما قربانا حيا تقربا من يهوه، ليستمع الى طلباتهما، كانا يقومان بطقس ديني سوري عام. ولما اكد حزقيا وحوريا على امتيازات الإله القومي، كانا يفعلان تماما ما فعله إيليا واليشع وجحو من قبل. ولما دمر حوزيا مذبح يربعّام في بيت إيل، وذبح جميع كهنة يهوه في بيت إيل وغيرها من أماكن العبادة في بلاد المملكة الشمالية، كان هذا انتقاما سياسيا لاحقا لخروج يربعام على رحبعام، جدّ حوزيا من بيت داوود.

وقد كانت البدعة الأصيلة التي قام بها حوزيا هي طمس كل أماكن العبادة المحلية لا في البلاد التي استعادها فحسب، ولكن حتى داخل الحدود السابقة للمملكة الجنوبية. فقد أصدر قرارا بأن يهوه هو الإله الوحيد الذي يعبد في مملكته، وأن عبادته لا يمكن ان تتم إلا في القدس، المدينة الكنعانية سابقا. وبعمله هذا فقد جعل حوزيا مملكته دولة - مدينة، بما كان معاصروه من الاغريق يمكن ان يسموه سينولزم. بمعنى أنه لم يكن

تجميعاً، بالمعنى الحرفي، لكل السكان في مكان واحد، بل كان يُشتَرطُ على أنَّ مكانا واحداً فقط كان الموضع المشروع لكل أعمال الدولة، المدنية والدينية على السواء. وقد عضد حوزيا ثورته الدينية بأن أصدر، في السنة الثامنة عشرة من حكمه، سِفْرا قانونيا كان يحمل في طياته بعض العلاقة لسفر التثنية على ما هو معروف اليوم. ونتيجة لاستمرار المملكة الجنوبية فترة طويلة وبسبب أعمال الملك حوزيا في القرن السابع قبل الميلاد، فان الذين كانوا قد أجلوا عن المملكة الجنوبية في سنوات ٥٩٧ و ٥٨٧ و ٥٨٢ ق.م. كانوا مهيئين سيكولوجيا، لما نفوا، أكثر ممن سبقهم من المنفيين، للمحافظة على هويتهم الجماعية في أحوال قاسية.

قبل أن ينقضي القرن السادس قبل الميلاد، كانت حظوظ خلفاء الإمبراطورية الأشورية قد تبدلت بسبب القيام السريع لأمبراطورية جديدة، على أيدي بناة إمبراطورية جدد، بحيث بدت الإمبراطورية الأشورية الى جانبها قزمة من حيث أبعادها، كما أنها أظهرت عيب الأشوريين بسبب اعتدالها النسبي. وقد أشرنا الى أن الذين أفادوا من تدمير أشور بانيبال لمملكة عيلام هم الإيرانيين الجبليين الذين كانوا يقطنون ما وراء عيلام. وقد انتفعوا بذلك مباشرة وهم الذين كانوا في المنطقة المعروفة اليوم باسم فارس ولورستان. وقورش الثاني، مؤسس الأسرة الأخمينية، وهو الذي انشأ الامبراطورية الفارسية الأولى، لقب نفسه ملك أنشان، التي يبدو أنها كانت مدينة أو قضاء يقع في مكان ما من وادي نهر كارخا (خواسبس)، فوق النقطة التي ينحدر فيها النهر من مرتفعات لورستان الى أراضي خوزستان المنخفضة.

نحو سنة ٥٥٠ ق.م. نصب قورش الثاني نفسه مكان أستياغس، ملك ميديا، واستولى على إمبراطورية بكاملها، وكان هذا بلا شك بالتعاون مع جماعة من « المؤسسة » الميدية. ونحو سنة ٥٤٧ ق.م. تغلب قورش على إمبراطورية ليديا وضمها إلى أملاكه؛ وفي سنة ٥٣٩ انتصر على الإمبراطورية البابلية الجديدة [الكلدانية] وضمها إلى سلطنته، بما في ذلك البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات. ولعله قام بعد هذا بالاستيلاء على البلاد الواقعة الى الجهة الشمالية الشرقية من ميديا وضمها إلى أملاكه(والبلاد المذكورة اخيرا هي المعروفة اليوم باسم خراسان وأواسط آسية وافغانستان) وهي المنطقة التي كان يقطنها قوم مستقرون من الناطقين باللغة الايرانية. وقد قتل قورش الثاني في محاولته للتغلب على المساغيتي، وهم جماعة من البدو الرعاة كانوا يعيشون

الى الشرق من بحر قزوين (الخزر) ويتكلمون اللغة الإيرانية. إلا أن هذا الفشل لم يوقف محاولة الفرس في بناء الإمبراطورية. ففي سنة ٥٢٥ ق.م. نجح قمبيز، ابن قورش الثاني وخليفته، باحتلال مصر.

توفي قمبيز في ظروف غامضة، وخلفه على العرش امبراطور ادعى أنه أخو قمبيز واسمه سميرديس (بارديا). وسواء أكان سميرديس حقيقيا أو مزورا، فقد قتل على يد دارا الأول، ممثّل فرع آخر من الدوحة الأخمينية. وتصفية هذا الإمبراطور الأخير، الذي كان يدعي انه ابن قورش الثاني، كانت ايذانا بقيام ثورة عارمة في الولايات الواقعة الى الشرق من نهر الفرات (لقد ظلّت مصر وليديا هادئتين). وكان أشد العصاة مقاومة البابليون والميديون والأرمن (وهم الذين كانوا قد استقروا حديثا في الجزء الغربي من مملكة أورارتو) وكذلك، وهنا وجه الغرابة، القبائل الفارسية القاطنة في أقصى المناطق الشرقية.

وفي نقش بهستون الواقع على الطريق الممتد من بابل في اتجاه شمالي شرقي، يدعي دارا انه اخضع جميع اولئك الثوار في سنة واحدة (٥٢٢ ق.م). ولعل إخضاع العصاة احتاج الى اكثر من اثني عشر شهرا، لكن الخبر صحيح. وانتصار دارا يعود إلى الطاقة الهائلة التي بذلها هو وجنوده، ولكنه يعود أيضاً الى رغبة عامة في السلام والأمن وهي التي كانت تراود نفوس الشعوب التي كانت قد عانت الكثير من تعنّت الأشوريين والبدو.

كان دارا الأول المؤسس الثاني للأمبراطورية الفارسية، وقد وسع حدودها ايضا. فقد أخضع المساغيتي في الجهة الشمالية الشرقية، وهم الذين تغلبوا على قورش الثاني وقتلوه. وفي الشرق تغلب على حوض السند وضمه الى املاكه. وتمكن من احتلال موطىء قدم في الاتجاه الشمالي الغربي على الجهة الأوروبية من مضيق الدردنيل. وقد كان هذا الموطىء يمتد من الضفّة الجنوبية لمجرى الدانوب الأدنى جنوبا في غرب إلى جبل أولمبوس. جاءت هذه الممتلكات الأوروبية نتيجة ثانوية لحملة تتصف بشيء من الرعونة ضد البدو السكيثيين المقيمين في السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود (وهنا كاد دارا الأول أن يلقى حتفه على نحو ما أصاب قورش الثاني). وفي سنة ٤٩٠ ق.م. أرسل دارا حملة بحرية الى بلاد اليونان الأوروبية، ولكنها باءت بالخذلان. وعلى كل فان دارا الأول كان، على وجه العموم، بنّاء امبراطورية ناجحا، بقدر ما كان قورش الثاني. ولما توفي

دارا الأول سنة ٤٨٦ ق.م. كانت الامبراطورية الفارسية الأولى تمتد، من الشرق الى الغرب، من نهر بيز، رافد نهر السند، الى الموطيء الشرقي لسلسلة جبال يندوس؛ أما من الشمال الى الجنوب فكانت تمتدّ من الموطيء الجنوبي لجبال القفقاس إلى شمالي الشلال الأول على نهر النيل. وقد كانت هذه أوسع امبراطورية قامت، كما كانت أقل الامبراطوريات ظلما.

٢٤ــ المدنية الهلينية نحو ٧٥٠ــ ٥٠٧ ق.م.

كانت المصائب التي أصابت حوض البحر الأيجي، أثناء انسياح الشعوب نحو ١٢٥٠ـ ٩٥٠ ق.م.، أكبر من تلك التي أصيب بها أيّ من المناطق الأخرى التي تأثرت بهذا الانسياح. فقد سقطت المدنيتان المينوية والميكانية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد؛ وتناقص السكان في بلادهما السابقة؛ وزالت الألفبائية منها. وكان ظهور المدنية الجديدة، الهلينية، منذ القرن الحادي عشر وما تلاه تدريجيا الى حد ان الشاعر هزيود، الذي عاش نحو ٧٠٠ ق.م.، لم يدرك معنى هذا الازدهار، مع أن ذلك كان إبان ازدهار هذه المدنية الهلينية ومع العلم أن شعره بالذات كان أحد المنجزات الكبرى المبكرة لهذه المدنية الهلينية.

وعلى رغم هذا التعامي المقصود من هزيود، فقد كان الأغارقة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد سعيدي الحظ، كما كانوا قد جُنِّبهم الحظ في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ففي ذينك القرنين كان العالم الهليني، باستثناء المستوطنات الأغريقية على الساحل الغربي القاري لآسية الصغرى، بعيدا عن متناول المدى التوسعي للجيوش الأشورية والجماعات البدوية الأوراسية الغازية. هذه المصائب ألمت بسورية، وقضت على باكورة المدنية فيها، في الوقت الذي كان فيه انتعاش العالم الإغريقي قد تم. وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد جاء المدنية الهلينية الوحي من التقدم الحضاري الذي كانت المدنية السورية قد اخذت تحققه منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهو الزمن الذي كانت كل المظاهر تدل على أن العالم الإغريقي كان لا يزال يغط في سباته.

وقد ترتب على حسن حظ العالم الهليني ان نجا من الهجمات المدمرة الخارجية وان حظي بتفجر سكاني وهو الذي استمر الى القرن الثاني قبل الميلاد. وفي نحو سنة ٧٥٠ ق.م. وقع الهلينيون تحت الدّين الأول لسورية. فقد وصلتهم، نحو هذا الوقت، الألفباء

الفينيقية. لقد كانت هذه الكتابة أصلح لتدوين اللغة اليونانية، أو أية لغة أخرى، من الخط « ب » المقطعي، الذي كان قد وضع، في القرن الخامس عشر على الأرجح، تقليدا للخط « أ » المينويّ. ولما طوّر الأغارقة الألفباء لحاجة لغتهم الخاصة، باستعمالهم بعض الحروف الفينيقية الصامتة لتكون حروف علة، فانهم وجدوا تحت تصرفهم كتابة كانت من البساطة بحيث يمكن للرجل العادي أن يكتبها ويقرأها، فيما اذا قورنت بالخط ب، الذي كان قد أصبح نسيا منسيا، شأنه شأن الخط أ، ومثل الكتابات السومرية ـ الأكدية والمصربة والصينية، التي كانت أدوات باطنية كان يقدر على الانتفاع بها حلقة صغيرة من أهل الاختصاص فقط.

لقد كان تقبل الأغارقة للألفباء الفينيقية وتطويرها ذا نتائج مذهلة بالنسبة للأدب والفكرالهلينيين. ففي فترة القرون الأربعة ونصف القرن، التي سادت فيها الأمية، كان كل انشاد لأيلاّ ملحمة شعرية عبارة عن خلق جديد، يقوم به المنشد بداهة يرافقه إبداع غنيّ لأساليب عروضية كان المنشد يحفظها عن ظاهر قلب ويستعيدها عند الحاجة. فهل كانت الألياذة والأوديسة آخر نسخة للانشاد البديهي للعصرالسابق للعمل الفني الأدبي، ام كانتا الثمرات الأولى لاقتباس الكتابة الجديدة؟ هذا اضافة الى كونهما اطول واعظم نتاج أدبي! يبدو أنه من المؤكد ان مثل هذه النصوص الطويلة، وهي لا تمت للطقوس الدينية بصلة، ما كان لها أن تتخذ هذا الشكل النهائي لولا أنها دونت بعيد الأنشاد الأول لها. فالملحمة، على خلاف النصّ الديني، نوع من الأدب يصعب نقله بالرواية والحفظ كلمة فكلمة؛ ذلك بأن فاعلية الملحمة لا تعتمد على الإعادة الدقيقة لجماع الكلمات بشكلها الخاص. على النقيض من ذلك فان استجابة السامعين للملحمة الشفوية إنما تعتمد على مخزون عقلي عميق لأساليب عروضية قصيرة، بحيث ينتج عن ذلك عمل فني جديد في كلّ مرة يعرض فيها ذلك الأثر الأدبي.

وتدوين الملحمة يضمن كلا الأمرين: حفظ القصيدة وموت النوع. فلم تلبث الألياذة والأوديسة أن دونتا، حتى أخذ المؤلفون الأغارقة في اختراع سلسلة من الأنواع الجديدة: الشعر الرثائي والغنائي، والنثر القصصي، والحوار؛ وقد كانت هذه الأنواع تستعمل للتعبير والنقاش كما استعملت للتسلية. فما كاد القرن السادس ان ينتهي حتى كان الكتاب الأغارقة يدونون نظرات علمية. وقد بدأوا يكتبون الرواية التمثيلية ـ وقد استعمل الحوار التمثيلي، في نهاية المطاف، واسطة للجدل الفلسفي.

وقد تبع تقبل الأغارقة للالفباء الفينيقية وتطويرها، وهو الأمر الذي كانت له هذه الآثار الأدبية، اقتباسهم دوافع أجنبية للفن المنظور. ففي نهاية القرن الثامن كان الأسلوب الهندسي المتبع في زخرفة الأواني الفخارية قد أفسح في المجال امام أسلوب جديد، جاء من بلاد المشرق، كان أساسه الاستعاضة عن الأشكال المجردة برسم أشكال المخلوقات الحية ـ الحيوانات اولا، بغضّ النظر عن كونها حقيقية أو خيالية، ثم الكائنات البشرية كذلك. وقد كان مصدر الوحي لهذا الأسلوب الزخرفي الجديد للأواني الفخارية الفن التجاري الفينيقي المعاصر له. والمحاولات الأغريقية الأولى في تصوير الجسم البشري في أبعاده الثلاثة كانت مستوحاة من نماذج مصرية.

وما كان تقبل الأغارقة للآثار الفنية من المشرق في القرن السابع قبل الميلاد، وتقبلهم للألفباء الفينيقية قبل ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد ليتم لو أنهم لم يستعيدوا اتصالهم بالمشرق، ذلك الاتصال الذي تعثر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد كان هذا الاتصال، في الغالب الأعم، بحريا، وكان ولا بدّ اتصالا تجاريا؛ فالأغارقة ما كانوا ليستوردوا البضائع المشرقية بالمجان. ففي واقع الأمر كان ثمة مركز تجاري إغريقي يوبي قد أقيم، ربما في القرن التاسع قبل الميلاد، في الميناء عند مصب نهر العاصي، في الطرف الشمالي من الساحل السوري. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد كانت الحاجة الاقتصادية الماسة، بالنسبة الى الأغارقة، هي الحصول على المواد الغذائية للعدد المتزايد من الأفواه الجائعة في ذلك الحين. وقد كان ثمة سبيل واحد لزيادة المواد الغذائية لمنطقة لم تكن بطبيعتها غنية بالموارد الطبيعية هو استيراد الحبوب من مناطق خارج العالم الهليني مقابل المنتوجات الهلينية؛ أما أهون السبل فقد كان أقلها تعقيدا. وذلك بتوسيع رقعة العالم الهليني عن طريق فتح واستعمار البلاد التي تقطنها شعوب كانت ضعيفة بحيث لا سبيل لها لمقاومة الاعتداء الهليني.

في العقود الأخيرة من القرن الثامن قبل الميلاد أخذ الأغارقة بالتوسع عبر البحار غربا، في ما وراء مضيق اوترانتو، على السواحل الجنوبية والغربية لايطالية، والسواحل الشرقية الشمالية لجزيرة صقلية. وفي القرن السابع قبل الميلاد أخذ الأغارقة ايضا بالتوسع في سواحل البحار الضيقة التي توصل حوض البحر الأيجي بالبحر الأسود. ولعل التجار الأغارقة سبقوا المستوطنين الأغارقة وارشدوهم الى المواقع التي استولوا عليها؛ إلا أن الجاليات الإغريقية الهلينية المبكرة كانت نسخا طبق الأصل للجماعات الإغريقية المعاصرة

التي أنشأتها. لقد كانت تلك، مثل هذه، دولا ـ مدينية تعتمد أصلا على الزراعة في الحصول على حاجتها من الحاجات الحياتية: تنتج المواد اللازمة لعيش المنتج، لا للتصديرالى الخارج. ولم يكن للأغارقة منافسون في المنافذ البحرية الى البحر الأسود. وقد ذكر من قبل أن إقامة دول ـ مدينية إغريقية على الساحل الغربي لاسية الصغرى وفي الجزر القريبة، قد جعل من البحر الأيجي بحيرة إغريقية. وفي الجهة الثانية، فقد لقي الأغارقة، في الحوض الغربي للبحر المتوسط، منافسة قوية على أيدي الفينيقيين والأترسكيين (ويبدو ان هؤلاء كانوا شعبا، مثل الفينيقيين والأغارقة، أصله من شرق البحر المتوسط، ولو أن هذا لم يثبت قطعياً بعد).

وعندما ننظر الى المنافسة في سبيل السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، يتضح لنا ان الفينيقيين كانوا دون الأغارقة عددا، لا ديموغرافيا فحسب، بل ايضا بسبب الاعتداء الأشوري عليهم في بلادهم الاسيوية الأم. إن الجولة العسكرية الأشورية الأخيرة، والتي كانت أكثر عنفا من سابقاتها، بدأت سنة ٧٤٥ ق.م.، وجاء هذا بسنوات قليلة بعد التاريخ الذي بدأ فيه الأغارقة بإقامة صوارئهم في الغرب. وعلى كل حال، فقد كان للفينيقيين والاترسكيين نوع من التفوق الهام على الأغارقة، وقد اتخذوا خطوات مقصودة ومؤثرة لمقاومة التفوق العددي للأغارقة، وابتعادهم عن المصيبة الأشورية.

فقد اتخذ الفينيقيون مراكز ذات قيمة استراتيجية، وبذلك سبقوا الهلينيين، بحيث تمكنوا من وقف التوسع الهليني غربا في حدود معينة. فاستولى الفينيقيون على شواطىء مضيق جبل طارق، الذي كان يسيطر على الطريق البحري الموصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. واضافة الى ذلك فقد كانوا يسيطرون ايضا على كلا الشاطئين الواقعين بين النقطة الشمالية الشرقية من إفريقية الشمالية الغربية والطرف الغربي من جزيرة صقلية، اضافة الى أنهم سيطروا على ساحل سردينية الجنوبي. وكان الاترسكيون يمتلكون الاحتياط المعدني في جزيرة إلبا وفي البر الإيطالي المصاقب لها. وقد كانت هذه من المغانم الاقتصادية الرئيسة في حوض البحر المتوسط الغربي، لكن أقرب نقطة تمكن الأغارقة من الاستيلاء عليها كانت كومي، وكانت على بعد كبير الى الجنوب على ساحل ايطالية الغربي. ولعل هذه كانت أقدم مستعمرة إغريقية قارية في الغرب، إلا أن إقامتها جاءت متأخرة بحيث أنها عجزت عن سبق الأترسكيين في توطين جماعة معدَّنة

في بوبولونيا. وقبل ان ينقضي القرن السادس كان الأترسكيون قد احتلوا المناطق الريفية (كامبانيا) الواقعة ما وراء كومي.

قابل المستعمرون الفينيقيون والأترسكيون الأعداد الأكبر من الأغارقة عن طريق الوحدة السياسية. ففي اواخر القرن السادس قبل الميلاد كانت كل المستعمرات الفينيقية قد وضعت نفسها تحت القيادة الموحدة لأقواها، وهي قرطاجة؛ وقبل ذلك كان المستعمرون الفينيقيون قد التزموا بوحدة الهدف مع الدول ـ المدينية الأترسكية. ومن ثم فان الأغارقة الآسيويين لما حاولوا الحصول على ملجأ في الغرب، هربا من الحكم الليدي اولا ثم من الحكم الفارسي في ما بعد، باؤوا بالخيبة. وقبل سنة ٥٠٠ ق.م. توقف الاستعمار اليوناني في الحوض الغربي للبحر المتوسط. وعند هذا التاريخ كانت الأجزاء الوحيدة التي استطاع الأغارقة احتلالها، هي الريفييرا الفرنسية وكوستا برافا، التي تقع على شواطىء البحر المتوسط الأوروبية في المنطقة الواقعة الى الشمال الغربي من كومي. وكانت المستوطنات الإغريقية هنا تحت القيادة الموحدة لواحدة منها هي مسيليا (مرسيليا) التي يسر لها موقعها، عند مصب نهر الرون، الاتصال مع قلب القارة الأوروبية، وكذلك الاتصال بمناجم القصدير في كورنوال [في جنوب انكلترا] وذلك عبر مسيرة برية قصيرة، بحيث كان من الممكن تجنب مضيق جبل طارق الذي كان يصعب على السفن الإغريقية اجتيازه بسبب وجود المستعمرين الفينيقيين هناك تحت قيادة قرطاجة. وعلى كل فان تجارة المسيليين مع الداخل الى الشمال تعرضت للتوقف نحو سنة ٥٠٠ ق.م. وذلك بسبب اضطراب قام بين الشعوب القاطنة هناك.

إن التوسع في المجال الحيوي الهليني، في القرن السابع قبل الميلاد، عن طريق إقامة دول ـ مدينية إغريقية التي كانت تعتمد في حياتها على الزراعة، بذّه، من حيث الأهمية الاقتصادية، توسع على نطاق اوسع في المجال التجاري للعالم الهليني. إن غالبية الدول ـ المدن الهلينية، في بلاد الإغريق الأصلية وفي ما وراء البحار، ظلت أصلا جماعات صغيرة، مكتفية ذاتيا اقتصاديا، لكن اقلية منها اخذت نفسها بإنتاج مواد متخصصة للتصدير مقابل استيراد الحبوب المنتجة في الخارج. وهذا مكّن لهذه الدول ـ المدن أن تعيش من الاتّجار مع الشعوب التي لم تتمكن من احتلال بلادها واستعمارها. وقد كانت احدى هذه الصادرات المتخصّصة الجنود المرتزقة. وقد أشرنا من

قبل الى استيراد مصر لهؤلاء في القرن السابع قبل اليملاد. وفي القرن السادس قبل الميلاد كان أحد أبناء ميتيلين، وهو أخ للشاعر الكابوس، من المرتزقة في جيش نبوخذنصر. والجماعات الإغريقية المتأخرة اقتصاديا كان بامكانها ان تصدّر المرتزقة، وقد فعلت ذلك. وثمّة جماعات، وهي اصغر عددا، كانت متقدمة اقتصاديا فكانت تصدر زيت الزيتون والخمور في أوعية مزخرفة بشكل جميل بحيث كانت هي بالذات ادوات لها قيمتها الخاصة. ومع ان هذه الآنية كانت هشّة، فانها، على كلٍّ، كانت أقوى على البقاء من السوائل التي كانت تحويها.

في القرن السابع قبل الميلاد كان الأغارقة يحصلون على فائض المنتوج من الحبوب في منطقتين ـ مصر وأوكرانيا. وقد أشرنا من نبل الى التجارة الإغريقية مع مصر، اما التجارة مع اوكرانيا فقد أصبحت ممكنة لما توقف انسياح السكيثيين البدو الرعاة في السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود. لقد كان البدو السكيثيون، من بين البدو الأوراسيين، فريدين في حصافتهم الاقتصادية إذ أنهم فرضوا على السكان الزراعيين في اوكرانيا ان يدفعوا الضريبة المطلوبة حبوبا، وذلك بدل ان يدمروا الزراعة هناك عن طريق اقتناص العبيد. والمستعمرات الإغريقية على الشواطىء الشمالية والغربية للبحر الأسود كانت عدة، ولكنها كانت، في غالبيتها، مراكز تجارية صغيرة، ولم تكن مستوطنات زراعية على غرار تلك التي قامت حول البحار الضيقة في الغرب.

وشجع التجارة اليونانية في ما بعد اختراع سكّ النقود، الأمر المعزو الى ملك ليديا أليياتس (حكم نحو ٦٠٨ـ ٥٥٨ ق.م). لقد كان من المألوف، قبل ذلك بزمن طويل ـ في واقع الأمر لعلّ ذلك بدأ مع نشوء الحياة المدنية في سومر ـ أن تستعمل سبائك الذهب أو قضبان الفضة أو قطع النحاس وسائل للتبادل المصرفي. وابتداع الياتِس لم يكن اختراع عملة معدنيّة، بل كان يتمّ بختم قطع من المعدن بختم معيّن وإصدار مثل هذه القطع المختومة من قبل الدولة. ولم تكن النقود أسهل تناولا من السبائك فقط؛ اذا كانت السلطة التي تصدر النقود ذات اعتبار اقتصادي سليم، فان نقودها كانت تحمل محمل الثقة، دون الحاجة الى وزنها كلما انتقلت من يد الى أخرى. ولم تلبث ان اخترعت النقود حتى شاع استعمالها. وانتشرت دور الضرب في كثير من المدن اليونانية حالا. ولما سكّ دارا الأول وخلفاؤه نقودا ذهبية، انتشر الاختراع الجديد عبر الإمبراطورية الفارسية. ومع ذلك، استمرت الغالبية غير التجارية

من السكان زمنا طويلا وهي تلجأ الى المقايضة في التبادل التجاري المحدود في الأسواق المحلية، وذلك حتى في المشرق.

أن توسيع المجال الحياتي للأغارقة، ثمّ توسيع مجالهم التجاري، اللذين رافقهما ثورة في النشاطات الاقتصادية لأقلية من الدول ـ المدن الأغريقية كانت بالنسبة لها مغامرة اقتصادية ـ كل هذا أحدث تبدّلات هامة في توازن القوى في العالم الهليني. في العصر المظلم وهو الزمن الذي كانت فيه المدنيّة الهلينية تبرز الى الوجود، كانت أثينا هي الدولة ـ المدينة الهلينية الخلاقة ـ وهي القلعة الميكانية الوحيدة التي لم تتعرض للسلب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد حافظت أثينا على مركزها المتميز عبر عصري الزخرفة السابقة للهندسية والزخرفة الهندسية، إلا انها، منذ نحو ٧٥٠ ق.م. إلى ما بعد بدء القرن السادس قبل الميلاد، فقدت أثينا مركزها القياديّ موقتا. ولم يكن لأثينا دور لا في حركة الاستعمار، ولا في الدور الأول للثورة الاقتصادية التي تلت ذلك.

إن التي صنعت هذه الثورة [الاقتصادية] كانت هي الدول ـ المدن الواقعة على الساحل الغربي لآسية الصغرى والبعيدة عنه قليلا (مثل ميلتوس وكيوس) وحول مضيق كورنث (مثل كورنث بالذات وسيكيون وميغارا). وقد انتهى المطاف بالملحمة اليونانية التي تمثلت بالألياذة والأوديسة في منطقة ايونيا. وفي العصر الذي تلا ذلك لم يكن أي من الشعراء الحزنيين أو الغنائيين أثينيّاً، والأساليب الجديدة لزخرفة الآنية التي عقبت الأسلوب الهندسي وجدت في رودس وكورنث وإسبارطة، لا في اثينا. وحتى في القرن السادس قبل الميلاد، إذ كانت أثينا تسير نحو المقدمة ثانية ـ أولا اقتصاديا ثم سياسيا ايضا ـ لم يكن آباء العلوم الطبيعية الأغارقة اثينيين؛ فقد كان بينهم اثنان من ميلتوس (طاليس وأنكسمندر) وهرقليطس الأفسي. وقد تم على أيدي هؤلاء الأغارقة الآسيويّين اضخم الانجازات الهلينية الفكرية. لقد كان أسلافهم ينظرون الى سير الحياة في طبيعتها على أنها تعبيرات تشبيهية لما يسبق الخليقة. وعلماء الطبيعة الأيونيون من أهل القرن السادس قبل الميلاد أخذوا على عاتقهم تفسير الظواهر الموضوعية بحدود مجردة. ولم يقم أي مواطن اثيني بدور متميز في تطوير العلم الهليني، لا في البدء ولا حتى في أية مرحلة تالية.

وقد شهد ربع الألف من السنين الذي بدأ نحو سنة ٧٥٠ ق.م. تفجرا عظيما للطاقة الإغريقية في عدد من المجالات المختلفة، لكن هذا التفجر كانت له جوانبه المظلمة كما

كانت له الجوانب المنيرة. فقد هدر الكثير من هذه الطاقة في النزاع المدني بين دولة ـ مدينة وأخرى، وفي النزاع بين الطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية المتنافسة. وفي الحقبة من التاريخ الإغريقي الممتدة من نحو ٧٥٠ ق.م. والتي استمرت حتى أوقف الرومان الدول الإغريقية عن التناحر في ما بينها، انغمس الأغارقة في القسوة ضدّ بعضهم البعض على نحو لا يقلّ عما كانوا عليه في العصر الميكاني. وفي الدول الإغريقية التي مرت بها ثورات اقتصادية في القرن السابع قبل للميلاد كان النزاع الداخلي عنيفا وحادا بحيث ان هذه الدول انتهى الأمر بها الى قيام حكومات دكتاتورية موقتا. وقد كان هذا هو الجزاء الذي أصابها لأنها فشلت في الانتقال سلميا من شكل حكومة ملكي او ارستقراطي الى شكل تكون فيه الثروة، لا شرف المحتد، المؤهل لتولي الشؤون السياسية.

كانت القضية البارزة في سوء المعاملة التي لقيها الإغريقيون على أيدي الأغارقة، في هذه الحقبة، احتلال خمسي البلاد في الجنوب الأقصى للبلوبونيز (نحو سنة ٧٥٠ـ ٧١٥ ق.م .) على أيدي واحدة من الدول ـ المدن المحلية، وهي إسبارطة. فقد كانت هذه دولة ـ مدينة محصورة برّا، وقد كان احتلالها لجيرانها الأغارقة مقابلا لاحتلال الدول ـ المدن الأغريقية البحرية، مثل كورنث وخلقيس، للسكان من غير الأغارقة في إيطالية وصقلية.

لقد أوهم الإسبارطيون بعض الدول ـ المدن المجاورة بأن الاحتلال يحفظ لها الحكم الذاتي لقاء تعهدّها بان تقدم الى إسبارطة عونا عسكريا في حال قيام حرب. وقد تقبلت هذه الجماعات خسارتها لسيادتها على هذه الشروط؛ لكن الإسبارطيين أذلوا هؤلاء السكان، وأنزلوهم منزلة الأقنان. وفُرض على هؤلاء الأقنان ان يدفعوا الضرائب عينا من غلة اراضيهم للمواطنين الإسبارطيين كي يعفى هؤلاء من العمل في الزراعة، وبذلك يتمكنون من قضاء وقتهم كلّه في شنّ الحروب والتدريب العسكري. وهكذا فان اسبارطة، باستغلالها السكان الأغارقة المستعبدين، والذين كان عددهم اضعاف عدد سكان المواطنين الإسبارطيين انفسهم، تمكنت من أن تيسر لهذه الأقلية المتميزة مساواة ديمقراطية في الحقوق السياسية في ما بين أفرادها، دون أن تلغي الملكية ومجلسها الأرستقراطي، وحتى دون أن تقع تحت نير الدكتاتورية. ودستور إسبارطة الديمقراطي ـ وهو الأقدم في العالم الهليني ـ دُشّن في تاريخ يقع في الجزء المتأخر من القرن السابع قبل الميلاد.

كان تركيز الإسبارطيين على التدريب العسكري والنظام قد جعل منهم أقوى جنود في العالم الهليني. وقد حاولوا بادىء الأمر أن يستغلوا قوتهم العسكرية في احتلال بلاد إغريقية أخرى، كي ينزلوا أغارقة آخرين منزلة الأقنان، إلا أنهم تنبهوا، نحو سنة ٥٥٠ ق.م.، الى أن قواهم البشرية، مع ما كانت عليه من الشجاعة والدربة، لم تكن كافية عدديا للإبقاء على الأقنان الحاليين خاضعين، فضلا عن زيادة عددهم في الوقت ذاته عن طريق فتوح جديدة. ومن ثم فقد تخلّى الإسبارطيون عن سياسة الفتح، واستعاضوا عنها بسياسة الاحلاف. فأيدوا القضاء على الدكتاتوريات في المدن المتقدمة اقتصاديا الواقعة حول مضيق كورنث، وتحالفوا مع الأنظمة القائمة على الثروة، التي جاءت في أعقاب القضاء على الدكتاتوريات هناك.

ونحو سنة ٥١١ ق.م. جرب الإسبارطيون توسيع مجال الأحلاف عن طريق القضاء على الدكتاتورية التي كانت لا تزال تتمتّع بالسلطان في أثينا ونجحوا في المحاولة الثانية؛ لكن النتيجة في أثينا لم تأت كما جاءت في مغرا وكورنث وسيكيون. ففي أثينا فشلت الأوليغارية التي تسلمت الحكم من الدكتاتور المطرود، في الصمود أمام حركة أكثر راديكالية. ولما جربت إسبارطة التدخل للمرة الثالثة لدعم أصدقائها المحافظين، كسرت على يد ثورة شعبية.

وهكذا نجت أثينا من السيطرة الإسبارطية، وعندها (حوالي سنة ٥٠٧ ق.م .) أقام الأثينيون نظاما ديموقراطيا. وقد ساروا في ذلك على المثل الإسبارطي، لكن في هذا الدور كان ثمة فرق أساسي بين البنية الاجتماعية للدولة الأثينية وتلك التي كانت في إسبارطة. ففي البلاد الإسبارطية كانت غالبية السكان من الأقنان. اما في أثينا فلم يكن ثمة أقنان. كان ثمة بعض العبيد وكان هناك عدد متزايد من الأحرار الأجانب الذين لم يعتبروا مواطنين [لا يحق لهم التصويت أو الانتخاب]، لكن غالبية السكان كانت من المواطنين [الذين يحق لهم التصويت والانتخاب]. ففي سنة ٤٨٠ ق.م. لما تعاونت إسبارطة وأثينا موقتا لصدّ الحملة الفارسية، كان في أثينا نحو ٣٠,٠٠٠ مواطن، أما إسبارطة فكان فيها نحو ٨,٠٠٠ مواطن فقط. كان عدد سكان الأملاك الإسبارطيين أكبر من عدد سكان اثينا، ولكن فيما كانت غالبية السكان في أملاك إسبارطة ذخرا اقتصاديا لإسبارطة، فقد كانت هذه الغالبية مسؤولية سياسية وعسكرية ايضا، إذ انها كانت تتألف من أقنان لم يتقبلوا وضعهم.

في السنوات الحاسمة (٥١١ـ ٥٠٧ ق.م .) كان التعامل الإسبارطي مع أثينا قد اتخذ انعطافا كان في طبيعته مزعجا وغير منتظر بالنسبة للإسبارطيين. وسبب ذلك يعود الى أن أثينا كانت، خلال القرن السادس قبل الميلاد، قد بدأت تفيق من الخسارة في القيادة التي منيت بها موقتا. وكان التوتر الاجتماعي في أثينا في ذلك القرن حادا على نحو ما كان عليه في المملكة الشمالية [في فلسطين] في القرن الثامن قبل الميلاد. وقد بدا وكأن اثينا كانت على وشك ان تصبح بلادا تكون الغالبية السكانية فيها من الأقنان، على نحو ما آلت اليه أملاك إسبارطة. وقد انقذ أثينا من مثل هذا القدر الاصلاحات التي أدخلها (في سنة ٥٩٠ ق.م .) السياسي رجل الأعمال صولون. لكن إصلاحات صولون التي تقبلتها أثينا طواعية لم تكن جذرية بما فيه الكفاية بحيث تحول دون قيام طاغية في المدينة، وهو بسستراتس، الذي اتم العمل الذي بدأه صولون؛ وكان من الضروري أن تتدخل إسبارطة عندئذ لتنقذ أثينا من الدكتاتورية لما أتمت هذه دورها. وعلى كل فان الفضل في إعادة الازدهار الى اثينا يجب ان يعزى الى صولون لا إلى بسستراتس. فقد بدأ صولون صناعة إنتاج زيت الزيتون في اثينا من أجل التصدير، كما شجّع تطوير الصناعات. ومنح المواطنة الأثينية الى كل تقني أجنبي إذا كان مستعدا لأن يلقي بحظه الى جانب المدينة التي اختارها، وكان عليه ان يقدم ضمانة على ذلك بأن ينتقل مع اسرته إليها؛ أو إذا كان قد نفي من مدينته ـ الدولة الأصلية. وكانت الصناعة الرئيسة التي كانت تدعمها أثينا هي صناعة الآنية وزخرفتها، وهي الآنية التي كانت تستعمل للزيت والخمر. ونحو سنة ٥٥٠ ق.م. كانت المصنوعات الفخارية الأثينية قد سيطرت على السوق العالمية وحلت محل مصنوعات كورنث وإسبارطة.

كانت ايجينا، وهي إحدى حليفات إسبارطة، قد تضرّرت اقتصاديا من جراء منافسة أثينا لها. فهذه الجزيرة، التي كانت تُرى من اثينا، كانت تعيش على التجارة. وكان للايجينيين دور رئيس في المستوطنة البانهيلينية في نيوكراتيس بمصر. وكان الخصام بين إيجينا وأثينا عنيفا الى حد أن كليومينس الأوّل، ملك إسبارطة، وجد صعوبة كبيرة في وقف إيجينا عن شنّ الحرب على اثينا.

وهكذا ففي الفترة الممتدة من نحو ٧٥٠ الى ٥٥٠ ق.م.، كان الصراع عنيفا بين المدن ـ الدول الهلينية على المستويين الدولي والداخلي. ومع ذلك ففي هذه الفترة بالذات كان الأغارقة، على رغم الخلافات السياسية والاقتصادية المتزايدة، قد سرى فيهم الوعي

بوحدتهم الحضارية وبتضامنهم، وهذا الوعي تمثل في عدد من المؤسسات البانهيلينية.

« فالهلينيون »، وهو الاسم الجديد للأغارقة انفسهم، كان يعني « سكان هلاّس ». و « هلاس » كان اسما لمقاطعة صغيرة في وسط بلاد اليونان كان يقوم فيها معبد لأرتميس في أنتيلا على مقربة من ترموبولي، كما كان فيها معبد للإلهة الأرض والإلهين أبوللو وديونيسيوس في دلفي وهو مكان الموحى الذي كان يتمتع بالاحترام كما كان كثيرا ما يستوحى. وقد أصبح هذان المعبدان يداران من قبل اثنتي عشرة دولة إغريقية متجاورة (أمفكتيونية). وهذا المجمع الأمفكتيونيّ (مجلس الحوار) نجح في أن يقيم لنفسه مكانة كبيرة في عالم الإغريق جملة، بحيث أن الدول النافذة التي لم تكن اعضاء أصلية في هذه الأمفكتونية (المجلس) نجحت في الحصول على الحق في أن تمثل فيه. وهذا التوسع في الأمفكتيونية (المجلس) كان يصاحبه توسّع في استعمال كلمتي « هلاس » و « هلينيين » بحيث أصبح هذان الإسمان يمثلان، على التوالي، المنطقة بكاملها وجميع الذين كانوا من أتباع هذه المدنيّة الحديثة التي قامت في حوض البحر الأيجيّ في القرن الحادي عشر قبل الميلاد والتي كانت آخذة في الانتشار والتوسع من هناك إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

اضافة إلى الأمفكتيونية الهلينية (مجلس الحوار الهليني) كان هناك للمؤسسات البانهيلينية أربع احتفالات دورية في دلفي وكورنث ونيميا في الما وراء البلبونيسيّ، وكان أقدمها وأكثرها إجلالا احتفال أوليمبيا في الجهة الغربية من البلبونيس. وقد كانت أوليمبيا، على نحو ما كانت عايه لافنتا وتريس زابوتس الأولمكيتان المعاصرتان لها، مركزاً للقيام بالطقوس الدينية، ولم يكن حوله مستوطنة مدنية ثابتة. وهذه الاحتفالات كانت مناسبات للتنافس البانهيلينيّ، ولم تكن هذه رياضية حصرًا؛ فقد كان هناك منافسات في الشعر والموسيقى كذلك.

وفي واقع الأمر فان هذه المؤسسات البانهيلينية كانت سبل الوحدة الثقافية ومعناها التي كان الإسمان « هلاّس » و « هلينيون » يعبران عنها. وعلى كل حال فان جوهر هذه الوحدة لم يكن تنظيميا، بل كان سيكولوجيا. فقد كان الأساس السيكولوجي للهلينية، هو وجهة نظر مشتركة، وآمال ومثل مشتركة ومعاناة مشتركة وعادات واداب مشتركة. فعلى سبيل المثال فان الشعر الذي كان ينظم في مدينة ـ دولة هلينية معينة باللهجة المحلية كان يصبح، بسرعة، ملكا مشتركا لجميع الهلينيين. فالملحمتان الهومريتان،

اللتان استوفيتا شكلهما النهائي في مكان ما من ايونيا، شاعت تلاوتهما في انحاء العالم الهليني، وأخذ الشعراء أنفسهم بنظم الشعر باللهجة الهوميرية وعلى العروض الهومريّ ـ على نحو ما فعل الشاعر البيوتي هزيود ـ الذي كانت لغات الأم عنده لهجات إغريقية مختلفة. وهكذا فان اللهجات الإغريقية أصبحت أكثر من مجرد لغات محكية محليّة، فقد أصبحت آلات لأنواع مخصّصة من الأدب البانهيليني. إن الروابط الفكرية والعاطفية والروحية للهلينية أمور لا يمكن لمسها، إلا أن هذه الروابط هي التي ربطت بين الهلينيين وذلك لأنها تجرّدت عن التحزبات الاقتصادية والسياسية.

٢٥ـ انطلاقات جديدة في الحياة الروحية نحو ٦٠٠ـ ٤٨٠ ق.م.

في فترة زمنيّة لا تتجاوز المئة والعشرين من السنين ـ أي مدة أربعة أجيال أو خمسة ـ ظهر خمسة من كبار الحكماء في أويكومين العالم القديم.

كان أقدم هؤلاء الخمسة زرواستر (زرادشت) الأيراني. وزمانه ومكانه ليسا معروفين تماما، لكن يبدو من الممكن أن أفعاله تمت في السنوات المبكرة من القرن السادس قبل الميلاد، وأن مجال نشاطه كان في حوض نهري إكسوس ـ جاكسارتس (سيحون وجيحون) في مناطق كان يقيم فيها شعب مستقرّ إلا أنه كان يتعرض لهجوم يقوم به بدو السهوب الأوراسيّة. وكان الحكيم الثاني هو أشعيا الثاني (أو المتأخر). فقد اختفى اسمه ـ إما أنه أخفاه هو بنفسه أو لعل الذي أخفاه هو محرّر كتاباته، وذلك بالصاق ما كتبه بكتاب النبي أشعياء من سبط يهوذا الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. إلا أن أشعياء الثاني (أو المتأخر) يحيِّي قورش الثاني على أنه الملك الذي مسحه يهوه وهو المؤسس الأول للامبراطورية الفارسية الأولى، وقورش الثاني هو الذي تغلّب على الإمبراطورية البابلية الجديدة، وسمح لليهود الذين كانوا قد نقلوا الى بابل بالعودة الى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين]، وكان ذلك في سنة ٥٣٩ ق.م.. وليس ثمة أي إشارة في كتابات أشعياء الثاني (أو المتأخر) إلى المكان الذي كتبت فيه. وكلا المكانين ـ بابل وأرض المملكة الجنوبية ـ هما إمكانتان محتملتان.

وزمن البوذا يكاد يكون غير معيّن مثل زمن زرواستر. فلعلّه كان يعيش نحو ٥٦٧ـ ٤٨٧ ق.م. ولعله من الممكن أن البوذا، سدهارتا غوتاما، وقد ولِدَ في كابيلافاستو، وهي مدينة ـ دولة صغيرة تقع بي حدود مملكة نيبال الحالية، وأن مجال نشاطه كان بيهار الحالية. وقد كان كونفوشيوس اصغر سناً من معاصره البوذا، إذا صح ان زمنه التقليدي (٥٥١ـ ٤٧٩ ق.م .) هو دقيق على وجه التقريب. وكان موطنه في

الصين في ولاية لو، وهي واحدة من أصغر الولايات وأضعفها، التي انتهى إليها أمر أملاك أسرة تشو لما كانت قد انحلّت في أيم كونفوشيوس. وكان فيثاغورس معاصراً للبوذا على وجه التقريب. فقد ولد في جزيرة ساموس القريبة من الشاطىء الأيونيّ، إلا أن مجال عمله كان المستعمرات الإغريقية في جنوب إيطالية، وقد استقر في المدينة ـ الدولة كروتون.

ان هؤلاء الحكماء من أهل القرن السادس قبل الميلاد، مع امكان استثناء فيثاغورس، لا يزالون حتى يومنا هذا يؤثرون في الإنسانية، إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، أكثر من أيّ كائن بشري حيّ. فالبوذا يؤثر مباشرة في أكثر من نصف أهل الجيل الحاليّ، وكونفوشيوس يمتدّ أثره إلى أكثر من الثلث. وتأثير أشعياء الثاني (أو المتأخر) يشمل المسيحيين اضافة الى اليهود. إن التأثير المباشر الحالي لزرواستر محدود في البارسيين، وهم اليوم جماعة صغيرة عددا، إلا أنهم، مثل اليهود، يقومون بدور في العالم الحاضر أكبر من نسبتهم العددية. وعلى كل حال فان زرواستر يؤثر، في يومنا هذا، بطريقة غير مباشرة في اليهود والمسيحيين والمسلمين. ذلك بأنه نتيجة للوفاق بين الفرس واليهود في عصر الإمبراطورية الفارسيّة الأولى، منذ أن ضمت اليها الامبراطورية البابلية الجديدة في سنة ٥٣٩ ق.م.، والى حين القضاء عليها سنة ٣٣٠ ق.م.، وجدت الأفكار الزرواسترية الروحية القوية ـ مثل الخلود ويوم الدينونة وفعل الله بواسطة الروح القدس ـ طريقها إلى اليهودية، ومنها الى الديانتين الأخريين ـ المسيحية والإسلام.

لعله كان ثمة بعض سنوات في القرن السادس قبل الميلاد حين كان جميع هؤلاء الحكماء يعيشون متجايلين، لكنه من غير المحتمل أن يكون أي اثنين منهم قد التقيا؛ والأمر الذي هو بعيد عن الاحتمال أن أيا منهم عرف بوجود الآخرين. إن العقائد والأهداف والممارسات على ما نعرفها عند اثنين منهما ـ البوذا وفيثاغورس ـ متشابهة الى حدّ كبير بحيث يكاد يفرض علينا القول بأنهما استقيا الوحي من مصدر مشترك؛ إلا أنه ليس أقل مدعاة الى القول بأن لا البوذا في بيهار ولا فيثاغورس في ايطالية كان باستطاعته ان يتبادل الاتصال مع معاصره حول هذه المجموعة من المبادىء المشتركة التي كان يشاركه شأنها، عبر هذه المسافة الجغرافية الطويلة.

وبسبب أهمية المعاصرة لهؤلاء الحكماء الخمسة، فقد أطلق كارل جاسبرز على الفترة التي تنتظم حياتهم العصر المحوريّ، أي العصر الذي تَمَفْصَل عليه تاريخ البشرية. فقد كان

ظهورهم، في حقيقة الأمر، منعطفا هاما من حيث أنهم، كما أشير إلى ذلك من قبل، استمروا في التأثير على البشرية الى يوم الناس هذا، ومن حيث أنهم يستمرون في التأثير في الأحفاد، بالمثل الذي قدموه، حتى ولو أن حكمتهم فقدت قيمتها كوصايا، ولو أن تعاليمهم فقدت أهميتها كقانون إيمان. وعلى كل فان كنّا ننوي أن ننظر إلى تاريخ العالم في حدود العصر المحوريّ ـ وهذا، بحد ذاته، رأي ثاقب ـ فأنه يتحتم علينا أن نوسع إطاره الزمني في كلتا الجهتين.

لقد كان اشعياء الثاني (المتأخر) نذيراً من المدرسة السورية؛ وعندنا شهادة عن نذير سوري التقى به وينامون في بيبلوس (جبيل) نحو سنة ١٠٦٠ ق.م ـ اي قبل اشعياء الثاني (المتأخر) بنحو خمسمئة سنة. ولا سبيل إلى فهم أشعياء هذا إذا لم نتعرف إلى أنه كان يتبع سبيل التقليد السوري سيرا واعيا. وقد وعى ذلك هو أو محرره فأشار الى هذا الأمر لما ألحق كتاباته بالكتاب الذي وضعه أشهر انبياء قبيلة يهوذا. وواضح أنّ زرواستر هو نذير من النموذج السوري، مع أنه ليس ثمة دليل، بالنسبة إليه، على أنه تأثر بأيّ سلف، سوريا كان أو إيرانيا. ولا شكّ في أنه مما يؤدّي الى الضّلال هو أن يحدد زمن محوري دون اعتبار هذين العملاقين وهما زرواستر وأشعياء الثاني (المتأخر). ومن هنا فان الزمن المحوري يتسع من فترة تمتدّ نحو مئة وعشرين سنة إلى فترة تمتدّ عبر نحو سبعة عشر قرنا بدءا من سنة ١٠٦٠ ق.م. وحتى سنة ٦٣٢ م، وهي سنة انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. والقرون السبعة عشر هذه تغطي نحوا من ثلث الامتداد الزمني، إلى اليوم، لنوع المجتمعات التي اسميناها « مدنيات »؛ رمع ذلك فأن سبعة عشر قرنا هي طرفة عين اذا ما قيست بالزمن، إلى اليوم، الذي مرّ على البشرية، وبالتالي، على الأحياء قبل البشرية.

مع أن الحكماء الخمسة الذين ظهروا في القرن السادس قبل الميلاد قد وجدوا مستقلين واحدهم عن الآخر، فاننا نتلمس بعض الصفات التي يشترك فيها الخمسة جميعهم، ولو أن مثل هذه ليست صفاتٍ خاصة بهم وحدهم.

إن أبعد الخصائص المشتركة شأوا هي أن يصل الكائن الإنساني الفرد إلى علاقة شخصية مع الحقيقة الروحية النهائية، في الكون وفي ما وراء الكون، الذي يجد فيه المرء نفسه. فالأصل في هذه العلاقة أنها لم تكن فردية وشخصية، بل جماعية وعلى مستوى المؤسسة. فالجماعات السابقة للمدنيّة كانت قد اقتربت من الحقيقة المطلقة عبر قوى

طبيعية غير بشرية كانت في هذه المرحلة، تضع الإنسان تحت رحمتها. بعد انجازات المدنيّة نقل الإنسان نقطة تقربه من الحقيقة المطلقة. فبدلا من تأليه الطبيعة غير الإنسانية أخذ الإنسان نفسه بتأليه القوة الجماعية للجماعة البشرية. وتنظيم القوة البشرية الجماعية على نطاق واسع أمالت الميزان بشكل واضح لمصلحة الإنسان في صراع هذا الإنسان مع الطبيعة غير البشرية في طريق السيطرة. وهكذا فان الانسان، إذ غيّر هدف العبادة كان منسجما مع نفسه في أنه كان دوما يعبد القوة، في أي من الأشكال التي كان يجد القوة فيه أشدّ عنفا. ومن الناحية الروحية فان استبدال الطبيعة غير البشرية بالقوة الجماعية البشرية على أنها هدف العبادة كان ردة. فالانسان كان يبتعد عن الهدف، بدلا من الاقتراب منه، لما نقل ولاءه الروحي.

فكل من هؤلاء الحكماء الخمسة خرج عن تراثه في خضوعه الروحي للجماعة التي ولد فيها وترعرع. فانه بتحديه التقاليد: رفض كلا العبادتين ـ عبادة الطبيعة وعبادة الإنسان، وتمرّد على هذه الحجب المعيقة والمعتمة، في سبيل أن ينال رؤيا مباشرة للحقيقة الروحية وهي عارية. والقضية ظاهرة بالنسبة للأنبياء. فالنبي يعتقد ويصر على أن ما ينطق به مستوحى مباشرة من إلهه، وليس عن طريق وساطة اجتماعية. فكونفوشيوس، معتمدا مستوى عاطفيا أدنى، كان يعتقد ويصرّ على أنه كان يعيد الحياة إلى القانون الخلقي الذي يعين التصرف الاجتماعي والذي فرضته « السماء » على مؤسسي المدنيّة الصينيّة. ويبدو أن السماء (تيين)، كانت الصورة القائمة عنها أنها إله شخصي ـ أي شبيه بالإنسان؛ ومن الممكن أن هذا الاسم الصينيّ للحقيقة الروحية المطلقة قد فقد، في أيام كونفوشيوس، معنى الشخصية ولعله أصبح يتصور على أنه روح أو قانون فوق الشخصي أو أنه لا شخصيّ. ومن المؤكد أن البوذا لم يتصور الحقيقة الروحية المطلقة على أنها شبيهة بالإنسان. ولم يصنّفها لا مع جميع أعضاء المجمع الهندوي التقليدي ولا مع واحد فقط من هؤلاء الأعضاء. فبالنسبة للبوذا كانت الحقيقة المطلقة التي كانت الغاية من بحثه هي حال الفناء (النرفانا)، وقد كان عليه أن يصل، في الواقع فانه وصل، إلى النور عن طريق الجهد الروحي الخاص، دون احتمال الحصول على عون من قبل حقيقة مطلقة شبيهة بالإنسان الأمر الذي كان هدفه.

والصفة المشتركة الثانية للحكماء الخمسة هي أنهم دانوا وأنكروا الحال التي وجدوا أنفسهم فيها، وحاولوا تبديلها. وثوراتهم الروحية التي توالت اختلفت واحدتها عن

الأخرى اختلافا كبيرا في قوتها. فالبوذا، الذي كان اسمى الخمسة، كان ايضا أكثرهم تطرفا. فالذي جرّب البوذا تبديله هو الحياة نفسها التي وجدها. فقد وجد أن كل كائن حساس كان يصيبه الألم؛ كما أنه وجد أيضاً أن كل كائن حيّ هو طماع، وقد كان يرى أنه إذا كان لكائن حيّ ان ينجح في تطهير نفسه من طمعه، فان هذا يمكنه من تحرير نفسه من حال الحياة المؤلمة التي يجد كلُّ كائن حيّ طماع نفسه داخلا فيها. وقد دان فيثاغورس أيضا الحياة على نحو ما نَخْبرها. وهو أيضا جرّب ان يغيّر الحياة على خط البوذا نفسه، إلا أنه لم يكن مستعدا للسير في هذا المساق العنيف، على نحو ما اعتمده البوذا من حماسة واندفاع. وقد حاول زرواستر ان يقلب الصيغة التقليدية للدين الذي كان سائدا في مجتمعه، كما اهتم اشعياء الثاني (المتأخر) بأن يعدّل هذه الصيغة. وكونفوشيوس جرّب أن يرفع من مستوى التصرّف الاجتماعي الذي كان قائما في الصين في أيامه.

وكل من هؤلاء الحكماء الخمسة اهتم بأن يقود اناس الذين يتعامل معهم في الطريق الجديد الذي اكتشفه ذلك الحكيم نفسه. وقد دون زرواستر وأشعياء الثاني (المتأخر) رسائلهما كتابة. (وقد كانت الرسائل، بحسب معتقدهما، رسائل من الله أرسلت الى البشر عبر النبي، على أنه رسول من الله). وترانيم زرواستر (غاتا) وإضافات أشعيا الثاني (المتأخر) الى كتاب اشعياء الأصليّ، يبدو أنها أعمال موثّقة من صنع هذين الحكيمين. وثمة كتابات تتمتع بصفة القدسية، التي يفرض فيها ان بعضها أحاديث ألقاها البوذا وكونفوشيوس وان بعضها الآخر محاورات بين كل منهما وبين حواريه. ولا ندري الى أي حدّ تتّفق هذه المدونات المزعومة مع الكلمات الأصلية التي تفوه بها المعلم، كما أننا، بالمقابل، لسنا واثقين من صحة الأقوال المعزوة الى فيثاغورس.

اهتم أربعة من هؤلاء الحكماء الخمسة، في استقطاب تلاميذ لهم، أو على الأقل قبلوهم. وقد ترتب على ذلك قيام مجتمعات جديدة، ذلك بأن العلاقات بين الكائنات البشرية لا بدّ من إخضاعها الى مؤسسات إذا كان المرجو لها أن تستمر إلى أكثر من جيل واحد، وأن تضمّ من الناس عددا أكبر من العدد الصغير الذي يمكن اعتباره الحدّ الأقصى لجماعة أساسها التعارف الشخصي فقط. وقد انشأ البوذا فرقة رهبانية (سانغا) يدعمها مريدون علمانيون؛ وانشأ كونفوشيوس مدرسة فلسفية؛ وانشأ فيثاغورس جمعية كانت أكثر من مدرسة، ولو أنها لم تكن بفرقة رهبانية نظامية؛ وقد اكتفى اشعياء الثاني

(المتأخر)، على ما نخمن، بأن ينشر رسالته بين الجماعة اليهودية القائمة. وفي الجهة الثانية فقد أصبح زرواستر صاحب دين جديد؛ ومثل هذه التتمة، بالنسبة الى التنوير البوذي، كانت شيئا رائعا. فالبوذا كان يعتقد بأنه على كل أن يصل إلى التنور عن طريق جهوده الخاصة وأنه إذا حصل على ذلك ومتى تم له ذلك، أصبح حرا في الانطلاق نحو النرفانا. ومع ذلك فقد أجل البوذا انطلاقه هو بالذات، وظل طواعية في الحال التي تمتزج فيها الحياة بالألم، وذلك كي يري الكائنات الحساسة الأخرى طريق الخروج الذي اهتدى إليه.

ترفع البوذا عن السياسة وعن الحياة الاجتماعية في ما عدا حلقة تلاميذه. لقد كان ولي عهد المملكة وكان زوجا وأبا ايضا. لقد تنازل عن وراثته لعرش ابيه، وانفصل عن زوجه وابنه، وذلك كي ينقطع إلى البحث عن السبيل المؤدي الى الانعتاق من آلام الحياة. وبعد ما بان النور للبوذا، ولما أصبح معلما مترحلا اعترف به الملوك المحليون على أنه مساوٍ لهم منزلة اجتماعية، فلا هو تماشى معاشرتهم، ولا سعى إليها أيضاً. فهو لم يعن بدفع وتطوير طريقته الرهبانية عن طريق رعاية ملكية. وقد لقيت البوذية الرعاية الملكية في شخص الإمبراطور أشوكا، بعد أكثر من قرنين من وفاة البوذا. وفي الجهة الثانية فان زرواستر سعى للحصول على رعاية ملكية، وقد لقيها. وسعى كونفوشيوس للحصول على موظف ملكي، ولم يعثر على أيّ ـ وقد كان في هذا زجرة شخصية هي التي حملت هذا الموظف المدني العاطل عن العمل على خلق عمل جديد لنفسه كمعلم للأخلاق. وأشعياء الثاني (المتأخر) لم يكن بحاجة إلى من يرعاه. وكل ما كان يحتاجه ـ وقد ناله ـ هو ان تقبل رسالته الجماعة اليهودية.

كان البوذا، بين الحكماء الخمسة، غير عادي في ترفعه عن السياسة. وكان كونفوشيوس يرحب بعمل سياسي لو أن ذلك أتيح له. وقد تحتم على أتباعه أن ينتظروا قرابة ٣٥٠ سنة بعد وفاة معلمهم حتى تصبح الفلسفة الكونفوشيّة جوازا للتعيين في وظيفة عامة. وكان زرواستر، على الوجه المؤكد، يرى أن رعاية الحاكم كانت شرطا أساسيا لنجاح مهمته. ولم يتمكن فيثاغورس ولا تلاميذه من تجنب دخول المعترك السياسيّ. ففي العالم الهليني في القرن السادس قبل الميلاد، كان لا بدّ لأي أخوة من الفلاسفة من أن تكون لها سيطرة في إحدى المدن ـ الدول إذا كانت تريد تجنب وقوعها ضحية. وقد سعى الفيثاغوريون لمثل هذه السيطرة لكنهم باؤوا بالفشل. أما بالنسبة إلى

أشعياء الثاني (المتأخر) فقد أطلق العنان للكثير من الآمال السياسية العريضة. فقد حيّا قورش الثاني على أنه الملك الذي مسحه يهوه، لأن قورش كان يسمح لليهود الذين أجلوا، والذين كانوا في بابل، بالعودة الى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين]؛ إلا أنه يأمل بأن يتلو ذلك قيام إمبراطورية عالمية يكون فيها يهوه، لا قورش، الامبراطور، ويكون فيها اليهود، لا الفرس، الشعب الإمبراطوري.

والشيء الجديد الذي انطلق منه أشعياء الثاني (المتأخر) كان على المستوى الروحي لا السياسي. فقد كان موحدا وقد تصارع مع قضية الألم. لقد كان أشعياء الثاني (المتأخر)، دون شك، أول موحد يهودي، وأقدم الموحدين في أي مكان منذ المحاولة التوحيدية الفاشلة التي قام بها أخناتون قبل ذلك بثمانية قرون. لم يكن أشعياء الثاني (المتأخر) يعتقد بأن يهوه هو الهدف الشرعي الوحيد للعبادة بالنسبة لليهود فقط، أو أن يهوه كان أكثر برا وأقوى من آلهة الشعوب الأخرى. لقد كان يعتقد بان يهوه هو الإله الوحيد، وأن الآلهة الأخرى لا وجود لها. فقد كان تصور أشعياء الثاني (المتأخر) وموقفه من الألم على النقيض من موقف البوذا. لم يبحث أشعياء الثاني (المتأخر) عن سبيل للتخلص من الألم؛ لقد قبل الألم على أنه تجربة قد تنتج ثمارا روحية إيجابية. ولسنا ندري فيما اذا كان « الخادم المتألم » هو، كما يبدو ذلك واضحا، على أنه شخصية تاريخية مجهولة الاسم، أم أنه تجسيد للجماعة اليهودية. والثاني من هذين التفسيرين المحتملين لهذا الشخص اللغز هو الأكثر اقناعا؛ فهو أقرب الى تقليد النبوة الذي كان أشعياء الثاني (المتأخر) يلتصق به.

وعلى كل فانه من الواضح بأن أشعياء الثاني (المتأخر) كان يعتقد بأن الألم، إذا تحمله المرء بالصبر، يمكن أن يكون تجربة خلاقة لجميع المعنيين بذلك، بما في ذلك المتألم نفسه في تحليل مأساته الخاصة به. ولعلّ كتابات أشعياء الثاني (المتأخر) هي الأقدم التي يمكن العثور فيها على هذا الموقف من الألم.

كان زرواستر يرى أن العالم هو أرض المعركة بين الخير والشر، وفي نهاية المطاف سيتمكن الخير من كسب المعركة؛ وفي الوقت الحاضر فان واجب الإنسان ان يكون مقاتلا فعالا إلى جانب الإله الصالح ضد الخصم الشرير لهذا الإله الصالح. ولعل رؤيا زرواستر وحكمته يعكسان الوضع التاريخي الذي كان في المكان والزمان اللذين عاش النبي فيهما. ففي المنطقة الحدودية الواقعة بين البدو الرعاة الأوراسيين وجيرانهم المستقرين،

كان ثمّة قتال مستمرّ في هذه المنطقة الحدودية وكان الفريق المستقرّ يأمل في أن يكسب في نهاية المطاف نصرا حاسما. وفي هذه الحروب التاريخية كان زرواستر، ولا شكّ، خصما عنيفا للبدو.

وكان كونفوشيوس مصلحا أخلاقيا وكان ينظر الى نفسه، بصدق وإخلاص ولا شكّ، على أنه محافظ أمين. والجماعة التي ولد فيها كانت قد تخلت عن إطارها التقليدي وخسرت طريقة سلوكها. وقد اتجهت نيته نحو إحياء مؤسسات الآباء الثمينة التي كانت في خطر الإهمال، لكن علاجه كان في الواقع تجديدا. فعلى سبيل المثال نجد أنه أخذ كلمة تشن تسو التي كانت تعني « الرجل الشريف المحتد »، بالمعنى المطلق على الأنساب، أي « ابن السيّد »، على أنها تعني، في الحقيقة « رجلا شريفا »، بمعنى الرجل الذي يعيش على مستوى خلقي رفيع. ومثل هذا التفسير لم يكن إحياء لمعنى قديم؛ لقد كان إضافة لمعنى جديد. و « تصفية الأسماء » التي قام بها كونفوشيوس منحت المجتمع الصيني مثالية جديدة.

انتهج البوذا سبيلا غايته القضاء على النزعة الفردية والطمع وهما خصلتان فطريتان في كل كائن بشري. كان يرى أن الروح الإنساني يستطيع التغلب على الطبيعة؛ وقد كان له من الشجاعة ما يمكنه من نقل هذه الرؤيا إلى فعل؛ ولما تم له ذلك ورأى أن الفعل انتهى به إلى التنوّر الذاتي، حمله تعاطفه مع الناس على توضيح السبيل للكائنات الحساسة التي يعايشها. وقد بلغ البوذا تنوره لما رأى أن ممارسة التقشف الجسماني المتطرف ليس هو السبيل إلى التنور. ومن ثم فقد سلك سبيلا وسطا بحيث أنه كان يبدو تقشفا بالنسبة إلى الناس العاديين، بينما كان، في نظر النساك المتطرفين المعاصرين له، سلوكا متحللاً. وقد ثبت صحة هذا السبيل الوسط الذي اختطه البوذا، بالمقابلة بين ما أصاب البوذية والجانية ـ وهو دين أسسه فرداماتا، المعاصر للبوذا، والذي عرفه اتباعه باسم « الجينا » (أي المنصور) أو الماهافيرا (أي البطل العظيم).

لقد أشرنا من قبل إلى أن البوذا وفيثاغورس كانا يشتركان في عقيدة وهدف. وعقيدتهما المشتركة هي أن الموت ليس نهاية الحياة، بل إنه يتبعه عادة ولادة ثانية، وأنّ هذه السلسلة من الوفاة بعد الأخرى والولادة الثانية بعد الأخرى، تستمر إلى ما لا نهاية له، ما لم يتخذ إجراء صارم لكسر هذا الطوق المحزن. وكسر هذا الطوق كان الهدف المشترك الذي رمى إليه كل من هذين الحكيمين. والربط بين هذه العقيدة وهذا الهدف

أمر غريب؛ فمثل هذه العقيدة، دون ارتباط بمثل هذا الهدف، امر شائع. والفكرة القائلة بان التواتر هو أساس الإيقاع في الكون تظهرها الظاهرة الطبيعية المألوفة: توالي النهار والليل؛ وتوالي الفصول في سلسلة معينة سنويا؛ واستبدال جيل من الأحياء بآخر. والاعتقاد بأن دور الجيل تعتمد على الولادة الثانية يعبر عنها الناس بعادة تسمية الأطفال باسماء الجدود.

إن الاعتقاد الخاص بالولادة الثانية، على أنه شيء يتميز عن الاعتقاد العام بالتكرّر، بدأ في العالم الهليني على أنه من تعاليم فيثاغورس وتلاميذه، ثم انتشر انتشارا واسعا بالرغم من النكبة السياسية التي تلقتها الأخوة الفيثاغورية. وفي الهند يبدو أن الاعتقاد بالولادة الثانية كان أمرا عاديا بالنسبة الى كلا الفريقين، البوذا وخصومه. فقد كان هذا الاعتقاد المشترك في أسّ الخلاف في الرأي حول مسألة فيما إذا كان ثمة شيء اسمه الروح أم أنه ليس موجودا. فخصوم البوذا لم يعتقدوا فقط بأن الروح حقيقة، بل بأن هذه الحقيقة هي مطابقة تماما للحقيقة المطلقة (تات توام آسي). أما لبوذا فكان يرى أن الذي يولد ثانية لم يكن الروح بل هو نسيج رقيق من حالات بسيكية متباينة ولا يربطها واحدها إلى الآخر، من ولادة ثانية الى ولادة تالية، سوى قوة الطمع الديناميكية. فاذا أمكن إزالة الطمع، فان هذا الحطام الغيمي البسيكي يتبدد. هذا ما قال به البوذا؛ ومثل هذا يفتح الطريق للخروج إلى حال « الفناء » (النرفانا)، حيث يزول الألم.

ومن المحتمل أن البوذا وخصومه لم يكونوا على كبير خلاف الواحد مع الآخر على نحو ما حسبهما كلا الفريقين اللذين ابدا الخلاف. فقد صدر عن خصوم البوذا مقولة هي: « الروح منطبقة تماما مع الحقيقة المطلقة ». والبوذا كان يوصي: « أخرج الى الفناء بتبديد الحطام الغيمي البسيكيّ الذي يسميه خصومي الروح »؛ ولعله من الممكن أن رؤيا البوذا، مثل رؤيا خصومه، حول طبيعة الحقيقة الروحية المطلقة لم تختلف واحدتهما عن الأخرى اختلافا لا يمكن التوفيق بينهما.

ثقة بقدرة النفس البشرية على التغلب على الطمع؛ واعتقاد بقدرة الألم الخلاقة إذا احتمل بصبر؛ ودعوة بالنفاذ الى « الفناء »؛ والاعتقاد بوجود إله واحد فقط؛ والدعوة إلى الوقوف الى جانب الخير محارب الشر. وبسبب هذه الاعتقادات التي أعلنها الحكماء الخمسة الكبار، والوصايا التي أعطوها، في القرن السادس قبل الميلاد، فان رؤيا الحقيقة المطلقة والوصايا التي تعين السلوك البشري تبدلت بشكل لا يمكن الرجوع عنه.

لقد ولد حكماء القرن السادس (قبل الميلاد) الخمسة وعاشوا وعملوا في أحوال اقليمية خمسة مختلفة. ولعله مما له دلالة ان أحدا من هؤلاء الخمسة لم يكن وريثا لأقدم مدنيتين، وهما السومرية ـ الاكدية والمصرية الفرعونية. فقد كانت هاتان المدنيتان لا تزالان حيتين في القرن السادس قبل الميلاد ولكن الرؤى الجديدة والوصايا الجديدة جاءت من مناطق كانت مدنياتها، في ذلك الوقت، أقل تأثرا ولكنها كانت أكبر ديناميكية.

٣٦ـ الامبراطورية الفارسية الأولى ٥٥٠ـ ٣٣٠ ق.م.

إن العسكرية الأشورية، وخصوصاً في مرحلتها الأخيرة (٧٤٥ـ ٦٠٥ ق.م .)، كانت شرا كبيرا على فرائسها بما في ذلك الأشوريين انفسهم. وقد زاد الخراب عنفا هجوم البدو الأوراسيين. وكان الأثر المباشر لسقوط الإمبراطورية الأشورية أن أصبح المشرق مقسما سياسيا فاقدا لأمنه. والدليل على حاجة هذه المنطقة المقسمة « المعذبة » للسلم والنظام هو السرعة التي تم توحيدها سياسيا عنى يد بناة الإمبراطورية من الفرس في حدود ربع قرن نحو ٥٥٠ـ ٥٢٥ ق.م. وقد منحت الإمبراطورية الفارسية المشرق راحة كان بحاجة مؤلمة إليها. وقد كانت حروبها الاحتلالية أقل وحشية من حروب الأشوريين؛ وكان التنظيم الأداري للبلاد الواسعة المحتلة أقل ظلما. وعلى عكس الأشوريين كان الفرس يقنعون بأن يكون الشعور بوجودهم في أدنى الحدود اللازمة لجعل سيادتهم فعالة. فقد سمحوا للإدارة المحلية القائمة بأن تكون ناعلة؛ وقد كان دور حكام الولاية الإشراف على الإدارة المحلية لا أن يستولوا عليها. وفوق ذلك كله، كان الفرس يعنون عناية خاصة باحترام أديان شعوبهم ورعايتهم ـ وهي سياسة منفتحة كان من نتائجها قبول الحكم الفارسي، باستثناء حالات نادرة لكنها مضايقة حيث تكون إحدى الجماعات الخاضعة تمزقها الخلافات الدينية بحيث كان يصعب على السلطات الفارسية أن تحافظ على الحياد.

وتسامح الحكومة الأمبراطورية الفارسية نحو الأديان الأجنبية كان الأكثر تشريفا وروعة، إذا نحن عرفنا أن « دارا » الأول وعلى الأقل خليفته إكسركسيس (أحشويرش)، يدوان، في النقوش التي خلفاها بالذات، أنهما قد قبلا دينا قريبا من دين زرواستر ـ وقد كانت المناجزة لا التسامح روح زرواستر. وعلى هذا النحو كان زرواستر قد رفض الديانة التقليدية للشعوب الناطقة بالإيرانية، واستبدلها بواحدة جديدة. وقد كان زرواستر يعتقد

أنه مكلف بالدعوة إلى الإيمان بإله واحد صالح، هو أهورا مزدا، الذي كان قد منحه ولاءه كاملا. لسنا ندري المدى الذي ذهب إليه دارا الأول واكسركسيس في التزامهما بديانة زرواستر. إنهما لا يقران بأنهما كانا من اتباع زرواستر؛ وفي واقع الحال فانهما لا يشيران إلى اسمه. ويبدو أن النبي نفسه قد ولد قبل دارا الأول بنحو قرن من الزمان، وأن مجال نشر دعوته كان في الجزء الشمالي الشرقي من المنطقة التي تقطنها شعوب مستقرة ناطقة بالإيرانية (وهي اليوم خراسان وآسية الوسطى وأزبكستان الافغانية).

كانت هذه المنطقة قد ضمت إلى الإمبراطورية الفارسية على يد قورش الثاني، ولعل ذلك كان في زمن متأخر عن سنة ٥٣٩ ق.م. وكان والد دارا حاكم خراسان (فارثيا) الفارسي سنة ٥٢٢ ق.م. لما اغتال دارا نفسه سميرديس الذي لعله كان كاذبا أو حقيقيا ونصب نفسه مكانه. وقد لا يكون فرع دارا من البيت الأخميني قد أصبح أعضاؤه اشباه معتنقين لديانة زرواستر حتى سنة ٥٣٩ ق.م. ولسنا نعلم فيما إذا كان الشعب الفارسي والشعب الميدي وكذلك الاخمينيون قد تقبلوا حتى جرعة مخففة من الزرواسترية. ومن الواضح أن دارا الأول لم يكن صديقا للماجيون - وهم كهنة الشعب الميدي الوراثيون، وهم الذين قبلوا، في النهاية، ديانة زرواستر في صيغة ما كان المؤسس ليقبلها.

إن التسامح الديني والسياسي الذي اتبعه الأباطرة الفرس حمل شعوب سورية على تقبل الحكم الفارسي، وهم الذين قاوموا بعنف محتليهم الأشوريين اولا ثم المحتلين البابليين. لقد كان الفرس في أعين الفينيقيين والسامريين واليهود محررين.

إن إدخال الفينيقيين في الإمبراطورية الفارسية أعطى التجار الفينيقيين مجالا ارضيا قاريا واسعا، فيما منحهم، في البحر المتوسط دعما فارسيا في مزاحمتهم لمنافسيهم من الأغارقة. إن الأغارقة الآسيويين كانوا قد خضعوا للفرس، مثلهم في ذلك مثل الفينيقيين؛ لكنهم كانوا رعايا مشاكسين، فيما كانت المدن - الدول الفينيقية تسير مع الفرس وتكسب رعايتها. وقد أعطيت ثلاث من هذه المدن - ارواد وصور وصيدا (صيدون) إمبراطوريات محلية صغيرة خاصة بها. لم يكن ثمة ما يغري الفينيقيين بعصيان الفرس، ومن ثم فلم يكن ثمة ما يخيف الفرس من أن تتدخل المدن - الدول الفينيقية الاستعمارية في شؤون سورية. ولم يحاول الفرس أن يدخلوا الفينيقيين الليبين في إمبراطوريتهم، كما تم للفينيقيين السوريين. على العكس من ذلك فان الفرس عقدوا حلفا ضد الأغارقة مع قرطاجة لما وحدت المدن - الدول الفينيقية المستعمرة، نحو نهاية القرن السادس قبل

الميلاد، جبهتها تحت قيادة قرطاجة. وقد كانت الجماعة اليهودية البابلية حليفة طبيعية للفرس، ذلك بأن هؤلاء اليهود المنفيين لم يسامحوا البابليين لأنهم أجلوهم عن بلادهم، ومن ثم فقد كانوا اقلية محلية محبة للفرس، وبهذا كانت لهم قيمة بالنسبة للفرس في بابل حيث لم تكن الغالبية الوطنية من السكان تتقبل الفرس، على رغم ان قورش الثاني قام بعمل لبق جدا يشير إلى أنه كان ينوي أن يحترم كبرياء البابليين لما « أخذ بيد البعل ». وقد سمح قورش الثاني لأي عدد من اليهود المجلين الراغبين في العودة الى أرض المملكة الجنوبية [في فلسطين] ان يفعلوا ذلك، وأن يعيدوا بناء الهيكل في القدس. وقد عثر على مرسوم قورش الثاني في سجلات إكبتانا (همدان)، وقد أكده دارا الأول. وسمح إما ارتكسرسيس الأول (سنة ٤٤٥ ق.م .) أو إرتكسرسيس الثاني (سنة ٣٨٤ ق.م .) لكبير خدمه نحميا ان يتغيب عن سوسه، عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وكلفه بإعادة تحصين مدينة القدس. وخصص دارا الأول وارتكسرسيس كلاهما جزءا من الضريبة الإمبراطورية لليهود، وأعطياهم المواد البنائية، لتنفيذ المشاريع العامة في القدس، وهي المشاريع التي كانا قد سمحا بها.

أفاد الآراميون من الإمبراطورية الفارسية على نحو ما أفاد منها اليهود والفينيقيون. فانتشار الكتابة الآرامية واللغة الأرامية الذي كان قد بدأ في أيام الحكم الأشوري، سار بخطى أوسع في ظل الحكم الفارسي. ففي سورية كانت اللغة الكنعانية تحل محلها اللغة الآرامية تدريجا. وقد استمرت اللغة الكنعانية في سورية كلغة للطقوس الدينية فقط، بينما عاشت كلغة للحياة اليومية في عالم المستعمرات لفينيقية في حوض البحر المتوسط الغربي. وفي الشرق استمر انتشار اللغة الآرامية جنبا الى جنب مع الألفباء الأرامية - وكانت هذه كتابة ايسر استعمالا من الكتابة المسمارية. وقد اخترع الفرس لأنفسهم كتابة ألفبائية مكونة من حروف مختارة من المجموعة السومرية الأكدية، على نحو ما فعل فينيقيو أوغاريت قبل ذلك بسبعة قرون أو ثمانية من الزمان. وقد نقش دارا الأول أخبار أعماله على صخر بهستون الثلاثي اللغة، مستعملا نسخة فارسية بالألفباء الفارسية المسمارية، جنبا الى جنب مع نسختين بالعيلامية والأكدية، مستعملا الصور السومرية القبيحة التقليدية. وعلى كل فان الكتابة الفارسية المسمارية كان حظها مثل حظ الكتابة الأوغاريتية. فقد جانبها الحظ في أن تحتفظ بنفسها أمام الفباء مستخرجة من كتابة كانت شائعة في فينيقية في زمن مبكر من الألف الأول قبل الميلاد، ومؤلفة من حروف أبسط

وأوضح. ونحو سنة ٣٣٠ ق.م. كانت أكثر الأوراق الرسمية الخاصة بالإمبراطورية الفارسية تكتب باللغة والكتابة الآراميتين؛ إلا أنه من المحتمل ان هذه الوثائق كانت تقرأ بالفارسية ـ فمجموعة الحروف المكونة لكلمة آرامية كانت تقرأ كما لو أنها كانت كلمة ارامية تعادل كلمة فارسية.

ومن ثم فان شعوب سورية الرئيسة كانت راضية بأن تكون رعايا فرسا باستثناء الميديون، أقارب الفرس، الذين أظهروا أنهم كانوا أقل سعادة إذ ثاروا سنة ٥٢٢ ق.م. لقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا من قبل شعبا إمبراطوريا، وأن الفرس كانوا خاضعين لهم. وعلى كل فان الفرس أعادوا الميديين إلى الحظيرة على أنهم شركاء في إمبراطورية ميدية ـ فارسية، وهي التي كانت أوسع وأعظم من الأمبراطورية الميدية السابقة. ولعل العيلاميين كانوا يشعرون بالزهو لأن عاصمتهم الوطنية، سوسة، ارتفعت درجتها الى مستوى عاصمة إمبراطورية. والشعوب الشمالية الشرقية الناطقة باللغة الإيرانية اظهرت ولاءها للامبراطورية الفارسية إذ استمر افرادها ثلاث سنوات في مقاومة الأغارقة المقدونيين الذين احتلوا الإمبراطورية الفارسية. والبدو السكيثيون الشرقيون (الساكاذوو البرنس المرؤس)، الذين كانوا قد قاوموا قورش الثاني، يبدو وكأنهم أصبحوا موالين للإمبراطورية الفارسية بعد ما أخضعهم دارا الأول. ففي حملة اكسركسيس إلى بلاد الإغريق في اوروبة سنة ٤٨٠ ق.م. أعطي هؤلاء مراكز ثقة، وفي ٣٣٠- ٣٢٨ ق.م. اعانوا جيرانهم المستقرين في مقاومتهم للإسكندر الكبير.

كان ثمة ثلاثة شعوب لم تتقبل الحكم الفارسي وهي البابليون والمصريون والأغارقة الآسيويون. فالبابليون ثاروا لا مرة واحدة بل مرتين في سنة ٥٢٢ ق.م. ثم ثاروا مرة أخرى في سنة ٤٨٤ ق.م. لكن في هذه المرة أخضع الفرس الثورة بشكل حاسم، بحيث ان البابليين، منذ ذلك الحين، لزموا حدهم إلى أن حررهم الاسكندر. فالفرس لم يكونوا في وضع يسمح لهم بأن يتفلت البابليون من قبضتهم. فقد كانت بابل اهراء ودار صناعة للإمبراطورية الفارسية، وإلى ذلك كانت العقدة الرئيسة لشبكة المواصلات البرية الداخلية للإمبراطورية. وفي الجهة الثانية فان احتلال مصر كان، بالنسبة للإمبراطورية الفارسية امرا فيه إسراف، كما كان لسابقتها الإمبراطورية الأشورية؛ فقد كانت مصر حتى أبعد عن فارس منها عن أشور؛ وفي حال الثورة ضد سيد آسيوي قارّي كانت مصر تعتمد على الحصول على العون من الأغارقة بحرا. ومع أن مصر ظلت هادئة سنة

٥٢٢ ق.م. فانها ثارت قبل نهاية حكم دارا الأول؛ وقد استقلت بين سنتي ٤٦٤ و ٤٥٥ ق.م.، وللمرة الثانية من سنة ٤٠٤ أو ٣٩٥ الى ٣٤٣ ق.م. وأُعيد احتلال مصر من قبل الفرس قبل القضاء على الإمبراطورية الفارسية بنحو اثني عشرة سنة.

وحتى لو أن جميع رعايا الإمبراطورية الفارسية كانوا موالين مثل الفينيقيين واليهود، فان مجرد حجم الإمبراطورية كان يجعل الاتصالات قضية مزعجة لحكومة الإمبراطورية. وقد حسنت الاتصالات البرية ببناء طرق رئيسة وتنظيم تبديلات من الخيل لرجال البريد الرسمي، لكن دارا الأول رأى أنه من الضروري أن يربط أطراف إمبراطوريته بالطرق المائية. ولذلك فقد أرسل بحارا من كاريا، هو سكيلاكس، بدءا من أقصى ولاية في شرق الإمبراطورية إلى أقرب طريق مائي صالح للملاحة في حوض نهر السند، ومعه التعليمات بأن يبحر إلى الشاطيء المصريّ على البحر الأحمر عبر نهر السند والمحيط الهندي. ولما اتم سكيلاكس مهمته، ضم دارا الأول حوض السند الى إمبراطوريته. واما بعد هذا، أو استباقا له، أتم حفر القناة التي كان الفرعون نخو الثاني قد بدأها، وذلك من أقصى فرع للنيل في الدلتا شرقا إلى رأس خليج السويس. وجرب اكسركسيس أن يكرر عمل نخو الثاني الكبير وهو الدوران حول إفريقية. ولكن فرقة اكسركسيس البحرية التي لم تبدأ من البحر الأحمر، بل من البحر المتوسط، عادت أدراجها. والتفكير البحري الذي كان عند دارا الأول واكسركسيس لم يرثه خلفاؤهما.

كان عمر الإمبراطورية الفارسية الأولى قصيرا، لكن سياستها في التسامح الديني كان لها أثر دائم. وقد أكدت هذه السياسة الاتجاه نحو التوفيق بين العقائد الدينية المختلفة، وهو الاتجاه الذي بعثه الأشوريون والبابليون في سياسة إجلاء السكان. كان باستطاعة فاتح ما أن يجلي « المؤسسات » البشرية من البلد المفتوح، لكنه لا يمكنه أن يجلي آلهته. فالفلاحون من أبناء البلد الذين يظلون فيه، يستمرون في عبادتها، ويترتب على الأجانب القادمين ان يحسبوا حساب هذه الآلهة. فعبادة يهوه في بيت إيل، المعبد الديني الرئيس في المملكة الشمالية [في فلسطين] التي قضي عليها، حمل شرقا إلى بابل وجنوبا الى جزيرة الفِيَلَةْ (إلفنتين)، الحصن الحدودي على مهبط الشلال الأول على النيل، حيث كان الإلهان ايشم بيت إيل وعنات بيت إيل يعبدان في القرن الخامس قبل الميلاد، جنبا الى جنب مع يهوه، من قبل حامية يهودية كانت في خدمة الفرس. وأفراد الحامية كانوا قد جندوا من أحفاد اليهود الذين كانوا قد هربوا الى مصر تجنبا لاجلائهم الى بابل على يد نبوخذنصر.

وكانت الجماعة اليهودية في جزيرة الفيلة على اتصال ودي مع سنبلاط رئيس منطقة السامرة، التي كانت تضم القدس اثناء الحكم الفارسي قبل بعثة نحميا. وكان سنبلاط من أحفاد شخص أجلي إلى بابل، إذا نحن حكمنا عليه باسمه (سنبلاط)؛ لكن اذا حكمنا عليه باسمي ولديه (دلاية وشمالاية)، فقد كان الأب وابناه من عباد يهوه، ولم يكونوا من عبدة القمر. (إن السامريين اليوم هم بالضبط موحدون وعباد يهوه، الذين لا يقرون أية كتابة دينية بعد التوراة على أنها مقدسة، ولا يعترفون بأية رواية دينية غير مدونة). وعلى كل فان سنبلاط تخاصم مع نحميا لما وصل هذا الممثل للجماعة اليهودية البابلية الى القدس في بعثة أرسلها الإمبراطور الفارسي.

كان الفرس ينظرون الى عباد يهوه في بابل وجزيرة الفيلة والسامرة نظرة محايدة. لكن في أيام نحميا وأيام عزرا، كان اليهود البابليون قد طوروا برنامجا دينيا مبنيا على التفرقة العنصرية، دينيا واجتماعيا، عن باقي الجماعات، وقد نجحوا في فرض منهاجهم هذا، على « أهل الأرض»، (أي الفلاحين الذين لم يجلوا عن البلاد). فقد تُلي التداخل السكاني والديني بالزواج المختلط ـ وخصوصاً بين الأسر الرئيسة، التي كان مجال علاقاتها الاجتماعية أوسع من مدى علاقات الفلاحين. وكان للزواج المختلط اثر انساني في إزالة الحواجز الاجتماعية بين الجماعات، بعد ما دفعت هذه استقلالها ثمنا للعداوة التقليدية، واحدتها نحو الأخرى. وقد منع نحميا وعزرا الزواج المختلط وفرض الحرمان الديني على اعضاء الجماعة اليهود في أرض المملكة الجنوبية بسبب أنهم اقترفوا ما اعتبرته الجماعة اليهودية البابلية جرما لا يغتفر.

في أيام نحميا وعزرا كان أحفاد المجلين في بابل قد حافظوا على هويتهم الجماعية لمدة لا تقل عن ١٥٠ سنة، او لمدة ٢٠٠ سنة فيما إذا كان راعيهم ارتاكزسيس كان الثاني لا الأول من اباطرة الفرس الأخمينيين الذي تسمى بهذا الاسم. لقد كان مثل هذا العمل فذا؛ فقد كانت هذه المجموعة من المجلين التي نجحت في أن تسير في عكس التيار القائم في المشرق والذي كان يتجه بقوة نحو تجاوز القبلية التقليدية والاعتراف بأخوة الإنسان. فقد قاوم اليهود المجلون في بابل هذا التيار بنجاح في ما بينهم، وتمكنوا من تغيير وجهته في أرض المملكة الجنوبية السابقة أيضاً، ولكن ذلك كان ثمنه إحياء العداوة التقليدية بين يهود الجنوب [من فلسطين] وجيرانهم ـ بما في ذلك اولئك الجيران الذين كانوا عباد يهوه على شاكلة يهود الجنوب ويهود بابل.

كيف تمكن يهود بابل من الحفاظ على هويتهم الجماعية في الظروف المعاكسة لذلك في المنفى؟ لقد توصلوا الى هذا الإنجاز الفريد بايجاد مؤسسة فريدة هي الكنيس. لقد جعل الملك حوزيا ركنا من أركان الايمان اليهودي ان عبادة يهوه لا يجوز ان تتم شرعا في أي مكان آخر إلا في الهيكل في القدس. وتدمير الهيكل واجلاء « المؤسسة » اليهودية الى بابل جرّدا الكهنة الوراثيين من دورهم، الى أن يعاد بناء الهيكل وتدشن العبادة فيه من جديد. وقد كان الكنيس « المؤسسة » الجديدة التي ملأت الفراغ، ولولا هذه المؤسسة الجديدة لكان أحفاد المجلين من الجنوب [جنوب فلسطين] الى بابل، والبالغ عددهم ٤,٦٠٠، قد فقدوا هويتهم الجماعية نهائيا، على نحو ما أصاب المجلين الى ميديا من الشمال [شمال فلسطين] والبالغ عددهم ٢٧,٢٩٠. فقد كان « الكنيس » اجتماعا اسبوعيا - انتهى به الأمر الى الاجتماع في مكان دائم - حيث كان ما يملكه المجلون مما يمكن نقله (كتب الشريعة - التوراة - وكتب الأنبياء) يقرأ ويبحث فيه. فتجديد حزقيا وحوزيا كان ثوريا قبل الإجلاء، أصبح الأمر الشرعي بعد تلك الحادثة. وأصبحت التوراة الآن تتبع بحذافيرها، وأُكرم الأنبياء بعد مماتهم، وذلك على أيدي المجلين وأحفادهم. وهذه الوصفة الملكية للحفاظ على الهوية الجماعية للفئة اليهودية في بابل، والتي أتت أكلها في بابل، فرضت الآن على الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين بموافقة الحكومة الإمبراطورية الفارسية.

وإذ مكنت الحكومة الإمبراطورية الفارسية لنحميا وعزرا القيام بهذا العمل الحاسم، فانها كانت، عن غير قصد، تتجه عكس سياسة التسامح العامة التي كانت لها. وهذه الموافقة الاستثنائية لخرق واحد من أهم قوانين الحكومة الفارسية الخاصة بها، كان عملا سلبيا من اعمال الدولة. ومن سخرية القدر أن هذا العمل السلبي كان محفوفا بعواقب هامة أكبر من أي عمل بناء كانت الحكومة الفارسية قد التزمت به.

٢٧ـ المجابهة بين الإمبراطورية الفارسية الأولى والعالم الهليني

إن المؤسسة الميدية ـ الفارسية في الإمبراطورية الفارسية الأولى، والمواطنة المعاصرة لها في المدن ـ الدول الإغريقية، كان لكل منهما نظام سياسي مفتون به، والفتنة كانت ثقيلة العبء لأنها كانت تكريسا طوعيا نابعا من الداخل. فالولاء السياسي الميدي والفارسي كان يتمركز في شخص الإمبراطور الأخمني؛ والولاء الاغريقي كان يتمركز حول تجريد مقدس، هو المدن ـ الدول ذات السيادة. ولما اصطدم هذان الولاءان واحدهما بالآخر أصبح التعايش السلمي الدائم بين الفريقين امرا لا يمكن تحقيقه ـ فكان لا بدّ لواحد من الفريقين، في نهاية الأمر، من القضاء على الآخر واحتلال مكانه. ولما ثار رعايا الإمبراطورية الفارسية من الأغارقة الآسيويين في سنة ٤٩٩ ق.م.، وتلقوا العون العسكري من دولتين إغريقيتين اوروبيتين، اثينا وإرتريا، بدا وكأن الإمبراطورية الفارسية أصبح من المتوجب عليها أن تحتل العالم الهليني بكامله وتلحقه باملاكها. وقد كانت الإمبراطورية الفارسية اوسع بناء سياسيّ أقيم، وكان سكانها أكبر من سكان أي من سابقاتها. وكان خصومها من الأغارقة موزّعين بين مئات من المدن ـ الدول ذات السيادة، وكان كثير من هذه في حالة حرب دائمة، واحدتها مع الأخرى. وخلال فترة المواجهة الفارسية الإغريقية كان هناك فقط مدتان قصيرتان ـ سنتان (٤٨٠- ٤٧٩)، وثماني سنوات (٣٣٧- ٣٣٠) أقامت فيهما بعض الدول الإغريقية جبهة موحدة ضد الإمبراطورية الفارسية. وفي الأولى من هاتين المناسبتين صدّ الأغارقة حملة فارسية قوية على بلاد اليونان الأوروبية؛ وفي الثانية هاجم الأغارقة انفسهم الإمبراطورية الفارسية واحتلوها. وخلال الفسحة الطويلة بين هاتين المدتين من التعاون السياسي الإغريقي، نالت الإمبراطورية الفارسية الأولى، بسبب الخلاف السياسي الإغريقي، مهلة، ومن ثم اتيح لها الوقت الكافي لأن تنتج اثارا خالدة على المستويين الديني والثقافيّ.

نحو سنة ٥٤٦ ق.م. اذ كانت المدن ـ الدول الإغريقية الآسيوية القارئة قد خضعت لأول مرة لفارس، كانت كلها، باستثناء مليتوس، قد خضعت من قبل لليديا، وهي التي كانت فارس قد ضمّنتها إليها. وعلى كلٍّ فقد كن الليديون جيران الأغارقة المعروفين لديهم، وكانوا قد تقبلوا قبسا من المدنية الهلينية. وفي الجهة الثانية كان الفرس، بنظر الأغارقة، أجانب غريبين. والتوسّع التجاري في الداخل، الذي نعم به الأغارقة الآسيويون، بسبب دمجهم في الإمبراطورية الفارسية، لم يحملهم على تقبّل التغيير في أسيادهم السياسين.

لقد احتاج الفرس إلى ست سنوات (٤٩٩- ٤٩٤ ق.م .) لإخماد ثورة الأغارقة الآسيويين، وهذه علّمت الفرس درسا بأنهم لم يكونوا قد ضمنوا بعد حدود ثابتة في الجهة الشمالية الغربية. فحوض البحر الأيجيّ كان بحيرة إغريقية؛ وما كان للفرس أن يحتفظوا بشاطئه الشرقيّ ما لم يحتلوا شاطئه الغربي أيضاً؛ ومعنى هذا التزامهم بضم ما تبقى من العالم الهليني. لقد أشرنا من قبل إلى أنه قبل قيام الرعايا الأغارقة الاسيويين بالثورة ضد دارا الأول في سنة ٤٩٩ ق.م. كان هذا قد أقام رأس جسر اوروبيّ بين مجرى الدانوب الأدنى وجبل أولمبوس. وقد كان هذا يحتوي على مملكة إغريقية واحدة، هي مقدونية، إضافة الى المراكز التجارية الاستعمارية الاغريقية الواقعة على السواحل الأوروبية بين دلتا الدانوب وجبل أولمبوس. وقد كان رأس الجسر هذا أكبر خطرا على بقية الأغارقة الأوروبيين مما كان على السكيثيين. وكان دارا قد أرسل أيضا فرقة بحرية لاستكشاف الجزء الاستعماري من العالم الهليني الواقع إلى الغرب من مضيق اوترانتو.

في سنة ٤٩٠ ق.م. أرسل دارا حملة تأديبية بحرا لمعاقبة إرتريا وأثينا. وقد غلب الأرتريون على أمرهم وأجلوا عن بلادهم، لكن الأثينيين تمكنوا وقتها منفردين من صدّ الفرس. وفي سنتي ٤٨٠- ٤٧٩ ق.م. قام ابن دارا الأول وخليفته، إكسركسيس، بحملة برية ضد الأغارقة الأوروبيين، آتيا نحوهم من الشمال. وكانت تقريبا كل المدن ـ الدول الإغريقية الأوروبية الواقعة الى الشرق من مضيق أوترانتو، باستثناء أثينا وإسبارطة مع حلفاء إسبارطة، قد اعترفت بسلطان الإمبراطور الفارسي. وأرغوس، التي كانت منافسة لإسبارطة والتي كانت إسبارطة قد كسرتها، الأمر الذي ترك مرارة في نفسها، وقفت على الحياد. في سنة ٤٨٠ ق.م. احتلت اثينا ونهبت. إلا أن السكان كانوا قد أبعدوا، كما أن أساطيل المدن ـ الدول الاغريقية المحاربة ظلّت سليمة. وفي سنة

٤٨٠ ق.م. ربحت هذه معركة فاصلة ضدّ الأرمادا الفارسية في سلاميس، وهذه تلاها انتصار إغريقي حاسم مثل ذاك في معركة برية في يلاتيا في بيوتيا، ثم تلا ذلك انتصار إغريقي بحري على مقربة من ميكالي، على الشاطىء الغربي لآسية الصغرى. عندها ثار الأغارقة الآسيويون ثانية، وخسرت الإمبراطورية الفارسية املاكها الأوروبية، بما في ذلك مملكة مقدونية الإغريقية. ولما تم الصلح نهائيا بين أثينا والإمبراطورية الفارسية سنة ٤٤٩ ق.م.، كانت فارس قد فشلت في استعادة الأغارقة الآسيويين القاريين، كما كانت أثينا قد فشلت في انتزاع قبرص ومصر من الإمبراطورية الفارسية. وعلى كل فقد تمكنت فارس من فرض سلطتها ثانية (سنة ٣٨٦ ق.م .) على الأغارقة الآسيويين القاريين، وذلك بالتواطوء مع إسبارطة. وفي ذلك الوقت عاد الأغارقة الأوروبيين إلى الحروب الداخلية المألوفة مما يسّر الأمور لفارس.

لقد عمي الأغارقة عن الدرس الذي مرّ بهم في سنتي ٤٨٠- ٤٧٩ ق.م.. ففي هاتين السنتين تمكنت أقلية من الأغارقة من الأقلية التي لم تُخضع بعد من كسر الإمبراطورية الفارسية بسبب وقوفها مجتمعة. وفي سنة ٤٨٠ ق.م. نجحت كذلك أقلية من الأغارقة المستعمرين الغربيين اتحدت موقتا في كسر الإمبراطورية القرطاجية. وقد كانت هاتان الإمبراطوريتان مصدر خطر لاستقلال الدول الإغريقية وذلك بسبب التوحيد السياسي الذي تم في كل منهما على مقياس واسع، وقد انتصر الأغارقة على كل منهما لأنهم اتحدوا اتحادا جزئيا في آخر لحظة. وكان على الأغارقة ان يعترفوا بالحقيقة الواضحة وهي، أنه في السياسة، الاتحاد قوّة. كان عليهم أن يجعلوا اتحادهم السياسي شيئا دائما وبانهيلينيا. كان العالم الهليني قد أصبح وحدة اقتصادية وذلك نتيجة للثورة التجارية والصناعية في القرن السابع قبل الميلاد. ولا سبيل لتعايش الوحدة الاقتصادية والتفرقة السياسية مدة طويلة دون نكبة ومع ذلك نلم يكد الخطر الآتي من فارس ومن قرطاجة ان ينتهي أمره، حتى تخاصم الأغارقة ثانية. فالإمارة الإغريقية الصقلية التي تمركزت منذ نحو سنة ٤٨٤ ق.م. حول سيراكيوز والتي، بتحالفها مع اكراغاس، تغلبت على قرطاجة سنة ٤٨٠ ق.م.، آلت الى التمزّق سنة ٤٦٦ ق.م. وفي الوقت ذاته فان الحلف الإغريقي الأوروبي القاريّ، الذي تمكن في ٤٨٠- ٤٧٩ ق.م. من التغلب على فارس، انقسم، في سنة ٤٧٨ ق.م. الى عصبتين متنافستين، الواحدة قديمة مؤلفة من إسبارطة

وحلفائها البلوبونيزين، والأخرى حديثة: حلف ديلوس المؤلف من أثينا والمدن ـ الدول الإغريقية التي كانت قد حررت من الحكم الفارسيّ.

في سنة ٤٥٩ ق.م. دخلت اثينا في حرب ضد حلفاء إسبارطة في بلاد اليونان، وكانت لا تزال في حرب مع فارس. وقد كانت أثينا قد التزمت التزاما أقوى وبكثير من المغامرة-(سنة ٤٦٠ ق.م .) في نزاعها الدامي مع فارس إذ أرسلت أسطولا لنصرة مصر في ثورتها ضدّ فارس. وفي سنة ٤٥٤ ق.م. دمرّت الحملة الأثينية بعد أن خضع الثوار المصريون لحملة فارسية مضادّة. وكانت أثينا، خلال ذلك، قد فرضت سلطتها (سنة ٤٥٧ ق.م .) على كل الدول في أواسط بلاد اليونان في أوروبة باستثناء طية. وفي سنة ٤٤٧ ق.م. فقدت أثينا سيطرتها عليها. لقد حمّل الأثينيون أنفسهم ما لا طاقة به، وبعد ما تصالحوا مع فارس سنة ٤٤٩ ق.م. كان عليهم أن يعقدوا صلحا مع إسبارطة وحلفائها وذلك سنة ٤٤٥ ق.م.

بعد سنة ٤٧٨ ق.م. قام الأثينيون بتطوير حلف ديلوس إلى إمبراطورية اثينية. وعاشت هذه الإمبراطورية أربعين سنة بعد ٤٤٥ ق.م.، وهي سنة عقد الصلح مع إسبارطة. وقد كانت صورة مكبرة لإمبراطورية إسبارطة التي كانت تشغل الخُمسين الجنوبيين من البلوبونيز. وقد كان أقنان اثينا هم سكان المدن ـ الدول الإغريقية التابعة لهم والتي كانت تجمع منها الضرائب. في سنة ٤٦١ ق.م. كان المواطنون الأثينيون كجماعة قد منحوا أنفسهم دستورا كانت فيه العناصر الديمقراطية بارزة على نحو ما كان للأسبارطيين. واصبحت الديمقراطية الأثينية الآن تعيش، على نحو ما كان يحدث في الديمقراطية الأسبارطية، على الضرائب التي يدفعها الرعايا الإغريق، والذين كانوا أكبر عددا بكثير من الأقلية السيدة. ومع أن أثينا كان لها مجموعة مواطنين أكبر عدداً من أية مدينة ـ دولة إغريقية معاصرة لها، فان معاهدتي الصلح (٤٤٩ـ ٤٤٥ ق.م .) أظهرتا نقطة الضعف في أثينا وهي التباين بين قوتها البشرية ومطامحها. ومع ذلك فان الأثينيين صوّتوا (سنة ٤٥١ ق.م .) في الواقع على تقليص عدد المواطنين الذين يحقّ لهم الانتخاب وذلك بإسقاط هذا الحقّ عن كل مواطن يكون أحد ابويه غير مولود في أثينا. وهذا القرار، الذي يشبه أعمال عزرا، طبق سنة ٤٤٥/ ٤ ق.م. ـ والقرار كان إيذانا بانتهاء الإمبراطورية الأثينية. وقد كان القرار معاكسا لأعمال صولون السياسية النافعة. فان

صولون وسّع (سنة ٥٩٠ ق.م .) نطاق المواطنة الأثينية إذ أنه أعاد المدينين الأثينيين الذين عجزوا عن وفاء ديونهم، ومن ثم يعوا عبيدا خارج البلاد، كما أنه، على ما أشرنا إليه من قبل، منح المواطنة الأثينية للصناع الأجانب الذين هاجروا الى أثينا.

في سنة ٤٣١ ق.م. جرت أثينا وإسبارطة الى حرب ثانية في ما بينهما، وهي التي كانت ذات عواقب وخيمة لكليهما. فقد انتهى امر الإمبراطورية الأثينية سنة ٤٠٥ ق.م. وقامت مكانها إمبراطورية إسبارطية وقضي عليها هي الاخرى سنة ٣٧١ ق.م.. وبين ٣٥٩ و ٣٣٨ ق.م. وقعت كل المدن ـ الدول الإغريقية في القارة الأوروبية، باستثناء إسبارطة، تدريجا تحت حكم جارهم في الشمال، الملك فيليب الثاني المقدوني، وأجبرت، في النهاية، ان تنضم كلها الى عصبة جديدة هي التي اتخذت من كورنث عاصمة لها، وكان فيليب رئيسها. وعصبة كورنث كان بين الأعمال المدعوة إليها مهاجمة الإمبراطورية الفارسية بقوتها المتحدة. وقد كان ثمة فئة طليعية من الجيش قد وصلت آسية لما اغتيل فيليب (سنة ٣٣٦ ق.م .) وهو بعد في زهوة عمره وقد بلغ القمة في حياته. في سنة ٣٣٤ ق.م. اجتاز الاسكندر ابن فيليب مضيق الدردنيل؛ وفي سنة ٣٣٠ ق.م. كان قد قضى على الإمبراطورية الفارسية؛ وتوفي سنة ٣٢٣ ق.م.

لقد كان المقدونيون أغارقة، لكنهم لم يصبحوا هلينيين ـ أي انهم لم يكونوا مواطنين في المدن ـ الدول، ومن ثم ظلوا غرباء بالنسبة الى أسلوب الحياة الذي عرفته المدينة ـ الدولة. لقد كان أثر نظام المدينة ـ الدولة وعقليتها على مستوى العلاقات الدولية مدعاة للفوضى، وهذا هو الذي أتاح لفيليب الثاني الفرصة. فالفشل المستمر الذي منيت به المدن ـ الدول دوليا (أثينا وإسبارطة وطيبة) تعهدته عبقرية فيليب الشخصية فنالت مقدونية بذلك حظها. وعلى كل فان أسلوب الحياة في المدينة ـ الدولة، على رغم تمزقها دوليا وتحزباتها داخليا، كان لها دافع حضاري مؤثر، وهو موضوع الفصل التالي. إن الأغارقة المقدونيين لم يتعرضوا لهذا المؤثر الحضاري؛ فقد كانوا، في حياتهم الخاصة، لا يخضعون للنظام، ومن ثم فانهم لم يتهيأوا لتسلم القيادة التي فرضت عليهم بسبب الإفلاس السياسي الذي مني به جيرانهم أغارقة الجنوب.

كان فيليب الثاني، مثل مواطنيه المقدونيين، لا يخضع لنظام في حياته الخاصة، إلا أن فيليب لم يكن، في حياته العامة، مقدونيا تماما. لقد كان صبورا داهية مثل ثموستوكليس، وهو الأثينيّ الذي أنقذ بلاد اليونان في سنتي ٤٨٠- ٤٧٩ ق.م. ومثل

الفرعون بساماتيخوس الأول الذي أخرج الأشوريين من مصر بالتحايل. ولو أنه أتيح لفيليب أو ابنه الاسكندر أن يعمّرا طويلا كما عمّر بساماتيخوس، فان تاريخ العالم الهليني التالي، أو حتى تاريخ الأويكومين بكامله، كان يمكن أن يكون أقلّ تعاسة.

٢٨ــ الانجازات الحضارية للمدنية الهلينية ٤٧٨ــ ٣٣٨ ق.م.

في الفترة الواقعة بين سنتي ٤٧٨ و ٣٣٨ ق.م. هبط العالم الهليني سياسيا إلى الحضيض، كما انه بلغ سمت حضارته، وثمة على الأقل ثلاثة أثينيين هم الذين كان لهم ضلع في تعثره السياسي، فضلا عن أنهم أضافوا الكثير الى مجده الحضاري. وهؤلاء الثلاثة هم الكاتب التمثيلي سوفوكليس (٤٩٥- ٤٠٦ ق.م) والسياسي بركليس (نحو ٤٩٠- ٤٢٩ ق.م) والفيلسوف سقراط (٤٦٩- ٣٩٩ ق.م).

إن اسم بركليس محترم بسبب ارتباطه بقمة ما بلغته أثينا في فن البناء والفن المنظور الهليينين، وقد نفخ في مواطنيه الرغبة في تزيين الأكروبوليس في أثينا بأعمال فنية رائعة في جمالها، بعد عقد الصلح مع فارس سنة ٤٤٩ ومع إسبارطة سنة ٤٤٥ ق.م. وكان بركليس ايضا هو الذي حمل الأثينيين على تمويل هذه الأعمال ـ وبهذا التمويل، إنما شجعهم بركليس على عمل ذي مردود لأنفسهم ـ والتمويل كان عن طريق تحويل الجزية السنوية التي كانت تجمع من رعايا أثينا من الإغريق الى هذا الغرض. لقد كان الهدف الأصلي من جمع الجزية هو الدفاع المشترك، لاتزيين أثينا. كانت المبالغ تجمع لدفع مرتبات البحارة الأثينيين. ولما وضعت عودة السلام حدا للعمليات البحرية الأثينية، كان من الواجب أن تعاد الأموال إلى أصحابها، بدل أن تخصص للأثينيين أنفسهم لدفعها مقابل واجباتهم المدنية الحديثة كحجارين وعتالين وبنائين. فالتبديل في هذا المال كان عملا فيه غش؛ والمجال الوحيد الصحيح لإنفاقه كان القوة الأثينية المسلحة.

إن كلا من سوفوكليس وسقراط أثار قضية الضمير في حال طلبت فيها الدولة من مواطن ما القيام بعمل لا يمكن قبوله أخلاقيا. وقد أثار سوفوكليس هذه القضية في إحدى تمثيلياته؛ وأثارها سقراط بأن حمل الدولة على إصدار الحكم بالموت عليه إكراماً لضميره. ويقال أن سوفوكليس كوفىء على تمثيلياته بأنه اختير واحدا من الجنرالات الذين

عهد اليهم بالقضاء على محاولة قامت بها ساموس، حليفة أثينا، (٤٤٠ ق.م .) للتخلص من النير الأثيني. ومن الغريب ان هذه المهمة قبلها مؤلف انتيغون. وأشد من ذلك غرابة هو أن يتطوع سقراط (سنة ٤٣٢ ق.م.) في الحملة الأثينية التي أرسلت ضدّ حليف آخر ثائر على أثينا، هي بوتيديا. من الواضح أنه، في نظر كل من سقراط وسوفوكليس، كانت الدولة التي ينتسب المواطن اليها تعتبر إلها في نظره، ومن ثم ففي أي نزاع مع الدول الأخرى كان يتحتم على المواطنين المنقطعين لها أن يخدموها « حقّا أو باطلا »، حتى ولو أنه، في مواقف أخرى قد يحسون بأن الضمير أولى أن يحسب حسابه من الولاء.

عشية الحرب الأثينية البلوبونسية الثانية، شهّر الكورنثيون بأثينا على أنها « مدينة طاغية ». وقد روي أن سياسيا أثينيا أخبر مواطنيه أن أثينا يجب أن لا تحجم عن ارتكاب الفظائع إذا كانت ترغب في الحفاظ على إمبراطوريتها. وبعد سقوط الإمبراطورية الأثينية هدم خصومها المنتصرون « أسوارها الطويلة » التي كانت تصل أثينا مع موانئها، والتي جعلتها في مأمن من الهجوم البري. وقد رحب بهذا العمل، في طول العالم الهليني وعرضه، على أنه فعل تحرير. ومع ذلك فان المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث - وهو الضابط البحري الأثيني الذي كان منفيا واسمه ثوسيديدس - يروي أن سياسيا أثينيا آخر، هو بركليس، يصف أثينا على أنها « مصدر تهذيب هلاّس ». والوصفان، وكلاهما لأثينا في القرن الخامس، لهما ما يبررهما.

إن أثينا القرن الخامس كانت، في حقيقة الأمر، « هلاّس الهلاّس »، بمعنى أن أثينا كانت قد قامت بمثل هذا الدور في العصر السابق للهندسي وفي العصر الهندسي من التاريخ الهليني. وللمرة الثانية كان النشاط الحضاري للعالم الهليني قد تمركز في هذه النقطة الجغرافية الخاصة. فالنحات الأثيني فيدياس، الذي كان معاصرا لبركليس، كلف لا بصنع تمثال الإلهة أثينا لهيكلها الجديد على الأكروبوليس في أثينا فقط، بل أيضا بصنع تمثال لزفس في أوليمبيا. وقد كان هذا اعترافا رائعا بالمكانة الحضارية الممتازة لأثينا؛ ذلك بأن اوليمبيا، مع أنها كانت مركزا دينيا بانهيلينيا، كانت تقع داخل حدود الحلف البلوبونسي الذي كانت إسبارطة على رأسه. وتجميل اوليمبيا احتفاء بصدّ الفرس سنة ٤٨٠- ٤٧٩ ق.م. كان، إلى درجة ما، سابقة بلوبونيسية للتجميل المعاصر لأثينا.

وبالطبع لم يكن، حتى في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمة احتكار حضاري اثيني

لانجازات الحضارة الهلينية. فلم يكن البارثنون في أثينا قد لقي ما يسامته في هيكل زفس في اوليمبيا، بل إن الهياكل التي بنيت، حتى قبل ذلك في العصر نفسه، في المدن ـ الدول الإغريقية الصقلية اكراغاس وسلينوس، فاقته اتساعا وحجما. وقد كان أبرز من كلف بنظم القصائد من قبل المتصرين (بما في ذلك بعض المتصرين الأثينيين) هو الشاعر بندار من طيبة (نحو ٥٢٢ـ ٤٤٢ ق.م). وإيليا، المدينة الإغريقية في إيطالية، كانت مركز الحركة الفلسفية الإغريقية الأحدية، التي كانت يمثلها بارمينيدس (نحو ٥١٥ـ ٤٤٥ ق.م .) وزينون (نحو ٤٩٠ـ ٤٢٠ ق.م). والعودة الى « التعددية » التي كانت مرتبطة بعقيدة الولادة الثانية الفيثاغورية كانت من صنع الفيلسوف ـ الطبيب ـ إمبيدوقليس (نحو ٤٩٢ـ ٤٣٢ ق.م). إبان الحرب الأثينية البلوبونسية الثانية (نحو ٤٣١ـ ٤٠٤ ق.م .) كان جماعة سماهم خصومهم السفسطائين قد اتخذوا من اللغة وسيلة للوصول الى غايات عملية، خلقية كانت أو غير ذلك، وكانت تسميتهم يقصد بها النيل منهم. وقد كان أحد اوائل هؤلاء السفسطائيين هو جورجياس (نحو ٤٨٠ـ ٣٩٥ ق.م .) من ليونتيني وهي مدينة ـ دولة إغريقية في صقلية. ولم يلبث السفسطائيون ان انتشروا في العالم اليوناني، وكثيرون منهم انتهى بهم المطاف الى أثينا، لأن أثينا كانت، يومها، أقوى مدينة ـ دولة هلينية. ومع ذلك فلم يكن أي من مشاهير السفسطائيين من مواليد أثينا ـ اللهم إلا إذا قبلنا بالتهمة التي ألصقها ارستوفانس بسقراط بقصد التشنيع عليه.

إن الفضل الأول المميز لأثينا على الحضارة الهلينية في القرن الخامس قبل الميلاد جاء في الفن التمثيلي والفلسفة وزخرفة الأواني.

كانت الدراما الأثينية في القرن الخامس قبل الميلاد، التراجيدي منها والكوميدي على حد سواء، تختلف عن شعر الملحمة الهوميرية والشعر المأساوي والغنائي اللاحق بالعصر الهوميري، في أن الأول كان طقسا دينيا، إلا أنه، على عكس الشعر الهوميري، كان شخصيا وفرديا على نحو ما كان عليه الشعر المأساوي والغنائي. وقد كان هذا نتاجا، فيه كثير من الغرابة، باعتبار أن الطقس الأصلي فيه كان فيه جنس فاضح ونشوة، وأنه لم يتخلص قطّ من جذوره. ولم يكن القصد الأصلي من هذا الطقس المتحلل إثارة الجنس؛ لقد رسم أصلا من أجل إثارة الإخصاب في الكائنات الحية وفي النباتات والحيوانات المدجنة، عن طريق السحر التعاطفي. وعلى كل فقد كان ثمة نتاج آخر لذلك الطقس

الديني وهو التهتك المنسوب الى باخوس الذي عرفه العالم الهليني، والعبادة التهتكية للالهة سيبيل في آسية الصغرى، وانتشار النبيّات والرقص الديني، وهوج جماعة الأنبياء الذين أثروا في الملك شاوول في سورية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

فالدراميون الاثينيون قد قاموا بعمل أكبر من المألوف لما استطاعوا ان ينتزعوا من هذه المادة الدينية البدائية، التي لم تكن توحي بالكثير، دراما عرضت فيها مشاكل الحياة البشرية ومواكبها في تفاعل كان يقوم به كورس وفريق من الممثلين كانت أدوارهم على المسرح فردية كما كان يمثلها في الحياة العامة انبياء فلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد. وثمة أعمال أربعة من درامي أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد - وهم كتاب التراجيديا أخيل (٥٢٥- ٤٥٦ ق.م .) وسوفوكليس (٤٩٥- ٤٠٦ ق.م .) ويوريبيدس (٤٨٠- ٤٠٦ ق.م .) والكاتب الكوميدي ارستفانس (نحو ٤٤٩- ٣٨٠ ق.م .) - وهؤلاء تبدو في شعرهم الدرامي الألمعية والتنوع العبقري. لقد طوروا هذا النوع من الفن بحيث جعلوا منه وسيلة لشرح المشاكل السياسية الجدلية الآنية، ولسبر الأغوار الروحية للطبيعة البشرية.

لم تكن أثينا القرن الخامس قبل الميلاد الموطن الأم للفلسفة الهلينية. فقد ولدت هذه في أيونيا في القرن السادس قبل الميلاد. لكن سقراط أعطى هذا النشاط العقلي انطلاقة جديدة لما نقل، عامداً متعمّداً، مجال بحثه من الكون الطبيعي الى الطبيعة البشرية. وقد كانت حياة سقراط وموته الموحيين الرئيسيين لتلميذه أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ ق.م .) مع أن أفلاطون كان ايضا من تلاميذ الفيلسوف الكروتوني (أصلا من جزيرة ساموس) فيثاغورس، وقد وجد أفلاطون في الدرامي السيراقوسي ايبيخارموس نموذجا لنهج المحاورة الذي اتبعه في صياغة أعماله الفلسفية. وقد كان الفضل الأكثر اصالة، والأكثر جدلية، لأفلاطون على الفكر الفلسفي الهليني، هو نظرية المعرفة، التي كانت، في الوقت ذاته، نظرية في بنية الكون. وقد جمع أفلاطون بين الثقة الفيثاغورية في النظرة الرياضية والميتافيزيقيات وحدس الشاعر من حيث حدود الفكر المنطقي وقدرة الشاعر على أن يحلق على أجنحة الأسطورة.

كان ارسطو (٣٨٤- ٣٢٢ ق.م .) الستاجيريّ (ستاجيروس كانت مدينة - دولة مستعمرة إغريقية صغيرة على ساحل خلقيديس) تلميذا لأفلاطون وأصبح في ما بعد أحد نقاده. كان أرسطو مواطنا موقتا في أثينا، كما كان باستطاعته ان يشعر أنه من أهل

مقدونية، لما قبل دعوة من الملك فيليب ليكون، لبعض الوقت، مؤدبا لابن فيليب، الإسكندر. لم يكن أرسطو لا شاعرا ولا رياضيا؛ وإذا اخذنا بمستوى أفلاطون فقد كان ارسطو شخصا عاديا، ولعله كان أولى به أن يظل على الأرض. ورغم ذلك كان أرسطو مفكرا جبارا من درجة أفلاطون؛ وفي حياته التي كانت أقصر من عمر أفلاطون بثماني عشرة سنة، تمكن ارسطو من القيام ببحوث في المنطق ونظرية المعرفة والميتافيزيقيات التي دخلت مجالات الفلسفة الهلينية المتأخرة وسيطرت على الفكر الغربي المسيحي من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر للميلاد. وكان أرسطو أيضا باحثا اصيلا في تقصيه الحقائق ومنظما ماهرا لما توصل اليه تلاميذه في حقول السياسة والعلوم الطبيعية. وفي السلسلة الذهبية للفلاسفة الهلينيين يفوق لمعان اسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو اسلافهم، وخلفائهم، وألمع الأسماء الثلاثة هو اسم سقراط.

لقد تمكن صانعو الفخار ومزخرفو الآنية من أهل أثينا (في القرن الخامس قبل الميلاد) من المحافظة على السوق التي كانوا قد انتزعوها من غيرهم في القرن السادس قبل الميلاد أي من منافسيهم الكورنثيين والأسبارطيين، بما في ذلك السوق الأترسكية المربحة. ولم يلق التفوق الأثيني في السوق الإيطالية اي تهديد حتى القرن الرابع قبل الميلاد، لما دهمها الانتاج الكبير الذي قام في أبوليا وكان تقليدا للإسلوب الأثيني الرائج يومها. وكان الأقدر من صانعي الآنية يضعون اسماءهم على الأشياء التي يصنعونها، ومعنى هذا أن هذه المصنوعات كانت تعتبر أعمالا فنية من قبل صانعيها انفسهم ومن قبل عملائهم (زبائنهم). والآثار الباقية الى الآن من تلك الآنية تقدر تقديراً كبيرا حتى اليوم. ومن الجهة الثانية يبدو ان معاصري صانعي الآنية الأثينيين كانوا أقل حساسية، من الناحية الجمالية، لما في هذا النوع من الفن الأثيني من جمال، على رغم أهمية الدور الاقتصادي العادي لها كبضاعة للتصدير إذ كانت مربحة لأثينا في ميزان المدفوعات، أو لعل الأمر كان بسبب هذا الدور الاقتصادي.

٢٩ـ النتائج السياسية لقضاء الأسكندر على الأمبراطورية الفارسية الأولى

كان فيليب الثاني ملك مقدونية قد تمكن، خلال الفترة من ٣٥٩ الى ٣٢٥ ق.م.، من وضع كل الدول الإغريقية الاوروبية الواقعة الى الشرق من مضيق اوترانتو تحت سلطته، باستثناء إبيروس وإسبارطة وبيزنطية. وخلال عشر سنوات، من ٣٣٤ـ ٣٢٥ تمكن ابنه وخليفته الاسكندر من احتلال الامبراطورية الفارسية كلها، بما في ذلك كل البلاد التي كانت قد احتلتها في حوض السند، دون ان يفقد الاشراف على البلاد التي ورثها عن ابيه. ولمدة سنتين (٣٢٤ـ ٣٢٣ ق.م .) كان الإسكندر يسيطر سيطرة تامة على كل هذا الجزء الأوسط من الأويكومين في العالم القديم. وفي سنة ٣٢٤ ق.م. اكّد سلطته على بلاد اليونان لما أصدر أمره إلى المدن ـ الدول التابعة لعصبة كورنث بالسماح لمواطنيهم المنفيّين بوجوب العودة. لقد كان الاسكندر يخطّط لاحتلال ما تبقى من الأويكومين، بدءاً من بلاد العرب. (ولم يكن لا هو ولا أي من معاصريه يدري مدى الجزء المأهول من برّ الكرة الأرضية). إلا أنّ الاسكندر توفي سنة ٣٢٣ ق.م. قبل أوانه وعلى غير انتظار وفجأة، ومن ثم فان إنجازه السياسي الواقعي كان، مع ضخامته، سلبيا. لقد عاش حتى تمكن من القضاء على الإمبراطورية الفارسية، إلا انه لم يعمر طويلاً بحيث يستطيع تأسيس الإمبراطورية العالمية التي كان يأمل فيها. لقد وسع رقعة العالم الهليني بأن ضمّ إليه أملاك الامبراطورية الفارسية ماديا. لكن، حين وفاته، أصابت هذا العالم الهليني الموسع نكسة أعادته الى الفوضى التي كانت تعم العالم الهليني الأصغر،

السابق للإسكندر، والذي كان يعيشها قبل سنة ٣٣٨ ق.م.، وهي السنة التي أنشأ فيها فيليب الثاني العصبة الكورنثية.

كان موت الإسكندر إيذانا ببدء النزاع لتقطيع ملكه غير القابل للدوام. فدول جنوب بلاد اليونان، بما في ذلك إسبارطة، حملت السلاح حالاً ضدّ مقدونية. وقد أُرْغِم الجميع، عدا ايتوليا، على التسليم سنة ٣٢٢ ق.م.، ولكن في سنة ٣٢١ ق.م. شنّ كبار القادة العسكريين في الجيش المقدوني حروبا واحدهم ضدّ الآخر. وقد استمرت حروب خلافة الأسكندر اربعين سنة (٣٢١- ٢٨١ ق.م .)، والعمل السياسي الوحدويّ الذي قام به فيليب الثاني والإسكندر لم يلبث ان أصبح أثرا بعد عين. وقد أنفق الورثة المتنافسون على خصوماتهم من السبائك لذهبية التي كانت الحكومة الإمبراطورية الفارسية تنتزعها من رعاياها وتكنزها لمدة قرنين من الزمان، لقد انفق هذا الكنز في المنافسة على منح الجنود المقدونيين مكافآت تشجيعية سخيّة، وكان الجنود المقدونيون يعززون بمرتزقة أغارقة من غير المقدونيين نجح المتنافسون في استخدامهم. وقد وجدت مرتبات الجنود طريقها، بسرعة، الى العالم الهليني الموسع، وترتب على ذلك تضخم نقدي أصبحت، على أساسه، الأجور الحقيقية للعاملين المدنيين في مراكز التجارة والصناعة الهلينية متخفضة.

إن الحروب التي قامت بين خلفاء الإسكندر كانت أقل وحشية من الحروب التي شنتها المدن ـ الدول الإغريقية واحدتها ضدّ الأخرى قبل أن يفرض عليها فيليب الثاني السلم في سنة ٣٣٨ ق.م. لقد كان مواطنو المدن ـ الدول المؤلهة يقتتلون في ما بينهم بحقد عميق. وقد كان خلفاء الإسكندر أيضا يؤلههم رعاياهم ـ أو أنهم ألهوا هم أنفسهم ـ إلا أنهم لم ينظروا إلى هذا التأليه نظرة جدية؛ وعلى كلّ فقد كان النهب غايتهم الرئيسة. كانت المدن ـ الدول الهينية، التي زالت عنها صفة السيادة في الواقع، هي المطلب في لعبة حرب الخلفاء، وكان عصب الحرب هو الجندي المحترف لا المال الذي كان يدفع للجند. ومن ثم فبدلا من قتل الجنود التابعين للخصم، كان المنتصر يدعوهم الى تبديل الجهة (أي الانضمام إليه)، وبدلا من نهب المدن كانت هذه « تحرّر »، الأمر الذي كان يعني انتزاع السيطرة على المدن من أحد أمراء الحرب، ولكن الأمر صيغ بلهجة ملطفة. بين سنة ٣٣٥ ق.م.، لما دمر الاسكندر طيبة وباع أهلها رقيقا،

وسنة ٢٢٣ ق.م.، لما عامل انتيغونوس دوسون، الرصيّ على مقدونية وحلفاؤه مدينة منتينيا بالقسوة ذاتها، لم تدمر مدينة إغريقية بايدي الإغريق. (في الفترة ذاتها نهبت اكراغاس ومدن اغريقية أخرى غيرها واقعة الى الغرب من مضيق اوترانتو، وبيع سكانها رقيقا، على أيد غير إغريقية).

ومع ذلك فان حروب الخلفاء والحروب التي تكررت بين خلفاء الخلفاء بعد ذلك، وضعت العالم الهليني الواقع الى الشرق من مضيق اوترانتو في حال غليان. وبالنسبة الى غالبية السكان في البلاد التي كانت من قبل تابعة للإمبراطورية الفارسية السابقة، كان الانتقال من الحكم الفارسي الى الحكم الإغريقي انتقالا الى الأسوأ. ان الحكم الفارسي منح رعاياه فترة النقاهة التي كانوا بحاجة اليها ليعود اليهم نشاطهم بعد ما كابدوا من آثار مصيبة العسكرية الأشورية. وعلى العكس من الإمبراطورية الأشورية كانت الإمبراطورية الفارسية قليلة الترابط، وفي أيامها الأخيرة كانت مفككة وكان يعوزها النظام. كانت مصر قد انفصلت عنها؛ وكان الحكام الإقليميون قد ثاروا؛ وكانت القبائل الجبلية قد خرجت عن سيطرة الحكومة الامبراطورية. والنير الفارسي كان خفيفا إذا قورن بالنير الإغريقي الذي حل الآن محله. في العام الهليني بعد الإسكندر، مثله قبل الاسكندر، كانت الحروب مزمنة، لأنها كانت حروبا ليس فيها معارك فاصلة.

إن البلد الذي أصابه من الضرّ أكثر من غيره بسبب الفتوحات المقدونية الواسعة كان مقدونية نفسها. إن الإسلوب الذي لجأ اليه فيليب الثاني في احتلاله لبلاد اليونان، والذي احتل به الإسكندر الامبراطورية الفارسية، كان تجنيد المشاة من الفلاحين المقدونيين لدعم الفرسان من الأرستقراطية المقدونية. (استمر الفرسان في أن يكونوا الذراع الرئيس للجيش المقدوني؛ إلا أن هذا السلاح لم يكن أفراده من العدد بحيث يمكنهم ان ينجحوا في الفتوح، ويحتفظوا بها، دون تعاون الفريق الفلاحي). ولما هاجم الاسكندر الإمبراطورية الفارسية كان عليه أن يترك خلفه نصف الجيش المقدوني في اوروبة للمحافظة على الأغارقة الجنوبيين ولصدّ البرابرة الشماليين. وكانت مقدونية قد نضب معين الرجال فيها بحيث أنها لم تتمكن من تلبية طلبات الإسكندر المستمرة. وبعد ذلك كان كل من خلفاء الإسكندر يحتفظ على الأقل بفريق من الحرس من الجنود المقدونيين ليكونوا نواة للجيش الخاص الذي كان يحصل بواسطته على حصته من أسلاب البلاد من مملكة فيليب والإسكندر ويحافظ عليه. في ٢٨٠- ٢٧٩ ق.م.، اي مباشرة بعد

انتهاء الحروب بين خلفاء الاسكندر، هاجم مهاجرون كلتيّون من حوض الدانوب مقدونية، وقد وجدت هذه نفسها، بعد ما تخلصت من هؤلاء المهاجمين البرابرة، عاجزة عن الحصول على القوى البشرية للقتال في جبهتين ضدّ البرابرة الشماليين الذي كانوا لا يزالون يتبعون طريق الحرب ضد الأغارقة الجنوبيين الذين تخلصوا من السيطرة المقدونية والذين كانوا الآن يقومون بالاعتداء عليها.

كان أشد خصوم مقدونية بين الأغارقة الجنوبيين الاتحاد الايتولي. وكان هذا واحدا من المدن الاغريقية الثائرة على مقدونية، ولم يستسلم لها في سنة ٣٢٢ ق.م.، وفي نحو سنة ٣٠٠ ق.م. أقام الأيتوليون سلطانهم السياسي في دلفي، وهو المعبد البانهليني الذي حافظ على أهميته التي كانت له قبل أيام الاسكندر. وقد تمكنت ايتوليا، تدريجا، من ضمّ المناطق (الكتونات) الواقعة شمالها وشرقها. ولما حلّت سنة ٢٣٥ ق.م. كانت قد توسعت عبر بلاد اليونان القارية من الساحل الى الساحل؛ وفي سنة ٣٢٦ ق.م.، وهي فترة قصيرة كان فيها توسعها على انشطه، تقدمت أيتوليا حتى بلغت حدود مقدونية الجنوبية. وقد تصرف الأيتوليون سياسيا على النحو الذي عرف عن الرومان في ما بعد، فمنحوا المواطنة الأيتولية الى جميع الشعوب التي ضموها الى كيانهم السياسي.

أخذ الاتحاد الإخائي بالتوسع في سنة ٢٥١ ق.م.، وذلك على امتداد الشاطىء البلوبونيسي من خليج كورنث، لكن البلاد التي ضمها كانت أقل ترابطا من تلك التي كانت تابعة لأيتوليا، ولم تكن صنوا لأيتوليا من الناحية العسكرية. يضاف الى ذلك أن الإتحاد الإخائي كان له منافس عنيد هو إسبارطة، وهي قوة بلوبونسية قديمة وقد ظلت مستعصية ولو أن الطيبين كانوا قد انتزعوا بعض أرضها في سنة ٣٦٩ ق.م.، كما اقتطع فيليب الثاني قسماً آخر منها في سنة ٣٣٨ ق.م.

كانت الدولتان الرئيستان اللتان خلفتا الإمبراطورية الفارسية هما اللتان انشأهما اثنان من قواد الاسكندر، بطليموس وسلوقس. وقد امتلك بطليموس مصر والنصف الجنوبي من سورية؛ وكانت حصة سلوقس القسم الأكبر، الذي كان ينقص كثيرا عن الكل، مما تبقى من إرث الامبراطورية الفارسية الآسيوي. وفي شمال غرب آسية الصغرى أقامت بيثنيا دولتها المستقلة تحت زعامة أسرة محلية؛ وكبادوكيا، البحرية والداخلية وشمال ميديا (اتروباتين واذربيجان) أقامت دولا مستقلة تحت زعامة أسر إيرانية. وقد اضطر سلوقس، في سنة ٣٠٢ ق.م. الى التنازل عن المناطق الشرقية من إيران الى بان جديد من بناة

الإمبراطوريات، وهو تشاندرا غوبتا موريا الهندي، الذي كان قد حالفه النجاح سنة ٣٢٢ ق.م. أكثر مما حالف الدول الإغريقية الجنوبية. فقد نجح تشاندراغوبتا في طرد الحاميات المقدونية من حوض نهر السند، ثم إنه وسع ممتلكاته بحيث بلغت مساحتها ما كان لسلوقس، وذلك عن طريق احتلال امبراطورية ماغاد في حوض نهر الكنج ـ جمنا.

كانت الإمبراطورية السلوقية متسعة بحيث لا يمكن ضبطها وربطها. في آخر حروب الخلافة (سنة ٢٨١ ق.م .) كان سلوقس المنتصر اسما؛ وكان قد عبر الدردنيل ثانية في طريقه الى مقدونية حين اغتيل. لكن المنتصرين الحقيقيين كانوا قبيلة من المهاجرين القلتيين الذين استقروا في قلب آسية الصغرى، والذين قاموا بالغزو، طولا وعرضا، خلال نصف القرن التالي إلى أن أوقفتهم عند حدّهم دويلة كانت قد أنشئت سنة ٢٨١ ق.م. في برغامون في غرب آسية الصغرى على يد جندي كان قد ابتسم له الحظ إذ استولى على جزء من الكنوز الفارسية القديمة التي كانت قد خبئت في القلعة هناك. وفي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد كانت مساحة الإمبراطورية السلوقية قد تقلّصت كثيرا، إذ انفصل عنها حاكم ولاية حوض اكسس ـ جاكارتس (سيحون ـ جيحون) الإغريقي، كما أن احتلال البارني، وهم قوم بدو رعاة أصلهم من تركمنستان الحالية، لغرثيا في الوقت ذاته، زاد في هذا التقليص.

إن أعنف مظهر في الحروب التي شنت في الإرث الاسكندري المزعزع (بين ٣٢١ و ٢٢١ ق.م .) هو أنها لم يكن فيها انتصار حسم. فمقدونية لم تتمكن من احتلال جنوب بلاد اليونان. وجنوب بلاد اليونان لم يتمكن من ان يقصي النفوذ المقدوني عن الممرات الإغريقية الثلاثة: ديمترياس وخلقيس واكروبوليس كورنث. لقد حرّر الإخائيون كورنث من مقدونية سنة ٢٤٣ ق.م.، لكنهم تنازلوا عن اكروبوليس كورنث لمقدونية سنة ٢٢٥ ق.م. مقابل تدخل مقدونية عسكريا ضدّ إسبارطة مساعدة للاتحاد الإخائي. وفي سنة ٢٢٢ ق.م. أنزل المقدونيون والإخائيون هزيمة كبيرة بالإسبارطيين، وقد وقعت إسبارطة تحت احتلال أجنبي لأول مرة في تاريخها؛ لكن إسبارطة لم تلبث ان استردّت استقلالها وعادت لها أهميتها كقوة عسكرية. وفي الوقت ذاته كانت السيطرة البحرية على الأرخبيل الإيجي قد انتزعت من يد ديمتريوس بوليكريتس على يد بطليموس الثاني ثم انتقلت من امبراطورية البطالسة الى مقدونية بسبب الانتصارين البحريين المقدونيين قرب جزيرة قوص نحو سنة ٢٥٧ ق.م. وقرب جزيرة اندروس نحو سنة ٢٤٦ ق.م.

وفي سنة ٢٢١ ق.م. قامت الحرب الرابعة بين البطالسة والسلوقيين لامتلاك جنوب سورية، وانتهت بأن ظلّت هذه المنطقة المتكالب عليها تابعة لإمبراطورية البطالسة.

كان أهم حدث وقع في سنة ٢٢١ ق.م. في أويكومين العالم القديم توحيد الصين على يدي دولة تشن التي افتتحت بلاد الدولة السادسة في منافستها، وضمتها الى أملاكها. وهذا التوحيد السياسي للصين كان حاسما ونهائيا. وقد استمر على ما هو عليه إلا جزئيا وفي فترات موقتة؛ وفي العقد الثامن من القرن الحالي تقوم الصين الموحدة بدور رئيس في القضايا العالمية. لكن في سنة ٢٢١ ق.م. كانت بقية أويكومين العالم القديم، من الهند وغربا على حوض البحر المتوسط الغربي، على وشك الدخول في زمن الصراع العنيف، الذي لم يتخلّص منه حوض البحر المتوسط الا في سنة ٣١ ق.م.، اما الهند فلم تخرج منه إلا في سنة ٤٨ م.

٣٠ـ تطور المدنية الهلينية وانتشارها ٣٣٤ـ ٢٢١ ق.م.

لم تكن سنة ٣٣٤ ق.م.، وهي السنة التي أجتاز فيها الاسكندر الدردنيل، بالطبع، نقطة ابتداء في تطور المدنية الهلينية وانتشارها. فقد كانت، في ذلك الوقت، قد مرت عليها أربعة قرون ويزيد وهي تنمو وتنتشر. لقد بدأت العملية في القرن الثامن قبل الميلاد، لما تفتقت براعم المدنية الهلينية ازهارا، بعد فترة حضانة طويلة. لكن لما هاجم الأغارقة الإمبراطورية الفارسية وقضوا عليها، أخذوا انفسهم بنشر مدنيتهم على مقياس واسع وبشكل واع؛ فقد كانوا يواجهون خيارات في سياسات مختلفة للتعامل مع رعاياهم الأجانب. وكانوا يوسعون المجالات في حياتهم ويبدلون الحالات فيها، فجأة وبشكل جذري، بحيث أنهم أصبحوا بحاجة الى فلسفات جديدة يمكنها ان ترشدهم وتدعمهم وهم يطأون ارضا مجهولة بالنسبة اليهم، اجتماعيا وخلقيا.

وخلال القرون الأربعة التي سبقت اتجاه الاسكندر شرقا كانت أجيال مبكرة من الهلينيين قد مهدت السبيل لهم في تلك الأنحاء. لقد ترددوا كثيرا على سورية ومصر تجارا، وكانوا قد خدموا مرتزقة في مصر وبابل وفي الامبراطورية الفارسية، وكانوا حملوا مهجرين الى أماكن قصيّة حتى بلاد الصغد شمالا في شرق، والى ما وراء (نهر اكسوس، جيحون). وكانت نقود المدن ـ الدول الإغريقية، مما قبل الإسكندر، قد انتشرت في أسواق الامبراطورية الفارسية مزاحمة للنقود الامبراطورية ذاتها. وفي هذه الجهات كانت المستوطنات الإغريقية تجارية، لا زراعية، وكانت مقصورة على الميناء (بوزيديون) في سورية ونيوكراتيس في دلتا النيل. لكن الأغارقة استعمروا، بالقوة، بالأسلوب ذاته، المضايق المؤدية الى البحر الأسود، وكانوا قد أقاموا مراكز تجارية حول جزء كبير من سواحل البحر الأسود. وفي سنة ٣٣٤ ق.م. كان أهل صقلية الذين ظلوا في داخل الجزيرة قد أخذوا انفسهم بالتكلم باللغة اليونانية والعيش في مدن ـ دول على

النسق الهليني، كما ان الأترسكيين والايوليين وغيرهما من الشعوب غير الإغريقية في إيطالية كانوا قد اقتبسوا طراز الحياة الهلينية على درجات متفاوتة.

أما وقد اكتسح الأغارقة، بقوة السلاح، أراضي الإمبراطورية الفارسية المشعة، فقد كان على الفاتحين ان يقرروا فيما إذا كانوا ينوون فرض أنفسهم على السكان المقهورين كجنس سيد، أو انهم كانوا يرون وجوب العيش والتزاوج مع رفاقهم من غير الأغارقة على قدم المساواة. وقد تقدمّ ارسطو، معلم الأسكندر سابقا، بالنظرية العنصرية غير الإنسانية وغير العلمية وهي أن الهلينيين ولدوا ليكونوا أسيادا، وغير الهلينيين يجب ان يكونوا عبيدا؛ اما الاسكندر نفسه وثيوفراستوس، تلميذا ارسطو، فقد كانا الى جانب المساواة. وقد كان الاسكندر، قبل وفاته المبكرة، قد بدأ يطبق سياسته الأسمح، وذلك لمصلحة رعاياه الإيرانيين. على أي حال، كان قد احتفل بعيد للتوفيق، وقد دعم وكافأ أولئك الذين تزوجوا زواجا مختلطا ـ إغريقيا إيرانيا أو إغريقيا آسيويا. لكن يبدو أنه حتى الاسكندر نفسه كان مطمئنا الى أن الإطار الحضاري لهذا المزج العنصري المرتغب سيكون هلينيا، وكان هذا الأساس الذي نفذت بموجبه سياسة الإسكندر على يد سلوقس الأول، الخليفة الذي ضمن لنفسه أكبر جزء من الأرض من أسلاب الإمبراطورية الفارسية. ويبدو أن المزج بين الأغارقة والإيرانيين قد نفذ، أوسع ما نفذ، في حوض نهري اكسوس ـ جاكسارتس، تحت حكم الأغارقة المحليين الذين انفصلوا عن الدولة السلوقية، خليفة الإمبراطورية الفارسية، حول سنة ٢٥٠ ق.م. وفي الجهة الثانية فان الحكام البطالسة في مصر وأعوانهم من الأغارقة تصرفوا وكأنهم جنس سيد، فقد احتفظ التاج هنا بكل الوظائف الادارية، إلا أدناها، في أيدي الأغارقة. وجميع الأغارقة الذين كانوا في مصر تعاونوا مع نظام البطالسة لاستغلال أهل مصر.

في سنة ٢٢١ ق.م. كانت هذه السياسة غير الليبرالية التي اتبعها الأغارقة في مصر لا تزال فعالة، لكن غالبية السكان المصريين لم تتقبل أن تعامل على أنها جنس أدنى؛ وفي واقع الأمر فان المدنية المصرية كانت متفوقة على المدنية الهلينية على الأقل في أمرين هامين: كان للمرأة المصرية وضع قانوني أفضل من وضع المرأة الأغريقية، وكان الرق في مصر نادرا. كان الفلاحون المصريون المستغَلون رجالا احراراً، ومع أن أفرادا من الجماعة الإغريقية الذين كانت أحوالهم جيدة كانوا يملكون العبيد، فان حكومة البطالسة اتخذت الاحتياط اللازم لمنع استرقاق رعاياها.

ان المهاجرين كان باستطاعتهم أن يحملوا معهم أموالهم المنقولة فقط، سواء في ذلك المهاجرون الذين جاؤوا كفاتحين، مثل الأغارقة الذين ساروا على درب الإسكندر، والمهجرون، مثل اليهود الذين نقلوا أسرى من جنوب فلسطين الى بابل قبل ذلك بنحو ربع الألف من السنين. وإذا كان للمهاجرين رغبة في الحفاظ على هويتهم الاجتماعية والثقافية في محيطهم الجديد بين أجانب يفوقونهم عددا، فان الاموال المنقولة التي يحملونها معهم يجب أن تكون ثمينة، في نظرهم بالذات، بحيث تكون وازعا لهم ليتغلبوا على التجربة المرضية التي قد تؤدي الى التخلي عن العناصر العميقة الجذور في تربة الأجداد من تراثهم الحضاري. فقد كان على المهجر اليهودي ان يتخلى عن الطقس الديني الذي لم يكن ليتم حكما إلا في الهيكل في القدس؛ والمهاجر الإغريقي كان عليه أن يتخلى عن الولاء للإله الخاص بالمدينة ـ الدولة الآتي منها. وقد نجح الأغارقة في سنة ٣٣٤ ق.م. وما بعدها في حلّ هذه المشكلة السيكولوجية، كما فعل اليهود في القرن السادس ق.م.. ان العبيد الذين كانوا ملك يمين المهاجر اليوناني كانوا كسبا اقتصاديا منقولا وكانوا مسؤولية حضارية. وما كان للأغارقة ان يتم على يدهم ما تم لليهود في بلاد التشتت لو انه لم يكن لهم مكتسبات حضارية يمكن نقلها، وان هذه كانت ذات قيم سيكولوجية عالية المستوى، على نحو ما كان لليهود.

كان ثمة اثنان من المكتسبات الأثينية الهلينية ثبت انهما غير قابلين للنقل من اثينا وهما كتابة التمثيليات ومجمعات الأخوة الفلاسفة. كانت الفلسفة الإغريقية قد ظهرت اصلا في ايونيا، وكانت قد طوفت الى ايطالية قبل ان تستقر في اثينا، الا ان سقراط وافلاطون وارسطو كانوا قد القوا مراسيها في اثينا. اما في التأليف التمثيلي فان اثينا كادت ان تحتكر هذا الفن، مع انه كان هناك مدارس للهزليات والمضحكات من التمثيل في صقلية وايطالية، لكن الفلاسفة والمؤلفين التمثيليين الذين عاشوا وكتبوا في اثينا لم يكونوا بالضرورة اثينيين اصلا.

كان كتاب المأساة الثلاثة والمؤلف الهزلي ارستوفانس، الذين عاشوا في اثينا في القرن الخامس جميعهم من ابناء اثينا. اما بين اشهر اربعة من المؤلفين الهزليين، من اهل المدرسة الأثينية « الجديدة »، لم يكن سوى واحد من ابناء اثينا وهو ميناندر (حوالي ٣٤٢- ٢٩١ ق.م .). وديفيلوس (عاش حوالي ٣١٨- ٢٧٤ ق.م .) جاء اثينا من سينوب؛

وفيليمون (٣٦١- ٢٦٣ ق.م .) جاء من سيراقوسة؛ والكسيس (عاش حوالي ٣٧٥- ٢٧٤ ق.م .) جاء من توري في طرف « اصبع قدم ايطالية ».

ومن بين اصحاب المدارس الفلسفية التي احتضنتها اثينا، كان افلاطون الوحيد من ابناء اثينا. فابيقور (٣٤١- ٢٧٠ ق.م .) كان ابنا لمستوطنين اثينيين كانوا قد استقروا في ساموس، لكنهم كانوا قد أجلوا عنها لما حررت ساموس سنة ٣٣٢/ ١ ق.م. والحديقة التي اقامت فيها الأخوة الابيقورية في اثينا كان قد ابتاعها لها، في سنة ٣٠٦ ق.م.، تلاميذه الأغنياء الذين كانوا قد تتلمذوا عليه في لامبساكوس. وكان ارسطو من ابناء ستاجيروس، وقد وجد، في نهاية المطاف، ان اثينا اشد من ان تتحمله. واخوة ارسطو كانت تجتمع في الليسيوم في اثينا، وقد انشئت بعد وفاته على يد تلميذه تيوفراستوس (٣٧٢- ٢٨٨/ ٧ ق.م .) من ابناء ارسوس في جزيرة لسبوس. اما زينون (حوالي ٣٢٦- ٢٦٤ ق.م .) وهو مؤسس الأخوة الرواقية، فقد جاء الى اثينا بين سنتي ٣٢٠ و ٣١٤ ق.م. من مدينته الأصلية كيتيوم في قبرص. وكانت كيتيوم مستعمرة فينيقية. وقد وجد فيها، مما يعود الى القرن الرابع ق.م.، نقوش بالكنعانية اكثر من النقوش باليونانية. وخلفاء المؤسسين الاربعة في رئاسة الأخويات المتالية جاؤوا من كل انحاء العالم الهليني المتسع، وحتى من خارجه. فعلى سبيل المثال كان هنيبال - كليتوماخوس، الذي رأس اكاديمية افلاطون من ١٢٧ الى ١١٠ ق.م.، كان، مثل زينون، فينيقيا مستعمرا؛ وقد جاء من قرطاجة.

يضاف الى ذلك ان التمثيليات التي كانت تؤلف في اثينا كانت تمثل في اماكن اخرى، كما ان الاخويات الفلسفية المتمركزة في اثينا، كان ينتسب اليها الاتباع من كل مكان. وقد كان بين المؤسسات التي حافظت على العالم الهليني المتسع اتحاد الممثلين المتقلين البانهليني (ديونيسو تكنيتاي). فقد كان هؤلاء الممثلون المتنقلون يمثلون روايات اتيكية حيثما كانت ثمة مدينة أغريقية فيها مسرح، وذلك تحت رعاية ديونيسيوس، وهو الإله الذي تعود ولادة الدراما الاتيكية الى طقوس عبادته في اثينا. وقد حافظت المأساويات التي وضعها بوروبيدس في القرن الخامس ق.م. على مكانها جنبا الى جنب مع الهزليات الاتيكية الاوروبيدية.

كانت الاخويتان الفلسفيتان اللتان ضمتهما اثينا في العصر السابق للاسكندر من نوع النخبة وكانتا متعاليتين؛ وقيام المدرستين اللتين انشئتا بعد الاسكندر كان استجابة

للحاجات الفكرية والاجتماعية الآنية. فابيقور شجع اتباعه على ان يعتزلوا الحياة العامة، على نحو ما فعل معاصره الفيلسوف التاوستي الصيني تشوانغ تسو. وكان ابيقور يقيم وزنا خاصا للصداقات الشخصية. وكان زينون، مثل كونفوشيوس، يعلم اتباعه كيف يحتفظون بمستوى فردي عال في تصرفهم في اطار اجتماعي جديد يتعذر فيه على الفرد أن يعتمد على الدعم الخلقي - ولا على القيود الخلقية - للقيام بواجباته كمواطن في مدينة - دولة ذات سيادة. وكان ثمة فلسفات تقوم بالدعوة لنفسها. وعلى هذا المنوال، وبدرجة اكبر، كانت المدرسة « السينية ». كان مؤسسها أنتيثينس (حوالي ٤٤٥- ٣٦٦ ق.م .)، وهو شبه اثيني تراقي، قد أقام في اثينا في جمنازيوم سينوسارغس. وكان تلميذه، ديوجينس السينوبي، الذي يرجح أنه توفي في السنة ذاتها التي توفى فيها الإسكندر، يرى ان الحرية الروحية ثمنها التخلي عن كل الممتلكات المادية، على نحو ما ارتأى بوذا من قبل. وقد كان الفلاسفة السينائيون، الذين جاؤوا بعد الاسكندر، يهيمون على وجوههم، موجهين دعوتهم الى الجماهير. وقد كانوا ينشرون مذهبهم التقشفي بالعمل وبالقول.

وقد كان ما تيسر نقله من مكاسب الحضارة الهلينية للفترة التي تلت الاسكندر الكويني (الصيغة) العالمية للهجة الأتيكية من اللغة اليونانية. يبدو أن الكويني بدأت تتخذ شكلها الواقعي خلال نصف القرن الذي وجدت فيه الامبراطورية الأثينية (٤٥٤- ٤٠٥ ق.م .)، لكن اسهمها ارتفعت لما أقرّها الملك فيليب الثاني اللغة الرسمية للمملكة المقدونية، مفضلا اياها على اللهجة اليونانية المقدونية المحلية. ومنذ ذلك الوقت قامت الكويني بخدمات جلى للعالم الهليني كلغة الدولة والأدب المنفعي والحياة اليومية. لقد كانت لغة حية وقد استمرت في التطور استجابة للمطالب المتغيرة في الحياة الهلينية. وفي الوقت ذاته انتشرت (اللغة) اليونانية الأتيكية في الصيغة « الجميلة » التي صنعها للتصدير الاديب ايسوقراط (٤٣٦- ٣٣٨ ق.م .)

كانت الكويني الاتيكية واسطة لنقل الأفكار والاحاسيس؛ واتيكية ايسوقراط كانت مادة لغوية يستخدمها الفنان لابداع الزخارف الأدبية بحيث يخضع المحتوى الفكري لتميق الكلام. كانت الكويني لغة العلم والبحث العلمي الهلينيين في الفترة التالية للاسكندر. ولم يتمركز هذا كله في اثينا، بل في الاسكندرية (مصر).

وقد اكتشف العلماء هنا بضعة امور على غاية الأهمية. فاراتوستينس القبريني

(٢٧٦- ١٩٤ أو ٢٦٤- ٢٠٢ ق.م .)، الذي كان امين مكتبة المتحف في الاسكندرية، قدر طول محيط الأرض تقديراً يكاد يكون صحيحا عن طريق الملاحظة العبقرية والقياس؛ وارسطرخس الساموسي (برز حوالي سنة ٢٨٠ ق.م .) جعل الشمس، بدل الأرض، مركز الكون الشمسي. وعلى كل فقد أعاد هيبارخوس النيقي (حوالي ١٩٠- ١١٢ ق.م .) الارض الى موقعها التقليدي الخاطىء؛ وفي سيراقوس اعتذر ارخميدس عن اسلوبه الخشن في تطبيق النظرية العلمية على التكنولوجيا المدنية والعسكرية.

وقد كانت « الهلينية »، التي كان حظها ان تملأ بلاد الإمبراطورية الفارسية المحطمة، ايضا بحاجة الى وعاء اجتماعي يمكن نقله، وقد وجد الاسكندر وخلفاؤه بغيتهم في المؤسسة الرئيسة التي اوجدتها المدنية الهلينية قبل ايام الاسكندر وهي المدينة ـ الدولة. ان قلة من المدن ـ الدول الإغريقية التي تعود الى ايام قبل الاسكندر، استطاعت ان تحافظ على استقلالها وسيادتها. وتلك التي نجحت بشكل غريب هي رودس. في ٣٠٥- ٣٠٤ ق.م. نجت رودس، بمساعدة بطليموس الأول سوتر (المنقذ)، في صد هجوم شنه عليها ديمتريوس بوليوكرتيس (الذي يحتل المدن). وتوسع العالم الهليني شرقا اتاح لرودس ان تكون مركزا رئيسا لشبكة المواصلات البحرية. فقد سيطرت رودس على الطرق البحرية التي تصل البحر الإيجي بالاسكندرية، عاصمة البطالسة؛ وبسلوقية البيرية، ميناء انطاكية (على العاصي) التي كانت العاصمة الغربية لامبراطورية السلوقيين. ومع ان فيليب والاسكندر وخلفاؤهما جردوا اكثر المدن ـ الدول الاغريقية القديمة من سيادتها، فقد اسسوا ٣٢٩ مدينة جديدة بحسب احصاء جديد؛ ولم يقتصر الامر عليهم، فان البدو البارثيين الايرانيين ايضا، وهم الذين احتلوا بارثيا وغيرها من اراضي الدولة السلوقية، كانوا، في العادة، ينظرون الى المدن الإغريقية نظرة احترام وتقدير. وقد كان تدمير فيليب لاولنثوس (٣٤٨ ق.م .) وتدمير الاسكندر لطيبة (٣٣٥ ق.م .) من الأعمال الوحشية القليلة. وقد اعاد كاسندر بناء طيبة (٣١٦ ق.م .) وهو واحد من اكبر القتلة من الجيل الثاني من خلفاء الاسكندر. وقد مدّت مدن ـ دول اغريقية اخرى يد العون لتعمير طيبة. ولما دمّر زلزال مدينة رودس (٢٢٧ ق.م .)، ارسل الملوك والمدن ـ الدول في كل انحاء العالم الهليني هبات سخيّة لاسعافها.

ان المدينة التي لا سيادة لها كانت اداة طيعة لقبول توكيل سلطات ادارية؛ واذا

كانت مدينة مؤسسة حديثا، دون ان تقع نهب ذكريات مجد غابر من استقلال وسيادة، بل انها تجابهها، عند أبواب المدينة، جماعات غير إغريقية من السكان الخاضعين للدولة ـ مثل هذه المدينة كان من المحتمل ان يكون ولاؤها لمؤسسها من البيت المالك مضمونا أو شبه مضمون. كانت اول منشأة ملكية هي فيليبي التي أسسها فيليب الثاني، وكانت تقوم على حراسة مناجم الذهب التابعة له. وأشهر ما انشىء كانت الاسكندرية، في مصر (وهي الأولى، بين كثيرات غيرها، اطلق عليها هذا الإسم). وكان اكثر المؤسسين للمدن الاغريقية الجديدة دؤوبا من خلفاء الاسكندر السلوقيين والحكام الأغارقة لحوض اكسوس ـ جاكسارتس (سيحون وجيحون) الذين انفصلوا عن السلوقيين والذين انتهى بهم الأمر الى احتلال شمال غرب الهند. وكل مدينة اغريقية، القديم منها والحديث، كان لها سوق (أغورا) ومسرح وعلى الأقل دار واحدة للالعاب الرياضية (جمنازيوم). وقد كان المسرح والسوق مكانين للاجتماع لمآرب متنوعة. واما الجمنازيوم فهو، بالنسبة الى الاغارقة في بلاد التوسع، كالكنيس بالنسبة لليهود. ولما نزعت عن المدن صفتها العسكرية، اصبح الجمنازيوم ناديا للأمور الفكرية وللالعاب الرياضية على السواء.

لم تكن المدن الوعاء الوحيد الذي احتوى « الهلينيّة » وبثها. فقد كان هناك مستوطنات لقدماء المحاربين المقدونيين واحفادهم، وهي التي كان لها دساتير اوليّة، والجنود والتجار والصناع من الاغارقة وغيرهم كانوا، في فترة الانتشار، قد جُمعوا وضموا في جماعات غير مرتبطة بالارض سميت « بوليتايْ ».

بسبب انتشار هذه الأوعية المختلفة التي امكن نقلها، أتيح للمدنية الهلينية، لما حلت سنة ٢٢١ ق.م.، ان تنتشر في كل البلاد التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية باستثناء مصر. ذلك بان البطالمة فضلوا، على نحو ما فعل معاصروهم في تشين، سبيل الادارة المباشرة، فأنشأوا مدينة واحدة جديدة هي بطولمايس في منطقة طيبة، اضافة الى المدينتين اللتين ورثوهما وهما الاسكندرية ونوكراتس. في سنة ٣٣٤ ق.م. كانت المستوطنات الاغريقية الوحيدة، داخل حدود الامبراطورية الفارسية، تكوّن خطا من المدن ـ الدول على الساحل الغربي لآسية الصغرى، ورقعا على ساحلي اسية الصغرى الشمالي والجنوبي، وفي برقة ونوكراتس وهناك بعض الجاليات المهجّرة من الأغارقة في الجزء القصي في الشمال الشرقي. اما التوسع الذي تم في القرن التالي فكان ضخما لكنه كان سطحيا ايضا. فالمدن المستعمرات الاغريقية الجديدة، مع انها كانت كبيرة في عددها، فقد كانت جزرا

اغريقية منتشرة في بحر من سكان غير اغريقيين. فارباض هذه المدن وريفها كان السكان فيها من غير الاغارقة. وقد كان ثمة احياء غير اغريقية حتى داخل اسوار تلك المدن. وقد حققت اللغة (الكويني) الآرامية نجاحا اكبر من نجاح اللغة (الكويني) اليونانية في تفوقها على الكنعانية (العبرية) على انها اللغة اليومية. وقد اتيح للكويني اليونانية ان تحل محل اللغة (الكويني) الارامية موقتا كلغة الادارة في كل مكان. وفي شمال ايران استعملت الالفباء اليونانية في بعض النقوش باللغة الايرانية المحلية. وعلى كل فقد انتشرت الالفباء الارامية، في نهاية الأمر، في كل الأراضي التي كانت تابعة للامبراطورية الفارسية، والتي تقع الى الشرق من نهر الفرات.

٣١ـ الدول المتحاربة في الصين ٥٠٦ـ ٢٢١ ق.م.

بين سنتي ٧٧١ و ٥٠٦ ق.م. كان وجه الصين السياسي قد تبدل بسبب حروب داخلية استمرت قرنين. لقد اشرنا من قبل الى انه قبل ان تذهم المصيبة اسرة تشو في سنة ٧٧١ ق.م. كانت الصين تتألف من نحو ثلاثمئة «اقطاعة» صغيرة تدين بالولاء لأسرة تشو. وفي سنة ٥٠٦ ق.م. كان هناك نطاق خارجي مكون من سبع دول كبرى تحيط بعدد من الدول الصغيرة، كانت احداها مكونة من رقعة صغيرة من الارض تقع تحت سلطان اسرة تشو مباشرة حول مدينة لويانغ، رهي المدينة التي اتخذتها اسرة تشو ملجأ لها لما هجرت من حوض الواي بعد سنة ٧٧١ ق.م. وكانت اسرة تشو قد حلت محل اسرة شانغ في القرن الحادي عشر على انها القوة الكبرى في المنطقة. وحري بالذكر ان اربعا من الدول الهامشية السبع وهي: يَن الواقعة عند مصب النهر الاصفر وفي وادي هو، وتشو ورُو ويوه، الواقعة في اودية هَواي وهان ويانكتسي على التوالي ـ هذه الدول الاربع كانت خارج البلاد التي خضعت لاسرة تشو كما ذكر. وثمة دولة كبيرة خامسة وهي تشن كانت (اي في سنة ٥٠٦ ق.م .) تحتل الاملاك الاصلية التي كانت لدولة تشو في وادي الواي. الا ان تشن في سنة ٥٠٦ ق.م.، كانت، مثل تشو قبل القرن الحادي عشر ق.م.، دولة متأخرة حضاريا. ومن بين الدول الهامشية السبع الكبرى كانت دلوتا تشن وتشي داخلتين في النطاق الأُصلي للمدنية الصينية الذي انتزعته تشو من شانغ.

كانت كل من الدول السبع الهامشية تتعرض لخطر قد يأتيها من أي منها، وهذا ما حمل حكومة كل من هذه الدول على أن تكون فعالة قوية عسكريا، ومن ثم اداريا واقتصاديا كذلك. ومفتاح الفعالية كان الحكم المطلق. فاذا كانت أي من الدول الكبرى تود ان تجتاز محنة المنافسة التي تتعرض لها من جاراتها، يتحتم على صاحب السلطان

فيها ان يتجنب الانحدار الى العجز الذي اصاب اسرة تشو الحاكمة. وحيثما كان ذلك ممكنا كان على الحاكم ان يتمتع بسيطرة قوية على رجال البلاد وعلى مواردها. وكان هذا يقتضي تبديلا جذريا في التركيب التقليدي للمجتمع الصيني. ففي هذا المجتمع كان الحكام المحليون، حتى عندما كانوا يستقلون، استقلالا واقعيا، عن سيادة اسرة تشو لم يكونوا، في المناطق التي يحكمونها سوى الأوائل بين الأقران، بالنسبة الى الارستقراطية الموروثة، التي كان اعضاؤها يزاحمون البيت المحلي الحاكم على المناصب العامة وينافسونه على نتائج الأرض.

كانت هذه المشكلة الخاصة هي معضلة حكام اسرتي تشي وتشن، حيث كانت البنية الارستقراطية التقليدية للمجتمع الصيني تحصنها الممارسة والعادة. وقد كانت هذه ايضا مشكلة للقوة القابعة في الجنوب، تشو. الا ان المشكلة الكبرى في الجنوب، عند مختتم القرن السادس ق.م.، كانت العلاقة بين القوى المحلية في ما بينها. ففي الجنوب كانت عملية التصين تنتشر بسرعة في الاراضي التي كانت همجية من قبل. فتقبل نمط الحياة الصينية حمل معه ازدياداً في القوة العسكرية والسياسية؛ ومن ثم فان كل دولة جنوبية عندما تنضم الى المجتمع الصيني كانت تتعرض للخطر من الخلف على يد دولة، وتكون هذه ابعد من مركز العالم الصيني، او تصين وتصين بدورها.

وفي سنة ٥٠٦ ق.م. تعرضت تشو - وهي دولة همجية سابقا اقتعدت اواسط حوض نهر يانكتسي، والتي كانت ذات نشاط قيادي في النزاع السياسي الصيني منذ أن اخذت اسرة تشو بالاضمحلال - لهجوم قامت به وو واحتلتها. وهي كانت دولة همجية سابقا، لكنها احدث عهدا وكانت قد قامت في الحوضين الادنين لنهري يانكتسي وهواي. وقد هبت يووه لنصرة تشو، ويووه كانت دولة حديثة لم تزل في طور التكون في المنطقة الواقعة الى الجنوب من تشو ووُو. وعندها فَرضت وُو سيطرتها على يووه؛ لكن وُو تجاوزت امكاناتها اذ هاجمت تشي في سنوات ٤٨٥-٤٧٩ ق.م.. كانت وُو ترمي الى الهيمنة على العالم الصيني باجمعه، لكن قوتها لم تكن في مستوى طموحها؛ فهجوم وُو على تشي باء بالفشل. وهذا التشتيت في طاقة وُو اتاح لتشو الفرصة لإعادة بناء نفسها في سنوات ٤٨٨-٤٨١ ق.م.؛ وفي سنة ٤٧٣ ق.م. احتلت يووه وُو نفسها وضمتها الى املاكها.

لم تصد تشي هجوم وُو فحسب، بل انها تغلبت على نزاع داخلي بين النبلاء

والعرش، وكان العرش هو المنتصر في تشي. وفي الجهة الثانية شلّ العرش في تشن في سنوات ٤٩٧- ٤٩٠ ق.م. نتيجة حرب اهلية بين اضراب النبلاء المحليين. وفي حرب اهلية تالية، في ٤٥٥- ٤٥٣ ق.م. قضي نهائيا على واحد من البيوت الارستقراطية الاربعة المتنازعة؛ وعندها اقتسمت البيوت الثلاثة الباقية دولة تشن في ما بينها واقعيا، واعترفت بالدول الثلاث التي خلفت تشن، وهي واي وهان وتشاو، قانونيا في سنة ٤٥٣ ق.م.. منذ سنة ٤٥٣ ق.م. كانت كل من الدول التي خلفت تشن تحاول ان تقوم بدور الدولة الكبرى ولحسابها الخاص، الا انها جميعها كانت، مثل وُو في سنوات ٤٨٩- ٤٧٣ ق.م.، تحاول عملا كانت قواتها دونه بكثير. وقد زاد في ضعف الدول التي خلفت تشن التداخل الجغرافي في تقسيم المملكة. فبعض احزاء الارض التي ورثتها « واي وهان » كانت اراضٍ داخلية معزولة جغرافية عن جسم الدولة التي ضمت اليها. وكان الذي افاد من تقسيم تشن، في نهاية الأمر، الجارة الشرقية للدول التي خلفت تشن وهي دولة تشان.

ومنذ سنة ٤٥٣ ق.م. كان هناك ثماني دول كبرى متنافسة. فكيف كان حاكم دولة كبرى يتصرف بحيث يجني اكبر فائدة من امكانات دولته العسكرية؟ كانت احدى الوسائل لزيادة الفعالية العسكرية للدولة ان يستبدل اصحاب المناصب الموروثة برجال اثبتوا جدارتهم الشخصية، حتى ولو لم يكونوا من البيت المالك او الارستقراطية. وكانت الخطوة الثانية، وهي استبقت الاولى، استبدال القطائع الموروثة بمحافظات (تشون)، وهذه كانت بدورها مقسمة الى وحدت ادارية أصغر (هسين). وكانت هذه المحافظات يديرها موظفو التاج الذي كانت مدة خدماتهم تنتهي بناء على رغبة صاحب العرش.

بعد تقسيم تشن قام حاكم احدى الدول التي خلفت تشن، وهي دولة واي، وكان بعيد الهمة طموحا، (وهو الأمير وِن امير واي ٤٤٦- ٣٩٧ ق.م .) بتجربة القصد منها التعويض عن رقعة دولته الصغيرة وقلة سكانها وندرة مواردها، بان وظف في الادارة رجالا قديرين من اصل اجتماعي وضيع. والزيادة في القدرة العسكرية لدولة واي اغرت الأمير وِن بالسعي للهيمنة، وذلك في سنة ٤١٩ ق.م.. ودولة واي، مثل دولة وُو التي جربت ذلك من قبل في القرن نفسه، فشلت في الوصول الى هذا الهدف. فأوقفت واي عند حدها جزئيا في سنوات ٤١٩- ٣٧٠ ق.م.، ثم نهائيا في سنوات ٣٥٤- ٣٤٠ ق.م. وكان الرابح من فشل واي جارتها الغربية تشان.

بعد وفاة ون، امير واي، سنة ٣٩٧ ق.م. استأجر ملك تشو احد موظفي الأمير المتوفى القديرين ليقوم في تشو بالعمل الذي تم في واي. وعلى كل فان هذا الاصلاح الجذري قلب رأسا على عقب بعد وفاة الملك الذي بدأه. واستعادت الارستقراطية سيطرتها على المناصب العامة في بلاد دولة تشو. ومع ذلك فان الرأي المقبول هو ان تشو كانت اول دولة استبدلت المحافظات والأقضية في البلاد التي ضمتها اليها. وقد ضمت تشو، بين سنتي ٤٧٩ و ٤٤٥ ق.م.، ثلاثا من الدول الصغرى في مركز العالم الصيني.

كانت ادق التنظيمات الادارية التي ادخلت في تلك المنطقة تلك التي تمت في دولة تشان اثناء حكم الامير هين (٣٨٤- ٣٦١ ق.م .) وابنه وخليفته الأمير هياو (٣٦١- ٣٣٨ ق.م .) وقد كان المنظم الفعال في تشان شانغ يانغ وهو ضابط من بيت امارة في واحدة من الدول المركزية الصغرى، وكان قد استخدم اولا في دولة واي، خليفة تشن. ثم انتقل سنة ٣٥٦ الى خدمة الامير هياو، وظل يعمل في تشان حتى وفاة الامير، سنة ٣٣٨ ق.م.. في تشان ازال شانغ يانغ بنية المجتمع القائمة على المنزلة الموروثة وفتح المجال امام القدرة العسكرية للتقدم. وفي سبيل تقوية القدرة العسكرية لدولة تشان صرف عنايته الى الزراعة؛ وفي سبيل تقوية الزراعة جعل الأرض ملكا خاصا بحيث اصبحت سلعة للبيع. وقد اتاحت تجديدات شانغ يانغ الفرصة للفلاحين لأن يصلوا الى اعلى المناصب في الدولة، الا ان هذه التجديدات اخضعت الفلاحين للتجنيد الاجباري ولدفع الضرائب، وعرّضتهم، فيما اذا احاقت بهم ضائقة اقتصادية، الى خطر بيع ارضهم. وبذلك اصبح امام فلاحي تشان بديلان متطرفان: اما ان يثروا أو أن يفقروا.

كان حكم الامير هياو وعمل السيد شانغ يانغ في خدمة الامير هياو في تشان معاصرين لحكم فيليب الثاني في مقدونيا (٣٥٩- ٣٣٦ ق.م .). كانت تشان في الصين نظيرة مقدونيا في بلاد اليونان. وسياسة تقوية الدولة عن طريق اخضاع الفلاحين للجندية، كان يتبعها في الوقت ذاته فيليب وشانغ يانغ. والصلة بين تشان ومقدونيا وبين المجتمع الذي كانت كل منهما ترتبط به كانت متشابهة في الناحيتين الجغرافية والاجتماعية. كانت كلتا الدولتين تجاور منافسيها مجاورة تامة، لكنهما محصورتين من الناحية الطبيعية بحلقة من الجبال التي تحجزهما. وكان الشعبان كلاهما متأخرين اجتماعيا، ومن ثم كانا قابلين للتبدل، لما قلبت الحياة فيهما رأسا على عقب، في القرن الرابع ق.م.، بسبب امر حتمي من الحاكم.

عاش فيليب الثاني حتى رأى بام عينيه ثمرة اصلاحه ممثلا في توحيد بلاد اليونان عسكريا وسياسيا تحت هيمنته. وقد توفي الأمير هيو سنة ٣٣٨ ق.م.، وهي السنة التي انتصر فيها فيليب. ولم تتمكن تشان من توحيد العالم الصيني الا في العقد ٢٣٠-٢٢١ ق.م.. لكن توحيد الصين على يد تشان، على عكس ما تم على يد فيليب، كان نهائيا. فالعالم الهليني لم يتم توحيده في نهاية الأمر لا على يد مقدونيا ولا على يد الدول الاغريقية الوريثة لمقدونيا ومنافسيها، بل تم ذلك على يد دولة غير اغريقية، لكنها تهلينَت وهي رومه. وكان على تشان ان تتنافس مع دول صينية اخرى، وبين هذه الدول اثبتت واي اولا ثم تشاو انهما الأعند؛ لكن، في نهاية الأمر، كانت تشان هي التي وحدت الصين، وقد كانت تشان دولة صينية، ولو أنها لم تكن دولة على المستوى الاعلى بالنسبة للحضارة الصينية.

ان التغييرات الجذرية الادارية التي عرفها العالم الصيني في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، صاحبتها تغيرات اقتصادية واجتماعية، كما رافقها تبديلات تكنولوجية ايضا، عسكرية، ومدنية على السواء. وبعض هذه التغييرات، في المجالات الأخرى للحياة، بدأها المحدثون الاداريون؛ وكان غيرها نتائج جانبية للأعمال التي تمت على ايديهم؛ وثمة غيرها التي تمت (في حدود ما نعرف) كانت معاصرة لها بالمصادفة. وكانت النتيجة التراكمية لهذه التغييرات المتعاصرة ذوبان البنية التقليدية للمجتمع الصيني. وكان هذا قد اصابه الوهن بسبب الدور الأول من الحروب الداخلية التي مرت بالبلاد خلال القرنين المنتهيين بسنة ٥٠٦ ق.م. وقد تم القضاء عليها بسبب الدور الثاني الذي انتهى سنة ٢٢١ ق.م.

ان التبدل الاقتصادي الرئيس قد اشرنا اليه من قبل لمناسبة الكلام عن التجديدات الادارية. فقد أصبحت ملكية الأرض قابلة للانتقال، كما اصبحت الارض سلعة تسوق. ومع ان هذا كانت الغاية الهامة له زيادة الانتاج لزراعي، فقد أدى الى اتساع الهوة بين الاغنياء والفقراء وخلق فئة من البروليتاريا التي لا تملك ارضا. والتبدل الاجتماعي الرئيس كان فتح مجال العمل في الناحيتين الادارية والعسكرية لاصحاب الكفايات، دون الالتفات الى الفروق الطبقية الموروثة. وقد نشأ عن ذلك طبقة اخرى جديدة من المدرسين الذين كانوا على استعداد لتقديم التدريب المهني لأولئك الطامحين في الحصول على مناصب في خدمة الدولة. وقد اصبح كونفوشيوس مدرسا ناجحا بعد ما فشل في

ان يكون اداريا. وهو أول ممثل في الصين، وصلنا خبره، لمهنة كان لها نظيرها في العالم الهليني في القرن السادس قبل الميلاد، وهم السفسطائيون. وكان كونفوشيوس ايضا اول مؤسس لمدرسة فلسفية في الصين.

ان الحكام الاتوقراطيين الجدد لم يقوموا عمدا بتشجيع طبقة المدرسين، الا انهم كانوا يتحملونهم وكانوا، على العموم يعاملونهم باحترام. كان الحكام يميلون الى الازدراء بالتجار - وهم طبقة جديدة اخرى ظهرت تلقائيا في العصر نفسه - لكن التجار تمكنوا من الاستمرار في عملهم ومن جمع الثروة على رغم استنكار الحكومة لوجودهم. ويبدو أن التجار وجدوا الفرصة السانحة عن طريق تعهدهم بتوفير الحاجات الاجتماعية. فقد كان ثمة حاجة للتجارة في مجتمع كان يتوسع جغرافيا الى مناطق تنتج اصنافا منوعة من المنتوجات الطبيعية والمصنوعات، وكانت هذه كلها تتطلبها الدول المتخاصمة في ما بينها بازدياد؛ ومع ان الحرب بين الدول كانت تجعل التجارة امرا شديد الخطورة، فان الادارة المحلية الفعالة يسرت السبل الآمنة نسبيا للتجارة الداخلية، وبخاصة في الدول الكبرى. فالتجارة والصناعة واخراج الفلاحين من اراضيهم التي كانت تخص الاجداد، كل ذلك ادى الى قيام المدن.

كان حفر القنوات وسك النقود المعدنية بين التجديدات التكنولوجية المدنية. وقد ادخل الاثنان في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانا كلاهما من عمل الدولة. وكانت الدولة الرائدة في حفر القنوات دولة وُو، لتي كانت املاكها تخترقها المجاري الدنيا لنهري يانكتسي وهواي. كانت الغاية الآنية لحكومة وُو من حفر القنتين تيسير النقل العسكري، لكن القنوات كان لها نتيجة جانبية وهي توسيع الزراعة وتكثيفها بسبب تجفيف الاراضي المستنقعات ذات الامكانات الانتاجية - وقد شهد القرن الرابع قبل الميلاد ادخال المحراث الذي يجره الثور الى العالم الصيني، واستبدال البرونز بالحديد كمادة تصنع منها الآلات الزراعية والادوات والسلاح. هذه التجديدات التكنولوجية التي تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد كانت تخدم، بالتأكيد، اغراض الحكومات الصينية يومها، الا اننا لا نعرف الطرق التي سلكتها للوصول الى الصين من المناطق المتوسطة في اويكومين العالم القديم، حيث كان الحديد والمحراث كلاهما قد شاع استعمالهما مدة طويلة قبل ذلك.

التجديد التكنولوجي العسكري الرئيس كان اقتباس الاسلحة الخاصة بالفرسان في دولة

تشاو سنة ٣٠٧ ق.م.. وكانت تشاو مجاورة للسهوب الأوراسية فاقتبس فرسانها اسلحة البدو ولباسهم، كما فعل الفرسان الميديون في ايران قبل ذلك بثلاثة قرون. وعند مختتم القرن الرابع قبل الميلاد كانت حرب المركبات، التي كانت من قبل السلاح الصيني الرئيس، او لعلها كانت السلاح الوحيد، قد اقصيت جانبا، وقد فضل عليها، قوى المشاة المتراصة، التي كانت تجمع بواسطة التجنيد الاجباري. وقد يكون هذا التغيير قد بدأ في الدول الجنوبية حيث تعرقل المجاري المائية والمستنقعات استعمال الدولاب، ولكن التغيير انتشر بسرعة - مثلا في دولة تشان في الطرف المقابل من العالم الصيني.

والدور الثاني من الحروب التي انتهت بتوحيد الصين سياسيا، بدأ سنة ٣٣٣ ق.م.. ففي تلك السنة قضت تشو على يووه وضمت اليها وُو، التي كانت يووه قد استحوذت عليها سنة ٤٧٣ ق.م. وعقدت في السنة ذاتها(٣٣٣ ق.م)، معاهدة دفاعية بين الدول الست التي كانت لا تزال قائمة، ضد تشان. والفضل يرجع الى اصلاحات شانغ يانغ في ان تشان كانت قد قامت بدور هائل في حروب ٣٥٤- ٣٤٠ ق.م.، وهي الحروب التي اوقفت محاولة واي في الهيمنة نهائيا. وفي سنة ٣١٨ ق.م. تمكنت تشان بشكل بارز من الانتصار على قوى الدول الست المشتركة، مع ان هذه قد قويت بمرتزقة من البدو الاوراسيين. وفي سنة ٣١٦ ق.م. توسعت تشان عبر خط المياه الفاصل بين واي، احد روافد النهر الأصفر وحوض نهر يانكتسي، وهو الآن ولاية سيتشوان، ثم هاجمت تشو من الجهة الغربية. وفي سنة ٢٧٨ ق.م. احتلت تشان عاصمة تشو؛ وفي سنة ٢٧٢ ق.م. اتمت تشان ضرب الطوق حول ما تبقى من تشو. وفي الوقت ذاته كانت تشان تقوم بهجوم ضد الدول الشمالية. وبدا وكأن تشان كانت على وشك توحيد العالم الصيني عن طريق الفتح، لما كسرتها تشاو سنة ٢٧٠ ق.م.. وقد انتصرت تشاو على تشان ثانية سنة ٢٥٨ ق.م. ثم في سنة ٢٤٧ ق.م. وكان على تشان ان تقبل سلما موقتا. ان الحروب التي بين سنتي ٣٣٣ و ٢٤٧ ق.م. كانت شرسة وقتالة، لكنها لم تكن فاصلة.

وعلى كل ففي السنوات العشر بين ٢٣٠ و ٢٢١ ق.م. هاجمت تشان الدول الست الباقية والمنافسة لها، واحتلتها، الواحدة بعد الأخرى. وفي هذه المرة لم تتجمع هذه الدول للدفاع عن نفسها؛ وتشاو وحدها هي التي قاومت بعناد

لقد فرضت الوحدة السياسية على الصين سنة ٢٢١ ق.م. بالقوة العسكرية، لكن

ثبت انها كانت دائمة. ان العمل الذي قام به الموحد الأول كثيرا ما تعرض للخرق خلال ما يقرب من اثنين وعشرين قرنا. فقد خرق اول مرة في السنة التي تلت وفاة الموحد الأول، الا ان النكسات الموقتة التي اصابت الصين وادت الى تصدع وحدتها تم التغلب عليها دوما. ان التوحيد السياسي للصين بالقوة ثبت انه عملي لأن توحيدها الحضاري الاختياري كان قد اصبح حقيقة واقعة قبل ان تبدأ دولة تشان بعملها العسكري. والى هذا يرجع السبب في ان انجاز تشان، اي توحيدها للصين، استمر بعد الزوال السريع لتشان نفسها.

ففي واقع الأمر كانت المدنية الصينية قد انتشرت، قبل سنة ٢٢١ ق.م.، الى ما وراء حدود المنطقة التي وحدها شيه هوانغ - ني، صاحب تشان، في سنة ٢٢١ ق.م. وما بعدها. فعلى سبيل المثال يبدو ان الزراعة والتعدين كانتا قد ادخلتا الى كوريا في القرن الرابع ق.م.، كما ادخلت الى اليابان بعد ذلك بقرن او نحو ذلك - ولعل بعض ذلك قد تم عن طريق كوريا، كما تم بعضه الآخر مباشرة من حوض نهر يانكتسي الذي كان قد تصين قبل ذلك. وكان سكان كوريا واليابان قد ظلوا، قبل ذلك، يعيشون في دور جمع الغذاء وفي مرحلة العصر الحجري المتوسط حضاريا، مع ان فن الفخار كان قد عرف في كل من كوريا واليابان قبل وصول الزراعة اليهما. ليس ثمة قرب بين لغتي كوريا واليابان من جهة وبين اسرة اللغات التي تنتمي اليها لغتا الصين - تاي والتبت - برما، الا ان تقبل كوريا واليابان للمدنية الصينية، ادخلهما في نطاق العالم المتصيّن في شرق آسية.

٣٢ـ الفلسفات المتنافسة في الصين ٥٠٦ـ ٢٢١ ق.م.

كان عصر الدول المتحاربة في الصين هو عصر « المئة مدرسة » الفلسفية ايضا. كانت الفلسفات الصينية المتنافسة تخبرات في الاستجابة العاطفية والعقلية للتجارب العامة المعاصرة التي كانت مؤلمة ومقلقة. وكانت البواعث الاجتماعية للتأملات والحكم الفلسفية هي الخصومات السياسية والعسكرية القاسية والهمجية المتزايدة التي كانت تقوم بين الدول الكبرى وتستمر بعد القتال؛ ومنها الجهد الذي كان الحكام المحليون يبذلونه في سبيل تقوية نفوذهم عن طريق التخلص من الضوابط التقليدية وبخاصة استعاضتهم بالمقدرة عن المحتد على انها المقياس الذي يختار على اساسه الموظفون للإشراف على كل الشؤون العامة؛ ومنها ان ما كان من قبل امرا خاصا بالاقلية الارستقراطية، أي اتاحة الفرصة وانعدام الاستقرار، وسع نطاق تطبيقه بحيث شمل الصفات كلها.

كانت الفلسفة الصينية، على اختلاف مدارسها تختلف عن الفلسفة الهلينية بانها كانت، منذ البدء، تعنى اصلا بالحياة العملية، وبدرجة ثانوية فقط، كانت تهتم بالعلم والميتافيزيقيات. لقد مر على الفلسفة الهلينية اكثر من قرن وهي تجادل المسائل العلمية والميتافيزيقية قبل ان يوجهها سقراط نهائيا نحو درس الطبيعة البشرية. وحتى سقراط نفسه وخلفاؤه في اخوات الفلاسفة الهلينيين كانوا يعنون بدرس العقل البشري - في نظرية المعرفة، على سبيل المثال - اضافة الى اهتمامهم بالاخلاق. وكونفوشيوس، الذي كان النظير الصيني لسقراط، لم يوجه الفلسفة الصينية؛ لقد دشنها. وقد كان كونفوشيوس يهتم بالانسان على انه مسهم في المجتمع، لا على انه عقل أو روح.

والتأمل في الطبيعة البشرية والحياة البشرية يثير، بالطبع اسئلة ميتافيزيقية. ففي الهند كان تلاميذ البوذا يقعون في تجربة التهرب من التدريب الروحي العنيف الذي فرضه البوذا عليهم، وذلك بالغوص في تأملات ميتافيزيقية، كان هو يستنكرها. ومع ذلك فان البوذا

نفسه كانت له اراء ميتافيزيقية تثير الجدل. وقد كانت العقول الصينية اقل ميلا من العقول الهندية الى التأملات؛ ومع ذلك فان مدرسة تاوست الفلسفية الصينية كانت تنخرط في الميتافيزيقيات. والنظريتان الصينيتان عن التبادل المنتظم بين حال ـ الين السكونية وحركة ـ اليانغ الديناميكية، والعناصر الخمسة الداخلة في تركيب الكون الطبيعي كانتا تأملات ميتافيزيقية وعملية. وعلى كل حال، فحتى الميتافيزيقيات التاوستية كانت عنصراً مساعدا لردة الفعل عندهم ضد الاحوال الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في الصين في زمنهم.

كانت تأملات اكثر المدارس الفلسفية الصينية تصوب على المستوى الاجتماعي والسياسي للقضايا الانسانية؛ وكل المدارس اتفقت، باطنا ولو ان ذلك لم يكن دوما ظاهرا، على ان شرف المولد (المحتد) لا يمكن ان يستمر، ولا يجوز ايضا ان يستمر، كطريق للحصول على المناصب العامة. والفرق بين اتباع كونفوشيوس والمتمسكين بالقانون، كان يدور حول سؤال: ماذا يجب ان تكون المواصفة البديلة لتولي المنصب. ولم يشترك لا الموهيون ولا التاوستيون في هذه الجدلية، لانهم كانوا يثيرون الشكوك حول قيمة المؤسستين الاجتماعيتين الرئيسيتين القائمتين يومها، اي الدول والأسر، كما انهم تحدوا شرعية الحق الذي كان يطالب به بالنيابة عن السلطة الحكومية والابوية.

ان المدرسة القانونية في الفلسفة الصينية كانت ترى ان نوع الكفاءة التي يجب ان تكون الجواز الى المنصب الحكومي، عوضا عن شرف المحتد، هي المقدرة الادارية والعسكرية التي يمكن ان تخدم غاية حكام الدول المتحاربة ـ وكان الهدف الذي يرمي اليه كل من هؤلاء الحكام هو زيادة سلطته الى اقصى حد. فبالنسبة الى القانونيين كان « القانون » هو المعادل لأمر الحاكم؛ وكانوا يرون ان للحاكم ما يبرر تصرفه في فرض اوامره بالقوة على رعاياه وعلى الذين يساوونه الى اقصى حد تجيزه له سلطته. وليس لضحاياه، على ما كان يراه القانونيون، اي حق مشروع في التذمر؛ ذلك بانهم كانوا (اي القانونيون) يرون ان الطبيعة البشرية هي ذاتيا سيئة، ومن ثم فان الحكم الذي يستطيع ان يفرض سلطانه لا بد ان يكون تحسينا لحالة الطبيعة. فمن المحتم ان كانت « القانونية » هي الفلسفة التي وضعتها حكومات الدول المتحاربة جمعاء موضع التنفيذ واقعيا، على درجات متفاوتة من الانسجام والقسوة.

وطوال الوقت الذي كان فيه العالم الصيني مستمرا في الانقسام السياسي، كان

القانونيون يكادون يحتكرون مجال الوصول الى النفوذ السياسي. والفلاسفة القانونيون الذين كانوا يتمتعون بالقدرة العملية، كانوا يستخدمون بسرور في بلاطات الحكام كي يعيدوا تنظيم ادارة الدول، ثم كي يسيروها. فقد وضعت دولة تشان اثنين من مشاهير القانونيين على رأس ادارتها في الازمة، الامر الذي اصبح منعطفاً في تاريخ تشان وتاريخ الصين بأكمله. فالسيد شانغ يانغ اعاد كل التراتيب الادارية في تشان في السنوات ٣٥٦- ٣٣٨ ق.م. ثم دون في كتاب النظرية التي طبقها فعلا؛ ولي سي (٢٨٠- ٢٠٨ ق.م .) كان المستشار الخاص للحاكم الذي هو الملك تشنغ (ملك تشان من ٢٤٧ الى ٢٢١) والذي اصبح في ما بعد اول امبراطور (شيه هوانغ - تي) للصين المتحدة من ٢٢١ الى حين وفاته سنة ٢١٠ ق.م.. وقد وضع لي سي حدا لاحتكار المدرسة القانونية للسلطة، وذلك لأنه مكّن سيده، الملك تشنغ من انهاء الانقسام السياسي، وهو الوضع الذي يعود اليه نجاح المدرسة القانونية.

اثارت نظرية المدرسة القانونية واعمالها نظريات مضادة. فالمفكرون الذين كانوا يتفقون مع القانونيين بان المؤهلات للحصول على منصب حكومي لم يعد يصلح ان يكون اساسها شرف المحتد، بل ان ذلك لا يجوز ان يستمر، لم يوافقوا القانونيين بان البديل الصحيح لذلك هو خدمة الحاكم في رغبته في السيطرة. فقد بحثوا عن طريقة (تاو) يمكن ان تكون اولى خلقيا وان تكون اسسها الميتافيزيقية اقوى من الخضوع لأوامر حاكم مستبد معني بمصلحته فقط.

ليس من الممكن الاهتداء الى طريق والسير فيه ان لم يكن له وجود سابق. لقد وجد كونفوشيوس طريقا سابقا في « درب السماء » (تيين)، وهو حد يبدو انه كان يعني اصلا الها قويا شبه انسان، الا انه كان، في ايام كونفوشيوس، قد تجرد من شخصه. فكما كان كونفوشيوس يرى ذلك، « فدرب السماء » كان حالاً في الصورة الأولى، اي بدائيا، ومن ثم فانه لا بد ان يكون مطابقا، بمعنى ما، للطريقة الصينية في الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتحسس سبيلها في جيل كونفوشيوس. وقد كان ثمة ناحية من سياسة كونفوشيوس لوقف انحلال المجتمع الصيني تقضي باحياء الطقس التقليدي (لي) الذي كان حارسا للاحتشام (إ). ولكن ما هو المقياس الذي يمكن ان يقاس به الحكام ووزراؤهم؟ وكما كان كونفوشيوس يرى الأمر، فان الاحتشام الحقيقي لم يكن في السير في شؤون الدولة على قواعد غير خلقية؛ ان ذلك يتم بالافادة من

« الانسانية » (جن). فالحاكم ووزراؤه ورعاياه يتم لهم السير على « درب السماء » سيرا صحيحا، ما دام واحدهم يتصرف تجاه الآخر باللطف والبر اللذين كان ينتظر من اعضاء الاسرة الواحدة ان يتصرفوا بهما في علاقتهم الواحد بالآخر، بحسب التقاليد.

لقد اشرنا في الفصل الخامس والعشرين الى ان كونفوشيوس اعاد تفسير حد تشون تسو، الذي كان يعني النبيل - اي ابن السيد الكبير، بحيث اصبح يعني الرجل النبيل، بالمعنى الخلقي. وقد استبدلت الدلالة الأصلية بالجديدة تدريجاً على أيدي تلاميذ كونفوشيوس. فشدد منشيوس (٣٧١- ٢٨٩ ق.م .) على فضيلة الانسانية على ما علمها كونفوشيوس. وهسون - تسو (لعله كان نحو ٣١٥- ٢٣٦ ق.م .) شدد على اهتمام كونفوشيوس بموجب الحفاظ على الطقس التقليدي. وكان هسون - تسو يعيش في اشد ادوار النزاع بين الدول المتحاربة ايلاما، ولذلك مال الى نظرة القانونيين بان الطبيعة البشرية شريرة، ومن ثم فانه ليس في مكنتها ان تستغني عن بعض من الضابط الخارجي، نوعا ودرجة. على ان هسون - تسو اظهر انه كان اصيلا في تبعيته لكونفوشيوس في استعماله لكلمة تشون تسو الهامة. ففي كتاباته كانت هذه الكلمة ترد بالمعنى الخلقي الجديد، الا في ما ندر حيث وردت بمعنى النسب.

ان المدرسة الفلسفية الصينية المسماة التاوستية على خير ما يقال، طورت فكرة « الدرب » تطويرا ميتافيزيقيا افضل من الفكرة التي طرحها كونفوشيوس. وتلك الفكرة (التاوستية) موضحة في كتابين مشهورين حقاً: تاوته تشنغ المعزو الى لاو - تسي والكتاب المعروف باسم مؤلفه تشوانغ - تسو، الذي عاش نحو ٣٦٥- ٢٩٠ ق.م.، ومن ثم فقد كان معاصرا لمنشيوس وشانغ يانغ. فبالنسبة الى التاوستيين فان « الدرب » هو طريق الحقيقة المطلقة في الكون العجيب وخلفه وبعده. وطريق الحقيقة لا جهد فيه ولا مقاومة له وهو نافع. وهو، في هذه الصفات الثلاث، النقيض لدرب الانسان، الذي ينغّص فيه الانسان نفسه بسبب فعاليته المحمومة التي تنتهي بالعنف الذي تزيده حدة العبقرية العقلية. وقد كانت التاوستية اقدم فلسفة، في أي مكان من الأويكومين، التي توصلت الى القول بان الانسان، عندما يتوصل الى الانجازات المدنية، قد يؤذي وضعه في الكون، وذلك اذ يخرج نفسه عن الاتساق مع روح الحقيقة المطلقة التي يعيش الانسان بموجبها ويتحرك ويحقق كيانه.

كان التاوستيون ينتقصون التقدم في التكنولوجيا وفي التقنية الاجتماعية للادارة المطلقة

التي عرفتها الصين في القرن الرابع ق.م. (وهو القرن الذي اصبح فيه لكتابي تاوته تشنغ وتشوانغ - تسو صيغة شبيهة بصيغتهما الحالية). وكانت النتيجة العملية للميتافيزيقية التاوستية سياسة الباب المفتوح. فقد صرف التاوستيون النظر عن المثالية الاجتماعية الخلقية، وهي التي وصفها اتباع كونفوشيوس كعلاج لامراض المدنية الصينية، على انها سطحية. وكان العلاج الذي وصفه التاوستيون لدمل الجراح التي خلفها عصر الدول المتحاربة، هو التنصل من المدنية والعودة الى اسلوب الحياة البشرية التي اتبعته جماعة العصر الحجري الحديث، التي كانت مكتفية بذاتها. وقد نقلنا، في الفصل الثاني، قطعا من كتاب تاوته تشنغ، وفيه تتضح روح العصر التاوستية. وهذه الفلسفة الصينية، التي تعود الى القرن الرابع ق.م.، لا تتناسب مع زمانها ومكانها فحسب، بل لكل الازمنة والامكنة وبخاصة الى الوضع العالمي للبشرية في العقد الثامن الحالي.

لم يكن للتاوستية اي اثر عملي معاصر في صين القرن الرابع ق.م.، وقد وجه اليها النقد من المواقف المتعددة للفلسفات المنافسة لها من عصر الدول المتحاربة على أساس انها تنقصها روح المسؤولية اجتماعيا؛ ومع ذلك، وبسبب انه كانت لها رؤيا، كان لها (للتاوستية) مستقبل في الصين. فقد كان لها مكان، كما كانت لها حاجة، كمقابل للاتجاه العملي الغالب في العقل الصيني، اذ ان الفلسفات التي كانت تعبر عن هذا الموقف الصيني الشائع ترك بعضا من العقول الصينية غير راضية روحيا.

وعلى كل لم يكن ثمة مكان دائم للفلسفة ذات الرؤيا التي جاء بها مو - تسو (نحو ٤٧٩- ٣٨٨ ق.م). كان مو - تسو يرى ان محبة الآخرين لا يجوز ان تكون تدرجية، بل يجب ان تمنح للجميع مساواة. وقد رد منشيوس بان المحبة العامة ليست عملية وبان الحاح مو - تسو على انه لا يجوز ان ينقص الامر عن ذلك معناه رفض الفضائل الاجتماعية العملية المتمثلة باحترام الوالدين والولاء السياسي. ولو ان منشيوس كان عارفا بالبوذية لكان اشار، في هذه المناسبة، الى ان بوذا تخلى عن زوجه وابنه وابيه، الذي كان وريثا لعرشه، ولكان (منشيوس) قارن هذا الانتهاك لحرمة الموجبات الاجتماعية المعترف بها، بالحنان العميق الذي كان عند (بوذا) لجميع الاحياء الحساسة.

وفي الواقع فان مو - تسو اساء الى مبادىء كونفوشيوس في جماعة تاوست اذ رفض السلطة، واساء الى جماعة القانونيين اذ رفض التقليد. كان مو - تسو يختلف عن القانونيين بانه كان يرغب في استبدال التقليد بالبرهان، لا بالقسر؛ وكان يختلف عن

التاوستيين في شعوره بالاهتمام والمسؤولية نحو جماعته. وقد كان مو - تسو، في هاتين النقطتين، اقرب الى كونفوشيوس فكريا من اتباع المدرستين الاخريين اللتين لم تكونا كونفوشيتين، الا انه لم يكن كونفوشيا بما فيه الكفاية.

ان ظهور هذه المدارس المتباينة في الفلسفة الصينية، وجدتها واحدتها مع الأخرى، توضح مدى الارهاق العاطفي والباعث الفكري لعصر الدول المتحاربة.

٣٣ــ المدنية الهندية نحو ٦٠٠ــ ٢٠٠ ق.م.

ان معرفتنا عن الشؤون المدنية في الهند للقرون الاربعة المنتهية نحو سنة ٢٠٠ ق.م. اقل ضآلة عن معرفتنا للقرون الأربعة التي سبقت ذلك مباشرة؛ ومع ذلك فان الاحداث الكبرى في تاريخ الهند التي قامت بين ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م.، كتلك التي قامت بين ١٠٠٠ و ٦٠٠ ق.م.، كانت على المستوى الديني. وبما ان معرفتنا عن الشؤون الهندية المدنية للفترة بين حوالي سنتي ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م. مستقاة من المصادر الهندية، فهي تابعة لاخبار الاحداث الدينية.

كانت الحادثة البارزة على المستوى الديني، في الفترة الواقعة بين نحو سني ١٠٠٠ و ٦٠٠ ق.م.، هي انتقال الاهتمام من الطقوس الى التأمل. وقد تم هذا بمبادرة قام بها اعضاء طبقة البراهمة. وزعامة البراهمة في الإضفاء على الهندوية هذا المنعطف الروحي امر غريب في بابه، إذا تذكرنا ان البراهمة كانوا يحتكرون القدرة على القيام بالطقوس بفاعلية، وان هذا الاحتكار كان وسيلة لكسب العيش. ويزيد في اهمية الأمر ايضا انه في العصر الذي كانت فيه الديانة الهندية تتجه اتجاها روحيا، كان البراهمة يؤكدون بنجاح دعواهم ضد الكشاترية، بانهم هم اعلى طبقة، على رغم ان القوة العسكرية والسياسية كانت بايدي الكشاترية، واستمرت على ذلك.

وفي الفترة بين نحو سني ٦٠٠ و ٢٠٠ ق.م. كانت الحادثة الدينية البارزة هي تأسيس رهبنتين هما البوذية على يد البوذا سدهارتا غاوتاما والجاينية على يد الماهافيرا فاردهامانا (عاش نحو ٥٠٠ ق.م). وقد كان كل من هذين المجددين كشاتريا، وارستقراطياً. كان البوذا ابن ملك ووريثا لمملكة صغيرة اسمها كابلاقاستو، وهي دولة ـ مدينة كانت تقع داخل حدود مملكة نيبال الحالية؛ وكان الماهافيرا (أوجينا ومعناها المنتصر) ابنا لزعيم قبيلة كشاترية في مدينة فايسالي، عاصمة مملكة فيدها في بيهار

الشمالية. لم ينازع اي منهما البراهمة احتكارهم لإتمام الطقوس والآلهة ونظام الطبقات نفسه. وقد جندوا الرهبان والراهبات والأتباع العلمانيين من كل الطبقات دون تمييز، ولم يمنح البراهمة اي دور خاص في اسلوب الحياة البوذية والجانية او دستور الجماعات البوذية والجانية.

لقد كان البوذا والماهافيرا يضعان امام الناس سبيلا للتخلص من « دورة الولادة الثانية المحزنة » التي كانت، في القرن السادس قبل الميلاد، تعتبر انها لا نهاية لها، على ما كانت تقول به اكثر المدارس الفكرية في الهند، والفيثاغوريون والاورفيون في العالم الهليني. وقد يكون مصدر هذه العقيدة لأصلي ديانة الشعوب البدوية الرعوية الاوراسية التي تفجرت من السهوب وسارت في جهات مختلفة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. وفي خروجهم غرباً في ذلك العصر كان البدو قد بلغوا مكانا قريبا من بلاد اليونان هو الخليج الغربي الكبير للسهوب وحوض نهر هبروس (مربكا) الواقع الى الجنوب من مجرى الدانوب الأدنى. وفي الهند كانوا قد احتلوا حوض نهر السند.

هذه الغزوة الثانية لحوض نهر السند التي قامت بها شعوب مهاجرة ناطقة باللغة الهندية ـ الأوروبية هي الحادثة السياسية التي تفصل بين فترة التاريخ الهندي الأول (نحو ١٠٠٠ـ ٦٠٠ ق.م .) وفترة التاريخ الهندي الثاني (نحو ٦٠٠ـ ٢٠٠ ق.م .). والقسم من الهند الذي استقر فيه القادمون الجدد كان القسم الأول الذي احتله المهاجمون المبكرون من الهند الذين كانوا يتكلمون اللغة السنسكريتية الأولية. وعلى كل فانه لم يتجاوز الهامش الشمالي الغربي من شبه القارة. وقد انتشرت المدنية السندية، كما انتشرت خليفتها المدنية الهندوية، التي انشأها المتكلمون باللغة السنسكريتية الأولية، كل منهما بدورها، جنوبا في شرق الى حوض نهري جمنا ـ الكنج. ويبدو ان حوض نهر السند كان لا يزال موطن المتكلمين بالسنسكريتية في الزمن الذي كانت تؤلف فيه الفيدا؛ وان البدو الذين استقروا في القرن السابع قبل الميلاد في حوض نهر السند انتهى بهم الأمر الى انهم اتخذوا لغة سكان هذه المنطقة المتكلمين بالسنسكريتية، كما اتخذوا اساليب عيشهم. فنحن نجد ان البدو السابقين الذين استقروا هنا يتكلمون لهجات محلية منتزعة من السنسكريتية، ويتقبلون الديانة الهندوية والبنية الهندوية الاجتماعية المرتبطة بها.

وعلى كل حال، اذ نصل الى عصر البوذا والماهافيرا نجد ان مركز ثقل المدنية الهندوية

قد انتقل شرقا في جنوب من البنجاب الى منطقة تقع حول التقاء انهار الكنج والفوغرا والصون، كما نجد ان غالبية السكان الهندوية المقيمة في هذه المنطقة والمحافظة دينيا اصبحت الآن تنظر الى موطن اجدادها في حوض نهر السند نظرة امتكار واحتقار على انها بلاد شبه همجية. ويبدو ان هذا الشعور قد تقوى، في ذلك العصر، اذ ان استقرار البدو الأوراسيين في حوض نهر السند تبعه ضم ذلك الحوض الى الامبراطورية الفارسية الأولى. ومن المحتمل ان قورش الثاني ضم حوض نهر كابول، وهو رافد من روافد نهر السند، في تاريخ تال لاحتلاله للامبراطورية البابلية سنة ٥٣٩ ق.م.؛ وان داريوس الأول ضم ما تبقى من حوض السند، حتى دلتا النهر، في تاريخ تال لقضائه على الثورة الكبرى سنة ٥٢٢ ق.م. التي قامت في قلب الامبراطورية.

ان الاحوال السياسية في المركز الجديد لثقل العالم الهندوي في حوض الكنج، في ايام البوذا والماهافيرا، كانت تشبه الاحوال السياسية في الصين في ايام معاصرهما كونفوشيوس. فحوض الكنج كان، على ما كانت عليه الصين، موزعا سياسيا بين عدد من الدول المحلية ذات السيادة التي كانت تختلف مساحة وقوة. وقد كانت دولة - مدينة البوذا صغيرة، وهي كابيلافاستو؛ اما دولة الماهافيرا، (وهي الجزء الذي يقع شمالي الكنج من بيهار الحالية) فقد كانت اكبر؛ وكانت اكبرها كوسالا، وهي جارة كابيلافاستو الجنوبية (في اوتاربرادش الحالية)؛ اما الأقوى امكانات فهي ماغادا(وهي الجزء من بيهار الواقع جنوبي الكنج).

وقد كانت المنافسة بين الدول الواقعة في المجموعة لهندية في اشتداد في عصر البوذا والماهافيرا. وعلى نحو ما جرى بين الدول المتحاربة في الصين، فإن النزاع الحربي في حوض الكنج انتهى بتوحيد سياسي عن طريق زوال المتنافسين باجمعهم باستثناء الدولة المنتصرة. كانت كابيلافاستو ضحية مبكرة. وقد عاش البوذا ليشهد احتلالها على يد كوسالا، وذبح افراد قبيلته « ساكيا » ومواطنيه. وكما حدث في الصين، فإن المنتصر كان غريباً. ففي الهند لم تنتصر دولة كوسالا التي كانت نسبياً اكبر واكثر سكاناً، إن التي انتصرت هي ماغادا.

وفي الهند، ايضاً، لم يؤد الصراع على البقاء بين حكومات الدول الى تمزيق الوحدة الاجتماعية والحضارية للمجتمع. كانت غايا، حيث تلقى البوذا تنوره، في ماغادا، وحديقة الايل المقدسة في سارنات، التي كانت الموضع الرئيس للوعظ والإرشاد الذي قام

به البوذا. وقد كانت الحديقة مصاقبة للمدينة المقدسة بنارس التي كانت قد اصبحت محجة. ولعل الحديقة استدعت انتباه ابوذا بسبب احتمال العثور في تلك الجهة على مستمعين يأتون من كل انحاء العالم الهندي. ولم تكن لا غايا ولا سارنات في ولاية البوذا الخاصة به، ومع ان البوذا صرف الكثير من وقته في الحديقة العامة في سارنات التي كان يتقاطر الزوار اليها كثيراً، فقد كان هو وتلاميذه متنقلين، باستثناء فصل الأمطار الموسمية، إذ كان التنقل صعباً. إن الحدود السياسية كانت حواجز للجيوش وكانت عثرات في طريق الجواسيس، لكنها لم تحل دون تنقل الوعاظ الدينين والنساك. إن اصل البوذا الملكي كان يسر له الوصول الى حاشية الملوك المحليين. لكن ليس ما يدل على أنه كان يفيد من هذا الامتياز بشكل خاص. إن الوعاظ والنساك الهنود كانوا يجتازون الحدود بين الدول المتحاربة بحرية، على نحو ما كان يفعل معاصروهم من السوفسطائيين والفلاسفة الصينيين.

٢٤ـ التزاحم على السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط

كان القرنان الثامن والسابع ق.م. فترة ميمونة بالنسبة لوجود الاغارقة في حوض البحر المتوسط الغربي. فقد اسسوا لانفسهم مواطن على الساحل الايطالي من تراس (تارنتوم)، على الجهة الجنوبية الغربية « للعقب » (الإيطالي) دوراناً « باصابع القدم » واتجهوا شمالاً على الساحل الغربي الى جزيرة بتيقوزا (إشقيا) وقومي (وهما اقدم المستعمرات الاغريقية وابعدها، باستثناء مسيليا، التي نشئت إلى الغرب من مضيق أترانتو). وكان الاغارقة قد احتلوا أيضاً السواحل الشرقية والجنوبية لجزيرة صقلية. وهكذا فقد اتيح لهم ان يضمنوا السيطرة على المرور عبر مضيق مسينا، من الحوض الشرقي للمتوسط إلى البحر التيراني. ونحو سنة ٦٠٠ ق.م. كانوا قد اقاموا مستعمرة مسّيليا (مرسيليا)، وهي نقطة انطلاق لطريق يجاري نهر الرون شمالا إلى أوروبة القاريّة ومن ثم، عبر القنال (الانكليزي) إلى مناجم القصدير في كورنوال. وعلى كل فإن أكراغاس (أغريغنتوم) التي اقيمت على ساحل صقلية الجنوبي سنة ٥٨٠ ق.م. كانت آخر مستوطنة هامة أقيمت في الغرب. وحتى سنة ٥٠٠ ق.م. كان الأغارقة قد فشلوا في محاولتهم انتزاع الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية من ايدي القرطاجين وحلفائهم المحليين الايليمي. وكان القرطاجيون قد سيطروا على مضيق جبل طارق واقفلوه في وجه السفن الإغريقية، كما كان القرطاجيون وبقية الفينيقيين في المستعمرات قد تعاونوا مع الاترسكيين بنجاح في الحيلولة دون الاغارقة وربط مستعمراتهم الصقلية والايطالية بمسيليا، وذلك باستيلائهم (القرطاجين وحلفائهم) على سردينيا وكورسيكا.

وفي القرن السابع ق.م. كان الاغارقة الاسيويون الذين اسهموا في التوسع الاغريقي في الحوض الغربي للمتوسط قد اصابتهم نكسة مثل النكسة التي احاقت بمنافسي الاغارقة اي الفينيقيين في سورية منذ سنة ٧٤٥ ق.م. فقد اعتدى على الفينيقيين في لبنان أولاً

الامبراطورية الاشورية ثم خلفاؤها البابليون، وهما دولتان بريتان قويتان. ومنذ نحو سنة ٦٦٠ ق.م. كان الاغارقة الاسيويون هدف هجوم واحتلال تدريجي أولاً على أيدي الليديين ثم على أيدي الفرس الذين كانوا قد اجتاحوا بلاد الليديين. ومجيء الفرس الذي زاد في بلية الاغارقة الاسيويين، اراح الفينيقيين منذ سنة ٥٣٩ ق.م.. على ان الاغارقة كانوا، في ذلك الوقت، قد ربحوا جولتين ضد خصومهم: التفوق العددي وسيطرتهم الجغرافية على الخطوط الداخلية. فقد كان القرطاجيون مفصولين جغرافياً عن حلفائهم الاترسكيين وذلك باستيلاء اليونان على سواحل صقلية وجنوب ايطالية. ومع ذلك فإن الأغارقة الغربيين كانوا قد وجدوا انفسهم في موقف الدفاع عن كيانهم نحو سنة ٥٠٠ ق.م. وقد كان احد اسباب ضعفهم الصراع الانتحاري في ما بينهم. فنحو سنة ٥٥٠ ق.م. محيت المستعمرة المدينة - الدولة سيريس من الوجود على ايدي بعض الاغارقة الايطاليين، الذين اعادوا الكرة في ٥١١- ٥١٠ ق.م. على سيباريس ومثلوا فيها الدور ذاته. وقد اسْتُعيض عن سيباريس بتوري في ٤٤٤- ٤٤٣ ق.م.، واستعيض عن سيريس بهيراقليا في مابعد، إلا ان الدمار الذي الحقه الاغارقة الغربيون بانفسهم خلال قرن الازمات، القرن السادس ق.م.، لم يُعَوَّض تماماً، وقد ظل هؤلاء القوم واحدهم العدو الاكبر تدميراً للآخر، حتى اخضعتهم رومه وارغمتهم اخيراً على ان يتعايشوا بسلام.

وقد كان من الممكن ان يفرض حكم آخر على الأغارقة الغربيين قبل قرنين من الزمان - لا على ايدي الرومان يومها، ولكن على ايدي الخلفاء القرطاجيين - الاترسكيين - لولا ان الاغارقة الصقليين نجحوا، في الظرف الملائم تماماً، في اقامة بُنىً سياسية على مستوى مدن - دول ضخمة. وقد تم انجاز ذلك على ايدي حكام مستبدين لجأوا إلى الأساليب الاشورية، أي نفي السكان وذلك لارغامهم على قبول حكمهم. فقد اقيمت، بين سنتي ٥٠٥ و ٤٩١ ق.م.، امارة اغريقية صقلية، في جنوب شرق صقلية، وعاصمتها سيراقوسة، واستخدمت في ذلك اساليب وحشية كتلك التي استعملها الاسبارطيون في البلوبونيز في القرن الثامن ق.م.. وبين سنتي ٤٨٨ و ٤٨٣ ق.م. امتدت امارة اغريقية صقلية ثانية عبر صقلية من الساحل الجنوبي إلى الساحل الشمالي وذلك بضم هيميرا إلى أكراغاس.

رد القرطاجيون على هذه النقلة الثانية للاغارقة الصقليين في سنة ٤٨٠ ق.م. وذلك بالهجوم على صقلية عنوة. ليس ثمة دليل ثابت على أن هذه الحملة القرطاجية على

الجزء الاغريقي من صقلية وُقِّتت بحيث تجيء في الوقت ذاته الذي قام به الفرس بحملتهم على بلاد اليونان الاوروبية الاصلية، إلا أنه من غير المحتمل ان الحملتين لم تكونا مرسومتين. فالقرطاجيون في المستعمرات كانوا على اتصال وثيق بالفينيقيين في لبنان، وهؤلاء كانوا رعايا فرساً. وقد كان هؤلاء، مثل المستعمرين منهم، منافسين تجاريين للاغارقة، ومن ثم فقد كان في هزيمة الاغارقة نفع لهم. وعلى كل فقد كان انتصار الحلف السيراقوسي - الاغريغنتي على القرطاجيين لا يقل روعة عن انتصار الحلف الاسبارطي - الاثيني على الفرس في السنة ذاتها. فقد كان الانتصاران رائعين، هذا اذا اخذنا بعين الاعتبار ان غالبية الدويلات الاغريقية، في الغرب كما في بلاد اليونان الأوروبية، لم تحمل السلاح ضد المهاجمين. وفي الواقع فان الحملة القرطاجية ضد الجزء الاغريقي من جزيرة صقلية كان الباعث عليها موقف حاكم هيميرا المستبد المطرود وسيلينوس وريغيون (الدويلة الاغريقية الايطالية التي كانت تتحكم في مضيق مسينا)، إذ ان هؤلاء لم يعلنوا حال حرب ضد القرطاجيين.

استمرت الدول الاغريقية الغربية مدة قرنين وهي تشن حروباً واحدتها ضد الأخرى - سيراقوسة ضد ريغيون وكروتون، وهاتان ضد لوكري إبزفريان، التي زج بها كالوتد بينهما. وقد كان للدول الاغريقية الغربية شركاء في التجارة من الاغارقة الشرقيين، فانجرف هؤلاء الشركاء في النزاعات السياسية على جانبي مضيق أُترانتو. فقد تحالفت، قبل سنة ٤٥٠ ق.م. ببعض الوقت، دول اغريقية صقلية واليمنيّة من خصوم سيراقوسة، مع اثينا، وترتب على ذلك ان انجرف الاغارقة الغربيون الى الدخول في الحرب الأثينية - البلوبنيزية (٤٣١- ٤٠٤ ق.م). وانتهى هذا التدخل بان شنت اثينا حملة ضد سيراقوسة (٤١٥- ٤١٣ ق.م). وقد آلت المجازفة إلى انكسار اثينا، إلا أنها لم تكن اقل من ذلك اثراً بالنسبة الى الصقليين المنتصرين. وقد اتاح الاجهاد الذي مني به الاغارقة الصقليين الفرصة امام القرطاجيين للهجوم ثانية على صقلية سنة ٤٠٩ ق.م.، ومنذ تلك السنة إلى سنة ٢٧٥ ق.م. كانت الحرب سجالاً بين قرطاجة وسيراقوسة، وكان النجاح والفشل يتعاقبان في تلك المعارك، لكن لم يكتب لاي من الدولتين ان يحصل على نتيجة حاسمة. وعلى سبيل المثال ففي حرب ٣١٢- ٣٠٦ ق.م. ضرب القرطاجيون الحصار على سيراقوسة في ٣١١- ٣١٠، ثم في سنة ٣٠٩، لكن الحصار فشل، وفي ٣١٠- ٣٠٧ هاجم السيراقوسيون بلاد القرطاجيين في

الرِيقية ـ وقد كانت حركة جريئة قام بها طاغية سيراقوسة، أغاثوكليس، إلا أنها هي الأخرى انتهت بالفشل. وكان الاغارقة الصقليون قد فشلوا من قبل، تحت قيادة طاغية سابق لسيراقوسة، ان يُقْصُوا القرطاجيين من الزاوية الشمالية الغربية لصقلية سنة ٣٩٨ ق.م. وقد فشلوا في مرة تالية بقيادة بِرُوس في ٢٧٨ـ ٢٧٦ ق.م.

كان على الاغارقة الصقليين ان يختاروا بين الوحدة السياسية تحت حكم استبدادي وديمقراطية أو أوليغارْكيّة محلية يكون ثمنها تمزق سياسي. وقد كانوا يقبلون بالطغاة عندما كان يبدو امامهم خطرُ خضوعهم للقرطاجيين، فإذا انحسر الخطر القرطاجي عنهم كانوا يخلعون الطغاة. لقد كان موقع صقلية يؤهلها لأن تكون قاعدة لسيطرة بحرية على مياه حوض البحر المتوسط، ولكن، حتى لو نجحت سيراقوسة في توحيد صقلية كلها تحت حكمها، فإن صقلية متحدة، وحدها فقط، ما كان لها من القوة ما يمكنها من السيطرة على البحر المتوسط كله والبلاد المحيطة به. ان مثل هذا الأمر ما كان ليتم الا لدولة بامكانها ان تجمع بين القيمة الاستراتيجية من السيطرة على صقلية مع الاستيلاء على الموارد البشرية والاقتصادية التي يمكن الحصول عليها اما من ايطالية أو من شمال غرب افريقية.

إن المستوطنين الاغارقة في صقلية نجحوا في توحيد صقلية على المستوى الحضاري عن طريق « هَلْيَنَة » الجزيرة باجمعها، بما في ذلك الجماعات الصقلية غير الاغريقية، التي كانت، خصماً سياسياً للاغارقة من الناحية السياسية. وقبل نهاية القرن الخامس ق.م. لم يكن جميع سكان صقلية قد اصبحوا ناطقين باليونانية، بل انهم قبسوا نظام المدينة ـ الدولة الاغريقية، بحيث اصبحت مدن ـ دول صقلية، ليست من اصل اغريقي، تسك النقود وتشيد الهياكل على الاسلوب الهليني. وفي الجهة الأخرى لم تتمكن اللغة اليونانية من الانتشار في البر المصاقب للمستوطنات الاغريقية، وحتى هذه المستوطنات نفسها انتهى بها الأمر إلى أن تغلب عليها ابناء البلاد. وقد حدث هذا في لكومي وبوزيدونونيا (بائسْتُم) قبل نهاية القرن الخامس ق.م.. وفي سنة ٢٨٩ ق.م. تمكن مواطنون من المرتزقة السابقين التابعين لطاغية سيراقوسة المعزول، أغاثوكليس، من الاستيلاء على مَسّينا، على الساحل الصقلي للمضيق.

اقْتُبِس نظام المدن ـ الدول في شمال غرب شبه جزيرة ايطالية وفي اتروريا ولَتْيوما وفي الساحل الغربي جنوباً بما في ذلك كمبانيا. وقد اقْتُبس هذا النظام أيضاً في المنخفضات

الجنوبية الشرقية من « العقب » وحتى « المهماز ». أما في المرتفعات القائمة بينهما، فقد كان السكان المواطنون لا يزالون يتبعون تنظيمات قبلية، مع أنهم لم يمتنعوا عن قبول الحضارة الهلينية (فقد قبلوا الأسلوب الاغريقي الغربي من الألفباء الفينيقية). وقد ظلت إيطالية، في الفترة الممتدة من نحو ٦٠٠ إلى ٢٢١ ق.م. اكثر تباينا من صقلية على مستويات الحياة جميعها. ومع ذلك، كما حدث، وحدت رومة ايطالية سياسياً بين نحو ٣٤٠ و ٢٦٤ ق.م.، وكان نجاح رومة في توحيد ايطالية قد فتح أمامها المجال لتوحيد البلاد المحيطة بالبحر المتوسط بأجمعها. وعلى كل فإن رومة لم تكن الدولة الأولى التي حاولت توحيد ايطالية سياسياً، ومع أن رومة نجحت حيث فشل سابقوها، فإن نجاحها لم يكن سهلاً.

جاءت المحاولة الأولى لتوحيد إيطالية سياسياً على يد الأترسكيين بين نحو ٥٥٠، ٤٢٣ ق.م.. ففي القرن السادس ق.م. استولى الأترسكيون على رأسي جسر، عند فيديناي وروما، على الضفة اليمنى لنهر التيبر الأدنى، ثم استولوا بعد ذلك على المنخفضات، في الجنوب الشرقي، حتى أرض كومي الخلفية. وانتزعوا، في الجهة المعاكسة، من سكان المرتفعات الليغوريين الممر المؤدي من فيصولي إلى فلسينا (بولونيا). وقد أخذوا بتطوير إمكانات الثروة الزراعية في حوض نهر البو عن طريق تجفيفه، وتعاونوا مع الأغارقة في إقامة ميناء تجاري في سبينا، في المستنقعات الواقعة حول مصب نهر البو. وقد ساعدت الأحوال الأترسكيين إذ أنه نحو سنة ٥٠٠ ق.م. على ما أشرنا إلى ذلك قبلاً، قامت اضطرابات في داخل اوروبة القارية أدت إلى تحويل التجارة من وادي الرون إلى حوض نهر البو عبر الممرات الألبية.

وبدا، نحو سنة ٥٢٥ ق.م. كما لو أن الأترسكيين كانوا على وشك توحيد حوض نهر البو، لا شبه جزيرة ايطالية فقط، وذلك تحت حكمهم. على أنهم حاولوا سنة ٥٢٤ ق.م.، أن يحتلوا كومي لكنهم فشلوا. وبين نحو سنة ٥٠٩ وسنة ٤٧٤ ق.م. فقدوا سيطرتهم على لاتيوم وعلى رومة، وفي سنة ٤٧٤ ق.م. غلبهم السيراقوسيون في معركة بحرية قبالة كومي، وبين نحو سنة ٤٥٠، ٣٥٠ ق.م. خسر الأترسكيون معظم مستوطناتهم في حوض نهر البو وذلك على أيدي برابرة قلتيين (غالتيين) جاؤوا من الجهة القصوى لجبال الألب. وفي سنة ٤٢٣ ق.م. انتزع الجبليون الأوسكان، الذين جاؤوا من المرتفعات المصاقبة لكامبانيا « كابوا » من الأترسكيين ومن ثم في سنة ٤٢١

ق.م. انتزعوا هم أنفسهم كومي من الأغارقة. ومن ثم فقد يرجع فشل الاترسكيين سياسياً للسبب نفسه الذي أدّى بالأغارقة إلى الفشل. فالاترسكيون، على عكس الفينيقيين المستعمرين، لم يقبلوا بأن يضعوا أنفسهم تحت قيادة موحدة. فقد جاء توسعهم نتيجة للأعمال التي قامت بها دول ـ مدن منفردة أو حتى التي تمت على أيدي قادة مقاتلين مغامرين منفردين. وانتهى الأمر بالدويلات الأترسكيّة بأن قبلت بأن تقع تحت سيادة رومة، الواحدة تلو الأخرى.

كان الأترسكيون في موقع يمكنهم من توحيد إيطالية جمعاء من جبال الألب إلى « أصابع القدم »، ولو أنهم تكاتفوا في عملهم لكان النجاح رائدهم. والأغارقة الايطاليون لم ينظروا جدياً إلى توحيد حتى شبه الجزيرة الايطالية. لقد كانوا فئة صغيرة من حيث العدد، وكانوا بعيدين عن موطنهم، وفوق ذلك كله، كانوا يتربصون الفرص لتدمير بعضهم البعض الآخر. (لقد فشل الأترسكيون في التكاتف، إلا أنهم لم يدمروا بعضهم البعض على نحو ما تم على أيدي الدول ـ المدن الاغريقية).

كانت الدول الإغريقية الايطالية التي كان موقعها الأكثر صلاحية للقيام بعمل توسعي هي المستعمرة الاسبارطية تَراس (تارنْتوم) التي انشئت نحو سنة ٧٠٧ ق.م. لكن التارنتيين انكسروا كسرة بشعة على أيدي أهل بلاد المنطقة الجنوبية الشرقية المنخفضة، وذلك سنة ٤٧٣ ق.م.

لقد اشرف الأغارقة على توحيد صقلية وشبه الجزيرة الايطالية تحت سيادة سيراقوسة، وذلك ايام حكم طاغية سيراقوسة ديونيسيوس الأول (٤٠٥ـ ٣٦٧ ق.م). بدأ ديونيسيوس عمله بأن أقام تحصينات حول مدينة سيراقوسة فأحاطها بسور، كان يتوج مرتفع الهضبة إلى الغرب من المنطقة المسكونة، الأمر الذي جعل سيراقوسة أضخم وأقوى مدينة مسوّرة في حوض البحر المتوسط. واثناء الحرب الأولى مع قرطاجة (٣٩٨ـ ٣٩٢ ق.م) حشر ديونيسيوس القرطاجيين وحلفاءهم الأيليميّين في الزاوية الشمالية الغربية من جزيرة صقلية. ثم عقد اتفاقاً مع دولتين اغريقيتين ايطاليتين هما لوكري وتراس ومع رجال القبائل اللوكانيين، المقيمين في البلاد المتاخمة لأصابع قدم ايطالية، ومع القبائل القلتية التي كانت يومها تتغلب على المستوطنات الأترسكية في حوض نهر البو. وقد كانت الهدف الأساسي لديونيسيوس في جنوب إيطالية مدينة كايري، اقصى مدينة جنوبية اترسكية تقع على الساحل. ولنا ان نخمّن ان نهب رومة، وهي حليفة، كايري، على أيدي القلتيين

سنة ٣٨٦ ق.م.، تمّ بتشجيع من ديونيسيوس، وأن هذه كانت الخطوة الأولى في حملاته ضد كايري. وقد هزم نهابو رومة من القلتيين على أيدي أهل كايري، وتقدمت كايري ومسيليا لاسداء يد العون لرومة. ونحو سنة ٣٨٤ ق.م. جعل ديونيسيوس من البحر الادرياتيكي بحيرة سيراقوسية إذ أقام مراكز بحرية في الأماكن الاستراتيجية على سواحله وفي الأرخبيل الدلماسي. ومكّن له هذا من الاتصال المباشر مع القلتيين المقيمين شمال شرق جبال ابنين، وتهديد الأترسكيين من الجهة الادرياتيكية. وفي الوقت ذاته، ونحو سنة ٣٨٤ ق.م. أيضاً، قام اسطول ديونيسيوس الموجود في البحر التيراني بنهب بيرجي، التي كانت الميناء الرئيس لكايري، والذي كانت رومة تفيد منه أيضاً. كان ديونيسيوس، في ذلك التاريخ، يسير في سبيل بناء امبراطورية صقلية - ايطالية، إلا أنه فشل في أن يتبع هجمته على بيرجي باحتلال مدينتي كايري ورومة.

اجترح ديونيسيوس غلطتين. فقد هاجم، في سنة ٣٩٠ ق.م. المدن - الدول الاغريقية الايطالية التي كانت على خصومة معه، ومع أنه نجح أخيراً في احتلال رغيون في سنة ٣٨٧ واستولى على كروتون، فإن هذه الحرب الطاحنة التي شنها بعناد ومرارة كانت نتيجتها ارهاق سيراقوسة وفريستها من المدن الاغريقية الايطالية. وكانت غلطة ديونيسيوس الثانية الحملة الثانية ضد قرطاجة سنة ٣٨٣ ق.م.. فقد كُسِرَ في هذه المرة، وكان عليه أن يعقد صلحاً، في سنة ٣٧٨ ق.م. كان ثمنه التنازل عن جزء من الأرض. وقد فتحت هاتان الغلطتان اللتان اجترحهما ديونيسيوس الميدان الايطالي امام متنافسين آخرين. ولم يكن ابن ديونيسيوس الأول ديونيسيوس الثاني (في سيراقوسة ٣٦٧- ٣٥٦، وفي لوكري ٣٥٦- ٣٤٧ ثم في سيراقوسة ثانية ٣٤٧- ٣٤٤ ق.م .) كفوًا لتحمل العبء الذي ورثه، وقد بدأ انحطاط سيراقوسة في أيامه، وهو الأمر الذي لم توقفه لا زيارتي افلاطون الثانية والثالثة لسيراقوسة في سنتي ٣٦٧ و ٣٦١ ق.م. ولا عدالة الحكم الذي أقامه ارخيتاس في تَراس بين ٣٦٧ و ٣٦٠ ق.م. وهو الحكم الذي قام مؤقتاً على أساس المثال السياسي الافلاطوني أي حكم الملك - الفيلسوف.

وكانت قد وصلت حال الأغارقة الغربيين درجة مؤلمة من اليأس في سنة ٣٣٤ ق.م. بحيث اخذوا يستصرخون اقاربهم المقيمين الى الشرق من مضيق أوترانتو. وكان أول المنقذين الستة من الاغارقة الشرقيين الذين استجابوا لنداء الاستغاثة، بين ٣٣٤ و ٢٨٠ ق.م.، هو أكبرهم قدراً وأنجحهم. فقد نجح تيموليون، وهو مواطن من كورنث، وهي أم

سيراقوسة، مع أن موارده كانت ضئيلة، في القضاء على ديونيسيوس الثاني وعلى بقية الطغاة المحليين من الأغارقة الصقليين. ثم انتصر على القرطاجيين بعدما وضع نفسه على رأس الأغارقة الصقليين المتحدين. وفي الفترة التي مرت بين قدومه سنة ٣٤٤ وانسحابه الطوعي سنة ٣٣٧ ق.م. اقام حكومات ديمقراطية معتدلة في سيراقوسة وبقية الدول الاغريقية الصقلية، وقد ضمها في اتحاد واحد، ووحد بعضاً من المدن ـ الدول الاغريقية الصقلية مع سيراقوسة، وذلك عن طريق منح رعاياها المواطنة السيراقوسية، إضافة إلى مواطنهم الأصليّة. وهذه الدول لم تُجَرَّد من حكمها الذاتيّ المحليّ. وقد اقنع تيموليون الاغارقة الشرقيين بإرسال اعداد كبيرة من المستوطنين الجُدُد، كما اقنع الاغارقة الصقليين بقبولهم. (إن التفجر السكاني الذي بدأ في العالم الهليني في القرن الثامن قبل الميلاد، كان لا يزال بعد على نشاطه في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، بحيث انه زوَّد تيموليون في صقلية بهؤلاء المستوطنين، كما زوّد الاسكندر وخلفاءه في آسية بأعداد أكبر). ومما يؤسف له أن عمل تيموليون المستنير البناء لم يكتب له أن يعيش طويلاً بعده.

والخمسة الآخرون من الاغارقة الشرقيين الذين جاؤوا « لانقاذ » الأغارقة الغربيين كان فشلهم اسرع. لقد جاؤوا من دولتين: من اسبارطة، التي كانت الأم ـ الدولة لتراس، ومن إيبروس، التي كانت أقرب دولة اغريقية شرقية لمضيق أُترانتو. لقد كانت موارد كل من اسبارطة وأيبروس قريبة من موارد كورنث في ضآلتها بالنسبة إلى إنقاذ الأغارقة الغربيين. ولم يتمكن خلفاء تيموليون (في المحاولة) من اسبارطة وابيروس من حمل الأغارقة الغربيين على التعاون في سبيل انقاذ انفسهم، على نحو ما فعل تيموليون. فملك اسبارطة، أرخِدامُوس الثالث، الذي وصل سنة ٣٤٣ ق.م. ليساعد تراس ضد الحلف السمنيّ، في البلاد الواقعة خلفها، قتل في معركة سنة ٣٣٨ ق.م. و « المنقذ » الذي تلاه، الاسكندر الأول ملك ابيروس، وصل نحو سنة ٣٣٤ ق.م. وقتل سنة ٣٣١ ق.م.. والحملتان اللتان قادهما اميران اسبارطيان: أكروتاتوس ضد سيراقوسة سنة ٣١٥ واخوه كليونيموس ضد ايطالية سنة ٣٠٣ ق.م .. كانتا خائبتين.

وآخر « المنقذين »، وأقلهم ضعف أثر، كان بيرّوس ملك أبيروس، الذي قاد حملاته ضد الرومان في ايطالية بدعوة من التارنتيين، وضد القرطاجيين في صقلية بدعوة من الاغارقة الصقليين، واستمرت حملاته من ٢٨٠ إلى ٢٧٥ ق.م.، وأصاب بعض النجاح

بسبب تمنع القرطاجيين والرومان من مد يد المعونة، الجماعة الواحدة إلى الأخرى، في المجالين العسكري والبحري، ضد عدوهما المشترك القوي. وكاد بيروس أن يقيم امبراطورية أبيروسيّة، التي كان من المحتمل أن تشمل كل صقلية وكذلك جنوب شرق ايطالية، وربما تيراسينا في الشمال الغربي. ويعود بعض فشله إلى ضآلة موارد أبيروس، وبعضه الآخر سببه تقلبه الشخصي - وهو أمر كان بيروس بسببه دون ثبات بناة الامبراطورية من الرومان الذي كان يحاول احتواءهم. لقد وصل متأخراً زمنياً. وفي سنة ٢٧٢ ق.م. وقعت تراس، وإضافة إليها السمنيون في جنوب ايطالية، اللذين كان يتكوّن منهما حلفا لوكانيا وبروتيا، في أيدي رومة. وتم توحيد شبه جزيرة ايطالية تحت حكم رومة سنة ٢٦٤ ق.م.

كان موقع رومة ممتازاً لتوحيد شبه الجزيرة الايطالية. فقد كانت تسيطر على أدنى جسر على نهر التيبر، أكبر نهر في شبه الجزيرة الايطالية. ونهر التيبر كان يصب في البحر التيراني في منتصف الأراضي شمال غرب شبه الجزيرة المنخفضة. مع أن فاي، جارة رومة الأترسكية في الداخل، وهي التي احتلتها رومة ودمّرتها سنة ٣٩١ ق.م. وجارتها الأتريسكية البحرية كايري، التي ضمتها رومة سنة ٢٧٤ ق.م. كانتا في موقع له أيضاً صلاحية موقع رومة لبناء امبراطورية. وقد كانت رومة مدينة في نجاحها إلى الحنكة السياسية التي تمتع بها نبلاؤها، الذين احتفظوا بالسلطة في أيديهم. لكن هذه القدرة الأصلية ما كان لها أن تؤتي أكلها لو لم يتح لها ان تنضجها التربة الهلينية. فقد تَهَلّيَنَ الرومان بالواسطة أولاً، عن طريق الحكام والمواطنين الأترسكيين، ثم مباشرة بعد ذلك عن طريق الاتصال بكومي، وهو الاتصال الذي اتسع تدريجاً حتى شمل بقية العالم الهليني.

كانت رومة من صنع الأترسكيين الذين كانوا قد توطنوا هناك نحو سنة ٥٥٠ ق.م. وانشأوا مجموعة من القرى اللاتينية التي تعتمد الرعاية مصدراً للقوت. وقد جعلوا من هذه مدينة - دولة أترسكوية، كثيفة السكان المزارعين في أملاكها الريفية. وكانت المدن - الدول وتجمعات المدن - الدول الصيغ الوحيدة المقبولة للتشكيلات السياسية في حوض البحر المتوسط في الألف الأخير السابق للميلاد. وهذه المؤسسة، السومريّة الأصل، شاعت عند الفينيقيّين والأترسكيّين والأغارقة. وأي تشكيل سياسي لم يتسق مع نموذج المدينة - الدولة كان يعتوره نقص شديد. وقد كان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى

فشل مقدونية وابتولية وسَمْنيوم وإلى نجاح رومة. فدستور رومة المبني على فكرة المدينة ـ الدولة وحضارتها كانا يتركان أثراً حسناً كما كانا يجذبان الشعوب التي كانت لا تزال في طور سابق للمدينة ـ الدولة من حيث تطورها السياسي. وقد كان هذا هبة من رومة اغرت شعوباً كثيرة متأخرة على أن تتقبل الانضمام إلى الكيان السياسي الروماني. وبخاصة فقد كان دستور رومة المبني على المدينة ـ الدولة عوناً لرومة في صراعها مع الحلف السَمْني، إذ أن أكثر أعضائه كانوا بعد في الطور السابق للمدينة ـ الدولة بين سنتي ٣٤٣ و ٢٧٢ ق.م.، وهي الفترة التي دارت فيها رحى الحرب الرومانية السَمْنية.

بدءاً منذ نحو سنة ٥٥٠ ق.م. كان مصير رومة يتأثر بشكل دقيق بالأحداث التي تجري في العالم غير الروماني المحيط بها. فخضوع رومة للطغاة الأترسكيين من نحو ٥٥٠ إلى ٥٠٩ ق.م. أو لعله الى نحو سنة ٤٧٤ ق.م.، جعل منها مدينة ـ دولة، وامبراطورية مصغرة بالنسبة لاتباعها من اللاتين. وكان الثمن الذي دفعته رومة لتخلصها من الحكم الأترسكيّ هو تحرر اللاتين من حكمها. فاصبح هؤلاء اتحاداً من المدن ـ الدول وهذا انضم إلى دولة ـ مدينة جمهورية رومة على قدم المساواة. وعلى كل فإن تصفية النظام الأترسكي في رومة لم يقض على العلاقات بين رومة وقرطاجة. لسنا ندري في ما إذا كانت المعاهدة الرومانية ـ القرطاجية المعقودة نحو ٥٠٦ـ ٥٠١ ق.م. الأولى في سلسلة من المعاهدات، أم أنها عقدت بعد تدشين عهد الجمهورية في رومة أم قبله، إلا أنه قد تكون ثمة معاهدات رومانية ـ قرطاجية تالية، فقد تكون اربعاً، تم عقدها قبل أن تقع الواقعة بين الدولتين في سنة ٢٦٤ ق.م.. وكانت هذه المعاهدات في مصلحة الفريقين.

إن احتلال رومة لفاي وتدميرها وضم بلادها بين نحو ٣٩٣ و ٣٨٨ ق.م. أدى إلى ازدياد قوتها إلى ضعفي ما كانت عليه، الأمر الذي أقلق اللاتين وحمل ديونيسيوس الأول على القيام بحملته ضد رومة وضد حليفتها كايري. ونهب رومة على أيدي القلت السينونيين في سنة ٣٨٦ مكّن للحلف اللاتيني من فك ارتباطه برومة. وبين سنتي ٣٨٦ و ٣٥٦ ق.م.، وفي ما كان ديونيسيوس وابنه يلي واحدهما الآخر في حكم سيراقوسة، تعرضت رومة وأرضها لسلسلة من الهجمات الغالية التي بدأها ديونيسيوس من قاعدة في أبوليا. وهذه الحملات منعت رومة من حمل اللاتين على العودة إلى مشاركتها. وقد

حدثت في سنة ٣٤٦ ق.م. غزوة غالية صاحبها انفصال جديد قام به اللاتين، وهي السنة التي عاد فيها ديونيسيوس الثاني إلى سيراقوسة موقتاً. وكان ظهور أرخيداموس الثالث في جنوب ايطالية من ٣٤٣ الى ٣٣٨ ق.م. حافزاً للسبونيين على عقد صلح تسوية مع رومة، على شرط ترك المدن ـ الدول في كامبانية تحت هيمنة رومة. وقد بدا واضحاً ان حملات بيروس في الغرب (٢٨٠ـ ٢٧٥ ق.م .) أثرت في مصير رومة بطريقة مباشرة وبشكل حيويّ.

ومثل أكثر الدول الأخرى في أكثر الأزمنة والأمكنة الأخرى، كانت رومة توسع أملاكها حينما تسنح لها الفرصة وحيثما تيسر ذلك. والمثل المبكر على ذلك هو هجومها المستمر بشدة على فاي الذي انتهى باحتلال فاي نحو ٣٩٣ـ ٣٨٨ ق.م.

واحتلال رومة لما تبقى من شبه الجزيرة الايطالية واحتلال صقلية الذي تلا ذلك انطلقا من عملي اعتداء رومانيين، وقد كان كل منهما مقصوداً ولو أنه من الممكن أن الحكومة الرومانية لم تكن تدرك ذلك، ولعلها لم تتوقع العواقب التي ترتبت على ذلك، في أي من الحالتين. في سنة ٣٤٠ أو ٣٣٩ ق.م. تحدّت رومة سَمْنيوم بوضعها المدن ـ الدول في كامبانيا تحت جناحها. وذلك كان مخالفاً لمعاهدة رومانية ـ سمنية كانت قد عقدت سنة ٣٥٠ ق.م.. وفي سنة ٢٦٤ ق.م. تحدّت رومة قرطاجة بأن وضعت تحت حمايتها الايطاليين المامرتيين الذين كانوا يقيمون في مسينا (وهم مرتزقة أغاثوكليس القدامى) وذلك خلافاً لمعاهدة أو على الأقل لتفاهم بين رومة وقرطاجة.

في سنة ٢٦٤ ق.م. كانت رومة قد نجحت في مشروع كانت نتيجته فشل الأترسكيين أولاً ثم فشل طاغية سيراقوسة ديونيسيوس الأول. وقد تم لها الآن توحيد شبه الجزيرة الايطالية تحت حكمها، فما هي الوسائل التي مكنت لها من مثل هذا الإنجاز؟

أشرنا من قبل إلى واحد من أرصدة رومة. ذلك أنها كانت قد نُظِّمت تنظيماً فعالاً كمدينة ـ دولة وذلك على يد الطغاة الأترسكيين الذين مروا بها لماماً. ثانياً كانت روما قد تم لها أن تقيم تنسيقاً سياسياً داخلياً بعد قضائها على النظام المستبد وان تحافظ على هذا التنسيق. كان المألوف في المدن ـ الدول اليونانية، في مثل هذه الحال، أن يعقب ذلك نزاع على السلطة بين الاحزاب التي كانت مصالحها تتعارض. فعلى سبيل المثال هذا ما حدث في أثينا حيث قضي على البزستراتيين في الوقت ذاته تقريباً الذي اقصي فيه التركويّون في رومة. وفي رومة أيضاً تلا إقامة نظام ديمقراطي نزاع أهلي، لكن في

سنة ٣٦٤ ق.م. اتفق الارستقراطيون الرومان مع زعماء أكثرية المواطنين المهملين، وعلى حساب هذه الفئة بالذات. وهذا الاتفاق الشرير دام حتى سنة ١٣٣ ق.م.، ولم تعكره سوى هزات عامة قليلة (مثلاً سنة ٣٣٩ وسنة ٢٨٧ ق.م). وهكذا فإن التغطية على الظلم الاجتماعي والسياسي داخلياً، مكّن لرومة ان تبرز أمام جيرانها موحدة الجبهة.

كانت سياسة الاوليغاركية الرومانية المستمرة في تسيير شؤون رومة الخارجية هي دعم مناظريهم في الدول الأخرى. ومثل هذه السياسة الرومانية كانت تغري الاوليغاركية الأجنبية ـ عندما تحس بأن مركزها كان قلقاً، في أن تضحي باستقلال الدولة في مقابل الحصول على دعم من الاوليغاركية الرومانية الثابتة القواعد. والمؤامرة بين الاوليغاركية الكابوية و « المؤسسة » الرومانية هي المثل الكلاسيكي على هذه المناورة الرومانية لجر الدول الأجنبية إلى احابيل رومة.

توثقت اتفاقات المؤسسة الرومانية مع الأوليغاركيات الأجنبية بواسطة الصداقات الأسروية والزيجات المختلطة. وعلى العكس من ذلك فإن مواطني الجماعات التي فرضت رومة عليها أن تكون من حلفائها على شروط رومة بالذات، حيل بينها وبين التعاون في ما بينها ضد رومة، وذلك عن طريق منعها، أحياناً، من الزواج المختلط ومن المتاجرة بين هذه الدول. وكان على حلفاء رومة، كما كان على حلفاء اسبارطة من قبل، أن تزود جيوش رومة بفصائل من الجيش. ولم يكن لهم، على عكس ما كان عليه حلفاء اسبارطة، أي رأي في القرارات السياسية التي كانت تورطهم في حروب رومة. ولم يكن على حلفاء رومة، على نحو ما كان عليه حلفاء اسبارطة، وعلى عكس ما كان عليه حلفاء اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، أن يدفعوا أية معونة، نقدية للقوة المسيطرة. لقد استُغِلّوا دون ان يُهانوا.

بعد أن كُسِرَ الحلفان اللاتيني والكمباني في سنة ٣٣٥ ق.م. وهما اللذان كانا قد انفصلا عن رومة في ٣٣٧ ق.م. حُلَّ الحلفان. وفي سنة ٣٣٤ ق.م. ضم عدد من المدن ـ الدول اللاتينية والكمبانية إلى الكيان السياسي الروماني، دون ان تجرد من الحكم الذاتي المدني. وقد منح مواطنوها، في بعض الحالات، حقوق المواطنية الرومانية كاملة، إلى جانب الواجبات المرتبطة بها التي القيت على عاتقهم. وفي حالات أخرى فرضت عليهم الواجبات كلها دون أن يُمْنَحوا أيا من الحقوق. ولعل هذا النظام الروماني ذا « المواطنية المزدوجة »، صيغ على الصلة التي أقامها تيموليون بين سيراقوسة وبعض

المدن ـ الدول الصقلية بين ٣٤٤ و ٣٣٧ ق.م.. لقد أزعجت سيراقوسة رومة ازعاجاً كبيراً من سنة ٣٨٦ إلى ٣٤٦ ق.م. بحيث أن الحكومة الرومانية كانت تراقب شؤون سيراقوسة بمنتهى الدقة.

وفي سنة ٣٣٣ ق.م. قامت رومة بتجربة أخرى في « المواطنية المزدوجة ». فقد أقامت مستعمرة صغيرة في انتيوم لخفر السواحل مكونة من مواطنين رومانيين، ومنحتهم دستوراً لحكم مدني ذاتي دون ان تجردهم من مواطنتهم الرومانية. ونُظِّمت هذه وغيرها من مستعمرات خفر السواحل التالية على غرار المستعمرات اللاتينية التي كان اتحاد المدن اللاتينية قد انشأها، وهو الاتحاد الذي حُلَّ. ومنحت رومة هذه المستعمرات وضع حلفاء من الدرجة الأولى، وقد زادت عددها مع توسعها في السيطرة على ايطالية. وأقامت رومة مستعمرات لاتينية جديدة في أماكن استراتيجية مختارة، وعهدت إليها بأن تكون حاميات لضبط البلاد المفتوحة.

كان اكتشاف الجغرافية الاستراتيجية لشبه الجزيرة الايطالية واستغلالها في غاية المهارة. بين ٣١٨ و ٣١٣ ق.م. احاطت رومة بسمنيوم وذلك بالاهتداء إلى طريق يجتاز جبال الابنين الوسطى ويعطي رومة موطىء قدم في ابوليا. وبين ٣٠٤ و ٢٨٩ ق.م. عزلت جنوب شبه الجزيرة الايطالية عن الدول الايطالية المستقلة في الشمال وذلك عن طريق التغلب على بعض شعوب الجبال وإقامة سلسلة من المستعمرات اللاتينية ومستعمرات رومانية لخفر السواحل ومستوطنات لمواطنين رومانيين على أراض مصادرة، دون ان يكون لهذه المستعمرات حكم ذاتي.

كانت سياسة رومة تقوم على أساس التفرد بالخصوم الذين تنوي القضاء عليهم. فبعد طرد ديونيسيوس الثاني من سيراقوسة في سنة ٣٥٦ ق.م. لم يبق منافس ذو بال لرومة سوى « الحلف السَمْني ». ومن ثم فقد ركزت رومة جهودها، منذ سنة ٣٥٠ إلى ما بعد انسحاب بروس من ايطالية سنة ٢٧٤ ق.م.، على التوسع جنوباً وعقدت مع الدول الأترسكية هدنة بعد هدنة (لم تعقد معاهدات دائمة) كي تظل هذه هادئة. بل إن رومة ذهبت إلى حد التزلف إلى القلتيين السينونيين، الذين كانوا قد نهبوا رومة سنة ٣٨٦ ق.م. والذين كانوا قد استقروا على الساحل الادرياتيكي لشبه الجزيرة الايطالية تماماً إلى الشمال من مستعمرة انكونا السيراقوسية. في سنة ٣٣٠ ق.م. اقنعت رومة السينونيين ان يعقدوا هدنة معها، مدتها ثلاثون سنة، وقد حافظ هؤلاء على وعودهم.

ومن ثم فإنه بعد انسحاب بيروس واستسلام التشمنيين كان جيران رومة الشماليون تحت رحمتها، إذ أطلق هذان الحادثان يدها لاخضاع آخر ما تبقى من الدول المستقلة في شبه الجزيرة.

وفي الحرب الرومانية القرطاجية، بين ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م. جُنِّدت الاساطيل والجيوش على مستوى لم يعرف له مثيل في تاريخ الحرب في حوض البحر المتوسط، كما أن الخسائر في الأرواح كانت مثل ذلك. وهذه الحرب الكبرى انتهت برومة إلى الاستيلاء على كل صقلية باستثناء املاك سيراقوسة، وعلى كل شبه الجزيرة الايطالية. وأملاك سيراقوسة كانت في سلم في ما كانت بقية ايطالية منطقة حرب تعاني الأمرّين من ويلات الحرب. وقد أتيح لهذا الجزء من صقلية أن ينجو بنفسه بسبب ما كان يتمتع به هيرون من تعقل. وهيرون كان الأكثر اعتدالاً في سلسلة طغاة سيراقوسة. فقد غير هيرون ولاءه في سنة ٢٦٣ ق.م.، وكأنه فعل ذلك بنوع من الرؤيا المستقبلية، ومن ثم فقد قضى السنوات الثماني والأربعين الأخيرة من حكمه، وحتى وفاته سنة ٢١٥ ق.م. وهو عميل رومة الأمين. وقد كانت السنوات من ٢٦٣ إلى ٢١٥ سنوات سعيدة في تاريخ سيراقوسة المضطرب، كما كانت السنوات ٣٤٤- ٣٣٧ ق.م.، وقد دام السلام الهيروني سبعة أضعاف المدة التي عرفها حكم تيموليون.

وبالنسبة إلى رومة فإن نتيجة حربها الأولى مع قرطاجة انتهت بأن أصبحت القوة البحرية النافذة في الحوض الغربي للبحر التوسط. وفي سنة ٢٣٨ ق.م. في ما كانت قرطاجة مشلولة الحركة بسبب ثورة قام بها المرتزقة في افريقية - وهؤلاء المرتزقة هم الذين اضطرت قرطاجة إلى اجلائهم عن صقلية وكانت قرطاجة تحاول التخلص منهم بايسر الشروط - اغتنمت رومة الفرصة فاستولت على سردينيا وارغمت قرطاجة على التخلي عنها لها. وعلى كل فإن ثورة المرتزقة أخمدها هملكار برقة (الصاعقة)، في سنة ٢٣٧ ق.م.، وهو بطل الحرب الحديثة مع رومة. وفي السنة نفسها قاد هملكار حملة الى اسبانية. وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان هملكار وصهره وخليفته هسدروبعل قد أقاما، في شبه جزيرة ايبيريا، امبراطورية قرطاجية برية جديدة، كانت أوسع وأهم بكثير من الرؤوس الساحلية التي خسرتها قرطاجة في الجزء الشمالي الغربي من صقلية. وفي سنة ٢٢١ خلف هنيبعل (هنيبال) ابن هملكار، هسدروبعل في القيادة في ايبيريا. وكان هنيبعل قد اعتزم منذ مدة طويلة ان ينتقم لانكسار قرطاجة على يد رومة في حرب ٢٦٤- ٢٤١

ق.م. وأصبح الآن في وضع يمكنه من القيام بهذه المحاولة. وهكذا فإن الوضع في سنة ٢٢١ ق.م. كان، في ما يتعلق بالحوض الغربي للبحر المتوسط، غير حاسم، على نحو ما كان عليه في الحوض الشرقي للبحر نفسه. وفي الدور التالي لتاريخ الطرف الغربي لايوكومين العالم القديم، كان على هاتين المنطقتين أن تتحدا في ميدان واحد للحروب.

٣٥ـ التشين والهان الغربية: العهود الامبراطورية في الصين

٢٢١ ق.م ـ ٩ م

لم تعرف السنة ٢٢١ ق.م. أية حادثة حاسمة، وذلك في منطقة الاويكومين من العالم القديم، الواقعة الى الغرب من الصين، والممتدة من شبه القارة الهندية إلى مضيق جبل طارق. وعلى العكس من ذلك فإن هذه السنة بالذات كانت منطلق حقبة هامة بالنسبة للصين. فقد تم في هذه السنة توحيد الصين سياسياً، وتاريخ تمام هذا التوحيد هو حد فاصل في التاريخ الصيني. فقبل ٢٢١ ق.م. كانت وحدة حضارية لكنها لم تكن قط وحدة سياسية. ومنذ ذلك الحين كانت الصين تتعثر وحدتها السياسية فتنقسم سياسياً، لكنها، إلى تاريخ وضع هذا الكتاب، كانت تعود دوماً فتوحد سياسياً بعد فترة، قد تطول وقد تقصر، من الانقسام والفوضى.

وقد كان ثمة وحدة بين الصين قبل ٢٢١ ق.م. والصين بعد ٢٢١ ق.م. في أمر واحد. ذلك أنه منذ فجر التاريخ الصيني والعالم الصيني يتسع جغرافياً باستمرار. وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان قد اتسع جنوباً، إلى حوض نهر ينغتسي، من موطنه الأصلي في الحوض الأدنى للنهر الأصفر، وفي وادي نهر واي، الذي هو رافد من روافد النهر الأصفر. وملك دولة تشين تشنغ، الذي أصبح أول امبراطور (باسم شيه هوانغ ـ تي) للصين الموحدة سنة ٢٢١ ق.م. ضم، قبل وفاته، إلى امبراطوريته البلاد التي تشمل اليوم كوان تونغ وكوانسي وفيتنام الشمالية. وفي سنة ١١١ ق.م. فتح الامبراطور هان وو ـ تي هذه البلاد الجنوبية من جديد، وهي البلاد التي كانت قد استعادت استقلالها بعد سقوط امبراطورية تشين. وفي سنة ١٠٨ ق.م. قضى هان وو ـ تي على دولة صينية مستقلة في

كوريا كان قد قد أنشأها مستوطنون صينيون، وضم شمال كوريا، وانشأ فيها أربع قيادات عسكرية صينية.

كان من اليسير ضم كوريا والجنوب في الامبراطورية الصينية لانهما كانا صالحين للاستغلال الزراعي. وإلى شمال حدود العالم الصيني كانت ثمة أراض هامشية، وهي منغوليا الداخلية اليوم، التي كانت تصلح أما لاستغلال زراعي فقير أو لتكون مراعي جيدة. إلا أن السهوب اليوراسية بالذات كانت ارضا تُعجِزُ الفلاحين الصينيين والجيوش الصينية ورجال الادارة. فهنا كان الاقتصاد الرعوُي البدوي والنُظم وأساليب القتال، المرتبطة بالرعاية والبداوة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الطبيعية. وكان البدو، في مناطقهم الخاصة بهم، صعبين بالنسبة إلى جيرانهم المستقرين. فالبدو الهزيونغ ـ نو (الهون) هزموا المؤسس الثاني للامبراطورية الصينية هان ليوبانغ (كاو ـ تسو) في سنة ٢٠٠ ق.م. والامبراطور نفسه نجا بأعجوبة من مثل المصيبة التي أصابت كورش الثاني. وكان على الحكومة الامبراطورية الصينية أن تتنازل عن بعض الأرض إلى جماعة هزيونغ ـ نو، وان تدفع لهم الجزية، وهم الذين هاجموا الصين سنة ١٧٧ ق.م. ثم مرة ثانية سنة ١٥٨ ق.م.. ثم بدأ هجوم صيني مضاد سنة ١٢٨ ق.م.. لكن الهزيونغ ـ نو كانوا مراوغين كما كان السكيثيون المقيمون في الطرف الغربي من السهوب، لما هاجم داريوس الأول مراعيهم. ولم يكن من الممكن القضاء على الهزيونغ ـ نو، كما انه لم يمكن القضاء على السكيثيين. وكما أن اخضاعهم أو ترحيلهم لم يكونا ممكنين عملياً.

ارسل هان وو ـ تي، كمقدمة للهجوم الصيني المضاد، رسولاً اسمه تشانغ تشين (سنة ١٣٩ ق.م .) للاتصال باليوهيتشين (المعروفين ايضاً بالطوخاروي)، وهم شعب بدوي كان الهزيونغ ـ نو قد اجلوهم عن كانسو غربا. كانت مهمة تشان تشين اقناع اليوهيتشين ان يتعاونوا مع الصينيين كي يمسكوا بعدوهم المشترك، الهز يونغ ـ نو في ما بين الفريقين، كما لو كان الفريقان فكَي كماشة. في سنة ١٢٨ ق.م. وجد تشانغ ـ تشين اليوهيتشين في بلاد ما وراء النهر، وقد فشل في حملهم على العمل ضد الهزيونغ ـ نو، لكنه عاد الى الصين في سنة ١٢٥/ ٦ ق.م. وفي سنة ١١٥ ق.م. بدأ برحلة في مهمة ثانية، هذه المرة كانت الى فرغانة في حوض جيحون والى الصغد، في بلاد ما وراء النهر. فاحتل الصينيون فرغانة في سنوات ١٠٤ و ١٠٢ و ٤٢ ق.م. وقد اشعرت رحلات تشانغ تشين الصينيين بوجود مدنيات الى الغرب من الصين، وإلى الأهمية

الحضارية لهذه المدنيّات. وكانت الصين، بطبيعة الحال، تتلقى الحوافز والمعرفة من الغرب ومن جهات أُخرى، الواقعة وراء حدود الصين منذ العصر الحجري الحديث على أقل تعديل. ومنذ الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، أُخذت الصين تدرك صلاتها ببقية الاويكومين في العالم القديم.

إن حركة توسع العالم الصيني لم تتعثر في سنة ٢٢١ ق.م. لكن، كان ثمة أمور أخرى متعددة، حيث تخلت دولة تشين في مسيرتها عن ماضي الصين منذ سنة ٣٥٦ ق.م. حين بدأ الفيلسوف السياسي القانوني، شان يانغ، عمله الثوري في إعادة نظم تشين. فبين سنتي ٢٥٦ و ٢٤٩ ق.م. قضى جد تشين شيه هوان ـ تي على بيت تشو، الذي كان قد حافظ للمجتمع الصيني اثرا للوحدة على مستوى الطقس الديني. وفي سنة ٢٢١ ق.م. كان شيه هوان ـ تي قد قضى على الدول الست المحلية جميعها التي كانت منافسة لتشين. لكن تشين شيه هوان ـ تي حكم على مملكته الاسروية بالفناء. وقد كانت نتيجة فعله عكس ما نواه تماماً، ومما لا شك فيه أنه لم يكن يعي ما الذي كان يفعله. ومثل اشور قبل ذلك باربعمئة سنة ومقدونيا قبل ذلك بمئة سنة، انتهى أمر تشين بسبب بناء امبراطورية. وقد نقص عدد مكانها بسبب خسائر الحرب وبسبب ارسال الحاميات إلى الخارج. ومليء هذا الفراغ في بلاد تشين الأصلية، على نحو ما تم في أشور، بالمهجرين من مواطنهم. وبعد ٢٢١ ق.م. أجليت مؤسسات الدول الست المحلية المقهورة الى « البلاد الواقعة خلف الممرات ». إلا أن أمضى سلاح استعملته دولة تشين للانتحار كان في اتخاذها نظاماً لا تتحمله ضحاياه.

إن التوحيد السياسي على طريقة تشين شيه هوان ـ تي كان، في واقع الأمر، لا يمكن تحمّله إلى حدّ أن إمبراطورية تشين قضي عليها وتمزقت خلال السنوات الثلاث التي تلت موت مؤسسها في سنة ٢١٠ ق.م. ولكن التوحيد السياسي بحد ذاته اثبت أنه يمكن الرجوع عنه. فبعد تصفية امبراطورية تشين في سنة ٢٠٧ ق.م.، قامت امبراطورية هان سنة ٢٠٢ ق.م. فالقرارات الامبراطورية التي تمت على يد تشين شيه هوان ـ تي جعلت الامرين، التصفية والقيام من جديد، شيئان لا مفر منهما.

لم يقتصر عمل شيه هوان ـ تي على تدمير التركيبة السياسية فقط في الدول التي احتلها عن طريق تهجير « المؤسسات »، بل انه محا أثر الحدود إذ أنه أعاد رسم خارطة العالم الصيني عن طريق تقسيمه إلى قيادات عسكرية. وكانت هذه يديرها موظفون من

تشين تملأهم الروح القانونية. كان الفلاحون يتحملون ظلم السخرة والضرائب. وقد حاول لي سي (نحو ٢٨٠- ٢٠٨ ق.م .) وزير شيه هوان ـ تي المتفنن، أن يعطل المدارس الفلسفية التي تخالفه قانوناً. ففي سنة ٢١٣ ق.م. شجع على « إحراق الكتب »، واقترح أن يدفن نحو اربعمئة عالم احياء في العام الذي تلاه. وفي الوقت ذاته أرضى شيه هوان ـ تي بعض أكثر الحاجات الملحة في المجتمع الصيني.

واكبر هذه الحاجات ـ التوحيد السياسي ـ أُشير اليه من قبل، وكانت الحاجة التالية هي جعل الأمور جميعها على شكل واحد. وقد سوى شيه هوان ـ تي الكتابة وخطوط سير العربات اذ حمل الصين الأصلية على اتباع نموذج تشين. (على الأرض الناعمة في الصين الأصلية، يجب أن تسير الدواليب في أخدود، واختلاف المقاييس لما بين الأخدودين المتوازيين كان يعرقل تنقل العربات، كما يحدث بالنسبة للقاطرات وعرباتها، إذ أن اختلاف قياس الخط الحديدي يحد من حركة القطر في العصر الحديث). وأكبر عمل في التسوية قام به شيه هوان ـ تي بالنسبة الى المستوى والتوحيد هو ضم الاسوار المختلفة التي كانت تبنى ضد البدو في دولة تشين وفي الدولتين المجاورتين لها في الشمال تشاو ويَن، بحيث أصبح سوراً واحداً هو السور الكبير. وقد كان السور الكبير، الذي اختطه شيه هوان ـ تي، يصل إلى الشمال من الانحناءة الشمالية الغربية للنهر الأصفر. ومن ثم فانه كان يضم ما يعرف اليوم بمنطقة أوردُس في مغوليا، وقد كان له تأثير عكسي. فإن بناء السور حمل الهزيونغ ـ نو على الاستجابة لهذا الدليل المرئي على توحيد الصين سياسياً، بأن توحدوا في ما بينهم، الأمر الذي كان له على الصين التأثير المار ذكره.

كانت الغاية من العصيان العام في سنة ٢٠٩ ق.م. إعادة النظام القديم. وتلا نجاح الثائرين في تصفية نظام تشين خلاف في ما بينهم على الأسلاب. وكان أقوى المطالبين هسيان يو، وهو ارستقراطي من دولة تشو السابقة. فاقترح هسيان يو أن يولى حفيد من احفاد الاسرة المالكة لدولة تشو بحيث يكون امبراطوراً اسمياً للصين كلها، على أن يكون هسيان يو القوة خلف العرش الامبراطوري. لكن الفائز في الحرب الأهلية كان ليو بانغ (كاو ـ تسو)، وهو جندي مغامر من الحوض الأدنى لنهر هواي.

كان يترتب على ليو بانغ أن يكافىء عوانه رفقاء السلاح عن طريق منحهم إقطاعات، وكان عليه ان يرضي الشعور العام باحياء بعض الممالك التي صُفِّيت، إلا أنه

احتفظ بالأراضي القديمة لدولة تشين الواقعة « بين الممرات » تحت حكمه المباشر، واتخذ عاصمة له في تشِينغ ـ تشاو. وهذه كانت على مقربة من الموقع الذي ستقوم عليه تشانغ ـ أن، ولكن على ضفة نهر واي المقابلة للعاصمة الأخيرة لدولة تشين هسين ـ يانغ. لقد تعلم ليو بانغ درساً من فشل كل من شيه هوان ـ تي وهسيان ـ يو. لقد أدرك هو وخلفاؤه انهم يجب أن يوحدوا الصين توحيداً أكثر فعالية من هسيان ـ يو، على أن لا يكون في ذلك الاثارة التي ظهرت على يد شيه هوان ـ تي. ومن ثم فانهم إذ أعادوا الوحدة الفعالة التي توصل إليها شيه هوان ـ تي، ساروا بتمهل!

صارت الإقطاعات ضعيفة بسبب الانتقال السريع والتوريث، ثم جُزِّئت أقساماً صغيرة بتطبيق مرسوم صدر سنة ١٤٤ ق.م. ينص على أنه في المستقبل يتوجّب أن تقسم الإقطاعة بين جميع أبناء أصحابها، ولا يجوز أن يرثها الابن الأكبر فقط. وهذه التجزئة المستمرة للوحدات السياسية والادارية المحلية من جميع الأنواع، كانت الوسيلة الرئيسة التي اتبعتها أسرة هان لتشديد خناق الحكومة الامبراطورية على هذه الوحدات. لقد بدأت امبراطورية هان كحزمة من القيادات العسكرية يديرها موظفون امبراطوريون وعشر ممالك ذات استقلال ذاتي معترف بها. وفي سنة ١ـ ٢م كان هناك ثلاث وثمانون قيادة عسكرية وعشرون مملكة. وقد تبدلت النسبة بين نوعي الوحدة المحلية، كما ان الوحدات، من كلا النوعين، قد تضاءلت مساحتها كثيراً. فجميع الأراضي المفتوحة جعلت قيادات عسكرية. وقامت ثورة قوامها سبعة ملوك محليين في سنة ١٥٤ ق.م. حملت الحكومة الامبراطورية على توصيل الممالك الى درجة العجز، فشرعت في سنة ١٢٧ ق.م. بأنه عندما يموت ملك، يتوجب على ابنه الأكبر أن يتنازل عن نصف مملكة الوالد المتوفي، إلى أصغر أخوته.

وبسبب أن الحكومة الامبراطورية أخذت تتولى بنفسها تدريجاً الاشراف المباشر للادارة المحلية لرقعة واسعة، فقد قامت مشكلة تتعلق بكيفية الحصول على موظفين للادارة الامبراطورية. فالعودة إلى الأسلوب الذي كان متبعاً في تشين مستحيل. ذلك بأن موظفي تشين شيه هوان ـ تي المقننين كانوا مسؤولين عن قيام عصيان سنة ٢٠٩ ق.م. بسبب سوء تصرفهم، وقد أفناهم العصاة عن بكرة أبيهم. وكان رد الفعل ضد اوتوقراطية شيه هوان ـ تي عنيفا، وكانت ذكريات النظام القديم قوية، بحيث أن اتجاه ليو بانغ الأول بعد أن أصبح امبراطوراً أن يقيس عملياً (وليو بَانغ لم يكن صاحب نظريات) السياسة

التاوية أي السياسة الحرة. وعلى كل حال، فالرواية تقول أن عالماً كونفوشيا أقنع ليو يانغ بأن مثل هذا التصرف المضاد لسياسة تشين ليس عملياً. وفي سنة ١٩٦ ق.م. أمر ليو يانغ السلطات في كل قيادة عسكرية وكل مملكة أن تبعث بالطلاب الصالحين للعمل في الإدارة المدنية الامبراطورية إلى تشنغ - تشاو لاختيار المناسبين بعد امتحان غير رسمي. وبعد سنة ١٩١ ق.م. أعاد العلماء الكونفوشيون وضع خمسة كتب كلاسيكية، كان المعروف أن كونفوشيوس نفسه قد حررها وأقرها. وقد رسم الامبراطور هان وو - تي (حكم ١٤٠ - ٨٧ ق.م .) أنه يتحتم على كل من يرغب في الحصول على منصب في الحكومة أن يتقن الكتابة بإسلوب الكتب الكونفوشية الكلاسيكية، وان يعرف كيف يفسر فلسفة كونفوشيوس، وأن يجيز ذلك علماء كونفوشيون.

من الناحية النظرية يبدو وو - تي وكأنه فتح باب الوظائف العامة على مصراعيه لأصحاب المواهب العقلية. لكن امتحان الموظفين المدنيين الصيني لم تكن قد وضعت له قواعده الدقيقة بعد، والتفوق العلمي لم يكن ند أصبح الطريق الوحيد للتعيين وللترقية ولم يصبح كذلك قط، والنفوذ الشخصي لم يفقد تأثيره ومكانته. وعلى كل فقد كان من العسير على أسرة فقيرة أن تتكفل بالنفقات اللازمة لتربية طويلة الأمد في موضوع صعب. يضاف إلى ذلك أن قبول فلسفة كونفوشيوس ودراستها أصبحت يومها أمراً صعباً، وهذه الفلسفة اصبحت تختلف كثيراً عما كانت عليه في أيام كونفوشيوس. فالأمر الذي كان يعتبر عقلانية ليست موحى بها في نظر كونفوشيوس قد داخله تديّن وتطيّر بسبب اختلاطه بتقاليد محلية كثيرة، التي كانت بدورها من مستويات ثقافية عديدة مختلفة. وقد تم هذا الاختلاط في امبراطورية صينية كانت تشمل يومها عدداً من الشعوب المتأخرة حضارياً في اطرافها.

كان كونفوشيوس قد جرب الحصول على منصب إداري في واحدة من الدول المتحاربة محلياً، وكان هدفه في عمله كمعلم هو المحافظة على التكوين التقليدي للمجتمع الصيني. لم يكن قد تصور التوحيد السياسي للصين، ولعله كان يعترض عليه. والسياسيون الذين نجحوا في القيام به لم يكونوا كونفوشيين، لقد كانوا مقنِّنين. ولعله من المحتمل أن كونفوشيوس ما كان يستطيع أن يتعرف على هذه الصيغة من الكونفوشية التي كانت معروفة في القرن الثاني قبل الميلاد. ومع ذلك فإن عمل الامبراطور وو - تي في « إقامة » هذا التفسير المخفف المختلط للكونفوشية كما كان معروفاً في أيامه، هو انتصار

متأخر للتفسير الكونفوشي لمعنى الحد تشُنْ تزو Chun Tzu. وعلى الأقل من الناحية الرسمية فإن الامبراطورية الصينية كان سيقع عبء إدارتها من الآن فصاعداً على أكتاف رجال وصلوا الى هذه المناصب لا بحق المولد، بل مكافأة على الاجادة الفردية.

كانت النتيجة التي ترتبت على ذلك في غاية السخرية. ذلك أن الموظف الذي علا منصبه بفضل كونه « تشن تزو » بالمعنى الكونفوشي كانت أمامه الفرصة، التي كثيراً ما كان يغتنمها، والتي كان يتيحها له منصبه، في أن يصبح « تشون تزو » بالمعنى الأصلي للكلمة. فقد كان باستطاعته أن يصبح مالكاً لأرض وان يورث أملاكه لابنه، الذي يصبح بإمكانه عندئذٍ أن يدربه لصبح بدوره موظفاً مدنياً كونفوشيا. ولم يلبث الموظفون الكونفوشيون أن أخذوا يشعرون بالولاء لأسرهم ولطبقتهم، وهذا الولاء قد يتصادم، وكثيراً ما تصادم، مع الولاء للامبراطور ومع واجبهم نحو جمهرة الشعب من رعايا الامبراطورية الذين لا امتيازات لهم. وكان الموظفون الكونفوشيون يحكمونهم نيابة عن الامبراطور.

ولم يكن هذا الانقسام في الولاء يستوجب اللوم، إذ أن منسيوس، الكونفوشي الكبير، كان يرى، عكس ما كان يرى مو ـ تزو، ان حب الرجل الفاضل لابناء جنسه يجب أن يتم على درجات. فأقرب الناس إلى الرجل يجب أن يكون أعز الناس إليه أيضاً، وأسرة الموظف وطبقته أقرب اليه من الامبراطور أو جمهرة الشعب. ففي الامبراطورية حيث أكدت السلطة المركزية سيطرتها على رعاياها، فإن واجب الموظف نحو الامبراطور هو أن يطبق النظام القانوني القاسي الذي كان قد أُدْخِلَ في دولة تشين في القرن الرابع قبل الميلاد والذي فرضه تشين شيه هوان ـ تي على بقية الصين بعد سنة ٢٢١ ق.م.؛ وفي واقع الأمر فقد كان ثمة أصل شديد من القانونية تحت القشرة الكونفوشية. لقد كان سكان الصين الموحدة سياسياً يحسون بأن الامبراطورية الصينية تتفق حدودها مع حدود العالم المتمدن، وان الفلسفة الصينية التي يمكن ان تحفز الموظفين المدنيين المسكونيين على القيام بواجبهم نحو البشرية بصدر رحب هي فلسفة مو ـ تزو؛ لأن مو ـ تزو كان يرى بأن الرجل الفاضل يجب أن تكون مسؤوليته نحو الأفراد من أبناء جنسه متساوية. وعلى كل حال فإن مو ـ تزو لم يتح له، بل أتيح ذلك لكونفوشيوس، كما فسره منسيوس، ان نال الجائزة، متأخراً، بأن اصبحت فلسفته هي الرسمية على مستوى مسكوني.

وبالنسبة الى الموظف الكونفوشي كان حكم هان أرحب مجالاً وأفضل من حكم

تشين. لقد كان السيد السياسي لرعايا الامبراطور الذين كان يحكمهم، وكان السيد الاقتصادي، كذلك، بالنسبة إلى الفلاحين المقيمين على الأرض التي كان يملكها. وقد كان هو وزملاؤه بإمكانهم أن يصبحوا سادة الأسرة الامبراطورية. لقد وضع تونغ تشونغ ـ شو، المستشار الكونفوشي للامبراطور وو ـ تي، المبدأ القائل بأن الاسرة، اية اسرة، إنما تحكم على أساس أنها منحت انتداباً من السماء، وان هذا الانتداب يمكن ان يلغى، وان سحبه كان يستدل عليه بقيام اضطرابات اجتماعية وحدوث نكبات طبيعية. وترتب على هذا المبدأ، ضمنا، أن الموظف المدني الكونفوشي أصبح هو الذي يقضي في ما إذا كانت علامات الزمان كان معناها أن انتداب أسرة ما قد نضب معينه. وبالنسبة لجمهرة الشعب الذين لا يتمتعون بأية امتيازات أصبح الفرق بين الحكم الامبراطوري لتشين وهان يتناقص وضوحاً، كلما أضاف العالم الاداري صاحب الأرض الكونفوشي حقلاً إلى حقل. ومن أول الأمر إلى آخره كان الفلاح الصيني دوماً قريباً من حدود قدرته على الصبر. ذلك أنه بالنسبة الى الفلاح الصيني كان قيام طبقة جديدة من ملاكي الأرض مسلحة بالسلطة العامة هو القشة الأخيرة.

كانت صيانة الامبراطورية، تحت اي حكم كان، تفرض اعباء ثقيلة على كاهل السكان ـ وهم الأغلبية الساحقة ـ الذين لم يكونوا يفيدون من الحكم. ففي ظل حكم الهان كان يتوجب على كل فلاح صيني أن يقوم بالخدمة العسكرية لمدة شهر كامل في كل سنة، وقد يجنّد ليخدم سنتين في الجيش. وإذا اعتبرنا سعة الرقعة التي كانت تشغلها الصين المتحدة فإن الخدمة التي يقوم بها المجند قد تنقله إلى اماكن ابعد كثيراً عن بيت أجداده الذين جُنّدوا على يد الحكومات المحلية في عصر الدول المتحاربة. وخطر الموت كان، ولا ريب، اقل. فالخدمة العسكرية الآن كان معناها العمل مع حامية على طول السور الكبير بدلاً من الاشتباك في معركة مهلكة في قلب العالم الصيني. لكن خطر الدمار الاقتصادي، بالنسبة إلى المجند، كان الآن اكبر، وكان مما يرهق الفلاح نفسياً الفرصة التي تتاح لملاك الأرض الطموع. فهذه الفرصة كانت اكبر الآن عندما كان الفلاح المجند يحمل لا إلى السور الكبير فحسب، بل إلى اماكن قصية في السهوب في ما وراء السور خلال حرب المئة سنة التي دارت رحاها بين الامبراطورية الصينية والهزيونغ ـ نو (١٢٨ـ ٣٦ ق.م).

والسخرة كان من الممكن أن تكون بشكل عمل في مناجم الحديد والفحم

الامبراطورية أو بناء الطرق أو حفر القني أو صيانة الطرق والقني الموجودة أو نقل احمال الحبوب مع القني أو ضد مجرى النهر وذلك لتزويد البلاط والحكومة في عاصمة اسرة الهان تشنغ ـ تشاو، في البلاد « الواقعة وراء الممرات » أو لتزويد الحاميات على طول السور الكبير الذي كان يبعد أكثر مما كانت تشنغ ـ تشاو بالنسبة إلى الحقول الشرقية والجنوبية حيث كان الناس يزرعون القمح والأرز. فلم يكن من الممكن أن تُزَوَّد حاجة الحاميات من منتوج الحقول الواقعة في جوارهم، لأن الأرض التي كان السور يجتازها كانت قاحلة.

لقد كان التركيب الجغرافي للعالم الصيني يختلف اختلافاً بيناً عن العالم الهليني. إذ لم يكن ارضاً تحيط ببحار داخلية، لقد كان ارضاً صلدة متماسكة. وهذا ادى إلى تساوق اكبر في الحضارة والى استمرار اطول في الوحدة السياسية باعتبار ان قضية النقل يمكن حلها. لقد كان القسم الأكبر من العالم الهليني في متناول شاطىء البحر، والانهار الصالحة للملاحة، باستثناء البلاد المصاقبة للبحر الأسود، والتي لم يكن لها دور هام. والعالم الصيني، كالعالم الهليني، كان يعتمد في مواصلاته على الطرق المائية، وكانت فيه انهار كثيرة، ولكن لم يكن ثمة نهر صيني كبير يجري إما من الجنوب الى الشمال أو من الشرق الى الغرب. والمناطق التي تنتج المواد الغذائية في الامبراطورية كانت تقع الى الجنوب من السور الكبير وإلى الجنوب الشرقي من العاصمة.

كان من الضروري ان تضاف القنوات الى الانهار. ففي الأجزاء الصالحة للاستعمال من الانهار، كان لا بد من نقل الاحمال صعداً ضد مجرى النهر. والطريق المائي صعداً ضد مجرى النهر الاصفر يصعب السير فيه بشكل خاص عند النقطة التي ينعطف فيها النهر على زاوية قائمة من اتجاه جنوبي إلى شمالي شرقي، إذ يجري عبر سلسلة جبال هي الحد الغربي لسهل الصين الشمالي. فالبضائع المتجهة نحو تشنغ ـ تشاو كان يجب عليها ان تجابه الصعوبات الطبيعية في هذا الخانق؛ والبضائع المتجهة نحو السور الكبير كان يجب عليها ان تجابه الصعوبات الطبيعية في هذا الخانق؛ والبضائع المتجهة نحو السور الكبير كان يجب ان تحمل برا إلى اجزاء السور التي لم تكن مصاقبة للنهر الأصفر. فنقل المواد الغذائية لم يكن يرجى منه ارباح بالنسبة للقطاع الخاص، ومن ثم فقد كان التسخير هو الذي يعتمد عليه للقيام بهذا العمل العام.

وهكذا فإن امبراطورية الهان لم يكن لديها احتياط غير موظف من الطاقة الاقتصادية. لقد كان عليها ان تبذل اقصى الجهد في ما يتعلق بالقوى الاقتصادية كي تحصل على حاجاتها. وفي هذه الأحوال فان البيروقراطية الكونفوشية التي جعلت من نفسها طبقة جديدة من ملاك الأرض كانت عبئاً غاية في الثقل بالنسبة للاقتصاد الامبراطوري. لقد كان الحكم الهاني ناجحاً في العمل تدريجاً على تقليص حجم الاقسام الصغرى السياسية والادارية في الامبراطورية وحكمها الذاتي، لكنه فشل في الحيلولة دون زيادة اعداد الممتلكات الخاصة الكبيرة واتساع احجامها. ان خطر هذه الأمور على المجتمع والامبراطورية كان قد وعاه، في حكم هان وو ـ تي، مستشاره الكونفوشي تونغ تشانغ ـ شو، الذي وضع المبدأ القائل « بالانتداب من السماء ». وفي ٦ ق.م. صدر مرسوم امبراطوري وضع بموجبه حد لمساحة الأرض التي يمكن ان يملكها اي فرد. لكن وضع هذا المرسوم موضع التنفيذ كان بيد الاداريين ـ مالكي الأرض، الذين كانت مصالحهم الخاصة تتعارض مع واجباتهم العامة. ومن ثم فقد ظل المرسوم حبراً على ورق. وفي سنة ٩م سقطت اسرة الهان الغربية.

وقد خلفها امبراطور اسمه وانغ مانغ الذي اعتبر ان انتدابه من السماء كان مهمة لحل مشكلة الأراضي، وهي المشكلة التي منعت البيروقراطيةُ الكونفوشيةُ اسرة الهان الغربية من حلها. وقد فشّلَت البيروقراطية وانغ مانغ أيضاً. وفي سنة ١٨م، قبل وفاة وانغ مانغ سنة ٢٣م، قامت ثورة فلاحين في شانتونغ التي اعلنت فشل محاولة وانغ مانغ في ايصال الحق إلى الفلاحين وتحسين حالتهم. لكن الفلاحين الثائرين لم يرثوا الامبراطورية ومشاكلها. ففي سنة ٢٥م قام فرع من بيت هان، اسرة هان الشرقية، بانشاء دولته واتخذ لويانغ عاصمة له، التي كانت سابقاً مركز الادارة لتشو الشرقية. وفي سنة ٣٦م كان مؤسس اسرة هان الشرقية، كوانغ ـ وو قد اخمد ثورة الفلاحين واعاد الى السلطة البيروقراطية الكونفوشية التي كانت في عهد اسرة هان الغربية المخلوعة.

إن اسرة هان الغربية والفلاحين كليهما كانا ضحيتي البيروقراطي ـ مالك الأرض الكونفوشي. لقد كانت هذه الطبقة الجديدة المونة التي تربط الامبراطورية، لكنها كانت ايضاً « شراً على الصين ». ان المندرين كان المجرم الصحيح الذي كان يجب ان يسحب منه « انتداب السماء ». فالكونفوشي في المنصب أصبح « القانوني » المتشدد روحاً،

والمصالح التي كان يخدمها بعنف كانت مصلحته الخاصة لا مصلحة العرش. في هذا الوقت كانت الطبقة الجديدة صاحبة الامتيازات قد قويت جذورها. لقد كانت العنصر الوحيد في المجتمع الصيني الامبراطوري الذي نجا من غضب السماء الذي جلبته هذه الطبقة السيدة نفسها على الصين خلال السنوات المأساوية من ٩- ٣٦م.

٣٦ـ حوض البحر المتوسط وجنوب غرب آسية والهند

٢٢١ ق.م ــ ٤٨م

عانى الفلاحون الصينيون الكثير من الشدة بين ٢٢١ ق.م. و ٣٦ م.. فالنظام السياسي الشديد الذي أقامه تشين الذي وحّد الدولة دام اثنتي عشرة سنة فقط (٢٢١- ٢١٠ ق.م .)، ثم تلته ثماني سنوات من الفوضى والحروب الأهلية (٢٠٩- ٢٠٢ ق.م .). وحكم الهان الغربي الذي جاء في اعقاب ذلك تلته ثورة فلاحين كانت فاشلة (١٨- ٣٦ م). ومع ذلك فإن حالة الفلاحين الصينيين في هذه الفترة لم تبلغ درجة السوء التي كانت عليه في الفترة السابقة من التاريخ الصيني - عصر الدول المتحاربة، ولم تبلغ درجة من السوء تعادل ما كانت عليه حال الفلاحين بين الصين والمحيط الاطلسي خلال السنوات المتدة من ٢٢١ ق.م. إلى ٤٨م.

ففي وسط اويكومين العالم القديم وفي طرفه الغربي شهد هذا الربع من الالف من السنين انقضاء خمس دول كبرى: الامبراطوريات الماوريانية والسلوقية والبطلومية والقرطاجية ومملكة مقدونيا. ومن بين جميع الدول الكبرى التي كانت تقوم إلى الغرب من الصين في ٢٢١ ق.م. كانت واحدة فقط، هي الامبراطورية الرومانية، لا تزال قائمة سنة ٤٨م.. وفي سنة ٣١ ق.م. كانت هذه الامبراطورية، التي لم تتعدّ، في سنة ٢٢١ ق.م.، ايطالية والجزر المجاورة لها، قد توسعت بحيث شملت حوض البحر المتوسط بكامله، لكنها لم تملأ الفراغ في القوى السياسية الذي كان يقوم إلى الجهة الغربية من الصين بكامله. فالمنطقة الواقعة شرقي نهر الفرات، والتي كانت تضم ارض الرافدين وايران، كانت قد احتلتها جماعات فرثية بدوية حربية جاءت من السهوب الأوراسية،

التي لم تكن، في سنة ٢٢١ ق.م.، قد امتدت بعد على العالم المتحضّر المستقرّ إلى أية نقطة غربي فرثية (وهي خراسان الحالية). وإلى الشرق من الامبراطورية الفرثية انشأت جماعة حربية أخرى من بدو السهوب الاوراسية، المعروفة بالكوشان، وهم فريق من يوه - تشي (أو توخاري)، امبراطورية، وذلك في سنة ٤٨م، اقتعدت الهندوكوش ووحدت حوضي سيحون وجيحون مع شمال غرب الهند.

إن هذه التبدلات في الخارطة السياسية لاويكومين العالم القديم الواقع إلى الغرب من الصين كانت نتيجة لنكبات حربية وثورات وانسياحات للشعوب. فالثورة الرومانية ابتلعت كل البلاد التي وقعت في ايدي الرومان، وهجرة اليوه - تشي الولاية الصينية المعروفة اليوم باسم كانسو احدث موجة تنقل بين جميع السكان الرعاة الاوراسيين في الغرب. ومن ثم فقد دفعت نحو الجنوب تلك الجماعة منهم التي كان قد مر عليها خمسة قرون وهي تقيم في السهوب إلى الشرق من بحر قزوين. وفي الوقت ذاته فقد استمر تطور الهلينية وانتشارها، على المستوى الثقافي، أثناء هذا الغليان العنصري والحربي والسياسي والاقتصادي.

لم تكن اية من الامبراطوريات الثلاث القائمة في سنة ٤٨م إلى الغرب من الصين تخضع لحكم الأغارقة، وكل منها قامت على انقاض دولة اغريقية. ومع ذلك فالامبراطوريات الثلاث كانت « هلينية النزعة » بشكل واع وبشيء من الكِبْر. وقد تقبّلت كل منها، في اراضيها، المدنية الهيلينية وكانت تعمل على نشرها. فقد كانت اللغة الاغريقية يومئذٍ لغة المدنية من المجرى الاعلى لنهر جُمْنا، في شمال غربِ الهند، باتجاه غربي حتى طرف صقلية الغربي. وكانت الهلينية تنشر، متشحة رداء رومانيا وبوساطة اللغة اللاتينية، من شبه الجزيرة الايطالية في القارة الاوروبية إلى خط الراين والدانوب، وفي شمال غرب افريقية إلى الطرف الشمالي للصحراء الكبرى. وفي سنة ٤٨م كان قد مر على الهيلينية المختلفة التي كانت تتعدى على مواطنها، وبعمق تأثر تلك بهذه. ومع ذلك ففي هذه الطبخة الحضارية المتجهة دوماً نحو النضج، ظل الجزء الهليني هو العنصر المُهَيْمن في كل مكان.

أول اعراض التحلل الذي رافق تطور الهَلْيَنة ظهرت في الهند؛ فقد بدت هنا، على الامبراطورية المَوْرِيانية، امارات التضعضع قبل وفاة الامبراطور اشوكا في سنة ٢٣٢ ق.م.، إلا أن الاعصار الذي دمر ثلاثة ارباع الاويكومين من العالم القديم تولد في

الطرف المقابل. كان الرومان والقرطاجيون قد اتفقوا، سنة ٢٢٦ ق.م.، على اعتبار نهر ابرو حدا بين منطقتي نفوذ كل من الفريقين، وقد تم هذا باتفاق بين الحكومة الرومانية وهسدروبال، صهر هنيبعل، وسلفه المباشر في زعامة الامبراطورية القرطاجية الجديدة في اسبانية، وهي التي كان قد انشأها هملكار، والد هنيبعل. وفي سنة ٢١٩ ق.م. هاجم هنيبعل مدينة ساغنتم، الواقعة على ساحل المتوسط في اسبانية، واحتلها، وقد كانت محمية رومانية تقع جنوب نهر ابرو. في سنة ٢١٨ ق.م. سار هنيبعل (ومعه الأفيال) من الابرو عبر جبال البيرنيه ونهر الرون وجبال الالب الى حوض نهر البو، وهو الذي كانت رومة تقوم يومها بضمه إلى املاكها. وقد تغلب هنيبعل على جيش روماني هناك، واجتاز جبال الأبنين، ودحر جيشاً رومانياً آخر عند بحيرة تراسيمين في إترورية (سنة ٢١٧ ق.م .)، ثم كسر جيشاً رومانياً ثالثاً، وكان اكبر الجيوش الثلاثة، في كاني في منطقة ابوليا سنة ٢١٦ ق.م..

إن انتصار هنيبعل الذي توج حملته كان ايذاناً بوضع استراتيجيته موضع الاختبار. ففي الحرب الرومانية القرطاجية الأولى (٢٦٤- ٢٤١ ق.م .) انتزعت رومة من قرطاجة سيطرتها البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد تفوقت القوة البشرية الحربية التي حصلت عليها رومة عن طريق التوحيد السياسي لشبه الجزيرة الايطالية على جماع مواطني قرطاجة وحلفائها الليبوفينيقيين ورعاياها الليبيين والاسبان. وقد عوّضت قرطاجة عن ضآلة العدد (في جيشها) بالخبرة والروح الجماعية في جيشها الصغير المحترف الذي ورثه هنيبعل عن والده وصهره. وخسارة قرطاجة لقوتها البحرية استُعيض عنها بالعمل التنظيمي الفريد لسوق الجيش الذي قام به هنيبعل بمهاجمته ايطالية براً عبر اسبانية. كان هنيبعل يعرف ان سيطرة رومة لم تكن محببة لدى غالبية الايطاليين، وبخاصة بين اولئك الذين أثقلت كواهلهم واجبات المواطنية الرومانية التي فُرضت عليهم، دون ان يمنحوا حقوق المواطن الروماني من الدرجة الاولى. كان هنيبعل قد خمّن انه إذا أنجز ما تم له إنجازه في الواقع في كاني سنة ٢١٦ ق.م. فإن حلفاء رومة في شبه الجزيرة الايطالية ومواطني الدرجة الثانية سينفصلون، وان رومة ستخسر تفوقها في القوة البشرية، وأنها لا بد ان تتسلّم ضمن شروط سيترتب عليها ان تعود املاكها وقوتها البشرية الى الحدود المتواضعة التي كانت عليها قبل قفزة رومة الاولى الكبيرة في سنة ٣٤٠ ق.م.

وقد انفصل اغلب حلفاء رومة الايطاليين في الجنوب الشرقي، بعد الانكسار الثالث

والاسوأ، الذي أصاب رومة على يد هنيبعل في كاني، وكذلك انفصل عنها مواطنو الدرجة الثانية في كامبانيا. إلا أن الحكومة الرومانية ظلت تملك اواسط شبه الجزيرة الايطالية وشمالها، وكان جيش هنيبعل المحترف الذي لا يقهر أصغر من ان يتابع سلسلة انتصاراته الباهرة بحيث يقوم بحملة ضد قلب القوة الرومانية. وقد ظهر في هذا ضعف استراتيجية هنيبعل. فبَعد تغلّب رومة على نكبتها في كاني، اصبح انكسار هنيبعل المقبل امراً وشيك الحدوث. ومن ذلك الحين لم تُتِح الحكومة الرومانية لهنيبعل الفرصة لأن ينتصر على اي من الجيوش الرومانية في معارك نظامية. لقد جندت الحكومة الرومانية قوتها البشرية التي كانت لا تزال وفيرة، إلى أقصى حد للمحافظة على الجبهة في جنوب شرق ايطالية ولتزويد الحاميات بكثافة في الجزء الذي كان لا يزال على حاله من ممتلكات رومة في شبه الجزيرة الايطالية.

ولم تُمَسّ سيطرة رومة البحرية بأذى بحيث انها منعت الامدادات المرسلة إلى هنيبعل من الوصول إلى ايطالية الا في فئات قبيلة، كما أنها مكّنت رومة من الهجوم على الممتلكات القرطاجية في اسبانية. وفي سنة ٢٠٦ ق.م. كانت كل اسبانية القرطاجية قد سقطت في أيدي رومة. وفي سنة ٢٠٥ ق.م. هاجم بوبليوس كورنيليوس شيبيو، القائد الروماني المنتصر في اسبانية، البلاد القرطاجية في شمال غرب افريقية. وعلى العكس من الحملتين السابقتين اللتين قادهما اغاثوكليس في ٣١٠ـ ٣٠٦ ق.م. وسلف شيبيو الروماني ماركوس اتيليوس ريغولوس في سنة ٢٥٦ـ ٢٢٥ ق.م.، فإن حملة شيبيو كانت ناجحة. فاستُدعي هنيبعل من ايطالية الى افريقية سنة ٢٠٣ ق.م. فلقي هزيمة ساحقة في نَزّاغارا (٢٠٢ ق.م .) على يد شيبيو.

وقبل هذه الخاتمة الحاسمة كانت الحرب الهنيبعلية قد انتشرت من ايطالية، لا إلى اسبانية وافريقية فحسب، بل حتى الى صقلية وبلاد اليونان. ففي سنة ٢٢٠ ق.م. كان القتال قد احتدم بين ايتوليا وبين حلف من دول اخرى في بلاد اليونان، تتزعمه مقدونيا. وكان الايتوليون يلقون الامرين من القتال. وفي سنة ٢١٧ ق.م. مكنتهم الاخبار الواردة من ايطالية من اقناع خصومهم الاغارقة بعقد صلح. وفي سنة ٢١٥ ق.م. عقد فيليب الخامس، ملك مقدونيا، معاهدة مع هنيبعل، وقد تعرض الرومان لرسله، الذين كان يرافقهم المفوضون القرطاجيون، وقامت رومة بمحاربة مقدونيا. وفي سنة ٢١٢ ق.م. عقدت ايتوليا معاهدة مع رومة. وبذلك رَبَطت نفسها ثانية في القتال مع مقدونيا

وحلفائها في بلاد اليونان. وقد خسرت ايتوليا، في هذه الحرب، الكثير من ارضها في ثيساليا لمقدونيا، بحيث انها عقدت صلحاً منفرداً مع مقدونيا (٢٠٦ ق.م). وهذا حمل رومة على عقد صلح مع مقدونيا (٢٠٥ ق.م). ومعاهدتا السلم كلتاهما كانتا في صالح مقدونيا لفترة قصيرة، لكن الثمن كان قيام حرب انتقامية قريبة، اذ انه في سنة ٢٠٥ ق.م. كان من الواضح بان رومة كانت ستحقق نصراً حاسماً ضد قرطاجة.

الحرب الانتقامية التي شنتها قرطاجة ضد رومة كانت قد فشِلَت. فبدلاً من ان تنجح قرطاجة في قلب نتائج الحرب التي قامت بين ٢٦١ و ٢٤٦ ق.م. فقدت قرطاجة مكانتها كدولة كبرى، واصبحت الآن تحت رحمة رومة وقد كانت خساره قرطاجة المادية، على كل حال، دون خسارة رومة في حروب هنيبعل. فقد حاربت قرطاجة في بلادها ثلاث سنوات فقط (٢٠٥- ٢٠٢ ق.م)، فيما ظل هنيبعل يعيث في شبه الجزيرة الايطالية دماراً مدة خمس عشرة سنة (٢١٧- ٢٠٣ ق.م). والدمار الذي اصاب جنوب ايطالية وصقلية لم تُزَل آثاره، فقد ترك آثاراً اقتصادية واجتماعية وسياسية تكاد تكون انتصاراً متأخراً لهنيبعل. وكان هذا اكثر ايذاء لرومة من انتصار هنيبعل الحربي غير المجدي في كاني سنة ٢١٦ ق.م.

وكان ابلغ الأذى نتيجة لحرب هنيبعل هو الذي اصاب الاغارقة في ايطالية وصقلية. فقد ظل هيرون الثاني ملك سيراقوسة اميناً للمعاهدة التي عقدها مع رومة، ولكن بعد وفاته (٢١٥ ق.م) انفصلت سيراقوسة وتراس (تارنتوم) وأكراغاس (اغريغنتوم) عن رومة، وترتب على ذلك ان حملت عليها رومة حملة عاصفة، فنهبت لونتيني اكبر مدينة اغريقية بعد سيراقوسة، في مملكة هيرون. وفي بلاد اليونان تأذَّت حليفات مقدونيا بسبب شروط المعاهدة بين ايتوليا وروما. فقد تم الاتفاق على انه إذا احتل الحلفاء مدينة معادية نال الأيتوليون الأرض والابنية ونالت رومة الأموال المنقولة بما في ذلك من تبقى من السكان، الذين كان للرومان ان يبيعوهم في سوق الرقيق، وقد فعلوا ذلك في الواقع.

لقد كان فيليب الخامس ملك مقدونيا قصير النظر، ومعاصره السلوقي الامبراطور انطيوخوس الثالث كان اعمى. بعدما اثار فيليب رومة ومرّغ جبين ايتوليا، سار شرقاً في سنة ٢٠٢ ق.م. في الوقت الذي كانت فيه رومة على وشك قهر قرطاجة، وبالتالي استعادة حريتها في التصرف. ففي سنة ٢٠٢ ق.م. هاجم فيليب، وبدون اي استثارة، خمس مدن اغريقية واحتلها، وسار على طريقة الرومان في الايقاع بالمقهورين بأن باع

سكان ثلاث من هذه المدن الخمس غير المؤذية في سوق الرقيق. اما انطيوخوس فقد شن الحرب السلوقية ـ البطلومية الرابعة للاستيلاء على جنوب سورية في سنة ٢٢١ ق.م. كما شن الحرب الخامسة في ٢١٩ـ ٢١٧ ق.م. وفي سنة ٢١٧ ق.م. ـ وهي السنة التي وقعت فيها معركة بحيرة تراسيميني ـ كُسِرَ انطيوخوس الثالث على يد بطليموس الرابع في رافيا (رفح الحالية). وفي ٢١٦ـ ٢١٣ ق.م. كان انطيوخوس مشغولاً في غرب اسية الصغرى، حيث كان يعمل على القضاء على ابن عمه أخايوس. وكان أخايوس هذا قد استرجع، باسم انطيوخوس، الاملاك السلوقية الواقعة إلى شمال غرب جبال طوروس، وذلك من أتالوس الاول ملك برغامون. إلا أنّ أخايوس هذا عاد فانفصل عن انطيوخوس. وبين ٢١٢ و ٢٠٥ ق.م. كان انطيوخوس يقود حملات إلى الشرق من نهر الفرات. ففي سنة ٢٠٦ ق.م. كان في وادي نهر كابول (وهي قرنة من امبراطورية موريان المتزعزعة). وقبل نهاية السنة ذاتها كان يقود حملات في الخليج العربي.

كانت المسافات التي قطعها انطيوخوس قريبة من تلك التي اجتازها الاسكندر، لكن نتائجها السياسية كانت هوائية. لقد حصل انطيوخوس على اعتراف اسمي بسلطته على ارمينية وميديا الشمالية (أذَرْبيجان الحالية) وفرثية وبكتريا (الصغد في ما بعد)، لكن الحكام المحليين استعادوا استقلالهم عملياً حالما أدار ظهره. وفي سنة ٢٠٢ ق.م. شن انطيوخوس الثالث الحرب السلوقية ـ البطلومية السادسة، ولما عُقِدَ الصلح سنة ١٩٨ ق.م. ظل جنوب سورية في يده. وفي ذلك الوقت كان فيليب الخامس يتجه نحو خسارة حربه الثانية مع رومة وايتوليا.

بين سنتي ٢٠٠ و ١٦٨ ق.م. فرضت رومة هيمنتها على سواحل حوض البحر المتوسط الشرقي بأجمعها. في سنة ١٩٧ ق.م. انتصرت رومة على مقدونيا بشكل حاسم في كينوسيفالي في تساليا، وبذلك انصت المقدونيين عن كل ممتلكاتهم الاغريقية الواقعة إلى جنوب جبل أولمبوس وفي جنوب غرب آسية الصغرى. وفي سنة ١٩٥ ق.م. انتزعت حملة رومانية، كانت تعمل في بلاد اليونان، من اسبارطة كل سواحلها، وبذلك شُلَّت عن الحركة. وهكذا عادت اسبارطة إلى ما كانت عليه قبل ان توسع رقعتها في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م.، اي دولة صغيرة محصورة براً. وفي سنة ١٩٢ ق.م. اتحد انطيوخوس الثالث وايتوليا في حرب ضد رومة. وقد اضطر انطيوخوس إلى

التسليم سنة ١٩٠ ق.م. وايتوليا سنة ١٨٩ ق.م.. وكان على انطيوخوس ان يتخلّى عن كل الأراضي السلوقية الواقعة شمال غرب جبال طوروس، وان يدفع تعويضاً حربياً كبير القيمة. وفي حرب ثالثة قامت بين مقدونيا وروما (١٧١- ١٦٨ ق.م .) صَفَّت رومة مملكة مقدونيا، وقسّمت ممتلكاتها الى أربع ولايات تحت سيطرتها.

كان باستطاعة انطيوخوس ان يتفادى صدامه مع رومة. ففي المفاوضات التي دارت قبل نشوب الحرب، عرضت رومة عليه مجموعتين بدبلتين من الشروط في سبيل التعايش السلمي. وكلاهما كانا معتدلين. كان بامكان انطيوخوس ان يقبل ايا منهما بدون صعوبة، وبذلك يصبح التعايش السلمي ممكناً. ذلك أنه كان ثمة مجال للقوتين في العالم الهليني الذي يتسع باستمرار، وكانت تطوراتهما الدستورية تسيران في خطين متوازيين. فقد كانت كل من الامبراطورية السلوقية والامبراطورية الرومانية تتطور نحو اتحاد لدول ـ مدن ذات استقلال ذاتي. لكن الانكسار الشائن الذي جلبه انطيوخوس الثالث على نفسه قضى بأن تقسم الامبراطورية السلوقية بين رومة وفرثية.

لقد ضخم الرومان من شأن قوة الامبراطورية السلوقية وذلك بسبب اتساعها، وبسبب انتصارات انطيوخوس الثالث السابقة الخادعة، وبسبب ان هنيبعل قد وضع نفسه تحت تصرف انطيوخوس في سنة ١٩٥ ق.م.. وكان الرومان قد تعرفوا إلى قوة مقدونيا تعرفا صحيحاً في ٢١٥- ٢٠٨ ق.م. وفي ٢٠٠- ١٩٧ ق.م.، ومن ثم فقد استصغروا شأنها في سنة ١٧١- ١٦٨ ق.م. وقد كان مقضياً على مقدونيا ان تخضع لرومة، لأنها لم تنجح في توحيد بلاد اليونان سياسياً تحت سيادتها بشكل دائم، على نحو ما نجحت رومة في توحيد ايطالية. ثم بسبب الفرق الكبير بين الدولتين في القوى البشرية الحربية. ففي الحرب الثالثة استطاعت مقدونيا ان تُلْقِي بقواها البشرية جمعاء في ميدان القتال، اذ ان رومة قد جردتها، في الحربين الرومانية ـ المقدونية السابقتين، من الحصون الواقعة في الخارج، حيث كان جزء كبير من القوات المقدونية قد حصرت فيها. ومن ثم فقد اضطر الرومان، في هذه المرة، إلى بذل جهد كبير في سبيل التغلب على المقدونيين لأن هؤلاء، مع انهم كانوا دون الرومان عدة وتخطيطاً، كما كانوا دونهم عدداً، فقد كانوا بواسل، وكانوا مصممين على ان يحتفظوا بالمجد الذي كان لسجلهم القومي الحربي. وعلى كل فقد كانت هذه هي المرة الوحيدة التي جهدت رومة نفسها في سبيل فرض سلطانها على بلاد المشرق. فكلمة واحدة حملها رسول روماني، نقل بها خبر

الانتصار الروماني الحاسم على مقدونيا في معركة بِدْنا، كانت كافية في سنة ١٦٨ ق.م. لحمل انطيوخوس الرابع، ابن انطوخيوس الثالث وخليفته الثاني، على التخلي عن مصر. وكان انطيوخوس الرابع قد احتلها فيما كان الرومان مشغولين في الحرب التي كلفتهم من الجهد اشده في حروبهم في بلاد اليونان.

لقد استخدمت « المؤسسة » الرومانية الدبلوماسية لمساندة حروبها، واستعمل الرومان الفن الدبلوماسي ذاته في التسود على المشرق الذي استعملوه من قبل بنجاح في التسود على شبه الجزيرة الايطالية. فقد جندوا ني الدول المعادية طابوراً خامساً، عن طريق تغليب الأقليّة الثريّة من السكان على الغالبية الفقيرة. وبالنسبة إلى الدول الكبرى التي كانت تنافس رومة، جند الرومان حلفاء لهم بين الجيران الضعفاء للدول الكبرى. ولم يلبثوا ان باغتوا هؤلاء الحلفاء بالتخلي عنهم حالما كان يتم لهم القضاء على دولة منافسة، الأمر الذي كان يتم بمساعدة هؤلاء الحلفاء، بحيث اظهروا ان مساعدة الحلفاء كانت غير ذات أثر. فقد ادارت رومة ظهرها لايتوليا بعد تغلبها على مقدونيا (١٩٧ ق.م .) وأدارت ظهرها لمقدونيا بعد ان اعانتها هذه (١٩٠- ١٨٩ ق.م .) على التغلب على الأيتوليين. وأدارت ظهرها لبرغامون ورودس، وكانتا قد اعانتا رومة في ان تتغلب على انطيوخوس الثالث (١٩٢- ١٩٠ ق.م .)، ومع ان الايخائيين كانوا حلفاء مخلصين لرومة منذ ان تخلوا عن حليفتهم القديمة مقدونيا (١٩٨ ق.م .). وأدارت رومة ظهرها لنوميديا بعد ما تغلبت على قرطاجة في حرب ٢١٨- ٢٠١ ق.م. وقضت عليها نهائياً في حرب ١٥٠- ١٤٦ ق.م.، وكان ذلك بعون من نوميديا. وبعد انتصارها الحاسم في بلاد اليونان، فعلت رومة ما كان قد فعله تشن شيه هوان - تي بعد انتصاره الحاسم في الصين سنة ٢٢١ ق.م. فقد نقل الرومان إلى ديارهم الخاصة الأعضاء البارزين من « المؤسسات » المقدونية والاخائيين وغير ذلك من المدن - الدول الاغريقية القاربة. وقد اصاب إبيري مولوسُش، الذين لم يكونوا من المحاربين إلى جانب مقدونيا، والايتوليين، الذين كانوا حلفاء رومة الحذرين في الحرب المقدونية - الرومانية (١٧١- ١٦٨ ق.م .) - اصابتهم ضربات بعد ما امعن في الأذى. فالمولوسيون نُهبوا واستُرِقّوا، والايتوليون صُودِرَت ممتلكاتهم، اضافة الى وجوب تقديم ما فُرِضَ عليهم من المهجَّرين.

كانت السنوات ٢٢١- ١٦٨ ق.م. مؤلمة بالنسبة إلى سكان حوض البحر المتوسط، اما السنوات ١٦٧- ١٣١ ق.م. فقد كانت طافحة بالالم بالنسبة لهم. فمحنة حرب

هنيبعل اورثت الرومان الرعب من وجود دولة قوية في مدى يمكن ان تُضرَبَ ايطالية منه. ولعلّ الامبراطورية السلوقية البعيدة هي الوحيدة التي كانت « المؤسسة » الرومانية قد تسمح لها بالاستمرار في التعايش مع الامبراطورية الرومانية لو ان انطيوخوس الثالث كان اكثر حكمة في السنوات الحاسمة (١٩٦- ١٩٢ ق.م). ومنذ سنة ١٩٠ ق.م. لم تهمل « المؤسسة » الرومانية أية مناسبة لتقليص قوة الامبراطورية السلوقية، مع ان نتيجة حرب ١٩٢- ١٩٠ ق.م. كانت قد اظهرت للعيان العجز الحربي لهذه الامبراطورية المتسعة جغرافياً. وحتى قرطاجة، التي أصبحت عاجزة منذ سنة ٢٠١ ق.م. هاجمتها رومة بدون مبرّر سنة ١٥٠ ق.م. ودمرتها سنة ١٤٦ ق.م. وقد دمرت كورنث في السنة ذاتها، تماماً بعد مرور خمسين سنة على اراحة رومة اياها من الحامية المقدونية التي كانت تحتل قلعتها. وكانت اهداف « المؤسسة » الرومانية سلبية. فكانت ترغب فقط في ضرب اية دولة تُظْهِر اية اشارة الى رغبتها في تأكيد استقلالها، حتى ولو ان الدولة المزعجة كانت عاجزة عن القيام بمثل ما قام به هنيبعل.

إن عزوف « المؤسسة » الرومانية عن ملء الفراغ السياسي الذي اوجدته عامدة، يتناقض مع عمل تشن شيه هوان ـ تي الذي قام به بعد ما قضى، في سنة ٢٢١ ق.م. على آخر دولة مستقلة باقية في العالم الصيني. فبدلاً من ان يترك تشن شيه هوان ـ تي أي فراغ سياسي، قام حالا بضم ممتلكات الدول المتنافسة التي قضى عليها، وبذلك وحد العالم الصيني بأجمعه سياسياً في امبراطورية مركزية مكثفة كانت تُدار إدارة اوتوقراطية. فبعد سنة ١٦٨ ق.م.، وهي السنة التي قضت رومة فيها على الدولة الوحيدة الباقية في إطار وجودها، حملت « المؤسسة » الرومانية عالم البحر المتوسط الممزق على الانتظار قروناً قبل ان تتخذ الخطوة الأولى في سبيل اعادة بنائه. ففي سنة ٦٧ ق.م. مُنِح سيد من سادات الحرب الروماني، وهو بومبي، سلطات دكتاتورية لاعادة القانون والنظام في المشرق، وقد قام بالأمر بمقدرة كبيرة بين سنتي ٦٧ و ٦٢ ق.م.. ولكن احتواء عالم البحر المتوسط في سلطة واحدة لم يتم إلا سنة ٤٦ ق.م.. وقد تم ذلك على يد سيد واحد من سادات الحرب الرومان وهو يوليوس قيصر منافس بومبي الناجح. وعندها أخذ يوليوس قيصر على نفسه أمر القيام بعمل في البحر المتوسط شبيه بما قام به تشن شيه هوان ـ تي في الصين. فقد أخذ يوليوس قيصر ببناء امبراطورية مركزية اوتوقراطية الادارة، في الأرض اليباب التي خلفها أسلافه الرومان الجمهوريون خربة خالية. وقد كان على

أهبة السير لتوسيع امبراطوريته الى المناطق الواقعة عبر الفرات من العالم الهليني لما توقف عمله إذ اغتيل سنة ٤٤ ق.م.

لقد كان لدى قيصر سنتان فقط من السلطة الأوتوقراطية، كان خلالهما حراً في التركيز على إعادة بناء عالمه، إذا قورن ذلك بالمدة التي كانت لشيه هوان ـ تي وهي اثنتا عشرة سنة. وحتى عمل قيصر البناء في سنتيه تعثر بسبب تحد عسكري ضد دكتاتوريته. فبالمقابلة مع شيه هوان ـ تي كان قيصر رحيماً بخصومه المكسورين، وقد كان اغتياله ثمناً لحلمه النسبي. (كان شيه هوان ـ تي قد نجا من محاولة لاغتياله، قام بها رجل من دولة ين، سنة ٢٢٤ ق.م.، ولم يكن يومها يعدو كونه الملك تشن لدولة تشين، ولم يكن قد أتم عمله وهو توحيد الصين بأكملها بالقوة). وعلى كل فان ما تلا وفاه شيه هوان ـ تي بالنسبة للصين، يدل على ان عمل قيصر، مثل عمل معاصره الصيني، ما كان ليعمّر كثيراً بعد موته حتى لو أنه أتيح له، مثل شيه هوان ـ تي، مدة اثنتي عشرة سنة للقيام به. ذلك بأن قيصر، ولو أنه كان يختلف عن شيه هوان ـ تي في انه كان حليماً مع خصومه، فقد كان يشبهه في قلة صبره وسوء تصرفه. وقد كان عالم البحر المتوسط بحاجة الى خلف لقيصر يقوم ببناء امبراطورية قيصر من جديد، وقد وجد ذلك الرجل في اغسطوس، كما ان ليوبانغ اعاد بناء امبراطورية شيه هوان ـ تي بصيغة أقل إثارة، ومن ثم كانت أكثر ديمومة.

وفي الوقت ذاته فان الانكسار الحربي للامبراطورية القرطاجية ومقدونيا والامبراطورية السلوقية على أيدي رومة بين سنتي ٢١٨ و ١٩٠ ق.م. وانحطاط امبراطورية البطالسة والموريان المعاصر له زمنياً، فتح الطريق امام انتعاش الشعوب الاسيوية والأفريقية.

وحتى قبل ان تتدخل رومة في شؤون المشرق كان المصريون قد بدأوا بردة فعل ضد النظام الاغريقي البطالسي المستغل. ان حكومة البطالسة كانت، اثناء الحرب السلوقية ـ البطالسية الخامسة (٢١٩ـ ٢١٧ ق.م)، قد سلّحت ودرّبت، على الطريقة المقدونية، فرقة من المشاة من المواطنين المصريين. وهؤلاء الجنود المصريون كانوا قد تغلبوا، في معركة رفح، على الجنود السلوقيين من العنصر الاغريقي. وهذا الانتصار الحربي المصري، على جنود من الجنس نفسه الذي كان ينتمي اليه سادة المصريين من الأغارقة المقدونيين، نفخ المصريين بثقة بالنفس جديدة. ومنذ سنة ٢١٧ ق.م. وما بعدها أصبح هؤلاء يزدادون صعوبة في الانقياد « المتسلط » الاغريقي، وأخذ الكهنة المصريون ـ وهم

طائفة قوية ـ يتحينون الفرصة لينتزعوا الامتيازات الملاحقة من الحكومة الغربية التي أصبح ضعفها بادياً للعيان. وكان من الطبيعي ان يتزعم الكهنة الحركة الوطنية ضد الأغارقة. لكن ثورات الفلاحين كانت اجتماعية أصلاً ـ فقد كانت ثورات الفقراء ضد الاغنياء. « فالمؤسسة » الدينية المصرية، مثلها مثل المؤسسة لسياسية الإغريقية، كانت هدف هذه الثورات، ووضع الكهنة كان مبهماً.

بعد سنة ٢٠١ ق.م. أخذت نوميديا، حليفة رومة في شمال غرب افريقية، تعتدي باستمرار على أراضي قرطاجة. وبعد سنة ١٩٠ ق.م. كان على الحكومة السلوقية أن تعتصر من رعاياها ما يمكنها من دفع تعويض الحرب لرومة. وقد أثار ضغطُ الحكومة المقاومة، إذ أن انكسارها أمام الرومان كشف ضعف الامبراطورية الحربي. وكان أكبر ما اختُزِنَ من المعدن الثمين في الممتلكات السلوقية كان ما جمع في خزائن الهياكل. وقد قتل انطيوخوس الثالث في سنة ١٨٧ ق.م.، وقتل انطيوخوس الخامس في سنة ١٦٣ ق.م. وكان ذلك في محاولة كل منهما أن ينهب الهياكل في عيلام.

كان الهيكل الذي لقي السلوقيون بسببه أكبر ما أزعجهم هو هيكل يهوه اليهودي في القدس. لم تصطدم الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين، لا تحت الحكم الفارسي ولا تحت حكم البطالسة الذي تلا ذلك، مع الحكومة الامبراطورية كما انها عاشت ايضا في سلام، ولو انها، منذ ايام عزرا، لم تكن علاقتها مع جيرانها ودية. لكن الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين كانت منقسمة، على نحو ما كان الشعب المصري منقسماً، نتيجة لتوتر داخلي بين الأقلية الغنية والأكثرية الفقيرة. فالأغنياء كانوا يملكون الأرض ويسيطرون على الكنز المخزون في الهيكل في القدس. وكان الفقراء هم الفلاحون وصناع المدن والكتبة الذين يعلمون الشريعة اليهودية، التي كانت الحكومة السلوقية تعترف بها، كما اعترفت بها حكومة البطالسة قبل ذلك، على أنها صالحة لتنظيم شؤون الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين. وفي صميم الجماعة اليهودية في جنوب فلسطين كان ثمة منافسة أدت إلى انقسام الأقلية الثرية بين أسرتين من النبلاء، أسرة طوبيا وأسرة عونيا، وبين ممثلي هذين البيتين المتنافسين. واثناء الحرب السلوقية ـ البطالسية السادسة، التي انتهت بانتقال السيادة على جنوب سورية، بما في ذلك جنوب فلسطين، من البطالسة الى السلوقيين، اشتبك هذا النزاع المحلي بخصومة يهودية جديدة بين حزبين هما انصار البطالسة وانصار السلوقيين. وهذه الخصومة تشابكت، بدورها، بخصومة أمر بين فريقين هما حزب يهودي

غني يدعو إلى الهَلْيَنَة وحزب يهودي فقير هو ضد الهلينية. والحزب الداعي الى الهلينة كان يرى وجوب السير إلى أبعد مما ذهبت اليه الجماعة اليهودية التي نشأت في الاسكندرية (بمصر) خلال القرن الذي كان فيه جنوب فلسطين تحت حكم البطالسة. فاليهود الذين هاجروا من جنوب فلسطين إلى الاسكندرية كانوا قد اتخذوا اللغة اليونانية لغة تخاطب بدل الآرامية، لكنهم لم يتخلوا عن دين الآباء. واليهود المُتَهَلْينون في جنوب فلسطين الذين كانوا تحت الحكم السلوقي الذي جاء في أعقاب حكم البطالسة، جذبتهم طريقة الحياة الهلينية بكل نواحيها.

بعد تسلم انطيوخوس الرابع العرش سنة ١٧٥ ق.م. تقدم الفريق اليهودي المُتَهَلْيِن في جنوب فلسطين الى الامبراطور السلوقي الجديد يطلب العون منه، وقد لبى طلبهم ودعم قيام دولة الهيكل اليهودية، على الطريقة الهلينية، وسميت انطاكية. ولم يكن هذا العمل استثنائياً. وذلك بأن سياسة الأسرة السلوقية كانت، منذ البدء، تقوم على أساس تبديل تركيب الامبراطورية بحيث تصبح، تدريجاً، اتحاداً لدول ـ مدن هلينية أو مُتَهَلْيِنة، يربط بعضها بالبعض الآخر ولاء مشترك للتاج الامبراطوري. وبعد انكسار الامبراطورية على أيدي الرومان سنة ١٩٠ ق.م. كثفت الامبراطورية سياسة الهَلْيَنَة التقليدية. وقد رأت الحكومة الامبراطورية في الهلينية رباطاً حضارياً قد يكون من شأنه أن يوقف التفسّخ الذي كان يهدّد الأمبراطوريّة السلوقية نتيجة نكبتها الشائنة في حرب كبرى.

كان المتنافسون المتهلينون من اليهود يزايد واحدهم على الآخر للحصول على دعم انطيوخوس الرابع بالرشاوى، التي كان يدفعها المستولي موقتاً على الهيكل وكنوزه من الكهنة المتقدمين. ففي سنة ١٦٩ ق.م. فيما كان انطيوخوس في طريق عودته من حملته الأولى من مصر، نهب هيكل القدس بموافقة من المستولي عليه وقتها. في سنة ١٦٨ ق.م. بعد ما انسحب انطيوخوس من مصر بأمر صدر عن لسان رسول روماني، واجه عصياناً قامت به الاكثرية المضادة للهَلْيَنَة من يهود جنوب فلسطين. كانت هذه الثورة موجهة ضد الأقلية المُهَلْيَنَة من الجماعة اليهودية هناك، إلا أن انطيوخوس اعتبرها عصياناً موجهاً ضده، ولذلك فقد كان رده صارماً. فبنى حصناً في القدس وأقام حامية هناك، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٦٧ ق.م. هَلْيَن العبادة في الهيكل ومنع اليهود في جنوب فلسطين، من إقامة شعائر اليهودية بالطريقة التقليدية. ويبدو أن يهوه أصبح الآن

مقابل زفس الاولمبي، ولعله أقيم له تمثال في الهيكل الذي كان من الممكن أن يكون تمثالاً لانطيوخوس نفسه على أنه « الاله الظاهر » (إيفانوس).

لقد تم هذا كله على يد انطيوخوس بالاتفاق مع اليهود المُتَهَلِّنين في جنوب فلسطين. ولما كان هؤلاء يبدون وكأنهم المسيطرون في جنوب فلسطين، فقد أصيب انطيوخوس بمفاجأة كبيرة لما وجد (١٦٦ ق.م .) أن مقاومة التقليديين من يهود جنوب فلسطين اتخذت شكلاً عسكرياً قوياً بقيادة الأسرة الهشمونية. وقد تغلّب التقليديّون على المُتَهَلِّنين، فاحتلوا القدس، باستثناء الحصن، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٦٤ ق.م. ازالوا الآثار الهلينية من الهيكل. وفي سنة ١٦١ ق.م. عقدت الحكومة الرومانية معاهدة مع الحكم الثوري ضد السلوقيين في جنوب فلسطين واستلمت حامية الحصن السلوقية سنة ١٤١ ق.م.. وفي السنة ذاتها انتزعت بارني (ويشار اليهم عادة، ولو أنه خطأ، باسم الفرثيين)، من الامبراطورية السلوقية ليس ميديا فحسب، بل أيضاً بابل (جنوب العراق) وهو مخزن القوة الاقتصادية للامبراطورية.

في سنة ١٣٩ ق.م. حاول الامبراطور السلوقي ديمتريوس الثاني ان يسترد الأرض التي فقدت، ولكنه فشل. فقد تغلب الفرثيون، وأُخِذ أسيراً. ونحو سنة ١٢٣ ق.م. أرغم أخوه، انطيوخوس السابع سيديس، القدس على التسليم، وحمل الحكومة الهشمونية على الاعتراف بسيادته. وفي سنة ١٣٠ ق.م. أرغم ممثل الأسرة الحاكم، يوحنا هركانوس، أن يرافقه، على رأس فرقة يهودية، في حملة كان يأمل انطيوخوس منها أن يعوض عن فشل أخيه الأسير. وقد استرد انطيوخوس السابع بابل وميديا في سنة ١٣٠ ق.م. إلا أن جيشه، الذي كان قد توزع في مناطق شتوية في ميديا، قضى عليه الفرثيون جماعة بعد الأخرى وقُتل انطيوخوس السابع. إلا أن البارثيين سمحوا ليوحنا هركانوس أن يعود الى جنوب فلسطين على رأس فرقته اليهودية دون أن يمسوا بأذى.

بين سنتي ١٢٩ و ٦٣ ق.م. كان جنوب فلسطين دولة مستقلة تحت سيادة الهشمونيين، وقد افتتحت وضمت بضعة أجزاء من سورية الجنوبية، بما في ذلك أكثر المدن الاغريقية أو المُتَهَلِّنة على الساحل وفي الداخل. وعلى كل حال، ففي ٦٤- ٦٣ ق.م. حرر بومبي المدن المحتلة وفرض سيطرة روما على جنوب فلسطين بالذات.

إن الحركة الوطنية اليهودية كانت، على شاكلة مثيلتها المصرية، موجهة ضد حكومة

امبراطورية اغريقية، وقد توسعت مملكة نوميديا على حساب قرطاجة السياسي. إلا أنه ايسر ان تقلب حكماً سياسياً من أن تقاوم اغراءات مدنية ما. وحتى بعد محو قرطاجة نهائياً، ظلت المدنية السورية، في المدن الليبوفينيقية الباقية على ساحل شمال غرب افريقية، تسير قدماً في نوميديا، وكذلك في جنوب فلسطين، إذ سرعان ما استقر الهشمونيون مكان السلوقيين في جنوب فلسطين، وفي الأقضية المصاقبة في جنوب سورية، حتى خضعوا للهَلْيَنَة شأن مقابليهم في دول وطنية خلفت الامبراطورية السلوقية مثل كوماغن.

كان الهشمونيون قد أصبحوا ملوكاً على اعتبار انهم انصار الصيغة التقليدية من اليهود، ولذلك فإن مجاراتهم اللاحقة للهَلْيَنَة أدت إلى انشقاق بينهم وبين الحاسيديم - ممثلي اليهودية التقليدية الذين كانوا، تحت القيادة الهشمونية، قد شنوا حرباً ضد اليهود المُتَهَلْيِنين وضد الحكومة السلوقية، وهي الحرب التي ربحوها. كان الكتبة يدخلون في عداد الحاسيديم، وهم مفسرو الشريعة، وكان هؤلاء قد حملوا السلاح تدفعهم الى ذلك بواعث متعددة. فبالنسبة اليهم لم يكن احياء الشريعة يعني احياء اليهودية في اطارها التقليدي فقط، بل انه كان يعني ايضاً استعادة مركز الكتبة السابق ومخصصاتهم. إلا أن السلطة قد وصلت لا إلى الكتبة، بل إلى الأسرة الهشمونية - وهم اليهود الذين خلفوا الاغارقة المقدونيين وقد حكموا - كما كان يحكم المقدونيون، على أنهم ملوك مُطْلَقُون. واثناء حكم الملك الهشموني الاسكندر يانوس (١٠٢- ٥/ ٧٦ ق.م .) قامت حرب أهلية بين « المؤسسة » الهشمونية والفريسيين (الانفصاليين) وهو الاسم الذي اصبح يطلق على الحاسيديم اليوم، وقد قُتِلَ منهم ستة آلاف في القدس، داخل اسوار الهيكل، على ايدي حرس الملك الذين كانوا مرتزقة غير يهود.

وحتى البدو السابقون الفرثيون، أو على الأقل حكامهم، الارساسيون، اقتبسوا صباغا من الهلينية إذ أنهم، بعد ما ضموا بابل (جنوب العراق)، نقلوا عاصمتهم الى اكتسفون، وهي الضاحية الواقعة على الضفة الشرقية لمدينة سلوقية الدجلية. وفي المدة الواقعة بين ٢٢١ و ٣٠ ق.م. إذ زالت الدول اليونانية التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى، أتيح للهلينية أن تسجل نصراً لنفسها الى الشرق من فرتية - في الحوضين الأعليين لنهري سيحون وجيحون (بكتريا والصغد) وفي شمال غرب الهند. وهنا، كما حدث في كل مكان آخر، استمر الأثر الحضاري للهلّينية بعد اختفائها سياسياً.

لقد كانت المقاومة العسكرية للاسكندر الكبير اعنف، في بكتريا والصغد، منها في

اي جزء آخر من ممتلكات الامبراطورية الفارسية. ومع ذلك فإن أكثر التكافل ودية بين الايرانيين والاغارقة كان الذي تم هنا في ما بعد. وهذا الاتفاق الاغريقي ـ الايراني المحلي استمر بعد انفصال حاكم الصغد وبكتريا الاغريقي من الامبراطورية السلوقية نحو ٢٥٠ ق.م. (كان هذا التاريخ ذاته تقريباً الذي تم فيه احتلال فرتية على يد بارني البدو). وقد اغرى الاغارقة البكتيريين على ملء الفراغ في المنطقة الواقعة جنوب هندوكوش امور هي: ضعف الحملة الشرقية (٢١٢ـ ٢٠٥ ق.م) التي قادها امبراطور سلوقية انطيوخوس الثالث، وانكساره الكبير على ايدي الرومان الذي عقب ذلك (١٩٠ ق.م) وانحطاط امبراطورية مُوْرِيان بعد موت أشوكا (٢٣٢ ق.م).

ويبدو أن أحد الاميرين البكتريين المسمى ديمتريوس قد احتل بعيد ٢٠٠ ق.م. الأراضي التي كان سلوقس الأول قد منحها لشَنْدر غبتامُوْريا، وهي التي تقع في ما هو اليوم جنوب غرب افغانستان. فقد حكم الملك الاغريقي ميتَانْدَر (نحو ١٦٠ـ ١٣٠ ق.م) في الهند منطقة تمتد جنوباً في الشرق حتى مصبي السند وتَرْبَدا. ولعله في ايام ميانْدَر حدث أن الأغارقة الذين كانوا قد استقروا في الهند وقتاً احتلوا باتاليترا، العاصمة السابقة للاسرة الماوريانية المنقرضة. فقد عثر على نقود لتسعة وثلاثين ملكاً بكتريا وهنديا اغريقيين ولملكتين إغريقيتين. وهي جميلة جمال النقود السيراقوسية التي تعود إلى القرن الخامس ق.م.، والنقود السيراقوسية، والكثير من النقوش عليها غاية في الروعة. ولكن عدد الاغارقة الذين حكموا هذه المنطقة في مدة تقل عن قرنين يؤكد ما ورد عنهم في الدلائل المدونة. لقد كانوا يحكمون اجزاء صغيرة، ودمروا بعضهم البعض بواسطة الحروب بين الإخوان، وهي الرذيلة السياسية الاغريقية التي لا انفكاك منها. فهؤلاء الملوك الأغارقة، البكتريون منهم والهنود، كانوا دوماً يتخاصمون في ما بينهم، على غرار ما كان يجري في المدن ـ الدول الاغريقية قبل ايام فيليب الثاني، وخلفاء الاسكندر. وفي حال الأوائل كانوا يختلفون على اجزاء صغيرة من الأرض على جانبي هندوكوش ولم يحاولوا قط أن ينشئوا جبهة متحدة كي توقف انسياح الشعوب التي هبطت عليها من السهوب الأوراسية.

كانت جارتا بكتريا وفرثية المباشرتين الى الشمال شعبين من السكا (الاسكيثيين): أحدهما كان يسكن في ما يعرف اليوم باسم كازاخستان الى الشرق من بحر قزوين، والآخر في فرغانة، في الحوض الأعلى لنهر سرداريا. وقد كان كلا الشعبين تحت السيادة

الفارسية قبل أن تنحط الامبراطورية الفرسية الأولى وتسقط. ونحو سنة ١٤٠ ق.م. كان الشعبان يضغط عليهما اليو ـ تشيه للاتجاه جنوباً، لأن هؤلاء كانوا يهاجرون جنوباً في غرب ليهربوا امام الهز يونغ ـ نو. وند تغلب الشكا على الاغارقة في بكتريا، لكن فرثيه ـ وكانت قد تقوّت باحتلالها جنوب ارض الرافدين ـ دفعت الشكا من نحو سنة ١٣٨ إلى ١٢٤ ق.م. وحملتهم على تغيير اتجاههم الى حوض نهر الهلمند الأدنى (الذي عرف من وقتها باسم بلاد الشكا، سيستان أو سجستان). ومن هناك دخل السكا وادي السند واحتلوا الامارات الاغريقية في الهند، الواحدة بعد الأخرى. وقد تبعت مجموعة من الفرثيين الشكا على أعقابهم وفرضت حكمها عليهم. وفي الوقت ذاته، نحو سنة ١٠٠ ق.م.، تمكن اليوه ـ تشي من اجتياز نهر اموداريا الى بكتريا وتغلبوا على رعاياهم من السكا، الذين كانوا ند احتلوا بكتريا قبل ذلك. لقد ذكر من قبل أن تشانغ ـ تشين، رسول الامبراطور الصيني هان وو ـ تي، كان قد وجد أن اليوه ـ تشي كانوا قد استقروا في ما وراء النهر نحو سنة ١٢٨ ق.م. وفي سنة ٤٨م اجتازت الجماعة المتغلبة من اليوه ـ تشي، وهم الكوشان، جبال هندوكوش إلى حوض السند وفرضوا سلطانهم على الفرثيين ـ الشكا هناك، وعلى الشكا المستقلين الذين كان الفرثيون ـ الشكا قد اخرجوهم من ديارهم الى الجنوب الشرقي وإلى الجنوب. وهكذا فقد وحد الكوشان بكتريا مع شمال غرب الهند في امبراطورية اتعدت هندوكوش.

ان البارني (الفرثيين) والشكا واليوه ـ تشي (تو خاروي) كانوا جميعاً بدواً رعاة أصلهم من أورامية. وكان البارنى والشكا شعوباً تتكلم الايرانية، الذين كانوا قد احتكوا بالفرس أولاً ثم بالإغريق قبل ان يخرجوا من السهوب الى مناطق يسكنها قوم زراع مستقرون. أما اليوه ـ تشي فقد جاؤوا من أرض قاصية، لم تصل اليها لا مدنية الفرس ولا الاغريق ولا الصين، ولغة اجدادهم، الهندية ـ الأوروبية التوخارية، لم تكن إيرانية. ومع ذلك فهؤلاء الشعوب الثلاثة البدوية المهاجرة قد اقتبست المدنية الهلينيئة التي كانت في المنطقة التي احتلوها، ولم يكن الكوشان وهم فرع من اليوه ـ تشي، أقلهم اقتباساً لها. فالنقود التي سكوها كانت تقليداً لنقود اسلافهم الاغارقة، ان لم تكن هي بذاتها وقد سكت فوق الشعار السابق. وقد خضع الارساسيون والكوشان للهَلْيَنة بنفس الاستعداد الذي بدا على الهشمونيين والرومان.

ان هرمايوس، آخر ملك إغريقي في المنطقة التي هي افغانستان اليوم وزوجة هرمايوس

الملكة كاليوب، ماتا، ولعلّ ذلك تم على أيدي الفرثيين ـ الشكا، نحو سنة ٣٠ ق.م. وهو التاريخ الذي انتحرت فيه آخر ملكة إغريقية لمصر، كليوباترة السابعة. وكان آخر مقاومة حربية إغريقية جادة لروما هو العصيان المقدوني (١٤٩- ١٤٨) وحرب الحلف الإخائي مع رومة في سنة ١٤٦ ق.م.، بعد القضاء على العصيان المقدوني، كانت املا ضائعاً أمام الصعوبات المخيفة. وبعد ذلك جاءت التحديات لرومة، لا على أيدي أية من الحكومات الاغريقية القائمة، بل على أيدي العبيد الأغارقة أو المهليين وعلى أيدي حكام ايرانيين، لا أغارقة، كانوا اسياد الدول التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى.

لقد أضعفت الحروب الأهلية (العائلية) التي قامت بين المتنافسين على العرش، بيت سلوقس بدءاً من سنة ٢٤١ ق.م. وقد كانت الحروب الأهلية أمراً مزمناً في الأملاك السلوقية المتقلصة تدريجاً، وذلك منذ موت الامبراطور انطيوخوس السابع سيد يتس في ميديا، حتى خبا آخر شعاع من الامبراطورية السلوقية سنة ٦٤ ق.م. وترتب على ذلك أن أصبحت سورية ارضاً يتطلع اليها تجار الرقيق. قبل سنة ١٦٨ ق.م. كان اسطول رودس يقوم بدور الشرطي في المشرق، لكن بعد تصفية مملكة مقدونيا، خربت رومة رودس إذ منحت أثينا جزيرة ديلوس، شرط أن تكون ميناء حراً. ولم يعد باستطاعة رودس أن تحتفظ باسطولها، ومن ثم فقد كان القراصنة، لمدة قرن من الزمان، يسيطرون على البحار المشرقية، وكانوا يتخذون من كيليكيا الغربية (الصعبة) ومن كريت مُرتكزاً لهم. وتعاون القراصنة مع رجال الأعمال الايطاليين والسوريين، الذين اتخذوا ديلوس مركزاً لهم، على اختطاف ضحايا الحرب الأهلية في سورية وبيعهم في سوق الرقيق. وكان ذلك يتم في ديلوس، حيث ينقلون الى المزارع الايطالية والصقلية. وكان العبيد يعملون فيها بعدما هيئت الأرضين لاستخدام انجع الوسائل الممكنة لاستغلال هذه البلاد بعد الخراب الذي اصابها اثناء حروب هنيعل.

كان العبيد الذين يقيمون في شبه الجزيرة الايطالية وصقلية يضمون ممثلين عن جميع فئات المجتمع. فأي امرىء من أية فئة كان يمكن ان يقع ضحية الحظ والتغير في حرب اهلية. فبعض الزعماء الذين قادوا العصيان الذي قام به العبيد اخيراً، كانوا رفيعي التهذيب ورجال دربة ادارية. وحتى في سنة ١٩٨ ق.م. كان ثمة عصيان فاشل لعبيد المزارع في ساتيا، وهي مستعمرة لاتينية إلى جنوب شرقي رومة. إلا أن العصيانات التي قام بها عبيد ـ المزارع بدأت وهي في حال عجز. لقد كانوا يعملون جماعات مقيدة

بالسلاسل، وكانوا يسجنون ليلاً. فالبداءة جاءت من العبيد ـ الرعاة. وغيرهم، وقد كان هؤلاء العبيد ـ الرعاة في مراعيهم الصيفية في الجبال المرتفعة بعيدين عن المراقبة إلى درجة كبيرة. لقد كان لدى العبيد ـ الرعاة السلاح وحرية الحركة، وكان عبيد ـ المزارع كثيرين عدداً. فلما حمل الرعاة ـ العبيد السلاح وحرروا عبيد ـ المزارع تمكن العبيد ـ الثائرون من العثور على القادة الاكفياء ومن تجميع جيوش كان باستطاعتها ان تقابل الجنود الرومان على ارض المعركة. وهذا يوضح لنا لماذا نجحت حروب العبيد في صقلية (١٣٥- ١٣٢ و ١٠٤- نحو ١٠٠ ق.م .) ولماذا استطاع العصاة الصمود هذه المدة.

وفي سنة ١٣٥ ق.م. وهي السنة التي بدأت فيها حرب العبيد الأولى في صقلية، كان ثمة عصيان للعبيد في ديلوس وفي اتيكا. ليس ثمة ما يدل على ان ثورات العبيد المتلازمة زمنا والتي قامت في بقاع مختلفة من عالم البحر المتوسط كانت نتيجة عمل مشترك منظم، أو أن انباء الواحدة منها كانت المثيرة لغيرها، إلا أنه من المحتمل ان تلازمها الزمني لم يكن كله مصادفة. كانت ديلوس، في سنة ١٣٥ ق.م.، مرتبطة سياسياً باثينا، وتجارياً كان ارتباطها بصقلية وايطالية. وفي سنة ١٣٢ ق.م. حمل ارسطونيكوس، وهو مدع لعرش برغامون، السلاح في أرض المملكة السابقة، التي كان آخر ملوك اسرة برغامون قد اوصى بها للشعب الروماني (١٣٣ ق.م .) وكانت الحكومة الرومانية قد جعلت من المملكة ولاية اسيوية، ولزّمت جمع الضرائب في الولاية لرجال اعمال رومانيين. وقد استنجد ارسطونيكوس بالعبيد، واعلن انشاء « دولة الشمس ». لقد عبر ذلك عن الرأي الذي كان يثير زعماء عصيان العبيد في صقلية. فالشمس هي التجسيد الالهي للعدل. 'نها تعطي الضوء والدفء للعبيد والاحرار والفقراء والاغنياء على السواء. و « المؤسسة » الرومانية كانت تمثل الاغنياء ومالكي ـ العبيد وتجار العبيد. وكان الثوار يحاولون لا اقامة دولة بديلة للدولة الرومانية فقط، بل مجتمع بديل للمجتمع الهلّيني، الذي كان يومها يعامل عماله بوحشية. وقد كان هذا ايضاً هدف المجالد التراقي سبارتاكوس الذي هرب من السجن، وجمع جيشاً من العبيد وسيطر على الريف الايطالي من ٧٣ إلى ٧١ ق.م.

كان الحاكم الايراني الأول الذي تحدى رومة هو متراديتس السادس حاكم كابادوكيا البونطية في شمال شرق آسية الصغرى. ففي سنة ٨٨ ق.م. استولى متراديتس على ولاية آسية الرومانية واحتل ديلوس واستأثر بدعم أثينا، وجعل من نفسه محررا للأغارقة من

التجبر الروماني، وقد كان ثمة مجزرة لملتزمي الضرائب الايطاليين وغيرهم من رجال الأعمال الايطاليين في الأراضي المحررة. وفي سنة ٨٨- ٨٩ ق.م. تقدم جيش متراديتس في بلاد اليونان الى الحد الذي وصل اليه جيش اكزوكسيس في ٤٨٠- ٤٧٩ ق.م.. وكما غُلِبَ اكزوكسيس غلب متراديتس، واضطر الى عقد الصلح سنة ٨٥ ق.م. إلا أنه حمل السلاح مرتين ضد رومة قبل وفاته سنة ٦٣ ق.م.

كان تحدي متراديتس الفاشل لرومة أقوى من أي تحدّ آخر جابهه الرومان منذ العصيان المقدوني الفاشل في ١٤٩- ١٤٨ ق.م.. وكان ثمة دولة ايرانية أخرى، هي فرثية، التي انزلت برومة، في كاري (حرّان) في ما بين النهرين سنة ٥٣ ق.م. اكبر انكسار حربي منذ انتصار هنيبعل في كاني سنة ٢١٦ ق.م. لقد كانت ارض المعركة في كاري سهلا. والمسافة التي تفصل ارض المعركة في كاري عن اقرب ميناء على البحر المتوسط سببت مشاكل فنية كبيرة للجيش الروماني الذي توغل مسافة شاسعة داخل القارة، وقد قللت الأرض هناك قدرة الاعداد والعدة والفن العسكري لمشاة الرومان في التغلب. وقد وجد كراسوس نفسه في كاري عاجزاً امام قوة دونه عدداً من الرماة الفرثيين تدعمها قافلة من الابل تحمل كمية هائلة من السهام. لقد محي جيش كراسوس باكمله.

كان هذا أول انهزام ساحق اصاب الرومان. ان لقرطاجيين والدول الإغريقية والعصاة العبيد ومتراديتس ـ جميع هؤلاء خضعوا في النهاية، كل بدوره. لكن اشد اعداء الرومان عليهم، واكثر الضحايا البائسين في الفترة التي تلت عصر هنيبعل لم يكونوا الفرثيين، لقد كانوا الرومان انفسهم.

إن حروب الرومان في فترة ما بعد هنيبعل ضد دول الأغارقة المشارقة كانت قصيرة، وتمكنت رومة من ضبط خصومها دون ان تلزم نفسها حالاً بأي أمر حربي أو سياسي دائم. وفي الجهة الثانية فقد اورثت حروب هنيبعل رومة التزامات مباشرة في ايطالية القارية الى الشمال من جبال إبنين وفي اسبانية فيما وراء البحار. وقد كانت الخدمة العسكرية الطويلة، بالنسبة إلى الجنود ـ الفلاحين الرومان في تلك الانحاء النائية مؤذية اقتصادياً، كما كانت الخدمة العسكرية على طول السور الكبير وما وراءه بالنسبة إلى الطبقات المقابلة والمعاصرة لهم في الصين. كما كانت، بالمقارنة، فرصة افاد منها الطامعون في امتلاك الأرض من الرومان، على نحو ما حدث في الصين. فإن آخر القبائل المستقلة في حوض البو لم يُقْضَ عليهم حتى سنة ٢٥ ق.م.، ولم يتم اخضاع مماثليهم

في اسبانية الا في سنة ١٩ ق.م.. وفي هاتين السنتين كانت حدود الامبراطورية الرومانية الحربية قد امتدت في اوروبة الغربية القارية الى نهر الراين، وفي آسية القارية الى نهر الفرات. اما في اوروبة الشرقية، حيث حُمِلَت رومة بسبب العصيان المقدوني القوي (١٤٩- ١٤٨ ق.م .)، على ان تضم مقدونيا حالاً، وعلى ان تتولى بنفسها الدفاع عن الحد الشمالي لمقدونيا، فإن الحد الروماني المحلي، الذي تمّ إنشاؤه، وصل إلى نهر الدانوب سنة ٢٧ ق.م..

وفي الوقت ذاته فإن الدمار الذي اصاب جنوب شرق ايطالية وصقلية، اثناء حرب هنيبعل، والسياسة التي تلت ذلك والتي اتبعتها « المؤسسة » الرومانية في تخريب ما تبقى من عالم البحر المتوسط، ثم ترك هذا العالم في حال يرثى لها من الدمار، اتاحت الفرصة لاستغلال على مقياس كبير. وهذه الفرصة ترتَّب عليها قيام طبقة اجتماعية جديدة من المتنفّعين وذلك في اطار الجسم السياسي الروماني. وقد تمكن رجال الأعمال الرومان من جمع رأس مال نقدي، وذلك في الوقت الذي كانت فيه رومة تحتل شبه الجزيرة الايطالية وتوحدّها، على غرار ما حدث في الصين اثناء عصر الدول المتحاربة. ورجال الأعمال هؤلاء، مع اصحاب الاملاك من « المؤسسة » الرومانية، كانوا يملكون، في ما بينهم، حصة الأسد من ثروة الجماعة الرومانية. وكانت غالبية المواطنين الرومان فقيرة، وكذلك كانت الدولة الرومانية.

في سنة ٢١٥ ق.م. وهي السنة الرابعة من حرب هنيبعل، افلست الخزينة الرومانية. لكن المتعهدين الذين كانوا يزودون الجيوش الرومانية، في ايطالية وفي ما وراء البحار، بالمواد الغذائية والثياب والسلاح تعهدوا بأن يستمروا بتقديم هذه المواد التي لا غنى عنها، دَيْنا طيلة مدة الحرب. وقد تبين أنهم يملكون من رأس المال السائل ما مكنهم من القيام بذلك من ٢١٥ إلى ٢٠١ ق.م. يضاف إلى ذلك أنه في سنة ٢٠٥ ق.م. تقدم عدد من المدن - الدول في المنطقة التي ظلت عامرة في شمال غرب شبه الجزيرة الإيطالية - وبعضها كانت مستعمرات بلدية رومانية والبعض الآخر كانت حلفاء رومة - بهدايا ثمينة، طوعا، إلى رجال الحملة التي كان شيبيو يجمعها لهجومه على إفريقية القرطاجيّة. وفي السنة ذاتها تقدّمت الخزينة الرومانية المفلسة ببيع قطع من الأرض التي انتزعتها من المستعمرات البلدية الرومانية في كامبانيا - وهي التي كانت قد انفصلت عن رومة في ٢١٥ ق.م. ثم أُخضِعَت من

جديد سنة ٢١١ ق.م. - وقد تقدم المشترون من بين اولئك الذين كان باستطاعتهم ان يدفعوا الثمن نقداً.

اصبحت الحكومة الرومانية، اعتباراً من ٢١٥ ق.م. تحت رحمة المُدينين الرومان، فكان عليها ان تمنحهم شروطاً تتيح لهم فرصاً ذهبية للغش. وعندما كان يبدو غشهم فاضحاً كانت السلطات العامة تحاكم المتعهدين المحتالين بشيء كثير من التردد، إذ كانت هذه السلطات تخشى أن يلجأ المجرمون إلى قطع الأزواد، ومثل هذا العمل يضع رومة في مأزق، إذ قد يعني انكساراً حربياً سريعاً. وفي سنة ٢٠٤ وسنة ٢٠٢ ق.م. قبل ان تنتهي الحرب، كان على الخزينة ان تبدأ بتسديد ديونها أقساطاً. وفي سنة ٢٠٠ ق.م. كان عليها ان تدفع القسط الأخير، ففعلت ذلك على انفع طريقة للمُدينين، اذ عرضت الدفع بشكل اراض عامة تقع ضمن نصف قطر لا يتجاوز الخمسين ميلاً من رومة، وهي منطقة كان لا بد فيها لاسعار الأرض من الارتفاع. وفضلاً عن انها دفعت الأرصدة على شروط غير ملائمة، فإن الخزينة كانت قد موّلت نفقات حرب هنيبعل بأن فرضت جزية سنوية على الأفراد من دافعي الضرائب، وكان استفيدون من ذلك خمسة وعشرين ونصفاً من كل أربعة وثلاثين شخصاً. وقد تمكنت الخزينة من ذلك بسبب الأموال التي نالتها الخزينة من حصة الحكومة من الاسلاب التي حملتها إلى رومة الحملة الرومانية التي نهبت آسية الصغرى في سنة ١٨٨ ق.م..

لم تكن حصة الحكومة من الاسلاب التي حملتها الجيوش الرومانية الى رومة المصدر الوحيد الذي يسّر للخزينة الرومانية ان تزيد في اموالها بين سنتي ١٠١ و ١٦٨ ق.م.. فقد كان هناك تعويضات الحرب - على سبيل المثال تلك التي فرضت على قرطاجة في سنة ٢٠١ ق.م. وعلى الامبراطورية السلوقية سنة ١٩٠ ق.م. - وكان هناك املاك هي رأس مال منتج للضرائب: ومثال ذلك الأرض التي انتُزعَت من الجماعات التي انفصلت ثم أُخضِعَت من جديد في جنوب شرق ايطالية وكل الأراضي التي كانت تخص قرطاجة وكورنت والمناجم والغابات في مقدونيا التي كانت املاك التاج والمناجم الاسبانية التي كانت ملكا لحكومة قرطاجة أو للجماعات الاسبانية الوطنية التي كانت قد قُهِرَت وأُحتُلَّت بلادُها. فبعد احتلال مقدونيا في سنة ١٦٨ ق.م. أُلغِيَت الضرائب المباشرة على المواطنين الرومان المقيمين في إيطالية أو في الجماعات الرومانية البلدية خارج إيطالية التي كانت قد منحت وضعاً مالياً إيطالياً.

وهكذا فإنه بدءاً من سنة ٢١٥ ق.م. كانت الاقلية من المواطنين الرومان تزداد ثراء، فيما كانت الاكثرية الفقيرة تزداد فقراً. واثرياء الحرب من رجال الأعمال لم يكونوا منتجين. لم يكن هؤلاء من رجال الصناعة، ولم يكونوا حتى تجاراً في ما عدا تزويد الجيش، وفي الرقيق. لقد جمعوا ثروتهم من التزامهم للرسوم الجمركية وللضرائب التي كان يدفعها رعايا رومة في الولايات. ومن ثمّ فإن اعضاء « المؤسسة » الذين كانوا يحتكرون تولي الوظائف العامة، والذين كان يتوجب عليهم ان يحموا رعايا رومة بحيث لا يسلخ ملتزمو الضرائب الرومان جلودهم، كانوا يعنون بأن يؤمنوا لأنفسهم مكاسب غير مشروعة. وكانوا يفعلون ذلك إما جزئياً عن طريق الاستثمار في مصالح التزام الضرائب خفية، وإما، غالباً، عن طريق استئجار الأراضي أو شرائها في الممتلكات الرومانية التي كانت تتوسع باستمرار في ايطالية. وكان هذا مجزياً.

ففي جنوب شرق إيطالية كانت مساحات شاسعة من الأرض أصبحت املاكاً رومانية. وفي الوقت ذاته كانت الاملاك الرومانية العامة تزداد اتساعاً نتيجة انتزاع الأرض من الدول الإيطالية، تلك الدول التي كانت قد انفصلت اثناء حرب هنيبعل. كما أن الأرض التي كانت ملكاً خاصاً في الممتلكات الرومانيّة كانت تطرح في السوق بسبب إفلاس الفلاحين المالكين للأرض الذين توجب عليهم القيام بالخدمة العسكرية لسنوات متوالية على الجبهات النائية. فكان ثمة مجال للحصول على ارباح طائلة من استئجار الأراضي العامة أو من ابتياع املاك الفلاحين ـ الجنود المفلسين.

إن جزءاً كبيراً من مساحة شبه الجزيرة الايطالية باجمعها يتكون من مرتفعات وعرة لا خير فيها من الناحية الزراعية، لكنها تصلح مراعي صيفيّة قيّمة للأغنام والأبقار إذا امكن العثور على مراع شتويّة في المنخفضات لتتمم عملها، وإذا كان ثمة حق مرور مضمون لتنقّل الحيوانات مرتين في السنة. ومنذ أن تمّ توحيد شبه الجزيرة الايطالية سياسياً في سنة ٢٦٤ ق.م. أصبح من الممكن أن تُطَوَّر طاقة البلاد الرعائية على مقياس واسع. وانتزاع الأراضي بكميات كبيرة وبيع الأرض في الممتلكات الرومانيّة في إيطالية بعد حروب هنيبعل جعل هذا التطوير الاقتصادي المجزي أمراً عملياً لفئة قليلة من المواطنين الرومان التي كانت تملك من المال ما يكفي لاستئجار الأراضي العامة ولشراء الأراضي الخاصة والحيوانات. وقد كانت الاحياء البشرية، على شكل الرعاة ـ العبيد، امراً ضرورياً مثل الحيوانات كي تدر الأرض الأرباح من صناعة الرعي. ومستأجرو الأرض في المناطق

المنخفضة أو مشتروها كان لهم ان يختاروا احد سبيلين لاستعمالها: اما ان يغرسوا فيها الكرم والزيتون، أو ان يحولوا الأرض الصالحة للزراعة مراعي شتوية. وقد كانت ثمة سوق جد مربحة للزيت والخمر في مدينة رومة وفي غيرها من المدن الأيطاليّة، وكذلك في المناطق الأوروبية الواقعة شمالي إيطالية، حيث كان انتاج الزيت والخمر غير ممكن اما بسبب الجو المحلي واما بسبب المنع الذي كانت تفرضه الحكومة الرومانية في الممتلكات التي كانت تقع تحت سلطة رومة. إلا أنه في الفترة الممتدة من ٢٢١ إلى ٣١ ق.م. كانت كروم العنب وبساتين الزيتون، مثل الحيوانات، تعطي ارباحاً فقط في حال قيام العمال ـ العبيد على خدمتها.

حقيقة لقد كان العمل الذي يقوم به العبيد باهظ الثمن نسبياً. ان العبيد كان يجب ان يُبْتَاعوا، ثم كان لا بد من اطعامهم وابوائهم على مدار السنة، والعبد الذي استُنْزِفَت قواه، والذي لم يكن صالحاً للبيع كان عبئاً ثقيلاً على المزراع أو صاحب الحيوانات؛ بينما كان باستطاعته ان يستخدم عمالاً احراراً موقتين في مواسم العمل، دون ان يتحمل مسؤولية دائمة نحو المستخدمين الموقتين. إلا أنّ الاحتفاظ بالعمال العبيد بصورة دائمة كان له مبرر حاسم للأمر. ان عمل العبد كان بجملته تحت تصرف سيده ما دام العبد قادراً على العمل؛ والحرّ المستأجر قد تجنده الحكومة للخدمة العسكرية في اي وقت، ويحتفظ به، كما لو كان عبداً عاماً تماماً، لسنوات متوالية. ولم يكن لمستأجره الخاص أية ضمانة ضد هذه المجازفة.

وترتب على هذا انه، بدءاً من انتهاء حرب هنيبعل، أخذ الاقتصاد الريفي وسكان شبه الجزيرة الايطالية كلاهما طريقهما نحو تبدّل ثوري. فالأراضي الصغيرة الممتلكة حرة، والتي كان يملكها الفلاّحون الأحرار والتي كانت تنتج الحبوب لتغذية الملاكين، تحوّلت تدريجاً إلى مزارع واسعة، مؤلفة من مراع صيفية وشتوية متصلة ببعضها البعض. وفي المناطق المنخفضة أصبحت الأراضي الحرة الصغيرة أيضاً كروماً وبساتين زيتون، وهاتان الوسيلتان الجديدتان لاستثمار الأرض كانتا كلتاهما تعتمدان على عمل العبيد. ولم يبلغ هذا التبدل غايته ابداً. فقد ظلت الأراضي المملوكة حرة قائمة باعداد كبيرة، ولم تكن كل الحبوب اللازمة لاطعام سكان رومة يُتَزَوَّد بها من الحبوب التي كانت تشحن من صقلية وسردينية على انها ضريبة. ومع ذلك فلم تحلّ سنة ١٣٥ ق.م. وهي السنة التي اندلعت فيها حرب العبيد الأولى الصقلية، حتى كانت الثورة الاقتصادية والديموغرافية

(البشرية) قد قطعت شوطاً كبيراً بحيث انها احدثت نقصاً في القوى البشرية التي كانت خاضعة قانوناً للتجنيد الاجباري.

إنّ أعضاء « المؤسسة » الرومانية كانوا لا مبالين في موقفهم من الظلم الفاحش والقسوة اللتين تتمثلان في نظام الرق، ومن الفقر الذي شمل الأكثرية العاجزة سياسياً من رفاق الاوليغاركيين من المواطنين. لكنهم كانوا يخشون من ازدياد الصعوبة في جمع الجيوش التي لها من القوة ما يمكنها ان تلبي التزامات رومة العسكرية المتزايدة. كما أنهم أخذوا يدركون ان المجندين المتردّدين يكونون جنوداً ضعيفين. وفي سنة ١٣٣ ق.م. بلغ هذا الاهتمام بالحفاظ على فعالية رومة العسكرية، ولعله كان أكثر من الاهتمام بالعدل الاجتماعي للاحرار الذين كانوا مواطنين (رومانا)، حداً حمل أحد أعضاء « المؤسسة » الرومانية، وهو طيباريوس سمبرونيوس غراخوس، على ان يقترح قانوناً نجح في اقراره ومهد بذلك الطريق لثورة في الكيان السياسي الروماني. لقد حدد قانون غراخوس مساحة الأرض التي يجوز للمواطن ان يملكها، وان يوزع ما تبقى من الأرض قطعاً بحيث تكون مساحة القطعة محدودة وان يكون الذين يمتلكونها خاضعين للتجنيد الاجباري. وقد أثار هذا القانون عاصفة في الطرف الغربي للعالم القديم للأويكومين ظلت تهب مدمّرة لمدة مئة من السنين ـ وهو القرن الذي كان الطرف الشرقي للعالم القديم للأويكومين اثناءه تعصف به الحروب المستمرة بين الامبراطورية الصينية والهزيونغ ـ نو.

دفع غراخوس حياته ثمناً لقانونه في سنة ١٣٣ ق.م. (قتله رفاقه الارستقراطيون). ثم دفع أخوه غايوس حياته ثمناً للقانون في سنة ١٢١ ق.م. وقد أثار هذا القانون نقمة لا في « المؤسسة » الرومانية وحدها، ولكن أيضاً بين المواطنين في الدول التي كانت قد انفصلت قبلاً، إذ أن كثيرين منهم كانوا لا يزالون يقيمون، دون أن يزعجهم أحد، في جزء من الأرض التي كانت قد انتزعتها رومة من دولهم. وفي سنة ١١١ ق.م. كانت كل الأراضي الرومانية العامة التي امكن استعادة ملكيتها قد اعيد توزيعها، ولم يؤد ذلك إلى حل لأي من المشكلتين اللتين كانتا الباعث على التشريع الغراخي، فلا المشكلة العسكرية ولا المشكلة الاجتماعية حلتا. واعتباراً من سنة ١٠٨ ق.م. بدأ حل المشكلة بشقيها ولكن على أساليب كانت بطبيعتها مضادّة لبقاء الحكومة الدستورية في الكيان السياسي الروماني.

في سنة ١٠٧ ق.م. انتخب غايوس ماريوس، الذي لم يكن من « المؤسسة »

الوراثية، قنصلاً (فقد كان القنصلان اللذان ينتخبان سنوياً، هما اعلى الموظفين العامين في الدولة الرومانية). وقد جمع ماريوس جيشاً خاصاً، وذلك عن طريق تجديد لا دستوري سمح بموجبه للمواطنين الرومان الفقراء أن يلتحقوا بالجندية، وتقبل هؤلاء الخدمة برغبة. لم يكونوا يخسرون شيئاً، وكان من الممكن أن يكسبوا الكثير. إذ أنه كان بينهم وبين ماريوس اتفاق ضمني بأنه لن يسرحهم دون أن يؤمن لهم حاجتهم، وانهم يتعاونون معه لرمي ثقلهم كقوة عسكرية نظامية للضغط سياسياً على « المؤسسة » الرومانية لفرض شروط تُرضي مطالب الجند وتحقّق مطامع قائدهم. لقد كان ماريوس أول الثوار من سادة الحرب في رومة. وبدءاً من سنة ١٠٨ ق.م. كانت رومة في الواقع يحكمها سادة الحرب - ولم يكن ذلك بصراحة، باستثناء يوليوس قيصر الذي حكم حكماً ملكياً بشكل واضح، ولذلك وضع حد له بسرعة وبعنف.

وأشكال الحكم الروماني اللادستورية والاوتوقراطية والعسكرية لم يحاول أحد سترها بغشاء شفاف من الشرعية المستعادة حتى بعد ٣١ ق.م.. فإلى قبل ذلك التاريخ كلّف النظام (أو على الأصّح انعدام النظام) سكان ايطالية جولتين من الحرب الأهلية - الأولى من ٩٠ إلى ٨٠ ق.م. والثانية من ٤٩- ٣١ ق.م.. ومن سخرية القدر أن أبرز مظهر للثورة الرومانية هو أنه في المدة الواقعة بين مقتل طيباريوس غراخوس سنة ١٣٣ ق.م. إلى انتحار مرقس انطونيوس سنة ٣٠ ق.م. كانت صواعق جوبيتر تنزل الواحدة بعد الأخرى من أعلى الاشجار في غابة كانت اشجارها في تناقص مستمر. فقد كانت اهداف جوبيتر اللاعبين على مسرح القوى الروماني: الأخوان غراخوس وسّنا وسرتوريوس وكتلين وبومبي وكراسوس ويوليوس قيصر وسكتوس بوميوس ومرقس انطونيوس - وجميع هؤلاء اللاعبين، الذين استمتعوا بهذه اللعبة القتالة، قُتِلوا بعنف. وقد نجا ماريوس من مثل هذا المصير بعد ان ابتلي بتقلب الظروف بؤساً ونعمة. وكان ثمة اثنان آخران من سادة الحرب ماتا في فراشهما. والأول من هؤلاء هو (لوسيوس كورنيليوس) سُلاّ، الذي كان اشدهم هولا، لكنه كان ثعلباً في السياسة. والثاني كان امهرهم جميعاً، هو (غايوس يوليوس قيصر) أوكتافيان أغسطوس، وهو ابن اخت ليوليوس قيصر، لكن قيصر كان قد تبنّاه.

قضى أوكتافيان نحبه في فراشه. وقد كان يستحق ذلك. كان قد نجح في وقف الثورة الرومانية التي استمرت مئة سنة. ولكن ذلك لم يتم قبل أن سارت سلسلة من

رجال الحكم الرومان اليائسين المكسورين على درب الثورة الذي كان قد سبقهم عليه زعماء البروليتاريا المنسيون. فماريوس نفسه ورفيقاه سِنّا وسرتوريوس هما النظيران الرومانيان للأمير البرغامي ارسطونيكوس الداعي إلى المساواة، ولأونوس وسلفيوس الملكين الرقيقين الصقليين. وسكتوس بومبيوس، وهو ابن بومبي، اتفق مع القراصنة على عمل مشترك، وهم الذين كان ابوه، بومبي المقتول، قد طاردهم وقضى عليهم.

كانت الثورة الرومانية انتقام هنيبعل المتأخر من رومة. ولكن اذ وقع قميص نيوسوس القرطاجي على الدولة الرومانية النخرة ـ وهي المناظر الغربي لدولة تشين ـ فإنه لفّ عالم البحر المتوسط المعذب بكامله.

٣٧ـ الامبراطوريات الصينية والكوشانية والفرثية والرومانية

٣١ ق.م ـ ٢٢٠ م

منذ سنة ٤٨م وحتى بعد بدء القرن الثالث للميلاد كادت الرقعة بكاملها، التي كانت تقوم فيها مدنيات اقليمية من اويكومين العالم القديم،ان تتجمع سياسياً في أربع امبراطوريات، امتدت أملاكها في منطقة مستمرة عبر القارة من ساحلها الهادي الى ساحلها الأطلسي.

ومعنى هذا انه في هذه الحقبة من تاريخ العلم كان التوحيد السياسي، على مثل هذا المقياس الجبار، هو القاعدة العامة. إلا انه كان ثمة استثناء بارز في هذه القاعدة العامة وذلك في شبه القارة الهندية. فإقامة امبراطورية كوشان سنة ٤٨م أدى الى توحيد شمال غرب الهند، كما انه وحدّ هذا الجزء من الهند مع بكتريا سياسياً. وقد كان هذا تبدلاً كبيراً من حالة الفوضى السياسية التي كانت تنتاب الهند منذ السنوات المبكرة للقرن الثاني ق.م.. إلا أن الهند، في القرن الأول للميلاد، كانت لا تزال مصابة بتصدع سياسي، إذا قورنت بالهند كما كانت في القرن الثالث قبل الميلاد. فقد كانت يومها شبه القارة الهندية بكاملها، باستثناء طرفها الجنوبي، تحت حكم أسرة ماوريان.

ففي القرن الأول للميلاد كان قلب امبراطورية ماوريان القديمة، وهو في ولايتي بيهار وأوتار برداش الهنديتين اليوم، كانت تحكمه أسرة شُنغا، التي جاءت في أعقاب الموريان في سنة ١٨٣ ق.م. وأصبحت عاصمة الموريان السابقة بتاليبترا، عاصمة السنغا. ومع ان ملكاً اغريقياً كان قد احتل بتاليبترا في وقت ما في القرن الثاني ق.م.، فإن امبراطورية كوشان لم تمتد الى هناك في اتجاهها الجنوبي الشرقي. يضاف الى ذلك أن القسم الأكبر

من املاك الموريان في الدكن كانت في هذه الفترة تحت حكم أسرة خليفة ثانية معروفة باسم اندرا (اوستافاها) (من نحو ٢٣٠ ق.م. - ٢٢٤ م) وكانت لها القدرة نفسها التي كانت للسنغا. وكان طرف شبه القارة، كما كان من قبل، مقسوماً سياسياً بين عدد من الدول الصغرى. فبين نحو ٤٠م ونحو ١٥٠م كان السكا (السكيثيون) الذين كان الفرتو - سكيون قد طردوهم جنوباً في شرق من حوض نهر السند، يثبتون كيانهم في أجين. وكانوا يثبتون في مهاراشترا وجودهم على حساب الاندرا. وأمارتا السكافي اوجين ومهاراشترا كانتا ولايتين تتمتعان باستقلال ذاتي في امبراطورية كوشان، ولكن معظم شبه القارة كان لا يزال خارج إطار امبراطورية كوشان.

وكان ثمة جزء آخر من أويكومين العالم القديم الذي لم تضمه اي من الامبراطوريات الأربع،وهو حوض النيل الأعلى. لقد ذكرنا قبلاً أن الحدود الجنوبية لمصر الفرعونية كانت وصلت جنوباً الى نقطة على النيل فوق الشلال الثاني وذلك في عصر المملكة المتوسطة. وقد وصلت الى نبتا تحت الشلال الرابع مباشرة في عصر المملكة الحديثة. ولما انهارت المملكة الحديثة في القرن الحادي عشر ق.م. أصبحت نَبَتا عاصمة لواحدة من الدول الخليفة (كوش)، وهذه الدولة ذاتها، استمر وجودها بعد ان فشلت في توحيد عالم مصر سياسياً وذلك بضم مصر بالذات الى حكم المملكة الكوشية. وفي وقت لا نعرفه توسعت مملكة كوش صعداً مع وادي النيل في ما وراء نَبَتَا الى ميرو على ضفة النيل اليمنى، بين التقاء النيل بعطبرة والشلال السادس. وقد نُقِلَت العاصمة من نبتا الى ميرو. ولعل ذلك تم في القرن السادس قبل الميلاد.

كانت ميرو تفضل على نبتا في أمور ثلاثة. كانت ميرو تتمتع بزخات من المطر، في ما كانت نبتا تعتمد على الري كلية. وكان ثمة مناجم حديد غنية في ميرو، الأمر الذي أدى الى قيام صناعة معدنية. والأمر الثالث هو أن الدولة التي تكون عاصمتها ميرو تتصل بالمنطقة التي يمكن اجتيازها وسكناها (التي خرّبها الجفاف سنة ١٩٧٣ م)، الممتدة غرباً بين الصحراء شمالاً ومنطقة الغابات المدارية الماطرة، من ضفة النيل الأبيض الغربية الى سواحل افريقية الأطلسية.

ومع أن مملكة كوش لم تتمكن من احتواء مصر، فانها نجحت في الحفاظ على استقلالها عن الامبراطورية الفارسية الأولى وامبراطورية البطالسة والامبراطورية الرومانية

على التوالي. ويبدو ان مملكة كوش قضى عليها برابرة افريقيون هم النوبا (النوبيون) في القرن الثالث للميلاد.

وفي الوقت ذاته يبدو ان الطرف الشمالي للهضبة الحبشية كان قد قدمها، في زمنٍ مبكر من القرن السابع ق.م.، قوم مهاجرون من اليمن (الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية)، وقد ظلت اليمن ومستعمرتها في افريقية خارج حدود الامبراطوريات الأربع.

وهكذا فإن الامبراطوريات الأربع لم تضم الجزء المتمدن من اويكومين العالم القديم بكامله؛ ومع ذلك فقد شملت في ما بينها على جزء كبير هام منه.

كانت العلاقات السياسية بين الواحدة والأخرى من هذه الامبراطوريات يتحكم فيها، في الغالب، التضاريس التي تبدو في الخارطة السياسية. فالامبراطوريتان الرومانية والفرثية لم يكن بينهما وبين الامبراطورية الصينية حدود مشتركة. وامبراطورية كوشان لم يكن لها حدود مع الامبراطورية الرومانية. ولما كانت الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية تقع كل منهما في طرف من الطرفين الأبعدين للقارة، فقد كانت الصلات المباشرة بينهما قليلة. الواقع ان سكان كل من هاتين الامبراطوريتين البعيدتين كانوا يعون وجود الجماعة الأخرى على نحو ضئيل جداً. ومن الجهة الثانية كانت كل من امبراطورية كوشان والامبراطورية الفرثية على اتصال مباشر، نسبياً، بالامبراطوريات الثلاث الأخرى، بما في ذلك الامبراطورية البعيدة التي لم تكن جارهما المباشر. فقد كانت هاتان هما الدولتان المركزيتان، وكان رجال الاعمال فيما هم الوسطاء في التجارة غير المباشرة عبر القارة بين الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية. والامبراطورية الرومانية وامبراطورية كوشان كانت بينهما صلات تجارية وحضارية دون ان تنشب بينهما حرب قط. وقد كانت العلاقات بين الامبراطورية الصينية والامبراطورية الفرثية ودية أيضاً. ومن الجهة الثانية كانت ثمة حروب بين الرومان والفرثيين وبين الفرثيين والكوشان وبين الكوشان والصينيين. ولكن هذه الحروب لم تكن مزمنة ولا كانت مدمرة، كما انها لم تؤدّ الى تبديل رئيس دائم في الخارطة السياسية.

إن احتلال أسرة الهان الغربية المتقطع لفرغانة بين ١٠٢ و ٤٠ ق.م. أعيد على أيدي أسرة الهان الشرقية بين ٧٣ و ١٠٢ للميلاد. وفي القرن الثاني للميلاد كانت فرغانة وحوض تاريم مناطق متنازع عليها بين امبراطورية الصين وامبراطورية كوشان. وكانت

سجستان منطقة متنازع عليها بين امبراطورية الصين والامبراطورية الفرثية، وارمينية بين الامبراطورية الفرثية والامبراطورية الرومانية. وقد رتبت الأمور بين سنتي ٦٣ و ٦٦ بأن اعتُبِر تاج ارمينية كسبا اضافيا للأسرة الارساسية الفرثية، لكن اشتُرِطَ ان الارساسي الراغب في تاج أرمينية يتوجب عليه أن يثبت حقه بزيارة لروما حيث ينعم عليه الامبراطور الروماني بالمنصب.

ومنذ ان جعل بومبي من سورية ولاية رومانية، سنة ٦٤ ق.م.، لم تحدث تبديلات دائمة في الحدود بين الامبراطورية الفرثية والامبراطورية الرومانية، اذ اتخذت الحدود خطا على مجرى نهر الفرات وانحناءته الغربية. لقد هاجم الفرثيون سورية، لكنهم لم ينجحوا في ان يقيموا لهم كياناً دائماً هناك، بعد انتصارهم الكبير على جيش كراسّوس في كاري سنة ٥٣ ق.م.. وفي سنة ٣٦ ثم في ٣٤- ٣٣ ق.م. هاجم مرقس انطونيوس المنطقة الواقعة شرق الفرات في اتجاه شمال شرقي حتى شمال ميديا (أذربيجان)؛ وفي ١١٤- ١١٧م حاول الامبراطور تراجان ان يضم ارمينية والجزيرة الفراتية وجنوب ارض الرافدين الى الامبراطورية الرومانية. وانتهت محاولة كل من هذين المغامرين الرومانيين بالفشل الذريع. وأعاد هدريان، خليفة تراجان، وذلك سنة ١١٧م حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية الى خط نهر الفرات، لكنه احتفظ للامبراطورية الرومانية بمدخل الخليج العربي وهو الذي كان تراجان قد احتله مؤقتا. وقد منح هدريان الدولة - الواحة بالميرا (تدمر) حكماً ذاتياً وشجع التدمريين على إنشاء مراكز تجارية على أطراف الامبراطورية الفرثية الجنوبية الغربية، على أن لا تكون هذه المراكز بادية بشكل واضح. والتوسع الوحيد الى الشرق من نهر الفرات تحت حكم روماني مباشر كان الاستيلاء على الجزء الشمالي الغربي من بلاد الجزيرة بين سنتي ١٩٤ و ١٩٩م.

كانت ثمة ثلاثة طرق تربط الامبراطوريات الأربع ببعضها البعض. إلا ان المسافرين على هذه الطرق، سواء أكانوا جيوشاً مسلحة أو رسلاً دبلوماسيين او تجارا او مبشرين، ندر أن انتقلوا على أي منها رأساً من الامبراطورية الصينية الى الامبراطورية الرومانية. فقد حافظت هاتان الامبراطوريتان المتباعدتان على الاتصال في ما بينهما غالباً بطريق الوسطاء، الذين كانوا يقومون بنقل المتاجر والرسائل والمعلومات على مراحل - يدا بيد وكلمة بكلمة.

كان الطريق الأبعد شمالاً يجتاز السهوب الأوراسية من الشكنات القائمة على سور

الصين الكبير الى المستعمرات الاغريقية الواقعة على شاطىء البحر الأسود الشمالي، والتي أصبحت محميات رومانية. وكان ثمة طريق أقصر، لكنه أكبر مشاقاً وهو طريق الحرير. كان هذا يبدأ في لويانغ، عاصمة أسرة الهان الشرقية الواقعة في سهل الصين الشمالي، ويمر بحوض تاريم وعبر تيان شان الى الصغد في وادي زرفشان الواقع بين المجريين العاليين لنهري سرداريا وامورداريا (سيحون وجيحون). وتتشعب هذا الطريق من الصغد غرباً شعبتين. فالمسافرون الذين كانوا يرغبون في تجنب بلاد الفرثيين كان باستطاعتهم الوصول الى البحر الأسود بطريق خوارزم وبحر قزوين (الخزر) والمنخفض الواقع بين سلسلة القفقاس وهضبة أرمينية. اما المسافرون الذين كانوا مستعدين لمجابهة موظفي الجمرك والشرطة الفرثيين، فقد كان باستطاعتهم ان يقصدوا أيا من الموانىء السورية الواقعة على البحر المتوسط. وقد كانت أقصر الطرق عبر بادية الشام من « مدينتي القوافل » ـ تدمر (بالميرا) او البتراء. وكانت تدمر نقطة التقاء الطريق من فرثية الى البحر المتوسط مع طريق من الموانىء العربية على الخليج العربي، وكانت البتراء ملتقى طريق من فرثية مع طريق بري من اليمن.

كان الطريق البحري هو الأكثر مصاعباً، لكنه كان الأكثر ربحاً بالنسبة للتجارة. ان القناة التي كانت تصل ميناء السويس (على البحر الأحمر) بالفرع الأبعد شرقاً في دلتا النيل عن طريق وادي توميلات قد تكون اتمت، او لعله قد أعيد العمل بها، على يد بطليموس الثاني (٢٨٢ـ ٢٤٥ ق.م .)، وهذه كانت تزود المسافرين بطريق مائي بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وطوال الزمن الذي كانت فيه امبراطورية البطالسة قوة بحرية وعسكرية، كانت تسيطر على البحر الأحمر، وكان لها مواطىء أقدام في ما يعرف اليوم بساحل أريترية. كان هدفها من وجودها هناك هو صيد الفيلة الافريقية لاستعمالها ضد الفيلة الهندية التي كانت تحت تصرف السلاقسة. إلا أن الأغارقة الذين كانوا قد استوطنوا مصر كانوا مستعدين لترك التجارة البحرية بين مصر والهند في أيدي البحارة السبأيين اليمنيين. ونحو أواخر القرن الثاني قبل الميلاد اهتمت حكومة البطالسة بانشاء شفرات مباشرة من الموانىء المصرية على البحر الأحمر الى دلتا السند، وبذلك تجنبوا السبأيين. وقد تمكن ملاح اغريقي، مغبشة صورته، في تاريخ لا تؤكده المصادر، من التعرف الى مواسم الرياح الموسمية واتجاهاتها، وذلك بحكم معرفته للبحار الجنوبية (فقد

لا يكون « هيالوس » الاسم الشخصي لملاح اغريقي تاريخي، بل صفة شعرية للريح التي أفاد منها الملاحون الاغريق المجهولون).

إن اكتشاف الأغارقة المصريين لطبيعة الرياح الموسمية مكنهم من تقصير الزمن الذي كان لازما لرحلة « ذهاب وإياب »، بين مصر ودلتا السند. كما ان ذلك مكنهم من الابحار رأساً من مضيق باب المندب الى الطرف الجنوبي للهند، وحتى من تجنب سيلان واقامة مركز تجاري في « أريكامدو » على الساحل الشرقي للهند، الى الجنوب من بندشيري الحالية. وقد كان الاتصال بداخل البلاد بطريق أريكامدو أيسر من الاتصال عن طريق أي ميناء على الساحل الغربي.

ويبدو أن التجارة الاغريقية البحرية بين مصر والهند بلغت ذروتها نحو أواسط القرن الأول للميلاد ـ أي في الوقت الذي كان فيه داخل شمال غرب الهند قد أصبح مأمون الأسفار للتجار بسبب فرض « السلم الكوشاني »، أيام وُحِّد شمال غرب الهند سياسياً مع بكتريا. وفي القرن ذاته أخذ البحارة الهنود يقلدون الانجاز الاغريقي في الابحار رأساً الى الهند عبر بحر العرب. فقد وصل اولئك البحارة الهنود شبه جزيرة الملايو وذلك بالابحار من موانىء واقعة على ساحل الهند الشرقي رأساً عبر خليج البنغال. وقد اتجه بعضهم نحو برزخ كرا، ثم نقلوا المتاع براً، وركبوا البحر ثانية في خليج سيام وبحر الصين. وقام غيرهم بالسفر المستمر الطويل من خليج البنغال الى بحر الصين، وذلك عبر مضيق ملقا. وكانت الأسفار الهندية عبر خليج بنغال وما بعده، مثل أسفار الاغريق عبر بحر العرب وما بعده، سلمية. لم تكن السفن سفناً حربية، بل كانت تجارية، ولم يكن البحارة فاتحين، بل بحارة.

كان من الضروري أن تُصرَّف التجارة الدولية بواسطة لغات وكتابات. في الفترة الواقعة بين ٣١ ق.م. كان ثمة ثلاث لغات عالمية، ولكل منها كتابتها الخاصة بها، وهي التي كانت شائعة في النصف الغربي من اويكومين العالم القديم، من أملاك امبراطورية كوشان الى الشاطىء الشرقي للمحيط الأطلسي.

كانت الأولى في الميدان اللغة الآرامية وكتابتها الفباء مشتقة، مثل الألفباء الاغريقية، من الفينيقية. لقد كانت هذه الأوسع استعمالاً للمراسلات الرسمية في الامبراطورية الفارسية الأولى. وفي الدول الاغريقية الخليفة للامبراطورية الفارسية الأولى، تخلت

الآرامية عن مكانتها الرسمية « للكويني » الاغريقية. ومع ذلك فإن ثلاثاً من الدول التي خلفت الامبراطورية الفارسية الأولى، عبر الدول الخليفة الاغريقية السلوقية، وهي فرثية وفارس والصغد - أعادت الآرامية الى الاستعمال الرسمي ثم أصبحت هذه اللغة لغة الأدب أيضاً، في صيغ ثلاث للبهلوية بطريقة خلاصتها أن الكلمات الآرامية المدونة بالالفباء الآرامية، اعتبرت « أشكالا » ثم قُرِئت كما لو كانت كلمات ايرانية بالمعنى ذاته. وفي الوقت ذاته كانت الآرامية، في نهاية القرن الأخير قبل الميلاد، قد حلّت محل كل من الكنعانية والأكديّة على أنها لغة التخاطب لسكان الهلال الخصيب الناطقين بالسامية. واللغة الأكدية، التي كانت، في الألف الثاني قبل الميلاد، اللغة الدولية لآسية الصغرى ومصر، كما كانت في « الهلال الخصيب »، كانت قد اختفت تقريباً. وحتى في بابل (جنوب العراق) كان ثمة بضعة من العلماء الذين كانوا يقرأون الأكدية المكتوبة بالخط المسماري. وقد ظلت اللغة الكنعانية (العبرية) في سورية كلغة للطقوس الدينية فقط (على نحو ما كانت الحال بين الجماعة اليهودية في فلسطين). وقد كانت الكنعانية لغة التخاطب فقط في المستعمرات الفينيقية (دول - المدن) في حوض البحر المتوسط الغربي.

استمر استعمال اللغة الاغريقية رسمياً بعد القضاء على الحكم الاغريقي. فالفرثيون والفرثيون - السكا وحكام السكا الذين خلفوا الأغارقة سياسياً الى الشرق من نهر الفرات، ساروا على خطوات حكام الأغارقة البكتريين والاغارقة الهنود في سكهم نقوداً مزدوجة اللغة، كان أحد النقشين عليها بالإغريقية. والنقوش الموجودة على نقود الأباطرة الكوشيين مدونة بالالفباء الاغريقية، ولو ان اللغة ليست اغريقية بل هي نوع من السكا الايرانية. وبكتريا، وهي بلاد كانت العلاقات فيها بين الايرانيين الوطنيين والاغارقة المتدخلين ودية بشكل خاص، استعملت الالفباء الاغريقية لتدوين اللغة الايرانية المحلية - وعلى سبيل المثال كما هو الحال في نقش عثر عليه في معبد بناه الامبراطور الكوشاني كانيشكا (حكم حوالي ١٢٠ إلى ١٤٤ م)، في المكان المسمى سرخ كوتال، حيث عثر عليه رجال البحث الأثري.

وإلى الغرب من نهر الفرات، حيث غلب الحكم الروماني على الحكم اليوناني، كانت اللاتينية، التي كانت تكتب بالفباء اغريقية (رومانية)، هي اللغة الرسمية. إلا أن رجال الحكومة الامبراطورية وممثليها المحليين كانوا يتراسلون باللغة الاغريقية مع المواطنين والرعايا

الرومان الذين كانت اللغة الأم لديهم الاغريقية او لاولئك الاغارقة الذين كانت الاغريقية لغة حياتهم الحضارية. وقد حافظت اللغة الاغريقية على منزلتها، كلغة تخاطب، وذلك ضد اللغة اللاتينية، باستثناء جنوب شرق ايطالية. وفي آسية الصغرى ظلت الاغريقية منتشرة على حساب اللغات غير الاغريقية. ومن الناحية الثانية فقد كانت اللغة اللاتينية هي اللغة الواسطة التي نشرت الحضارة الهلينية في البلاد التي كانت خاضعة للرومان في محيط البحر المتوسط الغربي (باستثناء صقلية ونابولي حيث كان السكان يستعملون الاغريقية) وفي اوروبة القارية في ما وراء جبال الابنين إلى خط الدانوب والراين.

حملت التجارة واللغة معهما عناصر أخرى حضارية - مثل الديانة. والفن المنظور كان واحد من السبل التي عبرت بها الديانة عن نفسها. إن تاريخ الاديان في اويكومين العالم القديم (بين نحو ٣٣٤ ق.م. و ٢٢٠ م) هو موضوع الفصل التالي. اما الآن فالذي نود ملاحظته هو ان الفن المنظور الهليني، وكذلك الفن الهندي المنظور والنظم الاجتماعية، كسبت مناطق جديدة في القرنين الأول والثاني للميلاد. وقد عرفت هذه الفترة الموجة الأولى من التهنيد Indiazation في كمبوديا وجنوب فيتنام، حالياً. كما عرفت الفن المنظور الهليني يكسب مجالاً جديداً لنفسه في امبراطورية كوشان، وخصوصاً في عاصمة الامبراطورية تَكْسيلا (تكشاسيلا) في قندهار على الطريق بين بكتريا وبيهار. وقد هُلْيِنَت تكسيلا من جهتين - من بكتريا عبر الهندوكوش، ومن الاسكندرية عبر بحر العرب. والزَخم النسبي للمؤثرات الهلينية من هذين المصدرين، والزمن الذي بدأ فيه مجرى الاثرين المزدوج يصب في تلك الجهات، هما - الآن - امران قيد البحث.

وتسرّب الحضارة الهندية الى جنوب شرق آسية، وتسرب الحضارة الهلينية الى قندهار هما مثلان على « التسرب السلمي ». وثمة تشابه قريب بين اساليب الفن المنظور الهليني في قندهار وفي الامبراطورية الرومانية. ولكن الولايات الرومانية التي نُشِرَت فيها الهلينية في ثوب لاتيني، سارت الهَلْيَنَة فيها في اعقاب الفتوح الرومانية العسكرية.

والامبراطوريات الأربع التي شملت، بين سنة ٤٨م والسنوات الأولى للقرن الثالث الميلادي، في ما بينها أكثر اويكومين العالم القديم، كانت تختلف واحدتها عن الأخرى بماضيها، ومن ثم كانت تختلف في تركيبها.

إن امبراطورية الهان الشرقية في الصين (٢٥- ٢٢٠ م) والامبراطورية الفرثية طيلة

القرنين المنتهيين بسنة ٢٢٤م، كانتا، على التوالي، صورة جديدة لامبراطورية الهان الغربية والامبراطورية الفرثية (١٤١- ٣١ ق.م). وقد قامت في كل من المنطقتين، وفي فترات متباعدة، اضطرابات نسبية، إلا أن هذا لم يؤدّ إلى تبديل دستوري بناء في أي منهما، وفي كلا الحالتين عاد النظام القديم، بعد انقطاع موقت، الى ما كان عليه. ومن الجهة الثانية فقد كان قيام امبراطورية كوشان (٤٨م)، وانتهاء قرن الثورات والحروب الاهلية في عالم البحر المتوسط، الذي حدث قبلاً، إذ انتصر أوكتافيان (اغسطوس) على انطونيوس وكليوباترة في اكتيوم (٣١ ق.م) ـ كان هذان الحدثان انطلاقاً أصيلاً، يقابل الانطلاق الجديد الذي حدث في الصين لما زالت الدول المتحاربة وقام مكانها حكم تشين الامبراطوري أولاً، ثم حكم الهان الغربي الامبراطوري بعده.

من حيث التركيب السياسي كان ثمة تطابق كبير بين امبراطورية كوشان والامبراطورية الفرثية، وشبه اقل بين امبراطورية الهان الشرقية والامبراطورية الرومانية. ففي كل من الامبراطوريتين الوسطيين (كوشان وفرثية) كان هناك درجة كبيرة من التحول السياسي. فنسبة كبيرة من الممتلكات الامبراطورية كان يحكمها ولاة أو ملوك اصاغر حكماً ذاتياً، وكان اعتراف هؤلاء بسيادة الحكومة الامبراطورية، في بعض الأحيان، اعترافاً اسمياً فقط. فضلاً عن ذلك فان سلطة كل من الحكومة الامبراطورية وإدارة امراء الاقطاع كانت مقيدة بسلطة البارونات الذين كان لهم الاشراف المباشر على الفلاحين ـ وبمعنى آخر على مصدر جميع الأجور والضرائب.

وكان حكم الهان الشرقية، نظرياً، مركزياً وبيروقراطياً. أما من الناحية العملية فقد كان البيروقراطيون هم أصحاب الأراضي، وقد تضاربت واجباتهم كموظفين مدنيين مع مصالحهم كملاك، فاخضعوا واجباتهم لمصالحهم، وكان هذا هو السبب الذي أدّى إلى فشل كل من أسرة الهان الغربية وخليفتها وانغ مانغ، كل بدورها، في تنفيذ الاصلاحات الزراعية التي كانت الحاجة ماسة إليها لانقاذ المجتمع الصيني من الانهيار. فالفئة الوحيدة التي كانت تحت تصرف الامبراطور لتنفيذ الاصلاحات اللازمة هي فئة الموظفين ـ اصحاب الأراضي، وهؤلاء كان لهم مصلحة خاصة في ان يتأكدوا من بقاء الاصلاحات حبراً على ورق.

بعد قيام أسرة الهان الشرقية (٢٥ م) وقضائها على ثورة الفلاحين (٣٦ م)، كان الموظفون ـ الملاكون هم الأقوى، وقد اساؤوا استعمال سلطتهم اساءة فاضحة. فقد كان

التعيين في الوظائف يقوم على اساس التبعية لا الكفاية. ولم تكن امتحانات التعيين للوظائف المدنية تُجْرى بأمانة. وأجور الأرضين التي كان يدفعها الفلاحون ـ المستأجرون إلى الملاكين رُفعَت إلى مستويات مرتفعة جداً بالنسبة الى الضرائب التي كان يتوجّب على الملاكين أنفسهم دفعها. في شمال الصين، المنطقة التي كانت مهد المدنية الصينية، وهي الأرض الواقعة الآن خلف السور الكبير، نقص عدد المسجلين من دافعي الضرائب، وترتب على ذلك ارتفاع في الضرائب والسخرة والخدمة العسكرية بالنسبة للرؤوس. وهذا النقص في عدد المسجلين لدفع الضرائب لم يكن ناتجاً عن نقص السكان بعد فترة من الفوضى والحرب الاهلية (٩ـ ٣٦ م)، بل لأن الفلاحين الاحرار هربوا باعداد كبيرة. فالتجأ بعضهم إلى املاك أصحاب الأراضي، حيث كانوا، بوصفهم يعملون عند صاحب الأرض، يتعرضون لضغط اقتصادي أقل من ذلك الذي كانوا يتعرضون له وهم تحت رحمة الحكومة الامبراطورية. والبعض الآخر هاجر الى الجنوب، حيث كانت رقابة الحكومة الامبراطورية أخف، وحيث كاذ ثمة أرض بكر يمكن أن تُشتَغَلَّ.

تعرضت سلطة البيروقراطيين ـ الملاكين الصينيين، منذ اواسط القرن الثاني للميلاد، لتحدّ على أيدي خصيان البلاط الامبراطوري اولا، ثم من سنة ١٨٤م وما بعدها، لثورتي فلاحين تزعم كلا منهما زعيم تاوستي. وعلى كل فإن المنتصرين لم يكونوا لا الخصيان ولا الفلاحين، بل سادة الحرب، الذين كان اكثرهم من أصحاب الأراضي. وقد مر بالصين في الجزء المتأخر من القرن الثاني للميلاد، مامرّ بالرومان بعد حرب هنيبعل. فقد تناقص عدد الذين يمكن أن يجندوا من الفلاحين، وحلت محلهم جيوش محترفة كانت تجند من الفقراء، وأصبحت هذه الجيوش جيوشاً خاصة للقواد العسكريين، وكانت تتطلع الى هؤلاء القادة لتنال المكافأة على خدماتها. ففي سنوات ٢٢٠ـ ٢٢٢م انقسمت امبراطورية الهان الشرقية، بشكل واضح، إلى ثلاث ممالك، كان يحكمها ثلاثة قواد عسكريين، كانوا قد قسموا الامبراطورية من قبل في ما بينهم في الواقع.

كانت الامبراطورية الرومانية، من حيث المبدأ، في الفترة بين ٢١ ق.م. و ٢٣٥م، أقل مشاركة في الأمور العامة مع امبراطورية الهان الشرقية منها مع الامبراطورية الفرثية وامبراطورية كوشان المعاصرتين لها. كانت امبراطورية الهان الشرقية، نظرياً، دولة مركزية الادارة وبيروقراطية الصيغة، ولو ان دستورها النظري لم يكن يوضع موضع التنفيذ. وكانت الامبراطورية الرومانية، مثل الامبراطوريتين الوسطتين، خاضعة للتحول. « فالمؤسسة »

الرومانية كانت عادة تحجم عن تحمل المسؤولية المباشرة لادارة البلاد مما أوجد فراغاً سياسياً. لقد جعلتها كذلك لأنها دمّرت حكومتها السابقة. وقد تمسك اغسطوس بهذه القاعدة الرومانية، بقدر ما كانت الأحوال تسمح له في احياء النظام في عالم البحر المتوسط الذي كانت الحكومة الجمهورية السابقة قد نقلته الى حالة الفوضى. فمنذ سنة ٣١ ق.م. جرب اغسطوس وخلفاؤه تنظيم الامبراطورية الرومانية على أنها « اتحاد » من المدن ـ الدول ذات الاستقلال الذاتي. وكانوا في ذلك يسيرون على الأسس التي استنها السلوقيون للمشرق، واتبعها بومبي (٦٧ـ ٦٢ ق.م). وقد حاولت الادارة الامبراطورية ان تقصر مسؤولياتها بالذات على منع المدن ـ الدول المكونة للامبراطورية، من شن الحرب واحدتها على الأخرى، وعلى حمايتها من هجمات الاعداء من خارج حدود الامبراطورية.

كانت الامبراطورية الرومانية، مثل امبراطورية الهان الشرقية، تعوزها القوى البشرية. فالتفجر السكاني الذي بدأ في العالم الهليني في القرن الثامن ق.م.، خمد في مقدونيا في القرن الثالث ق.م. وفي القرن الثاني ق.م. في بقية الاقطار الناطقة بالاغريقية، وفي القرن الأخير قبل الميلاد في ايطالية. وفي الدور الأول من حياة الامبراطورية الرومانية (٣١ ق.م .ـ ٢٣٥ م) كان ثمة شعب واحد، داخل حدود الامبراطورية، الذي كانت اعداده تزداد بشكل واضح: هو الشعب اليهودي. لا شك ان سكان جنوب فلسطين كانوا قليلين سنة ٥٨٦ ق.م. لما صفى نبوخذنصر المملكة الجنوبية، إلا أنه منذ ذلك الحين انتشر اليهود في جزء كبير من أرض المملكة الشمالية، كما ان شتاتاً يهودياً كان قد انتشر بعيداً: أولاً في بابل ثم في مصر وفي النهاية في انحاء العالم الهليني. في بابل، وبالنسبة إلى رومة اعتباراً من سنة ٦٣ ق.م.، كانت طلائع الشتات اليهودي من المهجرين، لكن اكثر التشتت اليهودي كان طوعياً. فقد استقر اليهود في الخارج جنوداً مرتزقة أو تجاراً. واطراد نمو السكان اليهود يبدو أغرب اذا تذكرنا ما كان يصيبهم (وجيرانهم) من خسائر في الأرواح في ثوراتهم ضد الحكومة الرومانية الامبراطورية في فلسطين (٦٦ـ ٧٠م و ١٣٢ـ ١٣٥ م) وفي قبرص وبرقة (نحو سنة ١١٥ـ ١١٧ م). وفي العصيان الاخير (برقة) لم تنجح الجماعة اليهودية في السيطرة الموقتة على برقة ذاتها فحسب، بل انها اتخذت برقة قاعدة للهجوم على مصر.

لقد ركز اغسطوس حدود الامبراطورية الرومانية على خطوط يسهل على جيش صغير

محترف من المتطوعين ان يحميها. وبذلك يكون هذا الجيش صغيراً إلى الحد الذي يمكن به لامبراطورية يتناقص عدد سكانها ان تزوده بالعدد اللازم، كما أنه يكون عبئاً خفيفاً على عاتق دافعي الضرائب.

انقص اغسطوس عدد الجنود في الجيوش الضخمة التي كان منافسوه، الذين أزيلوا الآن، قد جمعوها إلى الحد الأدنى الذي كانت تقتضيه حماية الحدود. ولم يكن ثمة احتياط للدفاع المكثف. فإذا كان ثمة حاجة الى قوة متحركة للقضاء على ثورة يقوم بها رعايا الامبراطورية، أو لشن حرب أهلية، كان يجب أن يجمع الجنود بتخلية الثكنات في القطاع الذي كان يبدو بعيداً عن الخطر. وقد كان هناك حاجة ماسة الى جيوش رومانية متحركة بسبب الثورات اليهودية الثلاث التي اشرنا اليها وبسبب حربين اهليتين في سنة ٦٩م وسنة ١٩٣- ١٩٦م.

كانت حدود الامبراطورية في الجنوب « حدودا طبيعية » على اطراف الصحراء الكبرى والصحراء العربية. والممر الضيق الذي هو مجرى نهر النيل، والواقع بين الصحرائين، لم يكن من العسير تحصينه في بلاد النوبة الدنيا. وفي اوروبة القارية كان يوليوس قيصر، والد اغسطوس بالتبني، قد أوصل الحد الروماني الى نهر الراين، واغسطوس اوصله الى نهر الدانوب كذلك. وقد تولى خلفاؤه اقفال الثغرة بين مجرى الراين الأعلى ومجرى الدانوب الاعلى بين نحو سنة ٧٠ و ١٣٨م، ببناء تحصينات صناعية بين الراين فوق كوبلنز والدانوب فوق رغنزبورغ. ولما فتح الجزء الاكبر من الجزيرة البريطانية وضم الى الامبراطورية اقيمت تحصينات مماثلة هناك، من البحر الى البحر، على يد الامبراطور هدريان (سنة ١٢٢ م وما بعدها) والامبراطور تيطس انطونينوس بيوس (سنة ١٤٢ م وما بعدها). وهذه التحصينات الرومانية تبدو قصيرة وهشة، إذا قيست بسور الصين الكبير، طولاً وضخامة. فالتحصينات الرومانية لم تكن تعدو سنادات للحدود الطبيعية ـ هما البحر والنهران الكبيران. إلا أن الناحية الطبيعية في الحدود النهرية أمر مُعَزَّز. فمع ان النهرين (الراين والدانوب) كانا تحت حراسة اسطول نهري روماني في الفصل الذي كانا يصلحان فيه للملاحة، فانهما كانا يجتازان بسهولة في جميع الفصول، وخاصة عندما كان الجليد يغطيهما، عند اشتداد البرد. يضاف الى ذلك ان خط الراين ـ الدانوب هو اطول خط يمكن ان يُرسم بين البحر الاسود وبحر الشمال.

جرب اغسطوس أن يقصر الحد النهري الاوروبي للامبراطورية الرومانية، بنقل الحد من الراين إلى الألبة، لكن القوى البشرية في الامبراطورية لم تكن كفوءة لاتمام مثل هذا العمل. فالقوى البشرية كانت قد تضاءلت بسبب الثورات الاقتصادية والسياسية في القرنين السابقين. ومثل هذا العمل لو اتيح له ان يتم لأدى إلى تنزيل القوى البشرية العسكرية اللازمة لحماية الحدود. وقد حال دون تنفيذ مشروع اغسطوس ثورة قام بها (٦ـ ٩ م) البانونيون، الذين كانوا قد اخضعوا حديثاً، ومنازلهم بين البحر الادرياتيكي ونهر الدانوب، والقضاء على ثلاث فرق رومانية (٩م) بين الراين والألبة على أيدي جرمان كانوا قد أُخضِعُوا حديثاً. وقد كشفت استحالة اتمام المشروع بعد هذه الهزائم، ضآلة مصادر القوى ـ البشرية في هذا الوقت (بالمقارنة الواضحة مع كثرة هذه القوى قبل حرب هنيعل واثناءها). وقد استمر هذا الضعف الديموغرافي. فالامبراطورية الرومانية بدأت بفتح بريطانية وضمها، لكنها عجزت عن السير بذلك إلى النهاية. وقد نجح الامبراطور تراجان، وهو نظير هان وو ـ تي، في احتلال داسيا (ترانسلفانيا) وضمها في سنة ١٠١ـ ١٠٦م، لكنه فشل في ١١٤ـ ١١٧م في توصيل حدود الامبراطورية الشرقية، إلا فترة قصيرة جداً، إلى شواطىء بحر قزوين والخليج العربي.

كان اكبر انجاز سياسي للامبراطورية الرومانية نقل رعاياها، تدريجاً، إلى درجة المواطنية الرومانية. لقد دشنت هذه السياسة في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت احد الاسباب في نجاح الرومان في ان يضموا إلى دولتهم شبه الجزيرة الايطالية أولاً، ثم حوض البحر المتوسط بكامله. ولم تكن هذه السياسة تطبق باستمرار. فقد كان هناك تردد وتوقف. وعلى كل فقد بلغت السياسة ذروة استكمالها سنة ٢١٢م لما منحت المواطنية الرومانية ـ أو لعلها فرضت ـ على جميع سكان الامبراطورية الذين لم يطالهم هذا من قبل، وذلك باستثناء اقلية ضئيلة، ظلت خارج الإطار.

وسياسة رومة الليبرالية في منحها المواطنية إلى الاجانب الذين غلبوا في الحروب، تناقض تماماً سياسة اثينا الضيقة في القرن الخامس قبل الميلاد. ولعلّ هذا التناقض يوضح لنا السبب في ان رومة هي التي وحدت حوض البحر ولم يتح لاثينا انجاز مثل ذلك. وعلى كل فإن المساواة في الوضع السياسي، لا يعوّض عن الظلم الاقتصادي والاجتماعي. وسياسة رومة الثانية التي كانت ذات أثر في توسيع املاكها كانت ضمانة للمصالح الخاصة للاغنياء، ضد مطالب الفقراء. ففي فترة ٣١ ق.م .ـ ٢٣٥م، كان

التوسع في منح المواطنية في الامبراطورية الرومانية تصاحبه ثغرة بين الأغنياء والفقراء كانت تتسع باستمرار. فقد زاد عدد الحالات التي لم يكن فيها مساواة أمام القانون، اضافة الى انعدام المساواة في الاملاك والدخل وفي مستوى المعيشة، الروحي منها والمادي على حد سواء. ففي هذه الفترة كان الظلم الاجتماعي يتزايد في كل من الامبراطوريتين اللتين كانتا تقعان في الطرفين الابعد من اويكومين العالم القديم.

ذكرنا قبلاً ان البيروقراطيين ـ الملاك، من اتباع كونفوشيوس، في امبراطورية هان، عجزوا عن اخضاع مصالحهم الخاصة لواجباتهم العامة. وان التخاذل الخلقي لهذه « المؤسسة » التي كانت ذات جذور عميقة، ازداد صلفاً ووقاحة، حتى اكثر مما كان عليه مما ادى بحكم الهان الغربية السابقة الى النهاية المحزنة. وعلى كل فإن الخدمة المدنية الكونفوشية في الهان، كانت أقل سوءاً من أية خدمة مدنية كانت قد قامت في اي مكان. فقد كانت تفوق الخدمة المدنية الرومانية، التي وضعها اغسطوس، بنفس النسبة التي كان السور الكبير يتفوق على التحصينات الرومانية في المانية وبريطانية.

لقد بدأت المدينة ـ الدولة الرومانية مسيرتها التوسعية وكان كل ما عندها فئة من الموظفين الاداريين الضعفاء. ومثل أكثر المدن ـ الدول ـ الاترسكية والاغريقية والفينيقية ـ في حوض البحر المتوسط في الالف الأخير ق.م. ـ كانت رومة يحكمها فريق صغير من الموظفين العامين غير المحترفين الذين كانوا ينتخبون سنوياً. والمتطلبات الادارية التي اقتضاها توسع رومة المتوالي لم تقابلها، بشكل محسوس، زيادة الوظائف العامة الانتخابية التي كان يمكن ايضاً ان تطول مدتها. والسبيل الأوحد الذي كان يلجأ اليه، وذلك لتخفيف العجز الاداري، وهو تلزيم تزويد الجيوش وجمع الضرائب لشركات كان أصحابُها مواطنين أفراداً. وهذه الشركات هي التي تجمعت لديها الخبرة الإدارية للعالم الهليني على ما كان عليه يومها. فقد استعمل الجميع قوى عاملة من العبيد والمحررين المتعلمين.

وسار اغسطوس على خطة أبيه بالتبني، يوليوس قيصر، فحد من فرص الشركات في ان تجني ارباحاً خاصة، غير مشروعة، على حساب حكومة رومة ومواطنيها ورعاياها، إلا أنه اقتبس عنها تنظيمها. فقد اتخذ لنفسه « أسرة قيصرية » مكونة من العبيد والمحررين على نطاق واسع وذلك ليكونوا في خدمته على أنهم المدبرون المختصون به، وعوّض النبلاء الرومان من أعضاء « المؤسسة » السابقة والمتطفلين اللاصقين بها، الذين كانوا قد أثروا عن طريق المقاولات العامة بأن اختار منهم أعلى طبقتين من الموظفين ذوي المرتبات

الجزية. وهذه البيروقراطية الرومانية لم تتمتع بالتماسك الذي تمتعت به نظيرتها البيروقراطية الصينية. وبشكل خاص فانه لم يربطها بعضها بالبعض الآخر تمسكها بفلسفة متوارثة جاءتها بحكم عملها الوظيفي. ومع ذلك فإن هذه الإدارة الرومانية الامبراطورية، المكونة من ذئاب تحوّلت الى كلاب لحراسة القطيع، كانت أفضل بكثير مما كان عند الدولتين الوسطين، الفرثيين والكوشان، من ادارة مدنية لامبراطورية بدائية. وقد كان على هذه الادارة المركزية، في نهاية المطاف، ان تتحمل عبئاً لم يكن اغسطوس قد خطط له. فقد كان في نيته لا أن يدبر أمر الإدارة المحلية للمدن ـ الدول التي كانت الخلايا المؤلف منها الجسم السياسي مباشرة، بل ان يشرف عليها فقط، ومن ثم فقد ظلت اعداد الموظفين في الإدارة الامبراطورية صغيرة أصلاً. ان منشيء « السلم الاغسطي » عجز عن وضع رؤية مستقبلية تتعلق بمواطني المدن ـ الدول المكوّنة للامبراطورية، ذلك بأن هؤلاء المواطنين قد يفقدون الاهتمام بالحكومة المحلية لجماعاتهم فيما إذا جردت هذه الجماعات من إمتيازها التاريخي السيادي في أن تشن الحروب ضد الجيران. ففي وقت مبكر من القرن الثاني للميلاد ـ وهو عصر ذهبي خداع المظهر بالنسبة إلى عالم البحر المتوسط ـ كانت الحكومة المحلية قد انتابتها الفوضى، كما أخذت الإدارة المركزية للامبراطورية تجد نفسها مرغمة، وبكثير من التردد، على التدخل المباشر في مجال العمل الاداري المتسع النطاق.

وفي القرن الثالث للميلاد أصابت الكارثة كلا من الامبراطوريات التي كانت قد اقتسمت، في القرنين السابقين لذلك، القسم الأكبر من اويكومين العالم القديم.

وقد تحملت الامبراطورية الرومانية نصف قرن من الفوضى (٢٣٥- ٢٨٤ م)، بل أنها استمرت في الوجود عبره، وهو الذي كان، بالذات، استمراراً عجيباً لشبه العصر الذهبي الذي سبقه (٩٦- ١٨٠ م). ففي نصف القرن الروماني البائس هذا خفضت قيمة النقد الامبراطوري الى درجة الصفر، وقد تعرضت بلاد الامبراطورية إلى هجمات قام بها معتدون من وراء الحدود، وكانت هجمات مخربة. فقد انتصر القوط على الامبراطور داسيوس وقتلوه سنة ٢٥٠م؛ وفي سنة ٢٦٠م. انتصر الفرس على الامبراطور فاليريان وأسروه، وقضى بقية عمره في الأسر. وتقسّمت الامبراطورية موقتاً، كما حدث للامبراطورية الصينية في ٢٢٠- ٢٢٢م، الى ثلاث وحدات طبيعية، وبلغ الهبوط بالمالية الامبراطورية الى الادنى، بحيث ان دفع المرتبات تم، لبعض الوقت، عيناً، وكانت التجارة تتم بالمقايضة. وقد كان هذا تراجعاً اقتصادياً مخيفاً في عالم البحر

المتوسط، إذ أنه في هذا العالم تم اختراع النقد في القرن السابق ق.م. وفيه، حتى قبل ذلك التاريخ، كانت السبائك الذهبية تستعمل أساساً للتبادل التجاري وتسعير السلع.

في سنة ٢٢٤م قام في إيران ملك فارسي محلي باغتصاب مفاجيء للسلطة الامبراطورية، الأمر الذي كان إعادة لانقلاب مشابه تم في سنة ٥٥٠ ق.م. إذا أنه حوالي أواسط القرن السادس ق.م. خلع التابع الفارسي قورش الامبراطور الميدي استياجس وتولى الأمر مكانه. وفي سنة ٢٢٤م خلع تابع فارسي هو اردشير (ارتاكسركسيس) الامبراطور الفرثي، ارطايانوس الخامس، وتولى الأمر مكانه. وقد وسم حكام إيران الامبراطوريون الجدد باسم « ملوك الاجزاء والاطراف ». ومع ذلك، فإن الامبراطورية الفارسية الثانية(الساسانية) ورثت التركيب المهلهل للامبراطورية الفرثية دون أي تبديل، وهذا كان واقع الحال. وقد كانت اعتداءات الساسانيين ضد جيرانهم أعنف مما قدر عليه الارساسيون في العهد الضعيف للامبراطورية الفرثية في دورها الاخير. إلا أن الساسانيين لم يكونوا أكثر نجاحاً في فرض سلطة الحكومة المركزية على الامراء المحليين.

اثارت اعتداءات الساسانيين على الامبراطورية الرومانية ردود فعل عسكرية، بعد ان استعادت هذه قوتها سنة ٢٨٤م. ففي سنة ٢٩٨م أرغمت الحكومة الرومانية الامبراطور الساساني نرسه على اعادة جميع الأراضي الرومانية السابقة التي كان شاهبور الأول (حكم ٢٤٢- ٢٧٣ م) قد انتزعها منها وضمها إلى ملكه، كما أرغمه على القبول بما قامت به الامبراطورية الرومانية من ضم خمس ولايات أرمنية تقع على الضفة اليسرى لمجرى دجلة الأعلى. وقد كان الاعتداء الساساني ناجحاً في الجهة المقابلة. فقد وسع مؤسس الدولة الساسانية، اردشير، حدود الامبراطورية التي انتزعها من الامبراطور الارساسي ارطبانوس الخامس، بفتح امبراطورية كوشان ايضاً. ومع ذلك فيبدو أنه قد فرض سلطانه عليها دون ان يصفيها، إذ أن بقية منها استمرت، أو لعلها عادت الى الظهور، في وادي كابل. وهذه البقية قاومت انسياح الشعوب الهونية في القرنين الخامس والسادس للميلاد، ولم يُقضَ عليها نهائياً إلا في القرن الحادي عشر.

بعد انقسام امبراطورية الهان الشرقية إلى ثلاثة أجزاء متحاربة فيما بينها في ٢٢٠- ٢٢٢م، ظلت الصين مقسمة سياسياً من سنة ٢٢٠إلى سنة ٥٩٨م، باستثناء مدة قصيرة من ٢٨٠ إلى ٣٠٤م. وعصر التجزئة السياسية هذا، الذي بدأ سنة ٢٢٠م كان اطول مدة من نوعها عرفها العالم الصيني منذ ان توحد سياسياً لأول مرة في سنة

٢٢١ ق.م. ويبدو، على المستوى السياسي، ان تجمع القسم الاكبر من اويكومين العالم القديم في عدد لا يزيد عن أربع امبراطوريات لمدة قرنين، بدءاً من سنة ٤٨م، إنما هو توقع محتمل لتوحيد سياسي للاويكومين بكامه، حول الكرة. والامبراطوريات الأربع بالذات كانت مؤقتة بطبيعتها، مع ان كلا منها عادت فيما بعد إلى الظهور على الخارطة في سلسلة من التقمصات السياسية (تقمصات الامبراطورية الصينية السياسية كانت الاكثر ثباتاً). وعلى كل فإن الدين كان المستوى الذي طبعت عليه الامبراطوريات الأربع، في حياتها القصيرة، بصمانها في تاريخ البشرية.

٣٨ـ تفاعل الاديان والفلسفات في أويكومين العالم القديم

« إن الالم هو ثمن التعلم ». جاء هذا القول في تمثيلية وضعها الشاعر التمثيلي ايخليوس وعرضت على المسرح في ٤٥٨ ق.م. في اثينا ـ وهي السنة التي كانت فيها اثينا تشن حرباً شعواء على جبهتين. وهذه الشعوائية كانت نذيراً بقيام « زمن اضطراب ». وقد كانت آلام مثل هذا الزمن، مع ما يرافقها من تنوير، مقدمة لقيام كل من الامبراطوريات الأربع التي تعايشت في اويكومين العالم القديم بين سنتي ٤٨م و ٢٢٠م. « فزمن الاضطراب » في العالم الهليني استمر من ٤٣١ ق.م. الى ٣٢ ق.م.، وفي جنوب غرب اسية وفي مصر استمر من ٣٣٤ ق.م. إلى ٣١ ق.م.، « وزمن الاضطراب » في الهند بدأ حوالي سنة ٥٠٠ ق.م. واستمر حتى ٣٢٢ ق.م. وعاد للمرة الثانية، بعد مدة هدوء قصيرة، من حوالي ٢٠٠ ق.م. إلى ٤٨م، وفي الصين امتد « زمن الاضطراب » من سنة ٥٠٦ ق.م. إلى ٢٢١ ق.م.

وقد عرضنا في الفصل الخامس والعشرين بصورة عامة لخمسة من اصحاب النفوس الكبيرة التي استجابت أفراداً لتجربة الألم العامة، حتى في وقت مبكر في القرن السادس ق.م.

وقد تخلى كلٌ من هؤلاء الخمسة عن دين مجتمعه التقليدي. وكان التخلي عنيفاً في بعض الحالات، وكان أكثر لباقة في حالات أخرى، إلا أنه كان، في كل حال، ثورياً. فاشعياء الثاني أعلن، بما لا يقبل البحث، على نحو ما أعلن اخناتون قبل ذلك بسبعة قرون، انه يوجد اله واحد فقط. (كان حوزيا، ملك جنوب فلسطين، قد مهد السبيل لوقفة اشعياء الثاني هذه بالغائه جميع الاماكن المقدسة في مملكته، باستثناء هيكل القدس، وباخراجه، من هذا الهيكل، جميع الالهة والالهات الذين كانوا قد تقاسموه من قبل مع يهوه). وقد خفض زرواستر رتبة جميع الالهة في مجمع الالهة الايراني التقليدي، إلى

درجة الشياطين، باستثناء واحد - « الروح الاكبر » أهورا مزدا. وحاول فيثاغورس اصلاح اسلوب الحياة الهلينية بطريقة تحكمية بحيث أنه أثار ثورة مضادة. وفي الهند تجاهل بوذا وماهافيرا (مؤسس الديانة اليانية) كلاهما آلهة المجتمع الهندي الآري التقليدي ونظام الطبقات. وأعلن كونفوشيوس - ولعله كان يعتقد ذلك - انه كان يعيد الروح الاصلي للمؤسسات الصينية التقليدية؛ ومع ذلك فانه بتفسيره « شرف المحتد » على أنه خصلة خلقية لا امتيازاً موروثاً، كان يُحْدِث ثورة اخلاقية.

هؤلاء الخمسة أصحاب الرؤى جميعهم تفلتوا من الاطار الاجتماعي التقليدي للديانة وأقاموا اتصالاً شخصياً مباشراً مع الحقيقة الروحية القائمة خلف الظواهر، مع ان إثنين فقط منهم، وهما زرواستر واشعياء الثاني، أدركا أن هذه الحقيقة المطلقة هي ذات شخصية شبه - بشرية وهي تختلف عن الآلهة الرفاق الذين أنزلت مرتبتهم او طرحوا خارجاً في نقطتين هما: إن هذه الشخصية فريدة وإنها قادرة على كل شيء. وفي نطاق اللاهوت الذي علمه زرواستر نجد ان هاتين الصفتين هما، بالنسبة إلى أهورا مزدا، إمكانتان، وان تكاملهما يتوقف على انتصاره النهائي في حربه القائمة على قوى الشر التي لم تقهر بعد.

وإذا استمر تألم البشرية في العالم القديم وازداد حدة على مر الزمن، فقد ولّد حاجة لإقامة صلات مع الحقيقة المطلقة بحيث لا يكتفى بأن تكون مباشرة فحسب، بل يجب ان تشبع العاطفة ايضاً. وقد اقتضى هذا الطلب الاحتفاظ بتصور لطبيعة الحقيقة الروحية المطلقة، أو باحياء لمثل هذا التصور، بحيث تكون (الحقيقة) شبيهة بالانسان بمعنى ان تكون شخصاً أو الهاً، على الأقل، مظهره شخصي. كان المتعبد يتوق إلى ان يصبح مؤمناً، وأن يعتقد جازماً في خير الحقيقة الروحية المطلقة وقوتها. وكان هذا التوق يجاريه تحرق الى حقيقة روحية بحيث يبدو شعور هذه الحقيقة بالعناية بحاجة المتعبد البشري واضحاً، وان تكون لهذه الحقيقة القدرة على تخليصه (أي المتعبد) من الشر بشكل لا يقبل الجدل. ومثل هذه المتطلبات العاطفية يمكن تحقيقها فقط عن طريق إقامة علاقة بين شخصيتين - الواحدة بشرية والثانية الهية!

في الصين وفي الهند وفي العالم الهليني حيث كان التصور شبه - الانساني لطبيعة الحقيقة المطلقة قد هبط الى ما هو دون أفق الفلاسفة، فان رد الفعل العاطفي للتألم اقتضى احياء الظاهرة التقليدية الشبيهة بالانسان لشخصية الحقيقة المطلقة، وهي التي

احتفظ بها لاهوت الزرواسترية واليهودية. وفي الهند والصين أعادت الديانات الجديدة التي تفتقت، بشكل ضعيف، عن الفلسفات الاقليمية للالوهية مكانتها، واتجهت، مؤقتاً، نحو التوحيد. لكنها لم تصبح توحيدية بما لا يقبل الجدل حسب النموذج اليهودي. وفي حوض البحر المتوسط عادت الى الالوهية الحياة على نمط توحيدي لكنه كان متسامحاً، على نحو ما يظهر في الروح الهندية والصينية، في جميع الديانات الاقليمية المتنافسة، باستثناء الدين الذي قدر له الانتصار في النهاية. فالمسيحية المنتصرة ورثت عن سابقتها، اليهودية، التوحيد المتزمت. لكن المسيحية خرجت عن التوحيد اليهودي بأنها ابتلعت وتمثلت الديانات المنافسة المقهورة، والتي كانت، بأجمعها، ديانات لا يهودية.

شاهد القرن الثالث للميلاد تمزق كل من الامبراطوريات الأربع التي كانت، لمدة قرنين تقريباً، قد امتدت عبر العالم القديم في خط جغرافي متجاور. إلا أن الالم الروحي الطويل الأمد للبشرية والذي كان قد سبق فترة الراحة كان، عند حلول القرن الثالث للميلاد، قد انتج نتائج تاريخية. نفي كل من الامبراطوريات الأربع كانت الديانات والفلسفات الاقليمية قد انتجت ديانات جديدة، ذات طابع مميز. وقد استنبطت هذه الديانات الجديدة من القديمة بطريقة الاختيار والنشر والتركيب. والعوامل المساعدة في نشر الديانات الجديدة كانت الشتات (الدياسبورة) وقد كان اوائل المجندين في الشتات هم المهجرون، وسارت على خطاهم الحاميات العسكرية التي كان يقيمها بناة الامبراطوريات في البلاد المفتوحة، وكان التجار يتبعون هؤلاء. وقد حمل المتنزعون من أرضهم والمنقولون إلى بلاد أخرى، سواء كان ذلك ثابتاً أو مؤقتاً، ما يمكن حمله من أساليب حياة الاسلاف. واصبح هؤلاء المهاجرون، بطريقة اوتومانيكية، ناشرين لهذه الأمور التقليدية، بين الاكثريات الأجنبية في مواطن المغتربين الجديدة. وقد يصبح المغتربون ايضاً ناشرين، واعين ومتعمدين، للثروة الروحية التي حملوها معهم. وأخيراً فان الكهنة قدموا خدمة كبيرة للديانات الجديدة، كما حملها المبشرون إلى مناطق نائية. وكان هؤلاء الكهان والمبشرون محترفين، مع أن دعوتهم الدينية لم تكن بالضرورة عملاً يشغل كل وقتهم.

إن نشر الديانات الأجنبية وتقبلها ثم امتزاجها بالديانات المحلية القائمة ـ كان ذلك كله أبعد مدى في المناطق التي كانت فيها الديانات المحلية عاجزة بشكل واضح عن تلبية حاجات البشرية العامة لديانة يمكنها ان تعين النفوس البشرية في صراعها مع زمن

الاضطراب. وقد كانت المناطق الجائعة روحياً هي الواقعة في الطرفين البعيدين أي في العالم الهليني والصين.

أعان انتشار الديانات الجديدة على تلبية المطالب الاقليمية وسائلُ النقل الحديثة التي كانت نتيجة إيجابية للحروب، واقتلاعُ الناس من أوطانهم والاستعمارُ والتجارةُ المسكونية. فقد كان ثمة طرق بحرية وبرية طويلة تصل طرفي اويكومين العالم القديم الابعدين. كان ثمة أيضاً لغات عامة، مثل الاغريقية الاتيكية المعروفة باسم كُوْيْني واللغة الارامية وأشكال ثلاثة من البهلوية واللهجات الهندية والسنسكريتية الجديدة التي تغلبت على اللهجات المحلية في القرن الثاني للميلاد في شمال الهند وعلى الدكن في القرن الثالث للميلاد. وثمة كُوْيْني صينية (فيها تسوية لأشكال الحروف واللغة المحكية)، وهي التي سادت في الصين بين الموظفين والتجار بعد توحيد العالم الصيني في سنة ٢٢١ ق.م. وكان ثمة واسطة ثالثة للتواصل وهي الفن المنظور. وهذه الوسائل العديدة الأشكال كانت ذات أثر بالغ لما كانت الامبراطوريات الأربع تتعايش في تجاور جغرافي واحدتها مع الأخرى. وفي هذه المدة التي تعتبر زمن توطيد سياسي وسلام نسبيين كان اويكومين العالم القديم في حالة من التواصل غير عادية.

اثناء عملية الاختيار والنشر والتقبل والتركيب التي انتهت بظهور الديانات الجديدة التي تشبع العواطف، كانت الوسائل الهلينية فعالة بشكل خاص. فاللغة الاغريقية والفن المتطور الاغريقي والفلسفة الاغريقية كانت تعمل يداً بيد في حوض البحر المتوسط « لتطوير » الديانات المختلفة التي كانت تنافس المسيحية هناك ولتطوير الدين الذي انتصر في النهاية عليها كلها، أي المسيحية بالذات.

ان الهلينية لم تُشْعِر بوجودها مباشرة بأية صيغة من الصيغ إلى أبعد من الهند شرقاً. إلا أن البوذية الماهايانية في شمال غرب الهند اتخذت من الفن المنظور الهليني أداة لها، على نحو ما اتخذت المسيحية والديانات التي فشلت في منافستها من ذلك الفن أداة، ولكن في حوض البحر المتوسط. ولما نقلت الماهايانية من شمال غرب الهند إلى شرق آسية عبر حوض سيحون ـ جيحون وحوض تاريم، رحلت الاداة نفسها معها. ومن هنا، من هذه الصيغة المنظورة، جاء تأثير الهلينية غير المباشر في شرق آسية. أما في الجهة المضادة فقد استمر الفن الهليني والفلسفة الهلينية في الانتشار في العمق في غرب اوروبة وشمال أفريقية على أساس أنهما (الفن والفلسفة) وسائل تحت تصرف المسيحية.

وهكذا فإن الهلينية كانت الوحيدة، بين المدنيات الاقليمية التي ظهرت قبل العصور الحديثة، التي شعر القوم بوجودها، ولو إلى درجة محدودة، عبر اويكومين العالم القديم من الساحل الشرقي (الهادي) إلى الساحل الغربي (الأطلسي).

إن زمن الاضطراب وما تبعه يربطان معاً، وللمرة الأولى، لا المناطق الرئيسة لاويكومين العالم القديم فحسب، بل حتى المناطق النائية منه. فقبل ذلك كانت المدنيات الاقليمية تنشأ منفصلة واحدتها عن الأخرى، وكانت كل منها تطور اسلوب حياتها على نحوها الخاص، وكانت الديانة جزءاً أصيلاً من هذا. ومع ان النمط العامل لكل من هذه المدنيات الاقليمية كان متميزاً، فإن هذه المدنيات جمعاء كانت قد ورثت، على المستوى الديني، عدداً من « الصور البدائية » التي تعود إلى مرحلة ما قبل المدنية في تاريخ البشرية. وهذا التراث العقلي المشترك مكّن للعنصر الديني في واحدة من المدنيات الاقليمية، عندما ينتزع نفسه من بقية الاجزاء المكونة لتلك المدنية، ان يتكيف نحو ديانة مدنية إقليمية أخرى، كما أنه يمكنه أن يُقْبَلَ في تلك الديانة الأخرى. وعلى العكس من بعض العناصر المدنية في مدنية إقليمية، نجد ان العناصر الدينية لم تكن غريبة كلياً عن المدنيات الاقليمية الأخرى.

ولعلّ أقدم هذه« الصور البدائية » المشتركة دينياً، هي الأم، وهي ولا شك أقوى هذه الصور. انها موضوع لأقدم تمثيل فني منظور للشكل البشري. ولما كانت الامومة، كما تبدو في هذه الصورة، لا تتعارض مع البكارة،فمن الواضح ان صورة الام هذه قد اتخذت شكلها قبل اكتشاف الابوة - أي قبل ان يعرف القوم ان المرأة لا يمكن ان تحمل قبل ان تكون لها علاقة جنسية مع ذكر. ولا أنه قد عُرِف، منذ فجر الوعي، ان الامومة كانت تعني ولادة طفل. ولكن التعرف إلى أن الأم لا بد لها من رفيق ذكر، وان الطفل لا بد ان يكون له أب، ليس أمراً بدائياً. وفي البدء تسلط ظل الأم على الطفل،أما الأب فإما أنه لم يكن له وجود، أو أنه كان، في أكثر الحالات، شخصاً صورياً. وقدرة الأم كبيرة بالنسبة إلى أي ذكر يمكن ان يعايشها، ومن ثم فقد اختار بعض الالهة الذكور الاقوياء الشكيمة ان يظلوا عزاباً. ويمكن التمثيل على ذلك بذكر آتون وأشور ويهوه ومثرا.

ونسبة القدرة عند الأم والطفل والأب تختلف بين واحدة وأخرى من المدنيات الإقليمية.وحتى في إطار مدنية واحدة فإنها تختلف بين مرحلة وأخرى في تاريخ تلك

المدنية. وهذا التباين جعل كلا من الصور المختلفة التي رسمت للعائلة المقدسة تجذب إليها من الناس اولئك الذين كانت صور أسلافهم لها مختلفة. فقد تزود مدنية إقليمية ما مظاهر للصورة العامة كانت محرومة منها مدنيات اقليمية أخرى.

صورة الام صورة متشكلة. فقد تكون اما لطفل بشري أو لذرية لأي نوع من الاحياء. وقد تكون، في الوقت ذاته، الأرض، التي هي الأم المشتركة للحياة بأجمعها. وفي كل مظهر من هذه المظاهر يتعين على الأم عادة ان تربي نسلها وتحبه. لكن، مع أنها تكاد تكون دوماً خصبة، فهي ليست سليمة التصرف دوماً. فالهة الأرض ـ كوتليكو الميزو ـ اميركية، أم الآلهة والبشر، وهيكاتي الالهة ـ الام الهلينية والآلهة ـ الام الهندية كالي ـ كل هذه كان في قدرتها ان تستعمل قوتها تخريباً وإيذاء، كما كانت تفعل ذلك ابداعاً وخيراً، وقد قامت بذلك فعلاً. وفي آسية الصغرى أوقعت الآلهة ـ الأم سيبيل أذى كبيراً بابنها أو زوجها او لعله كان الابن والزوج مندمجين كليهما في عشير ذكر فرد.

وما دامت حتى الأم يمكن ان تنجرف الى الوحشية، فلا غرابة في أن يكون الطقس، من الناحية الخلقية، قوة متقلبة. ذلك بأن الطقس متقلب بشكل جشع، وجشعه يمكن ان ينتهي باتلاف المزروعات بالفيضان أو الجفاف، وقد يمكن ان يحملها على انتاج وفير بمنحها المطر في الفصل المناسب أو منعه عنها أيضاً (ومعنى مناسب هنا ينصرف الى خدمة أغراض الانسان الفلاح). ومن المعتاد ان يكون اله ـ الطقس ذكراً، ومن اليسير ان يكون الأب. فبالمقارنة برق الأم العادي نحو طفلها فان حالة الأب، كحالة الطقس، تنتقل دون سابق معرفة لأن التصرف غير عقلاني، من الخير الى الغضب، وتعود ثانية من الغضب الى الخير.

وبالمقارنة نجد ان مسيرة الشمس اليومية والسنوية منتظمة مقننة، والشمس ذاتها عادلة. اذ انها تمنح نورها ودفئها لجميع الخلائق دون محاباة. فنحن نعتمد عليها بثقة أكبر من الثقة التي نوليها الأم الأرض، ودون ان نذكر الأب الطقس. ولكن بما ان الشمس تسمع وترى كل شيء يصنع على الأرض، فإنها تحتفظ بسجل لجميع الأرباح والخسائر الخلقية لكل كائن بشري.

لا تمنحنا النجوم الأخرى الثقة ذاتها التي تأتي من الشمس. فالسيارات مذبذبة كالطقس، والنجوم الثابتة جامدة، وقدر الانسان يقرره أثر النجوم، وقد يكون هذا الأثر سيِّء العاقبة.

تموت البذرة فصلاً كي تعود الى الحياة ثانية كغرسة سيتولى الزراع الانسان حصدها. وهذه القدرة الانباتية هي التي يعيش المؤمنون من البشر بأكل لحمها وشرب دمها. ومن المؤكد ان القدرة على انتاج الطعام هي هبة النفس ضحية للبشرية، وذنب موتها الطوعي يقع على رؤوس البشر الذين ينعمون بخيرها. والسر الكامن في ان هذه القدرة تموت وتبعث حية كل سنة، يمنح المؤمنين من البشر الأمل في ان موتهم ستعقبه القيامة ايضاً. ولكن اليست هذه القدرة الواهبة ذاتها هي ايضاً مجرمة؟ الا تلقي بالمؤمنين بها من بني البشر في حالة من الجنون بحيث أنهم يمزقون الكائنات الحية إرباً - بما في ذلك الكائنات البشرية - وينعمون بالتهام لحمها نيئاً؟

وثمة صورة بدائية أخرى هي صورة المخلص - وهو الذي نحتاجه نحن الكائنات البشرية في كل حين، إلا أننا أكثر حاجة اليه في زمن الاضطراب. وصورة أخرى هي صورة الاله المتجسد كائناً بشرياً. وقد كان الفرعون الهاً متجسداً. كان كل فرعون، على الأقل منذ بدء عهد الأسرة الفرعونية الخامسة، يعتبر أنه ولد لأمه البشرية دون تدخل أب بشري، ودون قيام أية علاقة جنسية عليا: بل ولد نتيجة كلمة أمر الهية ينطق بها. ومن الذي يدري في أي وقت سابق بعيد في تاريخ تطور الإنسان العاقل وتطور الكائنات السابقة للبشرية ظهرت صورة الاله المتجسد؟

والصور البدائية ليست متمايزة بالضرورة. فالإله المتجسد والمخلص والبذرة والابن قد تتوافق هوية واحدها مع هوية الآخر. الأم قد تكون عذراء واخصابها لا يحتاج شريكاً بشرياً، وطفلها، بالتبعية، لا أب له. وبديل ذلك ان تكون الأم زوجة متفانية في حبها لزوجها كتفانيها في حبها لابنها. وليس ثمة تأكيد على جنس صاحب الصورة باستثناء حالة واحدة. فالأم، بطبيعة الحال، لا يمكن ان تكون ذكراً، والطقس ندر ان يكون أنثى، ومع ذلك ففي ديانة مصر الفرعونية كانت الأرض ذكراً، والسماء أنثى. وفي أكثر الديانات نجد الشمس ذكراً إلا أن الشمس منتظم وعادل، وان يكون الرجل غير جشع فأمر فيه تناقض. ولذلك فثمة منطق أفضل في الجنس الأنثوي للالهة الشمس في مدينة أرينا الحثية، وعند الهة - الشمس اما تيرازو التي هي الأم الأولى للأسرة الامبراطورية اليابانية، وفي اللغة الالمانية (ونضيف هنا اللغة العربية - المترجم).

لقد عرضنا الى الآن المواد الممكن الافادة منها لنشوء ديانات جديدة قد تفي

بالحاجات الروحية للبشرية في زمن الاضطراب. فلننتقل الآن الى استعراض النتاج الواقعي. وسيكون عملنا أوضح فيما تتبعنا العرض منطقة منطقة.

ان الديانة المتوارثة « للمؤسسة » في الصين كانت قد انتهى أمرها في الواقع قبل ان يحس الناس بالحاجة الى ديانة تعبدية. « فالسماء » (تيان) كانت قد فقدت دلالتها الأصلية لشخصيتها قبل أيام كونفوشيوس. ان « سلطة السماء »، التي منحت أسرة امبراطورية ما تعتمد عليه بحسب ما قاله الأمراء ـ الاداريون ـ العلماء الكونفوشيون، وهم الذين وصلوا الى السلطة والنفوذ أثناء حكم هان وو ـ تي، كانت (أي سلطة السماء) في الحقيقة سلطة بشرية تمنحها هذه الطبقة المسيطرة نفسها وتستردها حسب الحاجة. والمادة الوحيدة االتي كانت متيسرة في الصين لديانة تعبدية كانت عبادات طقسية محلية بدائية حضارياً. وقد فتح توحيد الصين السياسي، في سنة ٢٢١ ق.م.، الطريق أمام هذه العبادات الطقسية لأن تلتحم بعضها بالبعض الآخر وبالفلسفات التي عرفتها « المؤسسة ». إن الكونفوشية التي استنها وو ـ تي أساساً لتولي المناصب العامة لم تكن فلسفة كونفوشيوس ومنشيوس. فقد أفسد هذه الفلسفة اختلاطها بديانة عامة اختلاطاً غير متكافىء معها. والافساد المقابل للطاوية ذهب بعيداً جداً. فالفلسفة الطاوية ـ التي كانت تعزف، بالمرة، عن المشاركة في القضايا العامة ـ كان باستطاعتها ان تزدهر في الوقت الذي كانت فيه الكونفوشية في أفول. فعلى سبيل المثال كانت الطاوية في صعود في مطلع حكم هان ليو بانغ، كما أنها تمتعت بازدهار آخر في القرن الثاني للميلاد، إذ أظهرت ثلاثة قرون من التجربة المحزنة ان الكونفوشية اساءت استعمال احتكارها للسلطة الادارية. إلا أنه مع هذا الانتعاش للطاوية على أنها فلسفة متحذلقة، فقد أنتجت الطاوية، في الوقت ذاته، ديانة شعبية. وهذه الديانة نظمت بشكل فعال بحيث انها زودت، بالتشجيع والقيادة، ثورتين قام بهما الفلاحون متحدين حكم الهان الشرقية سنة ١٨٤ م.

هل كان هذا التحول الذي نقل فلسفة صينية اصيلة الى ديانة تطوراً صينياً ذاتياً، أم هل كان مبعثه خارجياً مثل الماهايانا ـ وهي ديانة تعبدية ذات أصل هندي كانت قد انبعثت من الفلسفة البوذية الشيرافادية؟ لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال الأخير، اذا نحن أخذنا بعين الاعتبار، ان الماهايانا كانت، في القرن الثاني للميلاد، قد أخذت تدخل الصين دخولاً رفيقاً. من المؤكد انه لما كان دخول الماهايانا الى الصين على أشده فيما بعد، أخذت الديانة الطاوية (وكانت هذه قد استمرت بعد فشل الثورتين الفلاحيتين

اللتين كلأتهما) عقيدة الماهايانا وتنظيمها وذلك كي توفر للصين مقابلاً أصيلاً معترفا به لهذه الديانة الهندية القادمة من الخارج.

كان تطور الماهايانا في الهند عملية تدريجية ولم يكن ثمة انقطاع في الاستمرار، على المستويين الاجتماعي والتنظيمي. فنظام الرهبنة البوذي (سانغا) نقل من البوذية الثيرافادية الى الماهايانا، وهذا ظل الأساس التنظيمي للبوذية في تعدد أوجهها. ومن الجهة الثانية فان النتيجة التراكمية للتطور، على المستوى العقائدي، كان تغيراً داخلياً.

كان على الراهب البوذي الثيرافادي ان يجاهد، بكل مقدرته، كي يتم له الوصول الفردي الى النيرفانا؛ وذلك لأن الكاهن، مع انه يستوحي تعاليم بوذا وقدرته، لا يستطيع ان يطلب من بوذا نفسه العون الروحي، لأن بوذا نفسه، بعد ان وصل الى حالة النرفانا، لم يعد الوصول اليه ممكناً. لقد ظلت النرفانا الهدف الأخير للراهب الماهاياني، لكن الهدف الأول مرتبة لهذا الراهب كان ان يصبح بوذيساتفا، وكان يستطيع ان يتطلع الى الحصول على العون، في محاولته بلوغ هذا الهدف، من مجمّع البوذيساتفا القائمين، والذين يمكن ان يتقدم اليهم للحصول على هذا العون. فالبوذي الماهاياني كان يأمل في الوصول الى هدفه المباشر، بمساعدة بوذيساتفا؛ وهذا لم يكن المقصود منه الوصول الى النرفانا، بل الوصول الى الاقامة في السماء.

والبوذيساتفا هو عامل في التجربة الروحية التي وضع بوذا أسسها. لقد وصل الى عتبة النرفانا، وأصبح باستطاعته الآن ان يدخل النرفانا اذا اختار ذلك؛ إلا أنه قد اختار بدلاً عن ذلك (كما اختار بوذا نفسه)، وكان اختياره تطوعاً، أن يؤجل دخوله، وذلك كي يقدم المساعدة لزملائه المنتظرين. واذا نظرنا الى القضية في إطار « الصور البدائية » فالبوذيساتفا هو المخلص. وقد غيّر أحد البوذيساتفا، واسمه افالوكيتا، جنسه في الصين كي يتم له ان يكون كوان ين، أي روح الرحمة الانثوي. فقد كان هناك حاجة شديدة للأم في الصين بعد سقوط حكم الهان الشرقية، وعندها تقدمت كوان ين للقيام بهذا الدور المناسب زمنيا. ان العطف الغيري، الذي كان عند البوذيساتفا، كان يثير في البوذي الماهاياني استجابة تعبدية ورغبة في ان يحاول السير على خطى البوذيساتفا. فالماهايانا هي، في واقع الأمر، ديانة تعبدية من النوع الذي يتطلبه زمن الاضطراب.

يبدو ان الماهايانا اتضحت معالمها خلال القرنين الأولين للميلاد، وانها تبلورت في شمال غرب الهند، حيث كانت المدرسة السرفاستيفادية المحلية للفلسفة البوذية أكثر

استعداداً من الشيرافاديين المتمركزين في الجنوب، للتحرك في اتجاه الماهايانية. وفي الوقت ذاته كانت الهندوكية تمر بتغير مماثل، وهذا انتهى أخيراً، ولو تدريجياً، الى حالة جمود. وهنا لم يكن ثمة انقطاع في الاستمرار على المستوى التنظيمي. والحلقة التنظيمية في هذه الحالة كانت طبقة البراهمة. فالبراهمة احتفظوا بسيطرتهم على الهندوكية بالرغم من التبدلات الجنسية في هذه الديانة.

تتفق الهندوكية الفيدية والديانة الرومانية الاصلية في ان العلاقة بين الآلهة والمتعبدين لهم كانت تقوم على تبادل مألوف. فاذا تمت الطقوس بشكل صحيح، ترتب على الآلهه ان تتجاوب تجاوباً صحيحاً، وكان الأصل المعتمد المنفعة الذاتية. وفي الصيغة الجديدة للهندوكية، التي كانت في حقيقتها ديانة جديدة، كان الالهان شيفا وفيشنو نظيرين للبوذيساتفا البوذي الماهاياني. ومن المحتمل ان هذين الالهين الهندوكيين كانا يعبدان قبل الميلاد بمدة طويلة، ولكن لعلهما كان لهما اسمان آخران. والصفة الجديدة التي بدّلت عبادتهما كانت إدخال علاقة عاطفية بينهما وبين المؤمنين بهما. ففيشنو، مثل البوذيساتفا اميتابها، هو المخلص، وهو كذلك الإله الذي يتجسد. وتجسداته الأكثر شعبية هما راما وكرِشنا، إلا أنه قد تجسد في بوذا ايضا. وشيفا كان يملك خلقية تكافؤ الضدين لصورتي الطقس والانبات البدائيتين. كان بإمكانه ان يكون مخرباً ومبدعاً ولم يتجسد قط والمتعبدون له من البشر هم تحت رحمة جشعه. وشيفا هو الحقيقة الروحية والقدرة القائمتان خلف كلية الطبيعة. ليس له اهتمام خاص بخير الانسان إلا أن الانسان يتوجب عليه ان يقبل بشيفا كما يجده، اذ ان الانسان هو نفسه جزء من الطبيعة التي يمثلها شيفا.

كان توحيد زرواستر العنيف قد اخطأ المرمى في ايران. فقد استولى الكهنة الايرانيون التقليديون اي المجوس على ديانته الثورية، كما استولى البراهمة، على عبادة فيشنو وشيفا الطقسية في الهند. فبعد وفاة زرواستر حدث في إيران مثل ما حدث في مصر عقيب وفاة اخناتون، أي ان تعدد الآلهة عاد الى نشاطه بذلك استجابة للجوع المستمر لذلك. والصفات الروحية التي كانت لاهورا مزدا آلت الى الهات تساويها في العدد، وكل لها كيانها الخاص بها. يضاف الى ذلك ان اناهيتا، وهي آلهة - ماء محببة تعود في أُصلها الى ما قبل الزرواسترية، نجحت في استرجاع مكانتها. وقد كانت هذه خطى على طريق

تحول الزرواسترية الى ديانة عاطفية؛ إلا أن هذه الخطوات الأولى لم تسر قدما، حتى ان الزرواسترية المخففة، التي صنعها المجوس، لم تكسب قلوب الايرانيين تماماً.

إن بلاد المشرق، حتى لو ضممنا اليها حوض الرافدين، ليست أوسع رقعة من اي من الهند او الصين، إلا انها،في العصر السابق لتوحيدها السياسي مرتين في عهد الامبراطورية الفارسية اولا ثم في زمن الامبراطورية الرومانية، كانت أقل اتساقاً على المستوى الثقافي من اي من شبه القارة الهندية والصينية. فهذه المنطقة الصغيرة نسبياً، الواقعة الى الغرب من ايران، نشأ فيها ما لا يقل عن خمس مدنيات: السومرية ـ الأكديّة والمصرية الفرعونية والسورية والاناضولية والهلينية. يضاف الى ذلك ان هذه المدنيات، بالرغم من مصاقبتها واحدتها للأخرى، لم تكن منفصلة فحسب، لقد كانت الفروق بينها كبيرة في كلا الأمرين ـ الأسلوب الخارجي والروح الداخلية. ومن ثم فقد كان تفاعلها نشيطاً لما خلق زمن الاضطراب الحاجة الى ديانة تشبع العواطف. وقد قوي هذا التفاعل بسبب الفقر الروحي الواضح الذي كانت تشكو منه واحدة من هذه المدنيات الاقليمية الخمس، وهي المدنية الهلينية. صحيح ان العالم الهليني، في عصر ما بعد الاسكندر، لم يكن يعاني نقصاً في المصادر الروحية الأصلية كذلك الذي كانت تشكو منه الصين المعاصرة له. فقد حافظت ديانتان، على الأقل، في العصر الذي افتتحه الاسكندر في المشرق، لما هاجم الامبراطورية الفارسية سنة ٣٣٤ ق.م.، على حيويتهما: الأسرار الاليوزينية وعبادة ديونيسوس. فديمترا الاليوزينية كانت الأم الأرض؛ وابنتها « كوري » وهي فتاة، كانت البذرة التي تموت وتدفن وتعود الى الحياة ثانية. وقد كان قبول شخص في هذه الأسراريضمن له نعيماً أبدياً بعد الموت، في جنة الخلد (في العالم الآخر). اما ديونيسوس فقد كان النظير الهليني لشيفا. لقد كان أخلاقياً وشرهاً في طبيعته المتناقضة. وقد تخطت الأسرار الاليوزينية العوائق واستمرت في عصر ما بعد الاسكندر من التاريخ الهليني، كما ان عبادة ديونيسوس عادت اليها الحياة بشكل ايجابي.

وفي الوقت ذاته ثبتت الحياة الخاصة حاجاتها ضد متطلبات الخدمة العامة، فكان ان لبت الأسرار الاليوزينية وعبادة ديونيسوس حاجات الكائنات البشرية الروحية، بغضّ النظر عما اذا كان الطالبون مواطنين ام غرباء، وأشخاصاً أحراراً أم عبيداً، وذكوراً أم إناثاً. لقد كان هناك، بطبيعة الحال، عبدة عامة لديونيسوس في أثينا؛ وقد كانت التمثيلية الاتيكية جزءاً منها. وقد كانت الأسرار الاليوزينية ايضا تحت جناح المدينة ـ الدولة

الاثينية؛ إلا ان اليوزيس بالذات لم تكن مدينة ـ دولة ذات سيادة، على نحو ما كانت عليه أثينا. لقد كانت مدينة مقدسة، وكان وقوعها في بلاد الدولة الاثينية مصادفة، وبسبب انها كانت مقدسة « لا سياسية » فقد كان باستطاعة أي كائن بشري ان يصل إليها. اما فيما يتعلق بعبادة ديونيسوس، فإن إحياءها في عصر مابعد الاسكندر كان عملاً دينياً خاصاً، هدفه تلبية الحاجات الروحية الخاصة. والفعاليات التي أدت الى انتشار الاحياء الديونيسي في العالم الهليني في عصر ما بعد الاسكندر لم تكن الحكومات، لقد كانت جماعات خاصة (ثياسوي)؛ وقد وضعت شعبية هذه الديانة الهائمة بعض الحكومات في مآزق، وذلك لما أصبحت العبادة فيها شأناً خاصاً. ان بطليموس الرابع (حكم ٢٢١- ٢٠٣ ق.م .) وهو أبرز اتباع باخوس سياسياً في عصر ما بعد الاسكندر، طلب من الجماعات (ثياسوي) الباخية في مملكته ان يتسجلوا في الدواوين؛ والحكومة الرومانية قضت على الجماعات (ثياسوي) الباخية في ايطالية (١٨٥- ١٨١ ق.م .).

بعد ان قضى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية قام سباق بين الديانات المتنافسة كي تصبح الديانة العالمية للمشرق، ومثل هذا الأمر حدث في حوض البحر المتوسط بكامله لما توحد سياسياً تحت حكم الامبراطورية الرومانية. وقد نجحت المسيحية في هذه المنافسة وذلك باتباعها سبيلاً كانت له سابقة في اللاهوت المصري الفرعوني. كان المصريون يعتقدون بأن الفرعون، حين وفاته، كانت واحدة من أرواحه، وهي الروح التي يمكن ان تعتزل الأرواح الأخرى، تصعد الى السماء، وهناك كانت تلتهم بقية الالهة التي كانت القادمة الجديدة تجدها مستقرة هناك. وإذ يلتهم الفرعون هذه الآلهة المنافسة، فإنه يستولي على قوتها. وقد استولت المسيحية على قدرات منافساتها وذلك بتقليد العمل الأسطوري للفرعون الصاعد. فالتهمت المسيحية الآلهة والالهات السورية والمصرية والاناضولية والهلينية، ومن ثم فقد انتقلت قوى هذه الآلهة والالهات إليها وأصبحت قوة لها.

وفي السباق للاستيلاء على دور الأم، كان هناك على الأقل خمس طالبات هن اللواتي تقدمن لذلك. وهذه كانت إيزيس المصرية وسيبيل الفريجية وارطميس الأفسية وديمترا الاليوزينية وآلهة متجسدة في مريم، زوج لنجار الجليلي. وقد كسبت مريم السباق اذ اتخذت شخصية إيزيس المتهلّنة وصورتها وصفاتها. في سنة ٢٠٤ ق.م. خففت

الحكومة الرومانية من حدة الحروب الهنيبعلية بأن استوردت سيبيل من بسينوس او لعل ذلك كان من برغاموم، وذلك في شكلها الوطني كحجر أسود يقوم خصيان على خدمته. فلما خفت الحدة، عزلت هذه الضيفة الفريجية في رومة، وهي التي كانت قد دعيت بشيء من التهور، بقدر ما كان ذلك ممكناً عملياً. وفي الجهة الثانية كانت إيزيس قد تهلينَتْ كنظيرة منعشة لديمترا قبل ان تصبح مما ينقل بحراً (بلاجيا). وبهذا الزي اجتاحت إيزيس الامبراطورية الرومانية تحف بها علامات النصر.

وأما في بيتها، في مصر، فقد كانت إيزيس الزوجة الوفية للآلهة اوزيريس الذي كان قد مات وحُنِّط، لكن زوج الآلهة المصري لم يكن قابلاً للتصدير، وكان لبطليموس الأول مستشاران مشتركان للشؤون الدينية، هما منيثو الكاهن المصري والكاهن الاغريقي الاليوزيني تيموثيوس. هذان المستشاران صعا زوجاً لايزيس قابل للتصدير هو سرابيس - وهو « ضم » لاوزيريس مع أبيس الإله المصري المتجسد في عجل. والفراغ الروحي الذي نشأ عن إزالة زفس (وقد أصابه ما أصاب تيان) أتاح لسرابيس المجال لأن يدخل مجمّع الآلهة الهليني. إلا أن سرابيس، في هيأته الهلينية المحترمة كان نسخة فضفاضة من اسكليبوس، إله الشفاء الهليني. ولم يكن بإمكان سرابيس ان يحل محل زفس بحيث أنه يشكل الأب في العالم الهليني. وقد اقتنص يهوه إله اليهود الوطني الحاذق، هذا الدور.

لم تكن إيزيس الزوجة الوفية فحسب، بل كانت الأم الحنون أيضاً. وقد ربت إبنها حورس كي يصبح حامياً ومخلصاً لأوزيريس الذي تعود اليه الحياة. وفي السباق الذي قام في المشرق خارج حدود مصر، للحصول على دور الابن، لم يكن لحورس مجال ليجاري يسوع ابن مريم.

إن أقدم ما وصل الينا من أخبار يسوع هي الأعمال التي دونها أتباعه المتحمسون الذين كانوا قد قبلوا العقيدة بأن يسوع، مثل الفراعنة، لم يكن له أب إنسان، بل إنه ولد لأمه من إله. وفي حالة يسوع لم يكن الاله رع (المصري) بل الله. (كان واسطة الله روحه؛ ذلك بأن صفات الله، مثل صفات أهورا مزدا، قد أصبحت آلهة صغيرة كل منها لها شخصيتها الخاصة بها، وذلك لتخفيف التزمت الروحي للتوحيد). وبحسب ما ورد في الكتب المقدسة المسيحية فقد رفض يسوع نفسه فكرة الألوهية بالنسبة إليه في أي معنى كانت. وعلى الأقل في قولين له مدونين يرمي يسوع الى القول بأنه لا يستوي مع الله في الهوية. إلا أنه يمكن ان يكون إلها بالمعنى الهندوكي، في كونه إنساناً قضى نهائياً

على ذاته EGO. ومن ثم فقد نزع جانباً النقاب الذي يغطي، في أكثر الرجال، الحقيقة الروحية المطلقة القائمة في الداخل. وبالنسبة الى المدرسة اللاثنائية في الفكر الهندي تكون هذه الحقيقة المطلقة أساساً لجميع المظاهر، وهي تُشِعُّ أنوارها بالشكل والحين حينما يُنزع هذا النقاب المعيق الذي يدور حول التمركز النفسي الفردي. ولعل هذه الرؤية المباشرة للحقيقة الروحية المطلقة، عبر يسوع، هي التي حملت المؤمنين به من غير اليهود على التصدي له؛ لكن لو ان يسوع ذاته عاش حتى دعي اليها، فمما لا ريب فيه انه كان أنكر وضعاً لا يمكنه القبول به. ولعله كان، أسوة بغيره من أحبار اليهود، يدعو نفسه « ابن الله »؛ إلا أنه، من حيث التعبير اليهودي، تصبح بنوته لله هذه تعبيراً مجازياً القصد منها التنويه بعلاقة ود وثقة خاصة به. كان يسوع من مستقيمي الرأي، ولذلك فإن أفقه الجغرافي والعنصري كان متجهاً نحو يهود فلسطين. ولما أرسل تلاميذه في حملة تبشيرية، أشار عليهم بأن يكتفوا بوعظ الخراف الضالة.

واتباع يسوع من اليهود لم يتهموه بأنه لم يكن من مستقيمي الرأي. ولقد اختلف يسوع مع الفريسيين لأن يسوع فسر الشريعة اليهودية باعتباره صاحب سلطان، دون ان ينتظر بعض الوقت ليحصل على إجماع مسبق للأحبار حول نقطة ما. وتكاد تكون أكثر تفسيرات يسوع غير التقليدية التي انفرد بها تتفق تماماً مع زملائه من الأحبار الذين اتبعوا التقليد المألوف. اما الصدوقيون فقد وافقوا السلطات الرومانية المحلية لما حكمت على يسوع بالموت لأنه سمح لليهود المقيمين في القدس ان يخاطبوه على أنه « المخلص » (أي الانسان المحرر الملكي للشعب اليهودي). لقد تمسك الصدوقيون بموقفهم وهو أن إعدام يهودي متطرف واحد كان ضماناً شرعياً لمنع قيام مجموعة مخلصية يهودية قد يحتاج إخمادها إلى إزهاق أرواح الكثيرين من اليهود. ولنا ان نخمن ان يسوع لم يتفرد كثيراً إذ أنه كانت له مشاركات كثيرة مع الفريسيين. والفريسيون، على العكس من الهشمونيين وخلفائهم المتعصبين، رفضوا ان يحملوا السلاح ضد الحكومات، وطنية كانت ام أجنبية، ما دامت تلك الحكومات تسمح لرعاياها اليهود بأن يمارسوا ديانتهم اليهودية بموجب متطلبات التقليد اليهودي السوي.

يسوع ابن مريم والله (يهوه) أب يسوع، يطغيان على مريم بالذات بموجب اللاهوت الرسمي للكنيسة المسيحية. وقد يبدو، للوهلة الأولى، كما لو ان إيزيس قد تراجعت عن مكانها إذ اتخذت صورة مريم، لأن إيزيس كانت قد خلفت زوجها وابنها وراءها في

مصر لما بدأت رحلتها عبر العالم الهليني. ومع ذلك فمريم والدة الإله (ثيوتوكوس) هي، في القسم الأكبر من العالم المسيحي غير الانجيلي (البروتستانتي)، إلهة في كل شيء إلا في الاسم. وفي هذا التفرع حافظت إيزيس على قدرتها التي كانت لها في زمن ما قبل المسيحية.

كان يهوه، مثل زفس، قد بدأ عهده على أنه إله الطقس. ولما كان زفس قد خرج من ميدان السباق، فان المنافس الوحيد ليهوه للقيام بهذا الدور هو جوبيتر دوليخينوس، وهي صيغة مُرَوْمَنَة لإله الطقس لبلدة دوليخي (دولخ) التي تحتل موقعاً استراتيجيا في شمال سورية. عند دوليخي يتقاطع الطريق الجنوبي الشمالي الذي يربط مصر بآسية الصغرى مع الطريق الشرقي الغربي الذي يصل انحناءة الفرات الغربية بالبحر المتوسط. وترتب على ذلك أن دوليخي كانت محطة لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للجنود الرومان في تنقلهم من حدود الامبراطورية الشرقية او إليها أو حتى فيها. وترتب على ذلك أيضاً أن أصبح جوبيتر دوليخينوس يتمتع بشعبية كبيرة بين أفراد الجيش الروماني. وجعل عباده المحليون من الحثيين ركوبته ثوراً. فيما كان هو نفسه يقلب بين يديه صاعقة الطقس والبلطة المزدوجة. وقد ألبسه المؤمنون به من الرومان الزي الروماني. وتنقل، في هذا الزي، مع الجنود صعداً مع نهر الدانوب، ثم مع نهر الراين نزولاً، ثم جاز البحر الى التحصينات الهدرياتية في بريطانية.

كان وضع دوليخينوس يفضل وضع يهوه في أمر واحد. فقد كان للأول زوج أنثى كانت تقابله كمساوية له، وكانت تقف على ظهر أيِّلَة. وقد كان لزوجات الجنود الرومان، دور الى جانب أزواجهن في عبادة دوليخينوس. ومع ذلك فإن امتلاك دوليخينوس لب الجنود كان قصير الأمد. لقد بدأ في القرن الثاني للميلاد وانتهى في القرن الثالث. كان لجوبيتر دوليخينوس حيوية أقوى من حيوية سرابيس، إلا أنه لم يكن، هو أيضاً، كفؤا ليهوه.

وفي مجال التنافس على دور البذرة التي تموت وتعود الى الحياة، خرج اوزيريس المصري بسبب تحنيطه، كما خرج أتيس الاناضولي بسبب خصيه لنفسه؛ وتموز السومري ـ الأكدي كان قد انحدر مع بقية أجزاء مجمّع الآلهة السومري ـ الاكدي، باستثناء النجميات. وكان ثمة سباق عنيف بين أدونيس السوري وديونيسوس وكوري الاليوزيني وباخوس، ولكن حتى في هذا السباق، كان يسوع هو المجلي. فقد اعتقد

بعض أتباعه أنهم رأوه حياً في اليوم الثالث بعد صلبه، ثم ظهر لهم في عدد من المناسبات التالية. فلما كتب القديس بولس رسالته الأولى الى أهل كورنثوس كان الطقس الديني المميز للجماعة المسيحية قد أصبح أكل جسد المسيح وشرب دمه في بدائل نباتية: الخبز والخمر؛ واستقرت الصيغة اللفظية للطقس الديني. فلا ديونيسوس أو أدونيس كسب دور الله الميت والمحيي، بل يسوع هو الذي كسب ذلك، وهذا بالاضافة الى انتصاراته الأخرى.

لقد كان ليسوع منافسون أشد شكيمة في دور المخلص، ولكن أعنف جهاد بذله كان في اقتناص دور الإله المتجسد.

كان المخلصان المنافسان ليسوع هما خورس الذي انتصر على خاله سيت، ومثرا وهو إله ايراني كان زرواستر قد أنزله الى منزلة الشياطين، إلا أنه هاجر من إيران الى آسية الصغرى، وكمهاجر ثبّت ألوهيته متحالفاً مع الشمس والنجوم التي تملك الحظوظ. وكان ارتفاع أسهم مثرا، مثل دوليخينوس، يعود الى اهتمام الجيش الروماني. فقد حمل الجنود مثرا من الفرات الى تاين وسُلوى (في بريطانية)؛ إلا أن حياته كانت قصيرة. فقد بدأ حظه في القرن الأول للميلاد، وفي القرن الرابع كان مثرا يحارب في معركة خاسرة ضد يسوع.

تنافس مثرا ويسوع في تشددهما في المطالب الأخلاقية التي فرضاها على المؤمنين بهما، لكن مثرا كان في وضع أضعف في أمرين حاسمين. فبدل ان يكون مثرا مضحياً وضحية بريئة، كان قاتلاً شريراً (إلا اذا كان الثور الذي قتله مثرا، بالمصادفة، هو شبه لمثرا بالذات). والأمر الثاني هو ان مثرا كان يكره النساء ولم يكفه انه كان بدون أم وأنه كان أعزب، بل ان عبادته، على خلاف عبادة دوليخينوس وعلى خلاف المسيحية، كانت تقبل الذكور فقط. كان يسوع أعرب مثل مثرا، لكن يسوع كان له أم مثال ـ إيزيس، وقد كان حتى في أضيق دائرة من اتباعه نساء مقدسات. ومن ثم فقد كان هناك مجال للنساء في حياة الكنيسة المسيحية.

أصبح يسوع، لا مثرا، مخلص شعوب البحر المتوسط. لقد رغبوا في ان يكون المخلص كائناً بشرياً مثلهم، ورغبوا ايضا في ان يكون هذا المخلص البشري ممثلاً للأكثرية البشرية التي لا امتيازات لها، والتي أسهمت الى درجة قصوى في الآلام التي هي أمر يشترك فيه العموم. والانسان الذي كسب هذا الدور كان، على ما يبدو، نجاراً لا حول له، لا ملكاً

بادي القوة. ولما قبل الملك بطليموس الأول لقب « مخلص »، الذي أطلقه عليه الروديون، لا شك انه كان سيدهش لو ان أحداً تنبأ له ان هذا اللقب سيرثه صانع يمكن ان يكون متحرراً من واحد من رعاياه الآسيويين - وهذا سيتم في وقت تكون فيه أسرة البطالسة قد انتهى أمرها بالمرة.

وكان أشد الأدوار مدعاة للمنافسة ذلك الدور المتعلق بالإله المتجسد. والنموذج السابق للإله المتجسد، هو الفرعون. وقد كان الامبراطور الروماني فرعوناً، إضافة الى كونه المدبر الأول للدولة نيابة عن مجلس الشيوخ والشعب الروماني. وهكذا فإن جميع الأباطرة على التوالي كان كل واحد منهم الوريث الشرعي للإله المتجسد المصري (الى ان رفض أورليان هذا التراث المصري). وكانت عبادة الإله البشري الامبراطوري الاسمنت الذي كان يربط أجزاء الامبراطورية واحدها بالآخر؛ كما كانت هذه العبادة قد حافظت على ترابط الملكية المصرية المزدوجة، لمدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة. وبقدر ما كانت الحكومة الامبراطورية الرومانية تتسامح مع أي من رعاياها في أن يعبدوا الامبراطور على أنه إله، فان الحكومة بتسامحها كانت تعرض للخطر الوحدة السياسية العزيزة عليها - ومعها السلام العزيز الذي لا يقدر بثمن - الذي منحته رومة للعالم الهليني.

وقد تسامحت الحكومة الرومانية مع رعاياها اليهود إذ رفضوا ان يقدموا للامبراطور ما يتطلبه من تكريم إلهي. لكن هذا الاستثناء لليهود كان محدوداً بطبيعة الحال لأن اليهود كانوا جماعة عرقية. ومثل هذا التسامح لو أنه منح للمسيحيين لكان الأمر على درجة كبيرة من الخطورة؛ ذلك لأن الكنيسة المسحية لم تكن محدودة باعتبارات عرقية؛ فقد كانت غايتها المعلنة هي ان تقبل البشرية جمعاء هذا الدين الجديد. وفي مقابل ذلك كان من المستحيل على المسيحيين ان يقوموا بالطقوس المتعلقة بعبادة الامبراطور دون ان يكون في عملهم هذا رفض ضمني بأن إله المسيحيين ليس هو الإله الحقيقي الوحيد. ومعنى هذا بالتمام هو رفض لروح المسيحية. ومن ثم فكان لا بد من قيام صدام مباشر بين الحكومة الرومانية والكنيسة المسيحية. وقد كان انتصار المسيحية في هذه المعركة غاية في العجب.

والديانة المنافسة الوحيدة التي لم يكن باستطاعة المسيحية ان تهضمها كما انه لم يكن بإمكانها القضاء عليها هي ديانة التنجيم (عبادة النجوم) البابلية.

بين سنتي ٣٣٤ ق.م. و ٢٢٠م شهد أويكومين العالم القديم قيام ثلاث ديانات تعبدية كبرى: الهندوكية المتعددة الآلهة والبوذية الماهايانية والمسيحية. وقدكانت كل من الماهايانية والمسيحية ديانة تبشيرية وكان المؤمنون بهما يطمعون في أن ينشروا دينهم بين البشر أجمعين. وفي الجهة الثانية كانت الهندوكية المتعددة الآلهة، مثل الزرواسترية واليهودية، دينا لمجتمع واحد خاص مغلق، وكانت مرتبطة بالمؤسسات والبنية الوطنية الخاصة بذلك المجتمع؛ هذا مع العلم بأن الوعاء الاجتماعي الذي ظهرت فيه الهندوكية كان كبيراً، بحيث انه كان مساوياً لعالم كامل في ذاته.

بدأت المسيحية وكأنها واحد من المذاهب العديدة التي قامت داخل اليهودية. والمسيحيون ـ (اليهود)، الذين كانوا المسيحيين الأصليين، كانوا يعتقدون، ولا شك، بأن يسوع عاد الى الحياة بعد أن أُميت. ومهما كانت التجارب التي أدت الى هذا المعتقد بين أتباع يسوع، فإن المعتقد نفسه كان مخلصاً بما لا يقبل الشك، ولأنه كان مخلصاً كان منعشاً روحياً. وهذا يبرر شفاء المسيحية من خيبة الأمل التي غشيت المسيحين نتيجة لرد الفعل الذي أصابهم من جراء صلب المسيح. والمسيحيون ـ (اليهود) كان يصعب عليهم ان يصدقوا ان الانسان ـ وهو يهودي مثلهم ـ الذي قام من بين الأموات كان ابن الله إلا بأخذ الأمر بالمعنى المجازي. إذ لو أنهم قبلوا هذا الاعتقاد لما أمكنهم ان يظلوا جزءاً من الكيان اليهودي؛ والواقع أنهم ظلوا فيه الى أن انقرضوا.

والنجاح الذي يدعو الى الدهشة ـ وقد تم على يد مسيحي يهودي هو القديس بولس ـ هو انتزاع مسيحية لا يهودية من الدين اليهودي، بحيث كان باستطاعة غير اليهود ان يقبلوا بها بحرية دون ان يلتزموا بمراعاة الشريعة اليهودية. ومما يدعو الى الاعجاب، بشكل مساو للدهشة الأولى، هو أن هذه المسيحية ذات الصيغة اليهودية السابقة، نجحت في النهاية في ان تضم اليها جميع سكان الامبراطورية الرومانية باستثناء اليهود، ومشايعي اليهود من اتباع يهوه الملتزمين أي السمرة.

إن المسيحية كما أوضحها القديس بولس نجحت في التغلب على الديانات الاقليمية المنافسة لها، بأن امتصتها، ولو ان ثمن ذلك كان التخفيف قليلاً من الوحدانية التي ورثتها عن اليهودية. ففي المسيحية كما شرحها القديس بولس، كما كان الحال في زرواسترية المجوس، رفعت صفات الله الحق الوحيد ـ في هذه الحال هي كلمة يهوه

وروح يهوه ـ الى درجة التساوي في المظهر مع الإله، فأصبح يسوع الإله المتجسد، بالمعنى ذاته كما كان الفرعون والقيصر وراما وكريشنا. وباعتبارها « أم الله » أصبحت أم يسوع الانسانة إلهة في الواقع.

وقد أفادت الكنيسة المسيحية قوة من فعالية تنظيمها. فالديانات المشرقية المنافسة، مثل نظام الرهبنة البوذي، لم يكن لها تنظيم مركزي. والجماعات المحلية التي ظلت محتفظة بارتباطها بهذه الديانات الأخرى كانت مستقلة إدارياً واحدتها عن الأخرى؛ وكل ما كان مشتركا بينها هو معتقد وطقوس متماثلة. وقد كان للمسيحية أيضاً جماعاتها المحلية. وقد اتسعت هذه من الناحية الجغرافية مع خلايا المدن ـ الدول القائمة في إطار الامبراطورية الرومانية. إلا ان المسيحية أخذت عن الامبراطورية الرومانية تنظيمها الى حد أنها أخضعت هذه الخلايا المحلية الى تدرج إداري كهنوتي على مستوى امبراطوري؛ وهذا الإنجاز التنظيمي كان فريداً من نوعه. ولامبراطوريات المدنية التي خلفت امبراطورية الاسكندر على أيدي خلفائه ـ بطليموس وسلوقس وليزماخوس ـ والتي كانت قد انطفأ ذكرها، عادت الى الظهور على انها بطريركيات كهنوتية مسيحية، فيما اعترف الزملاء الشرقيون لبطريرك روما (البابا) بأنه الأول بين أقرانه، مع أنهم لم يقبلوا دعوى البابا بأنه عهد اليه بالأولية وبسلطة اوتوقراطية على الكنيسة المسيحية الكاثوليكية بأجمعها خارج الحدود الجغرافية للبطريركية الرومانية.

وتحول فريق يهودي الى كنيسة مسيحية مسكونية أمر يدعو، في واقع الأمر، الى الدهشة؛ ومثل ذلك يقال عن تحول الفلسفة البوذية الترافادية الهندية الى الديانة البوذية الماهايانية المسكونية. وكانت قوة الماهايانية كديانة تبشيرية تكمن في استعداد المؤمنين بها الى التعايش بسلام مع الديانات التي كانت قائمة قبلاً في المناطق التي غزاها المبشرون الماهايانيون. ولم يكن في الماهايانية أي كبت قد يأتيها من ماضي البوذية الترافادية بحيث يحول دونها والتسامح او يجعل هدفها ليس الفتح بل التعايش المتكافل. وعلى العكس من ذلك فان الماضي اليهودي للمسيحية كان عائقاً للاهوتيين والمبشرين المسيحيين. فلم يكن باستطاعة المسيحية ان تعيش وتسمح لغيرها ايضا بالعيش؛ كان عليها اما ان تقضي على منافساتها او ان تمتصها. وكان مثل هذا الامتصاص يجب ان يتم بشكل خفي.

٣٩ـ المدنيتان الميزو ـ اميركية والاندية حول ٤٠٠ ق.م ـــ ٣٠٠م

ان التقدم الذي انتهى بالحضارة في ميزو ـ اميركا وفي العالم الاندي إلى الوصول إلى مستوى المدنية تحدثنا عنه في الفصل الحادي والعشرين. وقد كان مبدعو المدنية في ميزو ـ اميركا هم الأُولْمك؛ وفي العالم الاندي كانوا مخترعي الاسلوب الشافيني في الفن وناشريه. وقد أظهرت الفحوص الإشعاعية الكربونية، في مكان واحد على الاقل، وهو سان لورنزو في برزخ تيهوانتبك في ميزو ـ اميركا، ان ظهور أول نموذج لمدنية أُولمكية معروفة كان حوالى سنة ١٢٥٠ق.م؛ اما في لافنتا وتريز زابوتس، اللذين يقعان اقرب إلى ساحل المحيط الاطلسي، فقد كانت المدنية الأُولمكية مزدهرة بين حوالي ٨٠٠ و ٤٠٠ ق.م.؛ كما وانها كانت متعاصرة مع « الافق » الشافيني في العالم الاندي. واثناء العصر الذي تلا ذلك مباشرة أي حول ٤٤٠ ق.م. و ٣٠٠م. تقدمت المدنية باستمرار بحيث وصلت القمة في المنطقتين في الوقت ذاته، اذا كنا على استعداد لتقبل أي من الحسابين اللذين يعيّنان التوقيت (التأريخ) الاندي. إلا انه ثمة حساب ثالث يوقّت لبلوغ المدنية الاندية القمة قبل ذلك بنحو ستمئة سنة، أي حول ٣٠٠ق.م.

إن التوقيت (التأريخ) للمدنية الميزو ـ اميركية ثابت تماماً. إذ ان هناك نظاماً مستمراً للتأريخ في ميزو ـ اميركا، لعلّ اختراعه يعود إلى الأُولمك. وقد كَمُل تماماً على ايدي المايا في العصر « الكلاسيكي » للتاريخ الميزو ـ اميركي (حول ٣٠٠ـ ٩٠٠م). وهذا النظام الذي يعرّفه رجال الآثار المحدثون باسم « الحساب الطويل » قوبل بتأريخ مؤكد، باعتبار سني ما قبل الميلاد وما بعده، وضبط، عن طريق الفحوص الإشعاعية الكربونية لأعمار نماذج متعددة من الخشب التي انتزعت من افاريز ابواب هياكل المايا. وهي المرتبطة بتواريخ من « الحساب الطويل » منقوشة على الآثار المايا وية.

ليس من المعروف عن الشعوب الاندية انه كان لها نظام للتأريخ خاص بها. والاساس الوحيد للتأريخ الاندي، بالاضافة إلى الفحوص الإشعاعية الكربونية، هو دراسة طبقات ما تراكم من الآثار (مثل الابنية وقطع الفخار) في مواضع المدنية الاندية.

وقد فسر علماء الآثار هذه الطبقات في مفهوم تأريخي، وذلك باعتبار تخن المخلفات، وعدد الشرحات المتتالية التي حفظت في المخلفات الطبقية، ودرجة الفروق بين الشرحات في التوالي الزمني. إلا أنه تبين ان التواريخ بين حول ٤٠٠ق.م. و ١٤٣٨م، تختلف اختلافاً كبيراً بين التوقيتين، وذلك لما اخذت نماذج من محتويات الطبقات واخضعت لفحوص اشعاعية كربونية، ثم استخدمت النتائج المتحصل عليها من هذه الفحوص للتأكد من التأريخ (التوقيت) الفرضي المبني على توالي الطبقات. فعلى سبيل المثال يقع العصر المسمى « الكلاسيكي » أو عصر الازدهار في التأريخ الاندي، وهو العصر الذي بلغت فيه المدنية الاندية القمة، على اساس الفحوص الاشعاعية الكربونية، بين حوالى ٣٠٠ق.م. و ٥٠٠م، أما على اساس حساب الطبقات فانه يقع بين حول ٤٠٠- ١٠٠٠م.

هذا التفاوت محير. وليس من سبيل، ونحن على هذه الدرجة الحالية من المعرفة، لاصدار حكم اكيد في اي من التأريخين المتناقضين هو الصحيح. فالحساب الفرضيّ للطبقات واتخاذ ذلك اساساً للتوقيت هو امر ذاتي. وقد تكون النتيجة خاطئة. وفي الجهة الاخرى فان النماذج التي اتخذ فحصها الاشعاعي الكربوني اساساً للتأريخ الاندي وتوقيته ليست متعددة بما فيه الكفاية. والفحوص الاشعاعية الكربونية، المبني عليها توقيتات موزعة، قد لا تكون اقل تضليلاً من التوقيت الفرضي. فالتوقيت الاشعاعي الكربوني لا يمكن الاعتماد عليه كلياً إلا إذا عرفنا زمن الشيء المفحوص. فلنضرب لذلك مثلاً: إذا عثر على جائزة خشبية في بناية، وكانت هذه الخشبة مأخوذة من بناية اقدم عهداً، فاذا كان الأمر كذلك فان فحصها لا يعطي تأريخ البناية التي عثر عليها فيها. وللافادة من التوقيت الاشعاعي الكربوني بشكل مضمون يتوجب تعدد الفحوص حيث تكون النتائج سليمة. وعدد الفحوص الاشعاعية الكربونية الموجودة لدينا إلى تاريخه هو، بالنسبة لتوضيح التأريخ الأندي، عدد ضئيل جداً. ويترتب على ذلك ان خير ما يمكن ان نعمله الآن، بالنسبة إلى الثمانية عشر قرناً ونصف القرن المنتهية حوالى سنة ١٤٣٨م، هو ان نقبل مؤقتاً بالتوقيت المبني على الاشعاع الكربوني. على ان نكون

متحفظين عقلياً بانه عندما يزداد عدد هذه الفحوص، فمن المحتمل ان تكون النتيجة اقرب إلى الحساب المبني على توالي الطبقات منها إلى الدلائل المضطربة المبنية على فحوص اشعاعية كربونية قليلة، هي التي تمت إلى الآن.

جاء قيام المدنيتين الاندية والميزو ـ اميركية مستقلاً في الواحدة عنه في الأخرى. ومع ان كلا من المدنيتين اثرت في الأخرى تأثيراً بينا (اخذ العالم الاندي عن ميزو ـ اميركة الذرة الصفراء، واخذت ميزو ـ اميركة التعدين عن العالم الاندي) فليس ثمة سبب معقول يدعو لأن تكون المراحل التالية للمدنيتين متناظرة، او، حتى لو كانت المراحل متناظرة، ان تكون هذه متعاصرة. وعلى كل حال، فان المرحلة الأولمكية من التاريخ الميزو ـ اميركي والمرحلة الشافينية من التاريخ الاندي تكادان في الحقيقة ان تكونا نظيرتين كل منهما للأخرى، وتكادان تكونان متعاصرتين. وكذلك الامر فيما يتعلق بالمرحلة الاخيرة من تاريخ الاميركتين السابق لكولومبوس، نجد ان توسع دولة الازاتكة في ميزو ـ اميركة بدأ تقريباً في الوقت ذاته الذي بدأ توسع دولة الانكا في العالم الاندي. وتاريخا الابتداء هما ١٤٢٨ و ١٤٣٨م على التوالي. والتأريخ الاندي المبني على توالي الطبقات، لا على الفحوص الاشعاعية الكربونية، يضع المرحلة « المزدهرة » من التاريخ الأندي معاصرة زمنا للمرحلة « الكلاسيكية » النظيرة في التاريخ الميزو ـ اميركي. وبالطبع فليس ثمة اي سبب معقول يحملنا على القول بان المراحل المتناظرة للمدنيتين يجب ان تكون متعاصرة الواحدة مع الأخرى، وقد قبلنا الآن القول بان التاريخ الصحيح للمرحلة « المزدهرة » للحضارة الأندية هو المدة الواقعة بين حوالي ٣٠٠ق.م. و ٥٠٠م، لا من حوالي ٤٠٠ـ ١٠٠٠م.

ان المدنية الأولمكية ظهرت أول ما ظهرت في برزخ تِيهْوَانْتِبِك وفي الأرض المجاورة على ساحل المحيط الاطلسي. إلا انها انتشرت من هناك في اتجاه شمالي غربي إلى هضبة المكسيك، وفي اتجاه جنوبي شرقي في سواحل المحيط الهادي. وثمة دلالة اثرية على ان انتشار الأولمك تم بقوة السلاح. وان التدمير المتتالي للاماكن الأولمكية في سان لورنزو وفي لافنتا يدل على ان الاولمك لجأوا إلى السخرة للشعوب المقهورة لنقل المواد الثقيلة لاعمال الفن الضخمة التي أقاموها. ومع ذلك فاذا كان الاولمك كانوا مكروهين، فقد كانوا يُقَلَّدون ايضاً. ان تريز زابوتس، وهي اقصى موضع للاولمك في الشمال الغربي على الساحل الاطلسي، استمرت حتى حوالى بدء التاريخ

المسيحي، وهي موضع اقدم تأريخ معروف إلى الآن، في « الحساب الطويل ». والتاريخ يعادل سنة ٣١ق.م. وإلى الشرق من برزخ تيهوانتبك، في تشيابا دي كورزو، ثمة تأريخ يعادل ٣٦ق.م.؛ وفي إل باؤل، في مرتفعات (اي الجنوب) غواتيمالا، ثمة تأريخ يعادل ٣٦م. ومعنى هذا ان أهم اختراع للاولمك انتشر في ميزو - اميركة إلى ما وراء حدود الاراضي التي كان من المحتمل ان الاولمك احتلوها.

بين حوالى سنة ١٠٠ق.م. و ١٥٠م بدأت اعمال معمارية ضخمة في الجهتين المنخفضتين لمنطقة المايا. والجهة المتوسطة للمايا، بيتين، هي مغطاة الآن بغابات كثيفة مدارية الامطار؛ والجهة الشمالية يوكتان، هي منطقة جافة عارية نسبياً. وتاريخ اقدم نصب موثوق بتاريخه، في تيكال، المركز الرئيسي للطقوس الدينية في الجهة الماياوية الوسطى هو ٢٩٢م. وهكذا فان المدنية الميزو - اميركية وصلت الجهات الماياوية الوسطى والشمالية بعد وصولها الجهة الجنوبية (مرتفعات غواتيمالا). ولكنها ما كادت تستقر في الجهة الماياوية الوسطى حتى تطورت فيها بعض الصفات المميزة. واحدها العقد السلّي الذي يعلوه السقف المشطي الشكل؛ واخرى هي الجمع بين المذبح والنصب. والشارات الميزو - امركية الوحيدة التي حلت رموزها إلى يومنا هذا، هي الشارات التي تعين التأريخ (سواء تلك التي تعطينا التواريخ على اساس « الحساب الطويل » او تلك التي تعطينا اياه في دورات زمنية متتالية طول الواحدة منها اثنتان وخمسون دورة). والمخمّن هو ان الشارات التي لم تحل رموزها بعد هي كتابة، وانها، فيما اذا كانت كذلك، فانها تكون شبيهة بالسومرية من حث جمعها بين الصور الفكرية والفونيم. والهيروغليفات الميزو - اميركية و « الحساب الطويل »، ليسا اختراعين ماياويين، ولكن لما اخذ بهما المايا في جهة بيتين، طوروهما وزادوهما تأنقاً.

هذا التطور الجدير بالعناية للمدنية الميزو - اميركية الذي تم في المنخفضات الماياوية، كان يماثله تطور معاصر يقوم على هضبة المكسيك. لم تكن تيوتيهواكان، الواقعة في واد جانبي يطل على حوض البحيرات، مجرد مركز طقسي، ولو ان هرمي الشمس والقمر هناك، هما اضخم الآثار الميزو - اميركية باستثناء جبل شولولا الذي هو من صنع البشر. ان تيوتيهواكان هذه، كانت مدينة حقاً، كما كانت سان لورنزو قبل ذلك بنحو الف سنة. وقد خططت تيوتيهواكان على شكل مستطيل متقاطع، وكانت كثيفة السكان. وكانت مواردها تأتي جزئياً من استغلال مكثف لمنطقة ريفية قريبة،

والجزء الآخر كان يأتي من صنع ادوات لبيعها إلى شعوب الاراضي المنخفضة على الساحل الاطلسي.

إن المرحلة « الكلاسيكية » للمدنية الميزو ـ اميركية بدأت، في كل من تيوتيهواكان وفي المنخفضات، حول سنة ٣٠٠م. والمرحلة « المزدهرة » للمدنية الاندية تقع ايضاً في حدود الفصل الحاضر، إذ اننا قبلنا مؤقتاً التأريخ الذي اعطي له من حوالى ٣٠٠ق.م. إلى ٥٠٠م ـ والذي تشير إليه الفحوص الاشعاعية الكربونية القليلة التي تمت إلى يومنا هذا.

إن انتشار الاسلوب الشافيني لم يصل حدود العالم الاندي. إنه لم يصل لا إلى القطاع الجنوبي الشرقي للساحل ولا إلى المرتفعات الجنوبية الشرقية، وحتى في الاماكن التي بلغها فان انتشاره عَقِبهُ درجة عالية من الاختلافات المحلية. وقد كان هذا نافعاً من الناحية الحضارية. فالمدنية الاندية بلغت الذروة في هذه المرحلة اللاحقة بالشافينية. وكانت انجازاتها التقنية البارزة في لفخار والقماش. والجهتان المبرزتان في هذه المرحلة كانتا في المنخفضات الساحلية. وهما وادي موخي في الشمال الغربي وشبه جزيرة براكاس ووادي نَزْكا في الجنوب الشرقي. والفخار الموخي يمكن مقابلته بالفخار الاتيكي الذي يعود إلى المرحلة « الكلاسيكية » من التاريخ الهليني، والاقمشة الصوفية التي صنعت في شبه جزيرة براكاس ،ووادي نزكا اجمل من أي نظير حديث. والاقمشة القطنية المصنوعة في تلك المنطقة بالكاد تفوقت عليها بنغلادش ولانكشاير الحديثتان. وكانت صناعة المعادن معروفة في العالم الاندي في المرحلة الشافينية، واستمر العمل بها في المرحلتين « الاختبارية » و « المزدهرة » إلا ان العمل كان لا يزال محصوراً في الذهب، والمنتوجات كانت حلياً، لا ادوات ولا اسلحة. وكان الذهب يعالج بالضرب، لا بالصهر، ولم تكن الفضة ولا النحاس قد عرفا بعد. وعلى كل فقد كانت المدنية الاندية متقدمة على المدنية الميزو ـ امركية. ولم يُخترع التعدين اختراعاً مستقلاً قط في ميزو ـ اميركة. ولم يُعرف هناك قبل العصر اللاحق (للعصر) الكلاسيكي. وحتى في ذلك الوقت كان ناتجاً عن باعث انتشاري من الاكوادور والبيرو.

٤٠ـ الجناح الغربي لاويكومين العالم القديم ٢٢٠ــ ٣٩٥م

عالجنا باقتضاب، في الفصل السابع والثلاثين، الامبراطوريات الاربع التي نشرت لواءها فوق أويكومين العالم القديم باجمعه بين سنتي ٤٨ و ٢٢٠م. وخصصنا الفصل الثامن والثلاثين بالمنافسة التي قامت، فيما بين حوالى ٣٣٤ق.م. و ٢٢٠م، بين الاديان المحلية للاستيلاء على القلوب والعقول في المنطقة الواسعة التي دخلتها المشاريع التبشيرية الدينية، والتي كان دخولها بسبب التكتل السياسي للمنطقة فيما لم يزد عن اربع دول عملاقة. وقد كانت النتيجة ظهور ثلاث ديانات جديدة: الهندوكية والبوذية الماهانية (وهي المغايرة للبوذية التِرافَادِينيَّة) والمسيحية على ما فسرها القديس بولس. وهذه الديانات الثلاث كانت تشبه الواحدة منها الاخرى في انها تعبدية. فالهندوكيون كانوا يؤمنون بالالهين شيفا وفِشنو؛ والبوذيون الماهايانيون كانوا مؤمنين بالبوديساتْفات الذين لم يكونوا آلهة رسمياً، بل مرشحين لان يكونوا بوذات. وكان المسيحيون يؤمنون بالله ويسوع ((وهو) بالنسبة إلى المسيحيين الهي الطبيعة) وبأم يسوع، التي كانت قد اصبحت إلهةً تقريباً لما اطلق عليها اسم والدة الآله (ثيوتوكوس). كانت سبل العبادة تختلف؛ ولكن الروح كانت واحدة.

إن نشوء هذه الديانات التعبدية وتأليه البوديساتفات ويسوع ومريم، كانت أعراضاً تدل على الحاجة إلى العون المستمد من كائن بشري علوي (سوبرمان). وقد كان ثمة شعور بهذه الحاجة سببه ان الناس قد وَعَوا حالهم وهو أنّهم لم يكونوا سادة للوضع الذي كانوا يجدون انفسهم فيه. لقد عُرِفَت من قبل أزمان وأمكنة كان الناس وحكامهم يشعرون فيها انهم يمكنهم ان يضعوا ثقتهم في الآلهة المتجسدة الحية ـ مثلاً في الفراعنة الذين حكموا في زمن الاسر الأربع الأولى، وفي الاسكندر وقلة من الأجيال الاولى من خلفائه، وفي يوليوس قيصر وفي اغسطوس وخلفاء اغسطوس إلى سنة ٢٨٤م.

وفي تلك السنة قام إله متجسّد حي، وهو الامبراطور اورليانوس، بتغيير وضعه ذاته، الأمر الذي كان يعني أنّه هو ورعاياه اعترفوا بان إلهاً من هذا النوع لم يعد كفؤاً للقيام بالعبء. ففي هذه السنة، التي كانت السنة الاربعين من زمن ازمة الامبراطورية الرومانية، استعاض عن نفسه بـ « الشمس التي لا تغلب » على انها إله الامبراطورية وقضى ما تبقى من ايامه في الحكم على انه الممثل الأعلى على الأرض للاله، لا على أنّه إله بذاته.

في المرحلة التالية لتاريخ أويكومين العالم القديم، اي منذ حوالى ٢٢٠- ٣٩٥م، اصاب الامبراطوريات الاربع تقلبات مختلفة. اشرنا من قبل (في الفصل السابع والثلاثين) إلى ان الامبراطورية الفرثية الارساسية في ايران والعراق قُهِرَت سنة ٢٢٤م وتغلّبت عليها الاسرة الساسانية الفارسية، وان الامبراطورية الكوشانية تغلبت عليها الامبراطورية الساسانية وضمتها إلى املاكها (ولو ان بقية من الامبراطورية الكوشانية عادت إلى الظهور من الامبراطورية الساسانية وعاشت بعدها). اما الامبراطورية الصينية والامبراطورية الرومانية فقد تجزأت كل منهما وعمت كلا منهما الفوضى بعض الوقت - الامبراطورية الصينية لمدة ٣٧٠ سنة (٢٢٠- ٥٨٩م)، والامبراطورية الرومانية لخمسين سنة (٢٣٥- ٢٨٤م). وهكذا ففي العقود الوسطى من القرن الثالث كانت الامبراطورية الايرانية افضل حالاً من الجميع. لقد تغلبت على تبديل الأُسرة الحاكمة، ثم انها توسعت شرقاً، والامبراطور الساساني الثاني، شاهبور الأول، تغلب ثلاث مرات على الرومان. وفي المرة الثالثة (سنة ٢٦٠م) اسر جيشاً رومانياً برمته، بما في ذلك الامبراطور فَليريان. إلا ان شاهبور غُلِبَ في حملة مضادة قام بها، نيابة عن الامبراطورية الرومانية، على أُذَيْنَة أمير تدمر، وهي الدولة التجارية شبه المستقلة القائمة في واحة تقع في الصحراء بين سورية وبلاد الرافدين.

كان زمن ازدهار تدمر اقتصادياً بين سنتي ١١٧ و ٢٢٤م، اي بعد ما عجز تراجان عن ضم العراق إلى الامبراطورية الرومانية، وقبل ان ينتزع الساسانيون العراق وايران من الدولة الارساسية. وبعد انتصار أُذَيْنة على شاهبور حاول، هو أولا ثم زوجته زنوبيا بعد وفاته، جعل تدمر دولة خليفة للامبراطورية الرومانية في المشرق. ولم تكن زنوبيا الأولى ولا الأخيرة بين ملكات الواحات العربية من صاحبات المطامح، ولكن تدمر تغلب عليها اورليان سنة ٢٧٤م ودمرها. وكان ثمة مملكة أخرى متوسطة المساحة كانت

اكثر نجاحاً وهي ارمينية. فقد انقذت ارمينية نفسها من ان تضمّها الامبراطورية اليها وذلك بمساعدة تدمر أولا، وبمساعدة من رومة فيما بعد. وقد حافظت على استقلالها بين سنتي ٢٩٨ و ٣٨٧م، وكان على رأسها فرع من الاسرة الارزاسية وهي التي كانت قد قامت على الحكم، تحت النفوذ الروماني، منذ سنة ٦٦م.

كانت اعادة الوحدة للامبراطورية الرومانية وتأهيلها من جديد عملاً قام به سلسلة من الاباطرة ـ الجنود الذين جاؤوا من منطقة اهلها محاربون، لكنها كانت متأخرة حضارياً، هي الولايات الألبرية الواقعة بين الشاطىء الشمالي الشرقي للبحر الأدرياتيكي والضفة الجنوبية لنهر الدانوب. كان أورليان (حكم ٢٧٠- ٢٧٥م) أحد هؤلاء. واعظمهم جميعاً كان ديوقلتيان الذي حكم احدى وعشرين سنة (٢٨٤- ٣٠٥م) وقسطنطين الأول الذي حكم احدى وثلاثين سنة (٣٠٦- ٣٣٧م). وفي المدة الواقعة بين ٢٣٥ و ٢٨٤م كانت مدد الحكم للاباطرة قصيرة، كما ان اكثر الاباطرة لقوا حتفهم قتلاً. اما ديوقلتيان وقسطنطين فقد توفيا في الفراش، وقد اعادا، فيما بينهما، الحياة إلى الامبراطورية الرومانية، وذلك عن طريق تبديل طبيعتها. وقد أتمّ قسطنطين ما بدأه ديوقلتيان، ثم انه قام بما عجز عنه ديوقلتيان من محاولة فرض ديانة واحدة على الامبراطورية، وذلك لما قلب سياسة ديوقلتيان وزميله الاصغر غاليريوس نحو الكنيسة المسيحية.

بين سنتي ٢٨٤ و ٣٣٧م جند ديوقلتيان وقسطنطين جيشاً ميدانياً متنقلاً للدفاع عن الامبراطورية في العمق (وكان هذا الجيش يخدم ايضاً قسطنطين في حروبه الاهلية ضد منافسيه). وقد اعادا للنقد اعتباره (النقد الذهبي الذي كان الجنود يقبضون رواتبهم منه، لا قطع النقد النحاسية الصغيرة التي يستعملها الفقراء). وقد أعادا مسح الأراضي وأعادا تقدير الضرائب على أساس المنتوج الزراعيّ. وجنّدا عدداً من المهن للقيام بخدمة إجبارية للمصلحة العامة. وأوجدا بيروقراطية منظمة من الموظّفين لملء الفراغ الإداريّ الذي نشأ عن تفتّت الحكومة المحليّة البلدية في المدن ـ الدول، وهي الخلايا التي كان يتكون منها الجسم السياسي الروماني، كما أنّهما نقلا موضع عاصمة الامبراطورية.

إن رومة، المدينة الدولة التي كانت قد بنت الامبراطورية، كانت تصلح عاصمة لشبه الجزيرة الإيطالية او لإمبراطورية تقوم حول البحر المتوسط اساسها القوة البحرية. لكنها

لا تصلح، بحكم موقعها، للدفاع عن حدود تقوم على مجاري الفرات والدانوب والراين؛ كما انها كانت بعيدة عن المشرق، الذي كان مركزالثقل الاقتصادي للامبراطورية. وقد نقل ديوقلتيان العاصمة إلى نيقوميديا (ازميت) على مقربة من الزاوية الشمالية الغربية لآسية الصغرى. ونقلها قسطنطين بعده مسافة نصيرة غرباً إلى بيزنطية، وهو موضع على رأس شبه جزيرة يسهل تحصينها، وله ميناء ممتاز على الطرف الجنوبي للشاطىء الاوروبي لمضيق البوسفور. وفي بيزنطية (القسطنطينية وهي استانبول اليوم) يتقاطع الطريق المائي بين البحر المتوسط وطرف بحر آزوف، والطريق البري الذي يمتدّ من سِنغَديوم (بلغراد)، الواقعة عند ملتقى نهري سافا والدانوب، ودُلوخ (موطن جوبيتر دوليخينوس) الواقعة إلى الغرب من المنعطف الغربي لنهر الفرات.

هبطت الإمبراطورية الرومانية إلى الحضيض في العقود الوسطى من القرن الثالث للميلاد في حكم غالينوس بن فاليريان (٢٦٠- ٢٦٨م). والامبراطورية الساسانية الفارسية بلغت الذروة الموقتة في حكم شابور الأول (٢٤٢- ٢٧٣م). وقد كان اعظم رجلين في الجناح الغربي لاويكومين العالم القديم في هذا العصر المضطرب افلوطين، الفيلسوف المصري أبو الافلاطونية المستحدثة (٢٠٥- ٢٧٠) وهو تابع لغالينوس، وماني (حوالى ٢١٦- ٢٧٦ أو ٢٧٧) وتابع شابور الاول، وهو ايراني، عراقي المولد، ومؤسس لديانة تبشيرية جديدة (التي عرفت فيما بعد باسم المانوية).

كان كل من هذين الحكيمين قد غامر بالانضمام، كمواطن عادي، إلى الجيش رغبة منه في الحصول على الحكمة من بلاد غريبة. واذا كان كلاهما قد وجدا الفرصة السانحة في الحرب الرومانية - الفارسية، فمعنى هذا ان الحرب كانت تلك التي دارت رحاها في ٢٤٣- ٢٤٤م.، وهذا يعني ايضاً انهما تواجدا، دون ان يعرف الواحد منهما الآخر، على الجهتين المتقابلتين من الارض التي تفصل بين الفريقين المتحاربين. وقد اجهد كل منهما نفسه بالبحث عن المشكلة الدائمة التي اتعبت زرواستر وافلاطون من قبل: ما هي العلاقة بين هذا العالم البعيد عن الكمال الذي تجد البشرية نفسها تحيا فيه وبين الحقيقة الأبديّة التي تبدو في المظاهر وخلفها وفيما وراءها؟ وهل الحقيقة الأبدية خيّرة، وان كانت كذلك، فما هو أصل الشرّ الذي هو واقع مأساوي في التجربة البشريّة وفي العمل البشريّ كذلك؟

لقد كانت المسيحية جزءاً من خلفية كل من الرجلين. كان افلوطين هلينستياً،

ولكن معلمه، امونيوس، كان مسيحياً من قبل. وكان والد ماني قد اعتنق مذهباً يسمي اتباعُه انفسهم « المعمدانيين »، وذلك لما كان في العراق. إلا ان الاسرة كانت قد هاجرت إلى العراق من همَدان في مادي (الايرانية) حيث كانت النحلةُ المجوسيّةُ من الزراوسترية هي الديانةَ الاقليميّة الرئيسة. وكان ماني نفسه يدّعي بانه خليفة زرواسترا وبوذا ويسوع. كان افلوطين من اتباع فلسفة افلاطون إلا انه رفض مذهب اللاأدريين (الغنوسيّة). لكن تلميذه امبليخوس، وهو مؤسس الافلاطونية المستحدثة خصم المسيحية، انغمس في هذا المذهب على نحو ما كان عليه ماني، الذي كان يجمع بين اللاادرية (الغنوسيّة) وازدواجية، كانت تختلف عن الازدواجية الزرواسترية في انها كانت ازدواجية مطلقة. فالمعتقد الزرواستري يرى أنّ الحرب الحاليّة بين النور والظلام (بين الخير والشرّ) مؤقتة، وستنتهي بانتصار إله الخير أهورا مُزدا نهائياً على خصمه الشرير أنْغرا ماينوش. اما بحسب رأي ماني فان النور، الذي اختلط جزئياً بالظلام، سيتخلص كلياً من الظلام إلا ان الاصلين المتضادين، النور والظلام، كلاهما ابديان، وهما النور والظلام بالمعنى اللفظي لكلمة طبيعي. اما بالنسبة لافلوطين، وكذلك الامر بالنسبة لزرواسترا، فان النور والظلام صورتان عقليتان، تمثّلان، على التوالي، الخير والشر. وعند افلوطين أنّ الشرّ، مقارنةً بالخير، لم يكن قوة روحيّة إيجابية؛ انه كان شيئاً سلبياً: هو غياب الخير، لا « ضد الخير ».

وأهم حدثين ضخمين تمّا في اويكومين العالم القديم بين حوالى ٢٢٠ و ٣٩٥م، كانا على المستوى الديني، لا السياسي. كان احد الحدثين تغلب كارتير على ماني، وكارتير كان كاهناً داعية زرواستريا عنيفاً، وهو الذي نجح في جعل الزرواستريّة المجوسيّة الديانة الرسمية للأمبراطورية الساسانيّة الفارسيّة. وكان الحدث الآخر البعيد الأثر هو انتصار المسيحية على جميع الديانات السابقة لها زمنياً (باستثناء عبادة النجوم) أولاً في ارمينية حول ٢٨٥- ٢٩٠م ثم في الامبراطورية الرومانية بين ٣١٢ و ٣٩٥م.

وتاريخ الاسرة الساسانية يشبه تاريخ الاشمونيين. فقبل ان يصبحوا امراء، كانوا كهنة. كان الساسانيون كهنة وراثيين لهيكل يخص الآلهة أناهيتا في اصطخر، وهي مدينة في فارس. واصطخر هذه كانت قد حلّت، كمركز طقسيّ دينيّ، محل برسيبوليس التي كانت تشغل المكانة نفسها في زمن الامبراطورية الفارسيّة الاولى. وأناهيتا، إلهة الماء الايرانية من قبل ان توجد الزرواسترية، كانت قد جُمِعَت إلى اهورا مَزْدا في النحلة

المجوسيّة للزرواستريّة. ومن ثم فقد كان على الساسانيين ان يلتزموا جانب الزرواسترية اكثر من اي حكام ايران السابقين، باستثناء حامي زرواسترا بالذات وهو هستاسبس (وهذا ليس أبا دارا الأول، بل كان ملكاً بلاسم ذاته، كان يعيش قبل ذلك بنحو جيلين، وكانت مملكته على الراجح في منطقة ما وراء النهر أي في حوض سيحون ـ جيحون).

كان الحكام الأخمينيّون، اباطرة الامبراطورية الفارسية الاولى، قد اعلنوا ولاءهم التام لأهورا مزدا، الذي كان، بالنسبة إلى زرواسترا الإله الحقيقي الوحيد، إلا ان هؤلاء الحكّام امتنعوا عن الاعتراف بانها الديانة التي انشأها زرواسترا. وكان الارزاسيون مجوساً زرواستريين معتقداً؛ إلاّ أنّهم، مثل الأخمينيّين ومثل خلفاء الأخمينيّين من الأغارقة المقدونيين، كانوا متسامحين مع جميع الديانات التي كان لها أتباع بين رعاياهم. فقد وقف شابور الاول مذابح ـ للنار لتنتفع بها نفوس الأشخاص البارزين في حاشيته، إلاّ أنّه لم يحاول أن يفرض ديانة أسرته التقليدية على غير الزرواستريّين. وعلى العكس من ذلك، فان شابور سمح لماني ان يبشر بديانته الجديدة في سلطنة شابور.

كان ماني في الهند ـ لعل ذلك كان سنة ٢٤١م، وهي السنة التي انتزع فيها شابور، حوض السند من الكوشانيين. لقد اشرنا من قبل إلى ان ماني رافق، فيما بعد، جيشاً فارسياً كان يهاجم الامبراطورية الرومانية. وهذه الحملات اتاحت لماني الفرصة لان يتعرف مباشرة على كل من البوذية والمسيحية. وقد أعلن عن نفسه أنّه هو خليفة زروسترا وبوذا ويسوع، « خاتم الانبياء »، الذى تلقى وَحْياً تاماً ونهائياً، وانه « رسول إلهِ الحقّ في بابل »، وأنه هو نفسه كان تجسّداً للروح القدس؛ وأنه كان ينوي لا جذب سكان الإمبراطوريّة الساسانيّة الفارسيّة فحسب إلى دينه، بل الجنس البشريّ كلّه. وقد اكتسب ماني إيمان اتباعه بشخصه، وكان عبقرياً في قدرته التنظيمية، واثبت معتقده انه كان جذاباً. كانت أرض بابل (العراق) قلب اويكومين العالم القديم، وكانت اللغة المحلية، السريانية، وهي الصيغة الجديدة للآرامية، منتشرةً في الهلال الخصيب. ومن ثمّ فقد كان العراق نقطة انطلاق رئيسة للعمل؛ ومن هناك ارسل ماني الدعاة لا إلى الحدود الشمالية الشرقية والشمالية الغربية للامبراطورية الساسانية فحسب، بل إلى مصر ايضاً. وقد كان انتشار المانويّة أسرع من انتشار المسيحية في أثناء القرنين السابقين.

وعلى كل فان تصميم ماني في انشاء ديانة عالمية ترتكز إلى العراق كان يتناقض مع

رغبة كارتير، التي كانت ترمي إلى جعل الزرواسترية ديانة الامبراطورية الساسانية الرسمية، أو على الأقلّ الجزء الايرانيّ منها، والقضاء هناك على أيّة عبادة لأيّة ديانة أخرى. وقد بلغ كارتير، الكاهن الزرواتسري، القمة في الرتبة في أيام شابور الاول (٢٧٧- ٢٩٣م) الخليفة الثالث لبهرام الثاني. وعُيِّنَ كارتير يومها كاهن الهيكل الديني التقليدي للساسانيين، لاناهيتا، في اصطخر، كما جُعِلَ كاهناً لمذبح - النار هناك. وكانت كلمة كارتير مسموعة لدى بهرام الأول (حكم ٢٧٤- ٢٧٧م) الخليفة الثاني لشابور الأول. وبناء على إشارة من كارتير، ألقى بهرام الأول القبض على ماني ووضعه في السجن، وتوفي ماني شهيداً. وقد كان نجاح المانوية في مصر مدعاة لصدور مرسوم ضد المانوية على يد الامبراطور الرومانيّ ديوقلتيان سنة ٢٩٧م، وذلك قبيل إعلان ديوقلتيان الحرب على المسيحية بست سنوات. واعتبر ديوقليتان أتباع المانويّة بانهم « طابور خامس » فارسي، متجاهلاً الواقع وهو ان الحكومة الفارسية كانت قد قضت على ماني بالموت، وأنها، في سنة ٢٩٧م، كان قد مر عليها عشرون سنة وهي تضطهد المانويين من رعاياها. وقد كان للاضطهاد الأثر ذاته بالنسبة للمانوية وللمسيحية. انه بدلاً من تثبيط الهمة عند اي منهما، ادى إلى إثارة الهمة فيهما.

لقد حاول اربعة من اباطرة الرومان - ديسيوس في سنة ٢٥٠م وفاليريان في ٢٥٧- ٢٦٠م وديوقلتيان وغاليريوس في ٣٠٣- ٣١١- ان يقضوا على المسيحية. وقد كانت المحاولة اعترافاً ضمنياً بأن البديل الوحيد لذلك هو ان تقع الأمبراطوريّة في قبضة الكنيسة المسيحية. وكان غالبربوس بالذات، وليس ديوقلتيان، المحرك لذلك في الاضطهاد الكبير في ٣٠٣- ٣١١م. كان ديوقلتيان متردداً، ومع ذلك فقد انتقص حتى هو نفسه من قوة الكنيسة المسيحية. وقد كان كلا هذين الامبراطورين من الجنود الألّيريين؛ وفي ألّيريا، وبين الجنود الذين كانوا من أصل ألّيري، لم تكن المسيحية قد تعدت الأفق ارتفاعاً. فقد كانت آلهة الجنود الألّيريين الشمس التي لا تغلب (جاءت من اورليان) وجوبتر دوليخينوس ومثرا والمجمع (البانثيون) الرومانيّ الأصليّ.

كان خصوم المسيحيين في المشرق أقدر على تفهم قوة الكنيسة المسيحية، حيث كان المسيحيون أكثر عدداً منهم في أي رقعة أخرى (ولو انهم، حتى هناك، كانوا لا يزالون أقليّة). وقد حاول امبليخوس، تلميذ أفلوطين، ان ينظم « كنيسة - مضادّة » أساسها صيغة اغنوصية (لاادرية) من الافلاطونية المستحدثة، بحيث تضم جميع الآلهة

والالهات غير المسيحية، من حوض البحر المتوسط، تحت زعامة « الشمس التي لا تغلب » وذلك ضد المجمّع المسيحي. هذا النظير المتوسطي (بحرا) للكنيسة الطاوية في الصين كان برعاية امبراطورين هما مكسيموس دايا (حكم ٣١٠- ٣١٣م) وابن اخي قسطنطين يوليان (حكم ٣٦١- ٣٦٣م) وهذا كان مسيحياً وارتد، إلا أنّ الحركة كان مقدراً لها الفشل. فالكنيسة المسيحية كانت قد سبقت « الكنيسة ـ المضادة » الافلاطونية (المستحدثة) في انها تمثّلت الآلهة المتوسطية (بحرا). كان يسوع قد أصبح من قبل ارفيوس وسرابيس و « والشمس التي لا تُقْهَر »؛ وكانت مريم قد أصبحت إيزيس « والدة الاله ». اما بالنسبة إلى الفلسفة الأفلاطونيّة المستحدثة، فان استخدام امبليخوس الفاشلة لجدليتها، كان يمكن أنْ يمجَّها أفلوطين أكثر من مَجّه لدمجها التدريجي في لاهوت الكنيسة المسيحية.

في سنة ٣١١م، اذ كان غاليريوس على فراش الموت ألغى، ولو بتردد، المراسيم التي صدرت عنه وعن ديوقلتيان ضد المسيحية، ومنح جميع سكان الإمبراطوريّة الرومانّية، المسيحيين وغير المسيحيين على السواء، حريّة العبادة. وفي سنة ٣١٢م اعتنق قسطنطين الاول المسيحية. وقد جاء اعتناقه لها مفاجأة ومستغرباً ـ ولعله كان كذلك حتى لقسطنطين نفسه؛ ذلك بانه في سنة ٣٠٦م ورث قسطنطين عن ابيه الامبراطور قسطنطينوس الأول لا حكم اقليمي بريطانية والغال فحسب، بل بالاضافة اعتقاداً راسخاً « بالشمس التي لا تقهر ». وفي سنة ٣١٢م كان قسطنطين يهاجم ايطالية، التي كانت يومها، مع شمال غرب افريقية، تحت سلطة مكسينتيوس صهر قسطنطين. وقبيل المعركة التي وقعت في ضواحي رومة الشمالية الغربية، والتي غُلِبَ فيها مَكْسِينتيوس وقتل، حلم قسطنطين انه رأى الحرفين الاولين من اسم خريستوس باليونانية (يعني K H) واربع كلمات براقة باللاتينية معناها: « بهذه العلامة تنتصر ». وقد امر يسوع قسطنطين كما حلم هذا، ان يضع الحرفين على قبعته وان يرسمهما على تروس جنده. وقد صنع قسطنطين ما طلب منه ان يقوم به في الحلم، وبعد ذلك كسب المعركة الفاصلة في الحرب الاولى من حروب اهلية ثلاث، وكان هو الرابح في كلّ واحدة منها.

اعتناق قسطنطين للمسيحية كان واضحاً وصادقاً، لكن الرجل لم يتخلّ عن اعتقاده باله اورليان وقسطنطينوس الاول اي « الشمس التي لا تقهر »، ولو انه، مع الوقت، اعتبر

« الشمس » هو المسيح - وهو الامر الذي كانت الكنيسة المسيحية قد قبلت به ضمناً. ولم يتخلَّ قسطنطين عن منصب الكاهن الاعلى، وهي كهانة غير مسيحية كان قسطنطين يتولاها حكما لانه رئيس الدولة الرومانية. ومن الناحية الفنية الدقيقة كان تولي الكهانة العليا يتعارض مع كون المرء مسيحياً، لكن أتباع قسطنطين في السلطات الكهنوتية المسيحيّة لم يُثيروا هذه القضية، وقسطنطين نفسه لم يصبح رسميّاً عضوا في الكنيسة المسيحية إلاّ حين عُمِّد وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧م. يضاف إلى ذلك أن قسطنطين كان يجهل اسس المعتقد المسيحيّ - وهذا لم يكن فقط عند اعتناقه المسيحية سنة ٣١٢م بل استمر الأمر فيما تبقى من حياته. ومداخلات قسطنطين في المسائل الكهنوتية المسيحية اظهرت قطعاً انه لم يكن يحسن السباحة في هذه المياه، هذا مع العلم أنه في الشؤون المدنيّة كان سياسيّاً محنكاً.

اتهم قسطنطين احياناً بانه كان شكاكاً وساخراً ومدعياً، وان الباعث على اعتناقه المسيحية كان اساسه النظرة السياسيّة العمليّة. ومثل هذا التفسير لاعتناقه المسيحية هو مخالف للواقع؛ اذ لم يكن ثمة مشككون دينيّون في عالم البحر المتوسط بعد ما تَفَتَّتَ مجتمعهُ في سنة ٢٣٥م. ولم يكن ثمة شخص في الامبراطورية الرومانية يعتقد بانه يستطيع البقاء دون عون إلهي في ذلك العصر الرهيب.. وقد كان قسطنطين مخلصاً دينياً كما كان عميق الايمان، وفي ذلك يمثّل عصره ومكانَه تمثيلاً نموذجيّاً. ومثل ذلك كان أفلوطين وماني وامبليخوس وديوقليان وغاليريوس ومكسيمينوس دايا ويوليان - جميعهم كانوا مخلصين دينيّاً وعميقي الايمان، كل بطريقته الخاصة. وتديّن قسطنطين لم يكن أقلّ أصالة من تديّن أفلوطين، إلا أن الأول كان يختلف عن الثاني في انه كان عنيفاً. فإله المسيحيين كسبَ قسطنطين وملك ولاءَه لأنه أظهرَ قوة الأمبراطور. وهذا الاله بالذات انزل المصائب بالأباطرة الذين اضطهدوا الكنيسة المسيحيّة. والقَدَرُ الذي اصاب كلا من غاليريوس ومكسيمينوس دايا وليسينيوس يحكي القضية واضحة. وهذا الاله نفسه هو الذي منح قسطنطين نصراً حربياً في حروب اهلية ثلاث. ففي مدة اثنتي عشرة سنة (٣١٢- ٣٢٤م) حمل إلهُ المسيحيين قسطنطينَ من نهر التيبر (قرب رومه) إلى مضيق البوسفور وجعله الحاكمَ الوحيدَ للأمبراطوريّة الرومانية بأجمعها، مع أن قسطنطين كان قد بدأ في يورك (انكلترا) سنة ٣٠٦م فقط كحاكم للولايات البعيدة والمتأخّرة والواقعة ما وراء جبال الالب والبرانيس.

أقر قسطنطين بالفضل العظيم الذي أغدقه عليه إله المسيحيّين اذ كافأه على ولائه بأن صاغ قدره على هذا النحو. لكن هذا المظهر الذي بيّن قوة الله العظيمة ملأ نفس قسطنطين رعباً، كما ملأها عرفاناً بالمنّة. وقد خشي ان يحل به ما حلّ بغاليريوس ومكسيمينوس دايا وليسينيوس اذا لم يتمم واجباته نحو حارسه الاهلي - وعلى سبيل المثال اذا فشل في رتق الفتق في الانشقاقات الدينية القائمة في الجسم الكهنوتي المسيحي يومها. وقد كان الباعث على اضطهاد المسيحين على أيدي بعض الأباطرة هو الخوف، المماثل عند هؤلاء الأباطرة من ان ينالهم سخطُ الآلهةِ غير المسيحيّة.

كان الباعث لقسطنطين على اعتناق المسيحية أقل قيمة من الباعث لأشوكا على اعتناق البوذيّة. كان الباعث عند اشوكا هو التكفير عن ذنب اقترفه، وهو شن حرب اعتداء، ولم يعد إلى حمل السلاح بعدها. والباعث لقسطنطين كان الاعتراف بالمنّة على الانتصارات في الحروب الاهلية الثلاث.

اتبع قسطنطين مرسوم غاليريوس بالتسامح مع المسيحيين بان ضغط على مكسيميوس دايا ليتوقف عن اضطهاد المسيحية في المشرق، ثم باقناع ليسينيوس بالانضمام إلى قسطنطين في التأكيد على التسامح مع المسيحيّة في مناطق حكمهما. إن قسطنطين لم يضطهد قط رعاياه غير المسيحيين، إلا انه منح الكنيسة المسيحيّة امتيازات ذات قيمة خاصة، وابن اخيه يوليان (الذي كان مسيحيا ثم ارتد) كان يظهر مثل هذا المَنْح نحو الكنيسة المضادة (المؤسسة على الأفلاطونية المستحدثة). إن التسامح المتردد الذي أظهره الاباطرة الرومان (بعد ٣١١م) نحو الديانات التي تختلف عن ديانتهم، يبدو ضعيفاً اذا قورن بالتسامح الكريم الذين ابداه اشوكا نحو رعاياه من غير البوذيّين وجيرانهم، وكذلك اذا قورن بالمعاملة السويّة التي عامل بها كانيشكا الهندوكيين البراهمنيين والبوذيين، على اختلاف مذاهبهم.

والتسامح المتقلب الذي بُدِىء في سنة ٣١١م، لم يطل عهده. فقد رفض الامبراطور غراتيان (حكم ٣٦٧- ٣٨٣م) ان يتولى منصب الكاهن الأعلى، وبدأ بتصفية الديانات غير المسيحيّة في الأمبراطورية الرومانية، وذلك بإغلاق هياكلها والاستيلاء على وارداتها. وقد تمت التصفية تقريباً على يد ثيودوسيوس الأول (حكم في الشرق ٣٧٩- ٣٩٥، وفي الغرب ٣٩٢- ٣٩٥م).

وفي الوقت نفسه استمرت الامبراطوريتان الرومانية والفارسيّة على التعايش جنباً إلى

جنب. فالحرب الطويلة التي قامت بين ٣٣٧ و ٣٦٠م، لم تنته إلى نتيجة حاسمة. وحملة يوليان على الامبراطورية الفرسية سنة ٣٦٢م انتهت بمقتله وبكارثة حلت بالرومان سنة ٣٦٣م. وقد تمكن جوفيان، خليفة، يوليان، من تخليص جيشه من مصيبة، وذلك بتسليمه نصيبين، وهو حصن روماني مهم في الجزيرة الفراتية (بين النهرين)، واعادة خمس ولايات ارمنية كانت الامبراطورية الرومانية قد ضمّتها اليها سنة ٢٩٨م. وقد وضعت هذه التنازلات مملكة أرمينية تحت رحمة الفرس. وفي سنة ٣٧٨م لقي جيش روماني كسرة عظيمة، على ايدي الفيزيقوط في ادرينابولي، تشبه الانكسارات التاريخية في أُليا وكانّي وكارّي (حران). وكان على الرومان ان يوجّهوا ما تبقى لهم من قوة حربية للقتال في معركة خاسرة لانقاذ املاكهم في اوروبة، وكانوا يبتاعون السلام في الجبهة الاسيوية عن طريق تنازلات للامبراطورية الفارسية. فقد قسّمت مملكة ارمينية (سنة ٣٨٧) بين الامبراطوريتين بالتراضي، وكان الخط الفاصل بين القسمين يجعل اربعة اخماس المملكة في الحصة الفارسيّة. وكان هذا بعض الثمن الذي دفعته الامبراطوريّة الرومانيّة في مقابل استمرارها في المشرق.

إن التقلبات التي تعرّضت لها العلاقات بين الامبراطوريتين تنعكس على ما اصاب الجماعة المسيحية في الامبراطورية الفارسيّة، وهي جماعة كانت نامية. إن الديانة الزرواسترية لم يعتنقها أحد في الامبراطوريّة الرومانيّة، ولم يقبل عليها أحد طوعاً في ارمينية. فعلى عكس الديانتين المسيحية والمانوية لم تحاول الزرواسترية تحويل البشرية إليها. وقد ظل هدفها على ما كان عليه ايام كارتير، اي ان لا تكون الزرواسترية الديانة « الرسمية » للامبراطورية الفارسية بل الديانة الوحيدة للولايات الايرانيّة. ولكن حتى بالنسبة إلى رعايا الأمبراطوريّة الإيرانيين كانت الزرواسترية المجوسيّة أقلّ جذباً من أي من المانويّة أو المسيحيّة؛ ومن ثم فقد كان انتشار المسيحية في الأمبراطوريّة الفارسيّة يدعو كلا من الحكومة الساسانية الامبراطورية والسلطات الزرواسترية الكهنوتية إلى الاستياء الشديد، وقد استمر هذا خلال المدة التي كانت فيها مواقف كل من الامبراطوريتين عدائية نحو الأخرى. اذ إنّ انتشار المسيحية لم يكن إساءة للديانة الزرواسترية ذات الخط الفكري الواحد؛ بل ان انتشار المسيحية باستمرار، بعدما اصبحت الكنيسة المسيحية (سنة ٣١٢م وما بعدها) الديانة « الرسمية » للامبراطورية الرومانية، جعل المسيحيين من رعايا الأمبراطوريّة موضع شبهة واتُّهموا بأنهم « طابور

خامس « على نحو ما اتُّهم به اتباع المانويّة في مصر أيام ديوقلتيان بانهم « طابور خامس » في الأمبراطوريّة الرومانية، وحتى هذا الموقف كان أقل صواباً من ذاك. ففي الامبراطوريّة الساسانية كان المسيحيّون، ولو أنهم كانوا يزدادون عدداً، في تشرد، اما في نصيبين وفي الولايات الأرمنيّة الحدوديّة الخمس التي تنازل عنها جوفيان إلى شابور الاول (٣٦٣م) فقد كان السكان باجمعهم مسيحيين.

ولهذا السبب أخذ شابور الثاني (حكم ٣٠٩- ٣٧٩م) باضطهاد رعاياه المسيحيّين في ٣٣٩- ٣٤٠ واستمر في اضطهادهم حتى وفاته. لكن خليفته الثاني، شابور الثالث (حكم ٣٨٣- ٣٨٨م) تصدق والأمبراطور الرومانيّ ثيودوسيوس الأوّل، وهذا الوفاق في العلاقات بين الدولتين، أدّى، لا إلى تقسيم مملكة ارمينية بالتراضي فحسب، ولكن إلى التسامح مع المسيحيين في الأمبراطوريّة الفارسيّة. نتيجة المفاوضات الرومانية - الفارسية. وقد أُوْقِفَ اضطهاد المسيحيين في الأمبراطوريّة الفارسيّة، ووُحِّدَت إدارة الكنيسة المسيحيّة الفارسيّة؛ وبعدما عُقِدَ المجتمع الكنسي الفارسي في سلوقية - على الدجلة (سنة ٤١٠) ثَبَّتَ الامبراطور يَزْدَجِرْد الاول (حكم ٣٩٩- ٤٢٠م) المرسوم القاضي بالتسامح مع المسيحيين والذي كان قد اصدره قبلاً.

١٢ـ المدنية الهندية من حوالى ٣٢٤ إلى ٤٩٠م

كان القضاء على امبراطورية كوشان في سنة ٢٤١م في عهد الامبراطور الساساني الفارسي اردشير الأول (حكم ٢٢٤- ٢٤٢م) قد سبقه انقسام مملكة ساتافاهانا (اندرا) في الدكن. وقد ترتب على حدوث هذين الانهيارين السياسيّين ان وجد في شبه القارة الهندية فراغ سياسي استمر ما يزيد عن القرن. منذ ان ضُمَّت الدكن إلى امبراطورية مغدا في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت الدكن قد مر عليها نحو من ستمئة سنة وهي وحدة سياسية، وذلك باتحادها مع شمال الهند أولاً، ثم كوحدة سياسية مستقلة بعد ما انحلّت امبراطورية مغدا بعد وفاة أشوكا سنة ٢٣٢ق.م.. وكانت اكثر المناطق استقراراً، في أثناء هذا الفراغ السياسي الواسع الانتشار، الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة. فالممالك الصغيرة التي كانت هناك، والتي امتنع أشوكا من احتلالها، كانت لا تزال قائمة. ومثل ذلك يقال عن واحدة على الاقل من ولايتي ساكا، الواقعتين في غرب الهند، واللتّين قامتا، في القرن الأول للميلاد، تحت ..لطان اباطرة كوشان. والولاية الجنوبية من ولايتي ساكا هاتين، كانت قد استولت على ماهَرَشترا، ولعلها أُخضِعَت في الحروب التي قامت بينها وبين الساتاهافانيّين، التي كانت قد اعتدت على املاكهم. والولاية الأبعد إلى الشمال، التي كانت قد استولت على مَلْوا، حول الأُزين، استمر وجودها بعد امبراطورية كوشان، ومن ثَمَّ فقد اصبحت دولة مستقلة في الواقع.

وكان ثمة استمرار اعمق جذوراً على مستويات النشاط غير السياسي. فالاسلوب القندهاري في الفنون المنظورة استمر بحيث اثر في التطور الفني التعبيري المنظور للبوذية الماهايانية في شمال غرب الهند، وماتورة، الواقعة في الحوض الأعلى لنهر جُمْنا، والتي كانت قبل ذلك بمدّة قصيرة جزءاً من أملاك كوشان. استمرت في احتضانها لمدرسة فنية حيث كان الفن الهندي الاصلي قد تأثر بالفن اليوناني دون ان يقع تحت

نفوذه. وقد شهدت القرون الميلادية الثلاثة الأولى، على المتسويين اللغويّ والأدبيّ، اختفاء اللهجات (البراكرتيات) الحية، التي كانت قد انبثقت عن السنسكريتية الاولى، كي تفسح المجال للسنسكريتية الجديدة التي أصبحت اللغة المستعملة في النقوش. والقرون الثلاثة ذاتها شهدت ظهور ادب باللغة التاميلية، في الهند الجنوبية.

فالنقوش التي خلفها أشوكا كانت جميعها بالبرَكْريت، باستثناء تلك التي نقشت في البلاد التي كانت جزءاً من الدولة الاخمينية (الفارسية الاولى) والتي كان سلوقس الأول (من حوالي ٣٥٦- ٢٨١ق.م .) قد تخلّى عنها إلى شاندراغوبتا. وليس ثمة من ريب في ان الادارة في امبراطورية مَوْريا كانت تستعمل فيها اللغة الحية. ولغة بالي التي استعملت في نقوش البوذيين الترافادين، كانت احدى البركْتيات التي ظهرت في العصر المَوْريَاني. واللغة السنسكريتيّة الأولى، التي كانت لغة التعامل للسكان الهنود الأوروبيّين الأصليّين الذين هاجموا شبه القارة الهندية، كانت قد انحسر استعمالها كلغة تخاطب، باستثناء استعمالها في طقوس البراهمين الدينية؛ كما انه لم تعد لغة مقروءة، إلا بالنسبة إلى الفيدات والاوبانيشدات التي كانت، من قبل ان تدون، تنقل رواية من جيل إلى جيل. والساسانية الجديدة كانت لغة مصطنعة، شأنها في ذلك شأن الاتيكية الجديدة (الاغريقية)، التي تم الاصطلاح عليها في التاريخ ذاته. وقد اخذ باللغة السنسكريتية الجديدة لتدوين الكتب الدينية للسايفية والفايشنة والبوذية الماهايانية، كما انها اصبحت كذلك لغة الملحمتين الهنديتين ارامايانا والمَهَبْهاراتا، على النحو الذي استقرتا عليه. ويُعْتَقَد انه قد تمّ لهما هذا الشكل بين حوالي ستي ٢٠٠ق.م. و ٢٠٠م، مع ان المقولة الاصلية للمَهَبْهاراتا تدل على ان هذه القصيدة التي بدأت تتخذ هذا الشكل، على أي حاَل، في زمن لا يتأخر عن القرون الاولى من الالف الاخير السابق للميلاد. والحيوية التي رافقت إحياء السنسكريتية يبدو واضحاً في أثره في الادب التاميلي الناشيء. واللغات الحية، في الدكن، كانت، ولا تزال، اللغات الدرافيدية. ومع ذلك فان جميع نقوش أشوكا في الدكن هي بالبرَكْريتات، أي اللهجات المستمدة من السنسكريتية الاولى. إلا ان اللغة الهندية الاوروبية التي تركت بصمتها في الادب التاميلي لم تكن واحدة من البَركريتات؛ لقد كانت السنسكريتية الجديدة.

استمرت المدنية الهندية، في القرنين الثالث والرابع للميلاد، في توسيع مجال انتشارها متخطية حدود شبه القارة. ان انتشارها عبر البحار في اتجاه جنوبي شرقي، إلى

جنوبي شرق اسية، كان قد بدأ في القرن الاول للميلاد. وازداد زخم انتشارها في ذلك الاتجاه في القرن الرابع للميلاد. فاصبح جنوب شرق اسية القاري جزءاً من المجال الحيوي للمدنية الهندية، باستثناء قسم من شمال فيتنام، الذي كانت المدنية الصينية قد ضمته اليها. وكانت التجارة والدين، لا الفتح، سبيل انتشار المدنية الهندية، ولم يكن موقف شعوب جنوب شرق اسية من المدنية الهندية موقف قبول مسالم. فقد خلقوا منها لوناً جنوب ـ شرق اسيوي متميز، ولو أنه لم يكن لا ـ هندياً. وكان يعاصر ذلك انتشار البوذية في الصين من شمال غرب الهند برا، عبر حوض سيحون وجيحون وحوض تاريم. وهنا تغلبت الصيغة الماهايانيّة على الصيغة السَرْفَسْتيفاديّة من البوذيّة الترافاديّة، وكانت السنسكريتية الجديدة هي اللغة التي استعملت في النقوش الماهايانيّة، التي تُرْجِمت إلى اللغة الصينية. واسلوب قندهار الفني اليوناني ـ الهندي، الذي كان الفن المنظور للماهايانية، احدث أثراً ثورياً في الفن الصيني المنظور، ومن ثمَّ في الفنين الكوري والياباني.

إن الجغرافية الطبيعية لشبه القارة الهندية فرض على الامبراطوريات الهندية ان تعتمد المناطق التي تكوّن الآن ولايتي بيهار وتّار برادش في حوض الجمنا ـ الغانج. فهناك كانت نواة امبراطورية مَغْدا منذ زمن انشائها في القرن الخامس قبل الميلاد إلى تقسّمها في القرن الثاني قبل الميلاد. ومن القرن الثاني قبل الميلاد حتى القضاء على امبراطورية كوشان، في القرن الثالث للميلاد، كان حوض السند، لا حوض الجمنا ـ الغانج مركز الثقل السياسي لشمال الهند. وقد عادت الخريطة السياسية لشمال الهند فجأةً إلى الوضع الطبيعي. فقد عاد الوضع إلى ما كان عليه في القرن الخامس قبل الميلاد ثانية، فتوحّدت جنوب بيهار وشمالها سياسياً ـ وهذه المرة لم يكن ذلك نتيجة فتح، بل بطريق المصاهرات الملكية ـ وللمرة الثانية كان لبيهار الموحدة من القوة ما مكّن لها من التوسع من موضع استراتيجي مؤات لذلك.

كان مؤسس اسرة غُبْتا يحمل اسم سلفه المَوْري (من القرن الرابع قبل الميلاد) تشانْدرا غُبتا. وتشانْدرا غُبتا الذي يعود إلى القرن الرابع الميلادي اتخذ ما يعادل سنة ٣٢٠م بدءاً للفترة التاريخية لاسرة غُبتا. ولكن المؤسس الحقيقي لامبراطورية غُبتا كان ابنه سامُدْرا غُبتا (حكم من حوالي ٣٣٠ إلى ٣٨٠م). لقد قام سامُدْرا غُبتا بالاغارة على الدكن بطريقة مثيرة، لكن انجازه الثابت كان في توسيع املاك اسرة غُبْتا في

حوض الجُمْنا ـ الغانج. وكانت الخطوة الحاسمة في بناء امبراطورية غُبتا تلك التي قام بها شانْدرا غُبتا الثاني (حكم ٣٨٠- ٤١٨م). ففي حوالي سنة ٣٩٥م احتل ولاية مكا التي كانت الأُزَيْن عاصمتها. ثم اندفع غرباً إلى الساحل، ومن ثم فتح لامبراطورية غُبتا نافذة على بحر العرب.

ولم تتوسع امبراطورية غُبْتا، لا جنوباً ولا شمالاً في غرب، إلى الحد الذي بلغته امبراطورية مَوْريا. ففي الجنوب توقَّفت امبراطورية غُبتا عند سلسلة جبال فِنْديا او نهر ناربَدا؛ وفي الجهة الغربية كانت حدود البلاد التي وقعت تحت حكمها مباشرة نهر شميال والمجرى الاعلى لنهر جمنا، ولم يقع تحت سيطرتها سوى الجزء الجنوبي الشرقي من البنجاب. وليس ثمة اي شيء يشير إلى وقوع اي اصطدام بين امبراطورية غُبْتا والساسانيين. ولعلّ بقية من امبراطورية كوشان عادت إليها الحياة لتصبح دولة فاصلة بين الامبراطوريتين.

كان افراد اسرة غُبْتا انفسهم هندوكيين براهميين، لكنهم كانوا يتسامحون مع الديانات جمعاء على نحو ما كان عليه اباطرة موريا وكوشان. وقد بلغت المدنية الهندية، اثناء حكم غُبتا في القرنين الرابع والخامس للميلاد، القمة في النحت والادب العلماني (باللغة السنسكريتية الجديدة، وبخاصة في الدراما)، وفي علم الفلك. وقد وصل إلى امبراطورية غُبتا بعض النور الذي كان العالم اليوناني ـ الروماني يشعه في عصر افوله، وكان ذلك عبر النافذة الغربية لامبراطورية غُبتا (على بحر العرب) لكنه لم يعد ان يكون شعاعاً، فالالق الذي عرفته المدنية الهندية في عصر غُبتا كان أصلياً وأصيلاً.

مُزِّقت امبراطورية غُبْتا، وقضي على « العصر الذهبي » للمدنية الهندية على أيدي الرعاة الهون الرحل، الذين تدفقوا على الهند من السهوب الأوراسيّة. وقد انزل الهون الضربة الأولى بالهند سنة ٤٥٥م، وتلتها ضربات أُخرى. ومع أنّ الهون صُدُّوا، فانهم لم يُخْرَجوا من البلاد.

٤٢ـ خروج الهون من السهوب الأوراسيّة في القرنين الرابع والخامس للميلاد

إن البدو الرعاة الذين يطلق عليهم الصينيون اسم « هزُونغ ـ نو » والذين يسميهم ضحاياهم الآخرون المستقرون أبعد إلى الغرب منهم « الهون »، هم أوّلُ شعب، من سكان الطرف الشرقي من السهوب الاوراسية، مدوّنة أُخبارُه. كانوا مستقرين هناك في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو الزمن الذي وصلت فيه دولة تشاو (وهي الابعد شمالاً من الدول الصينية الثلاث التي كانت تتنافس فيما بينها ـ تشين وتشاو وين) إلى الطرف الجنوبي للسهوب. ففي سنة ٣٠٧ق.م. جمع حاكم تشاو قوة من الفرسان على الاسلوب البدوي. وفي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الدول الصينية الحدودية الثلاث تقوم ببناء الاسوار على طول حدودها السهوبية، درءاً للخطر البدوي.

إن اسلوب الحياة هو مدرسة يتدرب العاملون فيها لا على الغزو والنهب فحسب، بل على التنظيم والحكم. فلولا التخطيط والنظام لما تمكن الانسان وحيواناته الاليفة من العيش في السهوب. وإذن فلم يكن مما يدعو إلى العجب انه لما نجح تشين شيه هوانغ ـ تي من توحيد الصين سياسياً في سنة ٢٢١ق.م..، وتثبيت الأسوار الحدودية في خط دفاع واحد متصل، ان يرد الهزونغ ـ نو (وهم بدو السهوب الرعاة) على ذلك باقامة امبراطورية مقابلة لها في الجهة الأخرى من السور. وقد اتاحت الفوضى العنيفة التي عبرت بالصين في فترة قصيرة (٢٠٩ـ ٢٠٣ق.م .)، للهزونغ ـ نو الفرصة لمهاجمة الصين، وفي سنة ١٧٤ق.م. توسعوا غرباً ايضاً؛ وبذلك احدثوا موجة من الهجرات بين جيرانهم البدو الغربيين هي التي انتهت بانتقال يوه ـ تشين إلى حوض

سيحون - جيحون وانتقال السكا إلى الهند. وفي سنة ١٢٨ق.م. قاد الامبراطور الصيني هان - وو تي حملة انتقامية ضد الهزونغ - نو كان الهدف منها القضاء على الهزونغ - نو او على الأقل اخضاعهم نهائياً، إلا ان حرب المئة سنة الصينية - الهونية (١٢٨- ٣٦ق.م .) لم تكن حاسمة. وفي سنة ٥٢ق.م. اعترف الجزء الاقرب من الهزونغ - نو بسلطان امبراطور الصين عليه. إلا أن هذا النجاح الصيني كان سطحياً وموقتاً، وفي الوقت ذاته تخلصت بقية الهزونغ - نو من السيطرة الصينية نهائياً، بالسير إلى اماكن ابعد غرباً، بحيث اصبحوا أبعد من ان تصلهم الجيوش الصينية التي كانت تقيم حول سور الصين الكبير.

وإلى هذا الوقت لم يكن الهزونغ - نو قد اثروا في اي من الشعوب المستقرة بالاضافة إلى الصينيين. لكن في القرنين الرابع والخامس للميلاد لم يقتصروا على الهجوم على الصين للمرة الثانية، بل انهم هاجموا حوض سيحون - جيحون والهند وايران واوروبة كذلك. وكان هذا هو التفجر الخامس لبدو السهوب الاوراسية. لكن تفجر الهون هذا اختلف عن جميع ما سبقه لأنه انتشر إلى جميع الجهات.

وفي سنة ٣٠٤م هاجم الهزونغ - نو الصين فنهبوا لويانغ في سنة ٣١١م. وتشنغ - تشاو العاصمة الاولى لاسرة الهان المنقرضة سنة ٣١٢م، وقضوا (٣١٦م) على اسرة تشن الغربية، التي كانت قد نجحت في اعادة الوحدة السياسية إلى الصين. وهذه الحملة الثانية الناجحة لقبائل الهزونغ - نو ضد الصين افسحت في المجال لحشود من المهاجمين البرابرة، بعضهم من الهزونغ - نو بالذات والبعض الآخر من التيبتيين أو التونغوس او المغول. وقد تقسمت دول بربرية كل شمال الصين. كانت دولاً خليفة لامبراطور تشن الغربية الهشة.

وفي الطرف المقابل من السهوب اغار حشد من الهون (حول سنة ٣٧٥م) على البدو، المعروفين باسم الان سارماتيان، الذين كانوا يقيمون بين نهري الفولغا والدون، والذين كانوا يتكلمون اللغة الايرانية، وقضى على الامبراطورية التي كان القوط الشرقيون (المتكلمون بلغة تيوتونيو والقادمون من اسكندنافيا اصلا) قد انشأوها حول نهر الدنيبر. وشرّدوا القوط الغربيين، الذين حاولوا العثور على ملجأ في إطار الاراضي الرومانية الواقعة إلى الجنوب من مجرى الدانوب الأدنى. وتفجر هؤلاء الهون الغربيين كان السبب الرئيس للنزاع بين القوط الغربيين والرومان، والذي تلقى فيه الرومان ضربة

قاضية في ادرنة (ادريا نوبولي) في سنة ٣٧٨م. وقد استمر الهون انفسهم في السير غرباً، ومعهم الآلان والقوط الشرقيون الذين كانوا قد اخضعوهم، مشرّدين امامهم برابرة آخرين من الناطقين باللغة التيوتونية.

وضرب الهون خيامهم في ألفولد الهنغارية - وهي رقعة من السهوب الاوراسية في قلب شبه الجزيرة الاوروبية. كانت الامبراطورية الرومانية قد انقسمت سنة ٣٩٥م، وكان جزؤها الشرقي اكثر حيوية من الجزء الغربي. لذلك ركز سيد الحرب الهوني، أتيلا، هجومه على الامبراطورية الرومانية الغربية، التي كانت أقل نفعاً لكنها اقرب منالاً من هدفيه الرومانيين. في سنة ٤٥١ هاجم أتيلا بلاد الغال حيث هزمه (في اورليان) الجيش الروماني الغربي بعون من القوط الغربيين. ذلك بان هؤلاء كانوا يأملون في ان تأذن لهم حكومة الامبراطورية الغربية في الاستقرار في جنوب غرب بلاد الغال، ومن ثم فقد كانوا معنيين بالحيلولة دون الهون والاستيلاء على ما املوا فيه من غنيمة بلاد رومانية للقوط الغربيين. في سنة ٤٥٢م اغار اتيلا على شمال ايطالية، لكنه انسحب دون ان يهاجم رومه. وفي سنة ٤٥٣م توفي؛ عندها ثار اتباعه المترددون من الجرمان والسارماتيين. وتراجعت موجة الهون شرقاً من ألفولد الهنغارية إلى المنعطف الغربي للسهوب الاوراسية الواقع إلى الشمال من البحر الاسود.

اصبحت الامبراطورية الرومانية الغربية الآن الثمرة المرجوة، لا للهون، ولكن للقبائل البربرية الناطقة باللغة التيوتونية وهي اما التي نجت من استعباد الهون لها، او انها كانت قد استعبدت لكنها ثارت عليهم بعد وفاة اتيلا. في سنة ٤٠٦م اجتازت جماعات من السواف والفندال والآلان والبرغنديين نهر الراين ودخلت اراضي الامبراطورية الرومانية الغربية. في سنة ٤١٠م اعترفت الامبراطورية الرومانية الغربية بعجزها عن الدفاع عن بريطانية، وعجزت كذلك عن تأمين الدفاع عن رومه بالذات، اذ هاجمها مشرّدون من القوط الغربيين (هربوا امام الهون) فاحتلوها ونهبوها في السنة ذاتها. وهكذا فقد يسر الهون الغربيون، لبرابرة آخرين، ان يجمعوا ثروة على حساب الامبراطورية الرومانية الغربية. اما حصة الهون التي حصلوا عليها في نهاية الامر من اراضي الامبراطورية الرومانية فقد كانت بسيطة. ففي سنة ٦٨١م تمكنت قبيلة بلغارية، هي من اعقاب الهون الذين كانوا بقيادة اتيلا، من الحصول على مقر دائم لها على حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية بين مجرى الدانوب الأدنى ومنحدرات سلسلة جبال هاموس (البلقان)

إن قبائل الهون التي انتصرت على ابرويز، الامبراطور الساساني الفارسي، سنة ٤٨٤م وقتلته، كانت قد ظهرت على المسرح التاريخي باعتبارها حليفة للفرس في حملة سنة ٣٥٩م التي انتهت بان احتل الفرس الحصن الروماني آمد (ديار بكر). وفي سنة ٤٨٤م كانت هذه القبيلة من الهون، وهي الافتاليت (الهَطْل) قد احتلت الجزء الاعلى من حوض سيحون - جيحون. كانت الصغد وبكتريا جزءاً من امبراطورية كوشان. ويبدو انهما كانا قد ضما إلى الامبراطورية الساسانية لما احتل الفرس امبراطورية كوشان (٢٤١م) في حكم الامبراطور الساساني الأول اردشير الاول. ولسنا ندري فيما اذا كانت هاتان الولايتان قد تخلصتا من الحكم الفارسي قبل ان يحتلهما الافتاليت (الهَطْل)، أو ان هؤلاء انتزعوهما من الامبراطورية الفارسية قبل المواجهة التي انتهت بالنكبة التي تلقتها فارس سنة ٤٨٤م.

بعد هذه النكبة ترتب على الامبراطورية الفارسية ان تستمر في دفع جزية للافتاليت (الهَطْل) حتى حكم كسرى (الاول) انو شروان (٥٣١- ٥٧٩م). وفي ايام كسرى الاول انقمت الامبراطورية الفارسية لنفسها (حول سنة ٥٥٨ أو ٥٦٣- ٥٦٧). فقد عثر كسرى على حلفاء من الترك، القبيلة البدوية التي كانت قد سيطرت على السهوب فيما وراء الهون. فعمل الفرس والاتراك يدا واحدة، فقضوا على امبراطورية الافتاليت (الهطل) واقتسموها فيما بينهم، وكان نهر سيحون الحد الفاصل بين قسميها. وهكذا فقد نال الامبراطورية الفارسية جزء من بكتريا، هو الواقع جنوبي نهر سيحون (طورخارستان وهي اليوم اوزبكستان الافغانية). إلا أن جزءاً من امبراطورية الافتاليت (الهطل) نجا واستمر قائماً في زبولستان (اراخوزيا)، الواقعة جنوبي سلسلة جبال هندوكوش.

كان الافتاليت (الهطل) مؤخرة قبيلة الهون التي كانت قد خرجت من السهوب عبر جزء من الحدود الجنوبية للسهوب. وهو الواقع بين هضبة البامير وبحر قزوين. وقد مر بنا ان هذه المقدمة من الهون كانت قد هاجمت الهند سنة ٥٤٤م، ومع انهم ردوا اخيراً على اعقابهم سنة ٥٢٨م، كانوا قد مزقوا امبراطورية غبتا واثاروا الكثير من الفوضى والتدمير في المدنية الهندية التي كانت يومها تنعم « بعصرها الذهبي » بزعامة امبراطورية غبتا.

كان الضغط الذي مارسه الهون على الشعوب التي هزموها محنة وضعت هذه

الشعوب امام اختبار مهم. وقد استجابت الامبراطورية الرومانية الشرقية والأمبراطورية الساسانية لهذا التحدي بنجاح كبير. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تستطع الدفاع عن نفسها ضد هجمات اتيلا، ومع ان الامبراطورية الفارسية قد تلقت ضربة كبيرة على ايدي الافتاليت (الهطل) نان ايا من هاتين الامبراطوريتين لم يقض عليها؛ فقد ظلتا قائمتين وذلك على اساس دفع الجزية. وبقاء الامبراطورية الفارسية يدعو إلى العجب. ذلك لأن ثورة مزدك، التي قامت في عقب النكبة الحربية التي وقعت (على الامبراطورية الفارسية) سنة ٤٨٤م: كشفت عن العلة الاجتماعية التي كانت الامبراطورية الفارسية تشكو منها في القرن الخامس للميلاد. وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية تشكو من العلة ذاتها في القرن نفسه، لكنها، اي الامبراطورية الرومانية في الغرب انهارت وذابت على عكس الامبراطورية الفارسية.

وبسبب انحلال الامبراطورية الرومانية الغربية ظلت الأمبراطورية الرومانية الشرقية سالمة. وفي واقع الامر فقد رفع عن كاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية مسؤولية كبرى. ذلك بان المدنية اليونانية ـ الرومانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، والبلاد الواقعة خلفه في افريقية واوروبة، لم تستعد نشاطها بعد الفوضى التي عمتها في القرن الثالث للميلاد. والقسم الذي كان يتمتع بمجتمع سليم من العالم اليوناني ـ الروماني في دوره الاخير كان هو المشرق.

لم تؤد هجمات الهون على الهند والصين إلى نكبة شبيهة بما عرفته الامبراطورية الرومانية الغربية، ولكنها كانت ابعد اثراً مما اصاب الامبراطوريتين الرومانية الشرقية والفارسية. لم تكن هجمات الهون على الهند والصين زوابع لم تلبث ان انقشعت؛ فقد استقر الهون بشكل مستمر في شبهي الجزيرة. ففي شمال غرب الهند لا يزال بقايا الهون ممثلين إلى الآن بالراجبوت. فقد اعتنق هؤلاء الهندوكية وتمثلتهم « طبقة » الكاشاترية على نحو ما اصاب المهاجمين الاوراسيين البدو الذين سبقوهم إلى الهند (مثل الساكا والبهلويين). ومثل ذلك حدث في الصين، فالبدو المهاجمون تمثلتهم الصين في النهاية. لكن الضربة التي انزلها الهون بالصين كانت عنيفة بشكل خاص. ذلك بان الهون وغيرهم من البرابرة الذين دهموا الصين في القرن الرابع وما تلاه، احتلوا منطقة من العالم الصيني شملت حوض نهر واي والحوض الادنى للنهر الاصفر. وهذه المنطقة كانت مهد الحضارة الصينية. وبالمقابل فان المنطقة التي خسرتها المدنية

اليونانية الرومانية لما سقطت الامبراطورية في الغرب، لم تعد كونها ملحقاً استعمارياً يمكن ان يستغنى عنه. وعلى كل فان الذي انقذ شبه القارتين الصينية والهندية كان اتساعهما. فقد كان في جنوب كل منهما ملجأ للاجئين الفارين امام المهاجمين من الشمال. فكان عمل الانسان وصنع الطبيعة يحميان جنوب الصين. ذلك بان الحوضين الادنيين لنهري هواي وينغتسي اتمت عملهما القنوات التي صنعها الانسان هناك. وهذه الشبكة من الطرق المائية كانت عقبة كأداء في طريق الفرسان البدو الاوراسيين.

٤٣ـ الامبراطوريتان الرومانية والفارسية ٣٩٥ـ ٦٢٧م

في السنة ٣٨٨م اعيد توحيد الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور ثيودوسيوس الأول، ولم يكن ذلك للمرة الأولى. إلا ان هذه الامبراطورية قسمت سنة ٣٩٥م (ولم يكن ذلك للمرة الاولى ايضاً) بين ابني ثيودوسيوس، اركاديوس وهونوريوس. ذلك انه بعد الانكسار الكبير الذي لقيته الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور الفارسي شابور سنة ٢٦٠م، والذي انتهى بأسر الامبراطور فاليريان ـ تعرضت الامبراطورية الرومانية لمناسبات قسمت فيها ـ طوعاً أو كرهاً ـ وكانت تعاد الى الامبراطورية وحدتها بعد كل من هذه المناسبات. ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الحسبان بان الانقسام الذي تم طوعا سنة ٣٩٥م سيكون دائماً. إلا ان الذي حدث هو ان اتجاهات كل من القسمين الشرقي والغربي من الامبراطورية، كانت مختلفة بالكلية في الواحد عنها في الآخر.

في سنة ٤٠٦م وما بعدها كانت الشعوب الناطقة بالهندية الاوروبية والايرانية تهرب في اتجاه غربي امام الهون، وكانت الامبراطورية الرومانية الغربية تتعرض للغزو كما كانت تغلب على امرها. وقد نهبت روما بالذات على يد القوط الغربيين سنة ٤١٠م وعلى ايدي الفندال سنة ٤٥٥م. واصبحت حكومة الامبراطورية الرومانية الغربية عاجزة قبل سنة ٤٧٦ بمدة طويلة. وهي السنة التي نزع فيها ادواكر، وهو قائد الجند، السلطة من يد آخر إمبراطور روماني في رافنا (وهي العاصمة ـ الملجأ التي اتخذتها الامبراطورية الغربية في القرن الخامس للميلاد). وكان المعنى الظاهر لانتزاع السلطة توحيد الامبراطورية تحت سيادة الامبراطور زينو (حكم ٤٧٤ـ ٤٩١). فبالمقارنة بزوال الامبراطورية الغربية، كان ثمة استمرار للامبراطورية الرومانية الشرقية. مع ان حدها المحاذي لمجرى الدانوب الاسفل كان يتعرض لضغط شديد من الشمال، اكثر من تعرض اي جزء من حدود الامبراطورية القارية الاوروبية بين البحر الاسود وبحر الشمال.

يضاف إلى هذا لم تكن جارة الامبراطورية الرومانية، على حدودها الشرقية، عصابة من البرابرة المحاربين: لقد كانت الامبراطورية الفارسية التي كانت ندا للامبراطورية الرومانية نوعاً ومقدرة.

يبدو ان الفرق بين ما اصاب قسمي الامبراطورية الرومانية بعد ٣٩٥ من تقلبات لم يكن سببه اي اختلاف في درجة الضغوط التي تعرضت لها حدودهما على التوالي. إن الاسباب الاساسية كانت تكمن في التباين الاجتماعي والاقتصادي فيما بينهما، وحكومة القسطنطينية الرومانية التي نجحت نجاحاً نسبياً في انقاذ وضعها بسياسة حكيمة جاءت في الوقت المناسب.

لقد ادركت حكومة القسطنطينية بسرعة ان الامبراطورية الرومانية الغربية كانت في الوقت ذاته غير قابلة للانقاذ كما كانت معرضة للذوبان. وكان التدخل النشيط الوحيد الذي قامت به الامبراطورية الرومانية الشرقية لمصلحة الامبراطورية الغربية المنهارة الحملة البحرية ضد الفندال (٤٦٨م) الذين كانوا قد احتلوا شمال افريقية، والتي انتهت بانكسار ماحق. وقد اعترفت حكومة القسطنطينية بالأمر الواقع وهو زوال حكومة الامبراطورية الغربية النهائي ٤٧٦. وفي سنة ٤٨٨ تخلصت من ثيودوريك، قائد القوط الشرقيين المحارب الكبير، الذي كانت جموعه المقاتلة تتاش الولايات الشمالية الغربية للامبراطورية الشرقية، وذلك بان وافقت على ان يهاجم ثيودوريك ايطالية بغية تصفية ادواكر. وقد اقام ثيودوريك نفسه في رافنا على انه نائب عن حكومة القسطنطينية هناك. وكانت هذه القصة في مصلحة الفريقين. في سنة ٥٠٨ انعم الامبراطور انستاسيوس الأول على القائد الفرنجي المحارب كلوفيس، لأنه كسر القوط الغربيين، مع ان العمل الأول في مسيرة كلوفيس كان تصفية آخر ما تبقى من الحكم الروماني في بلاد الغال. وحتى سنة ٥١٨ كانت حكومة الامبراطورية الشرقية تضع الاحتفاظ بسورية ومصر الاولوية على الاستيلاء على ايطالية. وسياستها الخارجية تنعكس في سياستها الدينية التي سنعالجها في الفصل التالي.

كان بين الاخطاء الفادحة التي ارتكبتها حكومة الغرب الرومانية انها استخدمت في وظائفها المدنية الكبرى، أصحاب الأملاك الكبار، فمكنتهم بذلك من تطوير املاكهم، التي كانت ذات اكتفاء ذاتي اقتصادياً، بحيث اصبحت امارات مستقلة. وهؤلاء الملاكون الرومان الغربيون كانوا على استعداد لانقاذ جزء من املاكهم لقاء خيانة

الحكومة الامبراطورية التي استخدمتهم. ولم يلبثوا ان اتفقوا مع قواد البرابرة المحاربين، الذين كانوا يقتطعون دويلات - خليفة لانفسهم وذلك على حساب الامبراطورية الغربية. وحكومة الامبراطورية الشرقية، حالت دون اصحاب الاملاك الخطرين سياسياً والوصول إلى وظائف الدولة، وحشدت في وظائف الدولة المدنية، من الحكام البريتوريين وما دون ذلك، جماعة من محترفي الطبقة الوسطى. وكان الكثيرون منهم من رجال الفقه. وقد يكون المحترفون هؤلاء مرتشين، لكنهم كانوا ذوي شعور وطني من حيث انهم كانوا يرون ان مصالحهم الخاصة كانت تتطلب المحافظة على استمرار الدولة الرومانية الشرقية.

وثمة على الاقل امبراطوران هما مارشيان (٤٥٠- ٤٥٧) وانستاسيوس الاول (٤٩١- ٥١٨) اللذان حاولا الحد من تفشي الرشوة الرسمية وذلك بالتشديد على الادارة المالية الامبراطورية. وحوالى اواسط القرن الخامس تقلص نفوذ الحكام البريتوريين بان انتزع منهم حق تولية الموظفين التابعين لهم. والتشدد في الادارة الذي تم على يد مارشيان واناستاسيوس الاول اعاد إلى مالية الحكومة الرومانية الشرقية عافيتها في الشؤون المالية، التي كانت مغامرة البحرية (٤٦٨م) الفاشلة قد شلتها. وقد افادت الخزينة، كما افاد الجنود، من توقيف التلاعب الذي كان يتم على ايدي المسؤولين الماليين في الجيش. ولعلَّ دافعي الضرائب بالذات لم يفيدوا من الامر الذي اصدره انستاسيوس الاول باعفاء اعضاء المجالس البلدية من مسؤوليتهم الجماعية في دفع ما كان يتوجب على جماعتهم من دافعي الضرائب. فقد عين موظفين امبراطوريين لجمع الضرائب مباشرة من دافعي الضرائب كافراد. ولكن خطته لم يكتب لها النجاح لأن هذه المناصب اصبح من الممكن الحصول عليها عن طريق المزاد (العلني)، ومن ثم فقد تحوّل الموظفون ذوو الرواتب المعينة إلى ملتزمي ضرائب مضاربين.

في الامبراطورية الغربية اصبح للقائد العسكري سلطات دكتاتورية لانه اخضع جميع مساعديه لسلطانه. اما في الامبراطورية الشرقية فان القائدين (المماثلين) ظلا متساويين في السلطة،الواحد مع الآخر، كما كانا متساويين مع زملائهما الثلاثة في المناطق. ولما اضاف يوستنيان الاول (٥٢٨) قائدا رابعا لمنطقة ارمينية، ظل التساوي في السلطة محتفظاً به. وفي الامبراطورية الشرقية كان الموظفون الاداريون التابعون للقادة العسكريين

قد وضعوا تحت اشراف موظفين مدنيين. والحرس الخاص التابع للقادة، مع انه لم يلغ، فقد قلص عدده.

يضاف إلى ذلك ان جيش الامبراطورية الشرقية، من القيادات العليا وما دون، ظل خارج نفوذ المرتزقة من البرابرة، وكان افراده يجندون من مواطني الامبراطورية الشرقية. في الامبراطورية الشرقية صفي غايناس القوطي (سنة ٤٠٠) واسبار من الالان (٤٧١). فالامبراطور ليو الأول (حكم ٤٥٧- ٤٧٤) كان من بسيا، وكان يتكلم لغة تراقيا؛ وكان خليفته زينو (المولود تراسيكوديسا) جبلي ايزوري من طوروس. ويوستين الاول (حكم ٥١٨- ٥٢٧) جاء من الأطراف الجنوبية من منطقة شمالية من شبه جزيرة البلقان، كان سكانها قد تقبلوا اللغة اللاتينية.

وقد كان تحول الايزوريين من ذئاب إلى كلاب رعي اثناء القرن الخامس انجازا ضخماً. ففي سنتي ٤٠٤ و ٤٠٥ كان الايزوريون لا يزالون يغيرون على جيرانهم المتمسكين بالقانون. وقد اخمد ليو البسياني اسبار الالاني ففتح الطريق امام تراسيكوديسا. ولما حاول الايزوريون اساءة استعمال قوتهم، مقلدين بذلك البرابرة الاجانب، وضع انستاسيوس الاول ايزوريا بالذات تحت اشراف الحكومة الامبراطورية النافذ، وكان ذلك في ٤٩١- ٤٩٦. ولما استولى يوستنيان الاول، في القرن السادس، على اجزاء من املاك الامبراطورية الرومانية الغربية السابقة في حوض البحر المتوسط الغربي، كانت الفرق العسكرية التي قادها قد تزود بها من الايزوريين والبسيانيين والفلاخ (وهم الجماعات التي قبلت اللغة اللاتينية والتي كانت مواطنها في شمال شبه جزيرة البلقان).

كان قسطنطين قد بنى سوراً يحيط بالقسطنطينية من جهة البر. وقد بنى ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨- ٤٥٠) مكانه سورا آخر. وهذا السور اضاف اليه انستاسيوس الاول سورا طويلاً يدور بالقسطنطينية، في البر الاوروبي، من البحر إلى البحر. وقد أمّن انستاسيوس الاول حدود الامبراطورية مع الامبراطورية الفارسية. فقد اقام في دارا قلعة كانت افضل من قلعة نصيبين، التي اضطر جوفيان ان يسلمها إلى الامبراطورية الفارسية (٣٦٣). وحصن انستاسيوس الاول كذلك ثيودوسيوبوليس (ارز روم) للدفاع عن الشرحة الرومانية من مملكة ارمينية السابقة.

كانت الامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس قد تدنت إلى حد ان امبراطورا

قديرا ونشيطا (مثل مايوريان الذي حكم ٤٥٧- ٤٦١) كان عاجزا عن تجنيبها قدرها المحتوم. والامبراطورية الشرقية المعاصرة كانت تتمتع بالعافية إلى حد ان المقدرة والنشاط والسياسة الحكيمة كان لها فيها مجال للعمل. وكانت الامبراطورية الشرقية، بين سنتي ٤١٤ و ٥١٨، محظوظة في حكامها. واركاديوس (٣٩٥- ٤٠٨) وهو ابن ثيودوسيوس الأول وخليفته في الشرق بدا حكمه براقا بالنسبة الى اخيه وزميله الغربي هونوريوس (حكم ٣٩٥- ٤٢٣). وكان ابن اركاديوس، ثيودوسيوس الثاني، الذي تولى العرش لاثنتين واربعين سنة (٤٠٨- ٤٥٠) اعمى. وعلى كل فقد كان يجلس على العرش دون ان يحكم. وتولت اخته الاكبر منه سنا بولكاريا ادارة الامور في سنة ٤١٤. واستمرت على ان تكون القوة الفاعلة خلف العرش معظم الوقت إلى ان توفيت سنة ٤٤٣. وكانت بولكاريا نظيرة حتشبسوت وزنوبيا من حيث قوة الشخصية، إلا انها تميزت عنهما في الحنكة السياسية. وكان زوج بولكاريا مارشيان وخليفتاه ليو وزينون على مستوى المسؤولية. كما ان انستاسيوس الأول كان حريا بالمقابلة باعظم من جلس على العرش الامبراطوري الروماني من سنة انتصار اغسطوس في اكتيوم (٣١ق.م .) الى سنة وفاة قسطنطين الحادي عشر على باب القديس رومانوس في القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.

وقد غطى يوستنيان الاول نور انستاسيوس الاول في نظر الاجيال اللاحقة. كان يوستنيان مثقفا ثقافة رفيعة، وهو ابن اخ جوستين الاول، الجندي الفلاح الفلاخي البسيط الذي ارتفع من صفوف الجند الى العرش. ويبدو ان يوستنيان كان يدير شؤون جوستين حتى قبل ان يصل هذا الى العرش سنة ٥١٨. وقد تولى يوستنيان الاول الحكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥. ومعنى هذا انه كان واقعيا صاحب السلطة لسبع واربعين سنة. ولعلّ تبديل السياسة الخارجية والسياسة الدينية في سنة ٥١٨ كان من صنع يوستنيان اكثر مما كان من عمل جوستين. كان يوستنيان يفخر بانه واحد من الاقلية السكانية في الامبراطورية الرومانية الشرقية التي تجيد اللاتينية، حيث كانت اليونانية اللغة الشائعة. وكان يوستنيان يأمل في ان يعيد توحيد الامبراطورية الرومانية الشرقية مع املاك الامبراطورية الغربية السابقة، باستثناء بلاد الغال على ما يبدو.

في سنتي ٥٣٣ و ٥٣٤ احتل قائد يوستنيان الاول بليساريوس، التراقي الاصل، شمال غرب افريقية وقضى على دولة الفندال التي خلفت الامبراطورية الغربية هناك.

كانت الحملة الافريقية قصيرة ويسيرة، إلا ان توطيد السلام هناك كان عملية بطيئة وعسيرة. واحتلال املاك القوط الشرقيين في ابطالية وايليرية، الذي امتد ستا وعشرين سنة (٥٣٥- ٥٦١). وهذه الحرب الرومانية ـ القوطية (الشرقية) امتصت الاموال الاحتياطية التي كان انستاسيوس الاول قد ادخرها، ودمرت اقتصاد الولايات المشرقية الذي كان مزدهرا حتى ذلك الوقت، وذلك بسبب الضرائب الفادحة التي فرضت على تلك الولايات، والتي قصمت ظهرها. ولم يتعلم يوستنيان الاول درسا من حروبه مع القوط الشرقيين، لذلك فانه هاجم املاك القوط الغربيين في اسبانية سنة ٥٥٠، واستطاع ان يحتل موطىء قدم هناك قبل ان أرغم على التوقف سنة ٥٥٤.

فتحت فتوح يوستنيان الأول المجال امام امبراطورية القسطنطينية الشرقية للسيطرة على حوض البحر المتوسط وما يتصل به من البحار ـ من مصبات الدون والعاصي والنيل الى مضيق جبل طارق. إلا ان آثار ذلك، بالنسبة الى الامبراطورية الرومانية الشرقية، كانت كارثة، على نحو ما كانت اثار حملة بحرية واحدة (سنة ٤٦٨)، ولو ان هذه كانت على درجة أخف. والنتائج التي ترتّبت على حكم يوستنيان الأول سوّغت بالحكمة التي تحلى بها أسلافه في الامتناع عن التنطح، الا مرة واحدة، للمغامرات في الغرب.

كانت فتوح يوستنيان الاول، في الغرب موقتة. فقد هاجم اللومبارديون ايطالية سنة ٥٦٨، اي بعد سبع سنوات فقط من سقوط آخر قلعة للقوط الشرقيين فيها. اما انجازاته الثابتة فكانت في ميداني القانون والمعمار. فبين سنتي ٥٢٩ و ٥٣٣ ضم المتشرعون في زمنه، في اطار يسهل استعماله، لا القوانين الرومانية التي اشترعت خلال الالف سنة السابقة فحسب، بل كذلك جماع الاراء القانونية التي كانت قد ابديت خلال الفترة نفسها (مع ان الاطار نفسه لم يكن مرتبا ترتيبا معقولا). ولم يقم يوستنيان، في مجال المعمار، بثورة، بل انه ثبت واكد على ما كان قائما، وذلك بانتدابه الرياضيين المهندسين، انثميوس (من ترالس) وايزيدور (من ميلتوس) لوضع خطة لأثر فخم وبنائه، وهو كنيسة ايا صوفيا (الحكمة المقدسة) في القسطنطينية.

كان الشكل الاصيل الذي قبله العالم الهليني للبناء هو الميغارون، وهو البناء المستطيل القائم الزوايا ذو السقف المتحدر على الجانبين من نقطة ارتفاع متوسطة. وبعد اضافة زخرفة خارجية اليه، هي صفوف من الاعمدة تقوم اما امامه او على جوانبه

جميعها، قام هذا البناء بمهمته كهياكل للآلهة والالهات اليونانية والاترسكية والرومانية، التي سبقت المسيحية. ولما نقل المهندسون المعماريون الاعمدة من الخارج إلى الداخل، اصبح هذا البناء، في العصر اللاحق بالاسكندري، الباسيليكا. والباسيليكا هذه التي كانت قد صممت للاستعمال المدني، اصبحت النموذج المثالي للكنيسة المسيحية. إلا ان اختراع نوع جديد من الاسمنت في القرن الثاني للميلاد في ايطالية، سهل للبنائين اقامة بناء مدور تعلوه قبة قليلة الارتفاع. وكان مجمع الآلهة الذي بناه هدريان (في القرن الثاني للميلاد) في رومه البناء الرائد في هذا الاسلوب. وقد اقام البناؤون، في كنيسة القديس فيتاليس في رافنا وكنيسة القديسين سرجيوس وباخوس في رومه ـ وهاتان الكنيستان بنيتا في زمن يوستنيان الاول وزوجته ثيودورا (في القرن السادس) ـ القبة فوق بناء مثمن الجوانب، وهذا التخطيط يثير في وجه المعماري مشكلة صعبة. وفي كنيسة ايا صوفيا تقوم القبة على اربع ركائز، وهي النقاط التي تحدد القاعدة المربعة الكبرى.

وكنيسة ايا صوفيا في القسطنطينية تتحدى مجمع الآلهة في اثينا بكل ثقة. وفن اكتينوس (في المجمع) اقل رقة من فن انثيميوس وازيدور (في الكنيسة). فالميغادون تكون الخطوط الافقية والعمودية الكاملة، والسطوح الكاملة ايضاً، والاعمدة الكاملة الاستدارة، هي الصفات المسيطرة فنيا. لكن الطبيعة لا تعرف اشكالا هندسية كاملة. مثل هذه الاشكال (سواء منها الاصيلة والظاهرة) يخلقها العقل البشري وتفرضها الايدي البشرية على البيئة غير الانسانية للبشر. اما الكنيسة البزنطية التي اتبع في بنائها اسلوب ايا صوفيا، تكون الصفاة المسيطرة فنيا هي القباب واشباه القباب التي تعيد الى الناظر المنحنيات التي تألفها الاجسام الحية. فالفنان لم يحاول في هذه ان يخضع الطبيعة، بل عني بالوصول الى التناغم معها. فعين فيلسوف صيني من اتباع طاو، كانت تنشرح في رؤيتها كنيسة بزنطية اكثر مما تنشرح في نظرها الى هيكل هليني.

إن الاغارقة الهلنيين لم ينظروا إلى الانحناءات الطبيعية شزرا. فقد كانوا اساتذة متفوقين في التمثيل الطبيعي للجسم البشري. والمزهريات الهلينية، في اساليبها المتلاحقة من السابق للهندسي فيما بعد، تبدو فيها الانحناءة على انها هي سر جمالها. وقد عرف الاغارقة الهليون طريقة ادخال انحناءات دقيقة الصنع في ابنيتهم، إلا ان هذه الانحناءات كان المقصود منها ان تظهر وكأنها كاملة الاستقامة، وذلك بسبب خداع

البصر. والمعماريون البزنطيون ثمروا مهارتهم في الانحناءات التي كانت قريبة من الانحناءات الاصيلة عند النحاتين والفخاريين الهلينيين، وليس في ما يبدو خطوطا مستقيمة.

لا تزال آيا صوفيا التي بناها يوستنيان قائمة ومدونته القانونية كانت مصدر وحي لقوانين لا تزال سارية المفعول. لكن فتوحه الهشة اضرت بالامبراطورية ضررا بالغا، وذلك بعد وفاته بسبع وثلاثين سنة فقط. ففي سنة ٥٥٠، قبل ان تنتهي حروب يوستنيان الاستنزافية مع القوط الغربيين، كان الجنود الفلاح المجندون في منطقته، في طريقهم للقيام بالخدمة العسكرية في ايطالية: اذ اضطروا ان يردوا المغيرين يومها من الضفة الشمالية للدانوب. وفي السنوات من ٥٧٢ إلى ٥٩١، اثناء الحرب الرومانية الفارسية، فيما كان الجيش الروماني الشرقي يتمركز في اسيه على حد الأمبراطورية الشرقي، هاجم الافار والسلاف ولايات الامبراطورية في البلقان دون ان يلقوا مقاومة. واثناء الحرب الرومانية الفارسية (٦٠٤- ٦٢٨) التي كانت امعن في الاذى من سابقتها، عاد السلاف - وفي هذه المرة استقروا هناك.

لقد حلت بالامبراطورية الساسانية، وهي الدولة المجابهة للامبراطورية الرومانية الشرقية، الويلات التي تجنبتها الامبراطورية الرومانية الشرقية او قاومتها، فيما كانت هذه الويلات هي زوال الامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس. ففي الامبراطورية الساسانية، كما كان الامر في سابقتها الامبراطورية الارزاسية (البارثية) لم تكن المناصب العليا حكرا على النبلاء فقط، بل كان ثمة مناصب خاصة كانت وراثية لاسر نبيلة معينة. يضاف الى ذلك ان المنظمة الدينية الزرادشتية كانت ذات نفوذ في الامبراطورية الساسانية الفارسية على نحو ما كانت عليه الكنيسة المسيحية في امبراطوريتي قسطنطين وثيودوسيوس الرومانيتين. وبخلاف ما كان عليه الحال في العصر الارزاسي (البارثي) السابق كانت المنظمة الدينية الزرادشتية ايضا مطعمة بالقومية الايرانية، كما آل اليه الحال في الكنيسة المسيحية الارثوذكسية في المشرق اذ طعمت بالقومية اليونانية واصبح للقوميات المصرية والسورية والارمنية ما يمثلها ويوضحها لاهوتيا،اذ انها اخذت نفسها برفض اعمال مجمع خلقدونية (٥٤١م).

في سنة ٤٤٠ امر الامبراطور الساساني يزدجرد الثاني جميع رعاياه الذين لم يكونوا من اتباع الزرادشتية ان يعتنقوا دين الامبراطورية الرسمي، واضطهد جميع الذين لم يقبلوا

بذلك، واستمر في ذلك حتى وفاته سنة ٤٥٧. كانت المقاومة على اشدها في ارمينية الفارسية. (كان الوعي القومي الارمني قد عنف بسبب اختراع الفباء... للكتابة الارمنية، حوالي سنة ٤٠٠، ومن ثم باتباع ادب ارمني تبعا لذلك). وقد قضي على العصاة الارمن سنة ٤٥١، إلا انهم ثاروا ثانية سنة ٤٨١. وذلك ان اخذ الافتاليت (الهطل) من الهون يوقعون الهزائم العسكرية بالفرس. واضطرت الحكومة الامبراطورية الساسانية ان تمنح الكنيسة المسيحية الارمنية ملء الحرية، وذلك بعد انكسار ابرويز ووفاته سنة ٤٨٤. وعندها عين نبيل ارمني حاكما لارمينية الفارسية.

وفي الوقت ذاته كان مسيحيو العراق الناطقون باللغة السريانية قد افادوا من تحريم اللاهوت النسطوري في الامبراطورية الرومانية (٤٣١ م). فالتجأ النساطرة الى نصيبين، وهي مدينة يستعمل اهلها السريانية. وكانت تقع (منذ سنة ٣٦٣) في الجهة الفارسية من الحدود الرومانية الفارسية. وقد لقي النساطرة ترحيبا في بلاد الفرس باعتبارهم لاجئين من اضطهاد حكومة الامبراطورية الرومانية. وفي سنة ٤٨٢ اصدر الامبراطور زينون امرا بتوحيد الكنائس (انوتيكون)، فردت عليه الكنيسة المسيحية في المناطق الناطقة باللغة السريانية داخل حدود الامبراطورية الساسانية بان تقبلوا المذهب النسطوري في الكنيسة. ومنذ ذلك الوقت صار يوجد في الامبراطورية الفارسية كنيسة وطنية كانت تلتزم بلاهوت مناقض في الوقت ذاته لكل من القائلين بالطبيعة الواحدة والمسيحيين الارثوذكس من رعايا الامبراطورية الرومانية. وهذه الكنيسة المسيحية الوطنية كانت ندا للمنظمة الدينية الزرادشتية التي توجد في المناطق الناطقة باللغة الايرانية من الامبراطورية الفارسية. ومع ان تقبل المسيحيين من رعايا الامبراطورية الفارسية للنسطورية لم ينقذهم من جميع انواع الاضطهاد فيما بعد، إلا ان هذا العمل جعل موقفهم اضمن. اذ انهم بعدوا عن ان يتهموا بانهم « طابور خامس » روماني.

إن النكبة العسكرية التي اصابت الفرس في سنة ٤٨٤ لم تقف عند حد منح الرعايا المسيحيين من غير الايرانيين في الدولة الساسانية الحرية فحسب؛ انها فتحت السبيل امام ثورة اجتماعية عنيفة في ايران بالذات، حيث كانت ثمة هوة واسعة، والتي كانت تزداد عمقاً، بين ثروة النبلاء وفقر الجماهير. وقد دفع القوم على القيام بالثورة مجاعة وقعت في وقت مبكر من حكم قباذ الاول (اعتلى العرش ٤٨٨)، وهو الخليفة الثاني لابرويز. وقد اغتنم مزدك الفرصة، وكان يومها رئيس مذهب من المانوية، انشىء في

الجيل التالي لجيل ماني نفسه. وهذا المذهب، اسمه درست ـ دن كان يختلف عن المانوية الأصلية في بضع قضايا عقدية، الا انه، في ايام مزدك على كل حال، اصبحت الصفة المميزة لمذهب درست ـ دن المطالبة بالعدل الاجتماعي. وكان المذهب يدعو الى الاشتراكية في الممتلكات حتى الزوجات (وهي قضية بغيضة، وقد ضخمهما خصوم مزدك).

وقد تقبل الرأي العام تفسير مزدك لدرست ـ دن واعتنقها الامبراطور قباذ الاول. ووضعت الثورة الاجتماعية موضع التنفيذ على حساب النبلاء. وقد كانت المزدكية بغيضة اجتماعياً في اعين النبلاء الايرانيين، كما كانت بغيضة اجتماعيا وعقديا في نظر رجال الدين الزرادشتيين. ولم يكن الامبراطور الساساني ندا لرجال الدين والنبلاء عندما يتضامن هؤلاء ضده. ولذلك فقد خلع قباذ الاول عن العرش وسجن (٤٩٦). إلا انه هرب من السجن وذهب الى الافتاليت (الهطل) واعيد الى العرش على يد جيش من هؤلاء القوم (٤٩٨ أو ٤٩٩). واستمر نفوذ مزدك، في الوقت ذاته، يتصاعد، وظلت اراؤه تنفذ. إلا ان قباذ تخلى عن المزدكية (٥٢٨ أو ٥٢٩) وذلك بتحريض من احد أولاد، المسمى كسرى، الذي كان قد اختاره لخلافته. وقد تعاون كسرى مع الكنيسة النسطورية والمنظمة الدينية الزرادشتية، فقضى على المزدكية. فقتل اعداداً كبيرة من اتباع المذهب، بمن فيهم مزدك نفسه.

كان كسرى، الملقب انو شروان ومعناه الخالد، داهية، وكان يتمتع بحرية العمل اكثر من أي من اسلافه، وكان ينعم بتأييد رجال الدين الزرادشتيين، إذ انه كان القوة المحركة في القضاء على المزدكية في اواخر حكم ابيه، ومن ثم فلم يكن يخشى ان يقوم ضده تحالف بين المنظمة الدينية الزرادشتية والنبلاء، الذين يمكن من توطيد سلطته عليهم. ولما قضى كسرى على تصاعد نفوذ مزدك، كان قد مر على الثورة المزدكية نحو من اربعين سنة وهي ناشطة، وقد خرج النبلاء من هذه الفترة وقد ساءت حالهم وسمعتهم.

ومع ان كسرى الأول كان قد قضى على المزدكية، ومع انه استمر، بعد توليه العرش، في الحد من نفوذ النبلاء، فقد رأى انه يتحتم عليه ان يقوم بعمل ايجابي يخفف فيه من حدة الظلم الاجتماعي الذي كان عنصرا هاما في إثارة الثورة المزدكية، وان يصلح المؤسسات التي كانت وراء ما كان للنبلاء من سيطرة على العرش. ويبدو

ان كسرى استرشد بمسيرة التاريخ اروماني فيما بعد ديوقليتان، فاعاد النظر في ضريبة الارض وضريبة الجزية. ففرض على الارض ضريبة تتناسب مع منتوجها، وعلى الاشخاص على اساس ما يملكون من وسائل الثراء. وقد كان الدهاقين هم المسؤولون عن جمع الضرائب الريفية في ايام الخلافة، اي بعد زوال الدولة الساسانية، ولعلّ كسرى هو الذي وظف الدهاقين في هذا الدور. وقد كان الدهاقين الحلفاء الطبيعيين للامبراطور في صراعه ضد النبلاء لوضع حد لتصرفهم. والغى كسرى، كذلك، منصب القائد العام واستعاض عنه بتعيين اربعة قواد اقليميين. ويبدو كسرى وكأنه كان يعي واحد من اسباب التباين في حظ الامبراطوريتين لرومانيتين الشرقية والغربية.

في سنة ٥٧٢ نشبت حرب بين كسرى الاول والامبراطورية الرومانية الشرقية. وهي الحرب التي استمرت حتى سنة ٥٩٠. وانتهت بخلع ابنه وخليفته هرمز الرابع واغتياله. وقد اتاحت النقمة الشعبية للحرب الفرصة امام النبلاء للعودة إلى النفوذ. واغتصب العرش نبيل ثائر. لكن الامبراطور الروماني الشرقي موريس اعاد كسرى الثاني، وهو ابن هرمز الرابع، الى عرش ابائه. وقد كافأه كسرى على ذلك بان عقد صلحا مع موريس (٥٩١)، وتنازل له عن النصف الغربي من ارمينية الفارسية. وعندها تمكن موريس من نقل جيش الامبراطورية الشرقية الى اوروبة، وشن حرباً هجومية على الافار والسلاف. وقد نجحت حملته الهجومية بحيث ان الرومان عادوا، في سنة ٦٠٢، الى الضفة الشمالية للدانوب الادنى، وكان ذلك لاول مرة بعد انسحابهم من داسيا في القرن الثالث للميلاد. إلا ان موريس امر الجنود بان يشتوا فيما وراء الدانوب، فأدى ذلك الى عصيان دفع موريس ثمنه عرشه وحياته، ورمى الامبراطورية في احضان الفوضى.

في سنة ٦٠٤ هاجم كسرى الثاني الامبراطورية الرومانية الشرقية بحجة الانتقام لموريس الذي كان كسرى مدينا له بالكثير. والحرب التي تلت ذلك كانت اشرس الحروب التي دارت رحاها بين الرومان وجيرانهم الايرانيين منذ ان التقى الفريقان لاول مرة سنة ٥٣ ق.م. وقد وصل الفرس، مرتين على الاقل، إلى الشاطى الاسيوي لمضيق البوسفور. في سنة ٦٢٦ كانوا على وشك ان يلتقوا الافار الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية من الجهة الاوروبية لولا ان الاسطول الروماني الشرقي حال دون ذلك، وبكثير من الصعوبة. وقد احتلت الجيوش الفارسية سورية وفلسطين ومصر وبرقة. وكانت هذه اول مرة يصل فيها الفرس إلى هذه النقطة غربا منذ سنة ٣٣١ ق.م.. ولما

قام الرومان الشرقيون بالهجوم المضاد وصلوا شرقا إلى ابعد مما وصل أي جيش روماني منذ سنة ١١٧م. وفي سنة ٦٢٨ كاد الامبراطور الروماني الشرقي هرقل (تولى العرش ٦١٠) ان يصل الى اسوار المدائن (اكتسيفون)؛ ثم انتهت الحرب، كما توقفت حرب السنوات ٥٧٢- ٥٩١ بخلع الامبراطور الساساني ووفاته.

عقدت الدولتان صلحا سنة ٦٢٨ على اساس الوضع السابق للحرب، واخذت الفوضى العنيفة برقاب الامبراطورية الساسانية، على نحو ما اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية بين سنتي ٦٠٢ و ٦١٠، إلا ان الامبراطورية الفارسية، على عكس الامبراطورية الرومانية الشرقية، لم تنهض من كبوتها.

كانت الدولتان، في سنة ٦٢٨، قد بلغ منهما الجهد غايته. وكانت الدولة الثالثة هي الدولة الاسلامية العربية التي انشأها النبي ﷺ في المدينة المنورة سنة ٦٢٢. وقد كان ظهور النبي ﷺ ودولته سريعاً. ففي سنة ٦٣٣ أرسل خليفته الاول أبو بكر الجيوش لمهاجمة جارتيه المجهدتين الواقعتين الى الشمال في وقت واحد، فسقطت الامبراطورية الفارسية. اما الامبراطورية الرومانية الشرقية فقد استمر وجودها. إلا ان املاكها كانت قد تقلصت تدريجاً بحيث اقتصرت في النهاية على اسية الصغرى والقسطنطينية وبعض الجزر وجسور برية على الساحل الآسيوي الشمالي للبحر المتوسط.

٤٤ـ المسيحية الغربية ٣٩٥ـ ٦٣٤

إن الامبراطورية الرومانية الغربية، من بين دول الاويكومين القديم التي تعرضت لتفجر الهون وخروجهم من السهوب الاوراسية هي التي منيت بالفشل الذريع في مواجهتها للجموع المتجهة نحوها. فقد ازاح الهون السارماتيين البدو والجرمان الشرقيين المستقرين غرباً، فاخترق هؤلاء حدود الامبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٠٦ وما بعدها، وفي سنة ٤٧٦ كان حتى الحكم الامبراطوري الاسمي قد صفي. ولم يكن زوال الامبراطورية الرومانية الغربية ناتجا عن قوة هجمات البرابرة عليها، بقدر ما كان نتيجة ضعف الامبراطورية الداخلي. وهذا الضعف كان اجتماعياً كما كان ادارياً. فعلة الامبراطورية الرومانية في الغرب كانت على شاكلة العلة التي اودت بحياة امبراطورية الهان (في الصين). فقد هزمت الحكومة الامبراطورية في صراعها مع كبار الملاكين والقواد العسكريين الكبار. فكبار الملاكين نقلوا فائض المنتوج الزراعي من خزينة الحكومة إلى جيوبهم الخاصة. والقيادة العسكرية العليا جعلت من نفسها دكتاتورية سياسية عن طريق تجميع السلطة العسكرية في يد واحدة.

وقبل سقوط الامبراطورية الغربية ببعض الوقت قام رجلان عظيمان كانا من جيلين مختلفين هما القديس امبروز والقديس اوغسطين. وقد ترك هذان اثراً كبيراً في المسيحية الغربية؛ وهو اثر استمر بعد زوال الامبراطورية، التي عاشا وعملا في كنفها. كان القديس امبروز اسقفاً لميلان (٣٧٢ ـ٣٩٧ م)، وقد توفي وذلك قبل سبع سنوات من نقل العاصمة (٤٠٤ م) من ميلان الى رافنا (التي كانت تكسبها المستنقعات المحيطة بها مناعة ضد الهجوم عليها) وقبل تسع سنوات فقط من اختراق الجرمان الشرقيين، الذين شردهم الهون، حدود الامبراطورية الغربية على نهر الراين. والقديس اوغسطين، الذي كان اسقفاً لهيبو (٣٩٥ ـ ٤٣٠م). في شمال غرب افريقية، توفي بعد

بعد سنة واحدة من هجوم الفندال على شمال افريقية. وقد جاز الفندال من اسبانية إلى افريقية سنة ٤٢٩، وذلك بعد ثلاث وعشرين سنة من اجتيازهم نهر الراين. وكانوا، في سنة ٤٣٠، يحاصرون هيبو، مركز اسقفية القديس اوغسطين.

تحدر رجلا الدين الغربيان من بيئتين اجتماعيتين تختلف الواحدة عن الاخرى اختلافاً كبيراً، وكان كل منهما قد اتخذ لنفسه حرفة مدنية قبل ان ينضما إلى الكنيسة. فقد كان والد امبروز يشغل وظيفة ادارية على اعلى المستويات، وكان امبروز نفسه قد بدأ حياته في السلك الاداري ذاته؛ ولا ريب في انه كان يمكن ان يعيد سيرة ابيه، لولا انه وجّه إلى مجال للعمل كان يحسب انه يمكنه من صرف قوته بشكل اكثر فعالية، وقد تم له ذلك. وكان اوغسطين ابنا لاسرة متوسطة الحال من تاغستا، وهي بلدة صغيرة في داخل شمال غرب افريقية. وقد بدأ اوغسطين حياته مدرساً للبلاغة في موطنه. ومع ان هذه الصناعة كانت قلما تثير الاهتمام لا عقلياً ولا اجتماعياً، فان اوغسطين تميز في عمله هذا. وقد رقي بسبب ذلك من تاغستا إلى قرطاجة ومنها إلى رومة ومن هذه الى ميلان. وهناك تخلى عن المانوية واعتنق المسيحية (٣٨٨). وهكذا شق لنفسه طريقاً استطاع فيه ان يجند مواهبه في مجال ديني في بلاده.

كان امبروز يتصف بالشجاعة وقوة الارادة، وقد استخدم هاتين الصفتين في السيطرة على شخصية قوية اخرى، هو الامبراطور ثيودوسيوس الأول. وقد فرض نفوذه على ثيودوسيوس بامتناعه عن السماح له بتناول الشراكة المقدسة قبل ان يفعل ما طلبه منه امبروز. وقد تقبل ثيودوسيوس ذلك لانه كان مسيحياً مؤمناً ولانه كان يحب ان يراعي الرأي العام المسيحي (ذلك بان امبروز كان قد رسم اسقفاً لميلان بناء على الحاح المسيحيين المحليين). وافاد امبروز من نفوذه على ثيودوسيوس اذ حمله على اعلان التوبة عن مذبحتين امر بهما وكان هذا عملاً فاضلا. إلا انه وضع نفوذه على الامبراطور موضعاً خاطئاً، أولا لانه منعه من توقيع العقوبة بأسقف مسيحي كان قد هدم كنيسا لليهود، وثانياً لانه حمله (٣٨٤) على رفض عريضة تقدم بها سيماخوس، رئيس مجلس الشيوخ في رومة، يطلب فيها ان يعيد مذبح الهة النصر الى قاعة مجلس الشيوخ، وهو المذبح الذي كان قد نقل بناء على امر من غراتيان (٣٨٢) الذي كان سلف ثيودوسيوس في الغرب. كان سيماخوس قد قال في عريضته: « ان سراً عظيماً مثل هذا لا يمكن النظر اليه من طريق واحدة فقط ». والسر الذي كان سيماخوس

بقصده هو الحقيقة النهائية الكامنة خلف الظاهر، ومن ثم قضية العلاقة بين الحقيقة النهائية والانسان. ولم يلتفت امبروز إلى طلب سيماخوس باحلال التسامح في القضية. فقد كان الهدف الذي رمى اليه امبرز هو القضاء على جميع الديانات غير المسيحية داخل الحكومة الامبراطورية الرومانية، وذلك عن طريق اقناع الحكومة الامبراطورية في استعمال سطوتها لتحقيق ذلك. وقد طبق ثيودوسيوس سياسة امبروز (في ٣٩١- ٣٩٢). ومن ثم فان الديانتين الوحيدتين اللتين استمرتا في الامبراطورية هما عبادة النجوم واليهودية بشكليهما اليهودي والسامري.

ومثل ذلك يقال في اوغسطين - انه لم يكن متسامحاً، وقد بذل الكثير من الجهد والوقت في مجادلة الدوناتيين والبلاجيين. وكان الدوناتيون قد اثبتوا انه لم يكن لهم اي مسوغ خلقي في تصلبهم ضد زملائهم المسيحيين الذين كانوا قد وقفوا موقفاً مسالماً خلال سنوات الاضطهاد (٣٠٣- ٣١١). ومع ذلك فانه لم يكن من الممكن اخماد الحركة الدوناتية لأن اتباعها كانوا قد تمثلوا حركة افريقية محلية التي لم تكن دينية بل كانت اجتماعية سياسية. وبلاجيوس كان يرى ان الارادة البشرية لها بعض الحرية في التصرف، وانه يتوجب على الانسان ان يوظف حريته هذه إلى جانب الخير ضد الشر. وهذا الموقف الذي وقفه هذا اللاهوتي البريطاني، والذي يشبه التشديد الايراني على اهمية المسؤولية الخلقية للانسان، هو موقف يشرح القلب، حيثما كان وأينما كان. ولم تكن الحاجة إلى ذلك اشد مما كانت عليه في جيلي بلاجيوس واوغسطين اذ كان المجتمع، في الامبراطورية الرومانية الغربية، في طريق الانهيار. كان اوغسطين يرى ان اهلية الانسان لن تبلغ الدرجة التي تؤدي به الى نيل الخلاص بجهوده وحده. ولن ينال الانسان « الخلاص » إلا اذا شملته « نعمة » الله. وفي الجدل الذي قام به مع البلاجيين، وصل اوغسطين إلى رأي قوامه ان تحكم الله القوي في حياة الانسان هو انه حكم على بعض البشر بالخلاص وعلى لبعض الآخر باللعنة. كان اوغسطين يرى الله في شبه للامبراطور الروماني الذي اساء استعمال سلطانه، لانه ثمل بهذه القوة العارمة التي كانت له.

إن الجزء الاثمن من ارث اوغسطين الأدبي للبشرية هو اتزان غير لاهوتيين. فالاعترافات، هي ترجمة ذاتية سيكولوجية في اسلوب لاتيني بارع. و « مدينة الله »، الكتاب الذي بدأ نشرة جدلية، اصبح، بعد توسيعه وتعميقه، تقصياً عن « السر الأكبر »،

وواحداً من السبل التي يلجأ إليها العقل البشري لفهمه. والجدلية التي انطلقت منها بذرة « مدينة الله » كانت نتيجة لاستيلاء القوط الغربيين على رومه ونهبها سنة ٤١٠. كان قسطنطين الكبير قد صرح بان انتصاراته العسكرية كانت مكافأة له من اله المسيحيين عن اعتناقه المسيحية. وبعد ٤١٠ كان اتباع الديانات غير المسيحية يردون على ذلك بان سقوط رومه سنة ٤١٠ هو عقوبة اوقعتها الالهة غير المسيحية بسبب وقف التعبد لها في ٣٩١- ٣٩٢. وقد نذر اوغسطين نفسه لرد هذه الدعوى، واضطر الى محاولة الكشف عن العلاقة بين حياة الانسان المادية ومشاركته الموازية زمنياً في مملكة السماوات.

في الوقت الذي كان فيه اوغسطين يعمل في مؤلفاته، كان البرابرة يقومون بهجماتهم في الشمال. كانت بعض هذه الهجمات فجائية ـ على سبيل المثال اغارة القوط الغربيين على رومه سنة ٤١٠ واغارة الفندال في سنة ٤٥٥، ومثل تقدم الفندال السابق، مع الالان والسواف، من شاطىء الراين الشرقي الى جنوبي جبال البرانيس، في السنوات الثلاث (٤٠٦- ٤٠٨). وفي مقابل ذلك فان احتلال بريطانية الجزئي الذي قام به الانكليز والسكسون والقوط. وغزو اللمبارديين لايطالية كانت اعمالا حربية تدريجية بحيث كان الاحتلال يتم مجزءاً. والحصون التي انشأها هدريان في بريطانية اصبح الدفاع عنها غير مجد اعتباراً من ٣٨٣، ولكن لعلّ بعض الحاميات الرومانية كانت لا تزال موجودة في بريطانية بعد ذلك بنحو اربعين سنة. ولعلّ اقامة المهاجمين الناطقين باللغة التيوتونية في بريطانية قد بدئت قبل حوالي سنة ٤٢٠- ٤٤٠. وقد احتاجت عملية الاستقرار هنا نحواً من قرنين.

وكانت البلاد التي أصابها الضرر اكثر من غيرها من احتلال البرابرة والمقاومة الرومانية هي ايطالية. وايطالية كانت نواة الامبراطورية الرومانية جمعاء، كما كانت امعن بلدان الامبراطورية الرومانية الغربية مدنية. وقد اشرنا من قبل الى الاجهاد الذي اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية بسبب الحروب الرومانية ـ القوطية (٥٣٥- ٥٦١). وقد قضي على القوط الشرقيين الذين كانوا في ايطالية في هذه الحرب، لكن الذين اصابهم الضرر اكثر من غيرهم كانوا سكان ايطالية بالذات. ومع ان هجمات القوط الغربيين والفندال على ايطالية في القرن الخامس كانت مثيرة، إلا انها كانت آنية وموقتة. وكان زوال الامبراطورية الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦ سلمياً، وهجموم القوط الغربيين، مثله

مثل القتال الذي كان يتم اثناء انسياح الشعب الجرماني الذي كان بين فئة واخرى من البرابرة. وقد ظلت ايطالية موحدة سياسياً إلى سنة ٥٣٥ كما ظلت سالمة اقتصادياً واجتماعياً. وكانت حرب ٥٣٥- ٥٦١ نقطة تحول في تاريخ ايطالية. وقد هجم اللومبارديون على ايطالية سنة ٥٦٨، وذلك بعد سبع سنوات فقط من انجاز توحيد البلاد تحت حكم الامبراطورية الشرقية. ومنذ السنة ٥٦٨ تقسمت ايطالية سياسياً للمرة الاولى منذ سنة ٢٦٤ ق.م.، وهي السنة التي تم فيها توحيد شبه جزيرة ايطالية نتيجة للفتح الروماني الاصلي. وقد كان اللومبارديون امعن في الوحشية من القوط الشرقيين، وايطالية، التي كانت حرب ٥٣٥- ٥٦١ قد قصمت ظهرها، نالها من المصائب اكثر مما كان قد حلّ بها، بسبب الاحتلال البطيء لاجزاء من البلاد، الذي كان يتم امام صمود حاميات الامبراطورية الشرقية، حيث تمكنت هذه من التمسك بتلك الاجزاء.

وفي سنة ٤٨٦، اي قبل سنتين من تقدم ثيودوريك القائد القوطي الشرقي نحو رومه من ايليريا، كان قائد محلي من الفرنج، كلوفيس الميروفنجي، بدأ باقامة امبراطورية في بلاد الغال. لم يكن الفرنج قد اعتنقوا ايا من المذاهب المسيحية لما بدأ كلوفيس عمله، لكنه، في وقت ما وهو يقيم صرح امبراطوريته، اعتنق المسيحية الكاثوليكية. وقد اختار الكثلكة، ولا شك، لأنها كانت المذهب الذي دان به رعاياه الرومان، ولعلّه اختارها ايضاً لأن منافسيه الجرمان، الذين كانوا يعملون على انشاء امبراطورية في جواره، كانوا من اتباع الاريوسية. في سنة ٤٨٦ اصبح كلوفيس مجاوراً للقوط الغربيين على نهر اللوار، كما اصبح جاراً للقوط الشرقيين ايضاً، لما انتصر على الالمان (٤٩٦) في الجزء الأعلى من حوض الراين.

كان اعتناق الجرمان الشرقيين للمذهب الاريوسي (المسيحي) مجرد مصادفة للوقت الذي تنصروا فيه. إلا انهم بعد ان احتلوا ارضاً رومانية غربية، وبعد ان اقاموا دولا ـ خليفة للامبراطورية هناك، سرهم، كفاتحين، ان يكون لهم مذهب مسيحي خاص بهم يميزهم عن رعاياهم الرومان الكاثوليك. وعلى كل فقد كان ثمن هذا التميز ان اصبحوا غريبين، الامر الذي كان عقبة كأداء للجرمان الاريوسيين، بعد ان قامت دولة الفرنج الكاثوليكية. يضاف إلى ذلك ان الجرمان الاريوسيين انفسهم اسرتهم، تدريجاً، الكثلكة التي كان رعاياهم الرومان يعتنقونها والذين كانوا يتفوقون على سادتهم مدنية، كما كانوا يزيدون عنهم عدداً. ولم يتح للكثلكة الوقت لايقاع الفندال تحت

تأثير سحرها (الذين كانوا يتميزون بتعصبهم للاريوسية) أو لايقاع القوط الشرقيين. وقد قضي على هذين الشعبين على ايدي الرومان الشرقيين اثناء هجومهم عليهم، وذلك قبل ان تثار قضية تبديل المذهب الديني. إلا ان ريكارد ملك القوط الغربيين في اسبانية تخلى عن الاريوسية واعتنق الكثلكة طوعاً (٥٨٦)، وتلاه اللومبارديون فساروا على الخطة ذاتها. إلا ان التبديل عندهم كان فيه تردد كما انه تم تدريجاً خلال القرن السابع.

كان القوط الغربيون قد مرت عليهم ثمانون سنة وهم محصورون في اسبانية. ففي سنة ٥٠٧ هزمهم كلوفيس في فوييه وطردهم من املاكهم الواقعة شمالي البرانيس، باستثناء شرحة ساحلية تمتد بين الطرف الشرقي للبرانيس ومصب نهر الرون. ومن ثم فان كلوفيس كان، قبل وفاته سنة ٥١١، قد ضم تحت حكمه ما تبقى من بلاد الغال باستثناء بروفنس، التي كان القوط الشرقيون قد انتزعوها من القوط الغربيين. كان كلوفيس قد فرض سلطته من قبل على كل اجزاء الشعب الفرنجي. وفي ٥٣١- ٥٣٤ ضم خلفاؤه تورنغن وبرغندية، وفرضوا سلطتهم على بافاريا في سنة ٥٥٢. كان الميروفنجيون يقومون ببناء امبراطورية جديدة، تعتمد شمال بلاد الغال منطلقاً، لتملأ الفراغ السياسي الذي خلفه انحلال الامبراطورية الغربية في غرب اوروبة. ولعلّ امبراطورية فرنجية كان مقيضاً لها ان تخلف الامبراطورية الرومانية الغربية قبل نهاية القرن السادس لو ان احفاد كلوفيس لم ينظروا الى املاك الاسرة الميروفنجية كما لو كانت املاكا خاصة، كان من الممكن تقسيمها واعادة تقسيمها اجيالاً متعاقبة. فهذه التقسيمات، والحروب الاهلية التي تلتها، خربت بلاد الغال وردت سادتها الفرنجة المتنافرين إلى دور العاجز.

كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال، عند مقلب القرنين السادس والسابع، تحتفظ بتفوقها البحري في الحوض الغربي، كما في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وكانت لا تزال تخضع لسلطانها جميع جزر البحر المتوسط، لا صقلية فحسب، بل ايضاً شمال غرب افريقية، الذي هو اكبر جزيرة بين جميع الجزر، والذي هو جزيرة في الواقع، اذ ان بحراً من الرمال، هو الصحراء الكبرى، يعزله عن بقية افريقية. وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال تحتفظ برأس جسر في شمال غرب ايطالية، يعتمد رافنا اضافة إلى الجزر التي تقوم في مستنقع البندقية. اما فيما يختص بالمنطقة التابعة

للامبراطورية الرومانية، وهي الارض التي تحيط بروما بالذات، فقد تركتها حكومة القسطنطينية للبابا كي يقوم بحماية هذه البقعة النائية ويزود سكانها بحاجتهم، على خير ما يستطيع. ودوقية روما هذه، التي سلمت من انصباب اللومبارديين على ايطالية لم تكن اكبر مساحة من « الأرض الرومانية » على ما كانت عليه في القرن الخامس قبل الميلاد.

يبدو ان جميع اجزاء المسيحية الغربية كانت، في القرنين الخامس والسادس، في حالة يأس شديدة. ومع ذلك، فان البعض من ممثلي الكنيسة المسيحية الكاثوليكية، اظهروا، في احلك الساعات، روحا عالية. فقد ترك البابا ليو الاول (٤٤٠- ٤٦١) اثرا فعالا في مقررات المجمع المسكوني في خلقدونية (٤٥١)، وفي سنة ٤٥٢ قام بدور قيادي في سفارة رومانية اقنعت القائد اتيلا (من الهون) بان يتوقف في هجومه على شمال ايطالية. وقد قام القديس باتريك بالتبشير في ارلندا ايام كان ليو بابا لروما. لقد كان القديس باتريك بريطانيا رومانيا ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها التي كان ينتمي اليها الافريقي الروماني القديس اوغسطين. كان باتريك قد وقع اسيراً في ايدي لصوص إرلنديين، واسترق. وقد هرب من الرق في ارلندا وعاد اليها فيما بعد طوعا كمبشر مسيحي (حوالي ٤٣٢- ٤٦١). وقد امتدت جذور النصرانية في ارلندا، وفي القرن السادس تبنى المسيحيون الارلنديون الرهبنة بنوعيها الانفرادي والجماعي.

وفي الوقت نفسه كان القديس بندكت ينشيء رهبنته في مونتي كاسينو. وقد بدأ بندكت عمله حوالي سنة ٥٢٩، لما كانت ايطالية لا تزال تتمتع بالسلم. وتوفي سنة ٥٤٧، لما كانت ايطالية تتناتشها الحرب الرومانية - القوطية. ومع ذلك فان الرهبنة البندكية لم تستمر في الحياة فحسب، بل انها انتشرت. وقد حمل الراية البندكية وعمل في سبيلها البابا غريغوريوس الاول (٥٩٠- ٦٠٤). فقد جعل غريغوريوس بيته في روما ديرا للبندكتيين، واصبح راهبا هناك قبل ان يصبح رسولا بابويا في القسطنطينية اولا، ثم بابا في روما.

كان على غريغوريوس، بوصفه بابا، ان يطعم سكان روما من غلة الاملاك البابوية في صقلية. كما كان عليه ان يتفاوض مع اللومبارديين المعتدين نيابة عن الامبراطورية الرومانية الشرقية. ومع ذلك فان غريغوريوس كان له من عزيمته ان يرسل بعثة تبشرية الى مملكة القوط في كنت لدعوتهم الى اعتناق المسيحية، وذلك لما كان اللومبارديون

يقرعون ابواب رومة. وأتبعت هذه البعثة، بعد وفاة غريغوريوس، ببعثة اخرى إلى مملكة نورثمبريا الانكليزية. وقد تولى المبشر الروماني باولينوس العمل في يورك (٦٢٧- ٦٣٢)، ولكن في سنة ٦٣٤ خلفه في منصبه المبشر الارلندي ايدان من ايونا، وهي جزيرة صغيرة تقع في مقابل ساحل اسكتلاندا الغربي. واقام ايدان ديرا في جزيرة لندسفارن (الارض المقدسة) الواقعة مقابل ساحل نورثمبريا.

كانت نتيجة دخول الرهبنة الى ارلندا قيام حركة تبشيرية عارمة. اسس القديس كولومبا الدير الارلندي على جزيرة ايونا حوالي سنة ٥٦٣. وقد توفي القديس كولومبا في ايونا سنة ٥٩٧، وهي السنة ذاتها التي ارسل فيها البابا غريغوريوس بعثه التبشيرية من رومة إلى كنت (في انكلترا). وحوالي السنة ٥٩٠ جاز مبشر ارلندي آخر، هو القديس كولومبانوس من ارلندا إلى بريطانية ومن هذه الى القارة واسس ديراً في لوكسيل (مقاطعة برغندية). ولوكسيل هذه مركز رئيس لشبكة المواصلات في الممتلكات الفرنجية. وفي سنة ٦١٠ كان القديس كولومبانوس وقد وصل إلى بحيرة كونستانس، واجتاز الالب (٦١٣) واسس ديرا في بوبيو، في شمال غرب ايطالية. وهناك توفي سنة ٦١٥.

الفراغ الذي تركه في نورثمبريا المبشر الروماني باولينوس، الذي شرّد في سنة ٦٣٢، ملأه المبشر الارلندي ايدان سنة ٦٣٤. وقد التقى الحقلان التبشيريان، الروماني والإرلندي، في نورثمبريا، كما انهما تشابكا. واصبح، من المحتم، ان تقوم مواجهة هناك بين الكنيستين الرومانية والارلندية.

٤٥ـ قيام الكنيسة المسيحية وتقسمها ٣١٢ــ ٦٥٧

ابتسم الحظ للكنيسة المسيحية، في السنتين ٣١١- ٣١٢ بشكل مفاجىء وغريب. فبعد ان كانت قد تحملت ثماني سنوات من أشد وأسوأ اضطهاد عرفته على يد الحكومة الرومانية الامبراطورية جاءها أولا تسامح على يد الامبراطور غاليريوس، وهو على فراش الموت، وان كان تسامحا منحه الامبراطور على مضض. ثم، وفي غضون ثمانية عشر شهراً، احتلت، على يد الامبراطور المنتصر قسطنطين، موضعاً مفضلا عمليا؛ وكان قسطنطين قد وصل الى السيادة الفعلية لنصف الامبراطورية. ومثل هذه التجربة كان مقيضا لها، في اي زمن من تاريخ الكنيسة كان حدوثها، ان تضع الكنيسة وشخصيتها على المحك؛ ولكن الكنيسة كانت شخصيتها ومنزلتها قد تضعضعتا في القرن الثالث، بسبب تضخم عدد اتباعها وازدياد ثروتها ونفوذها، وترتب على ذلك ان اصبحت الوظائف الكبرى في الكنيسة تغري طالبي المصالح. فقد وقع في سنة ٢١٧ تنافس دنيء حول اسقفية رومة. وتعرضت الكنيسة ايضاً لاضطهادات (في السنوات ٢٥٠ و ٢٥٧- ٢٦٠ و ٣٠٣- ٣١١) كانت اكثر انتظاماً واعنف من الاضطهادات القصيرة الحادة المحلية التي عرفتها في القرنين الاولين من تاريخها. واذا كانت اسقفية كاليستوس الاول لرومة (٢١٧- ٢٢٢) تبدو ابعد ما يكون عن الاحترام، فان استشهاد كبريانوس، اسقف قرطاجة (٢٥٨)، يزيل تلك الوصمة.

كان الباعث لغاليريوس على اضطهاد الكنيسة، مثل الباعث لقسطنطين في كرمه نحوها. فمنذ ان وضع اورليانوس الامبراطورية تحت نفوذ « الاله الذي لا يقهر » (اي الشمس) في مجمع الآلهة (غير المسيحية) الامبراطورية، اصبح من المعترف به ان وحدة الامبراطورية، بل حتى بقاؤها، لا يمكن ان يتم دون دعم من ديانة رسمية. وكانت الامبراطورية الساسانية قد اختارت، قبل نهاية القرن الثالث، المؤسسة الدينية

الزرادشتية ديانة رسمية لها، بما في ذلك تنظيمها الكهنوتي. ومثل ذلك يقال في مملكة ارمينية التي اتخذت الكنيسة المسيحية دينا رسميا لها. وبعد ان اعترف غاليريوس بان الكنيسة المسيحية كانت اقوى منه، وبعد ان ثبتت لقسطنطين عيانا قوة الكنيسة المسيحية، وذلك لما انتصر بعد ان رأى الكتابة المشهورة في حلمه، كان لزاما عليه ان يرى في المسيح « الاله الذي لا يقهر » (اي الشمس) وأن يتخذ من المسيحية الدين الذي يوحد الامبراطورية الرومانية.

كان من الطبيعي ان ينتظر من الكنيسة المسيحية، عندما تصبح لها المكانة الرسمية، ان تدعم وحدة الامبراطورية الرومانية دعما فعالا. فالكنيسة نجحت، الى سنة ٣١١، نجاحا كبيرا، في الحفاظ على وحدتها، وهذا امر حري بالاعتبار. ان الكنيسة المسيحية منذ تأسيسها بعد وفاة المسيح، كان بقاؤها مهدداً بسبب الانشقاق الداخلي، إلا ان هذا التهديد كان يتغلب عليه باستمرار. فاما ان يُسترضى المنشقون، واما ان يُغلب الفريق الاضعف على امره، او يطرد. في سنة ٣١١ كانت الكنيسة الكاثوليكية (اي الجامعة) وحدة من اورزوني وارمينية في الشرق الى بريطانية في الغرب، وفي تلك السنة تحررت الكنيسة، على كل، من الضغط الذي كان جد عنيف في دوره الاخير؛ وعندها عجزت وحدة الكنيسة التاريخية عن الصمود لما وضعت على المحك. فالانشقاق السابق الذي عرفه سكان الامبراطورية بين المسيحيين وغير المسيحيين حل مكانه الآن انشقاق في قلب الكنيسة بالذات. والحكومة الرومانية الامبراطورية التي كانت، منذ اعتناق قسطنطين المسيحية، تراهن على ان تدعم وحدة الكنيسة وحدة الامبراطورية، وجدت نفسها عاجزة عن اقناع الفرقاء المسيحيين المتخاصمين على احلال السلام فيما بينهم. وقد اربكت الانشقاقات الكنسية الداخلية قسطنطين الاول منذ ان اعتنق المسيحية (٣١٢) الى حين وفاته سنة ٣٣٧. وكانت لا تزال تربك كونستانس الثاني (حكم ٦٤١- ٦٦٨). والخلاف الذي كان قائما بين حكومة القسطنطينية الامبراطورية والبابوية ايام كونستانس الثاني، حلّه العرب المسلمون (بفتحهم بلاد الشام ومصر) اذ خلصوا الامبراطورية من جميع المسيحيين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح؛ وهكذا أُحلت الحكومة الامبراطورية من التزامها اللاعملي وهو التوفيق بين فئتين مسيحيتين يستحيل التوفيق بينهما.

ومع ان الانشقاق الكبير في الكنيسة المسيحية الذي جاء في اعقاب ٣١١- ٣١٢

كان مدعاة للانزعاج بالنسبة الى قسطنطين وخلفائه، فانه لم يكن من الممكن تجنبه. ذلك انه لما اصبحت المسيحية الدين الرسمي للامبراطورية الرومانية، وكان من نتيجة ذلك ان اصبح المسيحيون اكثرية السكان، لم يكن باستطاعة الحكومة الامبراطورية ان تتحكم بالكنيسة اكثر مما كانت تستطيع التحكم بها في الوضع السابق لذلك، لما كانت اقلية غير مسيحية. وليس في ذلك غرابة، فالمسيحية كانت قد ورثت من سابقتها الكره التقليدي للحلول الوسطى.

يضاف الى ذلك ان المشكلات الدينية اصبحت، في الوضع الجديد، صنوا للمشكلات الاجتماعية والسياسية. فالخصومة بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الدوناتيين، اصبحت خصومة بين نوميديا وقرطاجة، كما اصبحت خصومة بين الفلاحين ومالكي الارضين. ولاهوت اريوس، الذي هزم اخيرا في نطاق الامبراطورية، اصبح الشارة المميزة للبرابرة الذين كانوا يهاجمون الامبراطورية. وهؤلاء البرابرة اعتنقوا المذهب الاريوسي في وقت كان هذا المذهب في صعود في داخل الامبراطورية. والجدل حول تركيب « الثالوث » صار نزاعاً على السلطة الكهنوتية بين الاسكندرية (عاصمة البطالمة السياسية السابقة) وانطاكية (العاصمة السياسة السابقة للسلوقيين). والجدل الذي قام فيما بعد حول العلاقة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية للاقنوم الثاني (اي الابن) آل ايضاً إلى خصومة بين الحكومة الرومانية الامبراطورية ورعاياها الناطقين بالسريانية (في بلاد الشام) والناطقين بالقبطية (في مصر). فقد تحدى هؤلاء وقتها تقوية اللغة اليونانية التي فرضها عليهم الاسكندر الاكبر والتي حافظت على وجودها بسبب السلطة الرومانية، فيما كانت الحكومة الامبراطورية تجهد في الحفاظ على سيطرتها عليهم. وبهذه المناسبة فان المجمعين المسكونيين الثاني والرابع يسرا لبطريركية القسطنطينية الفرصة لتثبيت وجودها. فالمجمع الثاني (٣٨١م) اعترف بان كرسي القسطنطينية يأتي الثاني بعد الكرسي الروماني. والمجمع الرابع (٤٥١م) منح بطريرك القسطنطينية سلطاناً قضائياً دينياً على امية الصغرى (الى الشمال الغربي من سلسلة جبال طوروس) وعلى الطرف الشرقي من شبه جزيرة البلقان.

إن الخلافات الدينية التي عرفها القرنان الرابع والخامس لم تكن مجرد قناع للخصومات المدنية التي كانت نظيرة لها. إن القضايا الاخلاقية واللاهوتية والقضائية التي انقسم المسيحيون حولها كانت اصيلة، والشعور والاحساس اللذان اثارتهما هذه

القضايا كانا مخلصين وواسعي الانتشار. لقد كان ثمة سبب عملي كان يدعو إلى ان تشتبك المشكلات المسيحية الدينية مع المشكلات المدنية الامبراطورية بعضها بالبعض الآخر. لقد اصبحت الكنيسة المسيحية المؤسسة النافذة في الامبراطورية الرومانية. وترتب على ذلك ان جميع الشعوب والمناطق وطبقات الشعب والاحزاب التي تضمها الامبراطورية كانت مرتبطة مصالحها بما يهم الكنيسة.

كانت القضية الخلقية اول قضية برزت على المسرح اثناء الاضطهاد الذي وقع في سنوات ٣٠٣- ٣١١ وكذلك اثناء الاضطهادين اللذين حصلا في القرن الثالث. تراجع بعض المسيحيين عن ايمانهم، فيما صمد البعض الآخر ودفع الاستشهاد ثمناً لصموده. والسؤال الذي طرح عندها: هل يقبل اولئك الذين تراجعوا من المسيحيين في جماعة المؤمنين الى جانب اولئك الذين صمدوا؟ ام ان المتراجعين يجب ان يوصموا بذلك الى الأبد؟ واغلب الذين ظلوا احياء من اعضاء الكنيسة كان موقفهم يتصف بالكرم النفسي والانسانية والحنكة. فقد كانوا الى جانب التسامح مع اولئك الذين ضعفوا. والمتشددون من ابناء الكنيسة، وهم قلة في الغالب، غلبوا على امرهم في معظم المناطق. ولكن في شمال غرب افريقية كان خصوم التوفيق متزمتين الى ابعد الحدود. فقد خاصموا صانعي السلام، الذين لم تخدش سمعتهم، كما خاصموا المتراجعين من المسيحيين، وهم الذين اراد المسالمون ان يتغاضوا عن تصرفهم. وقد اشتدت هذه الخصومة في شمال غرب افريقية الى حد حملت قسطنطين على التدخل سنة ٣١٣، وهي السنة التالية لاعتناقه المسيحية. كان قسطنطين يرى ان الخلاف داخل الكنيسة المسيحية امر مكروه امام الله، وانه اذا فشل الامبراطور في وضع حد لهذا الخلاف، فانه يكون، هو والكنيسة، امام احتمال ان يخسرا الدعم الالهي. وجرب قسطنيطين التوفيق بين المتخالفين الافارقة، بالاقناع اولاً، ثم بالقوة، لكنه اسقط في يده.

إن القضايا اللاهوتية التي دار الجدل حولها بين سنتي ٣١٧ و ٦٥٧، كانت قد بدت اصولها في المعتقدات المتعلقة بالمسيح على ما تضمنته الاناجيل الاول والثالث والرابع. من الطبيعي ان تكون هذه القضايا قد اثيرت قبل سنة ٣١٢؛ وحقيقة الامر هو انه منذ القرن الثاني، كان ثمة مسيحيون يستطيعون الجدل اللاهوتي مستخدمين في ذلك الحدود الفلسفية الهلينية، وقد فعلوا ذلك - وعلى سبيل المثال هناك عمل ايرينايوس المسمى « ضد البدع »، الذي وضع حوالي سنة ١٨٥. لكن اتخاذ الكنيسة

المسيحية على انها الدين المفضل، نقل الخلافات في اللاهوت المسيحي الى قضايا امبراطورية عامة. يضاف الى ذلك ان النخبة المثقفة ثقافة هلينية، ظلت، على وجه العموم، متحفظة تجاه المعتقد المسيحي، إلى ان قدم لها في الحدود الهلينية. وبسبب هذين العاملين، كان قيام جدل واضح ومجهد حول القضايا اللاهوتية امرا لا مفر منه، وذلك فيما بعد ٣١٢. وبسبب ان المسيحية تكره الحلول الوسطى فان هذه المجادلات كانت تتصف بالمكابرة والعنف.

لما وضعت الاناجيل الاول والثالث والرابع كان ثمة جماعة من المسيحيين يعتقدون بالوهية المسيح. وبموجب ما جاء في الانجيلين، الاول والثالث، لم يكن للمسيح اب؛ فقد حملت به امه البشرية بروح الله. وبموجب الانجيل الرابع فالمسيح هو كلمة الله المتجسدة. وقد كان اليهود قد توصلوا، في هذا الوقت، الى اضفاء نوع من الاستقلال على « كلمة الله » و « روح الله »، وهو وضع شبيه بما اضفته الزرادشتية على مظاهر اهورامزدا المنوعة. إلا ان هذا كان الحد الاخير لما يمكن ان تقبل به اليهودية من التقليل لوحدة الله ووحدانيته. ولم يكن باستطاعة المسيحيين - ولا هم رغبوا في ذلك - ان يديروا ظهرهم للتوحيد الذي ورثوه من اليهودية، لكن انى لهم ان يوفقوا بين التوحيد وبين اعتقادهم بان المسيح والله كانا الهين!

لقد نص على ان المسيح تحدث عن نفسه على انه « ابن الله ». ويمكن تفسير الانجيل الثاني مجازاً بحيث يفهم منه ان الله اعلن للمسيح انه اعتبره ابنه بالتبني. إلا ان الاناجيل الثلاثة الاخرى كانت تتضمن ان المسيح هو ابن الله بالمعنى الحرفي للكلمة، اي ان الابوة كانت على نحو ما كانت عليه الحال بالنسبة للفراعنة (منذ زمن الاسرة الخامسة) من حيث اضفاء الابوة الالهية. وسواء اكان المسيح الها في واحد من هذين المعنيين المحتملين او الآخر، فالامر الذي لا شبهة فيه هو انه كان بشرا سوياً. واذا، فاذا كان ابن الله بالمعنى الحرفي، فهذه الحقيقة اثارت قضيتين: الاولى علاقة الابن بالاب، والثانية العلاقة بين الطبيعتين الالهية والبشرية للابن نفسه. كما انها اثارت قضية ثالثة هي منزلة ام المسيح مريم العذراء. فقد كانت بشرا، ولم تكن الهة. فهل من الممكن ان يطلق عليها اسم « ام الله »، (ثيوتوكوس) باعتبار الطبيعة الالهية لابنها؟

واللاهوتيون المسيحيون، لما سألوا انفسهم هذه الاسئلة كانوا ينقلون « الكلمات » الى افاق خارجة عن نطاق التجربة البشرية. وقد وصل هؤلاء اللاهوتيون الى هذه الافاق

لانهم كانوا يتكلمون ويكتبون باليونانية. والناطقون باليونانية كانوا قد اخذوا انفسهم، منذ قبيل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، يتعاملون مع الكلمات كما لو كانت الكلمات حقائق، حتى عندما تكون الكلمات اموراً ليس لها نظير لا في عالم الفكر ولا في عالم الظواهر. وقد وجد قسطنطين الاول نفسه، في السنة ٣٢٤. وقد خابت اماله في حل الخلاف في شمال غرب افريقية حول المسيحيين المتراجعين هناك - انه مضطر الى التدخل في خلاف حول علاقة الابن بالآب. هذا الخلاف كان قد نشب بين اسكندر، اسقف الاسكندرية، واريوس الذي كان راعيا من رعاة اسقفية اسكندر بالذات. وقد كتب قسطنطين الى كل من المتخاصمين بان القضية المختلف عليها بينهما لم يكن من الجائز اثارتها ابداً. وفي سنة ٦٤٨ منع كونستانس الثاني، منعا باتا اي نقاش حول القضية اللاهوتية المسيحية التي كانت سائدة في زمنه، وهي فيما اذا كان للمسيح مشيئتان وعملان ام مشيئة واحدة وعمل واحد.

من المحتمل ان « الكلمات » التي كان الخلاف يدور حولها في سنتي ٣٢٤ و ٦٤٨ (وفيما بينهما من السنين) قد تحمل معنى او لا تحمل اي معنى، ولكنها من المؤكد انها اثارت شعوراً عارماً. وقد ترجم هذا الشعور بشكل عنف جسدي. فلجيء إلى التهديد بين الرهبان المصريين و «المبتدئين » من اهل الكهنوت وبين البحارة في المجمعين المسكونيين اللذين انعقدا في انسوس في سنتي ٤٣١ و ٤٤٩. وفي المناسبة الثانية اوقع المصريون اضراراً جسدية ببطريرك القسطنطينية فلافيانوس. وقد عجز جميع الاباطرة، من قسطنطين الاول إلى كونستانس الثاني، على حمل اللاهوتيين على السكوت. فقد اضطر قسطنطين الاول على عقد المجمع المسكوني الاول في نيقية (٣٢٥)، ورئسه بنفسه وصاغ هو كلمة هوموسيوس (مساو في الجوهر) - وهي كلمة من النوع الذي كان يمقته من قبل. وقد بدا وكأن اثناسيوس، خصم اريوس، الذي خلف اسكندر اسقفاً على الاسكندرية (في سنة ٣٢٨) قد ربح الجولة. ومع ذلك فقد اضطر ثيودوسيوس الاول الى عقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية (٣٨١)، ولكن حتى يومها، لم تلق القضية التي اثارها اريوس ضربتها النهائية. فقد حمل المبشر القوطي اولفيلاس (حوالي ٣١١ - ٣٨٣) الى الشعوب الجرمانية الشرقية المسيحية بشكلها الاريوسي. وقد كان الامبراطوران قسطنطينوس الثاني وفالتاريوسيين. ولما كان اوليفلاس معاصراً لهما فقد حسب انه كان يبشر بالمسيحية بصيغتها الدائمة.

فلما هاجم الجرمان الشرقيون الامبراطورية، حملوا المسيحية الاريوسية معهم. والامر الذي اصدره كونستانس الثاني (٦٤٨) بوجوب الامتناع عن البحث في الموضوع، اثار احتجاجاً صاخباً من البابا مارتين الاول. ولم يخلد البابا الى الصمت إلا لما القي القبض عليه، وأوذي، ونفي الى شبه جزيرة القرم.

لم ينف اريوس ان الابن هو الله. ففي حياته (حوالي ٢٥٠- ٣٣٦) كانت العقيدة بالوهية المسيح قد انتشرت في الكنيسة المسيحية. وقد ظل للقابلين بهذا الرأي وجود في الاماكن ذات المنعة الطبيعية، في اطراف العالم المسيحي: في الجبال الواقعة بين رافدي الفرات الاعليين وفي جبال البرانيس وفي استوريا. لكن اريوس اصر على القول بان الابن خلقه الاب ومن ثم فالابن لا يستوي والاب زمنيا، وليس هو كفؤا له. ومجمع نيقية (٣٢٥) وضع الاقانيم الثلاثة (الاب والابن والروح القدس) في درجة واحدة مطلقا. وقد اكد المجمع، في الوقت ذاته، على ان الاقانيم الثلاثة هي الله الواحد. وهذا الدمج بين التوحيد والتثليث هو امر كلامي. فالنتيجة الحقيقية لمجمع نيقية كانت وضع الابن في درجة اله ثان. واصبحت المسيحية الآن « موحدة » بالاسم فقط.

وتأليه الابن كان انتصاراً لوجهة النظر المصرية، (مع ان اريوس كان كاهناً في كنيسة الاسكندرية، فان رأيه اللاهوتي كان انطاكياً). وفي مجمعي افسس (٤٣١ و ٤٤٩) سار المصريون خطوة ابعد. ففي سنة ٤٣١ نجحوا في الحكم على نسطوريوس، بطريرك القسطنطينية. ونسطوريوس كان قد اصر على الناحية البشرية في الابن، بان رفض تسمية العذراء « ام الله ». ومن ثم فقد وصم النساطرة بانهم اصحاب الطبيعتين (اي المؤمنون بان الابن كانت له طبيعتان غير متحدتين). وقد كان انكسار نسطوريوس انكساراً نهائياً لمدرسة انطاكية اللاهوتية في حدود الامبراطورية الرومانية. والامبراطور انساسيوس، القابل بمذهب الطبيعة الواحدة، اقفل مدرسة ادسا اللاهوتية (٤٨٩) وهي التي كانت نسطورية النزعة. لكن اللاهوتيين النساطرة وجدوا ملتجأ آمناً في نصيبين التي كانت، منذ سنة ٣٦٣، تقع خارج الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية. ومن ثم فان النسطورية، مثل معاصرتها الاكثر راديكالية اي الاريوسية، وجدت مجالاً للبقاء - خارج الامبراطورية الرومانية.

سار المصريون في سنة ٤٤٩ خطوة اخرى ابعد من تلك التي ساروها في سنة ٤٣١

. فقد فرضوا المعتقد القائل بان الابن له طبيعة واحدة، وهي الطبيعة الالهية، فيما هو متجسد في جسم بشري. لكن المجمع المنعقد في خلقدونية (٤٥١) الغى اعمال (قرارات) المجمع المنعقد في افسوس سنة ٤٤٩. واعلن يومها ان للمسيح طبيعتين ـ الالهية والبشرية ـ اتحدتا في شخص واحد. وقد لقي المصريون الآن ما لقيه النساطرة من قبل، فقد وصموا بانهم منشقون.

لقد وصم المصريون بذلك، إلا انه لم يكن من المستطاع لا طردهم ولا ارغامهم. فالنزعة اللاهوتية التي انتهت بالقول بالطبيعة الواحدة كانت في مصر حركة جماهيرية. وهذه الحركة ربحت سورية الى جانبها، وهي البلاد التي كانت من قبل قد اصرت على الناحية البشرية في طبيعة الابن. والقول بالطبيعة الواحدة اسرت ارمينية ايضاً. فقد اخذت الكنيسة الارمينية بالطبيعة الواحدة سنة ٤٩١، ولم تجار الحكومة الامبراطورية الرومانية لما ارتدت هذه، في سنة ٥١٨، من « الطبيعة الواحدة » الى المذهب الخلقدوني. فقد استقر الارمن على صيغة للمسيحية اختلفت عن الصيغتين الرومانية والفارسية. فاصحاب الطبيعة الواحدة وصموا الخلقيدونيين بانهم من اصحاب الطبيعتين القريبين من النساطرة، وملكيين (اي اتباع الحكم الروماني الامبراطوري). ومن سنة ٤٥١ فما بعد كان على الحكومة الامبراطورية ان تحاول ارضاء الفريقين من رعاياها ـ الخلقيدونيين واصحاب الطبيعة الواحدة. ولم يكن باستطاعتها ان تنفر اصحاب الطبيعة الواحدة، ذلك بان مصر وسورية (القائلتين بالطبيعة الواحدة) كانتا، من الناحية الاقتصادية، عماد الامبراطورية الرومانية الشرقية.

في سنة ٤٨٢ اصدر الامبراطور زينون « قانون الوحدة »، الامر الذي ادى الى صدع بين الامبراطورية الشرقية والبابوية. ولما عكس جوستين الاول (٥١٨) سياسة زينون وانستاسيوس الاول، وهي السياسة الممالئة للطبيعة الواحدة (ولا ريب في ان جوستين فعل ذلك بالحاح من ابن اخيه وخليفته جستنيان) تأثر اصحاب الطبيعة الواحدة سياسياً بذلك. وقد وجد جستنيان نفسه مضطراً (حوالي سنة ٥٤٣) الى القيام بمحاولة للارضاء لم تكن ذات اثر، وذلك انه وصم لاحقاً المعتقدات الثلاثة التي قال بها لاهوتيو القرن الخامس بالنسطورية.

وفي الفترة التي مرت بين ٥٠٨ وسنوات ٦٣٣ـ ٦٤١ (وهذه كانت السنوات التي كان فيها العرب المسلمون يفتحون فلسطين وسورية ومصر) كان رعايا

الامبراطورية الرومانية الشرقية من اصحاب الطبيعة الواحدة في حالة ضيق. إلا ان حظهم بعث لهم بثلاثة مؤازرين اشداء: سيفروس البيسيدوني الذي كان بطريرك القسطنطينية (٥١٢- ٥١٨)؛ وزوج جوستيان الامبراطورة ثيودورا (وكان جوستنيان قد تزوجها قبل اعتلائه العرش في سنة ٥٢٧ وقد توفيت في سنة ٥٤٨، وكان لها من العمر خمسون سنة)؛ ويعقوب البردعي، الذي كان احد المقربين من ثيودورا من اصحاب الطبيعة الواحدة. وقد عين يعقوب اسقفا لاديسا (٥٤٣)، بناء على رغبة ملحة من الحارث، الامير الغساني الذي كان المشرف على المناطق الشرقية للامبراطورية الرومانية. وقد قضى يعقوب ما تبقى من حياته وهو يتنقل من مكان الى آخر فحفظ كنيسة الطبيعة الواحدة حية وذلك بان سام رجال دين من جميع الدرجات من اتباع هذا المذهب.

وقد اضافت ثيودورا، الى كنيسة الطبيعة الواحدة، منطقة جديدة خارج نطاق الامبراطورية الرومانية. فقد استبقت زوجها (حوالي سنة ٥٤٠) بان ربحت النوبيين الى المذهب الذي تقبله هي بدل ان يعتنق القوم مذهب زوجها. وكانت مملكة اكسوم، الواقعة الى الجنوب الشرقي من نوبية (وهي اليوم الجزء الشمالي من اثيوبيا)، قد اعتنقت المسيحية حول منتصف القرن الرابع. وفي القرن السادس تقبلت اكسوم، كما تقبلت نوبيا، مذهب الطبيعة الواحدة، وكان على حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية ان تقبل بذلك. كانت اكسوم تسيطر على الطريق البحري بين مصر والهند، ومن ثم فان حاكمها كان في وضع يمكنه من التدخل في شؤون اليمن لمصلحة الامبراطورية الرومانية. ومن ثم فان القسطنطينية لم تر انه من المصلحة ان تختلف سياسيا مع اكسوم حول قضية لاهوتية.

كانت احدى نتائج التبدل التي مرت بها الكنيسة المسيحية في الامبراطورية الرومانية في ٣١١- ٣١٢ هي النقلة من الاستشهاد الى التنسك بالنسبة إلى الدور البراق في حياة ابطال الكنيسة. فلم يعد ممكنا ان يستشهد مسيحي على يد غير مسيحي ضمن الامبراطورية. وكان ثمة حاجة الى نوع جديد من الابطال المسيحيين، وقد تقدم النساك لتحقيق هذا المطلب السيكولوجي. وكان المتنسك القديس انطونيوس (حوالي ٢٥١- ٣٥٦) ابعد شهرة واكثر احتراماً من اي مصري في اي عصر فرعوني. الاّ ان المستقبل لم ينفتح امام انطونيوس المتنسك بل انفتح امام مصري آخر، هو باخوم

(٢٩٠- ٣٤٥) الذي اسس في تِبنّسيّ (في مصر العليا) اول اخوة مسيحية من الزهاد التي عاشت معا كجماعة منتظمة ومنظّمة. إن الجماعات البوذية التي كانت تعيش على هذا النمط كانت معروفة في الهند منذ ان اسس بوذا الشنغا الخاص به، وذلك قبل جيل باخوم بما لا يقل عن ثمانية قرون. ولكن مجموعة الاديرة التي انشأها باخوم كانت حدثا في الطرف الغربي من اويكومين العالم القديم.

كان لهذه المؤسسة التي انشأها باخوم اثر ثابت في حياة المسيحية جمعاء. ففي القرن الرابع قام القديس باسيل، وهو من كبادوكية (حوالي ٣٢٠- ٣٧٩) بانشاء رهبانيه جماعية خاصة بالعالم الناطق باليونانية، كانت اقل صرامة من الصيغة التي فرضها باخوم، وهي التي اوحت للقديس باسيل بفكرته. وتأثر القديس بندكت بالقديس باسيل، ولو جزئياً، فنظم ديرا في مونتي كاسينو، الى الجهة الجنوبية الشرقية من رومة، ووضع له قانوناً، اصبح فيما بعد الاساس للرهبانية التي انتشرت في عالم اللغة اللاتينية، وقد تأصلت جذور الرهبنة، خلال القرن السادس، خارج حدود عالم اللغة اللاتينية، في ارلندا. وقانونا باسيل وبندكت كلاهما فيهما اثر من قانون باخوم. فقد استقى كلاهما، من نظيرهما المصري، التشديد على الحياة الجماعية والنظام والعمل.

والتاريخ الروحي لباسيل وبندكت يشبه مثيله عند بوذا. فكل واحد منهم بدأ حياته ناسكا زاهدا قبل ان يقوم بتأسيس رهبانية خاصة به. وتحول باسيل وبندكت من صيغة القديس انطونيوس الى رهبنة باخوم، كان استجابة منهما للتجربة الروحية، كما كان ذلك شاهداً على حكمة باخوم. ذلك بان خلق باخوم لمنظمة الرهبنة الجماعية كان عملا فذاً؛ لان المصريين كانوا، على العموم، اكثر انجذاباً نحو اسلوب التنسك في الحياة. وفي حقيقة الأمر فان لهذه الطريقة اموراً تحببها الى الناس هي غير موجودة في الطريقة الأخرى. فالناسك له قانونه الخاص به، وحريته تتيح له فرصا للتقوية الروحية، مع العلم بان هذه الحرية قد تؤدي به الى نكسة توقعه في تعذيب النفس العقيم، او تلقي به في احضان الاستعراض الذاتي. والمألوف انه حيث قبل الناس التنسك اساس للحياة كانت شهرة الناسك متناسبة مع درجة القهر الجسدي الذي يمارسه. والصيغة الجماعية لحياة الرهبنة اقل ألقاً. ومع ان الاديرة التي اتبعت قانون باخوم شهرت في العالم المسيحي، فان نساك الصحراء الغربية (في مصر) كانوا ابعد صيتا. كان القديس انطونيوس اذيع الناس صيتا في ايامه في الطرف الغربي لاويكومين العالم القديم؛

ومثل ذلك يقال عن القديس سمعان العامودي بدوره (سمي كذلك لانه عاش اربعين سنة ٤١٢- ٤٥٩ على رأس عامود).

فالذي يعيش على رأس عامود يثير الجماهير؛ لكن اثر الراهب الجماعي في المجتمع كان اعمق واذكى ثماراً.

٤٦ـ المدنية الهندية ٤٩٠ـ ٦٤٧

كان اهتمام الهنود، في الغالب الاعم من فترات تاريخ شبه القارة الهندية، يتجه نحو الدين اكثر من اتجاهه نحو السياسة والاقتصاد. والمدونات الاصلية لتاريخ شبه القارة الهندية غزيرة المادة بالنسبة للادب الهندي الديني. إلاّ ان هذا الادب هو، على كل حال، صعب تعيين زمنه. وحتى التسلسل الزمني لاصناف الادب المختلفة لا يمكن التأكد منه في جميع الحالات. والضوء الذي يلقيه هذا الادب على الشؤون المدنية لا يعدو كونه مصادفة وفورياً. ومعرفتنا عن التاريخ الهندي المدني تعتمد في الغالب على ما دونه المراقبون الاجانب: الاغارقة والصينيون والمسلمون والاوروبيون. ومدرسة المؤرخين الهنود الذين اخذوا يبحثون في تاريخهم ويدونونه على الاساليب الغربية الحديثة، هي مدرسة حديثة العهد، لا ترقى الى ابعد من القرن الماضي. وحتى بالنسبة الى عصر اسرة غبتا نجد ان الحاج البوذي الصيني ما ـ هسين، الذي زار الهند من ٤٠١ إلى ٤١٠ مصدر مهم للتاريخ الهندي. ومثل ذلك يقال عن حكم الامبراطور هرشا (٦٠٦ـ ٦٤٧)، اذ ان حاجا بوذيا صينيا آخر، هو هزوان ـ تسانغ، كان في الهند بين سنتي ٦٣٥ و ٤٦٣ فزودنا ببعض المعلومات، ولو انه توجد اخبار عن حكم هرشا خلفها مؤلف هندي كان من معاصري هرشا كما كان من رعاياه.

كان العامل المؤثر في تاريخ شبه القارة، بدءا من سنة ٤٥٥ وما تلا ذلك، انسياح الهون وغيرهم من الشعوب الاوراسية البدوية، مثل الغورجارا. جاءَ هجوم الهون الاول في سنة ٤٥٥، وقد صده سكاندا غبتا، امبراطور غبتا، الذي كان قد تولى العرش حديثاً، لكن هجمات الهون تكررت، وانتهى الامر بان تقسمت امبراطورية غبتا تحت ضغط هجماتهم، وذلك بعد وفاة سكاندا غبتا (٤٨٠)

رافق الصراع بين المغيرين والشعوب التي كانت تقيم في شبه القارة تقلبات كثيرة.

فقد رُدَّ الهون (٥٢٨) الى كشمير. ولكن حوالي سنة ٥٥٨ (او ٥٦٣- ٥٦٧) قضي على دولة الهون الافتاليتية (الهطلية) في حوض سيحون - جيحون، وذلك نتيجة عمل مشترك قام به الفرس والاتراك. وقد اقتسم المنتصرون املاك الافتاليت (الهطل) فيما بينهم؛ ولنا ان نخمن ان الهون الذين كانوا قد اقاموا لهم موطىء قدم في الهند قد وصلتهم الآن امدادات من اللاجئين من الافتاليت (الهطل). وعلى كل فان ما جرى بعد ذلك يظهر بما لا يقبل الشك بان المهاجمين لشبه القارة من البدو الاوراسيين في هذا الانسياح السكاني كانوا كثرة. فنحن نعرف انه لما فتح العرب المسلمون السند والملتان سنة ٧١١، كانت منطقة شمال الهند تقع تحت حكم طبقة مدنية تسمى الراجبوت (اولاد الملوك)، ويبدو هؤلاء وكأنهم احفاد المهاجمين الذين اصبحوا هنودا.

صد الهاجمين مرة ثانية والد الامبراطور هرشا، الذي كان ملك ستانسفادا (تانسار) الواقعة في المجرى الاعلى لنهر جمنا. وقد نجح هرشا نفسه في توحيد شمال الهند سياسيا، ٦٠٦- ٦١٢. ونعم هذا الجزء من الهند بفترة من الهدوء فيما تبقى من حياة هرشا. لكن امبراطورية هرشا بالذات لم تكن سوى مظهر كاذب لامبراطورية غبتا. كانت ميزة هرشا الرئيسة تسامحه الديني. فقد كان هو نفسه سايفا، اي من عباد الشمس، كما كان بوذياً.

بعد فترة من الانقسام السياسي في شمال الهند، الذي عقب وفاة الامبراطور اشوكا ماوريا (٢٣٢ ق.م .) وحدت الدكن سياسيا تحت اسرة ستافاهانا (اندرا). وبعد تقسم امبراطورية غبتا حوالي سنة ٤٩٠م، بدا وكأن التاريخ قد يعيد نفسه. فقد وحدت الدكن سياسيا (حوالي سنة ٤٥٣م) على يد اسرة تشالوكيا. وفي سنة ٦٢٠ كسر هرشا على يد بولاكيشين الثاني تشالوكيا، حينما كان هرشا يحاول التوسع في امبراطوريته الى الجنوب عبر نهر نربادا. وعلى كل فقد غلبت اسرة تشالوكيا نفسها على يد منافستها اسرة بلافا الهندية الجنوبية، التي كانت قد اقامت لنفسها ملكا في كانشي (كونشيغورَم) على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة. (لعلّ اسرة بلافيا كانت متحدرة من البهلافا اي السكا - الغريثين الذين كانوا قد تحكموا في حوض السند في السنوات المبكرة من القرن الاول للميلاد). وقد ظلت الدكن، خلال القرنين التاليين لسنة ٦٤٢، موزعة بين دول محلية كانت تقوم بينها حروب مزمنة، لكنها لم تكن فاصلة.

والمنطقة الوحيدة التي تمتعت باستقرار سياسي في جنوب الهند بين حول سنة ٤٩٠ و ٦٤٧ كانت مملكة بندا، التي استمر وجودها بسبب عزلتها النسبية في طرف شبه الجزيرة الجنوبي. والظاهرة الحضارية الوحيدة التي استمرت في الجنوب في الفترة نفسها كانت في تطور الادب المكتوب باللغة التاميلية، وهو الادب الذي بدأ ظهوره في وقت مبكر من التاريخ الميلادي.

إن المحنة السياسية التي اصابت شبه الجزيرة الهندية بعد بدء هجمات الهون (٤٥٥) لم تحل دون انتشار المدنية الهندية خارج الحدود الوطنية لشبه القارة. فاقامة امبراطورية غبتا رافقها تكثيف لنشر الافكار الهندية في جنوب شرق اسية القاري واندونيسيا. وكان ثمة فورة في الهجرة الى تلك المناطق من الهند في القرن الخامس، ولنا ان نحسب ان ضغط الهون على الهند كان احد اسباب هذه الهجرة. وظل نفوذ المدنية الصينية في جنوب شرق اسية القاري محصوراً فيما يطلق عليه الآن شمال فيتنام. وتنافست المدنيتان الهندية والصينية على النفوذ في التيبت في النصف الاول من القرن السابع، وقد تم التفوق للمدنية الهندية.

مع ان التيبت تقع على مقربة من مهد كل من المدنيتين الصينية والهندية، فانها ظلت معزولة عن كليهما، بسبب العوائق الطبيعية لكبيرة، بحيث ان ايا من المدنيتين لم تنفذ اليها حتى السنوات المبكرة من القرن السابع للميلاد. وقد توحدت التيبت سياسياً للمرة الاولى سنة ٦٠٧، ولعلّ ذلك كان تقليدا لعودة الوحدة الى الصين سنة ٥٨٩. وفي سنة ٦٤١ تزوج ملكها سرونغ ـ تان، في وقت واحد، اميرة صينية واميرة نيبالية. وفي ذلك التاريخ بالذات كانت الصين في دور التقدم. في ٦٣٩/ ٦٤٠ كان تاي تسونغ، الامبراطور الثاني من اسرة تانغ، قد بدأ حملته لفتح حوض تاريم، البلاد التي تقع الى الشمال من التيبت مباشرة. وكان رسول صيني في بلاط هرشا في الوقت الذي توفي فيه هرشا، سنة ٦٤٧. واستولى مغتصب على عرش هرشا، واساء معاملة الرسول وحاشيته، وعندها هرب الرسول الصيني الى نيبال، التي كانت يومها تحت سيطرة التيبت. ثم هاجم الملك سترنغ ـ تان غامبو صاحب التيبت الهند، بناء على تحريض الرسول الصيني، وتغلب على المغتصب واسره ثم ارسله اسير حرب الى الصين. وعلى كل حال فقد استحوذت المدنية الهندية على مشاعر التيبت وذلك عن طريق ايجاد كتابة للغة التيبتية مبنية على الاسلوب الهندي. وكانت هذه الكتابة بالذات، لا الكتابة

الصينية، هي التي استخدمت في ترجمة المتون السنسكريتية للكتب البوذية الماهايانية الى اللغة التيبتية. وهذه الترجمات ربطت التيبت ثقافياً الى عجلة المدنية الهندية. ومن ذلك الحين لم يعد التأثير الثقافي الصيني في التيبت ذا تفوق، مع انه لم يكن غائباً عن المسرح التيبتي.

٤٧ـ تمزق الصين السياسي وانتشار البوذية فيها ٢٢٠ــ ٥٨٩

لما جعل الامبراطور هان ور ـ تي (حكم ١٤٠ـ ٨٧ ق.م .) الوظائف العامة في الامبراطورية الصينية حكراً على العلماء الكونفوشيين، على ان يكون اختيارهم على اساس امتحانات مسابقة، كانت غايته (على ما اشير اليه في الفصل ٣٥) ان يفتح ابواب العمل في الوظائف العامة لاصحاب المواهب الفكرية. وترتب على ذلك ان تمكن هؤلاء العلماء ـ المديرون الكونفوشيون ـ من اساءة استعمال سلطتهم بان استولوا على مساحات شاسعة من الاراضي. ففي عصر الدول الصينية المتحاربة كانت هناك طبقة اقطاعية ارستقراطية. هذه الطبقة صفاها مؤسس الامبراطورية الصينية، تشن شيه هوانغ ـ تي، ومؤسسها الثاني، هان ليو بانغ (كاو ـ تسو)، وذلك لانهما ادركا ان السماح لكبار الملاكين بالاستمرار، فانهم يزاحمون الحكومة الصينية الموحدة الحديثة النشأة، في الاستيلاء على الفائض، من غلات الفلاح الصيني. وهذا الفائض هو المصدر الرئيس لضرائب الحكومة في الصين، ما دام اقتصادها يقوم على الزراعة اصلا. واذ اصبح العلماء ـ المديرون في امبراطورية هان ور ـ تي ملاكين كباراً، فانهم اعادوا الى الحياة من جديد طبقة اجتماعية من المواطنين الذين تقووا بحيث انهم يستطيعون تحدي الحاكم، حتى في دولة صينية موحدة.

كان تجميع القوى في ايدي المديرين ـ الملاكين (للاراضي) امراً جديراً بالاهتمام. فقد حوّلوا القسم الاكبر من فائض الفلاحين الى جيوبهم باعتباره ايجاراً للارض، عوضا عن ان يجمعوا للحكومة حصتها الحقيقية، من هذا المصدر، اي ضرائب وسخرة. وانصراف المديرين ـ الملاكين الى الاهتمام بمصالحهم الخاصة على حساب الواجب العام ادى بالاسرة الهانية الغربية الى نهاية مفجعة (٩م). فقد حاول وانغ مانغ الدفاع عن حقوق الحكومة الامبراطورية والفلاحين، وهي مصالح متفقة، ضد

مصالح المديرين - الملاكين، ولكنه فشل. والذي حدث هو ان الأسرة الهانية الشرقية اعادت الى الوجود النظام الذي كان اساس خراب الهان الغربية. وقد اتيح لهذا النظام ان يربح بسبب نقص السكان في الصين اثناء المنازعات الداخلية (١٨- ٣٦م)، الا ان العلة الاجتماعية المستمرة في الامبراطورية انتهت باسرة الهان الشرقية الى نهاية مفجعة بدورها.

وتقسم الامبراطورية (٢٢٠- ٢٢٢) الى دول خلافة للهان الشرقية قوى العلة الاجتماعية في الصين. فمشكلتها الزراعية التي لم تحل تعقدت كثيراً بسبب الحرب الاهلية، وقد وحدت الصين ثانية في ٢٦٥- ٢٨٠. فقد احتلت واحدة من الدول المتحاربة الثلاث الدولتين الاخريين. الا ان الاسرة الامبراطورية الجديدة (تشِن) فشلت في حل مشكلة الاراضي، على نحو ما فشلت سابقتاها. ومن ثم فقد تقسمت اجزاء صغيرة (٢٩٠). وفي ٣٠٤ وما بعدها هاجمت شمال الصين جماعات حربية بربرية جاءت من الاطراف الشرقية للسهوب الاوراسية. ومما يدعو الى الدهشة ان هذه النكبة لم تحل بالصين قبل ذلك.

كانت احوال الصين في القرن الثالث للميلاد شبيهة باحوال العالم اليوناني - الروماني المعاصر له. ففي الصين، كما في حوض ابحر المتوسط، كان هناك فراغ روحي. فقد خسرت الكونفوشية مكانتها بسبب ان الموظفين الكونفوشيين اساءوا استعمال سلطتهم. وادى سعيهم وراء النفع الذاتي الى تقسم الامبراطورية مرتين. وفي اواخر القرن الثاني، فيما كانت حكومة الهان الشرقية تعاني سكرات الموت تخلت الاقلية المفكرة عن الكونفوشية الى منافستها الفلسفة الطاوية فيما كانت الجماهير تتحسس سبل الخلاص في ديانة شعبية هي الطاوية اسما. الا ان ثورات الفلاحين التي اشعلتها وقادتها هذه الطاوية الشعبية، قضى عليها سادة الحرب الذين كانوا يقودون جيوشاً خاصة محترفة، وهم الذين اسسوا الممالك الثلاث. والطاويون الفلاسفة انحطت قيمتهم لا لانهم اساءوا استعمال السلطة، على ما فعل منافسوهم الكونفوشيون، بل لانهم تحاشوا تحمل المسؤولية. فقد فضلوا ان ينعموا بمباهج الحياة الخاصة. وهم، اذ اتخذوا هذا الموقف السلبي، كانوا امينين للتقليد الطاوي. فقد كانت الطاوية، اثناء نشوئها في عصر الدول المتحاربة، تنقفص من النشاط العملي، الاقتصادي والسياسي. وكان مثلها الاعلى البساطة لاجتماعية على ما عرفت في عصر ما قبل المدنية.

وهذه الفلسفة السلبية لم تف بحاجات المفكرين الصينيين لا في القرن الرابع قبل الميلاد، ولا في القرن الثالث الميلادي. فالذي كانت الصين بحاجة ماسة اليه، في القرن الثالث الميلادي، هو حل لمشكلة الاراضي. واذا تعذر ذلك، فمفزع روحي اكثر وفاء لحاجاتهم من الطاوية التي لم تنفع المتطامنين. وقد عولجت مشكلة الاراضي في النهاية، في القرن الخامس على يد احدى الجماعات الحربية البربرية (تو - با) التي هاجمت شمال الصين واقامت هناك دولة باسم اسرة واي. وفي الوقت ذاته كان الفراغ الروحي في الصين تملأه تدريجاً البوذية الماهانية، كما كان هذا الفراغ في العالم اليوناني الروماني تملأه الحركة الروحية المعاصرة - المسيحية.

فمنذ القرن الثاني كانت الماهايانا تتسرب الى شمال غرب الصين من حوض سيحون - جيحون عن طريق وادي تاريم. فالهان الشرقيون كانوا قد عاودوا احتلال حوض تاريم وفرغانه في الحوض الاعلى لنهر جيحون (٧٣م). وقد كانت سلطتهم في هذه الممتلكات في اسية الوسطى موضوع نزاع مع امبراطورية كوشان التي قامت سنة ٤٨م وكانت تقتعد هندكوش. وقد استمرت امبراطوريتا الكوشان والهان الشرقيتان في مقابلة مباشرة، لمدة قرن على الاقل، حتى ضعفت الامبراطوريتان كلتاهما في الجزء الاخير من القرن الثاني. ووقع حكم كانيشكا، امبراطور كوشان (١٢٠ -١٤٤م) خلال هذا القرن ضمن المقابلة المذكورة. وكان كانيشكا يرعى الماهايانا. ولم تكن المقابلة عدائية طول هذه الفترة. فطريق الحرب الصيني - الكوشاني، كان ايضاً طريق الحرير من الصغد الى لويانغ. وفي حقيقة الامر فان الصين وما وراء النهر كانت على اتصال يكاد يكون مستمراً، اعتبار من سنة ١٢٨ ق.م، وهي السنة التي تتبع فيها تشانغ تشين، وهو سفير هان وو - تي، أثر اجداد كوشان في ما وراء النهر.

فُتح الطريق الطبيعي امام دخول الماهايانا الى الصين في القرنين الثاني والثالث للميلاد. وكان المبشرون البوذيون في غاية الحماسة، وكان الصينيون المحتمل قبولهم للعقيدة على استعداد لذلك بسبب جوعهم الروحي. لكن العامل الذي كان عثرة لم يكن طبيعياً، بل كان عقليا. فالعقلان الصيني والهندي، بما في ذلك اللغتان والكتابتان (الصينية والهندية) كانا بعيدين كل البعد واحدهما عن الآخر. وفي كل من هذين العالمين كانت العقلية المدنية المميزة لها مترابطة فيما بينها داخلياً. فقد كانت اللغة الصينية في هذا التاريخ، لغة غير معربة احادية المقطع، وكانت الاشارات، المستعملة

لكتابة هذه اللغة اكثر من مجرد كتابة، لقد كانت تعبيرا صادقا عن موقف الصيني من الحياة. وكل ما كان يعبر عنه بواسطة هذه الاشارات، كان يبدو جافا وواقعيا. والفكر الهندي مجرد واطنابي، واللغة السنسكريتية الحديثة، التي كانت الوعاء الاصلي للكتب الدينية للبوذية الماهايانية، كانت متعددة المقاطع كما كانت مغربة في الاعراب.

يقال ان المترجمين الاولين لهذه الكتب الدينية كانوا قد بذلوا جهداً كبيراً في نقل المتون السنسكريتية الى التعابير الصينية بحيث ان النتاج لم يمكن التعرف اليه كونه بوذي اصلا، وفي الوقت نفسه لم يتمكن القارىء الصيني من حل رموزه. وقد كان احد العاملين في حقل الترجمة (في الجزء الاخير من القرن الثاني) اميرا فرثيا، ولكنه معروف لدينا باسمه الصيني وهو ان شبه ـ كاو. وكان من اقدر المترجمين كوما راجيفا (٣٣٤- ٤١٣). كان ابوه هنديا وكانت امه مواطنة من كوتشا في حوض تاريم، حيث كانت اللغة المحلية هندية اوروبية، مثل السنسكريتية. كان كوماراجيفا قد درس الفلسفتين البوذيتين الرئيستين في كشمير وكشغر وكوتشا قبل ان يقع اسيراً في ايدي فريق صيني(حول ٣٨٢). وقد انتقل من كانصو الى تشانغ ـ ان (٤٠١) حيث عمل هناك ثماني سنوات في نقل النصوص الدينية بمساعدة جماعة من الاختصاصيين.

كان بعض المترجمين صينيين. ففي القرون الخامس والسادس والسابع زار عدد من الحجاج البوذيين الصينيين الهند، اما بحرا 'وبرا، حيث تعلموا السنسكريتية وحملوا معهم مخطوطات للكتب الماهايانية، التي ترجموها بعد عودتهم الى بلادهم. وقد شهر حاجان ـ مترجمان صينيان هما فا ـ هسين (كان خارج بلاده ٣٩٩- ٤١٤)، وهزوان ـ تسانغ (كان خارج بلاده ٦٢٩- ٦٤٥). [راجع ما ذكر عنهما في الفصل السابق].

وعلى يد المترجمين هؤلاء اصبح للبوذيين الصينيين، تدريجيا، نصوص صينية للكتب الماهايانية كان لها نكهة الاصول السنسكريتية. الا ان الصيغ الماهايانية التي تقبلها الجمهور الصيني كانت خلقا جديداً له نوع من التميز الصيني. وكان بينها مدرسة اليد الطاهرة، التي كانت ترى الخلاص في الاميتابا. وهناك مدرسة تشان (ديانا بالسنسكريتية وزن باليابانية) التي كانت تعتمد التأمل سبيلاً للتنور. وقد انشأ هاتين المدرستين صينيون كانوا معاصرين لكومار اجيفا (٣٤٤- ٤١٣). واولئك الذين

صبغوا الماهايانية صبغة صينية وكان اثرهم اكبر من اثر المترجمين الذين عملوا باخلاص.

والطقوس البوذية كانت طارئة على الصينيين كما كان الفكر البوذي. فلا الاديرة، ولا النساك طبعاً، كانت معروفة في الصين قبل وصول البوذية اليها. وكانت الفلسفة الطاوية اقرب النتاج الصيني الوطني الى البوذية تعبيرا. فالطاويون كانوا يحقرون قيام المدنية، وكانوا يترفعون عن الوظائف العامة، الا أن مثلهم الاعلى لم يكن مرتبطا بالعالم الآخر. وكل ما دعوا اليه هو العوده من المجتمع التكنولوجي المعقد الى الحياة البسيطة نسبيا، المتمثلة في قرية العصر الحجري الحديث الكافية لذاتها. ومع ذلك فان المترجمين الأُول للكتب البوذية استعانوا بالحدود الطاوية اذ لم يكن سواها يمكن ان يعبر تقريبياً عن الافكار البوذية باللغة الصينية. واخذ الطاويون (فلاسفة وجمهورا) ينقلون آراء ومؤسسات عن البوذية وذلك ليتمكنوا من الحفاظ على ما عندهم امام البوذية التي غزت بلادهم واقامت لنفسها مكاناً في الصين. وقد كانت العلاقة بين الديانتين ـ او الفلسفتين ـ متبادلة. فاتباع كل منهما كانوا ينافسون الفريق منهم الآخر لانهم كانوا يدركون كنه القرابة بينهما.

من البين ان البوذية ما كانت لتجد مثل هذا القبول في الصين، لولا ان البلاد، في ذلك الوقت، كانت قد بلغت الذروة في فترة طويلة عجزت فيها عن حل مشكلة الاراضي، التي كانت عصيبة بالنسبة إلى المجتمع الصيني وحكومته. وقد دفعت البلاد ثمن ذلك في تمزيق سياسي وهجمات بربرية. وخلال القرون الثلاثة (بدءاً من ١٨٥م) كان الصينيون على اختلاف طبقاتهم في حالة ترقب. كانوا فيها اكثر استعداداً من عادتهم، لقبول ديانة اجنبية املاً في تحقيق خلاصهم. الا ان الطاويين والكونفوشيين الشعبيين (في شمال الصين) كانوا يتكاتفون في الحد من البوذية عندما كانت تبدو في الافق تباشير تحسن في الوضعين الاجتماعي والسياسي. وبتأثيرهم وضعت المؤسسات البوذية تحت اشراف الحكومة، غير منظمة من رجال الدين، وانشئت على غرار الخدمة المدنية الكونفوشية، وقد قامت محاولات للحد من نشاط البوذية في السنوات ٤٣٨ و ٤٤٦- ٤٥٢ و ٥٧٤- ٥٧٨.

وفي القرن الرابع بلغت التمزقات السياسية والحروب الداخلية والتدهور الاقتصادي والفوضى الاجتماعية في شمال الصين مدى ابعد بكثير مما وصلت اليه الحال في

الولايات الغربية من الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس. ومع ذلك فان الدول الخليفة التي اقامها البرابرة في تشين الغربية، مثل تلك التي قامت في الامبراطورية الرومانية الغربية، ازدهرت احوالها بقدر ما استطاعت ان تتمثل من مدنية رعاياها المقهورين. وفي شمال الصين ظل الفلاحون الصينيون واصحاب الاراضي الصينيون يتمسكون تمسكا قويا بالارض الزراعية، واحتفظوا باستغلالها، مع تغلب البدو الرعاة عليهم، وتغلبت التقاليد الكونفوشية على ضغط البوذية، بالرغم من ان هذه التقاليد قد اسيء اليها بسبب سوء التصرف الذي بدا من المديرين ـ الملاكين المخلوعين عن السلطة.

اعاد التو ـ با، توحيد الصين، وهم، فيما يظن، شعب مغولي اقام دولة ـ خلافة محلية (٣٣٨) لاسرة تشن الغربية، الى الشمال الغربي من المنعطف الكبير للنهر الاصغر.

اتخذت الاسرة الملكية للتو ـ با لقبا هو اسرة الواي الشمالية (٣٨٦). وقد تمكنت الواي من القضاء على جميع الدول البربرية الاخرى في شمال الصين (٤٣٩). وفي غضون النصف الاول من القرن الخامس هاجمت اسرة واي حوض تاريم خمس مرات. وقد نقل الامبراطور هسياو ون ـ تي، من الواي الشمالية (حكم ٤٧١- ٤٩٩) عاصمته من ولاية شانسي في الشمال الى لويانغ (٤٩٣). ثم عكف، في الوقت ذاته، على « تصيين » زعماء قبائله وطبق حالة زعماء القبيلة لكبار الملاكين الصينيين في املاك اسرة واي. وتصيين، التو ـ با الاجباري على يد الاسرة المالكة، الذي تبعه فشل المحاولات المتتالية التي قامت بها الاسرة لاحتلال جنوب الصين، ادى الى القضاء على الاسرة، وتمزق املاكها. وقد توحدت شمال الصين مرة اخرى (٥٧٧)، ثم استولى عليها (٥٨١) سوي، مؤسس اسرة سوي ون ـ تي (حكم ٥٨١- ٦٠٤) الذي نجح بعد ثماني سنوات في توحيد الصين باكملها لما احتل جنوب البلاد.

مع ان اسرة واي فشلت في توحيد الصين، فقد قامت بحل لمشكلة الاراضي، وهو الذي تركته ارثا لاسرتي سوي وتانغ. ذلك بان الامبراطور الكبير هسياو ون ـ تي ضمن (٤٨٥) حدا ادنى من الارض لكل فلاح صيني قادر كما انه انشأ تجمعات للفلاحين اصبحت مسؤولة بالاشتراك عن دفع الضرائب. ولم يجرؤ هسياو ون ـ تي على فرض حد اعلى قانوني لما يمكن ان يمتلكه كل من كبار الملاكين. لكنه نجح، على الاقل،

في منع هؤلاء الملاكين من توسيع املاكهم على حساب الفلاحين أو على حساب واردات الحكومة الامبراطورية. وقد قوى خلفاء اسرة واي الشمالية الفلاحين والحكومة معا وذلك بانشاء ميليشيات مدربة من الفلاحين. وقد كان تأهيل الفلاحين في شمال الصين هذا هو المدخل الى التوحيد السياسي للصين والى انعاش المدنية الصينية.

كانت الصين التي وحدت سنة ٥٨٩ تختلف اختلافاً كبيراً، ان من حيث توزيع السكان الجغرافي او من حيث مواردها، عن الصين الموحدة التي هاجمها البرابرة الشماليون في ٣٠٤ وما تلاها. فالنواة الاصلية للمدنية الصينية كانت حوض النهر الاصفر الادنى ورافده (من اليمين) نهر واي. في عصر اسرة شان واسرة تشو الغربية كانت الصين تشمل الاطراف الشمالية فقط من حوض نهر هواي، ولم تشمل اي جزء من حوض نهر يانكتسي الكبير. ففي العصر الذي تلا، فان الشعوب القاطنة في حوض نهر هواي، وحوض نهر يانكتسي الادنى والمرتفعات الواقعة الى جنوب شرقي حوض يانكتسي الادنى كانت تتصين، الواحد بعد الآخر، وفي الوقت ذاته كان كل منها يقوم بدور مهم في السياسة الدولية الصينية. والموحد السياسي الاول للصين، وهو تشن شيه هوانغ ـ تي، كان قد استولى على جنوب الصين الحالية باجمعه، كما استولى على الجزء الشمالي من فيتنام. وضم هذا الجزء من فيتنام الى الصين كان قد تأكد امره سنة ١١١ ق.م. على يد هان وو ـ تي. ولم يظل مستقلاً سياسيا سوى جيب ساحلي من بووه. وعلى كل، فان الأملاك السابقة لدولتي تشو ووو ظلت متأخرة ثقافياً، كما ظلت الاراضي الشاسعة الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربي من اراضي هاتين الدولتين قليلة السكان، ولم تتقدم زراعياً.

ان الهجمات البربرية التي بدأت سنة ٣٠٤ على شمال الصين، دفعت بالسكان الى هجرات على مقياس لم يعرف قبلا، بقصد استعمار الجنوب والافادة منه اقتصاديا. ومع ان الفلاحين وكبار الملاكين الصينيين في الشمال استطاعوا الصمود وتمكنوا من « تصيين » البرابرة الظافرين وان يعيدوا الى الصين كلها وحدتها، فقد كانت ثمة هجرات مكثفة من الشمال الى الجنوب خلال الفترة من ٣٠٤ الى ٥٨٩. فقد تمكن فرع من اسرة تشن (تشن الشرقية) من اعادة امبراطورية تشن في الجنوب، متسترين خلف المستنقعات والطرق المائية في الحوضين الادنيين لنهري هواي ويانكتسي. وقد اسقط في ايدي البرابرة في محاولة مهاجمتها اكثر مما اسقط في ايدي البرابرة في

المغرب امام المستنقعات المصفرة حول رافنا او الاخوار المائية حول البندقية، وذلك في الطرف المقابل من اويكومين العالم القديم.

حوضا نهري هواي ويانكتسي الادنيان صالحان لانتاج الارز بكثرة، عندما يتم تعهد الارض تصفية وريا. والبلاد الواقعة على جانبي خط تقسيم المياه بين حوض يانكتسي وبين السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية للصين الحالية، تتكون من مرتفعات، بعضها جبلي. لكن الجنوب باكمله تسقط فيه امطار غزيرة. ومن ثم فان سكانه لم يكونوا يعيشون في خوف من القحط الذي قد يسببه الجفاف، وهذا على عكس ما كان يصيب سكان شمال الصين، حتى في الاراضي الخصبة. يضاف الى ذلك ان سكان الجنوب الوطنيين كانوا، في غالبيتهم، ممن يسهل اخضاعهم وتمثلهم، على عكس جيران اهل شمال الصين من البدو الرعاة. وقد كان في الولايات الشمالية الغربية من الامبراطورية الرومانية ما يشابه، اقتصاديا، الولايات الجنوبية في الامبراطورية الصينية. فقد كان شمال غرب اوروبة يمكنه ان يزود منطقة المشرق باحتياطي كبير من الاراضي الخصبة الغنية بالماء. إلا ان هذه المنطقة كان الرومان قد تعذر عليهم احتلالها، وفي النهاية كان اصعب عليهم الدفاع عنها امام غزوات المهاجمين من البرابرة. وقد حاول جستيان الاول، امبراطور الامبراطورية الرومانية الشرقية ان يعيد الى الامبراطورية الرومانية وحدتها (٥٣٣- ٥٦١) من نقطة انطلاق عسكرية في المشرق. إلا ان نجاحه كان جزئيا وموقتا، وقد كان ثمن ذلك خراب المشرق، وخراب ايطالية الى درجة ابعد.

وقد تعاقبت على السلطة في جنوب الصين (٣١٧- ٥٨٩) خمس اسر امبراطورية. وقد دفعت عن البلاد خطر البرابرة الشماليين، وسيطرت على الجنوب باكمله حتى بعض اجزاء شمال فيتنام. وتم توحيد الامبراطورية الصينية (٥٨٩) بثمن ضئيل. وفي هذه الصين الموحدة كان ثمة انتقال للمراكز الرئيسة، سكانيا، وزراعيا، الى الجنوب. وانتشرت احواض الارز حيث كانت الذرة تزرع، كما ان حقول القمح الشمالية اصبحت المصدر الرئيس للمواد الغذائية للعاصمة الامبراطورية للصين الموحدة، بل وفي حقيقة الامر لجميع سكان الصين.

إن فترة الاضطراب والتمزق الطويلة التي مرت بها الصين لم تقلل من قيمة المدنية الصينية، كما انها لم تمنع انتشارها ما وراء حدود الصين بالذات. إن هجوم البرابرة على شمال الصين (بدءا من ٣٠٤م) اتاح للكوريين القضاء على مواطىء الاستعمار

(٣١٣م) التي اقامها الامبراطور هان وو ـ تي بعد الفتوح التي قام بها هناك (١٠٩ـ ١٠٨ ق.م). وفي الزاوية الشمالية الغربية من كوريا ظلت هذه المراكز الصينية قائمة خلال القرون الاربعة الفائتة. وقد تفسحت كوريا الان ثلاث دول وطنية، عدا عن الجسر القائم على الساحل الجنوبي الذي كان تحت سيطرة اليابان. وعلى كل فان دولة من الدول الكورية الوطنية الثلاث، وهي القائمة في اقصى الشمال (واسمها كوغوريو) اعتنقت البوذية في صيغتها الصينية (٣٧٢)، كما انها « صينت » نظامها الاداري حول التاريخ نفسه.

كانت الامبراطورية اليابانية، ومركزها في ياماتو (في الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة الرئيسة هونشو)، قائمة، وكانت قد اخذت بالتوسع في القرن الثالث الميلادي. لعلّ آثار المدنية الصينية كانت قد اخذت بالتسرب الى اليابان منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وازداد هذا التسرب شدة في القرنين الخامس والسادس للميلاد، وذلك بسبب هجرة مكثفة الى اليابان قام بها كوريون ادعوا انهم متحدرون من اصل صيني. وسواء اصبحت دعوة هؤلاء في انهم كانوا متحدرين من صينيي عصر هان ام لا، فالمهم انهم حملوا المدنية الصينية معهم. وكان اليابانيون قد تعرفوا الى لكتابة الصينية منذ القرن الخامس للميلاد، وفي ذلك القرن كانت المدنية الصينية التي دخلت اليابان بطريق كوريا تضم البوذية، وقد قبل اليابانيون الصيغة الصينية من الماهاياتة في شكلها الكوري خلال القرن المنتهي في سنة ٥٨٧م، ولم يقبل اليابان على اقتباس الانظمة السياسية الصينية إلا بعد ٥٨٩ أي بعد اعادة الوحدة السياسية الى الصين، ولما تمت، عودة النظام الاداري الذي كان هان وو ـ تي قد اخذ بتنفيذه في الصين.

٤٨ـ المدنيتان الميزو ـ امريكية والاندية حول ٣٠٠ـ ٩٠٠

ان المسيرة الزمنية للمدنية الميزو اميركية لهذه الفترة قد قبلها علماء الأثار، فاصبحت امرا معترفا به. وثمة اجماع حول المسيرة التاريخية النسبية للمراحل المختلفة للمدنية الاندية (مع وجود خلاف حول الفترة الممتدة من حول سنة ٤٠٠ ق.م. الى حول سنة ١٤٣٨م). وفي هذا الفصل (كما كان الحال في الفصل التاسع والثلاثين) نقبل التأريخ الذي كشفه الاشعاع الكربوني على انه صحيح على وجه التقريب: اي ان المرحلة المشعة من التاريخ الهندي كانت حول سنة ٣٠٠م على وشك النهاية. وأن الجزء الاكبر من افق تياهواناكو يقع بين سنتي ٥٠٠ و ٩٠٠ للميلاد.

ان عالم ميزو اميركة بلغ عهده الكلاسيكي بين سنتي ٣٠٠ و ٦٠٠م.. ففي فترة القرون الثلاثة كانت مدينة تيوتهواكان لا تزال مزدهرة، وكانت الصيغة المايانية لمدنية ميزو اميركة قد ثبتت نفسها لا في منطقة مايا الوسطى فحسب، بل في يوكاتان كذلك. وقد كانت تيوتهواكان تسيطر ثقافيا (خلال هذه القرون) على مناطق مايا الثلاث ـ يوكاتان والمنطقة الوسطى وامرتفعات ـ بحيث انه يظهر ان هذه المدينة كانت تسيطر سياسيا على منطقة مايا باسرها. فقد انشيء في اوكسكنتوك (في غرب يوكاتان) مركز لطقوس مايا الكلاسيكية (قبل سنة ٦٠٠) والاسلوب الذي يرى على الأثار هناك هو من نوع تيوتهواكان لا من نوع مايا. ومن الناحية الثانية فانه المركز الطقسي في كوبا (في شرق يوكاتان) والذي انشيء ايضاً قبل سنة ٦٠٠ كان متأثرا مباشرة بالأثار الكلاسيكية لمنطقة مايا الوسطى.

دمرت تيوتهواكان فجأة حول سنة ٦٠٠. وقد تم هذا الدمار بعنف. ويبدو ان المخربين هؤلاء كانوا من البرابرة الذين انقضوا عليها من صحراء المكسيك. ونجد في شولولا، وهي قريبة من تيوتهواكان، نموذجا مستقلا خاصا بالطبقات الاثرية هناك (بعد

سنة ٦٠٠). اما في ما تبقى من عالم ميزواميركة فان اثر تيوتهواكان يقف حول سنة ٦٠٠ وقد قضي على شولولا حول سنة ٨٠٠، على ايدي برابرة جاءوا من الشمال.

في القرن التاسع نجد ان المواقع الكلاسيكية في مايا الوسطى تهمل واحدها بعد الآخر (مع ان المايا لم يكن لهم علاقة بالدمار الذي حل بالشمال). اننا لا نعرف سببا للتخلي عن هذه المراكز الطقسية التي تعود الى الفترة الكلاسيكية في منطقة مايا الوسطى. ومن ابرز الآثار الفنية هي الجدرانيات التي رسمت في مكان الى الغرب من نهر اوساماسنتا في القرن التاسع، اي قبيل بدء التخلي عن منطقة مايا الوسطى.

والرسوم الجدرانية التي اشرنا اليها فيها من الوحشية ما يذكرنا بما كان يفعله الاشوريون في اسرى الحرب. وقد اقترح تفسيران للخراب الذي اصاب منطقة مايا الوسطى. اولهما ان الجماعات هناك قضت على نفسها نتيجة حروب داخلية انتحارية. الا ان المواقع الكلاسيكية المهجورة لا تزودنا بما يدل على تدمير مقصود، كالذي نجده في الاماكن الاخرى المذكورة. والتفسير الثاني هو ان الفلاحين فقدوا ثقتهم في مقدرة المؤسسة على تسيير الكون ـ وبشكل خاص عجز المؤسسة عن اقناع اله المطر في ان يرسل من الغيث ما يمكنهم من انتاج غلات صالحة. ومعنى هذا ان الفلاحين الذين خابت آمالهم قطعوا عن المؤسسة موارد المواد الغذائية. ولعلهم رفضوا القيام باعمال السخرة القاسية التي كانت ضرورية لصيانة الابنية او اقامة الجديد منها. مع ذلك فاذا صح ان هذا هو السبب في التخلي عن المواقع الكلاسيكية في منطقة مايا الوسطى، فانه لا يفسر استمرار صيغة على اسلوب مايا من مدنية ميزواميركة استمرت حية في منطقة يوكاتان الصخرية الجافة ـ ولو ان هذه المدنية كانت على شكل متدن بالنسبة لما سبق.

وقد استمر العصر المزدهر (المتسع) في المدنية الاندية بعد سنة ٥٠٠، اذ انه امتد من حول سنة ٤٠٠ـ ١٠٠٠. وكان اذن معاصرا للعصر الكلاسيكي، لمدنية ميزو اميركة.

وقد عرضنا المرحلة المزدهرة من المدنية الاندية في الفصل التاسع والثلاثين. وها نحن نعرض الآن موجزا لمدنية تياهواناكو ـ هواري.

يشبه افق تياهواناكو ـ هواري افق تشافين القديم في ان كليهما قام اصلا في منطقة مرتفعة. وقد اتسع الافق فيما بعد من منطقة في المرتفعات الى اجزاء اخرى من

المرتفعات وكذلك الى اجزاء من السهل الساحلي. ويتفق هذان الافقان الانديان في ان كلا منهما يتمثل في الفنون المنظورة بما يدل على انه شعار لديانة تبشيرية. ومع ذلك فعندنا ما يؤكد ان حضارة تياهواناكو قد فرضت على بيرو الساحلية بالقوة، الامر الذي لا نجده في حضارة تشافن.

تقع تياهواناكو على نحو واحد وعشرين كيلومترا الى الجنوب الشرقي من الطرف الجنوبي الشرقي لبحيرة تيتيكاكا. ويبدو انها كانت مركزا طقسيا لكنها لم تتخذ صفة المدينة. البناء الكثيف الضخم القائم فيها اعظم من هواري المعاصرة لها ومن تشافن القديمة. ويبدو ان اسلوب تياهواناكو وجد في المكان نفسه في عصر الازدهار، مع انه لم ينتشر في اجزاء اخرى من البيرو الا بعد انقضاء عصر « الازدهار ». فاذا كانت حضارة تياهواناكو وصلت الى الساحل عن طريق الفتح، فقد يكون هذا واحدا من الاحداث التي قضت على عصر الازدهار.

٤٩ــ محمد النبي والسياسي من حول سنة ٥٧٠ إلى ٦٣٢

كان لعبقرية النبي محمد اثر كبير في نقل رسالة ربه الى قومه؛ وقد كان تاريخ الجزيرة مرتبطا بذلك. ذلك بانه منذ ان دجن الجمل، قبل ايام محمد بنحو الفي سنة، اصبحت الجزيرة العربية مما يمكن اجتيازه من مكان الى آخر. واخذت الاراء والتنظيمات تتغلغل الى شبه الجزيرة من الهلال الخصيب الذي يصاقبها الى الشمال. وهذا التغلغل كان اثره تراكميا. وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانفجار. وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب. اذ تلقى هذه الشحنة فاحسن استعمالها، وذلك برؤيته النيرة وتصميمه وحكمته.

وشبه الجزيرة العربية هو شبه قارة. فمن حيث المساحة هي في حجم شبه جزيرة الهند واوروبة، ولكن على العكس منهما، فهي جافة، باستثناء المرتفعات القائمة في زاويتها الجنوبية الغربية (في اليمن وعسير) التي تقنص الامطار الموسمية، والتي هي نموذج مصغر لمرتفعات اثيوبية - اريتريا على الساحل الغربي للبحر الاحمر. وتقوم مكة، موطن النبي، على جزء اقل ارتفاعا نسبيا، على المرتفعات التي تطل على الساحل العربي للبحر الاحمر، الا انها بعيدة عن متناول الامطار الموسمية. وليست مكة معدومة المطر، ذلك بان استمرار السكن فيها يعود الى وجود بئر دائمة فيها. الا ان ثروتها المائية لم تمكن لسكان مستقرين ان يحصلوا على قوتهم من الزراعة او حتى من رعي الحيوان، وهو المصدر الوحيد للعيش الذي ظل حتى قبل فترة قصيرة يعتمد عليه القسم الاكبر من سكان الجزء المعمور منها، البالغ ثلاثة ارباعها. وجماعة مستقرة تقيم حول بئر مكة، يجب ان تعيش على التجارة. وكان من الضروري ان يقوم فيها نوع من التقديس الديني يحميها من البدو الذين قد تغريهم الظروف بان يتقاضوا مغارم كثيرة من قوافل التجار.

كان من اثر تدجين الجمل ان ارتبطت اليمن بفلسطين وسورية بطريق بري. وهذا الطريق يجوز بمكة؛ ولما اقيمت الكعبة على مقربة من البئر، وتقبل الناس مكانتها، اصبح المكيون يقيمون السوق السنوية التي كان يؤمها التجار، وهم حجاج في الوقت ذاته، في فصل من السنة يتفق فيه على ان تخفر الذمم لانه فصل الاشهر الحرم.

مع ان سكان الجزيرة العربية كانوا، ولا يزالون، منتشرين في الرقعة الواسعة، فانهم في مجموعهم كانوا دوما كثيرين، وذلك بسبب الاتساع اولا، وثانيا لأن الهضبة التي تنحدر تدريجاً من المرتفعات الغربية نحو الخليج العربي ووادي الفرات صحية. وقد قست الطبيعة في الجزيرة العرية على الانسان الى ان استخرج النفط. فحتى ذلك الوقت كان سكان الجزيرة العربية، باستثناء اليمن، في جوع دائم، وكان تغلغل المدنية التدريجي، الذي كان يتم على الجمل، في الجزيرة العربية يرافقه تفجر سكاني الى خارج الجزيرة.

ان جميع اللغات السامية ظهرت اصلا في الجزيرة العربية، وقد تم انتشارها خارج الجزيرة على ايدي انسياح المهاجرين من شبه الجزيرة. فقد ادخلت جماعات من اليمن لغة يمنية سامية الى المرتفعات الاثيوبية - الارترية في زمن مجهول. كما ادخلت اللغة الاكدية الى حوض دجلة والفرات، واللغة الكنعانية الى فلسطين وسورية وبعد ذلك، على التوالي، اللغتان العمورية والارامية الى جناحي الهلال الخصيب. وذلك قبل ان يبدأ المهاجرون العرب السير في خطى الشعوب السامية التي سبقتهم، والتفجر السكاني العربي الذي لدينا عنه اخبار مدونة حدث في القرن الثامن قبل الميلاد، وقد صده الاشوريون. وقد فشلت المملكة السلوقية في صد تفجر سكان عربي ثان في القرن الثاني قبل الميلاد، وعندها تمكن العرب من اقامة مستوطنات دائمة لهم في كل من سورية وبلاد الرافدين. والتفجر السكاني الكبير الذي جاء في اعقاب وفاة الرسول (٦٣٢م)، والتفجر الذي جاء فيما بعد في القرن الحادي عشر، اديا الى تغلب العنصر العربي في الهلال الخصيب وشمال افريقية. واليوم نجد ان اللغة السريانية (المتحدرة من اللغة الارامية) التي كانت سلف اللغة العربية في الهلال الخصيب، تكاد تكون معدومة، واللغة القبطية، المتحدرة من اللغة الفرعونية القديمة، لا وجود لها، الا في الاستعمال الكنسي؛ وفي شمال افريقية نجد ان اللغة البربرية التي كانت لغة

السكان الاصليين، يكاد وجودها يكون منحصرا في صعاب المرتفعات وفي الصحراء، وذلك بسبب التقدم الذي احرزته اللغة العربية هناك.

ولما جاء الرسول كانت مؤسسات واراء قد وصلت الجزيرة في الحركات الداخلة اليها، وكانت قد بلغت درجة قوية، فثلاثية الهات التي كانت تعبد في القرنين الثاني والثالث للميلاد في الحضر، في شمال شرق بين النهرين، وفي واحة تدمر، الواقعة على الطرف الشمالي الاقصى للصحراء العربية، كانت قد وصلت الى الحجاز (مرتفعات الجزيرة العربية في شمالها الغربي). واليهودية، التي ادخلت الى البلاد اولا على ايدي اللاجئين بسبب الحروب الرومانية اليهودية (٦٦- ٧٠م و ١٣٢- ١٣٥م) اعتنقها بعض سكان الواحات الحجازية في تيماء وخيبر ويثرب (المدينة المنورة)، كما قبلتها قبائل يمنية. وقد اعتنق المسيحية ايضا جماعات يمنية. وقد جرت اليمن في القرن السادس الميلادي الى مجال التنافس التجاري والسياسي بين الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) والامبراطورية الفارسية (الساسانية). وقبيل سنة ٥٢٣ وبعد ذلك بين حول سنتي ٥٢٨ و ٥٧١ كانت اليمن تابعة لمملكة اكسوم، التي كانت مسيحية، وكانت، من ثم، تدور في فلك الامبراطورية الرومانية الشرقية. وبين سنة ٥٧١ وسنة ٦٣٠ خضعت للحكم الفارسي. وفي سنة تقع في الربع الثالث من القرن السادس حاول حاكم اليمن الاكسومي القيام بحملة عسكرية ضد مكة.

شهدت المنطقة، في حياة محمد (حوالي ٥٧٠- ٦٣٢) آخر حربين واعنف حربين دارت رحاهما بين الرومان (البيزنطيين) والفرس (الساسانيين) وذلك في السنوات ٥٧٢- ٥٩١ و ٦٠٤- ٦٢٨. وكانت كل من الامبراطوريتين قد اتخذت لها من العرب المقيمين على تخومها حماة لها في مقابلة الامبراطورية المنافسة لها. وكانت عاصمة العرب الذين كانوا الى جانب الفرس مدينة الحيرة، التي كانت تقع على مقربة من الموضع الذي مصرت فيه الكوفة فيما بعد. وكانت الاسرة العربية الغسانية تحرس تخوم الامبراطورية الرومانية الشرقية في سورية. وقد قام العرب بالنسبة الى كلتا الامبراطوريتين اثناء الحرب التي دارت بينهما باعتبارهم مقاتلة وعمالا. وترتب على ذلك ان هؤلاء العرب تمرسوا بالحرب واساليب القتال. وقد كانوا ينفقون بعض ما ينالونه من اجر في شراء المعدات ـ ومثال ذلك في شراء الدروع وفي تربية الخيول المقاتلة. والجواد العربي الجيد كان امرا فذا: ففي الجزيرة العربية بالذات كان، ولا يزال، طفيليا

على الجمل؛ وخارج الجزيرة وبعد وفاة النبي، حمل الجواد العربي الفاتحين العرب إلى نهر اللوار (في فرنسة) ونهر الفولغا (في روسيا) ونهر سيحون (في اواسط آسية).

وهكذا، ففي ايام النبي، كانت مدنيات المشرق وايران تحيط بمكة من كل صوب، وقد خرج محمد نفسه الى مقابلة المدنية البيزنطية. وعندما لم يكن العرب يقومون بالحروب إلى جانب البيزنطيين او الساسانيين، كانوا يقومون باعمال تجارية معهم. وقد خرج محمد نفسه في قوافل تجارية من مكة، لحساب السيدة خديجة، التي اصبحت زوجه فيما بعد. والمرجح ان المرات التي خرج فيها النبي كانت في سنوات السلم (بين الامبراطوريتين) بين سنتي ٥٩١ـ ٦٠٤. وبعد ان بدأ خسرو الثاني الساساني هجومه واحتلاله ما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر، اصبحت التجارة الملكية مع الامبراطورية البيزنطية مضعضعة. ولما تلقى محمد الوحي لاول مرة (حول سنة ٦١٠) كان قد تزوج خديجة، واتخذ في مكة دار له.

كان جبريل ينقل الوحي الى محمد، وأصل الرسالة هو التوحيد اي لا اله الا الله. وفكرة الوحدانية كانت قائمة في اجواء الجزيرة العربية يومها، كما انها كانت قد انتشرت عملياً في انحاء الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الرابع، وهو القرن الذين اعتنق في مطلعه الامبراطور قسطنطين الاول المسيحية (٣١٢). وبموجب الرسالة التي حملها محمد الى اتباعه فان اول ما يطلبه الذين يعتنقون الرسالة هو اسلام النفس لله (وهذا معنى كلمة الاسلام في العربية). وهناك الواجب المترتب على الاغنياء والاقوياء نحو الفقراء والضعفاء ـ مثلا نحو الارامل واليتامى.

ولم تقبل مكة رسالة محمد. فقد كانت مكة دولة ـ واحة يتحكم في شؤونها اوليغارقية تقوم على رأسها قريش، التي كانت تعتمد على التجارة في ثرائها، على نحو ما كانت أوليغارقية تدمر في القرنين الخامس والسادس للميلاد. وقد كان القريشيون مهرة وقساة في تنظيم الأعمال الاقتصادية الخاصة. وكانوا يعرفون ان نجاح تجارتهم مرتبط ارتباطا وثيقا بمكانة الكعبة الدينية. وكانوا يخشون ان يؤدي انتشار التوحيد الى زوال قيمة الكعبة (وكانت مجمعا لآلهة كثر). ومن ثم ان التجارة المكية ينالها الضعف بسبب اهمال المكان المقدس المرتبط بها. ولعلّ بعض زعماء قريش كانوا يضيقون ذرعا بمحمد نفسه وبعزمه وايمانه. ذلك بان النبي لم تكن اسرته، مع انها قريشية، في نظر هؤلاء من النخبة بينهم.

ظل محمد ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يدعو الناس الى دين الله، فيما كان يتعرض للأذى. وقد قبل دعوته نفر ضئيل، واصبح هؤلاء عرضة للضرّ حتى ان محمدا رغب اليهم في الهجرة الى مملكة اكسوم المسيحية (الحبشة). وفي سنة ٦٢٢ تبدل الوضع تماما لمصلحة محمد ورسالته. فقد جاءه رسل من الدولة ـ الواحة الزراعية يثرب (المدينة) يطلبون اليه ان ينتقل اليهم ويتولى امورهم. كانت يثرب قد مزقتها الخلافات السياسية التي فشل اهلها في وضع حد لها. وفي سنة ٦٢٢ خرج محمد من مكة مهاجرا وبصحبته ابو بكر فقط. وقد نجا الرجلان من الذين لحقوا بهما من مكة. وقام محمد في يثرب بدوره السياسي في غاية البراعة. ويبدو ان اهل يثرب كانوا قد ادركوا حنكته تماما. ومع ان خبرته الادارية لم تكن تتجاوز النظر في امور مذهب ديني اتباعه قلة، فقد اثبت انه حري بالاضطلاع بالمسؤولية الجديدة. وفي هذا المجال الاداري الواسع الذي انفتح امامه بوصفه مدعوا لحكم يثرب، وفق محمد فيما بين التحزبات اليثربية، كما آخى بين اهل يثرب ومسلمي مكة الذين انضموا اليه في يثرب. ويبدو ان سكان يثرب، من غير اليهود، اقبلوا على اعتناق الاسلام، واصبحت هذه العقيدة المشتركة (بين مهاجري مكة وانصار المدينة) عروة وثقى تربط بينهم.

الدول ذات السيادة تشن الحروب، ولم يتوان محمد، وقد اصبح الآن حاكما، عن شن حرب ضد اهله المكيين. وكان ثمة احتمال ني ان ينجح؛ وقد نجح فعلا. وهذا النجاح هو الذي ادخل الدين في السياسة والحرب.

كان محمد، في يثرب، يحتل موقعا استراتيجيا جيدا، يعينه في حربه ضد مكة، لان المدينة كانت تعترض الطريق البري الذي يربط مكة بسورية. وقد اغار محمد على قوافل مكة. واستسلمت مكة سنة ٦٣٠، الا ان النبي منح قبيلة (قريش) شروطا فيها تساهل. ولما اوصى بالحج الى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة، رأى القرشيون في هذا حفاظا على مصالح مكة. ولما انتقل النبي إلى الرفيق الاعلى (٦٣٢) كانت سيادة حكومته قد اعترف بها في الجزيرة العربية حتى حدود المراعي التي ينتفع منها العرب الذين كانوا يعملون للدولة البيزنطية او للدولة الساسانية. والحروب التي شنها محمد بين ٦٢٢ و ٦٣٢ كانت امرا بسيطا اذا قورنت بالحروب المعاصرة لها التي قامت بين الفرس والرومان (الساسانيين والبيزنطيين). الا ان النتيجة المشتركة للحروب

الكبرى في الشمال والحروب الصغرى في الجنوب، كانت كبيرة بالنسبة لما ترتب عليها من آثار مهمة.

كان اليهود والمسيحيون في نظر الاسلام « أهل كتاب ». وكان القرآن آخر ما انزل على النبيين، وقد انزل قرآنا عربيا لعل الناس يعقلون. وقد كان محمد ينتظر من المتهودة في يثرب ان يولوه تأييدهم وان يقفوا الى جانبه. وقد كان ما يحمله على ذلك هو ان التوحيد هو الحقيقة الرئيسة في الاسلام، كما كان في كتب اليهود والمسيحيين. وعلى كل فان اليهود الذين ثابروا بعناد على يهوديتهم ولم يقبلوا بالمسيحية بديلا عنها، ما كانوا ليتخلوا عن يهوديتهم ويقبلوا بالقرآن، وقد انزل بالعربية.

لم يقبل يهود يثرب، كما قبل وثنيوها، دعوة محمد الى الاسلام، لكن اليهود تصرفوا تصرفا متهوراً اخرق دون ان يكون لذلك داع، فانهم فضلا عن نيلهم من القرآن بالذات، نظموا عصياناً واشتركوا في مؤامرة ضد المسلمين، فحل بهم العقاب، فصودرت املاكهم واجلوا عن المدينة تدريجا، ثم صودرت الاملاك في خيبر.

٥٠ــ توسع الدولة الاسلامية ٦٣٣ــ ٧٥٠

لما انتقل محمد الى الرفيق الاعلى ساور بعض النفوس شك في ان الاسلام او الدولة الاسلامية يمكن ان تتغلب على الصعاب التي قامت في الطريق. الا ان هناك من العرب من كان يعتقد بان النصر الذي ناله النبي في حياته بتأييد من الله لا يمكن لاله آخر ان ينتزعه. ومن ثم فان الذين قبلوا الاسلام كانوا واثقين من ان اله محمد كان قادرا. لكن بعضهم كان يتضايق من الزكاة ولعلّ البعض لم يحبوا كثرة الصلاة. ومن ثم فان وفاة محمد كان لها رد فعل قوي (خارج مكة والمدينة) بحيث اتخذ شكل ثورة واسعة النطاق تولى قيادتها نبيّة وانبياء محليون ادعوا ان الله شملهم واقوامهم برضاه.

تغلبت قوات المدينة ومكة المشتركة على المرتدين. فهي، اي القوات، بالاضافة الى ما كان يحدوها من ايمان كانت قوات يثرب تقاتل من اجل ان تظل مدينتهم ـ وقد اصبحت مدينة الرسول او المدينة ـ عاصمة للدولة الجديدة؛ اما المكيون فقد قاتلوا ليحتفظوا لمكة بالمنزلة الخاصة التي اصبحت للكعبة بسبب الحج اليها. وهذان امران كان لهما مكاسب اقتصادية خاصة. وقد غلب المرتدون على امرهم ـ غلبتهم قريش بقدراتها. وقد اثبتت قريش سنة ٦٣٣ انها تستطيع ان تتفوق في ميادين جديدة ـ الحكم والقيادة والدبلوماسية ـ على نحو ما تفوقت في اعمال السلف التجارية. وقد كان بين من نصر الاسلام وانقذ البلاد من الوضع المتردي للدولة في سنة ٦٣٣، فئة من اولئك الذين اعتنقوا الاسلام مترددين ومتأخرين: مثل خالد بن الوليد اكبر ضباط الدولة الاسلامية نشاطا وحركة ومعاوية بن ابي سفيان. ولعلّ مما اعان قوات يثرب ومكة على التغلب على اهل الردة، هو السبيل الجديد الذي فتحه خليفة رسول الله، ابو بكر، امام هؤلاء المرتدين. ذلك ان الخليفة، بالاتفاق مع اولئك الذين كان يشاورهم في الامر، وجّه همه نحو الدولتين المتاخمتين للجزيرة العربية شمالا. وكانت الدولتان قد اضنتهما

الحرب الرومية ـ الفارسية (٦٠٤ـ ٦٢٨). فكان من المحتمل ان تسقطا تحت هجوم مركز يعتمد على القوات العربية جمعاء. ومع ان الامبراطوريتين كانتا في نظر رعاياهما، ضعيفتين اقتصاديا، فقد كانتا ثمرتين يانعتين بالنسبة الى العرب.

وسرعة الفتوح التي تمت على ايدي الدولة الاسلامية ومداها امران يدعوان الى الاعجاب. فقد انتزع العرب من الامبراطورية البيزنطية سورية والجزيرة (الفراتية) وفلسطين ومصر الى سنة ٦٤١. وكان العرب قد افتتحوا العراق (٦٣٧) وايران باكملها حتى مرو (الى سنة ٦٥١). وقد انتهى امر الامبراطورية الساسانية في سنة ٦٥١. وفي سنة ٦٥٣ استسلم الارمن وسكان جورجيا (وكلا الفريقين كان من اتباع الساسانيين والبيزنطيين). وبين سنتي ٦٤٧ و ٦٩٨ انتزع العرب شمال غرب افريقية من البيزنطيين. وفي سنوات ٧١٠ـ ٧١٢ اجتازوا البحر الى شبه جزيرة ايبريا وقضوا على مملكة القوط الغربيين، واحتلوا املاكها حتى الواقعة في جنوب غرب بلاد الغال. وفي الواقع فانه لم يبق خارج سلطانهم سوى الزاوية الشمالية الغربية من اسبانية. وفي الوقت نفسه كان العرب يفتحون (٧١١) حوض السند ومنطقة البنجاب الجنوبية بما في ذلك الملتان.

وبين سنتي ٦٦١ و ٦٧١ فتح العرب طخارستان (شمال غرب افغانستان) التي كانت جزءا من الامبراطورية الساسانية. وقد كان لهذا الفتح اهمية استراتيجية ـ فقد اتاحت للدولة العرية ان تقتعد الطريق البري الواصل بين الهند والصين عبر حوض نهري سيحون وجيحون. وفي السنوات ٧٠٦ـ ٧١٥ اتجه العرب نحو ما وراء النهر لفتحها، ومع انهم منوا بنكسة، فانهم استمروا في محاولاتهم (على نحو ما فعلوا في شمال غرب افريقية). وفي السنوات ٧٣٩ـ ٧٤١ فتحوا ما وراء النهر باكملها نهائيا. الا ان العرب لقوا من اوقفهم عن استمرار الفتح على جبهات اربع: اولاها انهم لم يستطيعوا ان يقيموا لهم مراكز ثابتة الى الشمال من سلسلة جبال طوروس (في سنة ٧٤١ وقفت الفتوح العربية عند جبال امانوس. وقد كان المردة سكان امانوس يعتبرون عصاة في نظر العرب وموالين في نظر البيزنطيين. ويبدو انهم اقاموا لهم مراكز موقتة في جبال لبنان سنة ٦٧٧. وقد نقل العرب حدودهم الى ابعد من الامانوس فيما بعد). والثانية انهم لم يستطيعوا احتلال القسطنطينية. فقد تنبه معاوية (حكم ٦٦١ـ ٦٨٠) مؤسس الدولة الامويّة الى ان القضاء على الامبراطورية البيزنطية يقتضي احتلال العاصمة. وان سبيل

ذلك هو انتزاع القوة البحرية في البحر المتوسط من ايدي البيزنطيين، فانشأ معاوية اسطولا (٦٦٩) وحاصرت قواته القسطنطينية بحرا وبرا (٦٧٤- ٦٧٨). الا ان الحصار جرى ضد مصلحة العرب. فالاسطول البيزنطي كان مزودا بالنار اليونانية وبالآلة اللازمة لرميها (يظهر ان المخترع كان فنيا سوريا، كان لاجئا في العاصمة البيزنطية). وقد حاصر العرب القسطنطينية ثانية (٧١٧- ٧١٨). وكان فشلهم ذريعا، كالمرة الاولى، والثالثة كانت جبهة بلاد الغال. ففي سنة ٧٣٢ ردوا في بلاط الشهداء (بواتيه - تور). والرابعة كانت عجزهم عن فتح امبراطورية البدو الخزر (بين نهري الفولغا والدون) في ٧٣٧- ٧٣٨.

وهكذا فقد توقفت الفتوح العربية عند حدود معينة. الا انها كانت فتوحا سريعة وواسعة في مجالها، ذلك ان العرب هاجموا الدولة البيزنطية التي كانت قد بلغت حداً كبيراً من الضعف عسكريا، لكنها كانت قد حافظت على طرق مواصلاتها سليمة لمصلحة الفاتحين. وقد أبطلت الفتوح العربية في القرن السابع العمل الذي قام به الاسكندر في فتوحه في القرن الرابع قبل الميلاد. فالسلطان الذي كان اليونان قد تمتعوا به ٩٦٣ سنة في الشرق، منذ فتوح الاسكندر، وضعت الفتوح العربية سنة ٦٣٣ حداً له.

وقد كان في موقف المسيحيين اليعاقبة (اي القائلين بالطبيعة الواحدة) عون للعرب الفاتحين. ذلك بانهم لم يأسفوا لتغير الحكام. كما ان الرعايا النساطرة في الامبراطورية الساسانية لم يكونوا يكنون ولاء فعالا لسادتهم الايرانيين. والايرانيون الزرادشتيون انفسهم لم يلبثوا ان تخلوا عن الجهاد للحفاظ على استقلالهم السياسي، مع انهم كانوا شعب الامبراطورية الساسانية نفسها، وكانت الزرادشتية ديانتهم الوطنية. وفي شمال غرب افريقية تآخى البربر مع العرب الذين فتحوا بلاد الامبراطورية البيزنطية في تلك الاصقاع. فالبربر كانوا من اتباع المذهب الدوناتي، الذين لم يحملهم اعتناق قسطنطين الاول للمسيحية (٣١٢) على القبول بالحكم الامبراطوري في بلادهم.

وعلى العكس من ذلك كان الوضع في اسية الصغرى حيث كان السكان موالين للامبراطورية البيزنطية وللصيغة الحلقيدونية للمسيحية. فان العرب لقوا مقاومة عنيفة وصدوا عن البلاد نهائيا وقد صدوا ايضا - ولو ان ذلك كان صداً موقتا - في ما وراء النهر، حيث كان السكان يومها من اتباع البوذية الماهايانية. (وقد لقي الاسكندر ايضا

مقاومة عنيفة في ما وراء النهر). وفي خراسان وطخارستان (فرثيا والصغد) تآخى السكان الايرانيون المحليون مع العرب (كما كان اسلاف الصغديين قد تآخوا مع اليونان بعد فتح الاسكندر للامبراطورية الفارسية الاولى). ان سكان المناطق الحضرية، المصاقبة للسهوب، الارراسية، كانوا، في الازمنة جميعها، يرون من مصلحتهم اقصاء البدو الرعاة عن مناطقهم.

وكان مما اعان العرب ان القرآن نص على ان أهل الكتاب يجب ان يكونوا موضع التسامح والحماية اذا قبلوا بالحكومة الاسلامية ودفعوا الجزية. قد وسع نطاق هذا الوضع بحيث شمل، بالاضافة الى اليهود والمسيحيين، الزرادشتيين، وفي النهاية الهندويين. وقد ترك العرب جمع الضرائب المستحقة على غير المسلمين من رعاياهم في ايدي الموظفين الماليين الوطنيين الذين كانوا يقومون بالعمل من قبل. ففي املاك الساسانيين السابقة كان هؤلاء هم الدهاقنة. وقد ظل هؤلاء الموظفون يحتفظون بالسجلات باللغة اليونانية او باللغة البهلوية حتى حكم الخليفة عبد الملك (٦٨٥- ٧٠٥). فقد حملهم عبد الملك على الاستعاضة عن ذلك باستعمال اللغة العربية. كما وضع خليفته الوليد (حكم ٧٠٥- ٧١٥) حدا للاستعمال الرسمي للغة القبطية في مصر التي كانت تستعمل هناك مع اللغة اليونانية. ولكن الموظفين الماليين الوطنيين، مع انهم ارغموا على استعمال اللغة العربية، فقد ظلوا في وظائفهم، ولم يعين عرب في مكانهم.

والحاميات العربية التي عهد اليها بالحفاظ على البلاد المحتلة كانت تقيم في « امصار » خاصة بها، بعضها كان على الحدود، والبعض الآخر كان في التخوم الواقعة بين الجزيرة العربية والمشارف الجنوبية للهلال الخصيب. وقد كان اكثر هذه مواقع جديدة - لا في المدن القائمة ولا على مقربة منها. ومع ان هذه « الامصار » العربية جذبت اليها جماعة من غير العرب، فان الاختلاط الاجتماعي بين الفاتحين والمغلوبين كان ضئيلا جدا في المرحلة الاولى من تاريخ الامبراطورية الاسلامية. وقد تأخر انتشار الاسلام زمنيا عن التوسع في البلاد المفتوحة. لقد كان اعتناق الاسلام اجباريا في الجزيرة العربية. اما في البلاد المفتوحة فان اعتناق الاسلام، فضلا عن انه لم يكن اجباريا، لعلّه لم يشجع.

والحاميات العربية الاسلامية في البلاد المفتوحة لم تكن تبشيرية النزعة. كان اهلها

يشعرون بان الاسلام يميزهم عن رعاياهم من السكان المسيحيين والزرادشتيين. ان اعتناق الاسلام، بالنسبة لرعايا الدولة الاسلامية، كان شيئا جذابا من الناحية المالية، اذ انه كان يمكّنهم من الانضمام الى « المؤسسة » الاسلامية التي كانت ذات وضع مالي مفضل. إلا ان الخزينة ارتأت، لما كثر اعتناق هؤلاء السكان للاسلام تهرباً من دفع الجزية، ان تجبي الجزية حتى من الذين كانوا يعتنقون الاسلام. والحرب الاهلية (٧٤٧- ٧٥٠) التي انتهت بزوال الخلافة الاموية وقيام الخلافة العباسية (وهذه سيطرت على اراضي الدولة جميعها باستثناء اقصى شمال غرب افريقية واسبانية) كانت فرصة اتخذها الذين اعتنقوا الاسلام لتأكيد حقهم في ان يكونوا على قدم المساواة مع المسلمين المتحدرين من اصل عربي. وهذه الثورة وضع مخططها في الكوفة (المصر العربي في العراق). إلا ان العصيان بدأ في خراسان، حيث كان الذين اعتنقوا الاسلام عددهم كبير، وحيث كان اختلاطهم الاجتماعي بالعرب الجنود المستوطنين قد قطع شوطا بعيداً جداً. ومع ذلك فان اوائل الخراسانيين الذين لبوا النداء للثورة لم يكونوا من الايرانيين المحليين: لقد كانوا جماعة من العرب المستوطنين هناك الذين شعروا كأن الدولة الاموية قد استهانت بهم.

إن تبديل الاسرة الحاكمة الذي كان الظاهرة الخارجية للحرب الاهلية (٧٤٧- ٧٥٠) كانت واحدة من الاحداث التي كان اساسها الخلاف على خلافة محمد بوصفه رأس الدولة الاسلامية. ان محمدا لم يعقب ابناء ولم يستخلف احداً للمنصب، وقد طالب علي، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة بأن تكون الخلافة له لانه وزوجه هما اقرب الناس الى النبي. ولو ان عليا تمكن من تثبيت ذلك، لاصبحت الخلافة امراً عائلياً، إلا ان الذي حدث انه بعد وفاة النبي انتقل امر الاشراف على الدولة العربية الاسلامية الى لجنة ادارية غير رسمية، وهذه اللجنة، لما اخذت باختيار خلفاء محمد في امور السياسة خيبت امل علي ثلاث مرات بتجاوزه. ولما نال علي الخلافة، وقامت حرب اهلية حول قضية الخلافة، واغتيل علي نتيجة لذلك (٦٦١) استطاع معاوية بن ابي سفيان ان ينقل الارث السياسي الى نفسه وبيته. وابو سفيان كان اشد خصوم النبي واعنفهم من القرشيين.

كان معاوية اقدر قرشي في ايامه. ولم يكن علي ندا له في امور السياسة، وقد لقي علي وابنه الحسين مصرعهما مغتالين بعنف. وانشأ معاوية اسرة حكمت في دمشق من

٦٦١ إلى ٧٥٠ وفي اسبانية من ٧٥٦ إلى ١٠٣١ إلا ان هذه الاسرة لم تنجح في ان يُقبَل بها قانونا.

وهكذا فان الكيان السياسي في الدولة الاسلامية اصابه شرخ بعيد وفاة النبي. وهذا الشرخ لم ينغلق قط. لقد كان اكبر المتحمسين للثورة المعادية للامويين (٧٤٧- ٧٥٠) مريدو علي وورثته. إلا ان العلويين خاب املهم كما اصاب عليا اثناء خلافته القصيرة (٦٥٦- ٦٦١). وابو العباس (السفاح) الذي ضمن لنفسه الخلافة في الكوفة سنة ٧٤٩ (بدل آخر خلفاء الامويين الشاميين مروان بن محمد) كان من اسرة علي (على خلاف الامويين) ومن اسرة الرسول. إلا ان ابا العباس كان ابنا للعباس عم النبي وعلي. والعباس كان ممن اعتنق الاسلام في وقت متأخر نسبياً مثل معاوية بن أبي سفيان.

٥١ـ احياء الامبراطورية الرومانية الشرقية ٦٢٨ـ ٧٣٦

لما تحدى العرب المسلمون الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) والامبراطورية الفارسية (الساسانية) في وقت واحد، اثاروا نوعين من ردة الفعل. فالامبراطورية الرومانية الشرقية قامت وبقيت، مع انها اقتطع منها جزء؛ اما الامبراطورية الفارسية فقد خضعت وانتهى امرها. ومع ذلك فقد اصاب الفرس والروم على السواء نوع من الاعياء بسبب هذه التجربة المؤلمة، ولو انه جاء باسلوبين مختلفين.

لقد كان رعايا العرب من الزرادشتيين اسرع واكثر استعداداً لقبول الاسلام من رعاياهم المسيحيين من اي مذهب كانوا. وقد انتهى الامر بالجماعة الزرداشتية في ايران بان اصبحت اقلية محصورة في اماكن محدودة. وقد حافظ على الزرادشتية مهاجرو الشتات الى غرب الهند. واللغة البهلوية (وهي اللغة الفارسية المتوسطة) كتبت كلماتها بالالفباء السريانية. لكن هذه الالفبائية كانت تستعمل « صورا فكرية » بالنسبة للكلمات الفارسية المقابلة لها. وقد احتفظ بهذه الطريقة الغليظة لكتابة اللغة الفارسية في الصلوات الزرادشتية والكتب المقدسة. اما الفرس الذين اعتنقوا الاسلام فقد اخذوا انفسهم باستعمال الالفباء العربية لكتابة الفارسية، مع استعارة كلمات عربية بشكل قوي. ان معتنقي الاسلام كانوا يصنعون لغة فارسية جديدة لمدبري الحكم والشعراء في المستقبل.

احتفظت الامبراطورية الرومانية الشرقية بنفسها في اسية الصغرى، الى الشمال الغربي من سلسلة جبال طوروس، مع رأس جسر في الجهة المقابلة من مضيق القسطنطينية. وقد حيدت قبرص بعد فشل الحملة على القسطنطينية (٦٧٤ـ ٦٧٨). لكن الجزر الأخرى ـ من كريت الى جزر البليارد ـ ظلت في حوزة الامبراطورية الشرقية. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية لم تتمكن من الاحتفاظ بشمال غرب افريقية، فانها لم

تكن قد خسرت بعد صقلية او جزيرة مستنقع البندقية الكبير. واحتفظت في اوروبة بسلسلة من السواحل الممتدة من سالونيك (سلانيك) الى رافنا وروما.

كانت اللغة اليونانية قد حلت في صقلية محل كل لغة قبل اليونان عرفتها الجزيرة (القرن الخامس قبل الميلاد) وفي اسية الصغرى قبل نهاية القرن السادس الميلادي. كان سكان المنطقة الواقعة بين جبال البلقان ومجرى الدانوب الادنى يتكلمون اللاتينية. لكن هؤلاء استنزفت الامبراطورية الشرقية نصفهم جنودا في جيوشها. والباقون تغلب عليهم السلاف (الصقالبة) القادمون من خلف الدانوب (القرن الثالث الى القرن السابع للميلاد) والذين استقروا في نهاية المطاف في شبه جزيرة البلوبونيز. اما في الشمال فقد اصبح الفلاخ رعيان ماشية!

ازاح الصقالبة القادمون كثيرين من مواطني الامبراطورية الرومانية الشرقية عن مواطنهم، لكنهم لم يعرضوا الامبراطورية لخطر حربي؛ فقد ابعدتهم اسوار القسطنطينية وسلانيك وغيرها عن هذه المدن. وعلى كل فان الصقالبة الذين استوطنوا الريف لم يكونوا متحدين سياسيا. فقد تجمعوا في عدد كبير من « المستوطنات » (الصقلبية)، وهذه كانت تحت رحمة الامبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت تستطيع ان تخضعهم عندما تتوافر لها القوات المحاربة. وقد تبدل الوضع ضد مصلحة الامبراطورية لما هبطت جماعات بلغارية تتكلم التركية (من الهون اصلا) في المنطقة الواقعة بين مجرى الدانوب الادنى وشاطىء البحر الاسود الغربي (٦٨٠- ٦٨١) واستقرت هناك. وقد اخضع هؤلاء اقرب المستوطنات الصقلبية اليهم واثبتوا انهم قادرون على رعاية البشر قدرتهم على رعاية الماشية. وبدأ عندئذ سباق بين الامبراطورية الشرقية والدولة البلغارية للسيطرة على المستوطنات الصقلبية التي كانت راضية بان يتولى امرها القادر على ذلك.

ترتب تنقل السكان وتبدل السلطان ان اصبحت اللغة اليونانية اللغة الوطنية للامبراطورية الشرقية: اللغة اليونانية الحديثة كلغة حية للامور اليومية، والكويني الاتيكية للادارة وللطقوس المسيحية في كل مكان (باستثناء الاراضي التي ظلت اللاتينية مستعملة فيها. رومه كانت ثنائية اللغة من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثالث الميلادي. وهكذا كانت القسطنطينية لمدة قرنين بعد انشائها؛ ٣٣٠م). لكن في القرن السادس كانت القسطنطينية قد اصبحت تتكلم اليونانية فقط. وكانت المسيحية

البيزنطية والمسيحية الغربية تعترفان بعقيدة واحدة. لكن الحاجز اللغوي كان قد بدأ يقوم بينهما.

كان للاباء المسيحيين الذين ظهروا في قبادوقيا في القرن الرابع اثر فعال في هداية الامبراطورية الرومانية الشرقية. فالقديس باسيل واخوه القديس غريغوريوس (نيشا) وصديقهما غريغوريوس (نازيا نزين) كانوا طلابا في جامعة اثينا (وهناك التقوا جوليان، الذي اصبح امبراطورا فيما بعد). وقد وضع هؤلاء القديسون القبادوقيون اعمالا ادبية مهمة ضخمة مستعملين اللغة الاتيكية الحديثة (من القرن الثاني) على طريقة كبار المحاضرين والكتاب، واصبحت كتاباتهم نموذجا يحتذى. وكان الاعجاب بهذه الكتابة ومحاولة تقليدها مما حال دون استعمال اللغة اليونانية لحديثة (التي اصبحت لغة التخاطب في العالم اليوناني في القرن السابع) في الاعمال الادبية.

لقد قُطِعَت سورية عن الامبراطورية الشرقية بسبب الفتح العربي (٦٣٣ - ٦٤١) لكن منذ ان بدأ اعتناق سكان المشرق التدريجي للمسيحية، كانت المدنية السريانية تؤثر في المدنية اليونانية. ولم يحس المسيحيون الناطقون باليونانية انهم اكثر ثقافة من المسيحيين الناطقين بالسريانية. والواقع ان اولئك كانوا قد افادوا نفحات حضارية دائمة من هؤلاء قبل ان يبدأ الخلاف بين اليونان والسريان لاهوتيا وسياسيا بسبب قضية طبيعة المسيح. والاسلوب البزنطي في الموسيقى والشعر الابتهالي الذي اصبح الملك المشترك لجميع الشعوب الشرقية الارثوذكسية وضعه سوري مسيحي (خلقدوني) هو رومانس الموسيقي (حول ٤٨٠ - ٥٥٠) والذي كتب اشعاره بالكويني الاتيكية القديمة لكن تفاعليه واناشيده كانت سورية. وقد كانت هذه الخطوة، بالنسبة الى الموسيقى والشعر اليونانيين منطلقا جديداً منعشاً.

ان النار اليونانية التي انقذت الامبراطورية الرومانية الشرقية من الدمار (٦٧٤ - ٦٧٨) كان صانعها سوريا. فليو الثالث (حكم ٧١٧- ٧٤١) كان سوري الاصل. وقد تسنم فليو العرش في الوقت المناسب لينقذ القسطنطينية من حصار العرب الثاني لها (٧١٧ - ٧١٨). ان الامبراطورية الرومانية الشرقية التي اقتطعت اجزاء منها كانت قد اصبحت ناطقة باليونانية. لكنها كانت قد تلقت حيوية جديدة من عناصر هامة غير يونانية. فقد انشأ ليو الثالث اسرة امبراطورية سورية. كان هرقل (حكم ٦١٠ - ٦٤١) ابن ارمني نائباً للملك في شمال غرب افريقية وفي السنوات التي تلت حملات العرب

على املاك الدولة البزنطية الى الجنوب من جبال طوروس. نقص عدد السكان في الامبراطورية فكان سد هذه الثغرة يتم عن طريق هجرات من الارمن والسوريين الى الشمال.

كاد القرن السابع ان يكون فترة اضطراب مستمرة. فقد كادت فتنة ٦٠٢ ومقتل الامبراطور موريس ان يلقيا بالامبراطورية في احضان الفوضى. وفي سنة ٦٠٤ بدأ الفرس هجومهم على ولايات الامبراطورية الاسيوية، فيما اغرقت موجات السكان الناشئة عن انسياح الصقالبة من شمال مجرى الدانوب الادنى شبه جزيرة البلقان. ولم تكد الامبراطورية تنتهي من آخر حرب واشدها مع الفرس (٦٠٤- ٦٢٨) حتى قام العرب بهجومهم عليها(٦٣٣). وكانت غاية هذا الهجوم حصار العرب للقسطنطينية (٦٧٤- ٦٧٨). وما كادت الامبراطورية تتجاوز هذا الخطر حتى هبط البلغار (من البدو الاوراسيين) واستقروا نهائيا جنوبي الدانوب (٦٨٠- ٦٨١). ومن التناقضات ان نقص السكان في الامبراطورية بسبب النكبات التي اصابتها، مهد السبيل لانتعاش اقتصادي.

كان هذا الانتعاش شبيها بالانتعاش الاقتصادي الذي عرفته الصين في القرن الخامس. فقد صمد الفلاحون الآن امام كبار الملاكين والجباة الامبراطوريين. ففي الصين اتخذ الامبراطور هزياو ون - تي (من اسرة وي) خطوات لحماية الفلاحين وهي مدونة. وبالنسبة الى الامبراطورية الشرقية في القرن السابع فهناك « قانون الفلاحين » الذي يبدو انه وضع حول نهاية القرن. وهنا نجد الفلاحين وقد اخذوا باستغلال الارض المهجورة وانشاء المطاحن المائية. ونستدل على ان الضرائب لم تكن قاسية بحيث انها تمنع الفلاحين من توسيع رقعة اراضيهم واستغلالها. ونستدل كذلك ان كبار الملاكين في هذه الفترة لم يكن لهم من القوة ما يمكنهم من الاستيلاء على الارض المهجورة. ففي الامبراطورية الرومانية الشرقية مثل الصين، لم تختف الاملاك الواسعة من الوجود. ولكنها منعت من الاتساع على حساب الاملاك الصغيرة.

كان الفلاحون، في الصين في القرن السادس، قد دربوا وسلحوا ليخدموا كميليشيات. وفي الامبراطورية الرومانية الشرقية، كانت ميليشيا من الفلاحين قد قامت في اواخر القرن السابع واصبحت اساس الجيش الامبراطوري وكانت نفقاتها تأتي من نتاج الاراضي. ونُظمت هذه الميليشيات في اربعة جيوش. واسماؤها تدل على انها

كانت قد تركزت في حوضي الدانوب الادنى والفرات الاعلى، وذلك قبل الهجوم العربي. لقد وضعت القوات في اسية الصغرى للدفاع عن قلب الامبراطورية هناك، حتى ولو ان المناطق الابعد من الامبراطورية كانت تعتمد على العون المحلي. ولعلّ وضع هذه الفرق في اسية الصغرى كان الخطوة الاولى نحو اعادة السكان الى تلك المنطقة. وكل قائد فرقة اصبح، تدريجا المدبر المدني للمنطقة لتي استقرت فيها قواته. وقد اهملت التقسيمات الادارية التي تمت في ايام ديوقلتيان ـ قسطنطين بالنسبة للادارة ولكنها ظلت تقسيمات على خارطة الكنيسة وتنظيمها، واصبحت كلمة ثيماتا تعني الفرق العسكرية والمناطق الادارية المتصلة بها.

تعرضت اسية الصغرى بدءا من ٦٤٢ لهجمات عاتية قام بها العرب. لكن هذه الحالة من انعدام الاطمئنان كانت لمصلحة الفلاحين المسلحين والمدربين. فقد كان الفلاح يستطيع ان يحمي ارضه، فيما كانت الغارات المستمرة تجعل الاملاك الريفية الكبيرة لا تفي بمطامع المستثمرين، كما كانت تقصي جباة الضرائب الامبراطوريين عنها. فبالنسبة الى الفلاح في الامبراطورية الرومانية الشرقية كان شر المغير العربي اقل من شر اي من جابي الضرائب او المستثمر الذي لعله كان يجد منفعة وفائدة في ضم حقل الى حقل آخر. وفي اسية الصغرى، كما كان الحال في الصين دام انتعاش المجتمع طوال الفترة التي ظل فيها الفلاحون قادرين على الدفاع عن كيانهم.

٥٢ـ المسيحية الغربية ٦٣٤ـ ٧٥٦

إن الصفة المميزة لتاريخ المسيحية الغربية خلال الفترة من ٦٣٤ إلى ٧٥٦ هو اتجاه مركز ثقلها الجغرافي في التنقل في اتجاه شمالي غربي. وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا على المستوى السياسي في اقامة دولة الفرنك (الفرنج) في بلاد الغال وعلى المستوى الكنسي في اعتناق كلوفيس، باني امبراطورية الفرنك، المسيحية في صيغتها النيقية والخلقدونية، وفي مكاسب الكرسي الروماني في بريطانية. وقد شهدت هذه الفترة حيوية في المملكة الفرنكية ايام حكم الاسرة الكارولنجية الذين كانوا حماة القصر بالنسبة الى الأسرة الميروفنجية. وهذه الفترة شهدت ايضا تثبيت سلطة البابوية الكنسية في الجزر البريطانية وتوسيعها، ثم في شمال غرب القارة الاوروبية عن طريق المبشرين الانكليز. وفي الفترة نفسها انتقل مركز الثقل في الزراعة في المسيحية الغربية (والزراعة كانت يومها الشكل الرئيس للنشاط الاقتصادي) من شواطىء حوض المتوسط الغربي في اتجاه شمالي.

إن المنطقة التي يسود فيها مناخ مثل مناخ البحر المتوسط لا يمكن ان تكون ملائمة بشكل خاص للزراعة، باستثناء رقع خصبة مثل السهول الغرينية في اودية النيل ودجلة والفرات والسند، او في المناطق البرية الواقعة إلى شمال البحر المتوسط والبحر الاسود. لقد صنع الفلاحون القرطاجيون وخلفاؤهم الرومان من بعدهم كل ما يمكن ان يصنع للافادة من منطقة البحر المتوسط وذلك بتطبيق المبادىء العلمية. والعمل الذي قاموا به لم يخربه العرب لا في شمال غرب افريقية ولا في اسبانية (بعد فتحهم تلك الاقطار). وفي الناحية الثانية فان الغابات في منطقة البحر المتوسط كانت قد اجتث الكثير من اشجارها بسبب الطلب المستمر الذي يقوم به البناؤون وصانعو السفن وموردو الوقود لتشغيل الحمامات. واجتثاث الغابات هذا لم يؤد الى نقص في الخشب فحسب،

بل ادى إلى تعرية التلال والجبال من التربة. فنقصت مساحات الارض الصالحة للزراعة وحتى للرعي. وكانت اوروبة الشمالية لا تزال فيها الغابات الكثيرة؛ وحتى في حالة قطع الاشجار فان المناخ وطبيعة الارض الجغرافية تحولان فيها دون التعرية.

ان ضم الامبراطورية الرومانية اولا لحوض البو ثم الاراضي الاوروبية الواسعة الواقعة ما وراء الالب، ادخل في نطاق المدنية الاغريقية - الرومانية مساحات شاسعة من الاراضي العميقة التربة (ذات الامكانات الزراعية) في ما يقع شمال الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقبل سقوط الامبراطورية في الغرب كانت قد اتخذت خطوات لتطوير التقنية الصناعية لاستغلال هذه التربة. والامر الرئيس في هذه التقنية كان اختراع محراث اقوى وانفذ بالنسبة لهذه التربة العميقة، من المحراث الذي كان يصلح للتربة الاخف. ولم يكن هذا التطوير قد سار شوطا يكفي لبجعل الزراعة اكبر نتاجا في شمال اوروبة منه في منطقة البحر المتوسط. ان الامر الذي جذب البرابرة الشماليين (وكان الهون يسيرون في اعقابهم) الى اسبانية وشمال غرب افريقية (بعد ان نفذوا عبر الحدود الرومانية على الراين) هو الالق الاقتصادي الذي مثلته حقول القمح وكروم العنب وغابات الزيتون في المتوسط. ولا شك في انهم كانوا (البرابرة) يحتلون الاراضي المروية والاغنى في مصر والعراق لو ان هذه كانت في متناول يدهم. لكن الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية احتفظتا بالسيطرة عليهما على التوالي حتى القرن السابع حين وقع مصدرا القوة الاقتصادية هذان في ايدي الدولة العربية الاسلامية المتوسعة دوما.

وفي الوقت نفسه كانت بلاد الغال، الى الجنوب من نهر اللوار، تجذب الفرنك بشكل خاص بحيث ان كل تقسيم مملكة الفرنك بين افراد الاسرة الميروفنجية (في القرنين السادس والسابع) كان يرافقه الحاح من قبل كل مطالب بان تكون له شريحة من منطقة ميدي (جنوبي اللوار) بالاضافة الى شريحته من الشمال - مع ان الشمال كان هو مركز الثقل الاصلي لقوة الفرنك، اذ كان المنطقة الرئيسة لاستقرارهم. وفي الوقت ذاته فان وضع التربة العميقة في شمال الغال وجنوب شرق بريطانية واواسطها في اطار الاستثمار الزراعي، الذي كان قد بدأه الرومان، استمر البرابرة التيوتون في تلك الاراضي (الاراضي الرومانية السابقة) يقومون به. واذا كان الفتح العربي او الفتح الجرماني لاراضي الفرس او الرومان السابقين قد ادى الى تأخر في الزراعة، فهذا كان

امرا وقتيا. والاستمرار في فتح التربة في الشمال لم يكن قد اعطى بعد نتائج باهرة. إلا انه كان من الواضح ان ذلك آت لان هذه كانت ارضا جديدة واسعة وذات امكانات انتاجية ضخمة.

ومركز ثقل التوسع الكنسي ونطاق النفوذ الادبي والسياسي لرومة انتقلا كذلك شمالا في غرب في هذه الفترة (٦٣٤- ٧٥٦). فالفتح العربي الاسلامي لشمال غرب افريقية والجزء الاكبر من شبه جزيرة ايبريا وساحل الغال بين البرانيس ومصب الرون جرد البابوية من سلطانها على رعاياها الكنسيين في هذه المناطق. لكن الامر لم ينته عند هذا الحد، بل ان المسيحية في شمال غرب افريقية، مثل الزرادشتية في ايران، خسرت الكثيرين من اتباعها (في ظل الحكم الاسلامي) الذين اعتنقوا الاسلام. وقد كان اعتناق هؤلاء للاسلام هناك اسرع مما جرى في اسبانية القوطية او في الهلال الخصيب. على كل فان عقبة ازيحت من طريق الاعتراف التام بالسلطة البابوية ـ ذلك بان الدوناتيين. الذين كانوا قد اختلفوا مع الكاثوليك من قبل، انتهى امرهم الآن. إن المسيحية كانت قد انتشرت وامتدت جذورها في شمال غرب افريقية قبل ان تنتشر وتعرف في المناطق الواقعة شمالي البحر المتوسط. ومن ثم فما دامت الكنيسة في شمال غرب افريقية متحدة ونشيطة فانها لم تكن على استعداد للاعتراف بالسيادة الكنسية لرومة.

ومن الناحية الثانية فان الحكومة الامبراطورية الشرقية طعنت البابوية طعنة نجلاء لما نقلت (حول ٧٣٢/ ٧٣٣) جنوب ايطالية الاقصى وصقلية وجميع اليريا الشرقية من سلطة البابوية الى سلطة اسقفية القسطنطينية، وحولت الضرائب المستحقة من الاملاك، الموقوفة على القديس بطرس في صقلية من الخزينة البابوية الى الخزينة الامبراطورية. كان البابا غريغوريوس الثاني (٧١٥- ٧٣١) قد تحدى الامبراطور ليو الثالث اذ ايد مناوئيه من رعاياه الغربيين في رفضهم دفع ضريبة اضافية للدفاع عن القسطنطينية ضد الحصار العربي (٧١٧- ٧١٨)، وفي رفضهم الانصياع الى امر الامبراطور في ان لا يضعوا التماثيل في الكنائس. وغريغوريوس الثاني وخليفته غريغوريوس الثالث (٧٣١- ٧٤١) حرما على التوالي، بطريرك القسطنطينية الوديع الذي اقامه ليو في العاصمة. ومن ثم فقد اظهر هذان البابوان استقلالهما الكنسي والسياسي. ومع ذلك فان الامبراطور ليو لم يستطع ان ينالهما بأذى (كما كان قد حدث للبابا مارتن الاول من

قبل). ومع ذلك فان ما خسرته البابوية من الممتلكات التي كانت تابعة للكنيسة وضرائب، كان كبيراً بالنسبة الى الاستقلال البابوي.

على ان البابوية كانت قد عوضت عن الخسارة الآتية حتى قبل حدوثها. ففي سنة ٦٣٤ كانت مملكة نورثمبريا أقصى دولة خليفة في بريطانية للامبراطورية الرومانية، قد ربحها المبشرون الارلنديون لاسقفية رومه، وقد كسبت ثانية (٦٦٤). وفي هذه المرة تبع ذلك خضوع الكنائس القلتية في اسكتلاندا وويلز وبريتانية وارلندا (القرن الثامن). وقام الراهب الارثوذكسي اليوناني تيودور الطرسوسي، الذي عينه البابا رئيس اساقفة لكنتربري، باصلاح الكنيسة الرومانية في انكترا (٦٦٩- ٦٩٠). وفي القرن الرابع تجذّرت الرهبنة البندكتية. وكان من ثمارها ان بيد الراهب البندكتي وضع كتابه التاريخ الكنسي للشعب الانكليزي (٧٣١).

وفي سنة ٦٩٠ خرج ويلبرورد ـ كلمنت الراهب الانكليزي من نورتامبريا الى القارة للتبشير بين سكان فريزيا، وتبعه وينفرد ـ بونيفاس (٧١٦) الراهب الانكليزي، ليقوم بالتبشير في جنوب المانية الحالية. ومع ان بونيفاس اصلح الكنيسة الفرنكية ونظمها على اسس رومة (٧٤١- ٧٤٧) فان المتصرفين في شؤون بلاد الفرنك حرصوا كما حرص اباطرة الامبراطورية الرومانية الشرقية على ان تكون لهم الكلمة الاخيرة في تسيير شؤون الكنيسة المسيحية في ممتلكاتهم.

وعلى كل فقد اتضح للاسرة الكارولنجية وللبابوية ان كلا منهما بحاجة الى التأييد من الآخر. فقد كان الكارولنجيون يحكمون المملكة الفرنكية في الواقع منذ ٦٧٨، فارادوا ان يكونوا حكامها شرعا (قانونا). فطلب بيبين الثالث (القصير) من البابا (٧٥٠) فتوى حول الموضوع. ولما حصل على النص البابوي (٧٥١ او ٧٥٢) المؤيد له دعا الشعب الفرنكي الى مؤتمر انتخب فيه ملكا (وخلع آخر الميروفنجيين). وفي سنة ٧٥١ انتزع اللومبارديون رافنا (ايطالية) من الامبراطورية الرومانية الشرقية.

ما كان للرومان الشرقيين ان يستعيدوا رافنا ـ وهم لم يحاولوا. فقد كان واجب القوات المسلحة من الجيش الاصلي للامبراطورية هو الدفاع ضد العرب والبلغار. وكان من الواضح ان اللومبارديين كان بامكانهم ان يحتلوا رومه ايضا، ما لم تجد البابوية عوضا للعون العسكري الذي كان يأتي من الامبراطورية الشرقية، والتي اصبحت القسطنطينية عاجزة عن تقديمه. والى ذلك الوقت لم تكن البابابوية قد حاولت

الانفصال عن الامبراطورية الرومانية الشرقية. لكن في ٧٥٣- ٧٥٤ قطع البابا اسطفان الالب ليطلب، من بيبين، التدخل عسكريا في ايطالية . وقد (مسح) توج هو نفسه بيبين وابنيه شارل وكارلومان (٧٥٤). وقد قطع بيبين الالب (٧٥٥ ثم ٧٥٦)، وتغلب على اللومبارديين (انقذ رومه) وايضا استولى على الممتلكات التي كانت تابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية حول رافنا، واعطاها للبابا (رافضا طلب الامبراطور الشرقي اعادتها له).

٥٣ـ اسية الشرقية ٥٨٩ـ ٧٦٣

استمتعت الصين لمدة تزيد عن قرن ونصف القرن، بدءا من سنة ٥٨٩ فترة وحدة وقوة وازدهار تختلف تماما عن الفترة التي سبقت ذلك (بدءا من انحلال حكم الهان الشرقية سنة ١٨٥) اذ عرفت بالتمزق والخصومة. ففي سنة ٥٨٩ توحدت الصين للمرة الاولى بعد هجوم البرابرة الشماليين (٣٠٤). وهذه الوحدة تبعها اعادة نظام هان وو ـ تي الذي كان اساسه اختيار الموظفين على اساس امتحان في المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشية. وقد انتشرت الصين الموحدة خارج حدودها الاصلية.

ويعود السبب في هذه الاعمال الناجحة الى التعهد الذي قطعه الامبراطور وى هزياو ون ـ تي بان يملك كل فلاح حدا ادنى من الارض. وقد اتبع خلفاؤه هذا الاصلاح الجذري بانشاء ميليشيات فلاحية. وبهذه الطريقة احتل سوي ون ـ تي الجنوب وضمه الى الشمال (٥٨٩). والميليشيات الفلاحية مكنت لتاي تسونغ (حكم ٦٢٦ـ ٦٤٩) من احتلال بعض مناطق اسية الوسطى. واسرة وي وخلفاؤها لم يستطيعوا ان يضعوا قيوداً للملاكين الكبار. وقد فعلت اسرة سوي ذلك (٥٨٩) فعينت الحد الاقصى للملكية. وكان ذلك يختلف باختلاف الدرجة الاجتماعية للمالك. ولم يحاول لا السوي ولا تانغ نزع الملكية عن الممتلكات الكبيرة. والواقع ان تحديد هذه الملكيات وعدم ضمانة حد ادنى من الملكية للفلاح كان مما يقع في عالم المثال، ولم يمكن تطبيقهما تماما ابدا. وعلى كل فمما هو مدون نعرف انه في اوائل عهد تانغ كان تقريبا اربعة اخماس الضرائب الامبراطورية كانت تجبى مما هو مفروض على الفلاحين ضريبة رؤوس. ويبدو واضحا ان المصائب التي حلت بالامبراطورية، حول اواسط القرن الثامن، كانت نتيجة فشل الدولة (خلال النصف الاول من القرن ذاته) في تزويد الفلاحين بالارض من نوع الحد الادنى.

وقد كان لهذا الفشل اسباب عدة. فالسبب الاول كان ازدياد عدد السكان الفلاحين، وذلك بسبب انتشار الامن والنظام (٦٢٨). ومع ان الجنوب فتح للعمل، ومع ان الشماليين اخذوا يهاجرون جنوبا، فان عدد السكان تجاوز امكان منحهم الحد الادنى من ملكية الارض. وثمة سبب ثان وهو احياء نظام الامتحان لاختيار الموظفين. فقد تصرف الموظفون الجدد كما تصرف اسلافهم، اذ انهم افادوا من مناصبهم لتجميع الارضين في ايديهم. وقد اثار هذا خصومة بين طبقة الموظفين الكونفوشيين الجدد وهم من المدبرين - الملاكين في الجنوب الشرقي وبين كبار الملاكين الاقدم والاكبر ثراء في الارض (في الشمال الغربي). وحاول امبراطور تانغ، هزوان تسبنغ (حكم ٧١٢- ٧٥٦) ان يوقف هذه التطورات غير المرغوب فيها. ثم اخذت المصائب تنهال على الامبراطورية في سنة ٧٥١.

كان عمر اسرة سوي، التي اعادت الوحدة الى الصين (٥٨٩)، قصيرا. والامبراطور الثاني من هذه الاسرة يانغ - تي (حكم ٦٠٤- ٦١٨) كان آية في النشاط، فكانت، من ثم، مطالبه من شعبه ثقيلة الى درجة لا تطاق، بحيث اثارت ثورة اطاحت بالاسرة. وتلا ذلك فترة فوضى وحرب اهلية (٦١٧- ٦٢٨) قبل ان تعود اسرة تانغ. وقد افادت هذه الاسرة من انجازات اسلافهم الزائلين. فاعاد حكامها الوحدة من حيث مادتها اصلا، لكنهم كانوا ماهرين في تصرفهم، بحيث انهم لم يثيروا رد فعل عدائيا، وهو الذي دفعت الاسرة السابقة ثمنه غاليا.

كان حفر الاقنية بالسخرة اثقل الاعباء واكثرها ايذاء في نظر السكان في عصر اسرة سوي. فقد حفرت القناة الكبرى في ايام حكام هذه الاسرة. وبدأت هذه من هانغشو، على الساحل الشرقي، الى جنوبي اليانكتسي. وفي تخطيطها الاصلي كانت تربط نهر يانكتسي بالنهر الاصفر على مقربة من لويانغ. وقد اضاف سوي يانغ - تي فرعا كان يتجه شمالا لنقل الجنود والمؤن والعتاد الى منطقة القتال في شمال كوريا. وكان حفر الطرق المائية الصناعية، قبل ايام السكك الحديدية والطيران، امرا ضروريا لربط الشمال بالجنوب ربط لحمة. فالانهار الصينية الكبرى تتجه من الغرب الى الشرق، فكان من الضروري ان تحفر الاقنية، كي تنقل المتاجر مائيا من الجنوب الى الشمال. ومن ثم فانه لما اتخم بلاط اسرة تانغ والادارة المركزية بالموظفين اصبحت القناة الكبرى (التي

حفرتها اسرة سوي) طريقاً رئيساً لنقل الارز من الجنوب الى عاصمتهم، تشانغ ـ ان، وهذه كانت تقوم في حوض واي، احد روافد النهر الاصفر، وهي من بناء سوي!

خدم الفرع الشمالي للقناة الكبرى اسرة تانغ اذ نجحت هذه بالقضاء على اقصى شمال كوريا (٦٦٠ و ٦٦٨) وذلك بمساعدة سيلا. الا ان هذا اخرج تانغ من المنطقة، ووحد كوريا تحت سلطانه. وهذه قبلت بسيادة صينية اسمية. الا ان توحيدها السياسي كان، في الناحية الاخرى، باعثا للمدنية الصينية على قبولها مدنية كوريا وساعد على انتشار البوذية.

في سنة ٥٥٢ اسس الاتراك (تو ـ تشوه) امبراطورية سهوبية على غرار الامبراطورية التي انشأها الهون (القرن الثاني قبل الميلاد). وبذلك كان الاتراك اسبق في اقامة وحدة بين الشعوب الاوراسية من توحيد الصين. والمهم انه بقطع النظر عن تقسم الامبراطورية الاوراسية، كان على الصين ان تنظر بحذر (٦٣٧) الى التيبتيين والعرب الذين كانوا يقومون بحملات عسكرية.

كانت التيبت قد توحدت (٦٠٧) وكانت المدنية الهندية قد تغلبت على العناصر المدنية السينية هناك. واسبحت التيبت الآن تنازع الصين بسبب سيطرة هذه على حوض تاريم. وفي السنوات ٦٦١ـ ٦٧١ ضم العرب طخارستان. وهكذا فان الصين، في عهد اسرة تانغ، كان توسعها برا نحو الهند وجنوب غرب اسية، موضع تحد وتحديد. ومع ذلك فان حملة فاشلة قامت بها الصين فتحت الطريق امام المدنيّة الصينية لتتلقى المؤثرات الآتية من الغرب. والبوذيون الصينيون كانوا لا يزالون على اتصال مع البوذيين الهنود برا وبحرا. والزرادشتية اقامت لها مستقرات في الصين (حول ٥٢٥). ويبدو ان المانوية وصلت الصين قبل نهاية القرن السابع. وثمة ما يدل على وجود جماعات تبشيرية نسطورية في تشانغ ـ آن في سنة ٦٣٥. وانتشار الديانات الثلاث التي كانت في الامبراطورية الساسانية (وهي الزرداشتية والمسيحية النسطورية والمانوية) شرقا كان قد شجعه ضم خسرو الاول طخارستان (اواسط القرن السادس). ثم شجع ذلك الانتشار قضاء العرب على الامبراطورية الساسانية، الامر الذي حمل الكثيرين على ترك البلاد مهاجرين والاتجاه شرقا.

كان اباطرة سوى وتانغ من هواة البوذية، مع التسامح مع اديان اخرى اجنبية الاصل.

الا ان احياء الدراسات الكونفوشية من اجل الحصول على موظفين للدولة، اتاح الفرصة لقيام رد فعل كونفوشي ضد جميع الديانات الاجنبية، بما في ذلك البوذية.

كانت تشانغ ـ آن، في ايام اسرة تانغ، اكثر نزعة عالمية من غيرها في اويكومين العالم القديم. وفي هذا الامر تفوقت تشانغ ـ آن على القسطنطينية المعاصرة لها. الا ان الفنون المنظورة والشعر، في العصر التانغي المبكر، كانت صينية بشكل متميز. واشكال الاجسام الصغيرة من الجبس تزودنا بلمحات حية للحياة اليومية. وكان الشاعران لي بو (٧٠١ـ ٧٦٢) وتوفو (٧١٢ـ ٧٧٠) معاصرين للامبراطور هزوان تسنغ. وقد كانت امبراطورية تانغ والمدنية الصينية موضع اعجاب وتقليد لا في كوريا فحسب، بل حتى في اليابان. فقد ارسلت الامبراطورية اليابانية رسلا الى احدى الاسر في الصين الجنوبية في القرن الخامس. ومنذ ٦٠٧ كانت سفارات كثيرة ترسل الى تشانغ ـ آن، وفي سنة ٦٠٨ كانت سفارات كثيرة ترسل الى تشانغ ـ آن. وفي سنة ٦٠٨ رافق سفير من اسرة سوي السفارة اليابانية في طريق عودتها. وقد ادخلت الحكومة الامبراطورية اليابانية (على الاقل على الورق) نظاما اداريا وتوزيعا للاراضي على الفلاحين على غرار ما كان قائما في الصين. وفي سنة ١٠٧ انشأت الحكومة نموذجا لتشنغ ـ آن في نارا. ان تقليد كل من كوريا واليابان للصين دليل على المنزلة التي كانت الصين تحتلها. الا ان الصين لقيت سلسلة من النكبات منذ اواسط القرن الثامن. فقد انتصر العرب على الصين (٧٥١) في معركة نهر طلس (في اواسط اسية اليوم) الى الشمال من فرغانة. وكان هذا آخر النشاط الصيني العسكري الى الغرب من حوض تاريم. وفي السنة نفسها صدت قوات دولة نان ـ تشاو (في ولاية يونان الصينية اليوم) هجوما صينياً، ومع ان ولاية نان ـ تشاو (وهي من التاي) كانت قد قبست المدنية الصينية والنظم الاميراطورية الصينية، فان هذا هو الذي مكن لها من تنظيم امورها وصد الصين. وفي سنة ٧٥٥ ثار ان لو ـ شان (وهو قائد تركي) ولم تخمد ثورته إلا في سنة ٧٦٣، وكانت اثارها مخربة كثيرا. والارقام الموجودة بين ايدينا تدلنا على ان سكان الصين في سنة ٧٦٤ كانوا اقل من ثلث ما كانوا عليه سنة ٧٥٤.

٥٤ــ العالـم الاسلامي ٧٥٠ــ ٩٤٥

إن ثورة سنة ٧٥٠ غيرت ماهية الدولة الاسلامية. فقد كانت هذه الدولة، من سنة ٦٣٣ الى سنة ٧٥٠، فترة « سيادة » لفئة اسلامية عربية ذات امتيازات خاصة بها، وكانت تسيطر على اعداد كبيرة من الرعايا غير المسلمين واعداد اصغر، لكنها تتزايد كمّا، من الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب. وهذه « السيادة » العربية الاسلامية حلّ محلها الآن « سيادة » اسلامية، التي كانت لا تزال اقلية عدداً، وكانت لا تزال تتمتع بامتيازات خاصة، إلا انها اصبحت جماعة من المسلمين بقطع النظر عن العرق او القومية. وقد كانت هذه « الامة »، من حيث امكاناتها، مسكونية. وكانت نضم جميع سكان الدولة الاسلامية، بل البشرية جمعاء. وازاحة « السيادة » العربية (٧٥٠) ثُبت في سنة ٨١٣، لما استولى المأمون (وقد عهد اليه ابوه الرشيد بالجزء الايراني من الامبراطورية) على الجزء الذي كان حصة اخيه الأمين (وقد عهد الرشيد به اليه، وهو الذي كان يقيم فيه اكثر العرب من سكان الامبراطورية).

والثمن الذي دفعته الدولة الاسلامية لقاء وضع حد لهوية الامة الاسلامية عربياً، كان تحوّل الحكومة الى اوتوقراطية من النوع الفارسي الساساني. كان يغلب على العرب الميل الى الفوضى وكان هذا يصدق لا على العرب البدو الرعاة فحسب، بل على المستقرين من سكان الواحات في الجزيرة العربية، وعلى « الامصار » التي قام فيها العرب المنتصرون. يدعو المؤرخ اليوناني ثيوفانوس (كتب حوالي سنة ٨١٠ـ ٨١٣) رأس الدولة الاسلامية « رئيس المجلس ». هذا الوصف ينطبق على الخلفاء الراشدين؛ ولم يكن خلفاؤهم الامويون اوتوقراطيين في علاقاتهم مع جماعاتهم من العرب، اذ ان قوتهم السياسية والحربية كانت تعتمد على تأييد العرب لهم. ومن الممكن للعرب ان يتحزبوا وان يحسوا بالاذى، لذلك كان على معاوية وخلفائه ان يعاملوا العرب في غاية

الحذر. فانتفاض « السيادة » العربية اراح العباسيين من مثل هذا التقيد في ممارستهم لسلطتهم. والمسلمون من غير العرب نالوا حظهم من المساواة بالعرب بالقياس الى غير المسلمين، لكنهم لم يرثوا درجة الحظوة التي كانت للعرب مع الامويين.

واللغة العربية لم يؤثر فيها ما اصاب الشعب العربي من تدني المنزلة. فقد ظلت اللغة العربية ايام العباسيين لغة الدولة الاسلامية للشؤون الادارية، كما انها استمرت لغة الشعر. وهذا الشعر، مثل النحو، اسهم فيه عرب وغير عرب. والمأمون (حكم ٨١٣- ٨٣٣) اعتمد على الايرانيين مصدراً لتأييده سياسياً وحربيا، لكنه شجع ترجمة الاعمال الفلسفية والعلمية اليونانية الى العربية. وقد نقل بعضها من اليونانية رأسا، ونقل عدد اكبر عن ترجمات سريانية (نقلت عن اليونانية اصلا). لقد ارغم موظفي الدولة الاسلامية من غير العرب ان يكونوا ثنائي اللغة، وذلك قبل نهاية القرن السابع. ومن هذا الصنف الذي زود المترجمين في القرن التاسع. وكانت حران (الرها) في الجزيرة الفراتية احد السبل الذي تم عليه النقل. ففي هذه المدينة كانت بقايا هيلينية (تعود الى ما قبل المسيحية وما قبل الاسلام) للديانة البابلية محتفظة هناك بتعاليمها الى القرن التاسع. والسبيل الآخر هو جند يشابور في خوزستان (عربستان). أنشأ جند يشابور الامبراطور الساساني شابور الاول (حكم ٢٤١- ٢٧٢) لتكون مسكنا للاسرى الذين حملهم من سورية. لكنها اصبحت فيما بعد مركزا لمدرسة الطب النسطورية.

ودفق الترجمة من السريانية واليونانية الى العربية في القرن التاسع يدل على انه كان هناك قراء مثقفون نشطون. وتركزت هذه الحركة في بغداد التي كانت تقع على مسافة قصيرة من اكتيسفون (المدائن) عاصمة الساسانيين السياسية السابقة وعاصمة الغرثيين قبلهم. وانشئت بغداد سنة ٧٦٢ عاصمة للخلافة العباسية، واصبحت مدينة « عالمية »، على نحو ما كانت عليه تشانغ ـ آن (في الصين) في مدة المئة والخمسين سنة السابقة. وتطوير اللغة العربية في المصهر الفكري في بغداد في القرن التاسع جعل منها الالة التي اصبحت اللغة الحضارية الشائعة للعالم الاسلامي بكامله من حوض سيحون وجيحون الى المحيط الاطلسي.

اخذت العربية تحل محل لغات اخرى كانت قائمة في الامبراطورية الاسلامية، لتصبح لغة التخاطب. لكن في هذا المجال لم تنجح العربية في أن تحل محل الفارسية. فالفرس احتفظوا بلغتهم لكنهم كتبوها بالالف باء العربية، واثروها بكلمات

اخذت من العربية. وهذه اللغة الجديدة اصبحت فيما بعد اداة للتعبير عن ادب عظيم. وقد كان أيسر على العربية ان تحل مع الزمن محل اختها السامية اللغة السريانية التي كانت لغة التخاطب في الريف في الهلال الخصيب ايام الفتح العربي. وانتشرت العربية تدريجا على حساب اللغة القبطية في مصر، وبسرعة اكبر في شمال غرب افريقية على حساب بعض اللهجات البربرية. لقد كان البربر متخلفين نسبياً، ومن ثم فقد قبلوا اللغة العربية والاسلام. وفلاحو الهلال الخصيب ومصر الذين حافظوا خلال الفترة التي نتحدث عنها الآن (اي من ٧٥٠ الى ٩٤٥) على المسيحية، فان انتشار العربية فيما بينهم كان قليلا نسبياً.

ومما حفز النشاط العقلي في المجتمع الاسلامي الحاجة الى تزويد الاسلام بالادوات العقلية التي كانت ملكا للأديان التي يتبعها غير المسلمين من رعايا الامبراطورية. فقد كان من الواضح ان الاسلام كان بحاجة الى منظومات قانونية ولاهوتية تتناسب مع الدور القيادي للجماعة في امبراطورية كانت موطنا لعدد من الفلسفات القديمة والناضجة.

كانت الشريعة من اول الامور اللازمة للمجتمع. وكان لا بد من التعمق في درس القرآن الكريم والحديث النبوي لتوضيح الامرين وتصنيف المادة الموجودة فيهما، وملء الفراغات الممكنة على قاعدة القياس والافادة من العرف والعادة المحلّين، اللذين كانا، في احيان كثيرة (فيما كان جزءاً من الامبراطورية الرومانية) تعديلا محليا للقانون الروماني. وفيما بين ٧٥٠ و ٩٠٠ جمع الحديث وصنف وقامت المذاهب الاربعة. وقد كانت هذه كلها مقبولة، ومن ثم فان اختيار اي من المذاهب الاربعة امر متروك للجماعة نفسها.

كان من الطبيعي ان يتأثر الفكر الاسلامي بما كان في البلاد المفتوحة من لاهوت مسيحي، وبما نقل عن اليونان من فلسفة. لكن وضوح فكرة الوحدانية في الاسلام لم تكن لتسمح للذي حدث في المسيحية من وجوب عقد مجامع مسكونية لصوغ عقيدة او قانون للايمان. والفكرة التي اثارت مشكلات لارتباطها بالحياة السياسية كانت قضية « خلق القرآن » (في ايام المأمون). اما القضية الفلسفية العامة التي نظر فيها الفيلسوفان اللذان ظهرا في المئة سنة المنتهية بسنة ٩٤٥ هي التوفيق بين الاسلام والفلسفة اليونانية. اما الفيلسوفان فهما الكندي (توفي ٨٧٣) والفارابي (توفي ٩٥٠).

إن ثورة ٧٥٠ رافقها امران: الارل توقف التوسع العربي عن طريق الفتح، والثاني انها كانت بدء النهاية بالنسبة للوحدة السياسية للدولة. ففي عصر الدولة الاموية، على ما كان بين الزعامة من تناحر، استمر العرب في توسيع رقعة الامبراطورية فتحاً حتى قاربت شمس الدولة على المغيب. لكن العباسيين لم يتسلموا حتى الامبراطورية نفسها كاملة. ففي سنة ٧٥٦ نجح عبد الرحمن لداخل في تكتيل العرب في الاندلس حوله (وكانوا قد رفضوا قبول الدولة العباسية اصلا). وبين ٧٥٧ و ٧٨٦ قامت ثلاث دول من الخوارج في بلاد البربر في الجزائر وفي سفوح الاطلس الجنوبية. وفي سنة ٧٨٨ قامت امارة علوية (الادارسة) في شمال المغرب (فاس). وقامت دولة الاغالبة في تونس في سنة ٨٠٠، والتي ظلت تعترف بولاء اسمي للخلافة العباسية حتى حلت الخلافة الفاطمية مكانها (٩٠٩) وهي التي كانت تنكر على العباسيين شرعيتهم (في الخلافة) واملت ان تحل محلهم في العالم الاسلامي بكامله.

وقد كانت الفتن الدينية والسياسية في الممتلكات الايرانية اشد أذى على الخلافة العباسية، بسبب ان ايران كانت مصدر قوتها. ان الايرانيين لم يجدوا في الزرادشتية ما يشفي الغليل، فتحول البعض منهم الى المانوية والمزدكية. وقد كان الايرانيون، على العموم، اسرع في اعتناق الاسلام من معاصريهم من المسيحيين. وكان ابو مسلم اليد اليمنى للعباسيين في وصولهم الى السلطة. ويبدو ان باغتيال ابي مسلم على يد المنصور (حكم ٧٥٤- ٧٧٥) بدت بوادر التذمر الايراني، وقامت سلسلة من حوادث العصيان (في السنوات ٧٥٥/ ٧٥٦، و ٧٦٦- ٧٦٨ و ٧٧٧ و ٧٨٣/ ٤- ثورة المقنع). وبابك الخرمي قاد ثورة في غرب ايران من ٨١٦ الى ٨٣٨. وكانت ثمة ثورة الزنج (٨٦٩- ٨٨٣) في الحوض الادنى للرافدين. وقد انتشر الاسلام الشيعي في ايران بين جبال البرز والساحل الجنوبي لبحر قزوين، مع ان المنطقة لم يفتحها العرب، وحكمتها اسرة شيعية (زيدية) من ٨٦٤ حتى ٩٢٨. وفي سنة ٨٣٢ (وما تلاها) تغلب البويهيون (من شمال غرب ايران اصلا) على غرب ايران، وفي سنة ٩٤٥ احتلوا بغداد واتخذوا من الخلافة العباسية اداة طيعة لاغراضهم.

منذ ان تولى المعتصم الخلافة (حكم ٨٣٣- ٨٤٢) والعباسيون ادوات طيعة في ايدي الجند الرقيق التركي، وهم الذين خلفوا الخراسانيين الذين يسروا للعباسيين الوصول الى الخلافة. (وكان الاتراك، بالرغم من زوال دولتهم في السهوب الاوراسية،

لا يزالون يسيطرون على تلك السهوب). والجند الرقيق التركي كان سنيا في مذهبه. والسامانيون (وهم ايرانيون) الذين حكموا طخارستان وما وراء النهر وخراسان كانوا متحدرين من زرادشتيين اعتنقوا الاسلام السني، وكانوا حريصين على ان يعترفوا بالسيادة الاسمية للخلافة. اما البويهيون الذين دخلوا بغداد (٩٤٥) فكانوا شيعة، وبذلك اتضح ان سلطة الخلافة لم تعد تشمل عالم السنة. وكان هذا الامر قد برز عمليا لما اعلن عبد الرحمن الناصر الأموي نفسه خليفة في الاندلس (٩٢٩). وهكذا فقد كان في وقت واحد خليفتان سنيان وخليفة فاطمي ـ كل يحكم جزءا من الامبراطورية الاسلامية.

في الفترة الممتدة من سنة ٧٥٠ـ ٩٤٥ كانت الانتصارات الاسلامية هي من صنع الدويلات الاسلامية في المغرب او من صنع المغامرين (الاستثناء الوحيد هو انتصار العرب على الصينيين في معركة نهر طلس سنة ٧٥١). الدولة الاموية في الاندلس اخذت تتقلص مساحة. ففي سنة ٨٠٣ خسرت ما كان بيدها شمال جبال البيرانيه وقطلونيا الى جنوب الجبال نفسها. إلا ان بعض مسلمي الاندلس الذين اخرجوا منها بعد ثورة الربض، انتزعوا كريت (٨٢٦ او ٨٢٧) من الامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي السنوات ٨٢٧ـ ٩٠٢ انتزع الاغالبة صقلية (باستثناء حصن واحد فيها) من الامبراطورية نفسها. وانحلال امبراطورية شارلمان في القرن التاسع مكّن العرب في اسبانية وصقلية من القيام بحملات بحرية ضد ايطالية. وقد تمكنوا من احتلال اجزاء مختلفة من البلاد.

وفي اواسط اسية لم يتراجع الاسلام؛ على العكس فقد انتشر. ففي ايام الخليفة المقتدر (٩٠٨ـ ٩٣٢)، حين كانت الخلافة العباسية على اضعف ما يكون، بعث بلغار الفولغا (وهم شعب تركي كان يقيم عند ملتقى الفولغا بكاما) الى الخليفة يطلبون منه ان يبعث اليهم من يفقههم بالدين الاسلامي. وقد ارسل الخليفة بعثة اليهم (٩٢٢). وقد اعتنق القارلق (وهم اتراك) الاسلام من جيرانهم في ما وراء النهر ـ وهم السامانيون. وانتشر القارلق الى حوض تاريم وحملوا الاسلام معهم. وهكذا فيما كانت الدولة الاسلامية الواحدة تتمزق، كان الناس يدخلون في الاسلام افواجاً ـ على كل اكثر مما كانوا يعتنقونه ودولته واحدة قوية.

٥٥ـ مدنية البزنطيين ٧٣٦ـ ٩٢٧/ ٩٢٨

إذا قيست الامبراطورية البزنطية (التي قاومت حصار العرب لعاصمتها مرتين (٦٧٤ـ ٦٧٨ و ٧١٧ـ ٧١٨) بجارتها الجنوبية الامبراطورية العربية الاسلامية او بامبراطورية شارلمان (حكم ٧٦٨ـ ٨١٤) بدت ذات رقعة صغيرة. وظلت الامبراطورية الكارولنجية جارة البزنطيين الشمالية الغربية الى انحلال الامبراطورية خلال القرن التاسع. وكانت الدولة البزنطية حذرة في سياستها الخارجية (بين ٧١٩ و ٩٢٥). وقد كانت محاولة الامبراطورة ايريني (٧٨٨) لاخراج الفرنك من لومبارديا فاشلة ـ وكانت هذه مغامرة لا تتفق مع السياسة الخارجية العامة.

خلال الفترة المذكورة حصرت حكومة الامبراطورية الشرقية همها في تتبع هدفين: اولهما الاحتفاظ بما كانت لا تزال تسيطر عليه من الممتلكات، وثانيهما ضم « المستوطنات الصقلبية » التي قامت داخل البلقان التي كان باستطاعتها انقاذها من البلغاريين. وقد كانت الحروب مع البلغار العبء الاكبر على مصادر القتال في الامبراطورية الشرقية. وبعد ان استولى المسلمون على كريت (٨٢٦ او ٨٢٧)، وقامت تحصينات كنديا كأنها خنجر موجه الى قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية، قامت هذه بمحاولات متكررة لاسترداد الجزيرة. كما ان الامبراطورية الشرقية ناهضت احتلال الاغالبة لصقلية (٨٢٧ـ ٩٠٢) ولكن دون جدوى. ولما احتل المسلمون الصقليون راغوزا اسرع الامبراطور باسيل (حكم ٨٦٧ـ ٨٨٦) فضم ابوليا الى الامبراطورية (٨٦٨ـ ٨٧٦).

هذه كانت سياسة الدفاع التي انتهجتها الامبراطورية الرومانية الشرقية. فقد كان شغل الامبراطورية الشاغل ان تحصل على « عازل » يمنع الاتصال بين المسلمين في شمال غرب افريقية وصقلية في الجهة الواحدة وبين البلغار في الجهة الثانية، عبر البحر

الادرياتيكي. وتبدو السياسة الحذرة التي اتبعتها الامبراطورية الشرقية في ان الحملة التي فقد فيها امير ملطية قواته (٨٦٣)، لم تتلها حملة بزنطية، وانما جاءت هذه سنة ٩٢٦، اي بعد ثلاث وستين سنة. والحملة الوحيدة التي ارسلتها الامبراطورية الشرقية في هذه الفترة كانت ضد المسيحيين البولسيين الذين اقاموا لهم حصنا في تفريكه (دفريجي)، والذين دامت الحرب بينهم وبين الامبراطورية الشرقية من حوالي سنة ٨٤٣ الى حوالي سنة ٨٧٨.

كانت الحروب البلغارية اشد واكثر جدية. فقد عجز الامبراطور قسطنطين الخامس عن تدمير البلغار في حروب امتدت من ٧٥٥ الى ٧٧٥. وكانت الخصومة تدور حول الاستيلاء على « المستوطنات الصقلبية ». وبعد حروب طويلة حددت الحدود (٩٠٤) فمرت حدود البلغار على مسافة ٢٢ كيلو مترا عن تسالونيكا (سلانيك) - وهذه كانت مدينة بالغة الاهمية للامبراطورية الشرقية.

شغلت الامبراطورية الرومانية الشرقية، بين سنة ٧٢٦ وسنة ٨٤٣ بما عرف بمشكلة الايقونات. فمن المعروف ان الخلفة الاموي يزيد (حكم ٧٢٠- ٧٢٤) امر بتحطيم الايقونات في جميع الكنائس المسيحية في الدولة العربية. وفي سنة ٧٢٦ اصدر ليو الثالث الامبراطور البزنطي، امرا شبيها بذلك. وذلك بناء على طلب جنود الحاميات في اسية الصغرى. إلا ان الرعايا التابعين لكنيسة رومه (وهؤلاء كان بينهم يومها سكان جزر الارخبيل وكريت وبعض سكان بلاد اليونان القارية) قاوموا الامر بشدة، فردت حكومة الامبراطورية الشرقية بان نقلت الرعايا اليونان هؤلاء من اسقفية رومه الى اسقفية القسطنطينية.

في سنة ٨٤٣ انتهى هذا النزاع داخل الامبراطورية الرومانية الشرقية الى حل وسط كان في صالح محبي الصور. فقد تقرر ان تحرّم التمثيل لانها ثلاثية الابعاد ويحتفظ بالصور الثنائية الابعاد، لا على انها اشياء للعبادة بالذات، بل على انها رموز لما تمثل من اناس او ملائكة او حتى اشخاص الهية. وقد انهى هذا الحل الخصومة القائمة بين بطريركيتي القسطنطينية وروما، اذ ان رعايا البابا لم يجمعوا على تأييده. وفي سنة ٧٨٧ ايد المجمع المسكوني السابع (المنعقد في نيقية) موقف الامبراطورية الرومانية الشرقية، كما ان البابا وافق على مقرراته. لكن مجمعا شمل اساقفة الامبراطورية الكارولنجية انعقد في فرانكفورت (٧٩٤) ندد بالقرارت المذكورة.

وقد تلا انتهاء الصراع الداخلي في المسيحية الارثوذكسية الشرقية، نهضة ثقافية كان محركها الروحي فوتيوس (بطريرك القسطنطينية ٨٥٨- ٨٦٧ و ٨٧٧- ٨٨٦). وقد وسع نطاق الاشعاع البزنطي العمل الذي قام به المبشران الاخوان: قسطنطين - سيريل واخوه ميثوديوس. وكانت البعثة الاولى التي قام بها قسطنطين الى الخزر. وهم شعب تركي كان من رعايا دولة تركية قامت في السهوب، التي كانت اكثر دولة متمدنة ظهرت في الطرف الغربي للسهوب الاوراسية منذ زوال امبراطورية السكيثين (في القرن الثالث قبل الميلاد). وقد كان الخزر حلفاء قدماء للامبراطورية الرومانية الشرقية في حروبها ضد الفرس والعرب. وفي سنة ٨٦٠ (وهي السنة التي وصل فيها قسطنطين الى خازاريا) تعرض الحلفاء القدماء (اي الامبراطورية الرومانية الشرقية) لهجوم اسوجي، اذ هاجمت عمارة بحرية القسطنطينية جاءتها من روسيا. ومع ذلك فان بعثة قسطنطين الى الخزر كانت فاشلة. ففي سنة ٨٦٠ كانت اسرة خاقان الخزر قد التزمت باليهودية (وقد اعتنقوا هذه الديانة لانها لم تورطهم في خضم السياسة الذي كان يمكن ان يغوصوا فيه فيما لو اعتنقوا الدين الذي كان قائماً اما في الامبراطورية الرومانية الشرقية - المسيحية - او في الخلافة العباسية - الاسلام). وفي سنة ٨٦٣ لبى الاخوان، قسطنطين - سيريل وميثوديوس، دعوة حاكم مورافيا الكبرى الصقلبية (في تشيكوسلوفاكيا وهنغاريا الحاليتين) فذهبا الى هذا البلد الصقلبي النائي، حاملين معهما الف باء كان قسطنطين - سيريل قد وضعها لتدوين اللهجة الصقلبية في البلاد الواقعة خلف تسالونيكا.

كانت مورافيا الكبرى تابعة، بما لا يقبل الشك، لاسقفية رومه. وقد كان الاخوان ايضا مواليين للباباوية، وقد وافقت الباباوية على عملهما. لكن الكنيسة الفرنكية كانت مخاصمة لهذا العمل، اذ انها فسرته على انه عمل سياسي القصد من ورائه الاعتداء على املاك امبراطورية الفرنك من قبل الامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي هذا التاريخ كانت الامبراطورية الفرنكية في دور الانحلال، لكن الكنيسة الفرنكية لم تكن كذلك، وكانت تتبع سياسة خاصة بها، كانت تصطدم مع سياسة اسقفية رومه. وقد نجحت الكنيسة الفرنكية (سنة ٨٨٥) في القضاء على عمل البعثة الصقلبية المورافية، بحيث اصبح بقية رجال الدين منها لاجئين. (كان قسطنطين سيريل قد توفي سنة ٨٦٩ وتوفي

اخوه سنة ٨٨٥). وقد وصل بعض هؤلاء اللاجئين الى بلغاريا، وعثروا هنا على مجال للعمل التبشيري.

في سنة ٨٦٣ تبدل الموقف في الحروب التي كانت تدور رحاها على الحدود العربية - البزنطية في آسية الصغرى، وذلك لمصلحة البزنطيين. وتبع ذلك (٨٦٤) اعتناق البلغار للمسيحية الارثوذكسية الشرقية. وفي سنة ٨٧٠ اكد خان البلغار بوريس ميخائيل ولاءه لاسقفية القسطنطينية، بعد ان جرب فيما اذا كان ولاؤه لاسقفية رومه كان يسيء الى استقلال بلغاريا سياسياً. ولما كان بطريرك القسطنطينية من رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية سياسيا، فقد يفسر الولاء لسيادة هذا البطريرك كنسيا، على انه قبول بالسيادة السياسية للامبراطورية. واذ رحب بوريس (٨٨٥) برجال الدين الصقالبة الميول، تمكن من بناء كنيسة بلغارية وطنية دون ان يؤوي رجال دين من الاجانب - اما من الناطقين باليونانية او من الناطقين باللاتينية.

اصبحت اللغة الصقلبية الآن لغة بلغاريا الوطنية اذ ان توسع بلغاريا جنوبا في غرب زاد عدد السكان المتكلمين باللغة الصقلبية (تحت حكم مؤسسي بلغاريا الاوائل وهم من الاتراك). وبعد سنة ٨٨٥ وضعت الف باء جديدة (تعرف خطأ باسم الالف باء السيريلية) كانت ابسط من الالف باء التي وضعها قسطنطين - سيريل. واللهجة الصقلبية (التي استعملت في الاجزاء المصاقبة داخليا لسالونيكا) اصبحت لغة الطقس الديني لا عند البلغار فحسب، بل عند الصقلبيين الذين اعتنقوا المسيحية الارثوذكسية الشرقية فيما بعد، وحتى لبعض الصقلبيين الذين اعتنقوا المسيحية الرومانية في دلماشيا.

إن اعتناق بلغاريا للمسيحية ادى الى توتر موقت في العلاقات بين القسطنطينية ورومه. لكن وصول الكهنة اللاجئين من مورافيا الكبرى الى بلغاريا(٨٨٥) ختم على ولاء بلغاريا للارثوذكسية الشرقية على الصيغة الخلقدونية.

وسنة ٨٦٣ التي عرفت القضاء على حملة امير ملطية على يد الامبراطور ميخائيل الثالث والتي وصل فيها قسطنطين - سيريل وميثوديوس مورافيا الكبرى، شهدت احياء جامعة القسطنطينية. فالابن الثاني لخان بوريس خان سيمون (الخليفة الثاني) كان قد تلقى علومه في القسطنطينية. وقد اسرته الثقافة اليونانية البزنطية. وحاول ان يضم بلغاريا والامبراطورية الرومانية الشرقية تحت حكمه (لان لعرش الامبراطوري تولاه ولد سنة ٩١٣). لكنه فشل في الوصول الى ذلك بالاسلوب الدبلوماسي اولا، وعن طريق حرب

استمرت من سنة ٩١٣ الى سنة ٩٢٧ (السنة التي توفي فيها سيمون). وظلت اسية الصغرى بعيدة عنه، ولم ينجح في الاستيلاء على اي من المدن الساحلية.

سويت الامور بين رومانوس (امبراطور القسطنطينية) وخلفاء سيمون. وفي سنة ٩٢٦ بدأ حملته ضد العرب في بلاد الشام. لكن الشتاء القاسي (٩٢٦/ ٩٢٧) قلب موازين القوى في السياسة الداخلية - في الامبراطورية الرومانية الشرقية - بين الفلاحين وكبار الملاكين والحكومة الامبراطورية. إن السنوات ٩٢٦- ٩٢٩ كانت فترة لها اثرها في الامبراطورية.

٥٦ـ المسيحية الغربية ٧٥٦ـ ٩١١

كان المستقبل يبدو باسما بالنسبة الى مملكة الفرنك في سنة ٧٥٦. فقد كان الملك، بيبين الثالث، حصل على اعتراف بانه الملك الشرعي بديلا عن الملك الميروفنجي المخلوع. وفي السنة ذاتها كان بيبين قد قاد حملتين مظفرتين ضد لومبارديا وحمل ملكها على قبول شروطه لاحلال السلم. وفي تلك السنة ايضاً اقام عبد الرحمن الداخل امارة اموية في الاندلس مستقلة عن الدولة العربية الاسلامية. وفي سنة ٧٦٨ خلف ابنا بيبين شارل وكارلومان والدهما عى العرش، ولكن الثاني توفي سنة ٧٧١، فاصبح شارلمان سيد المملكة مع حرية التصرف.

في ٧٧٣- ٧٧٤ ضم شارلمان لومبارديا الى ممتلكاته، ووضع منطقة رافنًا، التي احتلت باسم البابابوية، تحت اشرافه. وقد قبل الايطاليون الشماليون الوحدة السياسية مع الفرنك (٧٧٣- ٧٧٤). فالفرنك واللومبارديون هم ابناء عم، وكان الأولون قد اصبحوا كاثوليكا (خلال القرن السابع) وبذلك توحد الفريقان مذهبيا. ورعايا اللومبارديين من الذين كانوا رعايا الرومان هم ابناء عم لرعايا الفرنك المشاكلين لهم من حيث التبعية السابقة للرومان. ومع ان السكسون، جيران الفرنك الى الشمال، كانوا ابناء عم للفرنك، فقد قاوموا احتلال الفرنك لبلادهم. وصرف شارلمان نحو ثلث قرن (٧٧٢- ٨٠٤) حتى فتح سكسونيا. على ان المهم هو ان شارلمان اثقل كاهل الشعب والبلاد بسبب الحروب التي شنها والتي كانت على جبهات اربع: ضد سكسونيا وضد العرب في اسبانية وضد الباسك والبريتون (في المنطقة بين فرنسة واسبانية) وضد الافار في سهوب هنغاريا (هنا كان البلغار حلفاء شارلمان في القضاء على الافار). وقد فتح سكسونيا نهائياً، وكذلك ارغمها على اعتناق المسيحية. إلا ان شارلمان كان يثير الجيران الابعدين في محاولاته احتلال بلاد الاقربين. فاحتلال

سكسونيا، مثلا، اثار حفيظة الدانيمركيين، ولعله كان احد الدوافع للتفجر السكاني الاسكندنافي (راجع الفصل التالي).

ومن أهم الاحداث في حياة شارلمان كان ان توّجه البابا ليو الثالث « امبراطورا للرومان » وذلك في كندرائية القديس بطرس في رومة يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠. ليس ثمة ما يبين تماماً فيما اذا كان هذا العمل قد تم بمعرفة مسبقة من شارلمان، ولكن من المؤكد ان تقبل شارلمان للقب الامبراطوري وضع على كاهله عبئا دبلوماسيا ضخما. فمنزلته كانت معرضة دوما للخطر ما دام امبراطور القسطنطينية الروماني لا يعترف به امبراطوراً. وامبراطور القسطنطينية كان لا ترقى ريبة الى حقه في المنصب. وقد كان ثمن هذا الاعتراف حل جميع القضايا المعلقة بين الدولتين، وعلى شروط الامبراطورية الشرقية. وقد تمت المفاوضات في ٨١١ - ٨١٢، ووفق عليها سنة ٨١٤، بعد وفاة شارلمان.

كان احياء اسم الامبراطورية الرومانية الغربية (وهي مؤسسة كان قد انتهى امرها) امرا اسهل بكثير من احيائها في الواقع. ولم يكن عند شارلمان من المتعلمين، واصحاب الخبرة ما يكفي لادارة امبراطوريته الواسعة. واشرافه الرئيس على امبراطوريته جاء من مؤسسة المفتشين المتنقلين الذين كانوا يطلعونه على الشؤون المحلية فيها ولكن هذا كان صالحا ما دامت الامبراطورية قائمة تحت اشراف سياسي موحد وبادارة رجل نشيط محترم. وقد جاء شارلمان من نورثمبريا رجل من رجال الكنيسة هو ألكوين. والكوين كان من اهل العلم والخبرة والمقدرة. وكان شارلمان محظوظا لان اباه وجده من قبل كانا حاكمين قديرين (وكانت وفاة اخيه كارلومان نعمة سياسية للرجل). لكن ابنه وخليفته، لويس التقي، عجزا عن ضبط الامور. وكان الكارولنجيون قد ورثوا عن الميروفنجيين الترتيب الخطر وهو قسمة الامبراطورية بين ابناء الملك بعد وفاته، كما لو كانت ملكا شخصيا. ففي سنة ٨٤٣ قسمت الامبراطورية بين ابناء لويس التقي الثلاثة. ومع ان توحيدها اعيد في ايام شارل السمين (٨٨١ - ٨٨٨) فان هذا لم يكن ناجعا. وقد استمرت الاسرة الكارولنجية في فرانسيا الغربية (اي فرنسة) حتى سنة ٩٨٧. إلا ان هؤلاء الملوك لم يكونوا افضل من الملوك الميروفنجيين.

قبل ان ينتهي القرن التاسع كان الموظفون المحليون الذين كان مفتشو شارلمان

يراقبونهم قد اصبحوا في الواقع حكاما بالوراثة، كما عادت الى البابا سلطته على الاملاك البابوية في ايطالية. ولم يتمكن لا الحكام المحليون ولا اسيادهم الكارولنجيون من صد الهجمات البحرية الاسكندنافية، التي كانت قد اذهلت شارلمان نفسه. وفي القرن التاسع كان ثمة تنافس بين المهاجمين البحريين الاسكندنافيين واولئك القادمين من شمال غرب افريقية في مهاجمة سواحل الامبراطورية الكارولنجية المتفسخة. وقد فشل المهاجمون من افريقية مرتين (٨٤٦ و ٨٤٩) في احتلال رومه (على نحو ما فعل الفندال سنة ٤٥٥). ومع ان لوثر كان الامبراطور المشرف على رومه اسميا (بحسب تقسيم سنة ٨٤٣) فان البابا ليو الرابع هو الذي انقذ رومه اذ حصن (٨٤٩) ارباضها للدفاع عن المدينة.

ظهر، بعد سنة ٨٩٦، منافس جديد للهجمات البحرية الاسكندنافية والاسلامية ـ هم المجر، الذين كانوا سادة الفرس في هجومهم. (وكان المجر قد ملأوا الفراغ الذي احدثه القضاء على الافار في سهوب هنغاريا).

كانت الغزوات البربرية الشمالية التي جاءت اوروبة في القرنين التاسع والعاشر اكبر اثراً، بالنسبة الى المسيحية الغربية، من تلك التي جاءت في القرنين الخامس والسادس. إن احياء شارلمان للامبراطورية الغربية اكسبها بريقا خلب لب هؤلاء البرابرة، فانقضوا عليها. وفي سنة ٩١١ اضطر شارل البسيط، ملك فرنسة، الى السماح لجماعة من اهل البحر الاسكندنافيين ان يستقروا نهائياً في المنطقة المعروفة اليوم باسم نورماندي، على شريطة ان يعتنقوا المسيحية. ويبدو ان العمل الحضاري الذي قام به شارلمان كان اثبت على الزمن من محاولته بناء امبراطورية. فقد اسرت المدينة التي هبط الاسكندنافيون في ارضها قسرا، هؤلاء القادمين الجدد، فاخذوا انفسهم بتعلم اللغة والتدرب على العادات والآداب المحلية، وقبلوا المسيحية ـ كل ذلك فعلوه بحماس.

في سنة ٩١٠ انشىء دير في كلوني في برغنديا: وهي منطقة تكون نقطة جغرافية مهمته بالنسبة لشبكة المواصلات التي كانت تربط اجزاء العالم المسيحي الغربي. كان انشاء دير كلوني على يد احد خلفاء الكارولنجيين المحليين. (وفي هذه البقعة كان القديس كولومبانوس الارلندي قد انشأ ديرا في لوكسيل قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون).

كان الانتاج في كل من نورماندي وكلوني بطيئا. ولم يكن ثمة من يمكن ان يرى،

في الوقت الذي تم فيه قيامهما، ان ذلك كان نقطة تحول بالنسبة الى المسيحية الغربية. فقد كانت هذه المسيحية في النصف الاول من القرن العاشر في ادنى ما وصلت اليه. وخلال المئة سنة التي تلت اخذ النورمان والكلونيون يظهرون ان المسيحية الغربية كانت تنهض من الوضع الذي اوصلتها اليه سياسة شارلمان الطموحية.

٥٧ـ الاسكندنافيون ٧٩٣ـ ١٠٠٠

جاء التفجر السكاني الاسكندنافي (٧٩٣ م) مفاجئا وعنيفا وكانت اسبابه مما يمكن تقصيه. وقد كانت المناسبة المباشرة لذلك حربا كبرى خارج حدود هؤلاء البرابرة. وقد خلفت المتقاتلين مضنين، ومن ثم اصبحوا فريسة مغرية لمهاجميهم، كما كان الباعث الخفي هو الصراع الدائم بين الهمجية والمدنية.

كانت اسكندنافيا قد استوطن فيها الانسان منذ نهاية العصر الجليدي. فقد تبع قناصو العصر الحجري المتأخر تراجع الجليد حتى استقروا فى البلاد الاسكندنافية. وقبل ان تغرب شمس الالف الثالث قبل الميلاد كان طليعو الثورة الزراعية في الشمال الغربي من اوروبة قد أخذوا يستغلون التربة الخصبة في الدانيمرك وفي جنوب السويد. ولما بدأ تفجر الفيكنغ في التاريخ المذكور، كان جنوب اسكندنافيا قد مرت عليه ثلاثة الاف سنة على الاقل وهو موطن سكان زراعيين مستقرين. ومع انه كانت ثمة هجرات من اسكندنافيا خلال القرنين الاخيرين قبل الميلاد، فان هذا التفجر السابق، مثله مثل تفجر ٩٧٣- ١٠٦٦، كان فصلا استثنائيا في التاريخ الاسكندنافي . وفي الوقت نفسه كان تأثير انسياب موجات من الحضارة الارفع من الجنوب الى اسكندنافيا تراكميا. وكانت التقلبات في علاقات الشعوب الاسكندنافية مع مدنيات الجنوب مزعجة سيكولوجيا بالنسبة الى الاسكندنافيين. وقد بلغت هذه الحالة حدها بسبب تغلب شارلمان على السكسون المقيمين في القارة. ووضع هذا الفتح الحدود الشمالية للمسيحية الغربية في حالة تماس مباشر مع اسكندنافيا.

ومع ان اغسطوس تخلى (١٤م) عن محاولته لايصال حدود الامبراطورية الرومانية الى خط نهر إلبه، فان المدنية اليونانية ـ الرومانية اثرت جديا في الاسكندنافيين خلال القرون الثلاثة الاولى للميلاد. وقد تعطل هذا الاتصال الثقافي في القرن الخامس لما

قضى انسياح الشعوب الجرمانية الشرقية والفرنك على الامبراطورية الرومانية في الغرب. وعندها عزل السكسون الاسكندنافيين عن الدول الجرمانية المسيحية التي خلفت الامبراطورية في الغرب، وحموهم منها. ولكن لما غلب الفرنك السكسون، وفرضوا عليهم المسيحية، وجد الاسكندنافيون انفسهم فجأة على اتصال مباشر مع مدنية جنوبية، وكانت هذه اقرب اليهم من ذي قبل. ويبدو التأثير الذي تركه شخص شارلمان على عقول الاسكندنافيين في شيوع استعمال ماغنوس (ومعناها الكبير) كاسم للرجال في تلك الديار.

كان رد الفعل الاسكندنافي لهذه التجربة المقلقة عدوانيا، وامتد اعتداؤهم الى منطقة واسعة. ففي سنة ٨٨٠ وصل الغزاة السويديون الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين، بعد ان جازوا بحر البلطق وصعدوا في نهر نيفا وانتقلوا عبر خط تقسيم المياه ليسيروا مع نهر الفولغا. وبين حول ٩٨٧ و ١٠٢٥ تمكن المستوطنون الاسكندنافيون من الاستيلاء على موطىء قدم على الساحل الشمالي الشرقي لاميركا الشمالية. وقد هبطوا المكان من غرينلاند، حيث كانوا قد احتلوا الساحل الغربي للجزيرة (٩٨٥- ٩٨٦) آتين من ايسلاندا، وهذه كان قد استقر فيها النورسيون حوالي ٨٧٤. وسكان فنلاند وغرينلاند من الاسكندنافيين هم، على التأكيد، اول الجماعات البشرية المعروفة التي وصلت اميركا من العالم القديم عبر المحيط الاطلسي.

كانت نهايات المتجولين الاسكندنافيين في عصر الفيكنغ مختلفة. فقد كان ثمة غزاة لم يرموا الى الاستيطان في مكان ما. وكان اثر هؤلاء سلبيا، بالنسبة الى الذين هاجموهم. لكن الغزاة انفسهم تأثروا بالتجربة التي غامروا فيها، وبالقيمة الاقتصادية والثقافية لما حملوه من الاسلاب. فقد اصابت النكبة، اول ما اصابت، الاديرة المسيحية التي كانت تقوم على سواحل امبراطورية شارلمان وسواحل بريطانية. وكان ثمة مستوطنون في الأراضي المسيحية الغربية الذين سمح لهم بالاقامة في مقابل قبولهم بالمسيحية - مثل الاستيطان في نورمانديا (٩١١). وكان الاستيطان في انكلترا (دان لو) قد تم في سنة ٨٧٨، وذلك بالاتفاق مع الملك الفرد. وقد فرض المستوطنون الاسكندنافيون انفسهم على سواحل ارلندا دون قيد او شرط، لكنهم انتهوا بان قبلوا المسيحية. واستوطن اسكندنافيون غير اولئك في مناطق كانت مأهولة بالسكان، لكن السكان كانوا لا يزالون على الوثنية. وكان اهم مجموعة من هؤلاء هم الذين استقروا

في روسيا. فقد تمثلهم لغويا رعاياهم الناطقون باللغة السلافية، وقبلوا المسيحية الارثوذكسية الشرقية على ايدي الذين قهروهم من اهل الامبراطورية الشرقية. واخيراً كان هناك الذين استقروا في ارض خلاء ـ غرينلاند. اما ايسلاندا فقد سبقهم اليها رهبان ارلنديون مسيحيون. واما في فنلندا فقد لقوا سكان البلاد الاصليين الذين يبدو انهم اخرجوهم من البلاد قسراً.

ولم يكن لا المسيحيون ولا المسلمون في العالم القديم انداداً عسكريين لمهاجميهم. فقد قبل « الفرد » ان يسمح للمهاجمين ان يستقروا على شروط قبلها شارل البسيط بعد ذلك بثلاث وثلاثين سنة. وكانت خطة المسيحيين ان يروضوا الاسكندنافيين عن طريق نشر المسيحية بينهم. والمبشرون المسيحيون كانوا جاهزين وشجعانا ونشيطين.

كانت اقدم غزوة مدونة للفيكنغ على ساحل امبراطورية شارلمان في سنة ٧٩٩. وقد عُمِّد الملك هارالد، المطالب بعرش الدانيمرك سنة ٨٢٦، واخذ معه مبشرا عمل في نشر المسيحية في الدانيمرك سنتين، اذ اخرج هارالد، وذهب المبشر (القديس أنسكر) الى السويد، وسنة ٨٣١ اصبح رئيس اساقفة همبورغ. ولما نهب الفيكنغ همبورغ (٨٤٥) نقلت رئاسة الاسقفية الى بريمن، واصبحت اسكندنافيا تابعة لاسقفية همبورغ - بريمن.

كان رد فعل الكنيسة في الامبراطورية الشرقية على غزوات الفيكنغ يتسم بطابع المغامرة مثل عمل الفرنك. فقد هاجم الفيكنغ الروس القسطنطينية سنة ٨٦٠، فكان جواب الامبراطورية الشرقية تعيين اسقف ارثوذكسي شرقي (٨٦٧) في كييف وجعله رئيس اساقفة (٨٧٤). وكييف كانت نقطة انطلاق عمليات المهاجمين ضد الامبراطورية. وقد زارت اميرة كييف، اولغا، القسطنطينية (٩٥٧). ومع ان ابنها رفض الدين الجديد، فان الجماعة المسيحية في كييف استمرت. ولما اعتنق فلاديمير المسيحية الارثوذكسية (٩٨٩) تزوج اخت الامبراطور البزنطي.

ملك الدانيمرك اعتنق الكاثوليكية الرومانية (٩٧٤) لما انعقد الصلح بينه وبين الامبراطور (الجرماني) اوتو الثاني. والملك اولاف (حكم ٩٩٥- ١٠٠٠) فرض المسيحية الكاثوليكية الرومانية على النروج. وقد لقيت المحاولة مقاومة عنيفة، كما حدث لما فرضت المسيحية ذاتها في السويد. ومع ذلك فان الايسلانديين اعتنقوا

المسيحية جماعة (١٠٠٠) وذلك رغبة منهم في تحقيق وحدة سياسية لجمهوريتهم الفتية.

وكانت الجماعة الايسلاندية، بين الجماعات الاسكندنافية التي اقامت لنفسها مستوطنات في الخارج، في عصر الفيكنغ، ابرزها ثقافة واحفظها لها. فهي التي حافظت على ديوان الشعر الاسكندنافي لما قبل المسيحية. وابطال الملاحم وبطلاتها، يعودون الى ما قبل المسيحية، اي الى الجيل الذي تقبل الدين الجديد. على ان هذا الادب وصلنا على ما دونه كتاب مسيحيون (من القرنين الثاني عشر والثالث عشر). وقد ظهر في النروج اسلوب شعري جديد. وكان الايسلانديون والنروجيون ابرز الشعوب الاسكندنافية ثقافة في عصر الفيكنغ. ومن الناحية السياسية فقد كان للسويد اثر اعمق واثبت على الزمن بالنسبة لتاريخ العالم. فالسويد ـ الروس الذين استقروا في كييف ونوفغورود هم الذين صنعوا روسيا. ولما قبلت روسيا المسيحية الارثوذكسية (٩٨٩)، اصبحت المسيحية الغربية محدودة بالنسبة الى المسيحية الارثوذكسية الشرقية. وهذه انتشر حولها الاسلام لما اعتنقه بلغاريو الفولغا (قبل ٩٢٢). إلا ان روسيا كانت اثقل وزنا، ومن ثم فان اعتناقها المسيحية الشرقية الارثوذكسية فتح امام هذه الطريق الى شواطىء المحيط المتجمد الشمالي والى سواحل المحيط الهادي.

٥٨ـ الهند وجنوب شرق اسية ٦٤٧ـ ١٢٠٢

في سنة ٦٤٧، وهي تاريخ وفاة الامبراطور هرشا، كانت المدنية الهندية قد اظهرت مقدرة رائعة في تمثلها الاجانب القادمين الى البلاد. فالآريون انفسهم الذين هاجموا البلاد والذين فرضوا انفسهم ولغتهم على الشمال، والذين عملوا، منذ الالف الثاني قبل الميلاد، على نشر مؤسساتهم عبر شبه القارة لم يسلموا من الاسر الثقافي الذي كان للمتغلبين عليهم من قبلهم. ومثل هذا القدر كان نصيب الفاتحين المتالين الذين جاءوا الهند من الشمال الغربي - مثل اليونان الذين تغلبوا على امبراطورية ماوريا المضطربة، والهون العتاة الذين قضوا على امبراطورية غبتا. فقد كان يونانيون قد اعتنقوا البوذية والديانة الهندوية. والهون قد دمجوا في المجتمع الهندي اذ قبلوا في « طبقة » الكشاترية. وفي السباق بين المدنيتين الهندية والصينية للسيطرة الثقافية على جنوب شرق اسية القاري اندونيسيا اسرت المدنية الهندية الرقعة الواسعة باكملها باستثناء ما هو اليوم شمال فيتنام. وفي التنافس بين المدنيتين للاستيلاء على التيبت ثقافياً (خلال النصف الاول من القرن السابع للميلاد) كانت المدنية الهندية هي الرابحة مرة ثانية. وقد كان اكبر انتصار ثقافي للمدنية الهندية كان نشر ديانة هندية، هي البوذية الماهايانية، في الصين بالذات، وعبر الصين، في كوريا وفي اليابان.

وقد كان المسلمون هم اول جماعة من الجماعات التي هاجمت الهند، التي لم تتمكن المدنية الهندية من تمثلها. فقد اعتنق بوذيون وهندوين الاسلام، لكن لم يكن ثمة مسلمون ممن اعتنقوا البوذية او الهندوية. وقد ثبت الاسلام اقدامه في شبه القارة كعنصر مسيطر سياسياً، وظل غريباً عن البلاد، لانه لم يكن مما يمكن تمثله حضارياً. وهذه المسيرة الجديدة لهجوم اجنبي كسر طوق الوحدة الدينية والثقافية لحياة الهند، وهذا الكسر غيّر مساق التاريخ الهندي. صحيح ان الهندوية اظهرت قدرة على البقاء

اكبر مما كان للزرادشتية والمسيحية. ودخول الجماعات في الاسلام اقتصر على مناطق تغلب عليها طبقات معينة من السكان الهندويين. وقد وجد الفاتحون المسلمون انه من المناسب ان يعاملوا الهندويين الذين لم يقبلوا الاسلام كأنهم « اهل كتاب » مع ان الهندويين كانوا مشركين، او،اذا لم يكونوا مشركين فهم على الاقل من الاحديين. ومن ثم فالهندويون لم يكن لهم ان يعاملوا بالتسامح، اذا طبقت الشريعة تماماً. ولكن في هذه الحال كان لا بد من التسامح لان السكان الهندويين كانوا كثرة ومتمدنين ولا يمكن الاستغناء عنهم.

تم للمسلمين فتح حوض جمنا ـ الكنج والبنغال في مدة اقصاها عشر سنوات (١١٩٢ـ ١٢٠٢). وقد كانت مسيرة الفتح هنا اسرع منها في جنوب غرب اسية في القرن السابع. ومع ذلك فان الضربة التي اصابت الهند في اواخر القرن الثاني عشر لم تكن مستغربة. ان الاكثر غرابة في الامر هو ان القسم الاكبر من شبه القارة لم يفتحه المسلمون من قبل. وفي الفترة بين ٦٤٧ و ١١٩٢ كانت الهند، ومعها الجزء الأكبر من جنوب شرق اسية القاري واندونسيا ايضاً، ظلت يتقاسمها عدد كبير من الدول الصغيرة، كانت تضيع جهودها سدى في اقتتال مستمر لا ينتهي الى نصر قط، وكان يؤدي دوما الى تردي الوحدة السياسية وانتشار الفوضى في العالم الهندي. وحتى محاولات الوقوف صفا واحدا امام هجوم المسلمين (٩٩١ و ١٠٠١ و ١١٩١ـ ١١٩٢) كانت تتعثر في اللحظة الاخيرة، فلا تقوى على تجنب الانكسار. والدول الهندوية لم تستجب للاحتلال الاسلامي المستمر للاراضي الهندية باقامة اتحاد سياسي ولا حتى في اطار اقليمي. ومع ذلك فان الفتوحات الاسلامية كانت هينة بشكل واضح.

في سنة ٧١١ كان حوض السند الادنى، بما في ذلك الملتان قد احتلته الدولة الأموية. وكان من الصعب الاحتفاظ بهذا الجزء المعزول، على الارض الهندية، امام هجمة هندية جدية؛ ومع ذلك فان المسلمين لم يُخرجوا منه. وقد استولى سبكتيجين، امير غزنة، على مركز قرب بشاور، فيما وراء المخرج الشرقي لممر خيبر، اذ انتصر (٩٩١) على اتحاد موقت لملوك هندويين. وجاء خليفته محمود فانتصر (١٠٠١) ووسع الحدود الى لاهور. وضم محمود ايضاً الجزء الاسلامي الذي كان قد احتل من قبل في حوض السند من الملتان جنوبا الى الساحل. ثم قام بحملات في حوض

جمنا ـ الكنج وفي غوجرات (١١٠١ـ ١١٢٤). وكان هذا مقدمة لفتح ما تبقى من شمال الهند الذي قام به الغوريون (الذين انتزعوا الامر من الغزنويين). وهؤلاء هم قبائل من افغانستان الحالية كانوا قد اسلموا سنه ١٠١٠ على يد محمود الغزنوي لما احتل بلادهم.

سهل فتح الاراضي الهندية تدريجا على ايدي المسلمين ما كان بين خصومهم الهنود من نزاع. ففي الشمال كانت قبائل راجبوت واسرة بالا تقتتل باستمرار الى ان قضى المسلمون عليها. ومع ان التشولا، في الدكن، كانوا على وشك توحيد العالم الهندي سياسيا (٩٨٣ـ ١٠٣٥)، اذ انهم وضعوا تحت نفوذهم جنوب شرق الهند وضموا كالنغا وتوسعوا في سيلان (سري لانكا) وجزر الملديف واندمان ونيكوبار وفي جزء من سومطرا وشبه جزيرة الملايو، الا ان هذه الامبراطورية انهارت (١٢١٦) واصبحت الاجزاء الجنوبية من الهند، بعد ذلك، ميدانا مفتوحا امام المسلمين الذين اصبحوا (اعتبارا من ١٢٠٢) سادة الجزء الشمالي باكمله.

وفي اندونيسيا حيل بين امبراطورية سيرفيجايا وتوحيد البلاد سياسيا بسبب قيام اسر محلية في انحاء الجزر.

وكان جنوب شرق اسية القاري قد تعرض منذ القرن الثاني للميلاد لغزو حضاري، ديني وفني، من الغرب وغزو عنصري من الشمال. وكان هؤلاء الغزاة قد وقعوا اسرى نفوذ حضاري من الهند. اما شمال فيتنام فقد وقعت تحت نفوذ الصين الحضاري.

والتاريخ السياسي والعسكري للمدنية الهندية هو قصة مزعجة. لكننا عندما ننتقل الى المستوى الديني لمدنية الهند في هذه الفترة نجد امامنا تاريخا حريا بالعناية. والظاهرة الواضحة هي تراجع البوذية في حدود شبه القارة. وكانت مملكة بالا في البنغال الموقع الحصين للبوذية. لكن لما احتل الغوريون المسلمون البنغال كان في ذلك نهاية البوذية هناك (١١٩٩ او ١٢٠٢). ولان البوذية كانت تجتاز دور تأخر خلال قرون ستة أو سبعة، ومن ثم فانها لم تستطع الصمود، فدمرت اديرتها.اما الجاينية فقد ظلت قائمة في الهند، لكنها كانت دوما محدودة الانتشار. وظلت البوذية متمركزة في سيلان على ايدي رهبان من اتباع البوذية الترافادينية. وقد تم للاقلية المسلمة الغريبة عن البلاد (مع ان عدد المسلمين زاد بسبب اعتناق بعض الهنود للاسلام) ان تحكم الهند. وهكذا فقد حدث لاول مرة في تاريخ الهند ان البلاد والمجتمع عجزا عن تمثل هؤلاء

القادمين حضاريا. وتم للحكام ولرعايا الدول المحلية المتحاربة، انجاز الكثير من المستويين الديني والفني في الهند وفي جنوب شرق آسية.

فمملكة بالا نشرت الماهايانا ليس في التيبت (القرن السابع) فحسب، بل في جاوة (القرن الثامن). ومع ان الماهانية لا تقوم لها قائمة في جاوة الآن، فانها خلفت اثاراً ثابتة لوجودها السابق، وبشكل خاص في الحياة الفنية (اساطير ودينا)، وذلك في بوروبودور بشكل خاص. ومملكة كمبوديا (من القرن السادس حتى سبعينات القرن الحالي) تركت اثارا ضخمة في البناء. فالهيكل الذي بناه الملك سوريافارما الثاني (١١١٣- ١١٤٥) يمكنه ان يقارن بالبارثنون الذي اقيم في اثينا (القرن الخامس قبل الميلاد). وفي جنوب الهند صنع الجاين ما صنعه البوذيون في اواسط جاوة (في بوروبودور). ففي سرافانا بلغولا تغلب اهل الفن حتى على الطبيعة. فقد ازيلت قمة جبل لاظهار تمثال لبطل روحي (ني سرافانا بلغولا). والتمثال هو جزء من الجبل. وهنا الاثر هو الجمال بعينه، الا ان الاثر الذي يتركه في نفس الزائر لا يضاهيه اثر آخر. واسرة تشولا حرصت على ان تبلغ العظمة الفنية لبناء الهياكل مداها.

والشخصيتان الاعظم اثرا، وقد عاشتا في الهند، كانتا من الفلاسفة. فشنكرا (حوالي ٧٨٨- ٨٣٨) ورامانوجا (ولد حول ١٠٢٨) كانا من اهل الجنوب. فالاول جاء من كارالا، والثاني كان من التاميل، الا ان مجال عملهما كان شبه القارة باكمله. ومع انه في ايامهما كانت ثمة حواجز اجتماعية بين الطبقات، فانه لم يكن ثمة حواجز جغرافية تحد من نشاط الحكماء والقلبيين، كما ان الحواجز اللغوية لم تحصرهما في نطاق محدود.

وقد اهتم الرجلان بسؤال مهم (كان السؤال قد طرح في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد): ما هي طبيعة الحقيقة الروحية في المظاهر التي تقع عليها العين وفي ما وراءها؟ وما هي العلاقة بين هذه الحقيقة والانسان ؟ لقد كان شنكرا من القائلين بالأحدية دون هوادة. كان يقول بان الكائن البشري مطابق تماماً للحقيقة المطلقة، وان العالم الظاهر هو خداع. فاذا كانت الحقيقة هي فعلا كما يراها القائل بالأحدية، فان الفردية، ومن ثم الشخصية يجب اعتبارها من الظواهر الخداعة. فالحقيقة الاحدية الكاملة لا تتسع لا لاله شخصي، ولا لتابع مؤمن لاله شخصي. وقد انتقد

رامانوجا فلسفة شنكرا، اذ انه كان يقبل فكرة أحدية معدّلة بحيث تسمح للكائن البشري المسمى رامانوجا ان يشعر بايمان شخصي للاله فشنو.

فلسفة شنكرا تقبل الماورائية (للطبيعة) التي ارتآها البوذيون الماهايانيون وكان فيها تحد لبوذا الذي رفض التأمل الماورائي (للطبيعة). ومع وجود خلاف بين الفيلسوفين فانهما كانا يتفقان في انهما كانا يمثلان رد فعل هندوياً ضد البوذية. الا ان اياً من هذين الفيلسوفين النيوهندويين كان باستطاعته ان يشن حرباً ضد البوذية، لولا ان البوذية هذه قد زودتهما بالذريعة العقلية لمحاربتها.

٥٩ـ شرق اسية ٧٦٣ـ ١١٢٦

ان المدنية الصينية، وحتى اسرة تانغ، تغلبت على فترة الفوضى الخانقة التي مرت بها الصين بين ستي ٧٥٥ و ٧٦٣. وكان للخدمة المدنية التي اعتمدت الامتحان في الكلاسيكيات الكونفوشية اساسا لاختيار الموظفين، دور كبير في ذلك. وقد اعادت اسرة سوي مؤسسة الخدمة المدنية الى ما كانت عليه من قبل. وهذه المؤسسة بما كان لافرادها من الحفاظ على روح الجماعة وطموح هؤلاء الافراد قوّاها تأسيس اكاديمية هان ـ لين. فالخدمة المدنية متنت المجتمع الصيني وكان ثمن ذلك ان اصبح هذا المجتمع ممتنعا على الاصلاح والانحلال على السواء.

كان احد اسباب سقوط حكم تانغ انهيار نظام الضرائب الذي كان قائماً منذ القرن الخامس. فبموجب هذا النظام منحت الحكومة الامبراطورية قطعا من الارض للفلاحين وفرضت عليهم مقابل ذلك، ضرائب شخصية واعمال سخرة. الا انه بدءا من سنة ٧٨٠ اصبحت الضريبة تفرض على الارض لا على الشخص. وقد عجزت الحكومة عن حماية ارض الفلاح من ان تنتقل الى كبار الملاكين. وقد ساءت حال الفلاحين الاقتصادية فاصبحوا مستأجرين، ولكن الحكومة لم تخسر حصتها من الضرائب.

كانت الارض التي يملكها الملاكون صغيرة المساحة في معدلها، ومن ثم فان الحكومة استطاعت ان ترغمهم على دفع ما يطلب منهم. والملاكون اصبحوا الآن هم انفسهم الموظفين الكونفوشيين، وكانوا يعتمدون على المرتبات التي يتقاضونها من العمل الحكومي. ومن هنا جاءت سيطرة الحكومة على الملاك ـ المدبرين.

كان الموظفون الكونفوشيون والطاويون، والجماعتان كانتا من المتفلسفين والمحجوبين، يرون من مصلحتهم اضعاف القوة والثروة اللتين كانتا قد اجتمعتا في ايدي الاديرة البوذية في الصين منذ فترة الهجمات البربرية والتصدع السياسي (٣٠٤ـ ٥٨٩).

ولم تكن الكونفوشية الصينية، فيما سبق العهد البوذي، كفؤا للبوذية الماهايانية عقلياً، لكن الجيل الذي عقب نكبة ٧٥٥- ٧٦٣ انتج اول ممثلين للفلسفة الكونفوشية الجديدة: هان يو (٧٦٨- ٨٢٤) ومعاصره لي او (توفي حوالي ٨٤٤). وهذان، مثل معاصرهما الهندوي شنكرا، كانا شبه بوذيين. لقد انعشا الكونفوشية بتلقيحها ببذور ماهايانية مستمرة من كتاب مينشيوس وفصل من كتاب الطقوس. وبذلك اخذت الصين تستقل روحيا عن المؤسسات البوذية. وفي السنوات ٨٤٢- ٨٤٥ اخذت الحكومة الامبراطورية بوجهة نظر النقد الذي تقدم به الكونفوشيون والطاويون لتلك المؤسسات على اسس اقتصادية واجتماعية. وقد جرد رجال الدين ونساؤه من البوذيين من ثيابهم الكهنوتية باعداد كبيرة، واصبحوا اشخاصا عاديين يتوجب عليهم دفع الضرائب الحكومية، كما صودرت املاك الاديرة البوذية.

لكن هذا الاضطهاد لم يقض على البوذية في الصين. ذلك بان البوذية ارتبطت تماماً بالكونفوشية والطاوية لا على المستوى العالي فحسب، بل على المستوى الشعبي - بل انها كانت هنا اقوى ارتباطا. وظلت، وهي في ثوبها الكونفوشي والطاوي، ذات نفوذ روحي وفكري كبير في المجتمع الصيني. وبهذه المناسبة فان الاضطهاد الذي وقع بالبوذية (في الصين) لم يقتصر عليها - فان المانوية والزرادشتية والمسيحية النسطورية تعرضت لمثله، ولم تتغلب عليه، بل قضي عليها. وعلى كل، فان اثر ذلك في المجتمع الصيني، اقتصاديا واجتماعيا، كان ضئيلا، لان اتباع هذه الديانات كانوا قلة واملاكها كانت قليلة الاهمية.

كان للمانوية حرمة في الصين بسبب انها الديانة التي اعتنقها الترك اليوغور، الذين كانوا قد اعانوا اسرة تانغ في محنتها (٧٧٥- ٧٦٣). الا ان اليوغور اخرجهم الكرغيز من اراضيهم في السهوب الاروامية فاقصوا الى الصين وحوض تاريم (٨٤٠). وفي سنة ٨٤٢ اخذت الحكومة الامبراطورية الصينية باضطهاد المانوية.

دام زمن اضطراب اسرة تانغ من ٧٦٣ الى ٨٧٤. وقد خلف الشاعر الصيني بو تشو - اي (٧٧٢- ٨٤٦) والسائح الياباني (زار الصين ٨٣٨- ٨٤٧) وصفا للاضطهاد الذي مني به البوذيون وغيرهم، ولكنهما، مع ذلك، يتحدثان عن حكم قدير انساني في الصين. لكن الاصلاحات التي كانت رد نعل لنكبة ٧٧٥- ٧٦٣، لم تحل دون انحلال اسرة تانغ. ومع ان اسرة تانغ انتهت سنة ٩٠٩، واسرة سو (خليفتها) لم

تتسلم الحكم الا سنة ٩٦٠، فان فترة انعدام الحكم امتدت من ٨٧٤ الى ٩٧٩. ولما اعيدت الى الامبراطورية وحدتها، كانت قد خسرت بعض الاطراف.

فقد انتزع منها شعب الخيطان المغولي (من شعوب السهوب الاوراسية) الذي كان قد اقام اه دولة سيلا (في كوريا) ست عشرة ولاية حدودية جنوبي شرقي سور الصين الكبير (١٠٠٤). وفي سنة ١٠٣٨ انتزع التانغوت (وهم تبتيون) بعض الولايات ايضاً. كما انفصلت عن الصين (٩٣٩) فيتنام الشمالية.

كان موحدو الصين من اسرة سونغ في حيرة من امرهم. كان عليهم ان يحموا البلاد من نفوذ كبار الملاكين واطماعهم، وقد نجحوا في ذلك لكنهم اضعفوا قوة الصين الحربية امام جيرانهم من البرابرة. والاصلاح الذي كانت البلاد بحاجة ماسة اليه جاءها على يد موظف هو وانغ ان ـ شيه (١٠٢١- ١٠٨٦) الذي ادخل (١٠٦٩- ١٠٧٦) اصلاحات جذرية هي التي حافظت على الدولة اثناء حكم الامبراطور شن تسونغ (١٠٦٧- ١٠٨٥). ولكن لما توفي الامبراطور الغيت اصلاحات وانغ باجمعها، مع انها كانت العلاج الشافي لعلة الصين الاجتماعية.

كان السبب الرئيسي لفشل وانغ ان ـ شيه انه كان صاحب فكر حر ثاقب، وكانت الجماعة التي يعمل بينها محافظة، فتأذت من ارائه ونفرت من حرية فكره. لكن يبدو ان تصرف وانغ ان ـ شيه نفسه كان فيه ما يثير. فالوزير الذي ألغى قوانينه كان المؤرخ سوما ـ كوانغ، وهو، على رصانته وعلمه، اثارته تصرفات وانغ.

كان وانغ آن ـ شيه يرى ان التعليم المعتمد على الكلاسيكيات الكونفوشية (التي كان التلميذ يحفظها ليرضي الفاحص الرسمي) لا قيمة له في تهيئة الموظف للعمل الذي يقوم به. وكان وانغ يرى ضرورة وضع تفسير جديد للكلاسيكيات واصلاح نظام الامتحان. ولو ان الامبراطور شن تسونغ عاش مدة اطول لعلّ اصلاحات وانغ كان يمكن ان تثمر. وعلى كل فقد كان على وانغ ان يعمل مع زملاء هم من نتاج الفلسفة القديمة، ومع ذلك فقد نجح في تنفيذ بعض خططه. فقد رتب للفلاحين قروضا من الحكومة بفائدة اقل بكثير مما كان يتقاضاها المرابون. ومنع السخرة ودفع لهؤلاء العمال اجرا حصّله من الملاكين من ضرائب فرضت على اساس المحصول لا المساحة. وحمّل كبار الملاكين قسماً كبيراً من الاجر المطلوب للعمال. هذه الترتيبات

كانت احياءً لما قامت به اسرة تانغ بعد ٧٦٣، واقامة لميليشيا الفلاحية كان احياء لعمل قامت به اسرة سُوي لما وحّدت الصين.

جاءت اصلاحات وانغ ان - شيه في وقتها، وكان الغزوها على اسس شخصية ضارا بالصين. وظهر اثره خلال اربعين سنة، اذ خسرت امبراطورية سونغ القسم الشمالي من الصين الواقع شمالي حوض يانكتسي.

كان تاريخ الصين الحربي والسياسي بين ٧٥٥ و ١١٢٦ قصة مصائب. لم تنقذ البلادَ لا اصلاحات ٧٨٠ الكونفوشية الجديدة ولا ١٠٦٩- ٧٦ (وانغ ان - شيه). اما على المستوى الحضاري فان تاريخ الصين في هذ العصر هو قصة انجازات. ان برابرة القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر اسرتهم المدنية الصينية، فاقبلوا عليها يقبسونها وينشرونها في البلاد الواقعة تحت نفوذهم، وهم الذين لم يدخلوا، اطار الامبراطورية الصينية قط. وهكذا فان تقلص الامبراطورية الصينية عادله انتشار المدنية الصينية - ولم يتم هذا في الدول - الخليفة المصاقبة للصين فحسب، بل في كوريا واليابان ايضاً.

كانت المدنية الصينية في هذا العصر متعددة الابعاد والنواحي، ولذلك كانت اكثر جاذبية. فالفلسفة الكونفوشية الجديدة قام بنشرها الاخوان تشينغ - هاو (١٠٣٢- ٨٥) وتشينغ يي (١٠٣٣- ١١٠٨) وكانا معاصرين لوانغ ان - شيه.

تشنغ - يي انزل الكلاسيكيات القديمة من مكانها (باستثناء فصلين من كتاب الطقوس هما العلم الكبير و « معتقد الوسط » وجعل مكانها، بالاضافة الى الفصلين، كتاب منشيوس و « الاجابة ». وهذه اصبحت الاساس للامتحانات لاختيار موظفي الحكومة. ومع ان الميتافيزيقية فيها اعطت الكونفوشية بعدا جديداً، فانها لم تعط لا الطلاب ولا الفاحصين ولا المديرين الفرصة للتفكير الحر.

ولم يكن صينيو عصر تانغ وسونغ اسرى ماضيهم في الفنون. فقد تقبل الصينيون الفن المنظور اليوناني - الهندي الذي جاء البلاد مع الماهايانية، وجعلوا منه فناً صينياً مميزاً، وطوروا اصنافاً خاصة بهم. فقد وصل رسم المناظر الطبيعية (الارض وما عليها) القمة في عصر سونغ، والخزف الملون والقيشاني ايضاً بلغا الغاية، وكانا فنيين وطنيين اصليين. وطبع الكتب على قوالب كان من انجازات عصر تانغ. ولعلَّ اعمال بوتشو - إي السقرية طبعت (٨٠٠- ٨١٠) في ايامه. وقد كن مما شجع على طبع الكتب هو

الطلب الكبير على الكتب امقدسة عند البوذيين الماهايانيين - طلب من العامة ومن الرهبان - والكتب الكونفوشية اللازمة للامتحانات الرسمية. وقد نشرت اكاديمية هان - لين نسخة مطبوعة من الكلاسيكيات الكونفوشية مع شروحها في ١٣٠ مجلداً بين ٩٣٢ و ٩٥٣، وهو زمن كانت الصين تعاني فيه اضطراباً سياسياً كبيراً. والكتب الدينية للمهايانية والطاوية نشرت في طبعات شملت بضعة الاف من المجلدات او اللفات، وقد تم طبعها في السنوات الستين الاولى من عصر اسرة سونغ. وصُدرت مجموعات من هذه الى كوريا وإلى اليابان.

إن البارود الذي اخترع في القرن السادس لاستعماله في الألعاب النارية، اصبح، في القرن الثاني عشر، يستعمل في الحروب. وكانت الخطوة الاولى في الملاحة والتجارة البحرية تمت على ايدي الهنود والعرب. ولما قام الثوار الصينيون بنهب كنتون (٨٧٩) كان فيها جماعة كبيرة من رجال الاعمال الاجانب الذين خسروا من جراء ذلك، خسارة كبيرة. ومع ذلك فالتجارة مع العالمين الهندي والاسلامي توقفت مؤقتا. وقد كان للصينيين دور متزايد النشاط في ذلك. واصبح ساحل جنوب الصين باب الصين الامامي، وحل محل قانصو (لما ضمت الصين هذا الجزء الى امبراطوريتها كانت تعتبره آخر الدنيا). واصبح المحيط اكبر اغراء بالتجارة من السهوب الاوراسية على ما كان فيها من اغراء، وحل مكانها طريق يصل الصين بأويكومين العالم القديم.

عمت الفوضى سيلا، الدولة الكورية التابعة للصين، لكن مدتها كانت اقصر منها في الصين (٨٨٩ - ٩٣٦) وعادت الى كوريا وحدتها السياسية على يد اسرة كوريو (قامت ٩١٨)

اما اليابان فقد نسخت النظام الصيني من اسرة تانغ. لكن اليابان لم يكن فيها العدد الكافي من المتعلمين للحصول على الموظفين اللازمين للادارة، ولذلك اصبح حكام الولايات تقريبا امراء وراثيين على نحو ما آل اليه الامر في امبراطورية شارلمان المعاصرة لها.

وعلى كل فقد تمتعت اليابان بحقبة من السلم دامت نحو قرنين ونصف القرن بعد سنة ٦٤٦، تم خلالها للمدنية الصينية ان تتجذر في اليابان ببوذيتها الماهايانية التي وان كان اليابانيون قد عجزوا عن قبولها كما هي، فانهم قولبوها بحيث اصبحت شيئاً يابانيا، كما فعل الصينيون بالبوذية التي كانوا قد استوردوها من الهند.

ومما تم في هذه الفترة نشوء اشارات كتابية يابانية من نوع الفونيم، منقولة عن الاشارات الصينية (الفكرية). ومع ان الاولى استعملت، فان الاشارات الصينية استمر استعمالها، في كتابة اليابانية، لانها كانت اوضح دلالة، صوتا ومعنى، بالنسبة الى الكلمات التي استعارتها اليابانية من الصينية. ومع ما كان في هذا النوع من الكتابة من تعقيد فقد دونت فيه في القرن الحادي عشر آداب يابانية رائعة لعل اجملها قصة غنجي (من وضع السيدة موراساكي شيكيبوا).

وهكذا فلم تهل سنة ١١٢٦ حتى كانت الصين قد اصبحت المملكة المتوسطة، لنصف العالم تقريباً، وكانت تحيط بها دول تابعة كانت كل منها قد تبنت المدنية الصينية، لكن جعلت منها « نوعاً » متميزاً يناسبها، ولو انها ظلت في الاطار العام للحضارة الصينية في شرق اسية. (كان الصينيون يعتقدون قبلاً ان العالم ليس فيه سوى مدنيتهم). يضاف الى ذلك ان شرق اسية اصبح الآن على اتصال باجزاء اخرى من اويكومين العالم القديم، واخذ يتفاعل معها. فديانة هندية الاصل، مثل البوذية الماهايانية، انتشرت عبر الصين الى اليابان وكوريا وشمال فيتنام، واصبحت اقطار شرق اسية باجمعها على اتصال بجنوب شرق اسية وبالهند وبالعالم الاسلامي، برا وبحرا.

٦٠ـ مدنيات ميزو اميركا والاندز حوالي ٩٠٠ـ ١٤٢٨

ثمة اتفاق بين علماء الآثار فيما يتعلق بتأريخ الاحداث الميزو ـ اميركية على اساس سنوات التاريخ الميلادي، واختلاف فيما يخص تأريخ الاحداث في الاندز. وليس ثمة شك فيما يتعلق بتوالي مراحل التاريخ في الاندز، لكن تأريخ الاحداث بالذات (بين حوالي ٤٠٠ ق.م. وحوالي ١٤٣٨م) يختلف حوله الباحثون من حيث الاعتماد على اختبار الاشعاع الكربوني او الاعتماد على توالي الطبقات الاثرية. وقد اخذنا في هذا الكتاب بالقياس الكربوني، لذلك فاننا عالجنا (فصل ٤٨) العصر « المزدهر » من مدنية الأندز على انه انتهى حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد، وان افق تياهوانكو، كان مشرفاً على النهاية حوالي ٩٠٠م (بحسب التأريخ الطبقي الاثري فان افق تياهوانكو كله يقع بين سنتي ١٠٠٠ و ١٣٠٠م)

انتهى العصر الكلاسيكي (حوالي ٣٠٠- ٩٠٠) في عالم ميزو ـ أميركية بالانهيار، اذ هاجمت جماعات بربرية من الصحراء هضبة المكسيك واستولت اولاً على تيوتيهوا كان (حوالي ٦٠٠) ثم على شُلولا (حوالي ٨٠٠) وهدمتهما. والمدنية الميزو ـ اميركية التي قامت في منطقة مايا وبلغت الاوج، تخلى اصحابها عنها خلال القرن التاسع، وفي القرن العاشر جاء البرابرة الى المنطقة، لكنهم لم يكونوا مدمرين مثل الآخرين فقط، بل انهم اقتبسوا من المدنية الميزو ـ اميركية ما مكنهم من صنع نوع خاص بهم من هذه المدنية. وقد كانت عاصمتهم تولا تحتوي ابنية وتماثيل متقنة، ولو ان المدنية لم تصل الى مستوى تيوتيهواكان.

كان هؤلاء البرابرة (وهم التُلْتِك) وخلفاؤهم رجال حرب وقتال (في الفترة التابعة للعصر الكلاسيكي). ولم يكونوا اول اهل حرب في العالم الميزو ـ اميركي. فقد سبقهم الى ذلك الألمك والمايا (القرن التاسع)، لكن الروح العسكرية في الفترة التابعة

للعصر الكلاسيكي سيطرت على الحياة في ميزو - اميركا. وقد شهد الزمن التابع للعصر الكلاسيكي دخول التعدين من عالم الأندز. ووصل هذا الى غرب المكسيك بحراً (لعله من الاكوادور). وكان النحاس، ومن المحتمل البرونز ايضاً، يستعمل لصنع الاسلحة في عالم الاندز. لكن تلاميذهم في العالم الميزو - اميركي لم يقلدوهم، بل انصرفوا الى صنع الحلى الدقيقة من الذهب والفضة. ان الازاتكة لما قابلوا الاسبان في القرن السادس عشر كانوا يستعملون اسلحة مصنوعة من الحجارة والخشب. انه من العجب العجاب ان شعباً كانت له مثل هذه الروح العسكرية كالازاتكة لم يصنع نصولا للسيوف ولا رؤوسا للرماح من المعدن تقليداً لجيرانه وخصومه الترامكان.

دمرت تولا (في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) على نحو ما اصاب سابقاتها شُلولا وتيوتيهواكان ولافنتا وسان لورنزو بطريقة العنف. وقامت دولة في يوكاتان (حوالي ٩٨٧) واستمرت حتى حوالي ١٢٢٤. وفي هذه الدولة كان ثمة مزيج مما عند التُلْتِك والمايا في فن العمارة والفنون المنظورة والديانة والعادات والاخلاق. وروح التُلْدِتِك كان يسيطر عليها تقديم الضحايا البشرية، وكانت عاصمة هذه الدولة الجديدة هي تشيشن. لكن لما انقضى امر بناة هذه الدولة وعاصمتها استولت عليها جماعة الاتزا (من المايا) وانشأ زعيمهم (حوالي ١٢٨٣) دولة اتخذ لها عاصمة جديدة هي مايابان، وهي اقدم مدينة مسورة في منطقة المايا. وقد ظلت عاصمة للدولة حتى حوالي ١٤٦١ اذ تخلى عنها اصحابها بعد خرابها في حرب اهلية.

وكما حدث في عصر التلتك فان مرحلة الاتزا كانت ايضاً زمن تمازج نماذج المايا الحضارية مع عناصر مدنية من الهضبة المكسيكية. وهذه المرحلة من تاريخ الاندز ومدنيتها تقع في المرحلة الزمنية ١٠٠٠ـ ١٤٣٠. ولم يكن عالم الاندز في تلك الاثناء وحدة سياسية او وحدة حضارية. وكان الساحل مقسما سياسيا الى ثلاث دول فقط، فيما كان كل واد، في الفترة السابقة، مركزا لدويلة.

ونحن اذا اردنا مقابلة تاريخ الاندز بالتاريخ الهليني وجدنا ان عصر « الازدهار » في تاريخ الاندز يقابل اربعة قرون من التاريخ الهليني تنتهي سنة ٣٣٤ ق.م. حيث كانت المدينة - الدولة هي القاعدة السياسية الاساسية في العالم الهليني. وفي عصر الازدهار في الاندز بلغت الفنون الذروة في الجودة، على نحو ما تم في الفترة الكلاسيكية في التاريخ الهليني. والدول الساحلية في الاندز التي قامت بعد عصر تياهواناكو، شبيهة

بالدول التي خلفت الامبراطورية التي اقامها المقدونيون بعد القضاء على الامبراطورية الفارسية.

ومدن ساحل الاندز كانت عواصم امبراطوريات ضمت في كل منها اودية متعددة واحدها الى الآخر. وقد تمركز السكان في العاصمة، واعيد تنظيم الري، واساليبه، وحولت المياه من الاودية المتعددة لري الارض القريبة من المدن الآهلة بالسكان. وقد سمى علماء الآثار هذه الفترة بعصر بناء المدن (بسبب ضخامة شنشان، عاصمة شيمو). ولو ان الفخار المصنوع في هذه الفترة كان دون سابقه اتقاناً؛ إلا ان مهارة العصر الفنية كانت تتمثل في صنع الادوات المعدنية.

شنشان كانت صفا من اماكن الاقامة المربعة الشكل يدور بكل منها سور من اللبن. وقد كانت اكبر مدينة في عالم الاندز في عصر بناء المدن (او حتى قبل ذلك وبعده حتى قامت مدنية ليما الحديثة). لكن اقدس مكان تعبدي يعود الى ذلك العصر كان في باشاكامك (كويزمانكو) على اسم الاله الذي كان يعبد هناك. لقد كان باشاكامك الها مسكونيا، وكان بيته يزوره الناس من جميع المناطق.

٦١ـ العالم الاسلامي ٩٤٥ـ ١١١٠

إن احتلال حكام بني بويه لبغداد (٩٤٥)، وهم مؤسسو واحدة من الدول الخليفة بالنسبة للخلافة العباسية، كان دليلا واضحا على ان تفكك الامبراطورية العباسية، الذي كان قد بدأ في القرن التاسع، لا سبيل الى وقفه. ولم تكن الاسرة البويهية الاولى بين الاسر التي سيطرت، واقعا، على جزء من املاك الخلافة، دون ان تستأذن الخليفة في ذلك، لكنها كانت الاولى التي احتلت ولاية الدولة الاولى ـ العراق ـ والتي سيطرت مباشرة على الخلافة بالذات. كان البويهيون ايرانيين من جيلان (الديلم)، وكان تسلطهم على الخلافة العباسية نهاية للعمل المستمر الذي قام به الايرانيون للوصول الى هذه السيطرة السياسية في الدولة الاسلامية على حساب العرب. لقد اظهرت هذه النزعة نفسها في ثورة ٧٤٧ـ ٧٥٠ التي مكنت العباسيين من الوصول الى الخلافة، ثم في انتصار المأمون على الامين (٨١٣). وعلى كل فان البويهيين، فضلا عن كونهم ايرانيين، كانوا شيعة، ويبدو وكأن دخولهم بغداد كان نقضا لعمل الثورة (٧٤٧ـ ٧٥٠) لا اتماماً لها، من ناحيتها الدينية. لما عمل الشيعة للثورة كانوا يأملون في ان يحلوا محل الامويين في الخلافة. لقد خاب فألهم يومها. والآن، وبعد قرنين من الزمان، فان آمالهم المؤجلة بدت وكأنها على طريق التحقيق.

في سنة ٩٠٩ قضي على الدولة الاغلبية في شمال غرب افريقية؛ وقد تم ذلك على يد اسرة متحدرة من علي وفاطمة. كان الاغالبة عرباً وسنيين وكانوا يعترفون للعباسيين بالسيادة اسميا. وكان الفاطميون عربا ايضاً، لكن جنودهم كانوا من بربر كتامة. وكان الفاطميون يطمحون في ان يحلوا محل العباسيين وقد كانت انتصاراتهم انتصارا للبربر وللاسماعيلية (الامامية السبعية) من الفريق الشيعي. وقد جربوا (٩١٤) ان يحتلوا مصر إلا انهم فشلوا، لكنهم نجحوا في ٩٦٩. وخلال ذلك حاول القرامطة (٨٩٠)

وهم جماعة شيعية تتبع الاسماعيلية، ان يقيموا لانفسهم دولة في العراق. وقد اخرجهم العباسيون من الهلال الخصيب لكن القرامطة وجدوا لهم قاعدة آمنة للعمليات في ساحل الجزيرة، في الحسا والبحرين؛ وقاموا من هنا بالهجوم لا على العراق فحسب بل على مكة المكرمة، وحملوا الحجر الاسود من الكعبة (٩٣٠). وكان الزيديون، وهم ايضا فرقة شيعية، الذين حكموا ساحل بحر قزوين في ايران بين ٨٦٤ و ٩٢٨، قد اقاموا لهم دولة ثانية في اليمن (٨٩٧). ووضع الشيعة الاسماعيليون الملتان تحت نفوذهم (٩٧٧) وضموا اليهم جزءاً من السند (٩٨٥). وبدا، حوالي سنة ٩٨٥، ان الاقسام ذات الاهمية التي ظلت تحت سلطان سني قوي هي الدولة السامانية الايرانية في ما وراء النهر وخراسان والخلافة الاموية في شبه جزيرة ايبريا. وبدا يومها وكأن العالم الاسلامي على وشك ان يقسم بين الايرانيين والبربر، وانه في حالة توحيده من جديد، فان الذين سيقومون بذلك هم الفاطميون - من الشيعة الاسماعيلية.

يضاف الى ذلك ان الشيعة الاسماعيلية والايرانيين كانوا يومها في دور الصعود على المستوى الثقافي والسياسي. فالشعار الملحمي الفردوسي (٩٣٤ - ١٠٢٠) والفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) والعالم النبيه البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) كانوا ايرانيين. ومنذ حوالي سنة ٩٧٠ كان اخوان الصفاء، وهم فئة اسماعيلية كانت تقيم في البصرة، قد اخذوا انفسهم بوضع موسوعة (رسائل اخوان الصفا). وفي ٩٧٣ انشأ الفاطميون الاسماعيليون كلية دينية في جامع الأزهر في عاصمتهم الجديدة القاهرة. فمن النظرة العامة كان تمزق الامبراطورية العباسية سياسيا ذا فائدة للادب والفن؛ فتعدد البلاطات المحلية زاد عدد الذين يرعون هذه الامور.

والصيغة الايرانية للحضارة الاسلامية خلدت وجودها في ادب فارسي جديد (فرسي). ولكن قبل ان ينتهي القرن الحادي عشر منيت الامال التي بدت معقولة حول سنة ٩٨٥ بالفشل. ففي سنة ١٠٨٥ كانت الحكومات السنية صاحبة السلطة في جميع انحاء العالم الاسلامي، باستثناء مصر؛ ومع ان مصر كانت لا تزال تحت حكم فاطمي شيعي، فان رعايا الفاطميين من سكان مصر السنة لم يتقبلوا صيغة الحكم. في سنة ١٠٨٥ كانت الاسرة العباسية لا تزال تتولى الخلافة في بغداد. إلا انه اعتباراً من سنة ١٠٥٥ لم يعد سادتها البويهيين الايرانيين الشيعة، بل اصبحوا الآن الاتراك السلاجقة السنة. لقد

حل الاتراك مكان الايرانيين كسادة في كل مكان من الجزء الاسيوي من العالم الاسلامي تقريباً، باستثناء الجزيرة العربية.

لقد فشل الشيعة في اهتبال الفرصة في ٦٥٦- ٦٦١ وفي ٧٤٧- ٧٥٠. وفي ٩٦٩- ١٠٥٥ فشلوا ايضاً. ولم يتعاون الفاطميون والقرامطة معا. فمع ان الفريقين كانا شيعة اسماعيلية كان القرامطة معنيين بتحقيق العدالة الاجتماعية، بينما كان اهتمام الفاطميين الرئيس الدفاع عن حقهم الموروث. فلم يكن بين الفريقين تآلف. اما البويهيون فلم يتعرفوا على كليهما. فقد كان البويهيون شيعة من غير فئة الاسماعيلية. وقد فضلوا ان يكونوا سادة العباسيين على ان يصبحوا تابعين للفاطميين. والشيعة من غير الاسماعيليين اتفقوا فيما بينهم، ومع اكثرية السنة من الامة الاسلامية، في ان يرفضوا حكم الاسماعيلية. واذ امتعض الاسماعيليون من عجزهم عن الوصول الى السيطرة على العالم الاسلامي ردوا على ذلك بان انشأوا (حوالي ١٠٩٠) جمعية سرية - « الحشاسون ». وقد كان من اول ضحاياهم نظام الملك، الوزير الايراني للسلاجقة الاتراك الذين حلوا محل البويهيين.

كان القرنان العاشر والحادي عشر فترة محنة وبلاء بالنسبة لسكان العالم الاسلامي. فتمزق الدولة الاسلامية الواحدة جاء عقبه تحلل في امور النظام والقانون. وقد حسّن حكم البويهيين في بغداد والحكم السلجوقي الذي حل محله الامور بعض الشيء، إلا ان هذا كان محليا وموقتا. وقد تعرض العالم الاسلامي لهجوم فئات مسيحية، وشر من ذلك انه تعرض لهجوم برابرة بدو رعاة كانوا قد اعتنقوا الاسلام اسميا.

فقد استولت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) على كريت (٩٦١) وطرسوس (٩٦٥) وانطاكية (٩٦٩)، وهي السنة التي احتل فيها الفاطميون مصر، ودارت المنافسة بين الرومان الشرقيين (البزنطيين) والفاطميين لامتلاك سورية لمدة مئة سنة، دون ان تنال الواحدة او الاخرى منهما وطرها. واخيراً اخرج كلاهما منها على يد السلاجقة الاتراك اولا ثم (١٠٩٨ - ٩٩) على يد الصليبيين. وبين ١٠٦٠ و ١٠٩٠ احتل النورمان صقلية. كما استولى القشتاليون على طليطلة (توليدو) سنة ١٠٨٥.

على ان التدمير الاكبر والمصائب الاعم جاءت على ايدي البدو - الاتراك والعرب والبربر - الذين انطلقوا من عقالهم. ففي سنة ٩٩٩ تقسمت دولة السامانيين، وهي واحدة من الدول التي خلفت العباسيين، بين اسرة تركية قامت في غزنه (في افغانستان

الحالية) سنة ٩٦٢ والاتراك القارلق الذين كانوا قد قبلوا الاسلام في سنة ٩٦٠ (وكان الحد نهر سيحون). وكان الاتراك يحملون افرادا الى العالم الاسلامي ليكونوا جنوداً - رقيقا، وكانوا قد تعلموا فن النيل من اسيادهم. ففي سنة ٩٩٩ جاءت لاول مرة قبيلة تركية بدوية، هي القارلق، واستقرت بقضها وقضيضها في بلاد اسلامية. وتبع هؤلاء الغز الذين دفعهم القبتشاق غربا وهم الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام السني، وكانوا بقيادة آل سلجوق، فتغلبوا على الغزنويين (١٠٤٠) واحتلوا خراسان. وكان مطمح السلاجقة ان يستولوا على الامبراطورية لانفسهم، وهو ما تحقق موقتا لما حلوا محل البويهيين كسادة للعباسيين في بغداد (١٠٥٥). وقد كان اتباع السلاجقة من البدو يرغبون في الحصول على المراعي والغنائم. فاتفق السلاجقة مع العرب والايرانيين الذين وقعوا تحت سلطانهم، على ان يسمحوا لهؤلاء الاتباع (التركمان) ان يجتازوا الى ارمينية (١٠٤٦) ومن ثم الى اسية الصغرى (بعد ١٠٧١). إلا ان هؤلاء البدو كانوا قد اوقعوا الخراب بايران وهم في طريقهم الى تلك الاقطار المسيحية.

واطلق الفاطميون قبيلتين من العرب على شمال غرب افريقية تأديباً لنائبهم هناك الذي اعلن الانفصال (١٠٤٧). وفي شمال غرب افريقية كانت غابات الزيتون، التي كانت عماد ثروة المنطقة في العصرين القرطاجي والروماني، قد استمرت في نتاجها خلال الاحتلال الفندالي والفتح العربي. لكن الدمار الذي اصابها خلال هذا الهجوم لم يمكن تعويضه. فهذا لم يكن عملية حربية - لقد كان زحفا بدويا جماعيا. وهؤلاء الزاحفون لم يصلوا المحيط الاطلسي، فقد وقف بدو الصحراء من البربر في طريقهم، وكانوا بقيادة المرابطين، الذين كانوا سنة اصوليين. وقد جاز هؤلاء المرابطون مضيق جبل طارق الى اسبانية (١٠٨٦ و ١٠٩٠) وازاحوا وارثي الامويين الاسبان عن السلطة لانهم عجزوا عن وقف تقدم القشتاليين. عندها اكتشف الحكام العرب المسلمون في الاندلس ان مجيء المرابطين لم يحمل لهم الخير.

وقد كان المهاجمون المسيحيون يزيحون حدود الاسلام في حوض المتوسط الغربي وفي بلاد الشام. وفي الوقت ذاته كان هذا الحد يتقدم في الهند وفي اسية الصغرى. فالاتراك الغزنيون احتلوا بلاداً جديدة لم تكن تابعة للسامانيين او للعباسيين قط. لقد استولى محمود الغزنوي على حوض السند بكامله وجعله جزءا من الاسلام السني (لقد صفى الحكم الشيعي الاسماعيلي في الملتان والسند وشن حربا على الهندويين).

والسلاجقة، الذين كان حكمهم في ايران والعراق عابراً، انشأوا في اسية الصغرى التي كانت قلب الامبراطورية الرومانية الشرقية (البزنطية) دولة اسلامية سنية دامت ٢٣١ سنة (١٠٧٧- ١٣٠٨).

دخل الاتراك العالم الاسلامي عبر ايران، ولم يدخلوه جماعات كبيرة إلا بعد ان قامت مدنية اسلامية بارعة ذات صبغة ايرانية. وقد حافظ الاتراك على لغتهم الوطنية لكنهم تقبلوا المدنية الاسلامية في صيغتها الايرانية. وهذا هو الاسلام الذي نشر جنوباً في شرق الى الهند، وشمالا في غرب في بلاد المسيحية الشرقية الارثوذكسية. وانتشار الاسلام على حساب هاتين المدنيتين المجاورتين له خلال القرن الحادي عشر وبعده، كان ابعد مدى من خسارته الدائمة في الغرب، وخسارته الموقتة في بلاد الشام (على ايدي الصليبين).

وهكذا فان حدود الاسلام كانت تتسع بشكل بين في الوقت الذي كانت الدولة الاسلامية الواحدة تتمزق. ومن الناحية النظرية فان الدولة الواحدة اطار ضروري للدين؛ إلا ان النظرية ابطلتها التجربة. فقد اثبتت هذه ان الاسلام بقي وانتشر دون ان تسنده الحكومة الواحدة. ودخول غير المسلمين، من رعايا الدول التي خلفت الدولة الاسلامية الواحدة السابقة، في الاسلام افواجا، يبدو انه مرتبط بهذه الاوضاع.

والباعث السياسي لهذا الاعتناق الجماعي للاسلام ظاهر للعيان. إن الاغلبية غير المسلمة التي كانت رعية الدولة الاسلامية الواحدة، كانت تعيش في حمى السلم الاسلامي. فلما تمزقت الدولة الاسلامية الواحدة، اخذ رعاياها ـ المسلمون منهم وغير المسلمين على السواء ـ يبحثون عن ملجأ آخر. وقد ادرك الجميع ان الاسلام كان اكبر قوة وقدرة على الحياة والاستمرار من الدولة الاسلامية، وهذا ما حمل رعايا الدولة المنحلة من غير المسلمين على اعتناق دين حكامهم السابقين. فان يكون المرء مسلما اصبح الآن يزود الفرد بضمانة اكبر من ان يكون رعية سابقة لدولة لم تستطع ان تتلقى الصدمة الكبيرة في زمن المحنة. فالباعث على الدخول في الاسلام اصبح الآن شيئاً اكثر من مجرد الحصول على مساواة مالية وسياسية ـ لقد اصبح اهتماما صميما مرتبطا بالبقاء.

إن الصيغة الاسلامية التي ظهرت قدرتها على الاستمرار هي الاسلام السني. وحتى البويهيون الشيعة اعترفوا بان السنة هي التي تقبلها الجماعات لما تورعوا عن تصفية

الخلافة العباسية. فمع ان هذه الخلافة قد فقدت قدرتها على ان تكون حكومة فعالة في دولة اسلامية سنية واحدة، فقد ظلت الرمز المؤسسة للتضامن السيكولوجي والاجتماعي للامة الاسلامية السنية. يضاف الى ذلك ان السنة، اذا ما قورنت بالصيغة الاسماعيلية، اصبحت اكثر استجابة للحاجات الانسانية. وكان العصر مملوءاً بحركات صوفية، لعلها كانت بينها وبين السنة شيء من الخلاف. وفي خضم هذه الاتجاهات السنية والصوفية ورغبة المسلم العادي في ان يجد في الله ملجأه الاول والاخير، وضع ابو حامد الغزالي ما يصح ان يشار اليه بانه المنظومة الاسلامية الضرورية.

كان الغزالي (١٠٥٨- ١١١١) استاذا ناجحا في المدرسة النظامية ببغداد، ثم تخلى عن عمله واعتزل العالم احدى عشرة سنة (١٠٩٥- ١١٠٦) ليتعرف الى التصوف تجربة واختبارا من حيث صلة المتصوف بالله. والذي خلص اليه الغزالي هو انه اعاد التصوف الى حظيرة السنة. وبذلك اصابت هذه نفحة صوفية. وقد فعل الغزالي ذلك لانه رفض الشيعة الاسماعيلية والفلسفة العقلية، فاصبح مقبولا لدى المسلمين السنة. فالاسماعيليون كانوا يُتجنّبون بسبب ثوريتهم السرية والعنيفة، وكان الفلاسفة غير محبوبين لان القوم كانوا يرون في حرية الفكر التي كانوا يدعون اليها، امرا غير مرغوب فيه في ذلك العصر المحفوف بالمخاطر. وهكذا برفضه هذين الشيئين انقذ الغزالي التصوف اذ ادخله حظيرة السنة وفسر السنة تفسيراً فيه روحية جديدة.

٦٢ـ عالم بزنطية ٩٢٧/ ٨ـ ١٠٧١

أهم حدثين في هذه الفترة من التاريخ البزنطي هما اعتناق الروس المسيحية (٩٨٩) على الصيغة الارثوذكسية الشرقية، وانكسار الامبراطورية الرومانية الشرقية عسكريا (١٠٧١). وسقوط الامبراطورية كان كارثة بالنسبة لليونان. فالامبراطورية مع احتفاظها بالتسمية « الرومانية »، فهي قد اصبحت، في الواقع، يونانية منذ القرن السابع، ومن ثم فان النكبات التي حلت بها في ١٠٧١ وما بعدها، كانت نكبات للشعب اليوناني ايضاً. وعلى كل فانه لما حلت سنة ١٠٧١ لم تعد المدنية ابزنطية تعتمد كلياً على الشعب اليوناني وعلى الامبراطورية الرومانية الشرقية. فعند ذلك التاريخ كان المجتمع البزنطي قد ضم اليه ـ بالاضافة الى اليونان ـ ثلاثة شعوب سلافية اللغة هي: البلغار والصرب، والروس ـ وكذلك الجورجيون والالان في القفقاس.

إن التقلبات التي عرفها التاريخ الحربي للامبراطورية الرومانية الشرقية في هذه الفترة تبدو متناقضة اذا نظر اليها معزولة عن غيرها من الشؤون، لكنها يمكن تفهمها اذا نظرت بالنسبة الى الوضعين الاقتصادي والاجتماعي. إن التاريخ العسكري للامبراطورية الرومانية الشرقية كان، بين ٩٢٦ و ١٠٤٥، هو سجل لانتصارات متتالية، ولو انها لم تكن دوما سهلة. ولكن تحول المجرى في العقد الخامس من القرن الحادي عشر، وانكسارات الامبراطورية المذهلة (سنة ١٠٧١) على جبهتيها الارمنية والابولية (في ايطالية) يمكن تفسيرها على اساس انها نتيجة فشل سلسلة التنظيمات التي صدرت عن الامبراطور لاصلاح الاراضي بدءا من سنة ٩٢٩ (او لعلها سنة ٩٢٢)، والتي كان آخرها (١٠٢٨)، والعصيان الذي قامت به جماعة الامبراطورية من ارستقراطية الريف في اسية الصغرى (في ٩٦٣ و ٩٧٠ و ٩٧٦- ٩ و ٩٨٧- ٩ و ١٠٥٧) يمكن ان ينظر اليها على انها مقدمة لاحتلال رجال الحرب من الاتراك السلاجقة والدانيشمند واتباعهم من البدو، لمناطق في قلب اسية الصغرى كانت اصلا مما كان ارستقراطية

الامبراطورية الرومانية الشرقية قد استولوا عليه على حساب اعضاء الميليشيا الفلاحية في الامبراطورية الرومانية الشرقية.

هذه الميليشيا الفلاحية دافعت عن اسية الصغرى بنجاح ضد هجمات العرب، في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الشرقية تقف موقف الدفاع. فالفلاحون المسلحون كانوا، في الحقيقة، اداة فعالة في الحروب الدفاعية. اذ انهم كانوا يدافعون عن ارض منتجة، كانت املاكهم الخاصة، ومن ثم فقد كان لهم ما يحملهم على القيام بواجبهم العسكري بفعالية. وقد كانت نفقات الخزينة الامبراطورية ضئيلة، لان الفلاحين كانوا ينتجون ما يقوم باودهم من ارضهم، وقد كانوا يدفعون من الضرائب اكثر مما كانوا يقبضونه من مرتبات. لكن هذه الميليشيا الفلاحية لم تكن بالمثل أداة صالحة لحرب هجومية، متى كان الغرض منها الفتح والاستقرار الدائمان لبلاد تقع خارج حدود الامبراطورية.

وحتى خلال القرون الثلاثة: المنتهية بسنة ٩٢٦، التي كانت العمليات الحربية من النوع الدفاعي الذي كانت فيه الميليشيا الفلاحية تدافع عن املاكها الخاصة، لم يكن من اليسير حمل المقاتلين من الميليشيا على ان يخصصوا الوقت اللازم للخدمة الفعلية والتدريب. فقد كانت عناية المقاتل الاولى هي استغلال ارضه والاهتمام بحيواناته بحيث يمكنه ان يدفع، من دخله، ما يتوجب عليه من الضرائب، وان يبتاع سلاحه وان يوفر الغذاء الضروري لاسرته. فقد كانت الضرائب عالية، وكان ضباط الضرائب يتعاملون مع الفلاحين بخشونة دائماً. فتصرفهم جعل الفلاحين يشعرون بالغبن يلحقهم من الحكومة الامبراطورية. وقد كان احد الاسباب التي قعدت بالعرب عن فتح اسية الصغرى في القرن السابع هو ان السكان المحليين كانوا مستعدين للقتال في سبيل بلادهم. ولكن في سنة ١٠٧١ وما بعدها كان الفلاحون في اسية الصغرى على استعداد لتحمل مهاجم اجنبي او حتى للترحيب به، على نحو ما كان الفلاحون في بلاد الشام ومصر على استعداد لمثل ذلك العمل في ٦٣٣ وما بعدها.

كانت العلاقات بين الفلاحين والارستقراطيين من ملاك الارض الناشئين في شرق اسية الصغرى مملوءة بالمتناقضات. فبسالة الفلاحين الحربية هي التي افسحت في المجال امام نمو الثروة الكبيرة عند هؤلاء الملاكين. ومع ان هجمات المسلحين، برا وبحرا، على بلاد الامبراطورية الشرقية لم تتوقف حتى احتلت الامبراطورية الشرقية

كريت (٩٦١) وطرسوس (٩٦٣)، فان الرياح سارت لمصلحة الامبراطور سنة ٨٦٣ . فقد تحسن الوضع الامني في اسية الصغرى باستمرار، واصبحت الارض مجالا جذاباً للاستثمار، وكانت الضائقة المالية التي حلت بالفلاحين هي الفرصة الملائمة للملاك. فضغط الضرائب فرض على الفلاح ان يبيع، مع ان الارض التي كانت تحت تصرفه مقابل الخدمة العسكرية لم يكن التخلي عنها جائزا قانونا. والقحط الذي كان نتيجة شتاء قاس فوق العادة (٩٢٧/ ٨) يسّر للاغنياء ابتياع الاراضي باسعار تدعو الى السخرية. إلا ان هذه الازمة الموقتة ما كان لها ان تستغل الى هذا الحد لولا ان الفلاحين كانوا قد وقعوا في ضائقة مالية شديدة بسبب الضرائب الباهظة.

وقد كانت فضيحة الاستغلال لازمة ٩٢٧/ ٨ بشعة بحيث ان التشريع الامبراطوري لاصلاح الارضين عاد الى الصدارة، وهو الذي فُشّل نهائيا سنة ١٠٢٨. ذلك بانه كان ثمة خصومة بين حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية وكبار الملاكين حول الاستيلاء على « فائض » الانتاج عند الفلاحين. كان القسم الاكبر من الدخل القومي للامبراطورية الرومانية الشرقية مصدره انتاج الفلاحين. وكانت القضية تتلخص في هل يذهب هذا « الفائض السنوي » للحكومة ضرائب، ام يستولي عليه كبار الملاكين ايجاراً. وقد كان كل من الخيارين شرا بالنسبة الى الفلاح. فالفلاح كانت الضرائب الملقاة على عاتقه ثقيلة باعتباره « ملاكا حرا »، وبوصفه فلاحا مستأجرا عند ملاك كبير كان ينقل مهمة التعامل مع موظفي الضرائب الامبراطوريين الى مالك الارض، ولكن ثمن هذا كان ان يضع الفلاح نفسه تحت رحمة مالك الارض.

كانت الحكومة ترمي الى حمل كبار الملاكين على التخلي غصبا عن الارض التي استولوا عليها دون حق، وحتى بطريقة غير قانونية احياناً، منذ ٩٢٧/ ٨. وقد بلغ النزاع غايته في عهد باسيل الثاني (٩٧٦- ١٠٢٥). فقد حمل نبلاء اسية (الصغرى) السلاح ضده في ٩٧٦- ٩ ثم في ٩٨٧- ٩. وكان رده على ذلك عنيفاً. ففي ١٠٠٣/ ٤ اصدر امره بان الضرائب التي فرضت على اساس المناطق، يجب ان يقوم بدفعها الاغنياء من دافعي الضرائب مجتمعين، وان يعفى الفقراء منها كليا. وقد الغي هذا الامر سنة ١٠٢٨ وذلك بضغط شديد من كبار الملاكين على خليفة باسيل اخيه قسطنطين الثامن. وجاء الضغط عن طريق موظفي الدولة الذين كانت مصالحهم

الشخصية تقف دوما عائقاً في سبيل الاصلاح. وهذا يشبه ما حدث لاصلاحات وانغ ان ـ شيه في الصين ١٠٨٥-٦ (راجع الفصل التاسع والخمسين).

كان باسيل الثاني في معركة مع النبلاء والموظفين ـ وقد حاول، ان يحمي الفلاحين من الفريقين، ولو ان هدفه الاول كان تقوية مصلحة الدولة. وكان الموظفون في معركة مع النبلاء الاسيويين لأن الموظفين كانوا هم الذين يحكمون الدولة عندما يتولى العرش امبراطور ضعيف (دون باسيل الثاني مقدرة)، فيما كان النبلاء يحاولون انتزاع العرش، او الخروج على الدولة. وكان النبلاء والفلاحون يكرهون موظفي ضرائب الدولة. الاولون لانهم كانوا يرون في الشدة على الفلاحين في جمع الضرائب اضعافا للميليشيا الفلاحية، فيما كانت قوة النبيل الارستقراطي تعتمد على هؤلاء الميليشيات لتوطيد سلطته، التي كانت تعادل حكم الولاية. والفلاحون كانوا يعارضون تصرف النبلاء في الاستيلاء على الارض، لكنهم كانوا ممتنين لهم لانهم كانوا يدفعون عنهم اذى موظفي الضرائب. ومن ثم فقد كان الفلاحون يسيرون في ركاب النبيل لا في حروبه للدفاع عن الامبراطورية فحسب، بل حتى في عصيانه على الدولة. والعصيانات الخمسة التي قامت في اسية الصغرى (بين ٩٦٣ و ١٠٥٧) ما كان لها ان تكون بهذه القوة لولا العون الذي قدمه الفلاحون لها. وقد تقبل الفلاحون هذه العصيانات على انها موجهة ضد موظفي الضرائب. وعصيان ٩٦٣ انتهى بتولي نبيل هو نقفور الثاني (فوكاس) العرش. وعصيان ١٠٥٧ حمل اسحق الاول (كولمنينوس) الى العرش، وفشلت عصيانات ثلاثة منها اثنان في ايام باسيل الثاني، لكنه اضطر الى استخدام المرتزقة للقضاء عليهما (المرة الاولى من جورجيا والثانية من روميا).

وقد كان استخدام المرتزقة، سوءا من اهل البلاد ام من الخارج، مكان ميليشيات الفلاحين احد اسباب سقوط الامبراطورية (١٠٧١). كان جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية يحتوي دوما على جماعة من الجند المحترفين الذين كانوا يعطون كامل وقتهم للخدمة العسكرية وكانوا يقبضون مرتبات بديل ذلك. لكن عددهم كان ضئيلا، وذلك بسبب النفقات الكبيرة اللازمة لذلك. فلما تولى العرش اباطرة ثلاثة محاربون وراغبون في توسيع رقعة المملكة (نقفور الثاني ٩٦٣-٩ ويوحنا ٩٦٩-٧٦ وباسيل الثاني ٩٧٦-١٠٢٥) تغير الوضع. كانت ثمة رغبة في ان يعود الفلاحون الى الارض ليخدموها كل الوقت، ويصبحوا دافعي ضرائب. وكانت ثمة رغبة اصيلة (نقفور)

للحفاظ على حياة الفلاحين القائمة. وهناك اهتمام في وقف النبلاء عند حدهم. والرغبة في ان يكون للامبراطور جيش محترف كانت قائمة عند البعض (نقفور مثلا). والذي حدث سنه ١٠٧١ هو ان الامبراطور السيء الحظ رومانوس الرابع (ديوجينيس) قابل السلاجقة وكان جيشه جيشا مرتزقا، وكان هم الجنود الاكبر ان يحصلوا على مرتباتهم.

انتزع نقفور الثاني كريت وجزءا من كيليكيا من العرب وكان ذلك لمصلحة الامبراطورية. ويوحنا وباسيل الثاني شنا حروبا ضد بلغاريا دامت من ٩٧١- ١٠١٨ انتهت باحتلالها. ولكن الحرب الطويلة اوقعت الامبراطورية في ضائقة مالية واقتصادية وازمة اجتماعية حادة لم تشف منها قط. وكان من اعراضها تخفيض قيمة النقد البزنطي الذهبي (نوميزما) الذي كان قد احتفظ بقيمته منذ ان اعاد اليه ديوقلتيان وقسطنطين الاول مكانته. وقد تم تخفيض القيمة بين ١٠٤٢ و ١٠٥٥ في ايام قسطنطين التاسع.

تعتبر سنة ١٠٧١ حدا فاصلا في تاريخ الامبراطورية البزنطية في اكثر من ناحية واحدة. فمن ذلك ان الامبراطورية استعادت سيراقوسة (١٠٤٠) ولكن النورمان احتلوا امالفي في ابوليا (١٠٤١). وفي ١٠٤٥ اتمت الامبراطورية احتلال ارمينية تقريباً. لكن السلاجقة اخذوا بالهجوم على ارمينية (١٠٤٦). وفي سنة ١٠٧١ اتم النورمان احتلال ابوليا وكالابريا (احتلوا باري). ولكن الامبراطورية الرومانية الشرقية ادبت البلغار على عصيانهم (١٠٤١) بحيث انهم بعد ١٠٧١ كانوا، مع الصرب، خاضعين للامبراطورية الشرقية. إلا ان الضربة الكبرى التي تلقتها الامبراطورية الرومانية الشرقية سنة ١٠٧١ كانت في انكسار جيوشها في منزركرت (ملازكرد) على ايدي الب ارسلان (١٠٦٣- ١٠٧٢) الذي اسر الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس. فالامبراطورية الشرقية ، في تلك السنة، كانت تحكم جزءا من اسية الصغرى فقط، لكن السكان فيه كانوا يونانيين. اما في اوروبة فقد كانت الامبراطورية تحكم جزءا من بلاد البلقان وبلاد الصرب والبلغار.

إلا ان الامبراطورية الشرقية كان لها، ومن ثم لمدنيتها، امتداد آخر ولو انه غير عسكري. في سنة ٩٨٩ اعتنق فلاديمير امير كيف المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، التي كانت قد عرفتها فئات قليلة في روسيا. وتزوج فلاديمير اخت باسيل الثاني (آنّا). والمدنية البزنطية التي دخلت روسيا وصلت اليها عن طريقين - بلغاري ويوناني. ومع ان الامبراطورية الرومانية الشرقية كانت النبع الاصلي للمدنية البزنطية، فان البلغار كانت

لغتهم ذات اثر اكبر. ان الدولة البلغارية يعود انشاؤها الى الهون وهم شعب تركي اللغة؛ وروسيا اسمها السويديون (الذين كانوا يتكلمون التوتونية). إلا ان اكثرية السكان في البلدين كانت تتكلم لغة صقلبية الاصل، وهي اللغة التي كانت قد سادت في كلا البلدين لما وصلت المسيحية اليهما. فلما اعتنقت روسيا المسيحية استقدم امراؤها فنانين وبنائين يونانيين، لكن الروس اقتبسوا اللهجة الصقلبية (المقدونية) واستعملوها في الطقوس الدينية وفي الادب، وكانت الكتابة التي دونت بها هذه اللغة هي الالفباء الكيريلّية البلغارية الاصل، اذ كانت ايسر استعمالا من الالفباء الكيريلّية (القسطنطينية المنشأ) المعقدة. وبهذه الوسطة نقل الكثير مما كان قد وضع باليونانية اصلا الى الروس في صيغته البلغارية. ومع ان روسيا كانت في سنة ١٠٧١ تتمزق سياسيا فانها كانت تتسع جغرافيا. وكان هذا الاتساع يحمل معه المدنية البزنطية نحو شواطىء البحر الابيض الروسي (الشمالي). والمسيحية التي انتشرت في روسيا لم تتأثر بحركتين هرطقيتين قامتا في تراقيا وبلغاريا في القرن العاشر.

وخلال فترة القرن ونصف القرن التي مرت على الامبراطورية الرومانية الشرقية قبل ١٠٧١، وهي السنة التي احتل فيها النورمان ابولية وانتصر السلاجقة على الامبراطورية، كانت البنية الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية تسير سيراً مضطربا. وهذا يبدو واضحا في فشل حكومة الامبراطورية في سياسة اصلاح الارض. إلا ان الفترة نفسها شهدت احياء التصوف وازدهار الفنون المنظورة في الامبراطورية. فقد كان لسيمون ـ « اللاهوتي الجديد » ـ (٩٤٩ـ ١٠٢٢) اثر في الحياة البزنطية اكبر من اثر معاصره الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ـ ١٠٢٥). والفنون المنظورة التي كانت آخذة في الازدهار لم تتأثر بالنكبات الحربية التي وقعت سنة ١٠٧١. فقد برز الفنانون البزنطيون في الفنون والاعمال الدقيقة والصغرى: مثل الفسيفساء والحفر على العاج والمعدن. والاسلوب كان هلينيا في جوهره وهو الاسلوب الذي ملك على اليونان عقولهم في العصر البزنطي. إلا ان الفن البزنطي المنظور الذي صنع في القرنين العاشر والحادي عشر لم يكن تقليدا للجذور الهلينية. لقد اوحى الفن الهليني الى الفنانين البزنطيين ان يصنعوا شيئاً هو ما يمكن ان يتميزوا به. ولما انتقل هذا الفن من القسطنطينية الى كييف ونوفغورود اخذ نهجا جديداً في هذه البلاد الجديدة. ففي سنة ١٠٧١ كانت روسيا قد اصبحت ارض الميعاد بالنسبة الى المدنية البزنطية والكنيسة الارثوذكسية الشرقية.

٦٣ــ المسيحية الغربية ٩١١ــ ١٠٩٩

كانت التقلبات التي شهدتها المسيحية الغربية في هذا العصر على الصعيد الحربي على عكس ما خبرته الامبراطورية الرومانية الشرقية في الفترة ذاتها. فالمسيحية الغربية كانت قد بدأت تتعرض لهجوم بحري من الاسكندنفيين حتى قبل موت شارلمان (٨١٤)، وقد ظلت في موقف الدفاع حتى انتصر اونو الأول على المجر (٩٥٥). وقد بلغت آلام المسيحية الغربية، على ايدي المهاجمين الغرباء، حدها الاقصى (٨٩٦ـ ٩٥٥). ذلك لان الفرسان المجر اصابوا المناطق الداخلية التي كانت قد نالها من غزوات المسلمين والاسكندنافيين اقل من غيرها. وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر سار الحظ في ركاب المسيحية الغربية، في الوقت الذي سار فيه معاكسا للامبراطورية الرومانية الشرقية.

والتبدل الفجائي على الصعيد الحربي يتضح في الحالتين عندما تأخذ بعين الاعتبار التبدلات الاجتماعية والثقافية التي كانت تسير تدريجا قبل ذلك - مثل قبول الاسكندنافيين الذين سكنوا في انكلترا (في الدينلو) وفي فرنسة (في نورماندي) ومثل انتشار اثر دير كلوني في اسلوب اتباع قوانين بندكت في الرهبنة. وتمثُّل المستوطنين الاسكندنافيين كان معناه ان طريقة الحياة التي تزودها المسيحية الغربية لاتباعها اصبحت جذابة للبرابرة (الذين لم يكونوا قد قبلوا دينا سماويا الى يومها). والاصلاح الكلوني للرهبنة الغربية يظهر لنا لماذا اصبحت المسيحية الغربية جذابة. ان هذا الاصلاح كان دليلا، على الصعيد الديني، على وجود حيوية في المجتمع المسيحي الغربي كانت تظهر في مجالات اخرى من النشاط ايضاً.

انتشرت المسيحية في بوهيميا ايام بعثة الاخوين نسطنطين (كيريل) وميثوديوس (٨٦٣ـ ٨٥) ومورافيا الكبرى، وقد ظل، لمدة قرنين من الزمان تقريباً، طقسان

يستعملان جنبا الى جنب في بوهيميا - الواحد كان باللاتينية والآخر بالصقلبية. وقد تغلب الاول على بوهيميا في النهاية، فيما ادى الطقس الصقلبي الى انتشار المسيحية في بولندا، على نحو ما حدث في روسيا. وقد قبلت بولندا المسيحية الغربية سنة ٩٦٦، والمجر قبلوها بين ٩٧٠ و ١٠٠٠ والدنيمرك اعتنقتها سنة ٩٧٤ وبقية البلاد الاسكندنافية حول منقلب القرن العاشر الى القرن الحادي عشر. ولقي اعتناق المسيحية مقاومة في بعض تلك الاقطار - مثل النروج والسويد والمجر. لكن المقاومة انتهت الى الفشل وذلك لان منزلة المدنية المسيحية الغربية كانت، الى ذلك الحين قد ارتفعت في اعين جيرانها الوثنيين.

تم للمسيحية الغربية القيام بفتوح خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وذلك على حساب المسيحية الشرقية والاسلام. فبين سنتي ١٠٤١ و ١٠٧١ احتل النورمان المغامرون ابوليا وكالابريا، من الامبراطورية الرومانية الشرقية وبين سنتي ١٠٦٠ و ١٠٩٠ احتلوا صقلية من المسلمين. كان سكان ابوليا ايطاليين تابعين للبابوية دينيا، ومن ثم فان الفتح النورماني لم يكن غريبا تماماً عليهم. أما اليونان من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية المقيمون في كالابريا وصقلية والمسلمون في صقلية فقد اعتبروا الاحتلال النورماني سيادة اجنبية. وفي سنة ١٠٨٥ احتل القشتاليون، الذين جاءوا من شمال غرب اسبانية، طليطلة (وهي توليدو التي كانت عاصمة القوط الغربيين ومن الفتح العربي لاسبانية). وفي ١٠٩٨-٩ قامت حملة عسكرية من الغرب المسيحي باحتلال انطاكية والرها (ادسا) من السلاجقة، والقدس من الفاطميين.

كانت هذه الحملة - وهي الحملة الصليبية الاولى - محاولة عجيبة من الناحية المالية والتموينية والاستراتيجية. فقد نجح فريق من مغامري الغرب المسيحي في انجاز ما عجز عنه اباطرة القسطنطينية (باسيل الثاني ويوحنا) مع ما كان لديهم من وسائل الامبراطورية الرومانية الشرقية وثرواتها. والفتح النورماني لانكلترا (١٠٦٦) كان انجازا عسكريا يضاهي الحملة السابقة، (ولو انه لم يضف الى رقعة المسيحية الغربية لان انكلترا كانت جزءا منها حتى قبل الاحتلال). الا ان هذه الحملة اظهرت ان فرنسة (فرنسية الغربية) كانت قد سبقت غيرها من مناطق المسيحية الغربية النائية. وقد كانت البسالة العسكرية واحدا من مظاهر التفوق الفرنسي عامة.

والنصف الثاني من القرن الحادي عشر في تاريخ المسيحية الغربية انبعث فيه مدنية

بعد ما رقدت مدة طويلة. (وفي ذلك تشبه هذه اليقظة ما اصاب المدنية الهلينية في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد). وفي هذا العصر اظهرت المدنية المسيحية الغربية نشاطها ورغبتها في ان تنقل عن المدنيات الاغنى منها والمعاصرة لها وان تحيي ماضيها اليوناني - الروماني.

وفي الواقع فان مدونة جستنيان القانونية اكتشفت في سنة ١٠٨٨ واصبحت موضوع درس جدي وحماسي في بولونيا، المدينة الايطالية التي ظلت تحت سيادة الامبراطورية الرومانية الشرقية حتى سنة ٧٥١. وقبل نهاية القرن العاشر كانت الترجمة اللاتينية لاعمال ارسطو في المنطق التي تمت على يد بوتيوس تدرس وتفسر في الغرب على يد جربرت من اوريلاك، بعد ما نامت نحو ٤٥٠ سنة. وطواحين الماء، التي اخترعت في الهلال الخصيب، كانت تقام على ضفاف السواقي المنحدرة في غرب اوروبة ما وراء الالب. ويبدو ان استخدام حصان النقل عن طريق استعمال النير والرسن انتقلت الى المسيحية الغربية في القرن العاشر، وذلك من مكان اختراعها اصلا - اما في الصين او في السهوب الاوراسية. وقد كان بين اسلحة الحملة الصليبية القوس التي كان الصينيون قد اسعملوها في حروبهم (٥٠٦- ٢٢١ ق. م .)، وكانت قد نقلت الى الغرب.

في القرن الحادي عشر تخلى الغرب عن اداة الحرب التي ورثها قاهرو الامبراطورية الغربية من البرابرة، واستعاضوا عنها بالاداة السرماتية الاكثر فعالية، والتي كان الالان قد حملوها معهم الى بلاد الغال في القرن الخامس. الا ان غربيي القرن الحادي عشر ادخلوا تغييرا عليها (كان الاول من كثرة). فقد استعاضوا عن الدرع السرماتي المستدير الصغير، بدرع له شكل طائر يشبه طائرة الورق، اذ انه كان يزود الفارس بوقاء فعال وعلى ادنى حد من المساحة والوزن. وقد عرف هؤلاء « الفرسان » اهميتهم الى حد انهم انشأوا اخويات علمانية (مدنية) كانوا يدخلون فيها المبتدئين ويدربونهم على فنون الفروسية (اواسط القرن الحادي عشر).

بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية استمر الشعر يكتب باللاتينية على الاوزان اليونانية الكلاسيكية، التي كان العروض فيها قائما على التقسيمات الطويلة والقصيرة. الا ان هذا كان من شأنه ان يحد من نشاط اللغة اللاتينية الشعري. وقد أطلق كتاب الترانيم الروحية (الدينية) المسيحيون اللغة اللاتينية من هذا العقال، اذ صنعوا شعرا لاتينيا، بحيث انه حول منقلب القرنين الحادي عشر والثاني عشر نظمت ملحمة بلغة رومانسية

حية، هي « انشودة رولان ». فخرجت من تحت القشرة اللاتينية التي ظلت الى ذلك الوقت تخفي تحتها نشوء لغات هي بنات اللغة اللاتينية.

على المستوى السياسي شهد القرن العاشر احياء لامبراطورية شارلمان، على ان سكسونيا، لا بلاد الفرنج، كانت نواتها. فقد توج اوتوا الاول، ملك فرنسيا الشرقية السكسوني، امبراطوراً في رومة سنة ٩٦٢ (وهو الذي كان قد انتصر على المجر سنة ٩٥٥). وقد ضم برغندية وايطالية الى املاكه الجرمانية، لكن فرنسية الغربية حافظت على استقلالها، وقامت هنا اسرة جديدة في القرن العاشر وحلت محل الكارولنجيين الذين فقدوا فعاليتهم. وقد ادخل النورمان ادارة ملكية فعالة في دول كانت على صعيد اصغر من مملكتي فرنسة والمانية. ونجاح النورمان في احتلال انكلترا وابوليا وصقلية، لم يفقه سوى نجاحهم الكبير في تنظيم هذه الممتلكات الجديدة وادارتها.

كانت مملكة صقلية النورمانية تدار ادارة اوتوقراطية، وهي دولة خلفت الامبراطورية الرومانية الشرقية والخلافة الاسلامية. وكان قيامها ضربة للمدن ـ الدول الناشئة في جنوب ايطالية. لكن البندقية (في شمال ايطالية) استقلت واقعاً، عن الامبراطورية الرومانية الشرقية قبل نهاية القرن الحادي عشر. ومدن لومبارديا، التي كانت لا تزال في مطلع القرن تحت حكم اولئك الامراء الذين ورثوا حكام شارلمان او تحت حكم الاساقفة المحليين، اصبحت لها استقلال ذاتي خلال السنوات المئة التالية. وقد كانت حكومة هذه المدن ـ الدول اوليغارقية، الا انها كانت جمهورية. وقد اشتركت اثنتان من المدن الدول اللومباردية البحرية، كدولتين مستقلتين، في الحملات التي شنتها المسيحية الغربية في حوض البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.

ومن ثم فقد كان هناك، خلال القرن الحادي عشر، صيغتان للتركيبة السياسية تتنافسان في الغرب: صيغة جمهورية على مقياس المدينة ـ الدولة، وصيغة ملكية على مقياس المملكة ـ الدولة. وحول سنة ١١٠٠ كانت كلاهما قد برزتا على انهما اكثر فعالية من اي نظام سياسي آخر قام في تلك المنطقة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب.

وصيغة المدينة ـ الدولة السياسية التي ظهرت في شمال ايطالية في القرن الحادي عشر، ظهرت ايضا في فلاندر في القرن ذاته. فقد عرفت المنطقتان تفجراً سكانيا في زمن واحد، ورافق هذا نمو في التجارة والصناعة. فحتى في سنة ٩٩٢ منح باسيل الثاني

البنادقة امتيازات تجارية في طول الامبراطورية الرومانية الشرقية وعرضها، لقاء الخدمات البحرية التي قدموها له. وعندها اخذ البنادقة ينقلون التجارة من اليونان الى ايديهم حتى في المياه اليونانية. وبعد انشاء الامارات الصليبية على الساحل السوري، حصلت المدن ـ الدول البحرية من شمال ايطالية على امتيازات في ذلك الساحل ايضاً. فالنقط التي اقامها الغرب المسيحي « عبر البحار » كانت تعتمد على سفن جنوى وبيزا والبندقية في اتصالها باوروبة. فقد كان الغرب الآن هو الرابح بالنسبة الى الاسلام والمسيحية الشرقية الارثوذكسية، ولكن في اطار الغرب نفسه كان الرابح الاول هو الايطاليون الشماليون.

وعلى الصعيد الديني بدت يقظة المسيحية الغربية في سلسلة من المحاولات لادخال اصلاحات بدأت سنة ٩١٠ واستمرت حتى ١٠٩٩. كانت نقطة انطلاقها انشاء دير كلوني في برغنديا وهو نموذج جديد للدير البندكتي. وقد انتشرت حركة الاصلاح الكلونية في الغرب المسيحي، والاديرة التي اقتبست الصيغة الكلونية للقوانين البندكتية انضمت في جمعية تحت هيمنة كلوني نفسه. ولكن عند نهاية القرن الحادي عشر اصبح النظام الكلوني نفسه عاجزا عن توفير الحيوية اللازمة. وفي سنة ١٠٩٨ انشيء نموذج جديد في سيتو في برغنديا ايضا. كان القديس بندكت نفسه (على نحو ما رمى اليه باخوم المصري ابو نظام الرهبنة) اراد ان يقيم توازنا بين التعبد والنشاط الاقتصادي للرهبان في ديره. والحركة الكلونية عنيت بالتقيد والطقوس في حياة الدير البندكتي. ومن ثم اصبحت الاديرة التي قبلت النظام الكلوني عبئا على الفلاحين المقيمين في املاك الدير، لا يقل في ثقله عن العبء الذي يفرضه الجيران من كبار الملاكين المدنيين. اما اتباع دير سيتو (وهم السسترسيون) فقد كان هدفهم ان تكون لهم حياة روحية متقشفة اعمق وانتاج مادي اكبر. فقد استصلحوا الأرض البرية لكنهم استخدموا عمالا هم رهبان عاميون، اي اعضاء في المنظمة لكنهم من الدرجة الثانية. (الرهبان المصريون لم يستخدموا عمالا غيرهم في استصلاح الارض). وقد استخرج السسترسيون الحديد والصوف من البرية. وهم، اذ قاموا بهذا الانجاز الاقتصادي، زرعوا بذور النظام الرأسمالي في الانتاج.

ان الاصلاحات الدينية في القرن الحادي عشر في الغرب المسيحي ادخلت ثلاثة امور مستحدثة هناك. لقد فرضت العزوبة على كاهن الرعية (اي رجل الدين الذي لم

يكن راهبا) وحاولت منع شراء المناصب الدينية وتنصيب اصحاب المناصب الدينية على ايدي السلطات المدنية. وقد نجحت القضية الاولى، مع انه لم يكن لها سابقة لا في الغرب المسيحي ولا في اي كنيسة اقليمية. وقضية تنصيب رجال الدين على ايدي السلطات المدنية تم الاتفاق بشأنها (١١٢٢) على شكل مرضي، لأن الشخصيات الدينية كانت غالبا ما تتولى المناصب المدنية والدينية. وابتياع المناصب الدينية من اصحاب السلطة المدنية المحليين، تقلص لمصلحة البابوية، التي تولت امر تعيين رجال الدين في مناصبهم، ولم تكن تفعل ذلك مجانا. وكانت نتيجة هذه الاصلاحات الدينية في مجموعها ان جعلت من رجال الدين فئة ذات امتيازات خاصة داخل المجتمع المسيحي الغربي وكان ثمن ذلك اخضاعهم للبابوية بدل ان يكونوا تحت رحمة النبلاء المدنيين.

تولت البابوية، التي نالها الاصلاح ايضا، قيادة هذه الحركات الثلاث. لقد كانت البابوية اهم مؤسسة في المسيحية الغربية. وجاء اصلاحها، في اواسط القرن الحادي عشر، مفاجئا ومدويا. اما نتائجه فقد اختلف فيها، كما انه رافقه شيء من التمزق.

كان المركز الجغرافي للغرب المسيحي هو برغنديا، حيث تقترب ينابيع انهار السون والسين والموزل بعضها من البعض الآخر، وحيث تقترب جميعها من زاوية الراين الجنوبية الغربية. وغرب اوروبة ما وراء الالب كان هذا هو مركز المواصلات فيه، وفي هذه المنطقة انشيء دير القديس كولومبانوس والنماذج الجديدة لاديرة كلوني وسيتو وبعد ذلك دير كليرفو. في مقابل ذلك كانت رومه، وهي مركز الكرسي البابوي، تقع على الطرف الجنوبي الشرقي للغرب المسيحي. يضاف الى ذلك ان توسع المسيحية وانتشارها كانا يتجهان، في نصف القرن الذي تلا سنة ٩٦٦، شمالا في شرق وشمالا. ومن ثم فان الاشراف على الادارة الدينية للمسيحية الغربية من هذا المكان الواقع في واحدة من ابعد زواياها، كان امرا في غاية الصعوبة والدقة.

كانت رومة، بالنسبة الى المسيحية الغربية، الهيكل والموحي والمحجة. لكن رومة كان عليها، منذ ان دخل اللومبارديون ايطالية (٥٦٨)، ان تدفع الاذى عن نفسها بنفسها (باستثناء فترتين تدخل فيهما بيبين الثالث وشارلمان من بلاد ما وراء الالب). ومن ثم فان نبلاء رومه كانوا يرون ان قدسية رومه ومنزلة البابوية كانتا حقا مشروعا

لهم. اما بقية المسيحية الغربية فكانت تعتبر استغلال هؤلاء النبلاء للمدنية والبابوية امراً إدّاً.

وكان الجرمان الذين تولوا العرش الامبراطوري المحدث اول من تولى وجهة نظر المسيحية الغربية. لقد عزل كل من اوتو الاول واوتو الثالث وهنري الثالث البابا الروماني الاصل وعين مكانه رجلا من اختياره من البلاد الواقعة وراء الالب. وقد اختار اوتو الثالث العلامة الفرنسي جربرت (من اوريلاك) الذي تولى باسم البابا سلفستر الثاني (٩٩٩- ١٠٠٣). واختار هنري الثالث ابن عمه الالزاسي برونو (البابا ليو التاسع ١٠٤٨- ٥٤). وقد حشد ليو رجال دين مشهورين في الكوريا البابوية الذين لم يكونوا يمثلون النبلاء الرومان، بل « مؤسسة » المسيحية الغربية قاطبة. لكن هؤلاء السادة الجدد في الكوريا كان رأيهم انهم هم، لا الامبراطور، الذين يجب ان تكون لهم الكلمة الاخيرة في شؤون البابوية.

كان هلدبراند، الذي اصبح البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣- ٨٦)، هو الذي اثار الحرب بالنيابة عن الكوريا البابوية المصلحة، على جبهتين - ضد الامبراطور وضد النبلاء الرومان. ومع انه كان رومانيا، نشأة لا ولادة، فانه لم يكن صديقا لهؤلاء النبلاء. اعتبارا من سنة ١٠٥٧ لم يكن تعيين البابا بيد النبلاء او الامبراطور الروماني الغربي. لقد اصبح ينتخب - والهيئة الانتخابية هي مجمع الكرادلة الذين كانوا يقومون بذلك كممثلين للمسيحية الغربية كلياً. (هذه السلطة لمجمع الكرادلة لم تقر نهائيا الا في سنة ١١٧٩). والكوريا البابوية تم قيامها اداة فعالة للحكم بين سنتي ١٠٥٧ و ١٠٩٩ (السنة التي توفي فيها اوربان الثاني). الا ان الكوريا البابوية المصلحة كانت تتفق مع النبلاء الرومان ومع الاباطرة الرومان الجدد في ان الغاية (عند الجميع) كانت السلطة. وفي سبيل ذلك قطعت العلاقة مع بطريرك القسطنطينية ميشيل (١٠٥٤) ومع الامبراطور هنري الرابع (١٠٧٥). ان اصلاح البابوية والكنيسة الغربية كان غاية نبيلة، وقد كان المصلحون انفسهم مخلصين، لكن النتيجة كانت مأسوية. فهذا الاصلاح لم يؤد الى السلام، بل الى السيف.

٦٤ـ العالـم الاسلامي ١١١٠ـ ١٢٩١

تغلب الاسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على الصعوبات؛ ليس ذلك فقط، بل انه استمر في الانتشار. وقد كان هذا انجازا رائعا، اذا نحن اخذنا بعين الاعتبار ان العالم الاسلامي كان ممزقا سياسيا، وانه كان يتعرض لهجوم عنيف في حوض البحر المتوسط اولا، على ايدي المسيحيين الغربيين، وفي اسية ايضا على ايدي المغول. والربح السياسي الثابت الذي ناله المسيحيون الغربيون كان في شبه جزيرة ايبريا وفي صقلية، وفي هاتين المنطقتين استمر وجود السكان المسلمين تحت حكم مسيحي. اما فيما يتعلق بالمغول فقد عجزوا عن احتلال بلاد الشام ومصر. وحكام اتباعهم البدو في الدول الثلاث الغربية التي تفرعت عن بيت جنكيزخان، اعتنقوا الاسلام: القبيلة الذهبية، في النصف الغربي من السهوب الاوراسية، في سنة ١٢٥٧ (ثم نهائيا سنة ١٣١٣)، والايلخانيون في ايران والعراق في ١٢٩٥؛ والتشاغاتايون في ما وراء النهر وحوض تاريم وما جاوره من منطقة السهوب في ١٣٢٦ (ولو ان ذلك لم يكن بالاجماع). وقبل فتح المغول للنصف الغربي من السهوب الاوراسية، كان السكان هناك من بدو الاتراك الكيبتشاك وثنيين. فيما كان بلغار الفولغا جماعة مسلمة معزولة. في ١٢٣٧ نهب المغول بلغار الفولغا في طريقهم الى روسيا والى اوروبة. ولكن الذي ترتب على ذلك هو ان الاسلام لم يقض عليه هنا، بل على العكس من ذلك انتشر انتشارا واسعا. وقد اشرنا من قبل الى احتلال المسلمين لشمال الهند (من ممر خيبر الى البنغال) بين ٩٩٢ و ١٢٠٢. وفي الغرب فشل المسلمون في استرجاع طليطلة التي كان المسيحيون قد احتلوها في ١٠٨٥؛ لكن المرابطين ضموا للاسلام (١٠٨٦) مرتكزا جنوبي الصحراء في ما هو اليوم شمال نيجيريا.

كانت اقامة جسور للغرب المسيحي على الساحل السوري (١٠٩٨- ١٠٩٩)

مع موقع متقدم الى الشرق من نهر الفرات في الرها (ادسا او اورفا) امرا بالغ الخطورة من حيث تهديده للعالم الاسلامي. والمغامرون الذين اسهموا في الحملة الصليبية الاولى كان عددهم ضئيلا (لعلهم كانوا اقل من ٢٠٠٠٠ رجل). وبعد احتلال القدس (١٠٩٩) بقي الاقلون في البلاد التي فتحوها ليدافعوا عنها. ومع ذلك فقد نجحوا في تثبيت ما امتلكوه. وطرابلس، التي صمدت امام هجمات الامبراطورين الرومانيين الشرقيين نقفور الثاني ويوحنا في القرن العاشر، سلمت للفرنج (١١٠٩). ولما احتل بلدوين الاول ملك القدس الفرنجي العقبة (١١١٦) وجزيرة غراي في الخليج نفسه، قطع الاتصال البري بين القسمين الافريقي والاسيوي من العالم الاسلامي.

انقذ الموقف، بالنسبة للعالم الاسلامي، ضابط تركي كان في خدمة السلاجقة، هو عماد الدين زنكي، الذي عين حاكما على الموصل (١١٢٧). وفي سنة ١١٤٤ كان زنكي قد ضم حلب وحمص والموقع الصليبي في الرها. وفي سنة ١١٥٤ احتل ابنه نور الدين دمشق. وفي ١١٦١- ١١٧٠ نجح في التغلب على ملك القدس اموري اذ سبقه الى السيطرة على مصر الفاطمية. في سنة ١١٧١ صفى صلاح الدين، وهو قائد كردي من قواد نور الدين الاسرة الفاطمية، واعاد مصر الى حظيرة السنة. وقد تقسمت دولة نور الدين عند وفاته (١١٧٤) إلا ان صلاح الدين استولى عليها لنفسه، وبارك له الخليفة في ذلك. وتغلب صلاح الدين على الفرنجة في معركة حطين (شمال فلسطين) واحتل القدس (١١٨٧). ولم تستطع الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩- ٩٢) ان تزحزح صلاح الدين مع ان فردريك الاول وملكي فرنسة وانكلترا كانوا فيها (لكن فردريك غرق في الطريق). وقد عاشت امبراطورية صلاح الدين بعد وفاته (١١٩٣) وحتى بعد القضاء على اسرته (١٢٥٠) - وهي السنة التي فشل فيها الفرنج للمرة الثالثة في تقليد الملك اموري في مشروعه لاحتلال مصر. واصبحت مصر الآن قلعة الاسلام ودار سلاحه.

إن الرقيق التركي الحربي الذي كان يعيش في كنف اسرة صلاح الدين تولى، هو - مشتركا - ارث صلاح الدين (١٢٥٠)، واصبح الاستخلاف الآن لا ينتقل من اب الى ابن، بل من حاكم مملوك سابق الى مملوك آخر. وكان قد انشىء حكم على هذه الشاكلة في دلهي (١٢٠٦). فمحمود الغوري، الذي احتل شمال الهند الى

الجنوب من البنجاب، عين مملوكا - نائبا عنه، والخليفة المملوك الثاني لهذا الحاكم تولى الحكم لما صفى امير خوارزم الاسرة الغورية (١٢١٥).

إن ما وراء النهر وخراسان، اللتين ازدهرتا تحت حكم العباسيين والسامانيين الايرانيين خلفاء الاولين، اصابهما الضر (في العقود الاولى من القرن الحادي عشر) اذ اقتحمهما البدو التركمان، بقيادة آل سلجوق. في سنة ١١٤١ احتل المنطقتين فريق من مهجري الخيطان (القراخيطاي) الذين كانوا قد اجلوا عن شمال الصين ومنشوريا على يد الجورشيد. ولم يكن القراخيطاي قد اعتنقوا الاسلام، لكنهم كانوا جماعة متحضرة. وكان تأذي ما وراء النهر من وجودهم اقل من تأذيها من الحكام الخوارزميين المسلمين الذين اخرجوا القراخيطاي من تلك المنطقة (١٢١٠). وقد تعرض الربع الشمالي الشرقي من العالم الاسلامي للخراب ونقص السكان بسبب هجوم المغول بقيادة الزعيم الحربي جنكيزخان، الذين استولوا على املاك الخوارزميين (١٢٢٠ - ١).

انقذ تدخل جنكيزخان العراق من شر حملة كانت تهدد العراق على يد خوارزمشاه، والتي كان من الممكن ان تكون مثل حملته وحملة جنكيزخان في تخريبهما لما وراء النهر. ولما قضى خوارزمشاه على الفرع الشرقي من اسياده السلاجقة (١١٩٤) خلا الامر للخليفة الناصر (حكم ١١٨٠ - ١٢٢٥) فاستقل بالامر، وقد افاد من حريته فوظفها في محاولة استعادة املاك في جنوب غربي ايران وفي تأييد صلاح الدين وخلفائه وفي جعل « الفتوة » نظاما فروسيا تحت اشراف الخليفة العباسي.

والفتوة كانت واحدا من عدد من المنظمات الاسلامية الجديدة التي مكنت للاسلام من الصمود امام الفتح المغولي. وكذلك اسهمت في الصمود مجموعة من الطرق الصوفية، واقدمها القادرية التي انشأها عبد القادر الجيلاني (القرن الثاني عشر). وقد جاء اكثر مؤسسي هذه الطرق الصوفية من الربع الشمالي الشرقي من العالم الاسلامي. وكان في تعبدهم ما يثير الوجد. وقد ربحوا التركمان الذين اعتنقوا الاسلام الى جانبهم. وكان ابرز الذين اسسوا طريقه هو جلال الدين (الرومي) مؤسس الطريقة المولوية. فقد ولد في بلخ (في طخارستان) سنة ١٢٠٧. (قبل هبوب العاصفة الخوارزمية والمغولية على هذه المنطقة) وقضى معظم حياته (١٢٠٧ - ٧٣) في قونية، عاصمة سلاجقة الروم، وهنا كتب شعره الصوفي (المثنوي وغيره) باللغة الفارسية الحديثة. وثمة شاعر فارسي آخر هو سعدي الشيرازي (حول ١١٨٤- ١٢٩١) الذي كان دائم التنقل بسبب اضطراب

حبل الامن. وقد تخطى المئة من العمر في قرن من اشد القرون اعصارا وعواصف في تاريخ الاسلام.

كانت سلطنة سلاجقة الروم (في اسية الصغرى) اقدر على البقاء من الامبراطورية الام شرقي الفرات. فقد تغلبت على الحملة الصليبية الاولى. وفي سنة ١١٧٦ ردت حملة بزنطية جاءت متأخرة لاستردادها. وتغلبت حتى على انتصار المغول عليها ١٢٤٣ مع انها خضعت لسلطة مغولية شديدة. وقد انشأت هذه السلطنة (في اسية الصغرى) مجتمعا تركيا تشرب المدنية الاسلامية في صيغتها الايرانية. وارسل سلاطين الروم الى الحدود جماعات من التركمان الذين حملهم السلاجقة معهم وكذلك القبائل التي جاءت في القرن الثالث عشر هاربة امام المغول. وقد تغلب المغول لاحقا على سلطنة الروم السلجوقية (ولكنهم لم يتغلبوا على مماليك مصر والشام) وخضعت لسلطانهم. ولكنها ظلت ملجأ للاسلام في هذه الازمة في التاريخ الاسلامي.

وهكذا فانه لما انتدب الخان الكبير للمغول (مونكه) اخاه هولاكو لاتمام الفتوح التي بدأها جنكيز في العالم الاسلامي، استطاع الاسلام ان يتغلب على تخريب العراق وسقوط بغداد وتدميرها وتصفية الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨.

في سنة ١٢٦١ اثبت المماليك، خلفاء اسرة صلاح الدين، ان المغول ليسوا شعبا لا يغلب لما قضوا على مقدمة جيش هولاكو المنتصر قبلا، وذلك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين. فقد قتل القائد المغولي في المعركة (وكان مسيحيا نسطوريا) وكان الى جانبه في المعركة ملك ارمينية (في كيليكيا) المسيحي، وامير انطاكية المسيحي. لكن الفرنج في عكا منحوا الجيش المملوكي حق المرور. وقد صد المماليك ثلاث غزوات مغولية بقيادة الايلخانيين (من العراق وايران) عن سورية وفي سنة ١٢٩١ استولوا على عكا آخر مركز مسيحي غربي على الساحل السوري.

كان المسيحيون الغربيون والمسيحيون النساطرة يأملون في ان يعتنق السكان في المملكة الايلخانية المسيحية. ووصل رسل البابوية وفرنسة الى عاصمة الخان المغولي الكبير في قراقورم، قرب النهاية الشرقية للسهوب الاوراسية. ولكن لم ينته الامر الى شيء. وحكام الدويلات الغربية في السهوب الاوراسية اختاروا الاسلام لا المسيحية. وبعد ما اعتنق الايلخان غازان الاسلام (١٢٩٥) قام اتباعه من المسلمين بايذاء المسيحيين. وفي المنطقة الاسيوية من العالم الاسلامي نجد ان اعتناق افواج من

المسيحيين للاسلام الذي بدأ في القرن الحادي عشر مع انسياح التركمان بقيادة السلاجقة، نشط الآن والجماعات المسيحية من النساطرة واليعاقبة الذين كانوا اكثرية السكان في الهلال الخصيب تناقص عددها بحيث اصبح المسيحيون اقلية ضئيلة. وقد تناقص عدد المسلمين في الطرف المقابل من العالم الاسلامي في المناطق التي احتلها المسيحيون الغربيون، ثم زالوا بالمرة. ولم يتمكن لا البربر المرابطون القادمون من الصحراء ولا البربر الموحدون القادمون من الاطلس من وقف التقدم العسكري المسيحي في شبه جزيرة ايبريا، فسقطت قرطبة سنة ١٢٣٦ واشبيلية ١٢٤٨. وقد اقتصر الحكم الاسلامي بعد ذلك على حصن طبيعي حول غرناطة. وعلى كل فقد نجح الموحدون في اخراج النورمان الصقليين من الاماكن التي احتلوها على ساحل افريقية بعد سقوط المرابطين في الاربعينات من القرن الثاني عشر. وفي هذه المرحلة لم يقع اي جزء من افريقية تحت حكم المسيحيين الغربيين إلا موقتا.

وعلى كل فان المنطقة التي ازدهرت فيها المدنية الاسلامية بعد ارتداد الموجة في القرن الحادي عشر على الصعيد العسكري، لم تكن افريقية ـ لقد كانت شبه جزيرة ايبريا. لقد نشأ عن تمزق الخلافة الاموية في قرطبة الاثر الحضاري نفسه الذي نشأ عن تمزق الخلافة العباسية في بغداد على ايران، اذ كان الامران باعثين على التقدم. وفي شبه الجزيرة كان لقيام البلاطات الكثيرة الأثر ذاته من حيث زيادة عدد من يرعى الفنون والآداب. فقد ازدهر الشعر في الدويلات التي نشأت عن زوال الخلافة. وفي الوقت القريب السابق للفتح المسيحي للاندلس نفحت شبه الجزيرة الاسلام بالفيلسوف ابن رشد (١١٢٦- ٩٨) الذي كان صنو ابن سينا، وبالصوفي ابن عربي (١١٦٥- ١٢٤٨) الذي كان يرى رأي الغزالي في جعل التصوف عنصرا من عناصر الاسلام السني. وقد كان فضل شبه الجزيرة على الحضارة الاسلامية شبيها بما قدمته افريقية للثقافة المسيحية الغربية. لقد دامتا كلتاهما بعد اقتطاع الجزء الذي نما فيه كل منهما وانبعثت ثماره.

٦٥ـ عالم بزنطية ١٠٧١ـ ١٢٤٠

خلال السنوات العشر التي مرت بين انكسار الامبراطور رومانوس واسره على يد القائد السلجوقي الب ارسلان وتسلم الكسيوس الاول كومنينس، الامبراطور الاوتوقراطي الاسيوي الاصل، عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية اهدت هذه المؤسسة، للاتراك في اسية الصغرى قلب الامبراطورية الذي دافع عنه الاسلاف نحو ثلاثة قرون ضد هجمات العرب. ففي سنة ١٠٨١ كان الاتراك السلاجقة قد تغلبوا على الامبراطورية من الشرق والنورمان من الغرب والبشنغ (البشناق) والغز من الشمال. (والغز كانوا قد ازيحوا عن مواطنهم في السهوب الغربية على يد القبتشاق الى مجاري الدانوب الدنيا).

حكم الكسيوس الاول (١٠٨١ـ ١١١٨) وكان حريا بان يكون خليفة ديوقلتيان وهرقل، وقد انقذ الامبراطورية من الخراب مثلهما. كما ان يوحنا الثاني (حكم ١١١٨ـ ٤٣) ومانويل الاول (حكم ١١٤٣ـ ٨٠) كانا حريين بان يكونا خليفتين لألكسيوس ولكن لم يتمكن اي من هؤلاء الاباطرة الثلاثة من الحد من ازدياد قوة النبلاء الملاكين الاقتصادية والسياسية، ولا من السلاجقة والدنشمند الاتراك من اسية الصغرى. لقد كان البدو التركمان يحسنون التهرب. وكان الفلاحون اليونان المسيحيون يحسون بغربة بالنسبة الى الامبراطورية، ولقي الفلاحون الاذى الكثير على ايدي البدو. ولكن حين كان حكام سلطنة الروم السلجوقية يتمكنون من حماية الفلاحين من البدو التابعين للسلاجقة، كان الفلاحون يجدون ان نير السلطان المسلم اخف من نير حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية.

كان على الكسيوس ان يعالج الحملة الصليبية الاولى. كان العالم الاسلامي قد تخلص من التركمان بان قذف بهم الى ارمينية واسية الصغرى من املاك الامبراطورية الشرقية. فرد الكسيوس على ذلك بان قذف بالصليبيين الغربيين الى بلاد الشام. لكن

الكسيوس والصليبيين كانوا على خلاف في الرأي. كان الكسيوس يحب ان يستخدم الصليبيين مرتزقة لاخراج الاتراك من اسية الصغرى، لكن هدف الصليبيين كان القدس، ولم يكونوا يرغبون في ان يكونوا اعوان الامبراطور الشرقي ولا اتباعه. وفي النهاية فشل الفريقان في الوصول الى الهدف. فالامبراطورية الرومانية الشرقية لم تستعد داخل اسية الصغرى قط، والصليبيون، مع انهم استولوا على القدس، لم ينجحوا في احتلال داخل بلاد الشام. ومن ثم فان المواطىء الساحلية التي استولوا عليها ظلت بدون حدود داخلية يمكن الدفاع عنها امام البر الاسلامي الواسع. وقد نجح السلاجقة في اقامة سلطنة في اسية الصغرى لها سكان مستقرون، فيما تمكن نور الدين زنكي وصلاح الدين من الاحاطة بالممتلكات الفرنجية على الساحل السوري واخراج الفرنجة من القدس.

ان مانويل الاول بدد جهوده وبذر موارد الامبراطورية الرومانية الشرقية المتضائلة بان اتبع سياسة توسع كانت أكثر طموحا من تلك التي تبناها نقفور الثاني ويوحنا الاول وباسيل الثاني - اذ ان تلك المطامع لم تستطع الامبراطورية تحقيقها في الوقت الذي كان قلب اسية الصغرى بعد سليما. ولم تكن الحكومة قد هزمت في نزاعها مع كبار الملاكين للسيطرة على الفلاحين. ولم يتمكن مانويل من السيطرة على صربيا. ومع ذلك فقد شن حربا على هنغاريا (المجر)، وحاول استرجاع ابوليا بان تدخل في الحرب القائمة بين فردريك الاول (بربروسا) والمدن - الدول في شمال ايطالية. وقد تلا وفاة مانويل (١١٨٠) انهيار انتهى بنكبة هائلة.

كانت العلاقات بين مانويل والمسيحيين الغربيين ودية، لكن ميوله الفرنجية لم تشاركه فيها اكثرية مواطنيه. ان الامتيازات الاقتصادية التي دفعتها الحكومة الرومانية الشرقية للمدن - الدول الايطالية البحرية خلال القرنين السابقين، مقابل مساعدتها البحرية للامبراطورية، مكنت الايطاليين من انتزاع تجارة الامبراطورية الرومانية الشرقية الداخلية من ايدي اليونان. فحدثت في القسطنطينية (١١٨٢) مذبحة قتل فيها رجال اعمال غربيون. فرد النورمان الصقليون على ذلك بان دخلوا سلانيك (١١٨٦) ونهبوها. في سنة ١١٨٠ نفض صربيا عن كاهلها سيادة الامبراطورية الرومانية الشرقية. في سنة ١١٨٥ ثار البلغار (الذين كانوا رعايا الامبراطورية الرومانية الشرقية منذ ١٠١٨) على الامبراطورية واسسوا دولة مستقلة. وثورة البلغار هذه لم يقض عليها كما حدث في سنة ١٠٤١. في سنة ١١٨٥ خرجت قبرص عن الامبراطورية (لكنها وقعت

سنة ١١٩١ تحت سلطة الملك الصليبي الغربي ريتشارد الاول ملك انكلترا، الذي اهداها الى غاي دي لوزينيان (١١٩٢) ملك القدس افرنجي، الذي كان صلاح الدين قد اخرجه من القدس (١١٨٧) والذي لم تستطع الحملة الصليبية التاليه ان تعيده الى عرشه، وذلك تطييباً لخاطره).

والمصيبة الكبرى حلت بالامبراطورية الرومانية الشرقية في ١٢٠٣- ٤. فقد هوجمت القسطنطينية واحتلت مرتين من قبل قوة مشتركة من البنادقة والصليبيين الفرنسيين. في المرة الاولى قام المهاجمون بذلك لحساب مدع للعرش الامبراطوري الروماني الشرقي، وفي المرة الثانية كان العمل لحساب المهاجمين انفسهم. وكانت هذه هي المرة الاولى التي تمكن فيها اعداء من مهاجمة القسطنطينية واحتلالها منذ انشائها سنة ٣٣٣. وقد نهبت المدينة بمنتهى الوحشية، واتفق المهاجمون على اقتسام الامبراطورية فيما بينهم. لكنهم اثبتوا انهم عاجزون عن القيام بالمهمة كاملة، ونالت البندقية اكبر نجاح. فقد اختارت حصتها من الاسلاب: كريت وجزرا اخرى غيرها، ومواطىء على السواحل ذات قيمة استراتيجية. وقد قامت دولة مستقلة هي وريثة للامبراطورية الرومانية الشرقية وذلك في شمال غرب اسية الصغرى، وفي الطرف الشرقي في ساحل اسية الصغرى الشمالي وحول طرابزون وفي ابيروس، وعهد الى صليبي فرنسي امر القسطنطينية، فاتخذ لنفسه لقب امبراطور.

وقد ظهر نتيجة لذلك ان امتلاك القسطنطينية هو عبء ثقيل، وليس كسبا. فمن الناحية العسكرية كانت قلعة لاترام بين ٣٣٠ و ١٢٠٤، الا انها اصبحت ايضا كابوسا اجتماعيا واقتصاديا منذ خسارة سورية وفلسطين ومصر (٦٣٣- ٤٢). وقد كانت منذ ذلك الحين عاصمة اكبر بكثير مما يلزم لمساحة الامبراطورية الصغيرة. وقد زاد العبء ضغطا منذ خسارة قلب اسية الصغرى في سنة ١٠٧١ وما تلاها. واجزاء الامبراطورية التي وصلت اليها يد الامبراطور الفرنسي (١٢٠٤) كانت عاجزة بالمرة عن الحفاظ على القسطنطينية. ومن سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٦١ كانت هذه المدينة فراشا من الشوك للاباطرة الفرنسيين الذين جلسوا هناك في تلك المدة ـ من اولها الى آخرها.

وفي مقابل ذلك اظهرت الدول اليونانية المحلية الوريثة للامبراطورية حيوية اكبر من الحيوية التي اظهرتها الامبراطورية بالذات منذ وفاة باسيل الثاني (١٠٢٥). فالدولتان

اليونانيتان في شمال غرب اسية الصغرى وفي ابيروس كانتا في منافسة فيما بينهما. وكذلك مع الفرنجة. وكانت الدولة الاسيوية هي الرابحة ضد منافسيها من الفرنجة واليونان على السواء. (والامبراطورية اليونانية البعيدة في طرابزون لم تدخل حلبة النزاع). كانت دعوى الدولة اليونانية في غرب اسية الصغرى انها هي الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية الشرقية، واتخذ حاكمها اللقب الامبراطوري، واعترف له بالشرعية بطريرك القسطنطينية الارثوذكسي، الذي اتخذ نيقيه مركزا موقتا له، والتي كانت عاصمة الامبراطور اللاجيء. والامبراطورية الرومانية الشرقية النيقية (اي التي كانت نيقية عاصمة لها) كانت اكثر نجاحا في مجابهة سلطنة السلاجقة الرومية من الامبراطورية الرومانية الشرقية القسطنطينية بين سنتي ١٠٩١ و ١١٨٠. فقد وسعت امبراطورية نيقية حدودها شرقا وجنوبا على حساب سلطنة الروم. وازدهرت اقتصاديا وميزت نفسها في ميداني الادب والفن المنظور. وفي سنة ١٢٢٥ احتل امبراطور نيقية يوحنا الثالث (فاتاتزس) مركزا في اوروبة بانتزاعه موطئا بندقيا في غليبولي. في سنة ١٢٣٤ عقد يوحنا محالفة مع البلغار. وفي سنة ١٢٣٥ حاصر يونانيو نيقية بالاشتراك مع البلغار القسطنطينية من جهة البر. ومنذ تلك السنة اصبحت امبراطورية القسطنطينية الفرنجية تحيط بها امبراطورية نيقية اليونانية، واصبح طريق المواصلات الوحيد بين القسطنطينية الفرنجية والمسيحية الغربية هو الطريق البحري. والذين يمكن ان يهبوا لمساعدتها من الفرنجة كان عليهم ان يجابهوا الدردنيل (وكان شاطآه الآن في ايدي اليونان النيقيين).

لما حلت سنة ١٢٣٧ كانت البلاد الارثوذكسية الشرقية في جنوب شرق اوروبة في دور التقدم. فالامبراطورية البلغارية المجددة وامبراطورية نيقية اليونانية، كانتا قد اثبتتا انهما اكبر من مجرد قوة مماثلة للامبراطورية الفرسية في القسطنطينية. وصربيا التي كانت من قبل على هامش المسيحية الشرقية الارثوذكسية، وكانت - في المجال الديني - تتناوبها الكنيستان الشرقية الارثوذكسية والرومانية، اختارت الآن الارثوذكسية الشرقية نهائيا. والحكومة الامبراطورية اليونانية في نيقية اعترفت ببطريكية بلغاريا المجددة وانشأت رئاسة اسقفية مع سيادة ذاتية لصربيا. ومع ذلك فان جماع الدول الارثوذكسية في جنوب شرق اوروبة مع تلك القائمة في القفقاس كانت روسيا تتجاوزها مساحة وحجم سكان. واصبح اليونان والبلغار والكرج (الجورجيون) تتحداهم روسيا حتى في ميادين العمارة والفن المنظور والادب.

ان تاريخ روسيا الديني (من الناحية الادارية) للفترة التي تمتد خمسين سنة بعد اعتناقها المسيحية غامض. وثمة خلاف حول تفسير الدلالة التاريخية. لكن يبدو انه اعتبارا من سنة ١٠٣٩، على اي حال، كانت روسية مطرانية (اسقفية) تابعة للكرسي البطريركي في القسطنطينية. وضم روسيا الى الكرسي القسطنطيني وسع منطقة نفوذه بشكل كبير. فروسيا كانت واسعة، وكانت تتوسع شمالاً في شرق. وفي سنة ١١٦٩ نقلت عاصمة امير روسيا من كييف (القائمة على الدنيبر) الى فلاديمير الواقعة على كياسما، رافد من روافد الفولغا.

كان الكرج (الجورجيون) والانجاز والالان من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية. لكنهم حافظوا على استقلالهم لما اخضع ابناء دينهم من اليونان جيرانهم الارمن من اليعاقبة الكرجيين في النصف الاول من القرن الحادي عشر. ولم تشترك جورجيا في نكبة الامبراطورية الرومانية الشرقية سنة ١٠٧١، وقد صمدت لهجمات السلاجقة. وفي القرن الثاني عشر اقتسمت ارمينيا مع الدول التي كانت وريثة الامبراطورية السلجوقية العابرة. وفي حكم الملكة تمر (١١٨٤- ١٢١٢) كانت الممتلكات الخاضعة لجورجيا - مباشره او غير مباشرة - تمتد من ساحل البحر الاسود الى ساحل بحر قزوين القفقاسي.

وقد كان لخروج المغول من السهوب الاوراسية اثارا مختلفة على الاجزاء المتباينة من عالم بزنطية. وكانت جورجيا اول بلد ارثوذكسي شرقي يلحق به الضرر. فقد انزل بها الدمار الامير الخوارزمي الفار جلال الدين (١٢٢٥) والمغول انفسهم (١٢٣٦)، وفرض هؤلاء سلطتهم عليها. ومر التخريب المغولي بروسيا (١٢٣٧) اثناء سير المغول بطريق بلغار الفولغا الى اوروبة. ثم ثانية لما نهبوا كييف (١٢٤٠). وقد فرضت السيطرة المغولية على الولايات الروسية الشرقية القصوى. لكن غاليسيا (في الجنوب الغربي) وبسكوف ونوفغورود في الشمال الغربي حافظت على استقلالها، وبدأت نوفغورود تدور حول الامبراطورية وممتلكاتها لروسية اذ اخذت تتوسع شماليها، الى الشرق عبر جبال اورال. وقد افادت امبراطورية نيقية اليونانية بسبب انتصار المغول على سلطنة الروم السلجوقية (١٢٤٣) واخضاعها لحكمهم.

ان نكبات الامبراطورية الرومانية الشرقية (١١٨٠- ١٢٠٤) ونكبة روسيا (١٢٣٧- ٤٠) لم تنكب المدنية البزنطية عن التقدم ولم تمنعها من الانتشار. فقد

ربطت صربيا نفسها بالمسيحية الشرقية الارثوذكسية عن طريق بناء كنائسها على الاسلوب البزنطي، وكذلك كانت رسومها الجدرانية. والكنائس التي بنيت في فلاديمير وسزدال في القرن الثاني عشر كانت فيها خصائص ارمنية وكرجية (جيورجية) الى جانب الخصائص اليونانية. وكان نيكِتاس كونياتس، الذي خلف وصفه الحي لنهب القسطنطينية (١٢٠٤) آخر حلقة في سلسلة المؤرخين الذين دونوا، بشكل مستمر، التاريخ الروماني الشرقي من ٩٥٩- ١٢٠٤. والفيلسوف ميخائيل بسيلّوس (٩٧٦- ١٠٧٧) كان يدون حنائقه وتواريخه بشيء من التهاون اكثر من سلفه ليو دياكونوس، لكنه كان دقيقا في تحليله للشخصية. وقد كان هؤلاء اليونان البزنطيون يكتبون بالكويني الاتيكية، لكن تاريخ المسيحية الشرقية الارثوذكسية لم يدون باللغة اليونانية وحدها خلال تلك السنين. فالاخبار الرئيس الروسي دون بالصقلبية المقدونية في وقت مبكر من القرن الثاني عشر، لما كانت هذه بعد لغة حية.

٦٦ـ المسيحية الغربية ١٠٩٩ــ ١٣٢١

ان براعم المدنية المسيحية الغربية تفتحت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وتفتقت عن طاقة وحيوية متعاظمتين خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. لكنها اصابها بعض التوقف في الربع الاول من القرن الرابع عشر. فالتفجر السكاني الذي بدأ في المسيحبة الغربية في القرن الحادي عشر توقف ثم تراجع امام نكبة الموت الاسود (١٣٤٨). واستعادة اليونان للقسطنطينية (١٢٦١) واسترجاع العرب المسلمين لعكا (١٢٩١) وضعا حداً للمحاولة التي قامت بها المسيحية الغربية للتدخل في امور المشرق بالقوة، وهي التي بدأت في الحملة الصليبية الاولى. وسيادة البابا على المسيحية الغربية التي كان البابا غريغوريوس السابع قد فتح لها الباب، قضي عليها، ولو موقتا، لما اعتدى عملاء التاج الفرنسي على البابا بونيفاس الثامن (١٣٠٣).

تميز عصر ازدهار المسيحية الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر باعمال ضخمة، منها السيء والحسن. فمما يدخل في عداد الجرائم العامة الغربية احتلال ونهب القسطنطينية الارثوذكسية الشرقية (١٢٠٤) ولَنْغِدوك (١٢٠٨- ٢٩)؛ واحتلال وتملك بلاد الصقالبة على شواطىء البلطيق الجنوبية، الامر الذي تم خلال القرن الثاني عشر؛ ومنها حروب البابوية المريرة ضد فردريك الثاني وخلفائه. ومع ذلك فان هذين القرنين بالذات لمعت فيهما حياة اربعة من اعاظم الرجال: قديس هو فرنسيس الاسيزي (١١٨٢- ١٢٢٦)، وفيلسوف هو توما الأكويني (حول ١٢٢٥- ٧٤)، وشاعر هو دانتي الآليغيري في فلورنسا (١٢٦٥- ١٣٢١)، ورسام هو جوتو بوندوني من ريف فلورنسا (١٢٦٧- ١٣٣٧). وكان هؤلاء الاربعة ايطاليين. ولكن النحت الغربي بلغ ذروة الاتقان في فرنسة في القرن الثالث عشر، واسلوب البناء الغربي المعروف بالقوطي نماذجه الفخمة لا تزال قائمة على جانبي جبال

الالب، وهي التي تعبر احسن تعبير عن المثل المسيحية الغربية احسن تعبير. وهذا الاسلوب في العمارة جاء الغرب في القرن الثاني عشر عن سلاجقة الروم في اسية الصغرى.

والغالب من اجمل ما بني على الاسلوب القوطي - وهي كاتدرئيات مخططة على الخان السلجوقي - موجود شمالي الالب. وليس في الامر غرابة. فان ايطالية، رغم ما مر بها من البلاء في القرن السادس، لم تتعرض الى انقطاع عن ماضيها اليوناني - الروماني، على نحو ما اصاب اجزاء اخرى من المسيحية الغربية. ومن ثم فان اسلوب البناء الرومانسي كان اعمق جذورا، ولم يكن التخلي عنه امرا يسيرا. يضاف الى ذلك انه كان، في رافنا وفي البندقية، اللتين كانتا من قبل مراكز حدية للامبراطورية الرومانية الشرقية، كنائس بناها مهندسون على الاسلوب البزنطي. فكنيسة القديس مرقس الحالية، التي انتهى العمل فيها سنة ١٠٧١، مصممة على غرار كنيسة الرسل الاقدسين في القسطنطينية. وانه مما يدعو الى الدهشة ان قصر الدوج المجاور لها قد اعيد بناؤه على الاسلوب القوطي. ومما يدعو الى الاستغراب ايضا هو ان يقطع جيوتو صلته بالتقليد البزنطي، ويصبح اب الاسلوب الطبيعي في الرسم في الغرب الحديث.

كان اعتماد دانتي على الوزن الشعري التوسقاني بدل الوزن اللاتيني في كتابة « الكوميدية الالهية » حدثا هاما بالنسبة الى ما اوحي به من الشعر وكتابته في اللغات المحكية في العالم الغربي. كان دانتي يعي انه في عمله هذا كان يسير في خطى شعراء سابقين من شمالي الالب. الا انه بالنسبة الى توسقاني بالذات (اي دانتي) فان التحرر من قيود اللغة والادب اللاتينيين كان اصعب منه لدى شعراء ولدوا اصلا في فرنسية او في جرمانية. كان من الممكن ان يظل الايطاليون، من اهل القرون الوسطى، اسرى اللاتينية لغة الاجداد. ولعله كان من الممكن ان يهتدوا الى حل وسط فيكتبون الشعر اللاتيني الجدي باوزان الشعر الشعبي المعاصر واسلوبه. ولكن ايطاليي القرون الوسطى، بتحررهم من استرقاق لغوي للماضي اليوناني - الروماني بلغوا من النجاح حدا يفوق معاصريهم اليونان (في الامبراطورية الشرقية)؛ وجرأتهم هذه اتاحت لقدرتهم الخلاقة على العمل الحر. وقد خلقت ايطالية، في عصر دانتي، صيغة اقليمية مبكرة للمدنية الغربية. واحتاجت المسيحية الغربية، في بقية اجزائها، قرنين من الزمان قبل الوصول الى المستوى الحضاري الذي بلغته ايطالية سنة ١٣٠٠.

وخلال القرنين المنتهيين سنة ١٣٠٠ كانت المسيحية الغربية باجمعها تتقدم اقتصاديا. فعدد السكان ازداد، والانتاج نما والتكنولوجية زادت فعاليتها.

ودلائل ازدياد السكان في الغرب ماثلة في توسيع رقعة الارض المستغلة زراعيا، وفي ازدياد عدد المدن واتساعها وفي استعمار البلاد. وتواريخ بناء الاسوار دليل على اتساع رقعة المدن. ففي حالات كثيرة نجد ان السور الذي بني حول سنة ١١٠٠ بني آخر بدلا منه، بين حول ١٢٥٠ و ١٣٥٠، وكان يدور برقعة اوسع. وكانت شمال ايطالية وفلاندر اكثر المناطق مدنا على وجه البسيطة.

وقد سارت فلاندر قدما في صناعة الأقمشة الصوفية خلال القرن الثاني عشر، ولم تستطع فلورنسة من مجاراتها الا حول نهاية القرن الثالث عشر. وكان لفلاندر حظ الحصول على المواد الخام من الجيران ـ في الاراضي المنخفضة نفسها وفي انكلترا. والمدن الايطالية، وخاصة المدن الساحلية، كانت لها فرصة القيام بالتجارة البحرية بين المسيحية الغربية والمشرق. وكان اصحاب الاعمال، من ايطالية وفلاندر، يلتقون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، في الاسواق السنوية الاربع التي كانت تقام في فرنسة.

وازدياد عدد السكان كان، مع قيام المدن واستعمار شواطىء البلطيق، عاملا في تبديل التركيبة الاجتماعية للحياة الريفية. ففي القرنين التاسع والعاشر كان انعدام الامن سببا في نمو الاملاك الواسعة على حساب الممتلكات الصغيرة. وكان ثمة نقص في عدد السكان، ولذلك كانت « القطيعة » تستغل عن طريق تأجير اجزاء منها، على شرط ان يقضي المستأجرون اياما معينة في الاسبوع على « أرض السيد »، وهي الارض التي كانت غلتها للسيد نفسه. وما دام ثمة نقص في الايدي العاملة فان هذه الطريقة كانت الافضل لضمان استغلال الارض. الا ان هذا النظام كان غير فعال اقتصاديا ومجحفا اجتماعيا.

فالرقيق او القن يقوم بالعمل على الحد الادنى اذا قورن بالعامل المأجور، ومن ثم فانه لما ازداد عدد السكان سُرّ سادة القطائع، لانهم اصبحوا يستخدمون عمالا مأجورين بدل العمال الخادمين (على الأرض). كما ان الاقنان وجدوا ان العمال باجر اكرم من العمل السخرة. يضاف الى ذلك ان الاقنان الذين لم تبدل خدماتهم، كان بامكانهم الهرب الى مدينة حيث كانوا يحصلون على عمل صناعي، او كانوا يهربون الى المناطق

المعدة للاستغلال شرقي نهر الالبه (كانت هذه اصلا ارضا تمتلك حرة، مع انها اصبحت، فيما بعد، آخر قلعة اوروبية للاقطاع ونظام الاقنان).

واستعمار منطقة البلطيق كان ريفياً ومدينياً في آن واحد. كانت اول مدينة المانية على شاطىء البلطيق هي لوبك التي أُسست في ١١٤٣. وأُسست دانزغ حول ١٢٠٠ وريغا ١٢٠١ وريفال ١٢١٩. وقد اصبح البلطق بحراً المانيا وخليفته التجارية هي اسكندنافيا وروسيا. وفي القرن الثالث عشر اصبحت الشعوب الاسكندنافية، التي كانت مصدر ذعر للمسيحية الغربية، فريسة للمدن ـ الدول البحرية الالمانية، على نحو ما كانت المدن الايطالية عنصر ازعاج للمسلمين واليونان. وكان البلطق في طريقه لأن يكون الجزء المقابل للبحر المتوسط ولكن على مقياس اصغر. وفي مدى القرن (بين ١٢٥٠ و ١٣٥٠) كانت مدن فلاندر تستورد حبوبها من حوض البلطيق بدلا من المانية وفرنسة.

وقد خفف من ضغط السكان على الارض التقدم في التكنولوجيا. فمع ان اتساع الاراضي المستغلة زراعيا ادى الى نقص في الزبل ـ السماد، فان تنظيم الدورة الزراعية جعل الانتاج عن طريق تعاقب المزروعات افضل، كما انه قلل المساحة التي كانت تترك بورا، وجعل مواعيد الحرث والزرع اضبط، والمحراث الذي يجره الحصان كان قد اتقن صنعا في ١٢٠٠ وزاد عدد الطواحين المائية في الغرب المسيحي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كما انه بدىء بتركيب الطواحين الهوائية هناك بين حول ١١٦٢ و ١١٨٠.

ان المعادن، على العكس من الهواء والماء وقوة العضلات، هي مواد لا يمكن ان تعوض. وقد استهلك المصدر الواحد للمعادن بعد الآخر منذ ان عرف الانسان التعدين في الالف الرابع قبل الميلاد. في القرن العاشر للميلاد اصبحت المانية وبوهيميا المصدر الرئيس للمعادن بالنسبة للمسيحية الغربية، ولكن في القرن الرابع عشر كانت الطبقات السطحية والمناجم القريبة من السطح قد استنزفت، واصبح من الضروري ان يلجأ الى وسائل اكثر تعقيدا واساليب اكبر نفقة وتقنية للوصول الى الطبقات الاعمق من المناجم.

إن الحياة السياسية في المسيحية الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر طغى عليها عودة النزاع بين البابوية والامبراطورية. في الجولة الاولى من هذا النزاع التي انتهت سنة ١١٢٢، بالاتفاق حول قضية التنصيب، غطيت سياسة القوة بالمبادىء

الخلقية. وفي الجولة الثانية (١١٥٨- ١٢٦٨) ظهرت سياسة القوة عارية تماما وبدت منافسة بين البابوية والامبراطورية الغربية التي بعثت من جديد - وكانت المنافسة حول السيطرة على ايطاليه، التي اصبحت الآن المنطقة - المفتاح للمسيحية الغربية، والرابحان كانا المدن الايطالية وفرنسة. والامبراطورية والبابوية كانتا كلتاهما خاسرتين.

إن الامبراطور فردريك الاول (من اسرة هوهنشتاوفن) جرب ان يفرض حكما اوتوقراطيا على المدن - الدول اللومبارديا، وفشل (١١٥٨- ٨٣). وقد ناصرت البابوية المدن - الدول ضد الامبراطورية في صراعها للاستقلال، لان المدن - الدول كانت الستار البري للبابوية ضد السلطة الامبراطورية في شمال الالب. ومن ثم فقد تسامحت البابوية مع المدن - الدول في حكمها الذاتي، لا في لومبارديا وتوسقانيا فحسب، بل وفي الممتلكات الايطالية التي كانت منحت للبابوية على يد بيبين الثالث وشارلمان. وكان الهدف الابعد للبابوية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر هو الهيمنة المسكونية على المسيحية جمعاء، وقد جعل هذا المطمح البابوي فوق كل دعاوى البابوية في السلطة المحلية. ولذلك فان البابوية لم تتسامح في الحكم الذاتي للمدن - الدول في منطقة رافنا (التي كانت تابعة للامبراطورية الشرقية) فحسب، ولكن حتى في دوقية رومة، بما في ذلك رومة بالذات. يضاف الى ذلك ان البابوية شاركت بعض المدن - الدول الايطالية ماليا وسياسيا. وكانت مصارف فلورنسة (١٢٥٠- ١٣٠٠) تقوم بجمع الضرائب البابوية نيابة عن المؤسسة نفسها.

كان للبابوية حليف آخر هو فرنسة، التي كانت مصلحتها تقضي بان تضعف سلطة الامبراطورية. وفي فترة النزاع بين البابوية والامبراطورية كان البابا الواحد بعد الآخر يجد ملجأ في فرنسة، من اوربان الثاني (١٠٨٨- ٩٩) الى انوسنت الرابع (١٢٤٣- ٥٤). كان فردريك الاول قد فشل في السيطرة على المدن - الدول الايطالية فجاء ابنه وخليفته هنري السادس بعوض عن ذلك باستيلائه على مملكة الصقليتين. وبهذا تمكنت اسرة هوهنشتاوفن بان تحصر البابوية والمدن - الدول في شمال ايطالية بين المانية ومملكة الصقليين. وقد كان إبن فردريك الثاني عبقريا: إذ انه كان يقدر على الاسهام في الحضارة الغربية واليونانية، التي كانت في مملكة الصقليتين، كما كان يشارك في الصيغة الايطالية للثقافة الغربية. لكن عبقرية ابن فردريك تحطمت على صخرة العداء الذي اثاره وفاته المبكرة.

وكان رد البابوية على عمل فردريك للاستيلاء على ايطالية ان شنت حرب ابادة ضد اسرة هوهنشتاوفن، ونجح لوربان الرابع (١٢٦١- ٤) وكلمنت الرابع (١٢٦٥- ٨) في ذلك. وقد نجحا لانهما اقنعا اميرا فرنسيا - هو شارل انجو - بانتزاع مملكة الصقليتين من خلفاء هنري السادس. ولكن البابوية اذ قضت على قوة زمنية واحدة، وضعت نفسها تحت رحمة قوة زمنية اخرى. ففي سنة ١٣٠٣ وضع التاج الفرنسي حدا للهيمنة البابوية على المسيحية الغربية، كما قضت البابوية من قبل على مكانة الامبراطورية مستعينة على ذلك بفرنسة.

اضاعت الامبراطورية، بسبب هذا النزاع الطويل الخاسر للسيطرة على ايطالية، سلطتها على المانية، التي كانت موطن الامبراطورية. ففي القرنين العاشر والحادي عشر كانت سلطة التاج الجرماني اكثر فاعلية بين رعاياه من سلطة التاج الافرنسي بين رعاياه. وفي سنة ١٣٠٣ كان فيليب الرابع في وضع يمكنه من الحصول على تأييد النبلاء في مملكته، الدينيين والمدنيين على السواء، في رفضه حجة البابوية في رغبتها في الهيمنة، التي كان يقول بها بونيفاس الثامن. وكان نبلاء المانية في ذلك الوقت قد اصبحوا حكاما ذوي سيادة وكانوا يرفضون الخضوع للامبراطور.

ومؤسسة الاقطاع وتاريخها الاقليمي تظهر مدى تقدم سلطة التاج في فرنسة وتدهورها في المانية. فالاقطاع، مثل القنية (نسبة الى القن)، هو صلة اجتماعية اساسها ان منح استغلال الارض يدفع بدله خدمة شخصية (فالخدمات الاقطاعية عسكرية، اما خدمة القن فهي اقتصادية). فمنح التصرف الاقطاعي معناه ان السلطان ينقص حقه في السيادة لانه يعقد اتفاقية مع احد رعاياه، بدل الحصول على حقوق السلطان كاملة. واذا اصبح التصرف الاقطاعي وراثيا، تصل خسارة السلطان حدها الاقصى. وقد ظهرت الاقطاعات الوراثية في فرنسة (فرنسية الغربية) منذ القرن التاسع، لكن منذ نهاية القرن العاشر اخذ التاج الفرنسي يسترجع سلطته. اما في فرنسية الشرقية (المانية) فقد تأخر الاقطاع الوراثي في الظهور، لكن في القرن الثالث عشر كانت العملية تسير بخطى مسرعة. وكان السبب هو اصرار التاج الالماني، ولكن دون نجاح، في ان يفرض سلطته على مملكة ايطالية. واذ سار نحو هدف كان بعيدا عليه، خسر التاج الالماني سيطرته على موطن الامبراطورية. لقد كان التاج الامبراطوري عبئا اضافيا، وكان هذا كابوسا لم يدع التاج الفرنسي الى الاضطلاع به.

وقد خسر الفريقان المتنازعان، الامبراطورية والبابوية، السلطة. وكانت خسارة الامبراطورية سياسية؛ واما خسارة البابوية فكانت ادبية - إلا ان هذه الخسارة الادبية رافقتها خسارة سياسية ايضا. ذلك بان البابوية، منذ ايام غريغوريوس السابع، جربت ان تنفذ الى السلطة السياسية بطريقة غير مباشرة، اعتماداً على مكانتها الادبية التي انعشت من جديد. وهذا الخلل الادبي في مثالية الهيمنة البابوية على المسيحية الغربية بدا واضحا في الطريقة التي قادت البابوية بها حملتها ضد الامبراطورية.

كانت البابوية بحاجة الى المال لمحاربة الامبراطورية، وقد اوجدت وسائل مجحفة لجمع المال. فقد اقامت جهازا اداريا فعالا لفرض الضرائب على رجال الدين في المسيحية الغربية باجمعها. وكان هذا المصدر دارا للارباح بحيث ان اصحاب النفوذ من السلاطين المدنيين اقتطعوا لهم حصة من هذه لارباح، فيما وجد اصحاب المصارف الايطاليون ان الامر مربح بحيث اصبحوا وكلاء البابوية الماليين. وكان ثمة مصدر آخر للضرائب البابوية وهو الرسوم التي كانت الكوريا تتقاضاها بوصفها المحكمة الاستثنائية العليا، وكذلك بوصفها محكمة من الدرجة الاولى في القضايا التي كان المحامون الكنسيون ينقلونها اليها. واكتشاف مدونة جستنيان الاول القانونية، ادى الى وضع ما يقابلها من مجموعة للقوانين الكنيسة. ولما اصر فردريك الاول على حقوقه الملكية بوصفه خليفة لجستيان، قاومه اثنان من الباباوات هما اسكندر الثالث (١١٥٩- ٨١) ولوسيوس الثالث (١١٨١- ٥)، وكلاهما بدأ حياته كمحام كنسي.

اذهل نهم البابوية للسلطة، واستخدامها المال والقانون وسيلتين لتحقيق هدفها، اصفى ارواح عرفتها المسيحية الغربية. فالقديس برنارد رئيس دير كليرفو احتج ضد تزمت البابوية القانوني وضد جشعها. ولم يكن برنارد نفسه خاليا من العيوب. فقد كان يضيق ذرعا بالتحرر الديني حيث كان - لا فرق في ذلك بين الفيلسوف ابلارد ونساك لانغدوك وصقالية البلطق او مسلمي الشرق. وقد ورط نفسه بين المتنافسين على البابوية، إلا انه لم يطلب لنفسه وظيفة دينيا، ولم يكن ثمة شك في اخلاصه. وقد كان نبيل المحتد إلا انه تخلى عن ذلك كله لينضم الى فرقة الرهبان السريين، وضحى شخصيا في سبيل مبادئه. ومن اجل ذلك كان الاكثر احتراما والابعد نفوذا من ابناء

جيله في المسيحية الغربية. فكن انتقاده للبابوية بسبب خروجها عن السبيل الذي سنته مبادئها المعلنة، كان له سلطان وكان مؤذيا لها.

كان القديس برنارد يتقيد بالاراء الكنسية الصحيحة (الصحيحة بالنسبة للعرب لا بالنسبة للارثوذكسية الشرقية). وقد كان ثمة نقاد آخرون للبابوية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، من الذين اتبعوا نماذج من المسيحية او حتى نماذج غير مسيحية. وزعماء هذه الحركات، المحتجة ضد البابوية، تضامنوا فيما بينهم على التطوع نحو الفقر - وهو عمل تطوعي لان هؤلاء لم يكونوا فقراء المولد. فهم، مثل القديس برنارد، كانوا يضحون شخصيا للاحتجاج على مادية البابوية واهتمامها بامور الدنيا، واحتجاجا على « مؤسسة رجال الدين، المسيحيين اجمالا ».

فالقديس فرنسيس الاسيزي، وهو ابن تاجر اقمشة كبير ناجح، تحدى اباه والتزم بالفقر. وعاش كما عاش السيد المسيح، على ما جاء في الاناجيل. ولما طلب منه تلميذه برنارد (كونتفال) ان ينضم اليه ويعيش مثله، سر بذلك. إلا ان فرنسيس كان متواضعا بالاضافة الى التزامه بالفقر، ولم يكن فرنسيس يفكر في انتقاد البابوية او تزعم حركة ضدها. كل همه كان ان يسير سيرة المسيح. على ان هذا لم ينقذه من ان يُعَدُّ مع خصومها، لأن التزامه بالفقر كان نقدا عمليا للبابوية. وقد تنبه البابا انوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦) والبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧- ٤١) الى الوضع المشين الذين وجدت الكوريا (البابوية) نفسها فيه بسبب تصرف فرنسيس. وقد احسا، والالم يحز في نفسيهما، بالصوت الكبير الذي كان ينتقد الكوريا في انحاء المسيحية. لذلك ارادا ان يفيدا من القديس فرنسيس بدل ان يقضيا عليه. وكان عملهما يدل على ذكاء، لكن الباعث عليه لم يكن خاليا من الدافع الشخصي المصلحي.

لعلّ القديس فرنسيس كان يفضل ان يستشهد في جولته الاولى مع الكوريا، ولا يرى الرهبنة الفرنسيسكانية تصاغ (على يد غريغوريوس، وهو كردينال بعد، والاخ الياس) على شكل لم يعد كما اراده المؤسس. وعلى كل فان فرنسيس كان ملتزما بالفقر والتواضع والالم النفسي والجسدي، وبذلك فان هذه الرهبنة لا تزال قائمة الى الآن ولا تزال المنظمة تعمل بروح فرنسيس.

والواقع ان اضفاء التنظيم (اي جعل الشيء « مؤسسة ») هو ثمن الاستمرار والبقاء. واضفاء « المؤسسة » على شيء له قيمة روحية عظيمة للاجيال التالية اقل شرا من

خسارة الروحية فيه. وقد فهم غروغوريوس والياس ذلك وتحملا المسؤولية. وبذلك انقذا كنز فرنسيس.

وكانت طريق القديس دومينيك (١١٧٠- ١٢٢١)، معاصر فرنسيس ومؤسس الرهبنة الدومينيكانية، اسهل. فقد التزم بالفقر، اذ انه كان يحارب الطمع مثل فرنسيس. إلا ان روح القديس دومينيك كانت اسرع قبولا لشكل « المؤسسة ». وقد اغتنت المدن الناشئة في المسيحية الغربية روحيا بانشاء الاديرة الفرنسيسكانية والدومينيكانية والمكتبات وقاعات المحاضرات، ولو ان القديس فرنسيس كان يرى في كل هذا ما يعوق السير على طريق المسيح. ومع ان الاخ الياس احتفظ ببعض الثقة في عين فرنسيس، فانه كاد يكون له موقف آخر منه لو ان القديس كان رأى الاخ يجمع اموالا ليبني بها كنيسة تكريما للقديس فرنسيس.

القديس فرنسيس ادرك ما الذي يتوجب على مسيحي غربي ان يفعله. وغريغوريوس والياس عرفا ما الذي يجب ان يفعل بالرهبنة الفرنسيسكانية. ولكن في الجيل السابق للقديس فرنسيس تنبأ يواكيم الفيوري (١١٥٤- ١٢٠٢) (وهو نزيل انضم الى الرهبنة) بان السنة ١٢٦٠ ستكون حدا فاصلا في التاريخ. فعصر الابن خلف عصر الاب لما ولد المسيح؛ والآن جاء دور عصر الروح القدس ليخلف عصر الابن. ومع ان تلك السنة كانت هامة في التاريخ اذ ادركت البابوية انها لن تستطيع انتزاع مملكة الصقليتين من خلفاء فردريك الثاني بدون عون عسكري من فرنسة، لكن عصر الروح القدس لم ينبثق فجره.

وقد احدث قيام المدن والثراء غربة في الانسان نحو امه الارض، وهاتان العلتان اخذتا تنتشران في المسيحية الغربية ايام القديس فرنسيس. والاجيال التالية له كانت مدينة له لا لأنه التزم بالفقر فحسب، بل لانه كان يشعر داخليا بالحب لكل مخلوق حي، للنبات والحيوان والطير. وقد بدا هذا في تصرفه، كما بدا فيما خلف من تراث!

٦٧ـ آسية الشرقية ١١٢٦ـ ١٢٨١

كان سقوط امبراطورية سونغ العسكري (١١٢٦) شائنا. فقد احتل الجورشيد حوض النهر الاصفر (وهو مهد المدنية الصينية) واستولوا على العاصمة (كايفونغ). وقد انقذ ما تبقى من الامبراطورية مجاري الماء المتعددة في المجاري الدنيا لنهري هواي ويانكتسي والجبال الوعرة خلف ذلك. والعاصمة الجديدة لين ـ أن كانت ملجأ موقتا، لكنها ظلت عاصمة ما تبقى من امبراطورية سونغ.

وفي الجزء الجنوبي من الامبراطورية، الذي حفظته اسرة سونغ من ١١٢٧ إلى ١٢٧٩ اصبحت لين ـ أن احدى اكبر واجمل ما وقع في النفس من مدن الاويكومين. وكانت بقية الامبراطورية تتمتع بازدياد في السكان وزيادة في الانتاج الزراعي وتمصير المدن والتجارة (الخارجية والداخلية) والتسهيلات المالية. وقد استخدم النقد الورقي في السوق ـ اولا على ايدي الخاصة، ثم من قبل الحكومة نفسها. وقد اشرنا الى تقدم الفنون والصناعات الصينية ايام اسرة سونغ (الفصل ٥٩). وكانت هذه الامبراطورية المجزوءة، خلال المدة من ١١٢٧ الى ١٢٧٩، اكثر عدد سكان، واكبر ثراء، من امبراطورتي الهان وتانغ، لما كانت الامبراطورية في اكبر اتساع وقوتها العسكرية على اشدها. الا ان وضع المرأة تأخر في اواخر عصر سونغ، فوضع رجل البنت في قالب من المعدن، بدأ في ذلك الوقت.

ولم توقف نكبة ١١٢٦ تقدم الفلسفة الكونفوشية الحديثة. وكان على الكونفوشيين الحديثين، اذا رغبوا في ان يكونوا بدلا عن الماهايانية، ان يدخلوا عالم ما وراء الطبيعة، وهنا افترق الاخوان تشنغ. فتشنغ لي كان يرى ان الطبيعة البشرية هي ظاهرة واحدة من الظواهر الغريبة للحقيقة النهائية. وتشنغ هاو كان يرى ان الطبيعة البشرية والحقيقة النهائية هما توأمان. وقد تبنى تشوهسي (١١٣٠ـ ١٢٠٠) تشنغ يي ونظم

مذهبه، وبسبب هذا التنظيم اصبح الصيغة الرسمية للكونفوشية بالنسبة الى طلاب الوظائف والممتحنين. وتولى ليو تشيو - يوان (١١٣٩- ٩٣) مذهب تشنغ هو. وهذا المذهب ظل له ممثلوه. اما ما اتفق عليه الكونفوشيون الحديثون فكان بالغ الاهمية: كانوا جميعا خصوماً للطاوية والبوذية؛ وشعر الجميع ان الاخلاق اكبر اهمية من ما وراء الطبيعة. والكل انتقدوا انسحاب عقلاء البوذية من المجتمع.

شهدت اليابان (٩٣٥- ١١٨٥) انتقالاً مستمرا في السلطة والثروة من البلاط الامبراطوري الفخم في كيوتو الى النبلاء الاقليميين والانتقال من السلم الداخلي الى حروب واضطرابات اهلية. وحتى العاصمة نفسها كانت تزعجها هجمات مسلحة يقوم بها الرهبان البوذيون. وقد انتهت حرب اهلية هناك الى قيام دكتاتورية (١١٨٥) على البلاد باجمعها. وعلى كل فالفترة باكملها كانت، من الناحية السياسية فترة اضطراب وثورات وحروب. لكن قيام الدكتاتورية (١١٨٥) ادى الى حكم فعال ناجح، استمر الى ١٢٨٤، فزاد دخلها القومي، ولو ان توزيعه ظل بعيدا عن المساواة. وقد هاجم المغول اليابان (١٢٧٤) وثانية (١٢٨١) بعدما قضوا على امبراطورية سونغ. وفي المرتين رد اليابانيون، بمساعدة العواصف، الهجوم المغولي.

وقد قدمت هذه الحكومات الدكتاتورية لليابان خدمات مدنية جلى في الميدانين الديني والفكري. فقدمت البوذية الى اليابانيين (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر) بشكل مبسط واضح. ومنها بوذية « زِنْ » التي اعجب بها الجنود. وقد كان لهذه المذاهب المبسطة اتباع في اليابان حتى في سبعينات القرن الحالي.

٦٨- المغول وخلفاؤهم

كان المغول شعبا من البدو الرعاة يقيمون اصلا في الزاوية القصوى شمالا في شرق من السهوب الاوراسية. وفي القرن الثالث عشر خرجوا فجأة من السهوب. في ١٢٤١ وصلت جيوشهم غربا الى نهر الاودر وشاطىء الادرياتيكي الشمالي الشرقي. وفي ١٢٦٠ هاجموا سورية وفي ١٢٧٤ احتلوا بورما العليا. وهذه الفتوح التي حملتهم الى هذه الاصقاع النائية، خططت ونفذت تحت قيادة واحدة منذ ان تولّى تيموشين ١١٦٢- ١٢٢٧ (الذي صار اسمه جنكيزخان اعتبارا من ١٢٠٦) السلطة حاكما مستقلا، الى وفاة حفيده وخليفته الثالث مُنْغِكِه (١٢٥٩)

كان خان المغول الكبير يحكم، سنة ١٢٥٩، رأسا او بالتفويض من عاصمته في قراقورم منطقة تمتد من شاطىء المحيط الهادي الشمالي الغربي الى منابع الفولغا ومجرى الدانوب الادنى، ومن بحيرة بايكال الى شمال فيتنام. وقد ضمت امبراطورية المغول فيما بعد ما تبقى من الصين خارج نفوذها.

ظلت الوحدة السياسية مدة قصيرة (١٢٤١- ١٢٥٩)، ولكن ادارتها كانت قوية في تلك المدة. وفي هذه الفترة جمعت الامبراطورية بين مدنيات اقليمية كانت تتطور كل لوحدها من قبل، دون ان تعرف الواحدة بوجود الاخرى.

ومع ان شعوباً من الهون، بدءاً من القرن الرابع للميلاد، كانت قد خرجت من السهوب وانشأت دولا هنا وهناك، فان امبراطورية المغول كانت المحاولة الوحيدة للهون التي ملكت هذه الرقعة الواسعة، التي كانت سهوبا تحط بها، من جميع الجهات، بلاد متحضرة. وطوال هذه المدة (١٢٤١- ٥٩) كانت تنتظم شؤون هذه الامبراطورية منظمة دقيقة هي البريد.

كان الغرض الاول من تنظيم البريد تسهيل حضور زعماء المغول الى

العاصمة - قراقورم - على جناح السرعة. الا ان هذا التنظيم نفسه كان ييسر للامراء والرعايا واسرى الحروب والمغامرين المتطوعين، للحصول على عمل او وظيفة، والتجار ان يتنقلوا في الامبراطورية. فملك كيليكيا (في ارمينية) زار قراقورم (١٢٥٤) وكان اخوه قد سبقه اليها (١٢٤٧- ٨). وعلى هذه الطرق سار الفرنسيسكاني جوفاني دي كاربيني من ليون الى قراقورم ذهابا واياباً (١٢٤٥- ٧) ممثلا للبابا انوسنت الرابع. كما سار عليها وليام روبروك (١٢٥٣- ٥) من عكا الى العاصمة المغولية ممثلا للويس التاسع ملك فرنسة. وكانت الفكرة من هاتين البعثتين احتمال قيام تحالف مغولي اوروبي مع امكانية اعتناق المغول المسيحية. لكن لم يكن لهذه المحاولات نتائج في اي من القضيتين (وفي نهاية المطاف اعتنق المغول الاسلام).

وكان ثمة نتائج ثقافية لهذه الطرق التي كانت محروسة تماما. يصف وليام روبروك اجتماع المسيحيين في قراقورم في عيد الفصح (١٢٥٤)، وقد جاءوا من اصقاع مختلفة، وكانوا من كنائس متنوعة.

في سنة ١٢٧٩ اتم قوبلاي خان (حفيد جنكيز خان وخليفته الرابع) احتلال امبراطورية سونغ الصينية. والمغول لم يحكموا الصين بواسطة الموظفين الكونفوشيين، بل استعملوا المسيحيين والمسلمين في اعمالهم. فمن ذلك ان عملاء قوبلاي خان في بدء فتحه للصين (١٢٥٣) كانوا مسلمين من اواسط اسية. وفي ١٢٧٤ كان نحو ثلاثين الفا من الالان، وهم مسيحيون ارثوذكس، يعملون في جيش قوبلاي خان. وقد عمل ماركوبولو مدبرا في الصين لقوبلاي خان (حول ١٢٧٥- ٩٢) كما عمل السيد « أجَل »، من ١٢٧٤ الى ١٢٧٩، اذ نظم ولاية يونان الجديدة. وقد وصل الاسلام الى يونان وشمال غرب الصين وبقي هناك. والفن الصيني اثر في الفن الايراني، لما فتح المغول ايران (١٢٢٠- ٥٧).

كان جنود قوبلاي خان، المسيحيون والمسلمون على السواء، قد جيء بهم من اماكن نائية. لكن المغول كانوا يستخدمون القادرين من المناطق الاقرب. ذلك بان البدو الرعاة في الاطراف الشرقية للسهوب الاوراسية كانوا على اتصال بالمدنية الصينية التي انتقلت اليهم عبر التيبت والخيتان. وكانت القبائل القاطنة في السهوب وجوارها تزحم الواحدة الاخرى فتدفعها الى الهجرة القريبة او البعيدة. وما قيام دولة الجورشيد بقيادة تيموتشين (١٢٠٣) الا مثلا على ذلك. وتيموتشين، كما عرفنا من قبل، هو

جنكيزخان. وانتصارات جنكيزخان كان يرافقها الافادة من اصحاب المواهب مثل ضمه المسيحيين النساطرة (بعد انتصاره عليهم) الى حظيرة ملكه. كما انه افاد من التجار المسلمين الذين كانوا في بلاده. وكان جنكيزخان يقبل النصيحة ويستشير دوما.

كان الاوغور شعبا تركيا انتقل من البداوة الى الاستقرار. وقد كان بينهم مانويون (منذ ٧٦٣) ونساطرة وبوذيون. وكانوا يستعملون الالفبا السريانية، التي كتبوا بها لغتهم التركية ودونوا بها الطقوس الدينية المانوية والمسحية النسطورية. وقد عهد جنكيزخان الى حامل اختامه الاوغوري بان يقتبس الكتابة السريانية للغة المغولية، وذلك لتدوين القانون المغولي العرفي (الياسا).

اعان جنكيزخان في ادارته مهارة مستشاريه من الاوغور والخيتان والمسلمين، والفضائل العسكرية التي كان الجندي المغولي يتمتع بها، وشخصيته الطاغية ومقدرته الدقيقة في اختيار الرجال المحيطين به ـ للحرب والسلم. وكان حرسه الخاص (وبذلك يشبه حرس الاسكندر) نوعا من كلية للضباط، بحيث كان يختار منهم من خبره وعرفه شخصيا. فالنجاح السياسي والحربي الذي حققه جنكيزخان هو نتيجة شخصيته ومقدرته على التنظيم مع استعداد المغول للقتال والصبغة المدنية التي قبسوها من احتكاكهم بالجيران.

الحروب المغولية كان منها احتلال بغداد وسقوط الخلافة العباسية (١٢٥٨). والرعايا البدو الذين وقعوا تحت الحكم المغولي لم يصبهم ضرر لا في انفسهم ولا مراعيهم. كل ما شعروا به هو تبدل في القيادة. لكن يد المغول على الجماعات المستقرة والمتحضرة كانت قوية، والخراب والقتل اللذان تما اثناء حروبهم لا مثيل لهما. وشرها تم في حملات جنكيزخان في دولة خوارزمشاه (١٢٢٠- ٢١) وحملات باتو في الغرب (١٢٣١- ٤١) وحملات هولاكو في العراق (١٢٥٨).

عجز المغول عن احتلال اليابان (١٢٤٧ و ١٢٨١) وتحطمت سفنهم لما حاولوا احتلال جاوى (١٢٩٢) كما تغلب عليهم المماليك في عين جالوت بفلسطين (١٢٦٠) كما صدوهم عن سورية ثلاث مرات اخرى (١٢٨١ و ١٢٩٩- ١٣٠٠ و ١٣٠٣). وقامت حروب اهلية بين شعوبهم (بين الايلخانات في ايران والعراق والقبيلة الذهبية). وقد تحالفت القبيلة الذهبية مع المماليك، وعندها صار التجار البنادقة يصدرون الى مصر الرقيق المتجمع من ممتلكات القبيلة الذهبية. على ان الحروب

والخلافات بين الشعوب المغولية كانت كثيرة. وقد حكم المغول الصين منذ اتمام الاحتلال (١٢٧٩) حتى ١٣٦٨- وقد نقل قوبلاي خان عاصمته من قراقهورم الى بكين ١٢٦٠- ٧ (وبعد ذلك اتخذ لاسرته لقبا صينيا هو يُوَان). ولكن المغول لم يفيدوا كثيراً من المدنية الصينية على عكس الخيتان. فلما سقطت اسرة يُوَان الصينية - المغولية (١٣٦٨) اجليت الفرق فاجتازت سور الصين الكبير مبتعدة عنه، الى مراعي الاجداد، دون ان تحمل معها مدنية صينية. اما الخيتان فانهم لما اصبحوا لاجئين في اواسط اسية حملوا معهم المدنية الصينية واقاموا هناك حكما اسلامياً دام نحو قرن من الزمان.

تم في ايام المغول عمل بناء ضخم في الصين. فقد اتم قوبلاي خان (١٢٨٩) حفر القناة الكبرى الى الشمال من هانغشو (لين - ان) الى بكين. واثناء الحكم المغولي للصين اهمل الادب الكونفوشي الى حد ان نشأت تقاليد ادبية جديدة، في القصة والتمثيلية، واستعملت فيها اللغة الحية المعاصرة. ومع ان الادب الكونفوشي عاد الى سابق مجده بعد اخراج المغول، فان النوعين الجديدين من الادب ظلا قائمين.

ان حكام الصين من المغول لم ترق لهم لا مدنية الصين ولا الصيغة الروسية للمدنية المسيحية الشرقية. اما المغول الذين اصبحوا سادة العراق وايران وزعماء القبيلة الذهبية (التركية اللغة) فقد اسرهم الاسلام - وهذا نوع من انتصار مدنية المغلوب المستقر على الغالب البدوي.

في النصف الثاني من القرن الرابع عشر تمكن رعايا القبيلة الذهبية وخانات تشاغاتاي من استعادة سلطانهم ضد حكامهم المغول. فاخراج المغول من الصين (١٣٦٨) سبقه القضاء على الايلخانيين في العراق وايران (١٣٣٥) والقضاء على احفاد باتو.

وقد اقام زومان الذين هاجروا من هنغاريا ولايتي ولاخيا وملدانيا، بعد ان ازاحوا حد القبيلة الذهبية الجنوبي الغربي من مجرى الدانوب الادنى الى الضفة الغربية لنهر الدنستر. وقد وصل لتوانيون من غابات البلطق الى ساحل البحر الاسود الشمالي مؤقتا. وفي سنة ١٣٨٦ اعتنقت لتوانيا المسيحية الغربية، واتحدت مع بولاندا. ولكن هذه الدولة الغربية الجديدة كانت مشغولة بوقف تعديات الفرسان التيوتون، لذلك لم تخلف القبيلة الذهبية.

في سنة ١٣٧١ جازف الامراء الروس وامتنعوا عن دفع الضرائب لخان القبيلة الذهبية

والخضوع له، وكانت عاصمته في ساراي على الفولغا. وفي سنة ١٣٨٠ تغلب امير موسكو على الخان، لكان الخان الجديد رد الكيل كيلين (١٣٨١) ونهب موسكو. ولذلك فان الروس لم يتمكنوا من تحرير انفسهم.

لكن الذين خلف القبيلة الذهبية وخانات تشاغاتاي كان تيمور التركي الذي كان يرعى السكان المتحضرين في ما وراء النهر من رعايا القبيلة الذهبية. حرر تيمور ما وراء النهر من خانات تشاغاتاي (١٣٦٢- ٧) وفي ١٣٦٩- ٨٠ وثم في ١٣٨٣- ٤ اغار تيمور على البدو المقاتلين مع خانات تشاغاتاي وعاقبهم، وفي سنة ١٣٨٠ كان قد حرر خوارزم. وفي سنة ١٣٩١ ثم في ١٣٩٥ هاجم تيمور سهوب القِبتشاق. وفي الحملة الثانية هاجم روسيا. وكان تيمور اول زعيم لاقوام متحضرة مستقرة يهاجم النصف الغربي من السهوب الاوراسية في اطمئنان الظافر.

توفي تيمور سنة ١٤٠٥ وهو في طريقه الى الصين. ولو ان تيمور لم يصرف جل طاقته في حروب، صحبتها قسوة على النموذج المغولي، لكان بامكانه، في الغالب، ان يجمع اجزاء الامبراطورية المغولية ويحكمها من سمرقند. وفي القرن الخامس عشر جرب احفاد تيمور ان يعوضوا عن قسوة تيمور بان رعوا اهل القلم والفلكيين، الا انهم كانوا ضعيفين، حربيا وعسكريا. ويبدو واضحا ان خلافة المغول في املاكهم في قلب اويكومين العالم القديم، لم تقرر لا على يد تيمور ولا على خلفائه.

٦٩ـ العالم الاسلامي ١٢٩١ـ ١٥٥٥

في السنة ١٥٥٥ كان العالم الاسلامي اوسع رقعة عما كان عليه في ١٢٩١، والقسم الاكبر منه كان الآن مقسما بين ثلاث امبراطوريات كبيرة: الدولة العثمانية (التركية) في المشرق، والامبراطورية الصوفية في ايران، والامبراطورية التيمورية (المغولية) في الهند. وهذا، ولا شك، امر حري بالاهتمام اذا اعتبرنا المحن التي مرت بالعالم الاسلامي بين ١٢٢٠ (السنة التي هاجم فيها جنكيزخان ما وراء النهر) و ١٤٠٥ (وهي السنة التي توفي فيها تيمور).

كان حكام شمال الهند المسلمون قد بدأوا يحتلون الدكن سنة ١٢٩٤، وفي سنة ١٥٥٥ كانت كلها تحت حكم اسلامي. وفي الوقت ذاته كان جنوب شرق اوروبة، باستثناء جزء من هنغاريا، تحت حكم المسلمين. وهذا التوسعان تما حربا. ولم تعتنق اغلبية السكان في المنطقتين الاسلام. اما في قلب العالم الاسلامي فقد كان الاقبال على الاسلام كبيرا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بحيث اصبح غير المسلمين في هذه المنطقة اقلية. وقد انتشر الاسلام في جهات اخرى عن طريق القبول به دينا، لا عن طريق الفتح.

فالنوبة، مثلا، التي كانت سنة ١٢٩١ قد مر عليها نحو ثمانية قرون وهي تتبع اليعاقبة (القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح) اعتنقت الاسلام تدريجا بسبب تسرب القبائل العربية من مصر اليها في القرن الرابع عشر وما تلاه. وحتى ان النوبيين الذين احتفظوا بلغتهم، اعتنقوا الاسلام. وكان الاسلام يقبل عليه الناس في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر. وانتشر الاسلام في الملايو واندونيسيا، في القرن الخامس عشر، سلما على نحو ما انتشرت الهندوكية والبوذية من قبل. وفي هذه المنطقة لم يحل الاسلام محل الحضارة الهندية تأثيرا، وهي التي كان لها حضور هناك منذ نحو الف

سنة. لقد جاء الاسلام بعنصر حضاري جديد. والجماعات الاسلامية في يونان وقانصو في الصين، استمرت بعد زوال الحكم المغولي العابر، الذي قامت في ايامه.

كانت اقدم الامبراطوريات اتي توافقت زمنا سنة ١٥٥٥ الامبراطورية العثمانية. فقد كانت نواتها موجودة في ١٣٠٠، وفي ١٣٥٣ ثبتت اقدامها في اوروبة. وفي سنة ١٤٠٢ كانت اكثر اقسام الامبراطورية الرومانية الشرقية (قبل ١٠٧١) قد اصبحت تحت حكم الدولة الناشئة، مباشرة او بالواسطة. ومع ان تيمور انزل بالعثمانيين هزيمة منكرة (١٤٠٢) فان السلطان محمد الاول (حكم ١٤٠٢- ٢١) اعاد تجميع الاملاك الاوروبية والاسيوية، تحت حكمه. وقد ترك اثرا جميلا في بروصة هو الجامع الاخضر. ومحمد الفاتح (حكم ١٤٥١- ٨١) وضع الامبراطورية ونظمها الى اسس ثابتة. وغيّر سليم الاول (حكم ١٥١٢- ٢٠) معالم الامبراطورية لما اتجه في فتوحه شرقا وجنوبا في شرق. فقد جعل من الامبراطورية العثمانية وريثة للمماليك والامبراطورية الرومانية الشرقية. وفي سنة ١٥٥٥، ايام سليمان القانوني، وصلت الامبراطورية اوجها، وكانت لا تزال فيه.

وكان قيام الامبراطورية الصفوية (١٥٠٠- ١٣) كالشهاب، وقد وصلت حدها الاقصى في الشمال الشرقي (١٥١٢) مقابل البدو الازبكيين الذين انتزعوا ما وراء النهر من التيموريين خلال القرن الخامس عشر. كانت الامبراطورية الصوفية خطرا على العثمانيين (١٥١١- ١٤)، بحيث ان مؤسسها الشاه اسماعيل انذر العثمانيين بمعركة مثل معركة تيمور. لكن لما حصلت معركة شلدران (١٥١٤) كسر الفرس الى حد انهم كانوا (الى سنة ١٥٥٥) لا يزالون يحسون بالضربة. واحتل العثمانيون ديار بكر (١٥١٦) والعراق (١٥٣٤- ٦).

في السنة ١٥٥٥ احتل هومايون مملكة دلهي للمرة الثانية، التي كان ابوه بابور قد احتلها من قبل (١٥٢٦)، وكان قد عجز عن احتلال ما وراء النهر. كان بابور قد حالف اسماعيل (١٥١٢- ١٣) لكن سليم الاول العثماني كان مصدر خوف لاسماعيل شاه، لذلك انحسب بابور الى كابول وانتظر فرصة لاحتلال الهند.

وكان قيام كل من هذه الامبراطوريات الثلاث شيئا غير عادي. فالدولة لا تقوم بدون زراع وصناع وتجار يدفعون لها الضرائب ولا بدون جيش مدرب موال لها. لكن العالم الاسلامي، منذ اواسط القرن الحادي عشر، وهو يتعرض لهجوم تلو الآخر يقوم به بدو

رعاة. فشمال غرب افريقية والاندلس غزاهما بدو عرب وبربر؛ والعراق والجزيرة الفراتية دخلتهما قبائل عربية ايضا. والتركمان دخلوا ما وراء النهر وايران وارمينية واسية الصغرى. (وقد جاء التركمان في موجتين الاولى مع السلاجقة في القرن الحادي عشر، والثانية هربا من المغول في القرن الثالث عشر). وقد ضعف الانتاج عند الجماعات المستقرة المتحضرة، كما نقص دفع الضرائب بسبب وجود هذه الجماعات البدوية؛ ونقص الامران بسبب المصائب التي حلت بالعالم الاسلامي على ايدي المغول ثم على ايدي تيمور.

ولم يكن تيمور ولا جنوده بدوا رحلا، بل كانوا جماعة مستقرة، لكن تيمور تصرف بوحشية شبيهة بوحشية المغول. وجميع ضحاياه (باستثناء حملته على روسيا ١٣٩٥) كانوا من المسلمين: تشاغاتاي والقبيلة الذهبية وبغداد (١٣٩٣) ودلهي (١٣٩٨- ٩) وحلب ودمشق (١٤٠١) والممتلكات الاسيوية العثمانية (١٤٠٢). كانت اعمال تيمور مخربة وسلبية. وبعد وفاته (١٤٠٥) اخذت امبراطوريته بالذوبان تدريجا، وكان على الايدي البناءة ان تعيد بناء العالم الاسلامي.

حتى مطلع القرن الخامس عشر كانت دولتان مسلمتان فقط « سائرتين » في الطريق - سلطنة المماليك في مصر والشام، والمملكة البهمانية في الدكن. والعراق لم يكن قد صحا بعد من ضربة المغول (١٢٥٨). وحتى ذلك الوقت كان العراق على مستوى مصر في انتاج المواد الغذائية في اويكومين العالم القديم. لكن نظام الري في العراق تلف يومها، ولم يُعَدْ الى سابق عهده.

وقد نجا شمال الهند من المغول، كما نجت مصر، لكن شمال الهند لم ينج من حملة تيمور المخربة. وقبل ذلك كانت سلطنة دلهي قد تضعضعت. فبعد احتلال المسلمين للدكن، الذي كان قد بدأ سنة ١٢٩٤، جرب محمد بن طغلق (سلطان دلهي) ان ينقل العاصمة من دلهي الى الدكن، لكنه فشل (١٣٢٧- ٩). وبعد ذلك تقسمت مملكته. وفي سنة ١٣٤٧ اصبحت الممتلكات الاسلامية في الدكن تحت حكم الباهمانيين. وبين ١٤٨٢ او ١٥١٢ انقسمت هذه المملكة الى خمس دول متخاصمة.

في العقود الاخيرة من القرن السادس عشر كانت اهندوكية، قد انحطت قيمتها على المستوى السياسي في كل مكان في شبه القارة، اما على المستويات الاخرى فقد ظلت

في عافية؛ فاستجابت بطريقة خلاقة للاسلام. فكبير اظهر في شعره بالهندي، الحقيقة النهائية كما فهمها الاسلام والهندوكية. وجاء بعده ناناك (١٤٦٩- ١٥٣٩)، مؤسس ديانة السيخ وجماعتها. والامبراطور المغولي اكبر (حكم ١٥٥٦- ١٦٠٥) نظم تُلسي داس « الرامايانا » بالهندي، وهي لغة اكثرية سكان شمال الهند.

كانت دولة المماليك لا تزال سالمة سنة ١٤٠٥، فمع ان المغول وتيمور وصلوا بلاد الشام، قلعة مصر، فانهم لم يتجاوزوها الى مصر بالذات. فظل نظام الري في مصر سليما عاملا. وكانت البلاد آهلة بسكان منتجين وقادرين على دفع الضرائب. وكانت مصر يحميها جيش منتظم مدرب قوامه الجنود المماليك الذين كانوا اتراكاً أولاً ثم شراكسة. وكان السكان يقبلون على اعتناق الاسلام تدريجا، حتى اصبح المسيحيون اقلية. ولكن المسيحيين المصريين استمروا في عصر المماليك، كما كانوا يفعلون في العصور السابقة، يقومون بدور هام في الشؤون العامة كمحصلي ضرائب.

كانت المشكلة في الجزء الاسيوي من العالم الاسلامي (خارج سلطان المماليك والحكام الهنود المسلمين) في سنة ١٣٠٠ وما بعدها هي: كيف يمكن العودة الى بنيان سياسي مستقر مع وجود البدو التركمان في المنطقة. فاولئك المحتمل قيامهم بانشاء دول هم زعماء البدو انفسهم. وشجاعة القبائل في القتال هي اسس قوة الزعماء. وهؤلاء لا بد ان يعتمدوا على القبائل حتى يجدوا عوضا مناسبا لها. والى ان يحين ذلك كان يتوجب على الزعماء ان يطوعوا اتباعهم، او يقودوهم الى اماكن اخرى او باقناعهم اخيرا بان يتخلوا عن تقاليدهم القبلية والاستقرار زراعا وعمالاً.

حل سلاجقة الروم هذه المشكلة جزئيا في القرن الثاني عشر. ذلك بانهم اسكنوا اتباعهم بين سلطنتهم وبقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية، حيث كانوا يقومون بالجهاد ضد غير المسلمين. والجماعة المستقرة في داخل سلطنتهم كانت تتكون من الفلاحين الذين كانوا مسيحيون وكانوا يتكلمون اليونانية وكانت بينهم فئات هاجرت من ايران. لكن سقوط القسطنطينية بايدي الصليبيين (١٢٠٤) حمل امبراطورية نيقية اليونانية على الضغط على سلطنة الروم السلجوقية. وهجمات المغول الوحشية على السلطنة اضعفتها. ولما عادت القسطنطينية الى اصحابها (١٢٦١) خف الضغط على املاكهم في اسية الصغرى. وعاد التركمان الى السيطرة على تلك المناطق. ولنذكر ان دولة الايلخانات انتهى امرها سنة ١٣٣٥.

وهكذا فقد اخذ عدد من زعماء التركمان يطمح في ان يخلف سلطنة الروم السلجوقية والايلخانات. وكانت الجماعة التي كتب لها النجاح هي العثمانيون. فقد اسكنهم سلاجقة الروم (حول اواخر القرن الثالث عشر) مقابل المدن اليونانية الثلاث الهامة نيوكوميديا (ازميت) نيقية (ازنك) وبروصه (بروصه). فاحتل العثمانيون بروصه (١٣٢٦) وازنك (١٣٣١) وازمت (١٣٣٧). وهذه فتحت الطريق امام العثمانيين للتوسع. فلما استولوا على موطىء قدم على الشاطىء الاوروبي في غليبولي (١٣٥٣)، كانوا يسيرون في خطى اباطرة نيقية اليونانيين. ولما احتل العثمانيون ادرنه (ادريانوبولي) في سنة ١٣٦١ احكموا الطوق حول القسطنطينية.

كانت قوة العثمانيين ترتكز على تطويع التركمانيين وعلى جماعة من الذين اعتنقوا الاسلام وعلى جماعات من المسيحيين المنتجين عمالا ودافعي ضرائب الذين كانوا يقطنون في المناطق التي انتزعوها من المسيحية. وهؤلاء الرعايا المسيحيون المستقرون كانوا، من حيث العدد، يشبهون الرعايا الهندوكيين المستقرين الذين كانوا في الدولة الاسلامية في الهند. ومثل هذا الوضع لم يكن قائما في الدول الأخرى التي قامت في اسية الصغرى ولا حتى في الدولة الصفوية.

ان ترويض التركمان جاء عن طريق اصحاب الطرق الصوفية، لكن مثل هذا الامر كان خطرا بالنسبة الى المدنيين من بناة الامبراطوريات المسلمين. فالمتصوفة كانوا، في نظر السنة، يبعدون بعض الشيء عن الاسلام السني، ومثل ذلك يقال في « المؤسسة » الصوفية. وفي بعض الاحيان كان اثر المتصوفة بين التركمان اثارتهم بدل ترويضهم. فقد حدث، على سبيل المثال، مثل هذا في ايام محمد الاول، الذي لم يكد يتم تنظيم الدولة بعد انتصار تيمور الساحق عليها، حتى قام بدر الدين، وهو عالم اصلا، وصوفي فيما بعد، ودعا الجميع للثورة على العثمانيين. وقد اتضح ان اكثر العصاة في سنة ١٤١٦ كانوا من التركمان الناقمين. ووضع حد لثورته، لكن منظمته استمرت الى القرن السابع عشر.

وكان من التركمان من لم ينتم الى العثمانيين؛ وهؤلاء لم يرضوا عن خضوعهم ثانية للعثمانيين بعد ان حررهم تيمور. وقد قام التركمان الشيعة (الامامية) بثورة عارمة (١٥١١) كادت ان تعصف بالامبراطورية العثمانية لولا ان قضى عليها سليم الاول في ١٥١٢- ١٣ بقسوة وشدة. وقد كان جيش اسماعيل شاه مكونا من التركمان

الشيعة، ولكن بعد وفاته (١٥٢٤) اصبح هؤلاء، وعلى رأسهم زعماء من المتصوفة، عنصر ازعاج للامبراطورية الصفوية.

ان الدولة العثمانية لم تعتمد على القبائل التركمانية ـ حتى ولا التي هي منها ـ اصيلا. لقد كان هؤلاء يشجعون على الانسياح في الممتلكات العثمانية في اوروبة. لكن للمحافظة على ممتلكاتهم وللحصول على الرجال اللازمين لجيوشهم، كان العثمانيون يعتمدون على مصادر اخرى لذلك. لقد كان لديهم فرق من الفرسان الاقطاعيين ينفق عليها من واردات الاقطاعات التي لا تورث. وكان للمستأجرين الذين يدفعون الضرائب والفرسان الذين ينفق عليهم منها، حقوق معروفة تشرف الدولة على تطبيقها. ثم كان عند العثمانيين نظام يقضي بان يكون ثمة جيش من الرقيق. وقد كان هؤلاء اصلا يتاعون من الخارج او يؤخذون من اسرى الحرب. لكن قبل ان ينتهي القرن الرابع عشر كان العثمانيون قد اخذوا في سبيل تأمين جنود السلطان، بنظام الدفشرمه، اي اخذ صغار الصبيان (من الصرب والكرواتيين والالبان) وتدريبهم على فنون القتال وتعليمهم الاسلام وعلومه. وكان هذا النظام، الذي طوره مراد الثاني (حكم ١٤٢١- ٥١)، فعالا على ما قد يتصف به من قسوة.

كان هؤلاء يستخدمون اولا في الجيش، وكانوا يعرفون باسم يني تشاري (ومنها الانكشارية ـ الكلمة العربية). الا انهم بعد مدة اخذوا، او بعضهم على الاقل، بنظام تعليمي اوسع من الاول واعمق، وذلك كي يتاح للسلطان ان يختار منهم موظفين ومدبرين لسلطنته. وقد جاء وقت على الدولة كان فيه العثمانيون الاحرار لا حظ لهم في الحصول على منصب اداري، لان هذه كانت حكرا على عبيد الامبراطور. وهذا النظام بكامله كان احد عوامل نجاح العثمانيين.

كان الجد الاعلى للاسرة الصفوية هو الشيخ صفي الدين اسحق (١٢٥٢- ١٣٣٤) من لرديل في اذربيجان. وقد اسس طريقة صوفية وكان الاول بين احفاده وخلفائه الذي تشيع هو حفيده الخواجه علي، وكان اماميا (كان الحشاشون من الاسماعيلية قد قضى عليهم هولاكو ١٢٥٧). وكان اول من عني بالسياسة والحرب من هذه الاسرة الشيخ جنيد، (جد شاه اسماعيل). فتولى سنة، ١٤٤٧، وكانت امبراطورية تيمور تتمزق، وتزوج الشيخ جنيد اميرة تركمانية من خلفاء تيمور في اذربيجان وديار بكر. ولما تولى شاه اسماعيل (حكم ١٥٠٢- ٢٤) فرض الشيعة على الايرانيين الذين قبلوها بسهولة

مع انهم الى ايامه كانوا سنة. والشعراء الاربعة الكبار في الادب الفارسي الحديث - الفردوسي وسعدي وحافظ وجامع - كانوا سنة. (الواقع قبل ايام شاه اسماعيل كان وجود الشيعة مقتصرا على العراق وجبل عامل في جنوب لبنان).

في سنة ١٥٥٥ كان عبد القصر السلطاني يديرون الامبراطورية. في ايران كان شاه اسماعيل الثاني تحت رحمة الجنود التركمان. وكان هومايون « المغولي » قد فتح شمال الهند ثانية وكان جيشه من المغامرين من انحاء متعددة من العالم الاسلامي. لقد كان هومايون وابوه بابور سنيين، لكن كلا منهما استعان بدوره بالصفويين الشيعة. إن اصحاب السلطة ومن حولهم من المسلمين في الهند كانوا اقلية ضئيلة، لذلك لم يكن في صالحهم ان تقوم بينهم نزاعات دينية اسلامية، ومن ثم كانوا يقبلون العون الاسلامي من أي جهة جاء.

ان قيام دولة شيعية في ايران (١٥٠٠- ١٥١٣) عزل سنيي المشرق عن سنيي اواسط اسية. وقد استولى العثمانيون على الموانىء الجنوبية في شبه جزيرة القرم (١٤٧٥) وقبلت دولة التتار هناك سلطة العثمانيين. لكن امبراطور روسيا ايفان الرابع (الرهيب) استولى على قازان (١٥٥٢) واسترخان (١٥٥٦) وبذلك فصل بين العثمانيين وخانات ازبك (ما وراء النهر). وفي ١٥١٦- ١٧ استولى العثمانيون على مصر وقضوا على دولة المماليك، لكن البرتغاليين كانوا قد سيطروا بين ١٤٩٨ و ١٥١٥، على القيادة البحرية للمحيط الهندي، وقد فشل الاترك، كما فشل المماليك من قبل (١٥٠٨- ١٧) في انتزاع القوة البحرية من ايدي البرتغاليين، مع انهم كانوا يرتكزون الى الخطوط الداخلية في حروبهم. وقد تخلى لعثمانيون اخيرا عن المحاولة (١٥٥١).

واقتتل جنود برتغاليون وجنود عثمانيون (١٥٤٢) في الحبشة، دفاعا عن مسيحيين ومسلمين محليين. ان الحبشة لم تلعب دورا في السياسة الخارجية منذ قرون. ولما احتل العرب مصر، عزل المسيحيون (المونوفيزيون) في الحبشة والنوبة عن بقية العالم المسيحي. ولكن لما اعتنقت النوبة الاسلام، في القرن الرابع عشر وما بعده مالت الحبشة إلى النصرانية. وقد انتشرت اللغة السامية الحبشية في جهات مختلفة من البلاد وانتشرت المسيحية معها، لكن المسيحية كان لها منافس هي اليهودية. ومع ان المملكة المسيحية سيطرت على اليهود، فان الاسلام انتشر حول الهضبة. وقد استولى

المسلمون (من الجنوب الشرقي) على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩- ٤٢).
وفي المعركة التي دارت رحاها سنة ١٥٤٢ بين الجنود العثمانيين والجنود البرتغاليين قاتل الاولون الى جانب المسلمين والآخرون الى جانب المملكة الحبشية. وقد انتصر الاولون، لكن العثمانيين انسحبوا من الميدان، وفي السنة التالية (١٥٤٣) انتصرت جيوش المملكة بمساعدة الجنود البرتغاليين الموجودين. وقد خرجت الحبشة من القتال وقد اصابها الدمار ونقص سكانها، ثم انتشر فيها الفالا المنساحون من الجنوب والجنوب الشرقي الى الهضبة.

في سنة ١٥٥٥ كانت الامبراطوريات الاسلامية الثلاث تسيطر على الجزء المتوسط الرئيس من اويكومين العالم القديم ـ من الجزائر الى شمال الهند. كانت الامبراطورية العثمانية اقدمها وامتنها تركيبا. لكنها لم تتمكن من انقاذ مملكة غرناطة، آخر معقل مسلم في ايبريا، من ان يحتلها الاتحاد المسيحي القشتالي الاراغوني (١٤٩٢). ولم يتمكن العثمانيون من الاستيلاء على المغرب. وبدل من ان يعيق العثمانيون تقدم البرتغاليين في المحيط الاطلسي، قابلوهم وكسروا على ايديهم في مقابل ساحل غوجيرات. وفشل العثمانيون في ان يسبقوا الروس الى احتلال مجرى الفولغا من قازان الى بحر قزوين، فلم يتح لهم ان يتصلوا بالسنة في ما وراء النهر.

ومع ذلك فالعالم الاسلامي نجح في تخطي الضربات المغولية. وهذا النجاح لم يكن في المجال السياسي فحسب. ففي الفترة من ١٣٠٠ الى ١٥٥٥ ظهر في ايران اخر شاعرين من الشعراء الفارسيين الاربعة الكبار ـ حافظ (تو ١٣٨٩) وجامع (١٤١٤- ٩٢). وشمال غرب افريقية انتج مفكرا ممتازا بحث تركيب التاريخ البشري هو ابن خلدون (١٣٣٢- ١٤٠٦). ومع العلم ان شمال غرب افريقية كان في ايامه في حال فوضى سياسية. ولنذكر اخيرا انه لم يكن بين هؤلاء الثلاثة الذين يصح اعتبارهم ممثلين للثقافة الاسلامية عثماني واحد؛ وان الشاعرين الاخيرين من ايران (حافظ وجامع) عاشا وتوفيا قبل ان يستولي الصفويون على ايران ويحملوها على التشيع.

٧٠ـ المسيحية الشرقية الارثوذكسية ١٢٤٠ــ ١٥٥٦

ان الجائحة المغولية التي اصابت روسيا (١٢٣٧- ٤٠) واغرقت سلطنة الروم السلجوقية (١٢٤٣) لم تصب لا امبراطورية نيقية اليونانية ولا دولتي اليونان والصرب الارثوذكسيتين في البلقان. والبلغار هم الشعب الوحيد الذي لحق به الهجوم. لكن في سنة ١٥٥٦ كان الامر عكس ذلك تماماً بالنسبة الى جناحي المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. فقد اصبح العثمانيون سادة على جميع الشعوب الارثوذكسية في الجنوب بما في ذلك الرومان الذين انشأوا امارتي فلاخيا ومردافيا. اما في الجهة المقابلة فان روسيا (في نصفها الشمالي الشرقي) لم تكن حرة فحسب، بل ان حاكم موسكو، الذي كان قد اصبح الدوق الكبير لفلاديمير، قد ضم إليه في ١٥٥٦ امارات شرق روسيا، وفي سنة ١٥٤٧ تلقب بالقيصر، واستولى على قازان (١٥٥٢) واستراخان (١٥٥٦).

كانت امبراطورية نيقية اليونانية، في سنة ١٢٤٠، في دور تقدم. فقد استولت على موطىء قدم في اوروبة (١٢٣٥) وانتصرت (١٢٥٩) على دولتين يونانيتين متحالفتين في مقدونية وامارة فرنسية في الموره ومملكة الصقليتين. واسترجعت نيقية القسطنطينية من آخر امبراطور فرنسي (١٢٦١). ولكن بعد ذلك بدأ الانحدار. فانتزعت صربيا نصف مقدونية من امبراطورية نيقية اليونانية (١٢٨٢- ٩٩). وبعد ان وسع اميرها، اسطفان دوشان، رقعة امارته توج نفسه (١٣٤٥) امبراطور الصرب والرومان. وكان ثمن استعادة يونانيي نيقية القسطنطينية (١٢٦١) ان خسروا املاكهم في اسية الصغرى الى القبائل التركمانية التي كان العثمانيون اشدها خطرا. وقد حكم على مستقبل الامبراطورية الرومانية الشرقية المحدّثة في سنة ١٣٤٦. وكان السؤال من يخلفها - الصربيون ام العثمانيون.

ان التدهور الذي اصاب الامبراطورية الرومانية الشرقية لم يقض على حيوية الفن

البزنطي والتجارب البزنطية الدينية. فالفسيفساء التي تعود الى اوائل القرن الرابع عشر في كنيسة خورا (وهي الآن جامع قاهري) في استانبول جديرة بالمقابلة مع رسوم الفنان المعاصر جوتو الفلورنسي. وفي الوقت نفسه كانت حركة احياء للتصوف، في جبل آثوس، الذي، كان يرمي الى الوصول الى الاتحاد بالخالق. وقد اثارت هذه الحركة المعروفة باسم « اسيخيا » خلافا كبيراً، فبينما اقر ارثوذكسيتها مجمع شرقي (١٣٥١) هاجمها الغرب المسيحي (حول ١٣٤٧).

نشبت حرب اهلية في الامبراطورية الرومانية الشرقية (١٣٤١- ٤٧) رافقتها ثورة اجتماعية وجدل لاهوتي. فقد بلغت سعة الاملاك الريفية درجة كبيرة كما ساءت حالة الفلاحين الى حد المأساة، وذلك في عهد اسرة بليالوغي (١٢٥٩- ١٤٥٣). ولقي كبار الملاكين الامرين في انحاء مختلفة من الامبراطورية.

والشعور المضاد للغرب، الذي ظهر واضحا في القرن الرابع عشر في الخلاف حول « الاسخيا »، كان قد بدأ ظهوره ايام الحملة الصليبية الاولى. وقد احجبه احتلال الغرب المسيحي للقسطنطينية ونهبها (١٢٠٤) وزاد في حدته الاستيلاء التدريجي للجمهوريات الايطالية البحرية على التجارة المحلية في البحار اليونانية الداخلية. وقد ادرك الامبراطور النيقي ميخائيل الثامن، الذي استرجع القسطنطينية، ان الامبراطورية الرومانية الشرقية التي احياها لا يمكن ان تعيش، بدون نظرة ثقة ومساعدة حربية من المسيحية الغربية. كما ادرك ان الثمن الذي سيطلب مقابل ذلك هو اعتراف الكنائس الارثوذكسية الشرقية بحق السيادة الكهنوتية الدينية للبابوية. وقد فعل ذلك ميخائيل الثامن نفسه فاعترف بالسيادة البابوية (١٢٧٤) وهكذا فعل يوحنا الخامس (١٣٦٩) ويوحنا الثامن في مجمع فلورنسة (١٤٣٩). وقد توفي قسطنطين التاسع (١٤٥٣) آخر الاباطرة الشرقيين وهو متحد مع رومه.

ووقع وثيقة الوحدة، في فلورنسة (١٤٣٩)، بالاضافة الى الامبراطور، اعضاء الوفد الارثوذكسي الشرقي الكهنوتي (باستثناء عضوء واحد). لكن المهم هو ان اي اتفاق مع رومه كان يقابل برفض الجمهور الارثوذكسي الشرقي، كهنة وشعبا. وبعد ما احتل العثمانيون ادرنة (١٣٦١)، عزلت القسطنطينية ولم يعد يوصلها بالعالم الخارجي سوى طريق الدردنيل الذي كان معرضا للخطر. اما من ناحية البر فقد كانت المدينة محاصرة باستمرار، واصبح سقوط القسطنطينية بايدي العثمانيين امراً محتما ما لم ينقذها

الغرب المسيحي ولكن على شروطه هو. ويبدو ان اليونان اختاروا، وهم واعون، ان يعرضوا انفسهم للسيادة السياسية العثمانية، اذ حسبوها اخف الشرين من خضوعهم دينيا للبابا وتجاريا لجنوه والبندقية.

ان الحكومات الاسلامية مازمة، بحسب تعاليم القرآن، بان تسمح للرعايا المسيحين المسالمين ان يمارسوا شعائر دينهم. ولم يكن من الممكن الوثوق الى ان الدول المسيحية الغربية - باستثناء البندقية - لن تلجأ الى الضغط على رعاياها من الارثوذكس الشرقيين، كي يعترفوا بسيادة البابوية. واليونان، الذين لم يقعوا بعد تحت حكم الغربيين، لم يكونوا على استعداد لدفع مثل هذا الثمن كي يتجنبوا السيادة الاسلامية. وقد كان اليونان ايضاً يشكون في ان المسيحية الغربية يمكن ان تقدم العون الحربي اللازم. وفوق كل ذلك، فقد كان اليونان يمتعضون من ان الغربيين، وهم في نظرهم دونهم حضارة كما انهم ايضاً منشقون، قد فاقوا اليونان ثروة وقوة.

كان بين الذين وقعوا وثيقة الوحدة في فلورنسة (١٤٣٩) ايزيدور، اسقف الكنيسة الارثوذكسية الشرقية في روسيا. وقد كوفيء على ذلك بان جعل كردينالا (رومانيا). واسقفية روسيا كانت لا تزال تتبع بطريركية القسطنطينية، وكان ايزيدور نفسه يونانيا. وقد انتفض الاساقفة الروس على ايزيدور ورفضوه واختاروا (١٤٤٨) شخصا روسيا اسقفا لروسية - دون ان يحصلوا على موافقة مسبقة من بطريرك القسطنطينية - وذلك بناء على مبادرة من الدوق الكبير لفلاديمير امير موسكو، وبموافقة دوق لتوانيا الكبير والتابع له امير كييف. والمؤسسة الروسية الرسمية لم تختلف مع بطريركية القسطنطينية حول سيادتها على اسقفية روسيا الارثوذكسية الشرقية. وهكذا فقد ظلت روسيا باجمعها، بقطع النظر عن الاوضاع السياسية للامارات الروسية المحلية، خاضعة لسلطة البطريرك الدينية.

كانت القبيلة الذهبية المغولية قد عهدت الى امارة موسكو ان تعاقب القبائل او الامارات التي تثور عليها، ومنها امارة تفر (١٣٢٧). وقد كافأ المغول امير موسكو بان جعلوه دوق فلاديمير الكبير، الذي ظل يقيم في موسكو، وكان اسقف الكنيسة الارثوذكسية الشرقية في روسيا يقيم هناك ايضا. والدوق الكبير اخذ يضم الواحدة بعد الاخرى من الامارات الروسية (اعتباراً من ١٣٢٨) موسعا بذلك سلطانه، الذي كان اوتوقراطيا، اذا قورن بالنظم المعروفة في امارات روسية اخرى.

خلال القرن الخامس عشر انحلت دولة القبيلة الذهبية وبذلك تحررت روسيا في الواقع. وحول اواسط القرن تقسمت هذه القبيلة الى اربعة اقسام: ضمت ثلاثة منها تحت حكم روسيا (كازيموف، ١٤٥٢ وقازان، ١٥٥٢ واستراخان ١٥٥٦، والرابع، القرم، وقع تحت نفوذ العثمانيين).

ظلت بسكوف وتوفغورود الروسيتان مستقلتين، وانضمت الأخيرة الى حلف من الهنسا، وسيطرت على منطقة واسعة الى شمالها الشرقي، كانت تمتد حتى المحيط المتجمد الشمالي، من طرف النروج الشرقي تحت نهر اوب. وقد ضمت موسكو تونغورود(١٤٧٨) وبسكوف (١٥١٠).

كان اللثوانيون قد افادوا من تركيع المغول لروسيا اثناء هجومهم الساحق (١٢٣٧- ٤٠) وفرضوا سلطاهم على ولايتها الغربية (باستثناء غاليسيا التي ضمت الى بولندا). وقد ترك اللثوانيون للامراء الروس استقلالهم الذاتي، ولم يتدخلوا في دين رعاياهم من الارثوذكس الشرقيين، واتخذوا فلنا، المدينة الارثوذكسية الشرقية، عاصمة لهم. ومن ثم فان الحكم اللثواني الوثني لم يتضايق منه الروس الغربيون، وكانوا يفضلونه على سيطرة القبيلة الذهبية. لكن الوضع تغير لما اختير الامير اللثواني الوثني ملكا لبولندا (١٣٨٦). وهذا اعتنق المسيحية الكاثوليكية الغربية. وعلى كل فان النبلاء الروس الواقعين تحت حكم اللثوانيين والبولنديين اعجبتهم الحرية التي تمتعوا بها تحت هذا الحكم، بالمقابلة مع الحكم الذي يمكن ان يقعوا تحته في روسيا الموسكبية.

ومع ان قيصرية روسيا الموسكوبية لم تكن في ١٥٥٦ تحكم غرب روسيا، فانها كانت قد اصبحت دولة قوية، وكانت تستطيع ان تتوسع شرقا. وبالمقارنة كان اليونان في مأزق خطر يومها. فالقسطنطينية كانت قد سقطت (١٤٥٣). ولما استولى العثمانيون على امبراطورية طرابزون ١٤٦١ اصبحت بلاد اليونان جمعاء اما تحت حكم العثمانيين او تحت حكم المسيحية الغربية. وعلى كل فان فرض الحكم العثماني افاد اليونان على الصعيدين الديني والاقتصادي.

إن الباد شاه محمد الثاني (الفاتح) نظم رعاياه من غير المسلمين على اساس الملل: فملة للارثوذكس الشرقيين وملة للارمن الغريغوريين وملة لليهود. وكان يرئس كل ملة رجل دين محترم الذي هو في الوقت ذاته تابع عثماني. وكان يعتبر مسؤولا امام الدولة العثمانية عن اتباع دينه. وكانت منطقة نفوذه تتفق مع حدود الدولة ذاتها.

فكان بطريرك القسطنطينية، بحكم منصبه، رأسا لجميع ملة الارثوذكس الشرقيين العثمانيين (ملة الروم كما كانت تسمى). وترتب على ذلك انه لما احتل سليم الاول بلاد الشام ومصر (١٥١٦- ١٧)، فبطريرك القسطنطينية، بوصفه رئيس ملة - عثمانية، كان الرئيس المدني لا لاتباع بطريركيته فقط، بل البطريركيات الارثوذكسية الاخرى - انطاكية والقدس والاسكندرية. وقد كان لبطريرك القسطنطينية اتباع ارثوذكس من غير الرعايا العثمانيين - في جيورجيا الشرقية والانيا وروسيا. والقسم الروسي الذي كان يتبع بطريرك القسطنطينية كان كبيراً، وكان يتسع باستمرار. يضاف الى هذا ان الرابط الوحيد بين الروس المقسمين سياسيا، كان هو ولاؤهم لبطريرك القسطنطينية الارثوذكسي، ومن ثم فقد كان بطريرك القسطنطينية وقيصر المسكوبية قوة هامة في المسيحية الارثوذكسية الشرقية في ١٥٥٦، مع ان البطريرك كان، سياسياً، من رعايا سلطان مسلم.

وفي الوقت ذاته سارت الريح في مصلحة اليونان اقتصاديا في المنافسة بينهم وبين الايطاليين الشماليين. فمنذ نهاية القرن العاشر الى مطلع القرن الخامس عشر كان الايطاليون يثبتون اقدامهم اقتصاديا في المشرق على حساب اليونان، ولكن الايطاليين خسروا اقتصاديا وسياسيا كذلك بسبب ضم العثمانيين لمستعمرات الجنوية في بيرا (١٤٥٣)، وبسبب الحرب البندقية التركية (١٤٦٣- ٧٩) وفي القرم (١٤٧٥). وكان الرابحون اليونان العثمانيين بالرغم من منافسة اليهود اللاجئين من اسبانية. وقد تعاونت الطبقة الجديدة الناجحة من رجال الاعمال اليونان العثمانيين مع بطريرك القسطنطينية و «مؤسسته». وكان وضع هذين الفريقين اليونانيين مزعزعا، لكنهما، بتعاونهما، اصبحت لهما قوة لا يستهان بها.

٧١ـ المسيحية الغربية ١٣٢١ـ ١٥٦٣

بين حول ١٠٥٠ و ١٣٠٠ حافظت المسيحية الغربية على وحدتها الدينية والثقافية كما تقدمت اقتصاديا ـ فقد زاد سكانها وزاد انتاجها. وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر، تأخرت ثروتها المادية، ثم جاء الموت الاسود (في ١٣٤٨ وما بعدها) الذي ازهق العديد من السكان وقلّص المساحة المستغلة من الارض. ومن الجهة الأُخرى فان المسيحية الغربية كانت، في ١٥٦٣، قد حصلت على قيادة عالمية للقوة البحرية؛ لكن في الوقت نفسه كان حدها البري الجنوبي الشرقي قد ارتد عن الخط الذي كان يجاريه في ١٣٠٠. يضاف إلى هذا ان المسيحية الغربية كانت قد اصبحت (١٥٦٣) بيتا منقسما على نفسه، على المستويين الديني والسياسي. وقد قوى هذا الخلاف كون الخطوط الفاصلة بين المستويين كانت متفقة الى درجة كبيرة. وقد اقر حكام الدول (الملكيات والامارات والمدن ـ الدول) التي كانت قد توزعت المسيحية الغربية، على انه كان من حق الحاكم على رعاياه ولاءهم الديني والسياسي على السواء.

لقد كان ثمة تراجع اقتصادي في المسيحية الغربية قبل ١٣٤٨ـ إلا ان الموت الاسود حول التأخر الى كارثة. فقد دخل الطاعون الى المسيحية الغربية في مرسيليا بحرا من المراكز التجارية الجنوبية في القرم. وقد ظهر اصلا في السهوب الاوراسية او في مكان ابعد من ذلك بكثير. ولم يكن مرضا محليا في الاقطار المسيحية الغربية، فقتل ثلث السكان على اقل تقدير في هجمته الاولى، وعاد مرات وكان يصيب الذين خلصوا منه قبل ان يكسبوا المناعة ضده. ومن المحتمل ان سكان المسيحية الغربية والارض المستغلة لم تعد الى ما كانت عليه حول ١٣٠٠ إلا حول مطلع القرن السادس عشر. وكانت النتائج الاقتصادية المترتبة على ذلك ثورية. لقد افاد الفلاحون لان اليد العاملة اصبحت نادرة، ولو ان ذلك لم يكن كما املوا تماماً، وحتى هذا لم يكن دائماً.

والنقص في اليد العاملة الزراعية جاء مع انتشار صناعة الاقمشة الصوفية من فلاندر الى انكلترا وفلورنسة، الامر الذي ادى الى اختلال التوازن بين اراضي الرعي واراضي الزراعة، لمصلحة الأولى.

وقد شهد القرن الرابع عشر تطورا في التكنولوجيا فكان ان دخلت الاسلحة النارية المسيحية الغربية. وبين حوالي ١٤٤٠ و ١٤٩٠ كانت ثورة تتعلق ببناء السفن الغربية وهيكلها. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت الطباعة قد تقبلتها جميع الاقطار الغربية. والبارود والطباعة هما اختراعان صينيان. وقد استعمل المغول البارود في حروبهم لاحتلال امبراطورية سونغ في القرن الثالث عشر. وقد كانت الطباعة مستعملة في الصين منذ القرن التاسع.

إن الطباعين الصينيين سبقوا الغربيين في استعمال الطباعة المتحركة، لكن كثرة « الاشارات » الصينية الكتابية جعلت الطبع الثابت انسب لغايات الصينيين. ومع ذلك فان الطباعة المتحركة بدأت في كوريا على مقياس واسع في ١٤٠٣، وقد اتخذ الكوريون رسمياً كتابة صوتية، فيها عدد صغير من الاشارات، لكتابة لغتهم في ١٤٤٦. لكن هذا الاختراع الذي كان يحمل في طياته الامل الكبير ولد ميتا. فقد خنقته المكانة التقليدية التي كانت للغة الصينية وكتابتها المعقدة. اما الطباعون الغربيون في القرن الخامس عشر فلم يكن يجثم مثل هذا الكابوس على صدورهم. فاللغة اللاتينية واللغات المحكية المختلفة كانت تستعمل الالفباء اللاتينية لكتابتها، وهي تبلغ ستة وعشرين حرفا فقط، والحروف المستعملة كان من اليسير على الطباع ان يستعملها. ولم يلبث الغربيون ان اصبحوا يطبعون كتبا باليونانية والعربية والعبرية. ولسنا ندري فيما اذا كان غوتنبرغ قد اخترع الطباعة مستقلاً، ام ان الفكرة جاءته من الصين اخيرا. فالسهوب موصلة. فقد نقلت الى اوروبة، في القرن الرابع عشر جراثيم الموت الاسود. فمن الممكن ان تكون قد اوصلت فكرة الطباعة بعد ذلك بنحو مئة سنة.

إن اتقان الغربيين للطباعة كان امرا محليا. اما اتقانهم لاستعمال الاسلحة النارية واختراعهم لنوع جديد من السفن كانا قضيتين عالميتين. (موضع البحث عن فتح سفن الغرب العالمي في القرن الخامس عشر هو الفصل الخامس والسبعون .) فامتلاك الاسلحة النارية وضع المغامرين الغربيين في مركز متفوق قطعاً بالنسبة الى الشعوب غير الغربية التي كانت في متناول هؤلاء الغربيين من البحر، وهي الشعوب التي لم يكن

عندها اسلحة نارية او لم تحصل عليها في الوقت المناسب. الصينيون كانوا يمتلكون الاسلحة النارية؛ وقد حصل عليها العثمانيون والموسكوبيون والتيموريون (المغول) الذين فتحوا شمال الهند في الوقت المناسب. اما الازاتكة والانكا فقد سلموا (لانهم لم يعرفوا الاسلحة النارية).

ان استعمال المطبعة في المسيحية الغربية في القرن الخامس عشر دفع بالازدهار الثقافي الذي كان قد بدأ في شمال ايطالية في القرن الرابع عشر، الى الامام، وهو الذي انتشر في بقية المسيحية الغربية في القرن السادس عشر. ان شمال ايطالية تمتع، بين ١٢٦٦ و ١٤٩٤، بفترة استراحة من الغزوات الاجنبية التي استمرت نحو الف سنة منتهية بسنة ١٢٦٦. وقد اوجد شمال ايطالية، في هذه الفترة (١٢٦٦- ١٤٩٤) حضارة اقليمية خاصة به في اطار المسيحية الغربية. وقد عرفت المسيحية الغربية ثلاث موجات من التقدم الحضاري: الاولى في القرن الثامن جاءت من نورثمبريا (في بريطانية) والثانية جاءت في القرن الثاني عشر من فرنسة. وفي القرن الرابع عشر كانت القيادة لايطالية، وهذه هي الموجة الثالثة.

ومن الممكن التعرف على الهوة التي كانت بين الحضارة الايطالية وحضارة شمالي الالب، عند منقلب القرن الخامس عشر الى السادس عشر، من كنيسة الملك هنري السابع في دير وستمنستر. فاذا تنبهنا الى الفرق بين حفر الفنان الفلورنسي توريجانو (١٤٧٢- ١٥٢٢) والفن المحلي في العقود والتماثيل المنحوتة فوقها، وجدنا ان الفنين (او المدرستين) على مستوى رفيع فنيا، لكنهما، مع كونهما متعاصرين، يبعدان عن بعض كثيراً في الروح.

والفرق المنظور في ذلك يعود الى احياء الاسلوب اليوناني الروماني في القرن الرابع عشر. ولم يكن هذا الاحياء في الحفر والبناء فحسب، بل حتى في الرسم والادب. فالنحاتون والرسامون والمعماريون قولبوا اعمالهم على ما كان باقيا من صنع المدنية اليونانية ـ الرومانية. والكتاب باللاتينية جربوا ان يقلدوا لغة شيشرون، لا لغة القديس جيروم او لغة توما الاكويني. وفي القرن الرابع عشر اخذ الايطاليون الشماليون انفسهم باتقان اللغة اليونانية والادب اليوناني على ما كانا في العصر الهليني، الذي كان قد انزوى في الغرب بين القرنين الثالث والسادس للميلاد. فبترارك (١٣٠٤- ٧٤) وبوكاشيو (١٣١٣- ٧٥) تعلما اليونانية ولكن دون ان يتقناها. لكن لما جاء وفد

يوناني الى فلورنسة (١٤٣٩) لحضور مجمع ديني، لقي اعضاؤه علماء من شمال ايطالية الذين كانوا يعرفون اللغة اليونانية الى حد انهم ناقشوهم في الادب اليوناني والفلسفة اليونانية العائدين الى قبل الميلاد. ومن هنا فان ازدهار الحضارة الايطالية سمي في القرن السادس عشر « الانبعاث »، اذ كان معنى ذلك « الولادة الثانية » للمدنية اليونانية ـ الرومانية، وكان العاملون فيها يسمون « الانسانيين » لأنهم كانوا من المعجبين بالمدنية اليونانية ـ الرومانية السابقة للميلاد، بالمقارنة لاولئك الذين كانوا طلابا ومعجبين باللاهوت المسيحي الغربي.

ومع ذلك فان هذه التسمية ـ الانبعاث ـ خاطئة. ذلك بان احياء الاسلوب اليوناني الروماني لم يكن سوى امر ملازم ونتيجة لازدهار حضاري ثان، يختلف عن ذلك الذي عرف في القرن الحادي عشر. فالازدهار الثاني لم يبدأ لما كتب ارازمس (١٤٦٦- ١٥٣٦) ما كتبه باسلوب شيشروني لا تشوبه شائبة، انما بدأ لما قرر دانتي (١٢٦٥- ١٣٢١) ان يكتب الكوميديا الالهية، بلغته التوسقانية التي استعملها لاشعاره من قبل. كان دانتي يسير في خطى اسلافه في شمالي الالب الذين كتبوا باللغة المحكية.

إن الصلة بين الغربيين المحدثين المبكرين والمدنية اليونانية ـ الرومانية صلة ذات وجهين. فاذا اثار النموذج اليوناني الروماني « المحدثين » فصنعوا شيئاً حديثا، هو انجاز بالنسبة الى اسلوب الحياة الغربية المعاصرة، فان الصلة تكون دافعا الى الامام. ولكن المدنية اليونانية ـ الرومانية نفسها، متى حملت « المحدثين » على مجرد تقليد « القدامى » تكون عندها موهنة للهمم. فان فيليبو برونليشي (١٣٧٧- ١٤٤٦) بنى قبته في فلورنسة (١٤٢٠- ٣٤) بعد ان درس القبة الموجودة في مجمع هدريان بروما، وكان اثر ذلك انه اضاف ثروة فنية الى عالمه. (لكنه لم يتمكن من دراسة الجامع الاخضر في بروصه). ومثل ذلك حدث على يد المريا بلاديو (١٥١٨- ٨٠) اذ اضاف ثروة جديدة للعالم الحديث لما اوجد اسلوبا كلاسيكيا خاصا به بعد ما درس آثار رومه وكتاب فتروفيوس عن فن العمارة. وفي مقابل ذلك فان سيغسموند مالاتستا (١٤١٧- ٦٨) حول كنيسة في (ريميني) الى مدخل لهيكل يوناني ـ وكان ذلك خطأ فاحشا. ونيكولو مكيافلي (١٤٦٩- ١٥٢٧) درس ليفي المؤرخ اللاتيني وافاد من ذلك في وضع دليل لادارة شؤون السياسة والحرب في عالمه. وارازمس

استخدم لغة شيشرون اللاتينية لما كتب لقرائه (باللاتينية) عن القضايا الرئيسة الخلقية والاجتماعية والسياسية والفكرية، وكلاهما ـ مكيافلي وارازمس اغنيا الفكر والحياة. اما اولئك « الانسانيون » الذين كتبوا بلاتينية متقعرة وكانوا يفتقرون الى عبقرية ارازمس، فهم سخرية الادب والادباء.

ان مفكري الغرب في العصور الوسطى كانوا يتصرفون تصرفا جيداً. فانهم لم يتأخروا قط في وضع الكلمات الجديدة لارائهم، وفي هذا كانوا يتبعون شيشرون نفسه. ولوثر، الثائر الديني وخصم « الانسانيين » كان اقرب الى دانتي (وبترارك وبوكاشيو) منه الى ارازمس « الانساني » (الشيشروني)، لما خاطب (لوثر) بلغة محكية جمهورا اكبر(من اي جمهور وصل اليه ارازمس). وترجمة لوثر للكتاب المقدس الى الالمانية كان بالنسبة الى الازدهار الحضاري الغربي الحديث عملا مثل الذي قام به دانتي لما كتب الكوميديا الالهية باللغة التوسقانية.

حتى اواسط القرن الخامس عشر كانت بؤرة الانبعاث (الرنسانس) الاوروبي الحديث شمال ايطالية، وهنا توسقانية، وفي هذه فلورنسة. ودورها يشبه دور اثينا ٤٨٠ ق.م. فمن اهل الفكر والفن الفلورنسيين هناك: دانتي وبترارك وبرونليستي وفيشينو ولور نزو دي مديشي ١٤٤٩- ١٤٩٢ (صاحب مصر، طاغية، راع للفن والعلماء) ومكيافلي وتوريجانو. اما الآخرون الذين لمعوا في فلورنسة فهم: بوكاشيو (فلورنسي وفرنسي الاصل) وليوناردو (١٤٥٢- ١٥١٩ ولد في بلدة كانت قد ضمت الى فلورنسة قبل ذلك بقرن). وبراشبوليني الاثري من اريزو التي كانت قد ضمت الى فلورنسة. ومثلها مكان ولادة مايكل انجلو (١٤٧٥- ١٥٦٤)، وقد استقطب لورنزو الى فلورنسة عدداً من العلماء من اماكن مختلفة. والوحيد بين هؤلاء العظماء الذين لم يكن فلورنسا هو رفائيل (١٤٨٣- ١٥٢٠).

ومع ذلك فلا فلورنسة ولا حتى شمال ايطالية كان البؤرة الوحيدة للازدهار الحضاري الغربي الحديث. فقد كان لفلاندر دور لا يقل عن دور تلك ـ حضاريا واقتصاديا. ففان إيك (١٣٩٠- ١٤٤١) كان ندا لانجيليكو الايطالي، وارازمس كان ندا لاي ايطالي كتب باللاتينية. وبين ايطالية والاراضي المنخفضة كانت ثمة محطات: مثل مدرسة البندقية في الرسم فروبوشي (١٥١٨- ٩٤) وبولس الفيرونيزي

(١٥٢٨- ٨٨) كان لهما نديـن في فلانـدر. وفي نورنبرغ كان البرت دورر (١٤٧١- ١٥٢٨) ندا لاي فنان ايطالي باستثناء العمالقة الاربعة.

كانت المدن ـ الدول في بلاد شمالي الالب، كما في ايطالية، هي مهد الازدهار الحضاري الغربي الحديث. لكن في سنة ١٥٦٣ كانت شعوب الدول ـ الممالك اخذت بالمساهمة الثامنة في هذه الحركة. وازدياد عدد الجامعات بعطينا فكرة عن ذلك. فبين ١٣٥٠ و ١٥٠٠ زاد عدد الجامعات في المسيحية الغربية اكثر من الضعف. وفي هذه الفترة انشئت ثلاث وعشرون جامعة في اوروبة الوسطى (واقدم الجامعات الثلاث والعشرين هي جامعة براغ التي انشئت ١٣٤٧).

كان فردريك الثاني (١١٩٤- ١٢٥٠) ملك الصقليتين يطمح الى الاستيلاء على ايطالية باجمعها وبعد ذلك (احتمالا) البلاد الواقعة شمالي الالب. وقد فشل فردريك في ذلك، لكن طموحه حمل آخرين على القيام بتجربة ولو على مقياس اصغر. وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قامت امارات يحكمها حكام مستبدون بدل المدن ـ الدول. وحتى البندقية، التي ظلت جمهورية، انشأت امبراطورية بان ضمت اليها مدنا كانت من قبل مستقلة. ولذلك، فقد نقص عدد الدول المستقلة في ايطالية وزاد معدل مساحتها. ومع ذلك فان الدول الايطالية التي استقرت في نهاية القرن الخامس عشر (مثل ميلان والبندقية وفلورنسة والدولة البابوية) كانت صغيرة وضعيفة بالنسبة الى الممالك ـ الدول التي كانت تزين الخارطة السياسية (خارج ايطالية) في سنة ١٥٦٣. وهذه كانت تشمل مملكتي فرنسة وانكلترا (قامتا في القرن العاشر) ومملكة قشتالة وارغون المتحدة (١٤٧٤- ٧٩) ومملكة هابسبورغ (ظهرت سنة ١٥٢٦ باتحاد املاك هابسبورغ النمسوية مع تاجي هنغاريا وبوهيميا). وهذه الممالك الغربية كانت تفوق امارات شمال ايطالية وجمهورياته. ان الممالك المذكورة عرفت سياسين من نوع لويس الحادي عشر الفرنسي، حكم ١٤٦١- ٨٣- وفردينانـد وازابلا ـ حكما ١٤٧٩- ١٥٠٤- وهنري السابع ـ حكم ١٤٨٥- ١٥٠٩.

ولكن الدول الجمهورية لم تكن قد اختفت من الخارطة السياسية الاوروبية سنة ١٥٦٣. فقد كانت البندقية لا تزال دولة ذات سيادة، ولها امبراطورية في البر الايطالي وفي المشرق. وجنوى كانت تحكم الرفييرا الايطلية وكورسيكا. وكانت سويسرا اتحادا من جمهوريات. والمدن الدول الالمانية كانت ذات سيادة الا بالاسم، وكانت

اثنتان منهما، نورنبرغ واوغسبورغ مركزين عالميين للتجارة والمال. فدولة هابسبورغ اعانتها اوغسبورغ ماليا، وقد ساعدت البروتستانتية في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية مدينتان المانيتان هما اوغسبورغ وشتوتغارت وثلاث مدن ـ دول سويسرية هي زووريخ وبرن وبازل، ومدينة جنيف التي كانت حليفة للاتحاد السويسري.

وفي مقابل ذلك فان قيام اتحاد الدول الاسكندنافية (١٣٩٧) كرد فعل على سيطرة اتحاد مدن الهنسا، انحل بانفصال السويد (١٥١٢- ٢٣) واتحاد لتوانيا مع بولندا (بدأ ١٣٨٦ ثم قوّي ١٥٠١ و ١٥٦٩). وقد اتضح خلال القرن الرابع عشر ان الشكل الغالب على الدولة في الغرب هو المملكة ـ الدولة، لا المدينة ـ الدولة ولا اتحاد المدن بقطع النظر عن شكل الاتحاد.

والذي يجب ان يتذكر دائماً انه اصبح (منذ القرن الخامس عشر) من المتعذر ان يوحد الغرب المسيحي سياسياً. فالعوامل المحلية كانت تحول دون ذلك. وشارل الخامس (حكم ١٥١٩- ٥٦) الذي كان يسيطر على القسم الاكبر من اوروبة الغربية باعتباره امبراطورا للامبراطورية الرومانية (بكل اقسامها) وملكا لاسبانيا، اعتزل العرش ١٥٥٦ يائساً من تحقيق الوحدة.

ولم يكن تحقيق هذه الوحدة منتظراً في سنة ١٥٦٣. فالدول الاوروبية، كبيرها وصغيرها، كانت تحول دون ذلك، اذ ان كلا منها كانت تمنع الاخرى من العمل. وهذه الدول العلمانية هي التي كانت تقرر امور المسيحية الغربية منذ سنة ١٣٠٣، وهي السنة التي اذل فيها فيليب الرابع، ملك فرنسة، البابا بونيفاس الثامن.

ان البابوات اقاموا في افينيون (١٣٠٩- ١٣٧٨) لان التاج الفرنسي اراد ان يكون البابا عند مدخل فرنسة، ومن ثم يكون تحت سلطانها. وخلال الانقسام الكبير (١٣٧٨- ١٤١٧) لم تكن القضية اخلاقية او عقائدية: ان الخلاف كان فيما اذا كانت البابوية يجب ان تظل في بيضة القبان الفرنسي ام تعود الى القبان الايطالي. ان السلطات المدنية والبابوية كانت طماعة، على السواء، في الحصول على اموال الضرائب. وقد نظمت الكوريا البابوية، منذ القرن الثالث عشر، اساليب فرض الضرائب، وفي الوقت ذاته اخذت الحكومات المدنية تحجز حصة متزايدة القيمة من الضرائب البابوية التي تفرض في ممتلكاتها على ان هذا كان شرطا ـ يسمح بموجبه للكوريا بان تأخذ الباقي.

ان فضيحة الانقسام الكبير ادت الى عقد مجمعين في كونستانس (١٤١٤- ١٨) وفي بازل (١٤٣١- ٤٩). وقد حاول المجمعان، لكنهما فشلا، في ان يطورا البابوية من ملكية مطلقة الى ملكية دستورية تكون فيها الكلمة الاخيرة للاساقفة (ومساعديهم) والاديرة وممثلي الجامعات. ولان القوى المدنية المحلية لم تؤيدها، فشلت المحاولة. ذلك بان اكثر هذه القوى شعرت ان مثل هذا التطوير قد يقوي سلطة البابوية، وبعضها كان قد انتزع من البابوية كل ما يبغيه، والبعض الآخر كان يحسب ان ينتفع من الوضع القائم، لان القوة الحقيقية في الدول اصبحت، منذ ١٣٠٣، في ايديهم.

وبين ١٣٠٣ و ١٣٦٣ مرت المسيحية الغربية بتطور اساسي من ناحية تمركز السلطة السياسية، اذ ان السلطة مع الضرائب انتقلت من البابوية ومن المؤسسات الكنسية الغربية الأخرى (كالاديرة) الى الحكومات المدنية المحلية. فقد تقلصت البابوية الى واحدة من الامارات الصغيرة في العالم الغربي، وبعد ان كانت تسيطر عليه وتنظمه. وفي قتالها المستمر مع الامارات الاخرى فقدت حقها في السيادة الروحية. وقد عاصر فترة نفي الباباوات الى افينيون ثلاثة من الذين خاصموا البابوية: جون وكليف (١٣٢٩- ٨٤) ووليام اوكام (١٣٠٣- ٤٩) ومارسيليو بادوا (١٢٩٠- ١٣٤٣). اما جون هص (١٣٦٩- ١٤١٥) فكان معاصرا للانقسام الكبير.

واسماء لوتر (١٤٨٣- ١٥٤٦) وزونغلي (١٤٨٤- ١٥٣١) وكلفن (١٥٠٦- ٦٤) تذكرنا بان الامراء المحليين كانوا من العوامل التي مكنت للثورات الدينية ان تقوم بحمايتهم لها. فقد كان هؤلاء « افرادا » ولولا تأييد الشعب، وكذلك تأييد الامراء والطغاة (الاوليغارخيين) لكانت حركاتهم قد فشلت. ولما تحدى فيليب الرابع، ملك فرنسة، وهنري الثامن، ملك انكلترا، البابوية، كان كل منهما سيد دولة محلية قوية وكان قد حظي بتأييد الشعب وحتى رجال الدين المحليين. وكان لا بد لفرد ما من الشجاعة الشيء الكثير، كي يتحدى البابوية، وهذا ما اظهره لوثر في جامعة وتنبرغ (١٥١٧) اولا، (وكان عمر الجامعة خمس عشرة سنة فقط)، ثم امام مجمع ورمز (١٥٢١) ثانيا ـ وكان لذلك فعل الكهرباء في النفوس. وسر النجاح في هذا الوضع هو ان الوسائل التي ارسل فيها « المنفصلون » تياراتهم كانت موصلة. فجماعة هص كانوا ضد البابوية وضد الالمان. وجماعة لوثر الالمان اتبعوه لانهم كانوا خصوما للبابوية. وانتشرت اللوثرية حتى داخل ممتلكات هابسبورغ قبل ان يرتد التيار

بتأثير حركة الاصلاح الرومانية الكاثوليكية. والوطنية المدينية في زوريخ وستراسبرغ وجنيف هي التي فتحت المجال امام زونغلي وبوسر (١٤٩١- ١٥٥١) وكلفن.

كان لوثر الرائد، ولو لم يسر في الطليعة كان من المحتمل ان لا يقوم زملاؤه بالانفصال التام عن البابوية. والبروتستانية توزعت مناطق اوروبية على الشكل التالي: اللوثرية ظلت في المانية واسكندنافيا، والكلفنية (التي لم تنجح في فرنسة) انتشرت في منطقة واسعة من جنيف، وبعد اتحادها مع الزونغلية (زوريخ) انتشرت شرقا الى هنغاريا وبولندا والى هولاندا وغرب المانية شمالا في غرب. الا ان حركة الاصلاح الكاثوليكية انتصرت عليها في هنغاريا وفي بولندا ـ لاتفيا، وبقيت في الاماكن الاخرى.

جاءت الثورة البروتستانتية المدينية بعدد من الثورات. فقد اكدت، واقعيا، الاستقلال ذا السيادة للامراء المحليين والمدن ـ الدول في المانية (ولو ان هذه كانت، رسميا تابعة للامبراطورية الرومانية للشعب الجرماني). ولكن لم ترافقها ثورة اجتماعية. لقد قامت ثورات مجهضة في المسيحية الغربية بعد وفادة الموت الاسود (١٣٤٨): ثار الفلاحون في فرنسة وانكلترا والعمال الصناعيون في مدن فلاندر ومدن الراين وقامت ثورة فلاحية في المانية. وقد كان لوثر ضد هذه الثورات متفقا في ذلك مع السلطات المدنية السياسية، البروتستانتية والكاثوليكية على السواء. وقد اعلن (١٥٢٥) انه يقف الى جانب الامراء ضد الفلاحين.

كان لوثر يرى، مبدئيا، ان الكنيسة اللوثرية يجب ان تمتنع عن التدخل في السياسة، اذ ان هذه عمل السلطات المدنية في الدول اللوثرية. فيما كان رأي كلفن، بالمقارنة، من حيث العلاقة بين الكنيسة والدولة اقرب الى رأي غريغوريوس السابع او حتى بونيفاس الثامن. كان موقف كلفن هو ان حكومة المدينة ـ الدولة جنيف يتوجب عليها ان تقنع الكنيسة الكلفنية بان الحكومة تتبع القواعد الكنسية في ادراتها. وقد جرب ذلك سنتين نفي على اثرهما كلفن من جنيف (١٥٣٨). الا انه اعيد بعد ثلاث سنوات معززا، وكان له ما شاء في ادارة جنيف حتى وفاته (١٥٦٤).

في ١٤٩٤- ٥ طلب الحكم الجمهوري في فلورنسة من سافونارولا، الراهب الدومنيكي، ان يصلح اخلاق الناس في البلد. فعمل، ولكن سنة ١٤٩٨ احرق على السفود. ومع ان شمال ايطالية في القرن الخامس عشر كان مبكرا في سيره فان مهمة سافونارولا كانت سابقة لاوانها. وكان العقاب عليها وحشيا. وعلى كل فقبل ان يعلن

لوثر مساوىء البابوية (١٥١٧) قامت فئة من رجال الدين والمدنيين الايطاليين بقيادة المطران كرافا بقصد اصلاح الكنيسة البابوية من الداخل. ولم يكن هؤلاء ثوريين، ولا اضرموا حقد البابوية ضدهم. وفي الواقع لقد انتخب كرافا بابا (بولس الرابع، ١٥٥٥- ٩).

ان آباء الكنيسة البروتستانتية كانوا ثوريين في الحملة على البابوية ومعارضتها وفي الانفصال عن الكنيسة البابوية، لكنهم، مثل سابقيهم من ارومان الكاثوليك، كانوا يحبون السلطة ولم يكونوا متسامحين. وقد تصرفوا افرادا بمقتضى حكمتهم وتبعا لضميرهم في موقفهم ضد البابوية، فانهم لم يكونوا اكثر تساهلاً من الكاثوليك في السماح للافراد بان يسيروا بمقتضى ضمائرهم وحريتهم في الدول التي قبل حكامها البروتستانتية. لقد اعلن الثوار ان الكتاب المقدس فوق ارادة البابا، والمجامع. (وقد ترجم لوثر الكتاب المقدس الى الالمانية كي يتمكن كل الماني من قراءته). كان لكل مسيحي ان يفسر ما جاء في الكتاب المقدس لنفسه، ولوثر وزونغلي وكلفن فعلوا ذلك في صياغتهم لارائهم اللاهوتية. إلا انهم لم يسمحوا لاتباعهم مثل هذه الحرية في التفسير.

في القرن السادس عشر اتفق رجال الدين والحكومات البروتستانت والكاثوليك على السواء، على انه من حق الحكومة المحلية ان تفرض على رعاياها المذهب الذي تختار. والمخالفون عليهم ان يهاجروا، او انهم قد يتعرضون لخطر الموت. الدولتان الغربيتان الوحيدتان في القرن السادس عشر اللتان كانتا تسمحان للرعايا باتباع الدين الذي يريدون هما البندقية وبولندا ـ لاتفيا. وكان مسيحيو هنغاريا (تحت الحكم العثماني) يتمتعون كذلك بالتسامح، وترانسلفانيا.

ان الحرب المريرة بين البابوية وفردريك الثاني وخلفائه ادت الى تغرب الكثيرين من المسيحيين في الغرب عن « المؤسسة » البابوية الدينية. وقد حول بعض المسيحيين الغربيين، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر في نشاطاتهم الروحية من مجال المشاركة في الدين المنتظم الى العلاقة بين الله والفرد.

كان احد هؤلاء المتصوفة (الميستيك) الدومينيكاني الالماني إكّارت (حول ١٢٦٠- ١٣٢٧) الذي رأى في نفسه الحقيقة الروحية النهائية. وقد اوقعه هذا في مشاكل مع السلطات الدينية الغربية. والحركة الايسيخية (في جبل اتوس) المعاصرة لقيت العنت على ايدي اللاهوتيين الغربيين (مع انها اقرها مجمع ارثوذكسي شرقي

١٣٥١). وكان من هؤلاء في الغرب اتباع غروت الهولاندي (١٣٤٠- ٨٤). ومن رجالهم فيما بعد توما كمبيس (١٣٧٩- ١٤٧١) مؤلف « التشبه بالمسيح ».

كان المسيحيون الغربيون في القرن السادس عشر يركبهم هاجس الموت، وكانوا معجبين بالالم الجثماني الذي بدا في المسيح على الصليب. فرسامو الغرب وحفاروه ونقاشوه المعاصرون ـ وبخاصة شمالي الالب ـ بذلوا جهدهم الفني ليظهروا هذه الافكار بواقعية قاسية. وهذا الجو السقيم هو الذي حمل لوثر على الوقوف عند شعوره بالخطيئة وعند يأسه من التغلب عليها بجهده الخاص. فلجأ الى الايمان بالقوة الخلاصية القائمة في تضحية المسيح لله الأب. فنقل المسؤولية الروحية للخلاص عن عاتق الفرد والقائها على عاتق المسيح اظهر لوثر شبها بتنزل، خصمه الدومينكاني، الذي كان يرفع المسؤولية عن عاتق الفرد ويضعها على عاتق البابا ـ لكن الباعث على ذلك كان طمعا ماليا. كلاهما ترك التشبه بالمسيح الى القاء العبء على عاتق المسيح، وذلك في سبيل الخلاص.

فيليب الرابع ملك فرنسة استولى على املاك فرقة الهيكليين في مملكته واضطهد اعضاءها بقسوة (١٣٠٧- ١٤١٤) وادوارد، ملك انكلترا، تبعه. (وقد منعت الصور والتماثيل في المسيحية الارثوذكسية الشرقية في القرنين الثامن والتاسع). ونظام العزوبة الذي فرضته الكنيسة الغربية على كهنة الرعايا في القرن الحادي عشر اعفى منه (١٤٣٩) في مجمع فلورنسة لكهنة الرعايا في الكنائس المنضمة الى البابوية، اذ كان كهنتهم من قبل لا يتقيدون بالعزوبة. واختلف زعماء البروتستانتية على قضية جسد المسيح ودمه بالنسبة الى القربان.

وكان ثمة خلاف بين لوثر (والذين قبلوا رأيه من البروتستانت) و « الانسانيين » حول القول بالجبرية. فارازمس والقديس ثوماس مور لم يقبلا باراء لوثر. وكان كثيرون يرون ان اراءه فيها رجعية بالنسبة الى ارازمس وتوما الاكويني. ولكن، باستثناء لوثر، فان اباء البروتستانتية كانوا من علماء الكلاسيكيات. ومع ذلك فان لوثر تغلبت اراؤه في النهاية وقبل لاهوته على اساس الجبرية. وترك لوثر على كل، اثرا خالدا في ترجمته الكتاب المقدس الى الالمانية.

والذين اسهموا في الحركة الاصلاحية الكاثوليكية كانوا ممن قبل « الانسانيات » بكل حماسة: اغناطيوس ليولا (١٤٩١- ١٥٥٦) دخل الجامعة ليعد نفسه لعلمه،

وجمعيته اليسوعيين (التي نظمها سنة ١٥٤٠) كانت تؤمن بالتعليم، ولا تزال. وعلى كل فليولا كان جنديا في مطلع حياته، ولذلك فان حب النظام هو الغالب على الجمعية. كما انها وضعت نفسها في خدمة البابوية. وفي القرن السادس عشر (كما حدث في القرنين الثالث عشر والحادي عشر من قبل) انقذ رجل عظيم البابوية من عثراتها. القديس فرنسيس كان يختلف عن غريغوريوس السابع وليولا طبعا وتصرفا (لعلّه اصح ان يقال انه كان عكسهما تماماً). ولكن البابوية افادت من هؤلاء الثلاثة (غريغوريوس السابع في القرن الحادي عشر والقديس فرنسيس في القرن الثالث عشر واغناطيوس ليولا في القرن السادس عشر) لأن الولاء المطلق المؤمن كان الصفة البارزة لهؤلاء الثلاثة. كان مجمع ترنت منعقدا، ولو بصورة متقطعة، من ١٥٤٥ الى ١٥٦٣. وهذا المجمع منح البابا حكما ملكيا على ما تبقى من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، كما انه صحح بعض الاخطاء الكنسية. من الممكن لو ان هذه الاصلاحات ادخلت بين ١٤١٤ و ١٥١٧، لما كان ثمة مجال لان يقوم لوثر بخطوته الهائلة ضد البابوية.

٧٢ـ جنوب شرق اسية ١١٩٠ـ ١٥١١

شهد جنوب شرق اسية، خلال القرون الثلاثة (بين ١١٩٠ و ١٥١١)، تبدلا سياسيا واثنيا (عرقيا) ودينيا كبيراً: فشل الهجوم المغولي؛ وانتشار شعوب تتكلم لغات جنوب اسيوية قارية احادية المقطع واستقرارها وسيطرتها ـ خصوصاً الثاي؛ وانتشار البوذية الترافادية (السيلانية) والاسلام؛ ووصول الملاحين من المسيحية الغربية ـ البرتغاليين.

محاولات المغول البرية والبحرية، بالنسبة الى جنوب شرق اسية، باءت بالفشل (١٢٥٧ و ١٢٨٥ و ١٢٨٧)، وحتى الجزء الذي احتلوه من بورما (١٢٨٧) اضطروا الى اخلائه في ١٣٠٣. والواقع ان المغول هنا، كان وضعهم مثل وضعهم في سورية (١٢٦١ـ ١٣٠٣) ـ كانوا بعيدين عن قاعدتهم في الاجزاء القصوى من السهوب الاوراسية، يضاف الى هذا انهم قوبلوا باصرار على المقاومة في الميدانين. (حملة المغول البحرية على جاوه ١٢٩٢ انتهت بانكسار مثل هجومهم على اليابان ١٢٧٤ و ١٢٨١).

في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر كانت تقوم في اندونيسيا امبراطورية في سومطرة واخرى في جاوه. وحوالي سنة ١٢٩٥ دخل الاسلام اندونيسيا (في الجزء الشمالي الغربي من سومطرة).

في سنة ١٤٠٣ انشأ امير سومطري (بَرامسفارا) دولة ملقا على البر القاري للمضيق الذي يحمل الاسم نفسه. في سنة ١٤١٤ كان برامسفارا قد اسلم وتسمى محمد اسكندر شاه. ومن هنا اخذ الاسلام ينتشر في اندونيسيا. وكانت الصين، واماكن على الطريق، قد اعتادت منذ القرن الثامن على التجار العرب والايرانيين الذين كانوا يتاجرون بين الخليج العربي وما اليه والصين. لكن انشاء دولة ملقا كان باعثا هاما على نشر

الاسلام في اندونيسيا. والذي يجب ان يذكر ان الاسلام انتشر في جنوب شرق اسية لأن الحكام المحليين كانوا يعتنقونه طوعا، لا بقوة السيف. وقد قبل الاندونوسيون الاسلام واحتفظوا بالثقافة الهندية التي كان قد مر عليها نحو الف سنة وهي تتجذر هناك.

دخلت البوذية الترفادية (السيلانية) الى بورما سنة ١١٩٠، ومنها انتشرت في المنطقة وامتزجت بالثقافات الموجودة. وقد ظلت مناطق واسعة، مع ذلك، في فلك الحضارة الهندية.

في العقود المبكرة من القرن السادس عشر كانت منطقة جنوب شرق اسية قد تغيرت اثنياً (عرقيا). فالبرميون تغلبوا على حوض ايراوادي الاسفل، والفيتاميون تغلغلوا في شمال فيتنام الى حوالي ١٠٠٠ ثم اتجهوا جنوب ايضاً، الى دلتا نهر ميكونغ.

وفي هذه الفترة، وبخاصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، انتشرت البوذية (الترافادية) بين التايين، كما انتشر الاسلام في يونان الصينية وفي بعض دلتا ميكونغ وفي الملايو.

وهكذا لما استولى البرتغاليون (١٥١١) على الملقا كان جنوب شرق اسية قد توزعته اربع ديانات ـ منها اثنتان حديثتان البوذية والاسلام، على ما ذكرنا. وفي جزيرة بالي كان الدين الهندوكي هو المنتشر. وفي بورنو كان الناس مسلمين على الساحل، لكنهم وثنيون في الداخل.

٧٣ـ شرق اسية ١٢٨١ـ ١٦٤٤

لاول مرة في تاريخها وقعت الصين بكاملها تحت حكم اجنبي (١٢٧٩)، والولاية الوحيدة التي ظلت فيها مدنية صينية هي شمال فيتنام، الا ان هذه كانت قد اختطت لنفسها سبيلا خاصا. فالصين (١٢٧٩) والهند (١٥٦٥) كانتا في وضع متشابه - كل خسرت استقلالها. الا ان احتلال المغول للصين جاء دفعة واحدة (١٢٠٥- ٧٩) وكان كاملا، اما احتلال المسلمين للهند فقد طال امده حتى تم (١٢٠٢- ١٥٦٥)

اليابان صدت الهجوم المغولي (برا وبحرا) في ١٢٨١. الا انها عانت فوضى ١٢٨١- ١٦١٤ لم تعرف لها مثيلا في تاريخها. اما احتلال المغول للصين (١٢٧٩) فاعطاها وحدة سياسية استمرت حتى سنة ١٩١١، ولو ان الحكم فيها كان وطنيا من حول سنة ١٣٨٢ الى حول سنة ١٦٣١ في الواقع. وتوحيد الصين سياسيا تحت الحكم المغولي جعل منها مركز الثقل للامبراطورية المغولية الواسعة. قوبلاي خان (حكم ١٢٦٠- ٩٤) نقل عاصمته من قراقورم الى بكين (١٢٦٧) واتم القناة الكبرى (١٢٨٩). وعندها اصبح من الممكن ان تحمل حاجة بكين من الارز من الجنوب بطريق نهري.

كانت اسرة الايلخانات في العراق وايران في الغرب الاقرب الى الصين، وهذا يفسر الاثر الثابت والمستمر للفن الصيني على الفن الايراني المنظور والفخار. في ما قبل المغول ارسلت الصين صناعة الورق الى الغرب، حتى وصلت المسيحية الغربية. والعصر المغولي بعث بالطباعة والبارود الى الغرب اللذين قبلا هناك حالاً.

وظل الحكام المغول ورعاياهم الصينيون على شيء من الجفاء. والمغول استخدموا المسلمين والمسيحيين في الاعمال الادارية، والعلماء الكونفوشيون العاطلون عن العمل

نفحوا الادب الصيني بالتمثيلية والقصة. ولم يكن ثمة مجال لتواصل ثقافي بين الشعبين المغولي والصيني. ومن ثم فان حكم المغول للصين كان عابرا. وقامت ثورات ضد المغول بدءاً من اربعينات القرن الرابع عشر. وكان الاكبر نجاحا تشو يوان ـ تشانغ (١٣٢٨ـ ٩٨) الذي وحد الصين واسس اسرة منغ (١٣٦٨) وتسمى الامبراطور هونغ ـ وو. وفي سنة ١٣٨٢ كان قد اخرج المغول من الصين وقضى على جميع منافسيه، واحتفظ بالعاصمة في نانكين، لكن احد خلفائه اعادها الى بكين، في الشمال، لانه اراد ان يكون على استعداد لدفع المغول فيما لو عادوا ثانية.

ذلك ان المغول كانوا لا يزالون في السهوب، ومن الممكن ان يهاجموا الصين ثانية. ولذلك قام اباطرة منغ بالهجوم على السهوب، لكنهم لم يظفروا بالمغول، حتى كسرهم هؤلاء كسرة شنيعة (١٤٤٩)، لكنها لم تكن بالغة الخطورة بالنسبة الى البلاد جمعاء.

عاد الى الكلاسيكيات الكونفوشية دورها اذ اختار حكام منغ موظفيهم على اساس الامتحانات في هذه الآداب. (يعود هذا النظام اصلا الى القرن الاول ق.م. واعيد اليه اعتباره في القرن السادس الميلادي). والنظام الذي عاد الى الحياة في ايام منغ ظل قائما في البلاد الى ١٩١١، سنة الغاء الامتحانات العامة. والموظفون الرئيسيون كانوا يختارون على هذا الاساس. اما في الولايات فقد كان الكتاب من غير المتعلمين على غير النظام الكونفوشي، وكانوا يقومون بعملهم مجانا، بوصفهم من اصحاب الاملاك.

والواقع ان اجتياز الامتحان العام، والحصول على الشهادة الكونفوشية، كان يضع الناجح في منزلة اجتماعية مرموقة، ويجعله ملزما بأن يقوم بخدمة عامة، بالاجر او بالمجان.

كانت اسرة منغ اكثر وعيا لماضي الصين الثقافي من الذين سبقوها. في سنة ١٤٠٣ـ ٧ رعى الامبراطور يونغ ـ لو تأليف موسوعة كانت تحتوي (في نسختها المنقحة) ٢٢٠٨٧٧ كتابا (في ١١٠٠٩٥ مجلدا) وستين كتابا هي فهرس المحتويات. وهذه الموسوعة ظلت مخطوطة. فحتى الصين لم يكن باستطاعتها ان تطبعها، لا تكنولوجيا ولا ماليا.

ومع ان الموسوعة كانت تعنى بالماضي، فان الفلسفة والادب الصينيين كانا لا يزالان حيين في عصر منغ. ولكن كان ثمة مجال للاختلاف الجزئي الذي كان قد بدأ

في القرن الحادي عشر. كان وانغ يانغ ـ منغ (١٤٧٢- ١٥٢٩) يرى ان عقل الكائن البشري وحصيلة الحقيقة النهائية صنوان. ولكن المدرسة الاخرى، مثل مدرسة وانغ، كانت متأثرة بالبوذية الى درجة ما. والخلاف كان حول قضايا ميتافيزقية. ويمكن القول اجمالاً بان الفلاسفة الصينيين كانوا، في جميع فترات التاريخ، يعنون بالاخلاق والعمل اكثر من عنايتهم بالميتافيزيقيات والتأملات ـ هذا باستثناء الطاويين. وقد كان وانغ آخر فيلسوف صيني كبير الذي تأثرت اراؤه بالبوذية فقط وليس بالفلسفة الغربية. وقد وصل البرتغاليون الاوائل الى الصين سنة ١٥١٤، اي قبل وفاة وانغ بخمس عشرة سنة.

بين الاجانب الذين احتلوا الصين كان المغول ابعد ما يمكن، والمنشو اقرب ما يمكن، لاسلوب الحياة الكونفوشي. ومن ثم فالاولون لم يتقبلوا الموظفين الصينيين العلماء، والآخرون تقبلوهم بسرور. وقد ضم يونغ ـ لو (حكم ١٤٠٣- ٢٤) منشوريا الى الصين.

اخذ المنشو يتقبلون المدنية الصينية منذ اواخر القرن السادس عشر. فقد اقتبس نورها شي (١٥٥٩- ١٦٢٦) صيغة معولية من الفباء سريانية لكتابة لغة قومه (المنشوية)، وترجمت بعد ذلك الكلاسيكيات الصينية الى المنشوية.

في سنة ١٦٤٤ حاصر ثائر صيني اخر اباطرة منغ في العاصمة، فانتحر الامبراطور. وفي السنة نفسها احتل المنشو بكين ثم استولوا على الصين.

ذكرنا ان اليابان مرت بعصر فوضى سياسية عنيفة بين ١٢٨١ و ١٦١٤. (وبخاصة بين ١٣٣٨ و ١٥٧٣). لكنه كان يرافقها حيوية اقتصادية وفنية كبيرة. ومع ان الحكومة الصينية كانت قد فرضت حدودا معينة لحجم التجارة الصينية اليابانية (في القرن الخامس عشر) فان التجار ـ القرصان اليابانيين تجاهلوا ذلك، واعانهم بعض الصينيين. وقد شهدت اليابان، داخليا، ازديادا في النشاط الاقتصادي وارتفاعا في مستوى المعيشة وتقوى دور المشاة في الحروب الاهلية (الامر الذي اضعف احتكار الفوه من قبل) وقيام اتحادات (طوائف) صناعية وتجارية ونشوء المدن الحرة. (وظهرت ايضا طبقة من المنبوذين).

ولم يكن ثمة اهتمام بالزن (وهي صيغة بوذية ماهايانية) فحسب، بل ظهرت « طقسية الشاي »، وهي عادة اجتماعية للتخفيف من الحدة التي كان المتقاتلون

يدونها. وازدهر رسم الطبيعة على الاسلوب الصيني، والعناية بالحدائق (وهو فن ياباني مميز). وثمة انجاز ثقافي اهم هو خلق صنف من التمثيلية اسمه « نو » (حول ١٣٥٠- ١٤٥٠). وقد اتخذ كل شيء فيها اسلوبا معينا ثابتا: اللباس والتمثيل والكلام والنطق والغناء والموسيقى، وتصح مقارنته بالتمثيلية الديونيسية اليونانية الاتيكية في القرن الرابع ق.م).

اخذت احوال اليابان تتحسن قليلا بعد ١٥٤٣، اذ قلت الحروب الاهلية وحل التوحيد السياسي محلها. وفي ١٥٤٢ (او ١٥٤٣) ادخل البرتغاليون الاسلحة النارية الى اليابان، وفي غضون عشرين سنة كان استعمالها قد شاع!

كان الرجل الذي انتهت اليه مقاليد الامور هو « إيازو » (١٥٤٣- ١٦١٦)، الذي حكم فعلا في ظل امبراطور صوري كان يقيم في كيوتو. اما ايازو فقد اتخذ ايدو عاصمة لادارته - وهي طوكيو الحالية.

٧٤ــ المدنية في ميزو اميركة والاندز ١٤٢٨ــ ١٥١٩

في القرن الخامس عشر، وفي الوقت ذاته تقريبا، انشأ مجتمعا ميزو - اميركة والاندز، كل في محيطه، امبراطورية شملت القسم الاكبر من المنطقة. فالازاتكة (وهم المكسيكيون) كانوا اول من انشأ امبراطورية في عالم ميزو - اميركة وكان الانكا، على الارجح، هم ايضا الاوائل.

وقد اعان الازاتكة على بناء لمبراطوريتهم وجود عدد من المدن - الدول المستقلة في منطقة البحيرات في المكسيك، كانت نتيجة، انهيار امبراطورية تولا (القرن الثاني عشر) واستقرار جماعات مختلفة في تلك المنطقة. وكان يربط بين هذه المدن - الدول لغة واحدة هي ناهوتال. وكان الازاتكة برابرة هبطوا منطقة البحيرات في وقت لم يكن لهم فيها مكان، فاستقروا في جزر في بحيرة توكسيكوكو، وجعلوا من المنطقة جنة زراعية بسبب حاجتهم ومهارتهم. كما انهم مهروا في تخطيط المدن وفي التجارة والحرب. وجمع الازاتكة بين معتقداتهم الدينية وما حصلوا عليه من الجيران واعتقدوا بان « الزمن » هو تعاقب « فترات » طويلة المدى الزمني. واخترعوا كتابةً صورية وفونيمية وكتبوا شعرا لطيفا. لكنهم ظلوا محتفظين بتقديم الضحايا البشرية. فلما وصل الاسبان الى تلك البلاد واحتلوها اوقفوا هذا العمل الوحشي. الا ان هؤلاء الاسبان عذبوا اسرى الحرب من الازاتكة والانكا، لما وصلوا الى بلادهم، كي يحصلوا منهم على المعلومات المفيدة لهم، للوصول الى الكنوز المخفية.

في سنة ١٢٤٨ استولى الازاتكة على امبراطورية تيبانك في منطقة البحيرات، وهي الامبراطورية التي عمل الازاتكة من قبل كمرتزقة لانشائها، وكان تلاكالل هو منفذ الفكرة. وجمع السلطة بيده مكنت الازاتكة من انشاء امبراطورية كانت تمتد عبر ميزو - اميركة من المحيط الهادي الى المحيط الاطلسي، وضمت ايضا ساحل المحيط

الهادي الى الحد الحالي بين مكسيكو وغواتيمالا. وقد بلغت هذه السعة في سنة ١٥١٩، وهي السنة التي وصل فيها كورتيس الى البلاد. ولكن تلاكالل ترك، داخل هذه الامبراطورية، المدينة - الدولة تلاكسكالا مستقلة عمدا، ليحصل منها، بسبب الحروب التي كانت تدور رحاها، على الحاجة من الاسرى لتقديم الضحايا البشرية اللازمة.

وقد حافظت امبراطورية الازاتكة على وجودها بان اقامت حاميات عسكرية بين الشعوب التي استولت على بلادها، كما لجأت الى الرعب والخوف بشكل خاص. ففرضت على تلك الشعوب ضرائب باهظة بالعنف. وكان الاولاد والبنات، الذين يقدمون ضحايا للآلهة، جزءا من الضريبة، كما فرض على الشعب ضريبة من المواد الغذائية والاقمشة والحجارة والمعادن الثمينة وغيرها من السلع. وكان التجار الازاتكة مخبرين للدولة، كما كان ممثلو الامبراطورية هم جامعو الضرائب.

وبعد تدشين امبراطورية الازاتكة بنحو عشر سنين اخذ الانكا بانشاء امبراطوريتهم في الانديز. وقد امتدت امبراطورية الانكا، حول اواخر القرن الخامس عشر، بحيث شملت اكثر عالم الانديز. ومع انها كانت اوسع من امبراطورية الازاتكة، فانها كانت اقل سكانا من هذه. ولم يكن عند الانكا وسائل نقل على العَجَل، وكل ما كان لديهم هو حيوان اللاما. كما ان الانكا لم يعرفوا الكتابة. وكل ما كان عندهم هو المعروف « بالكويبوس » وهي خيوط تعقد فيها عقد، والخيوط نفسها كانت لها الوان مختلفة. والالوان والعقد كانت الاساس الذي استعمل لادارة البلاد وتنظيم مصادر الثروة في هذه الامبراطورية الواسعة التي كانت في حجم الامبراطورية الفارسية الاولى او في حجم الامبراطورية الرومانية.

كان التنقل في انحاء الامبراطورية منتظما وجيدا. فالطرق كانت تجتاز الاودية على جسور مصنوعة من حبال مجدولة من انسجة نباتية. وكان على الطرق، وخاصة في المناطق الصحراوية او الشبه صحراوية، بيوت للاراحة مشحونة بالمواد الغذائية. وكانت البضائع والرسائل ينقلها رجال مخصصون لذلك. وكان هناك طريقان متوازيان الواحد في الجبال، وكان عملا هندسيا كبيراً، والثاني على الساحل. وكانت طرق عرضية تسير مع الاودية المنحدرة من الجبال الى الساحل.

كانت الطبقة الحاكمة في الانكا يزداد عددها بمنح اعضاء الشعوب الاجنبية « وضع الانكا »، وبذلك كانت الحكومة تحصل على المدبرين اللازمين لها. وكانت الحكومة

تلجأ الى نقل السكان من مكان الى آخر، كي يظلوا تحت سلطانها. ومن الوسائل التي لجأت اليها الحكومة لضبط الامور هي ان تنقل آلهة الشعوب المغلوبة الى العاصمة، على ان يقوم بالطقوس اللازمة لها كهنة من تلك الشعوب نفسها. كما كانت الحكومة تبني هياكل محلية في بلاد الشعوب المغلوبة لاله - الشمس (اله انكا).

كانت الضرائب في امبراطورية الانكا اخف منها في امبراطورية الازاتكة، لكنهما كانتا تحسبان حساب الاطفال والسلع في الذي تأخذانه. فكان اولاد النبلاء في البلاد المغلوبة يحملون الى العاصمة (كوزكو) ليعلموا الى جانب اولاد نبلاء الانكا. اما البنات فكن يحملن قهرا، كجزء من الضرائب، ليتخذن زوجات للامبراطور وحاشيته، او لادخالهن الى الاديرة. ومع ان هؤلاء الراهبات كن يضحين احيانا، فان الضحايا البشرية لم تكن جماعية عند الانكا كما كانت عند الازاتكة. فهنا كن جميعهن يقدمن ضحايا. وابناء النبلاء من غير الانكا كانوا يحملون الى العاصمة ويعلمون فيها، وكانوا يجبرون على الخدمة العسكرية.

كانت لغة الانكا، كوتشوا، هي اللغة المستعملة في هذه الامبراطورية المتنوعة الشعوب. كما كانت لغة اخرى، ايمارا، اللغة المستعملة في المنطقة الجنوبية الشرقية من الامبراطورية.

وقد كانت اللغتان ونقل السكان والطرق الامبراطورية وسائل فعالة لربط اجزاء الامبراطورية واحدها بالآخر. ومع ذلك فان المحافظة على امبراطورية بتلك السعة كان امرا صعبا. ومن ثم فان حربا اهلية قامت في البلاد، لما توفي هوايان كاباك (١٥٢٥)، بين الشمال والجنوب، انتصر فيها الشماليون، لانهم كانوا قد تمرسوا بالحروب اكثر من الجنوبيين. وفي ذلك الوقت وصل بيزارو الاسباني، ونزل على شاطىء المحيط الهادي للمرة الثالثة.

٧٥ـ اندماج الاويكومين ١٤٠٥ـ ١٦٥٢

خلال الفترة الممتدة من حوالي ١٤٠٠ الى ١٥٥٠ تبدلت الصورة العقلية لموطن الانسان على الارض ومكانته في الكون. فالشعوب التي كانت تتصل بشواطىء الاوقيانوس، رَأت ان رقعة الاويكومين اتسعت فجأة. وبالنسبة الى فئة صغيرة، كانت تتسع دوما، وهي التي قبلت الرأي الثوري الذي جاء به الفلكي البولندي كوبرنيكوس، فان رقعة الاويكومين تقلصت فجأة بالنسبة الى مساحة الكون.

منذ ان ظهرت المدنيات الاقليمية الاولى، قبل ٤٥٠٠ سنة من ايام كوبرنيكوس كان الرأي المقبول هو ان الارض هي مركز الكون، وكانت لكل مدنية مكانها المختار ليكون مركز الارض. ففي نظر شعوب شرق اسية كانت الصين هي « المملكة » المتوسطة « المركزية ». وكان الهنود يرون ان وسط الارض يقع حيث توجد ولايتا اثار بادش وبيهار اليوم، وكانت مكة مركز الارض عند المسلمين كما كانت القدس عند المسيحيين واليهود. وكان للمدنيات المندثرة مراكز كذلك ـ دلفي بالنسبة الى اليونان، ورأس الدلتا بالنسبة الى مصر الفرعونية ومدينة نيبور عند السومريين.

ان المدنيات الاقليمية المتجاورة قامت بينها صلات، سلمية او عدائية. والامبراطورية المغولية الواسعة، ولكن العابرة، اقامت احتكاكا مباشرا بين شرق اسية والمسيحية الغربية موقتا عبر السهوب الاوراسية. وقد دار بحارة بافريقية من الشرق الى الغرب في القرن السابع ق. م. وعند منقلب القرن العاشر الى الحادي عشر وصل النورمان الى ساحل غرب غرينلاند. واستوطنوا هناك، دون ان يعرفوا انهم كانوا على عتبة عالم جديد. ولكن من المؤكد انه لم يعبر المحيط الاطلسي بحار قبل كولمبوس ١٤٩٢ على خطوط العرض الدنيا، في اي من الاتجاهين. ولسنا ندري فيما اذا كان الانسان قد اجتاز المحيط الهادي بتعمد. وكان فاسكو دي غاما اول بحار دار حول افريقية من الغرب

(١٤٩٨)، وان السفينة فكتوريا (وهي التي سلمت من اسطول مجلان) كانت اول سفينة دارت حول الارض (١٥١٩- ٢٢).

في القرن الثالث ق.م. كان الجغرافي اليوناني - الليبي إيراتوسشينس قاس محيط الارض قياسا قريباً جداً من الصواب، وهذا ما اوضحته سفينة فكتوريا. لكن تقدير كولمبوس كان خاطئا، وهذا م شجعه على المغامرة في المحيط الاطلسي. وكان الفلكي اليوناني أرسطوخوس (القرن الثالث ق.م .) قد ارتأى ان الارض سيار حول الشمس، وانها بالاضافة الى انها تدور حول الشمس مرة في السنة، فانها تدور حول نفسها مرة كل اربع وعشرين ساعة. لكن خلفاءه في القرن التالي من اليونان رفضوا رأيه، لكن نيقولا كوبرنيكوس (١٤٧٣- ١٥٤٣) كان قد عرف الحقيقة (١٥١٢).

اكتشاف كوبرنيكوس ومسيرة السفينة فكتوريا، جعل مسكن الانسان اكبر واصغر، فالاويكوميات التي كانت من قبل تتمركز في بكين وبنارس ومكة والقدس وكوزكو اندمجت في اويكومين واحد.

في سنة ١٤٩٣ قسم البابا اسكندر السادس الارض (خارج المسيحية الغربية) بين اسبانية والبرتغال بحيث كان الحد الفاصل خطا طوليا. وفى السنة التالية اتفقت اسبانية والبرتغال على حد جديد (١٤٩٤)، واخيرا عقدت معاهدة بين الدولتين (١٥٢٩) كانت في مصلحة البرتغال في المحيط الهادي. الملقا للبرتغال والفيليبين لاسبانية.

ومع ذلك فان الاويكومين المندمج كان، ولا يزال، هو افضل جزء من المحيط الحيوي. الارض تابعة للشمس، والشمس كوكب ثابت بعيد عن جاره ابعد من الارض عن الشمس. وفي هذا الكون المتسارع اصبحت الارض مجرد ذرة من الغبار!

لقد اندمج الاويكومين فجأة. وجاءت معه تطورات مستحدثة. لقد كان ذلك ضربة قاضية بالنسبة الى الازاتكة والانكا والى سكان غرب افريقية الذين كانوا في متناول تجار الرقيق الاوروبيين. لقد سر الازاتكة والانكا اولا حين تحرروا، لكنهم سرعان ما اكتشفوا ان القضية كانت تبديل سيد بسيد.

وبالنسبة الى المسيحية الغربية كانت السيطرة على المحيط في مصلحة البلاد الواقعة على المحيط الاطلسي وسواحل بحر الشمال، لكنها جاءت ضارة بمصالح سواحل بحر البلطيق والبحر المتوسط. فالاستيلاء على كنوز اباطرة الانكا وصهرها وسكها نقودا كان لها تأثير كبير وارسالها الى اوروبة ادى الى ارتفاع في الاسعار (تضخم). وقد تأثرت

بذلك احوال الطبقات المختلفة في جميع دول اوروبة الغربية، باشكال متعددة. وكان البرتغاليون والاسبان اول من تاثر واشد من تضرر. لكن قبل نهاية القرن السادس عشر كان التضخم الجديد قد تجاوز حدود المسيحية الغربية، واخذ يؤثر في اقتصاد الامبراطورية العثمانية. ومن ثم فليس من الغريب ان تثري فئات وتفقر جماعات وينعدم التوازن الاقتصادي الاجتماعي في المسيحية الغربية وغيرها. وليس ثمة غرابة في ان يقع المرء على حوادث مؤلمة، كانت ترتكب باسم الدين ولدولة، وهما عنها بعيدان!

بعث الامبراطور الصيني يونغ - لو اول اسطول صيني غربا في سنة ١٤٠٥. وفي سنة ١٤١٧ نقلت سمكة الرنكة مكان بيضها وتفقسيه من البلطيق الى البحر الشمالي (١٤١٧). وارسل هنري الملاح بعثته البحرية الاولى جنوبا سنة ١٤٢٠. هذه هي التحركات البحرية الرئيسة في مطلع القرن الخامس عشر.

كان أمير البحر عند يونغ - لي تشنغ هو، وهو خصي مسلم من يونان؛ وقد قام بسبع رحلات بحرية بين ١٤٠٥ و ١٤٣٣. فوصل هرمز وعدن ومداخل البحر الاحمر، كما وصلت سفن منفردة من اسطوله الى شرق افريقية. وقد كانت احجام السفن الصينية، وعددها في كل اسطول، والقوة التي كانت تمثلها مجموعة السفن اكبر بكثير من مقابلها من اساطيل البرتغاليين. ففي الحملة الصينية الاولى، التي وصلت الهند (١٤٠٥- ٧)، كان هناك ٦٢ سفينة تحمل ٢٨٠٠٠ رجل. وكانت السفن مزودة بالبوصلة البحرية (وهي اختراع صيني) وحجر لا تصل اليها المياه. وكانت اكبر سفينة يبلغ طولها نحو ١٢٢ مترا.

ظلت السفن الصينية اقوى سفن في العالم الى ان بنى البرتغاليون سفنهم الجديدة في وقت متأخر من القرن الخامس عشر. وقد اوقعت الرعب في قلوب سكان الاماكن التي وصلت اليها. وقد كان باستطاعة الصينيين، لو انهم ثابروا على سيرهم، ان يصلوا هرمز قبل البرتغاليين، وان يدوروا حول رأس الرجاء الصالح قبلهم.

كان الامبراطور يونغ - لو يعنى بحدود بلاده الشمالية، وقاد بنفسه خمس حملات ضد السهوب الاوراسية. لكن الصين الموحدة يومها كن لها من مواردها ما يمكنها من السير برا (الى الشمال) وبحرا (الى الشرق الاوسط) في وقت واحد. لكن يبدو ان ثراء الصين في تلك الازمنة هو الذي حملها على العزوف عن الاستمرار في الحملات البحرية بعد ١٤٣٣. (وقد ذكر احد اباطرة الصين لرسول بريطاني زار بلاده

سنة ١٧٩٣، بعد ان كانت الثورة الصناعية في بلاده قد قطعت شوطا لا يستهان به، ان الصين كانت مكتفية ذاتيا من الناحية الاقتصادية). اما الدول الاوروبية فقد دفعها فقرها الى تشجيع المحاولات البحرية وتأييدها. وكان تجار الصين (في القرن الخامس عشر) على درجة من النشاط والفعالية يعادل معاصريهم من الاوروبيين الغربيين. لكنهم لم يسمح لهم بالقدر المماثل من الحرية في النشاط التجاري، لانهم كانوا يخضعون لدولة تقوم على الموظفين الذين كانوا يرون ان العقلية التجارية هي دون قيمتهم الاجتماعية. فالامبراطورية الصينية الحديثة (يومها) كان لشعبها، مثلما كان لشعب الامبراطورية الرومانية الشرقية في العصور الوسطى، ميل واتجاه طبيعيان للتجارة، لكنهما كانا بحاجة الى دولة لها عطف وتقدير للعبقرية الوطنية.

وقد ثابر البرتغاليون. فقد دار دياز حول رأس الرجاء الصالح (١٤٨٧) والقى فاسكو دي غاما مراسيه على ساحل الهند الغربي (١٤٩٨)، ووضع البوكيرك المحيط الهندي تحت نفوذ البرتغال لما احتل غوا (١٥١٠) وملقا (١٥١١) وهرمز (١٥١٥). وكانت استراتيجية البوكيرك البحرية شبيهة باستراتيجية المغول البرية في القرن الثالث عشر في مداها الجغرافي. وقد وصلت السفن البرتغالية كنتون (١٥١٤) ووصلت احداها اليابان (١٥٤٢). وكان الاحراج الذي وقعت فيه الدول الاسلامية بسبب مواجهة البرتغاليين (بين ١٥٠٣- ١٥٥١) في النفوذ في المحيط الهندي كبيراً.

كان نجاح البرتغاليين الكبير نتيجة شجاعتهم وتفننهم. فقد بنوا (بين حول ١٤٤٠ و ١٤٩٠) سفنا قوية استطاعت ان تسيطر على البحار مدة طويلة. وقد حسن الهولانديون الاختراع البرتغالي في القرن السابع عشر، فأُدخلت المدافع في السفن في القرن السادس عشر. وكانت القوة المحركة للسفن هي الرياح. وهي بذلك كانت اقدر على البقاء في البحر مدة اطول، من السفن الميكانيكية التي حلت محلها في القرن التاسع عشر.

وقد ثابر الاسبان ايضا. فقد القى كولمبس مراسيه في العالم الجديد في ١٤٩٢. ووصل بلباو الى المحيط الهادي (عبر برزخ بنما) سنة ١٥١٣. وانشئت مدينة بنما الاسبانية سنة ١٥١٩. واستولى كورتيز على امبراطورية الازاتكة ١٥١٩- ٢١. كما قضى بيزارو على امبراطورية الانكا ١٥٣٢- ٥. وكانت الامبراطوريتان اللتان قضى

عليهما الاسبان تحكمهما حكومتان حربيتان وفيهما شعبان يثق فيهما الناس بانفسهم. لكنهما كانتا قليلتي الحظ. فقد كان في نبوءة الازتكة ان حدثا سيقع لهم في الوقت الذي هوجمت فيه بلادهم. فكان الامر استسلاما اكثر مما كان انكسارا. اما بيزارو فقد دخل البلاد بعد حرب اهلية عنيفة.

افاد الاسبان من الخلافات القائمة في المناطق التي اعتزموا فتحها. فقد كان الازتكة والانكا مكروهين من رعاياهم. كما كان الانكا يختصمون فيما بينهم. فالقادة في خصومة ونزاع. والعاصمة، كوزكو، كانت تنقم على كيتو، المدينة الجديدة لنجاحها. وقد استغل الاسبان ذلك بسرعة. فجند كورتيس فريقا ضد الآخر في بلاد الازتكة، وفعل بيزارو الشيء نفسه في بلاد الانكا.

على ان عناصر النجاح عند الاسبان كانت تكمن في استعدادهم وقحتهم وهمجيتهم. فالسكان، بعد ان افاقوا من هول الصدمة، قاوموا ببطولة. لكن بطولة المقاومين في العالم الجديد لم تستطع ان تقف امام البارود والفولاذ والخيل التي لم تكن معروفة لديهم. (مع العلم بان الحصان كان قد تطور في اميركا الشمالية قبل وصول البشر من شمال شرق اسية). وانشأ الاسبان مدنا مستقلة اداريا في نقاط استراتيجية وزودوها بالمحاربين القدماء واعوانهم. وكان الانتقال على الخيل فيه من السرعة ما يعجز عنه الآخرون.

كان الروس، قبل نهاية القرن السادس عشر، يقومون في شمال اسية بمثل ما قام به الاسبان في الاميركتين. لقد فشل العثمانيون (١٥٦٨- ٩) في احتلال استراخان، وحفر قناة بين نهري الدون والفولغا. ولم ينجحوا في اختراق الحاجز الروسي الذي كان يفصلهم عن المسلمين في ما وراء النهر. وقد تقوى هذا الحاجز على يد القوزاق، الذين قامت جماعة منهم (١٥٧١) بالاستقرار حول نهر الدون، كما تركزت مجموعة اخرى، حوالي الوقت ذاته، على نهر اورال. وكان القوزاق من اتباع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية.

في سنة ١٥٨١ اجتاز مغامر قوزاقي روسي جبال الاورال شرقا وتغلب، لانه كان يملك الاسلحة النارية (مثل الاسبان)، على دولة سيبر. وتمكن خلفاء هذا المغامر في ١٦٣٧ (او ١٦٣٨) من الوصول الى أوختسك، على شاطىء المحيط الهادي الشمالي الغربي، متجنبين المغول المقيمين حول بحيرة بيكال، وتغلب الروس عليهم

وانشأوا مدينة إركُتْسك (١٦٥١). وكان الروس، حول الوقت نفسه، قد هاجموا حوض نهر آمور (١٦٤٣) ووصلوا الى منشوريا. وكان المنشو يملكون الاسلحة النارية، فردوهم على اعقابهم غربا (١٦٥٨). وقد وقعت معاهدة (١٦٨٩) حددت فيها منطقة الروس هناك. وفي هذه الفترة كان المغول الشرقيون قد اخذوا بالبوذية الماهايانية (حول ١٥٧٦- ٧). ثم تبعهم المغول الغربيون. وكان هؤلاء يقتعدون المنطقة بين جبال التاي وتيان شان.

قبل نهاية القرن السابع عشر اختلف الاسبان والبرتغاليون. ففي سنة ١٥٧٨ اصابت البرتغاليين نكبة عسكرية في المغرب (معركة وادي المخازن او الملوك الثلاثة). وفي ١٥٨٠ اتحدت اسبانية مع البرتغال تحت حكم فيليب الثاني (١٥٢٧- ٩٨). وفي سنة ١٥٨٨ انكسر فيليب في معركة الارمادا، في محاولته احتلال انكلترا. وبعد ذلك عجزت قوى البلدين (اسبانية والبرتغال) عن حماية الامبراطوريتين البحريتين (الاسبانية والبرتغالية) من تدخل قوى شمال غرب اوروبة الفتية - هولاندا وفرنسة وانكلترا.

وقد قام قراصنة هذه الشعوب باحتلال بعض الجزر في البحر الكاريبي. كما ان الانكليز استقروا في فرجينيا (١٦٢٠). والفرنسيون نزلوا في اكاديا وانشأوا كويبك (١٦٠٨). واسس الهولانديون نيو امستردام (نيويورك الحالية). ان اسبانية خسرت، نسبيا قليلا من املاكها في الاميركتين. وكانت خسارة البرتغاليين في امبراطوريتهم اكبر من خسارة الاسبان. فقد انتزع منهم الهولانديون ملقا (١٦٤١) وسيلان الساحلية (١٦٥٨). وبين ١٦٠٩ و ١٦٢٣ تغلب الهولانديون على الانكليز في المسابقة لانتزاع اندونيسيا من البرتغاليين.

وكان شر ما اصيب به البرتغاليون اخراجهم من اسية وافريقية على ايدي الدول الاسيوية والافريقية. فالشاه عباس الصفوي (حكم ١٥٨٨- ١٦٢٩) انتزع هرمز (١٦٢٢) وفي ١٦٣٢ اخرج الاحباش (الاثيوبيون) البرتغاليين ومعهم اليسوعيين (من جميع الجنسيات الاوروبية) بدون مساعدة اجنبية. وفي الوقت ذاته تقريبا فعل اليابانيون الشيء نفسه. فقد امر هيديوشي باخراج جميع المبشرين المسيحيين من البلاد (١٥٨٧). وفي سنة ١٦١٤ منعت ممارسة المسيحية في البلاد. واضطهد المسيحيون بضراوة في اليابان (١٦٢٢- ٣٨)، فقامت ثورة مسيحية يابانية (١٦٣٧- ٨) قضيَ عليها (بمساعدة الهولانديين). وتلا ذلك اخراج جميع التجار

البرتغاليين من اليابان. وكان قد صدر امر قبل ذلك (١٦٣٦) يمنع اليابانيين من السفر الى الخارج. والتجار الهولانديون الذين سمح لهم بالدخول الى اليابان (١٦٠٣) سمح لهم بالبقاء. لكنهم حصروا في جزيرة في ميناء ناغازاكي.

وقد كان موقف الاثيوبيين واليابانيين من البرتغاليين واحدا تقريباً. فالبرتغاليون، الذين كانوا كاثوليكا متعصبين في اخلاصهم للكثلكة، كانوا معنيين بنشر المسيحية الى جانب اهتمامهم بالكسب من التجارة. وقد ثارت ثائرة الاثيوبيين على البرتغاليين بسبب محاولة هؤلاء فرض الكثلكة والبابوية عليهم. اما في اليابان فقد خشي هيديوشي وخلفاؤه ان يستغل (الاجانب) اليابانيين الذين اعتنقوا المسيحية لمصلحتهم. وكان سبب هذا الخوف احتلال اسبانية للفيليبين (١٥٧١) وتوحيد التاجين الاسباني والبرتغالي (١٥٨٠). وهكذا تجنب اليابانيون والاثيوبيون لخطر المحتمل بالتصرف المسبق على ما مر بنا. وبذلك عزل الشعبان نفسيهما عن بقية الاويكومين.

اما الهولانديون والانكليز البروتستانت، وحتى الفرنسيون الكاثوليك، تجنبوا القيام باعمال تبشيرية. ولو ان الفرنسيين كانوا يرغبون في استغلال المبشرين كاعوان سياسيين.

ومعنى هذا انه كان ثمة خلاف في الصيغ التي صدّرت بها المدنية الغربية في موجات متلاحقة من الغربيين - تجاراً وبناة امبراطوريات. فالموجة الاسبانية - البرتغالية الاولى جربت ان تصدر المدنية الغربية بكاملها، بما في ذلك الدين، وهو، في اية مدنية، مفتاح تلك المدنية بكاملها. وقد قاومت هذه المحاولة جميع الشعوب غير الاوروبية، حيث وجدت القوة للمقاومة. ومن ثم فان الموجة الثانية، الهولاندية - الفرنسية - الانكليزية، صدرت صيغة مهذبة من المدنية الغربية، والتجار الافراد والسلطات العامة عند الهولانديين والانكليز ازورت بالنشاط التبشيري. ولكن العنصر الاول من هذه المدنية الاوروبية المعدّلة الذي انتشر في الاويكومين في القرن السابع عشر لم يكن الدين؛ لقد كان التكنولوجيا، وبشكل خاص تكنولوجيا الحرب.

ظلت بقية من المسيحية الكاثوليكية الرومانية تقيم سراً في بعض الجزر اليابانية، الى سنة ١٨٧٣، حين الغي القانون الذي كان يعاقب بالموت هؤلاء المسيحيين المتخفين. في ذلك الوقت كانت الكثلكة قد امتزجت بعقائد وممارسات يابانية شعبية، وكذلك

حدث في الممتلكات الاسبانية فيما وراء البحار حيث كان الشعب المقهور قد فرض عليه قبول الدين الجديد، لذلك فانه قبله اسميا.

وبناة الامبراطوريات من جميع الجنسيات الاوروبية (الغربية) استغلوا اولئك الذين وقعوا تحت ايديهم، او انهم قضوا عليهم. والفاتحون الاسبان جاروا منافسوهم في طمعهم وقسوتهم، وان لم يتغلبو عليهم. الا ان الاسبان واجهوا مشكلة جدية لأن المغلوبين على امرهم في المناطق الاسبانية وجدوا، منذ سنة ١٥١٤، في الراهب الدومينيكاني بارتولوميو، مدافعا عنهم ضد الظلم. وقد نجح في حمل الحكومة الاسبانية على سن قانون يمنع التصرفات البالغة السوء، وقد قاوم الفاتحون تطبيق هذا القانون احيانا بقوة السلاح. والاسبان والبرتغاليون خففوا من حدة الامور لانهم تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة. وقد ادى هذا الى نوع من المزج الاجتماعي، يتجلى في زي عذراء غوادلوب، التي هي رمز العبادة الاسبنية هناك.

بدأ البرتغاليون يسترقون سود افريقية لما وصلوا الى ساحل افريقية جنوب الصحراء، وسار جميع بناة الامبراطوريات الاوروبيون (الغربيون) على منوالهم. ولما استولى الاوروبيون على بلاد فيما وراء البحار، نقلوا الرقيق الافريقي اليها، الذي كان يلقى عليه القبض في افريقية، ليستعمل في السخرة. وقد كانت الوفيات بين هؤلاء كبيرة. وأرباح تجار الرقيق كانت تتناسب مع ذلك. والافارقة السود كانت حيويتهم كبيرة بحيث انهم خلفوا ذرية كبيرة في الاميركتين هي التي تشارك البيض في انتاج العالم الجديد.

والمجال الحيوي لم يكن تأثره باندماج الايكومين مقصوراً على الانسان، هجرة وتزاوجاً. فقد كانت ثمة خيرات من الحيوان والنبات نقلت من نصف الكرة الواحد الى النصف الآخر. وكان هناك انتشار البكتيريا والفيروس. فجراثيم الجدري نقلت غرباً الى الاميركتين. وبالعكس من ذلك انتقل السفلس الى اوروبة بعد وصول كولومبوس بثلاث سنوات - فقد عرفت اول حادثة في اوروبة سنة ١٤٩٥. وكان ارتفاع الاسعار المخيف الذي عرفته اوروبة الغربية بدءا من سنة ١٥١٩، كان سببه نقل المعادن الثمينة التي نهبها الاسبان من الازاتكة والانكا، والذي استخرجه الاسبان من المناجم مستخدمين العامل الاميركي سخرة. وهكذا فان زوارا ثلاثة - الجدري والسفلس والتضخم المالي - من نتيجة اندماج الاويكومين، كانت لها امبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

٧٦ـ المدنية الغربية ١٥٦٣ـ ١٧٦٣

ان المدنية الغربية مرت بها، بين ١٥٦٣ و ١٧٦٣: ثورة عقلية وروحية اكبر من اي ثورة مر بها هذا المجتمع منذ ان ظهر بين انقاض الامبراطورية الرومانية. ان المفكرين الغربيين الآن (اي في الفترة المذكورة) ابوا ان يتقبلوا ارث الاجداد على انه امر موثوق به. لقد قرروا انهم، من الآن وصاعدا، سيضعون عقائدهم الموروثة على المحك، وذلك عن طريق فحص الظاهرة فحصا مستقلا، وانهم سيتبعون تفكيرهم الخاص. كما انهم تواضعوا على العيش بسلام مع الاقليات اصحاب البدع. ولم يعودوا يشعرون بانهم ملزمون او مرحو منهم ان يفرضوا عقيدة الاكثرية او طقوسها بالقوة. ولم تكن اية من هاتين الثورتين آنيتين. فقد كان في كل منهما وقفات ونكسات. في سنة ١٦٨٦ نشر فونتنل كتابه « تاملات في تعددية العوالم »، وهو فكرة كلفت دفع جوردانو برونو حياته ثمنها سنة ١٦٠٠. ومع ذلك فقد عاش فونتنل مئة عام، ومات في فراشه (١٧٥٧). وقد نشر نيوتن (١٦٤٢ـ ١٧٢٧) كتابه الاصول دون ان ترغمه السلطات الدينية على التراجع، على نحو ما فعلت بغاليليو (١٦٣٣). ومع ذلك فان مرسوم نانت الذي سمح للاقلية البروتستانتية بان يُتساهل بشأنها، الغاه لويس الرابع عشر ١٦٨٥.

ان استرقاق الغربيين للسلطة، كائنا ما كان نوعها، قديم عهدها (وهي التي تحرروا منها الآن). ان جميع الديانات غير المسيحية قضت عليها حكومة الرومان الامبراطورية بالقوة قبل نهاية القرن الخامس. وقد ارغم لاهوتيو وفلاسفة المسيحية الغربية على قبول مقولات ارسطو منذ القرن الثالث عشر. كما فرض اسلوب الكتاب اللاتين من عصر شيشرون وعصر اغسطوس على الكتاب اللاتين المحدثين منذ القرن الخامس عشر.

ان البروتستانت، في ثورتهم ضد الحكومة البابوية، فرضوا سلطان الكتاب المقدس

بدل سلطة البابوية. وقد كان الامراء البروتستانت متعصبين شأن الامراء الكاثوليك، في فرضهم الصيغة التي اختاروها من المسيحية الغربية على اتباعهم. والانقسام الذي حدث في صميم المسيحية الغربية حمل الفريقين المتنازعين على تصرف اكثر تعصبا مما كانت عليه الحال في زمن اسلافهم الكاثوليك المتفقين.

كان تقليد الكتاب الكلاسيكيين اقرب الى العبث من تحكم ارسطو في المفكرين المسيحيين الغربيين. ومن الجهة الثانية فان طبع الاعمال الرياضية والعلمية اليونانية في الغرب، اثار التفكير المستقل. ذلك بان هذه التفسيرات القديمة للظواهر الطبيعية قد رفضت، فيما بعد، بسبب الاختراعات التكنولوجية والاستكشافات الجغرافية. ففي هذه الحالة كان « احياء » المعارف « القديمة » السبيل الى منطلقات جديدة.

وقد تمثل تحرير الغرب لنفسه من الطغيان الفكري لاسلافه اليونانيين - الرومانيين في عمل فونتنل الذي تناول فيه القدماء والمحدثين (١٦٨٨) وعمل وليام وُطِن تأملات في العلم القديم والحديث (١٦٩٤)، لكن الحملة كان قد بدأها جان بودان (١٥٣٠ - ٩٦) وكان قد تابعها فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) ورينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، قبل ان يربح المحدثون معركتهم الفاصلة. ومع ذلك فقد كان على هؤلاء الفائزين ان يعترفوا بان شعراء بلاط لويس الرابع عشر لم يكونوا شعراء افضل من هوميرس، ولم يوافقوا على (ومن ثم لم يثيروا) الدعوى المسيحية بان المدنية المسيحية كانت خيرا من المدنية السابقة للمسيحية. والمجالات التي تفوق فيها حماة المنجزات الغربية الجديدة كانت في العلم الطبيعي والتكنولوجيا والفلسفة.

ان الحروب الدينية الغربية (١٥٣٤ - ١٦٤٨ مع وقفات) اثرت على منزلة المسيحية. فقد كانت حروبا فيها تعصب وفيها دعوى كاذبة. كانت اهداف الامراء المتقاتلين سياسية، ولكن ارتداء قناع ديني كان مناسبا لهم، والعداء بين المتقاتلين زادتها عنفا حماسة رجال الدين لتي كانت اصيلة، ولو انها سامة. انشئت الجمعية الملكية (لتقدم العلوم) في انكلترا سنة ١٦٦٠ وأسسها فئة من المهتمين بالعلوم الطبيعية، الذين لم يكونوا يهتمون بهدم المسيحية، بل بتأهيلها خلقيا. وكانت سياسة المؤسسين تحويل افكار معاصريهم وشعورهم من المماحكات اللاهوتية التي لم تكن مجدية كما انها لم تؤد الى قول فصل، ولفت انتباههم الى القضايا المتعلقة بالظواهر

الطبيعية التي كان من الممكن ان تبحث بأناة دون عاطفة، ومن المحتمل ان توجد لهذه القضايا اجوبة صحيحة عن طريق الملاحظة او التجربة.

ونجد، في الوقت ذاته، نقادا وضحايا آخرين للحروب الدينية، الذين جربوا ان يضعفوا سلطة المسيحية في قلوب الغربيين. وقد كان هؤلاء يعملون في الخفاء، لان اللعبة كانت لا تزال خطرة. فقد ضمن فونتنل كلمات للذكرى عن الموتى، لم تكن قط متفقة مع المسيحية. لما نشر تاريخ المواحي (١٦٨٨) كان اكثر جرأة. وفي سنة ١٦٩٥- ٧ نشر بيل (١٦٤٧- ١٧٠٦) وهو بروتستانتي فرنسي كان لاجئا في شمال هولاندا، القاموس التاريخي والنقدي (شكل سابق لموسوعة ديديرو الفرنسي التي نشرت في فرنسة ١٧٥١- ٦٥). المتن فيه مريح، لكن هوامشه وملاحظاته هي، في بعض الاحيان، تخريبية.

وادوارد غيبون المؤرخ نشر كتابه انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٧٦- ٨٨). وقد عزا اختناق الامبراطورية الرومانية للمسيحية الى عوامل بعيدة عن الاعاجيب. فلم يسلم من النقد اللاذع. كانت انكلترا رائدة في قبول التسامح الديني، ولكنها كانت تسير ببطء نحو قبول ما هو مخالف للمسيحية من عقيدة او شعور. ولما بدأ جون وزلي عمله (١٧٣٩) كان غيبون (١٧٣٧- ٧٨) لا يزال طفلا. وقد كان معاصرو غيبون من الفرنسيين، مثل فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨) والموسوعيين اكثر صراحة مع شيء من السلطة. ومع ذلك فان فولتير رأى من المناسب ان يسكن في الجهة السويسرية من الحدود الفرنسية ـ السويسرية.

في القرن السابع عشر، نجد ان باسكال (١٦٢٣- ٦٢) الفرنسي يجمع بين العبقرية العلمية والايمان بالمسيحية، كما نجد ان الاسقف بوسو (١٦٢٧- ١٧٠٤) وضع تاريخا للعالم وقد كتبه كما كتب اوزيبيوس (حوالي ٢٦٤- ٣٤٠) التاريخ ـ انه عمل اله واحد قادر على كل شيء، ورد عليه فولتير بان وضع تاريخا ثقافيا واجتماعيا للعالم أعطى فيه المكان الاول للصينيين الذين قد عرفت مدنيتهم في الغرب عن طريق المبشرين اليسوعيين.

ومعالم تاريخ التسامح الديني في الغرب يدخل في عدادها رسالة في التسامح لجون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤) ومقاله في الحكومة المدنية (١٦٩٠). اما في الخطوات العملية فهناك اعمال ليوبولد الاول ملك هنغاريا من آل ـ هابسبورغ، وهو كاثوليكي

ففي سنة ١٦٩٠ منح جميع المسيحيين الحرية الدينية، وفي ١٦٩٠- ٩٥ رحب بجماعة حرية مسيحية ارثوذكسية شرقية لجأت الى بلاده.

ومع ذلك فان التسامح الديني، مثل الاستقلال الفكرى، تطور بطيئا في الغرب. ففي الصين مثلا نجح المبشرون اليسوعيون لانهم لم يعارضوا في ان يحتفظ الصينيون بطقوس احترام الموتى، باعتبار ان هذا امر مدني لا ديني. لكن السلطات الكاثوليكية اعترضت على هذا، وعلى ترجمة لكلمة الله، فنشأ عن ذلك خلاف مع الحكومة الصينية انتهى (١٧٢٣) بحظر المسيحية في الصين بالمرة.

وقد شهد القرن السابع عشر في اوروبة نهاية العقيدة التشاؤمية بان ظهور مذنب هو حدث عجائبي يقصد به الله ان ينذر البشرية بانها مقبلة على خطب جسيم. مذنب ١٦٨٠ ازعج الناس. ولما ظهر مذنب (١٦٨٢) قال الفلكي هالي بانه شبيه بالمذنبات التي ظهرت في ١٤٥٦ و ١٥٣١ و ١٦٠٧ وقاس فلكه وسرعته ومواعيد ظهوره (وكان قد فعل الشيء نفسه لمذنب ١٦٨٠) وكان ثمة ايمان بالسحر والشعوذة في اوروبة. وقد قتل الاف من الناس الابرياء بتهمة الشعوذة والسحر. وكان آخر مقتل لساحرة سنة ١٧٦٢

وقد كان رفض السلطة العليا والتعصب (الديني) والطيرة نصرا عقليا وروحيا. لكن ظل هناك فجوات في البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الغربي. وهذه الفجوات سدت تعمدا في اوقات مختلفة وباساليب متباينة.

فالجدل الديني الذي قد اثار المذابح (مثل مذبحة سان برتولميو في باريس ١٥٧٢) استعيض عنه بالاهتمام بالرياضيات والعلوم الطبيعية، على امل ان يزيد هذا في افادة العالم اجتماعيا. (هذه الفكرة المبكرة دعا اليها ليوناردو دافنشي، ورعاها فرنسيس بيكون، وهي التي انشأ تلاميذ بيكون الجمعية الملكية على اساسها). وتوالى ظهور العلماء الذين اتجهوا نحو نفع البشرية مثل هارفي الانكليزي في الطب، وبويل الذي يعتبر مؤسسا لعلم الكيمياء، ونيوتن الدي طور الفيزياء والفلك ثوريا، ولينوس الذي نظم فصائل النبات وعائلات الحيوان، وبافون الذي وجد ان الطبيعة وصلت الى ما وصلت اليه عبر عملية طويلة الامد. (وقد عاش هؤلاء بين ١٥٧٨ و ١٧٨٨).

ورفض ارسطو، فلسفيا، لم يحل محله قبول اراء افلاطون. فمفكرو اوروبة في القرن السابع عشر رأوا ان يمسحوا اللوح ويبدأوا من جديد. وديكارت، الذي وضع منهجه

(١٦٣٧)، ظل معلمة في الحياة الفلسفية لمدة طويلة. ولوك نظر الى المسألة الفلسفية نظرة تجريبية. وجرب سبينوزا (١٦٣٢ - ٧٧) وليبتر (١٦٤٦ - ١٧١٦) ان يقيما اسسا جديدة للميتافيزيقيا. وهوبز (١٥٨٨ ١٦٧٩) اعتمد لنظريته في العقد الاجتماعي اسسا سيكولوجية. وفيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) شق طريقاً جديدة في البحث التاريخي، وكان عمله جديدا الى حد ان معاصريه لم يفهموه. ومع ان الايحاء جاء الى فيكو من الحضارة الهلينية، فقد كان هو يجمع بين حضارتين، اليونانية والمسيحية. وكان عمله الخطوة الاولى في الغرب لدراسة مقارنة للمدنيات.

كانت المسيحية الغربية في العصور الوسطى يربط اجزاءها الواحد بالآخر بابوية تترأس على الجمهورية المسيحية، ولغة لاتينية كانت لغة للدبلوماسية وللعلم وحتى للشعر (الى جانب الشعر المكتوب باللغات المحلية). وقد بدأ ارازمس بالاستعاضة عن الجمهورية المسيحية الدينية بجمهورية الادب والعلم، وزودها بيل بدورية (١٦٨٤). وبسبب تنظيم خدمات البريد سهل التراسل بين اهل العلم واهل القلم. والمراسلات الخاصة ادت الى انشاء الصحف. واول نشرة دورية مطبوعة ظهرت في اوروبا سنة ١٦٠٩، واول صحيفة يومية بدأت بالظهور سنة ١٧٠٢. وقد كان معظم الجامعات، في القرن السابع عشر، قد توقفت حيوتها ونشاطاتها التي عرفتها القرون الوسطى باستثناء جامعة بادوا والجامعات الاسكتلاندية. والفراغ الذي نشأ عن ذلك سدته الاكاديميات التي انشأتها، او على الاقل اعانتها، حكومات الدول المحلية. وساعدت صالونات الادب الفرنسية في القرن الثامن عشر على سد الفراغ ايضا.

والاسر المالكة واسر النبلاء وارتباطاتها عوضت عن الجمهورية المسيحية البابوية. فقد ارتبطت هذه الاسر التي كانت في اعلى سلم الطبقات الاجتماعية بمصاهرات كثيراً ما تخطت الامور الدينية. وقد كان تغيير المذهب، من أجل المصلحة العامة، امرا مقبولا. وتشابكت الاسر المالكة واسر النبلاء في هذه المصاهرات بشكل عجيب، الا انه كان احيانا نافعاً.

كانت اللغات المحكية قد اوجدت لنفسها مكانا في التاج الادبي، والشعري خاصة، منذ القرن الثاني عشر، وذلك الى جانب اللغة اللاتينية. فلما بلغت اللغات المحكية الذروة في نجاحها، تفجرت عبقريات ادبية كبيرة في النثر (مثل رابليه ١٤٩٤- ١٥٥٣) وفي الشعر (مثل شكسبير ١٥٦٤- ١٦١٦). وهكذا فان عصر الحروب الدينية في

الغرب كان ايضا عصر الشعر العظيم. وقد تخلى الناس عن السيطرة والاضطهاد فكان ثمن ذلك الهبوط من الشعر الى النثر ـ من حيث انه اصناف جديدة تعبر عن نفسها باللغة المحكية.

ان الشعراء الغربيين في شمالي الالب في القرن السادس عشر، كانوا واقعين تحت سحر النماذج الكلاسيكية، اليونانية والرومانية. فبين الفرنسيين عندنا دو بلاي وورونسار ويعاصرهم من الانكليز ويات وهوارد، وبسبر في ركابهم لفيف من شعراء عصر اليصابات وخلفائهم حتى اعادة الملكية في انكلترا وسكوتلاندا (١٦٦٠).

وقد بهت نور عدد كبير من الشعراء والكتاب بسبب النور الساطع الذي انبثق من شكسبير وملتون (١٦٠٨- ٧٤). وبعد انبثاق فجر التنور، ضعف اسلوب الشعراء الغربيين، مثل كورني ومولير وراسين، وتأثروا بالنماذج النثرية التي اصطنعها باسكال.

والنثر الفرنسي الذي طور خلال القرن السابع عشر كان بسيطا رائقا دقيقا، وكان انسب من اي اسلوب كلاسيكي، يوناني ام لاتيني، للغات الهندية الاوروبية. فتخلص من امور كثيرة لغوية، نحوية وما الى ذلك، كما تخلص من اشباه الجمل المتداخلة في الجملة الاصلية. فالكاتب كان حرا، والقارىء كان يستطيع ان يتابع المنطق عند الكاتب. وهذه الثورة الاسلوبية في اللغة الفرنسية اخذت الكتاب الانكليز على حين غرة، وكان التبديل حادا وشعوريا، ويمثل دريدن هذه الحالة.

صعدت فرنسة ثقافيا في العالم الغربي بسبب تصدير اسلوبها الادبي وارسالها البروتستانت الفرنسيين ـ الا في الموسيقى. فقد انتزعت المانية القيادة في هذا من ايطالية. واسرة باخ، التي برزت بعد حرب الثلاثين سنة، اذهلت الأمراء الذين كانوا يرعونها. وقد كان يوهان باخ (١٦٨٥- ١٧٥٠) وهاندل (١٦٨٥- ١٧٥٩) ابرز الالمان في عصرهم. وبنى فردريك « الكبير » (حكم ١٧٤٠- ٨٦) داراً للاوبرا في برلين.

بين ١٤٩٤ و ١٦٤٨ مرت على اوروبة الغربية حروب مريرة، بدءا بالقتال بين فرنسة ودولة هابسبورغ، وهما دولتان كاثوليكيتان، ثم تلتها حروب اهلية عليها طابع ديني. ودارت رحاها على التوالي في المانية وفرنسة وهولاندا وانكلترا.

وقد ادى قيام هذه الحروب الى تدخل اجنبي، كان اقله في الحروب الانكليزية، واكبره في حرب الثلاثين سنة (١٦١٨- ٤٨)، اذ اشترك في هذه الحروب المانية

وفرنسة والسويد. وقد كانت قيادة دفة السفينة السياسية الفرنسية بيد اثنين من الكرادلة - رتشليو (١٥٨٥- ١٦٤٢) ومازاران (١٦٠٤- ٦٠)، وكان هذا خلفاً مباشرا للاول.

وفي حساب حرب الثلاثين سنة كانت فرنسة الرابح الاول، وجاءت بعدها دولة هابسبورغ. وقد اجهدت السويد في حرب فوق امكانها وبعيدة عن قاعدتها. واسبانية انهارت. فمع انها اتحدت مع البرتغال سنة ١٥٨٨، فان ذلك جاء واسبانية قد اصابها الجهد والتعب. وهولاندا افادت في تقوية مركزها المستقل.

ومع ان اسبانية خسرت قوتها البحرية، فقد ظلت امبراطوريتها على حالها. وجدير بالذكر ان الدول الاوروبية اخذت تقاتل بعض معاركها الآن خارج اوروبة. ففرنسة وانكلترا وهولاندا، فضلا عن اسبانية والبرتغال، كانت لها ممتلكات ومصالح تجارية تقتضي الاستيلاء على نقاط استراتيجية والحفاظ على قدر معقول من القوة البحرية. وفي هذه الحروب فيما وراء البحار خسرت فرنسة (بين ١٧٤٠ و ١٧٦٣) في حربها مع بريطانية السيطرة على اميركا الشمالية والهند. ولكن فرنسة ظلت دولة عظمى حتى بعد ذلك بقرن من الزمان.

ومن الطريف ان انتقال الغرب (في اواسط القرن السابع عشر) من حروب دينية الى حروب القصد منها الحصول على سلطة سياسية ومنافع اقتصادية، رافقه تقليل من وحشية الحرب. ان الحروب اصبحت الآن منافسة معقولة بين دول تستعمل جيوشا منتظمة ومدربة. والنهب والسلب لم يعودا اصول القتال، والسكان اصبحوا يشعرون بانهم بحاجة الى التأمين على انفسهم، وبخاصة السكان الذين كانوا قد اجلوا عن بلادهم.

لم تراع الحكومات الغربية هذه القاعدة الانسانية دوما. فالحرب اصلا عمل همجي، والحل الوحيد الغاؤها. ففي سنة ١٦٧٤ و ١٦٨٨ احالت فرنسة امارة الراين قاعا صفصفا، عامدة متعمدة؛ والمدينة التي كانت تفتح عنوة بعد ان ترفض حاميتها الدعوة الى التسليم، تعتبر وسكانها موضوعا للنهب وهتك الحرمات. وعلى كل فان الحرب خفضت الى ادنى درجات البربرية في الغرب، بين ١٦٨٨ و ١٧٩٢.

٧٧ـ المسيحية الارثوذكسية الشرقية ١٥٥٦ـ ١٧٦٨

منذ اواخر القرن العاشر، لما اعتنقت روسيا المسيحية الارثوذكسية الشرقية، اصبحت المسيحية الارثوذكسية الشرقية، تتكون من كتلتين - الكتلة القديمة في جنوب شرق اوروبة واسية الصغرى والقفقاس، والكتلة الروسية المعزولة عن القديمة. لكن الكتلة الجديدة - روسيا - كانت ترتبط بالاولى دينيا وكانت تتقبل المدنية البزنطية، يونانياً وبلغارياً. وروسيا كانت مستقلة، وكانت تتوسع باستمرار، دون ان يحول دونها عائق لا من العثمانيين ولا من غيرهم.

اما الجزء الجنوبي (الاصلي) من المسيحية الارثوذكسية الشرقية، فقد كان تابعا اما للعثمانيين او للمسيحيين الغربيين. وكانت الامبراطورية العثمانية تتوسع على حساب امبراطوريات الغرب المسيحي القائمة في المشرق. فقد احتلت جزر الارخبيل (١٥٦٦ و ١٦٤٥- ٦٩). ومع ان جماعة صغيرة من اليونان العثمانيين سمح لها بحكم ذاتي، فان الباقين كانوا رعايا.

ومع ان روسيا كانت تتسع شرقا عبر الارض الواقعة خلف السهوب، فقد كانت معرضة لهجمات بدوية عبر الطرف الغربي من السهوب. وكانت دولة التتار في القرم موجودة وهؤلاء احرقوا موسكو (١٦٧١). وامارة المسكوب كانت محصورة داخلية. فالساحل الوحيد لها هو شاطىء بحر قزوين، وهو بحر داخلي. وحتى الدخول اليه لم يكن دوما متيسرا بسبب ان العثمانيين كانوا يملكون حصن ازوف. وفي سنة ١٦١٨ كانت الامور بين روسيا وجاراتها كما يلي: خسرت روسيا (ايام ايفان الرهيب ١٥٥٨- ٨٣) ساحل البلطيق، وكانت لتوانيا، بولندا، قد اقتربت حدودها من موسكو.

بين ٩٨٩ و ١٥٨٩ كانت روسيا المسيحية الارثوذكسية تابعة لبطريرك القسطنطينية وهي اكبر جزء من بطريركيته ولو انه منذ سنة ١٤٥٣ كان قد اصبح من رعايا الدولة

العثمانية. وفي سنة ١٥٨٩ جعلت اسقفية موسكو دينيا من درجة بطريركية مستقلة. عندها ارغمت دولة بولندا ـ لثوانيا الارثوذكس المقيمين فيها بالاتحاد مع البابوية، وقد تم لها ما ارادت بالنسبة للاكثرية.

حافظت الكنيسة الارثوذكسية الشرقية على عدائها للغرب، حتى البروتستانت الغربيون رفضت التقرب منهم، مع انهم كانوا لا يقبلون بسلطة البابا. وبطريركية القسطنطينية لم تتعاون مع البروتستانت البولانديين، وقد استمر هذا الى القرن الثامن عشر. ففولغاريس (١٧١٦ـ ١٨٠٦) وهو مرب يوناني، اضطهدته السلطات اليونانية الكنسية لانه تعلم في المانية، ولانه كان عارفا بالفلسفة الغربية.

ظلت البطريركية متفيئا لليونان العثمانيين بعد زوال الامبراطورية الرومانية الشرقية. وكان ادخال العنصر الغربي في روسيا بالذات على يد بطرس الاكبر مظهر صداقة نحو الغرب. وكان في هذا الوقت، يجني رجال الاعمال من الاتراك العثمانيين الارباح من انجارهم مع الغرب. فالتجارة اليونانية العثمانية البحرية في البحر المتوسط، زادت فعاليتها بالتجارة البرية مع اواسط اوروبة، لما عجزت الدولة العثمانية عن احتلال فينا (الحصار الثاني ١٥٨٣)، وصارت دولة هابسبورغ تتسع شرقا على حساب الدولة العثمانية.

واليونان الذين احتكوا تجاريا او سياسيا مع الغرب، اعجبتهم مدنية الغرب. وقد درس يونان عثمانيون ويونان بنادقة في جامعة بادوا. ووضع الكتاب الكريتيون كتبا باللغة اليونانية العامية متبعين الاسلوب الغربي.

وقد افاد اليونان العثمانيون من اتصالهم بالغرب سياسيا لما بدأ التيار يهب عكس الاتجاه العثماني، بسبب حروب الدولة العثمانية المستمرة مع الدول الغربية المسيحية. واحتاجت الدولة العثمانية الآن الى الدبلوماسيين القادرين على المفاوضة مع الغربيين، فانشىء (١٦٦٩) منصب ترجمان الباب العالي (وهو منصب يعادل رتبة وزير الخارجية) وذلك من اجل اليونان الذين درسوا في الغرب. وقد كان حكام الفلاخ وملدافيا من اليونان العثمانيين.

وقد اصبح اليونان العثمانيون الدارسون في الغرب « المؤسسة » الصغرى بالنسبة الى المؤسسة العثمانية الكبرى.

(والحادثة الكبرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر التي المت بالمسيحية

الارثوذكسية كانت قانوناً ١٦٨٢ـ ١٧٢٥، وفي الواقع ١٦٩٤ـ ١٧٢٥). فبطرس الأكبر لم يكن يعمل بتأثير غربي دخل الى بلاده عن طريق ميناء اركنجل (على البحر الابيض) وعن طريق الاوكرانيين عندما بدل بطريركية موسكو من بزنطية تقليدية الى النموذج الغربي المعاصر، ذلك بانه استبدل الاسقف (لما خلت الاسقفية من صاحبها، ولم يختر بطرس بديلا له) بمجلس كان، في الواقع، ادارة من ادارات الدولة.

الدولة الروسية في ايام بطرس الاكبر كانت واسعة، لكنها لم تكن لها شواطىء. فحصل بطرس على ساحل في البلطيق. وكان يعتقد ان الانتصار على اية دولة غربية، حتى السويد على صغرها، كان بحاجة الى تبديل تام في الاستراتجية والتكتيك، اساسه تقبل ما عند الغرب من تنظيم عسكري وبحري وما عندهم من تكنولوجيا. وهذا كله لا يتم إلا بالتبديل الاداري الشامل، وبالتغير في القطاع الصناعي من الاقتصاد الروسي.

كان بطرس مغرما بالتكنولوجيا، وكان يفهمها. في الجيل السابق للفترة التي هي موضوع حديثنا، كان مؤسسو الجمعية الملكية يدركون تماماً مدى ما يمكن ان يتعلمه التقنيون ورجال العلم من بعضهم البعض. وقد كان بطرس تقنيا متمرسا، وكان يعمل بيديه. كان هذا يشبه السلطان العثماني الذي تدرب على العمل وهو صغير. لكن من كان يحسب ان سلطان روسيا المطلق القوي يعمل شيئا من ذلك؟

جاء بطرس في الوقت المناسب. فقد ولد في الجيل الاول الذي اصبح فيه من الممكن لغير غربي ان ينقل الخبرة والتكنولوجيا الغربية، دون ان يرغم على بلع المدنية الغربية بكاملها ـ بما في ذلك الدين! القرن السابق كان ممكناً ان يؤدي الى شيء شبيه بما تم في اليابان والحبشة ـ كره شديد للغرب. ورد فعل ضد الغرب، لذلك فان ظهور شخصية بطرس في الوقت والمكان اللذين برزت فيهما، كان له اثر ضخم على مسيرة تاريخ البشرية.

٧٨ـ العالم الاسلامي ١٥٥٥ـ ١٧٦٨

بين سنتي ١٥٥٥ و ١٧٠٧ كان ثمة ثلاث امبراطوريات اسلامية متعاصرة وكانت تشمل القسم الاكبر من العالم الاسلامي وهي: العثمانية والصفوية والمغولية (في الهند). كانت الامبراطورية العثمانية اقدم من الصفوية بنحو مئتي سنة، ونحو مئتين وخمسين سنة اقدم من المغولية، اذا اعتبرنا ان قيام هذه تم سنة ١٥٥٥ (لما دخل همايون ثانية الى دلهي). ففي سنة ١٥٥٥ كانت الامبراطورية العثمانية قد بلغت الذروة وقد بدأت دور الانحطاط. والامبراطورية المغولية بلغت الذروة ايام اكبر (١٥٥٦- ١٦٠٥) وجاهنغير (١٦٠٥- ٢٧). وكان حكم الشاه عباس (١٥٨٨- ١٦٢٩) الذروة في حياة الامبراطورية الصفوية.

انحطاط الامبراطورية العثمانية كان سببه امرين متلازمين زمنا - التضخم النقدي والتضخم في العاملين في خدمة السلطان. فالتضخم المالي احدث ازمة اقتصادية، وترتب على ذلك انتشار الفوضى بين الموظفين العامين الذين وجدوا ان قوة الشراء لمرتباتهم كانت تتناقص. وهذا التشويش الاقتصادي والاجتماعي كان ناتجا عن وصول كميات من الفضة الى اويكومين العالم القديم من مناجم الامبراطورية الاسبانية في الامير كتين، ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية ان تتحكم في دخول الفضة. وعلى كل فلعله كان من الممكن تجنب الفوضى لو ان رجال القصر (العبيد) لم يتلقهم التسامح التدريجي معهم، من حيث تطبيق القوانين الاصلية عليهم. فالاصل ان ابناء هؤلاء الجنود الانكشارية لم يكن يجوز لهم ان يدخلوا الجيش الى جانب اولئك الذين يؤتى بهم من البلاد المسيحية.

كان يستثنى من هذا القانون ابناء الفرسان، لكن سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠- ٦٦) بدأ بالسماح لأبناء الانكشارية بدخول الجيش. وأكد سليم الثاني الامر

سنة ١٥٦٦، ثم سمح مراد الثالث (حكم ١٥٧٤- ٩٥) لجميع المسلمين ان يدخلوا الجيش. وكان من جراء ذلك ان عدد الانكشارية الذين كانوا مسجلين في القيود ارتفع من ١٢,٠٠٠ إلى ١٠١,٦٠٠ بين سنتي ١٥٦٦ و ١٥٩٨. هذا مع العلم بانه كان هناك نحو ١٥٠,٠٠٠ طالب لذلك ولم يكونوا يتقاضون مرتبات. ولم يعد الانكشارية قوة محاربة فعالة واصبحت فئة مدنية مشاغبة. اما المسيحيون فلم يعد السلاطين يستعبدونهم او يحملونهم حتى على اعتناق الاسلام، بل كانوا يوظفونهم في المناصب الكبيرة مستفيدين من كفاءاتهم، تاركين لهم حرية المعتقد.

ومع ذلك فان القوة العسكرية العثمانية لم تنهر حالاً. لقد استعاد مراد الرابع (١٦٢٣- ٤٠) بغداد من الصفويين (١٦٣٨). وحاصر العثمانيون فينا للمرة الثانية (١٦٨٢- ٣). وقد ادى فشلهم في اخذ المدينة الى مهاجمة آل هابسبورغ للأمبراطورية (١٦٨٩) وانتهى الامر بالعثمانيين الى التنازل عن هنغاريا وكرواتيا لمملكة هابسبورغ، وعن البلوبونيز للبندقية (١٦٩٩) وعن آزوف لروسيا (١٧٠٠). ومع ذلك فان الامبراطورية العثمانية استعادت المنطقتين الاخيرتين في اوائل القرن الثامن عشر. وفي واقع الامر فان الامبراطورية العثمانية كانت وكأنها تجاري سابقتها الامبراطورية الرومانية الشرقية في تخطي الكوارث.

وظل للامبراطورية العثمانية نشاطها المعماري الخلاق، الذي لم يطمسه انحطاطها العسكري والاداري. فجامع السلطان احمد الاول في استانبول (بني ١٦٠٩- ١٨) يتمتع بعظمة خاصة به، ولا يقلل منها مقارنته بايا صوفيا. ومع ذلك، فاذا استثنينا الجامع الاخضر في بورصه (جامع محمد الأول) فليس ثمة بناء عام عثماني تمكن مقارنته بمسجد شاه الذي بناه الشاه عباس في اصفهان (بني ١٦١٢- ٣٧) او بتاج محل في اغرا الذي بناه شاه جهان بين ١٦٣٢- ٥٣. وليس مسجد شاه جميلا في ذاته فحسب، ولكنه يتسق اتساقا فريدا مع الابنية الجميلة والاقدم منه. وثمة ابنية جميلة في مدينة اكبر الجديدة سكري، لكنها ابنية جميلة منفردة، دون ان تتسق بعضها مع البعض الآخر.

تفوقت الامبراطوريتان الصفوية والمغولية على العثمانية لا في العمارة فحسب، بل بشخصية الشاه عباس الاول وشخصية اكبر اللتين كان لهما من الرؤية ما لم تتح لامبراطور عثماني معاصر.

فقد ادرك اكبر ان الحكم الاسلامي في الهند لا يمكن ان يستمر إلا اذا كسب موافقة الرعايا الهندوكيين. لذلك الغى الزكاة (١٥٦٤) عن غير المسلمين، واظهر قوته في التغلب على الراجبوتيين (١٥٦٧ـ ٨) فانتظم الامر له في امبراطوريته. على ان اكبر سار الى ابعد من ذلك؛ فقد كان في نيته ان يزيل الحواجز بين الديانات التاريخية المميزة. لذلك فانه نظم مناقشات ومناظرات دينية بين ممثلين عن الاسلام والزرادشتية والهندوكية والمسيحية الكاثوليكية، وفي سنة ١٥٨٢ اعلن عن عقيدة جديدة سماها « دين الهي » الذي أمّل ان يؤدي الى توحيد العباد جميعهم.

وقد ورث اكبر ادارة منتظمة عن السلطان البنغالي شاه سور ١٥٤٠ـ ٥ وافاد منها في ادارة امبراطوريته.

اما الشاه عباس فكان عليه ان يعيد بناء الامبراطورية الصفوية من الاساس. وكان في امبراطوريته سكان مدنيون وريفيون من اصل فارسي لكنهم ارغموا على التشيع؛ كما كان ثمة جند تركماني، كان قد لجأ الى الصفويين من العثمانيين والمماليك بسبب تشيعه. فطوع بعض هؤلاء وانشأ جيشا من العبيد على غرار الجيش العثماني فيه جند مدربون على الاسلحة النارية والفروسية. ومع ان هذا الجيش كان دون الجيش العثماني مقدرة اصلا، فان ضعف الامبراطورية العثمانية يسر للشاه عباس ان يسترد ما اخذه العثمانيون من اسلافه، كما انه انتزع هرمز (١٦٢٢) من البرتغاليين واستعاض عنها بميناء جديد ـ بندر عباس.

واتخذ الشاه عباس لدولته عاصمة جديدة هي اصفهان، التي كانت قريبة من الافغان الجبليين المحاربين. وقد احتلت جماعة من العصاة الافغان اصفهان سنة ١٧٢٢، وانحلت الامبراطورية الصفوية واعتزمت جارتاها، الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الروسية، اقتسام ولايتها الغربية (١٧٢٤)، لكن نادر قولي، التركماني الخراساني طرد الافغانيين واسترجع جميع الاراضي التي كانت تحت حكم الصفويين والتي كان العثمانيون والروس قد استولوا عليها. وفي سنة ١٧٣٩ نهب نادر دلهي. وفي ١٧٤٠ استولى على بعض ازبكستان. وقد توج نفسه شاها (١٧٣٦) وحاول العودة بايران الى السنة. لكن لا العثمانيين السنة قبلوا شروطه للاتحاد، ولا رعيته الشيعية رضيت ان تتخلى عن الامامية. وقد اغتيل (١٧٤٧)، واصبحت ايران يتيمة وغرقت في فوضى سياسية.

كانت دولة المغول الهندية قد اخذت باسباب الانحطاط ايضاً. فقد تخلى شاه

جهان (حكم ١٦٢٨- ٥٨) عن سياسة اكبر في كسب ثقة الهندوكيين، كما هاجم دول الدكن الاسلامية. وخطا خليفته اورانغزيب (حكم ١٦٥٩- ١٧٠٧) وزاد في استثارته للراجبوتيين، الذين حملوا السلاح ضده ١٦٨٠- ٨١.

وفي النزاع الذي دار بين اورانغزيب وزعيم الغات شيفاجي (١٦٢٧- ٨٠)، الذي توج نفسه ملكا مستقلا (١٦٧٤)، كانت الحرب سجالا. لكن بعد وفاة اورانغزيب (١٧٠٧) تدهورت الامبراطورية المغولية بسرعة ونهبت دلهي ثلاث مرات (١٧٣٧ و ١٧٣٩ و ١٧٥٧).

كان البريطانيون في طريقهم الى ان يخلفوا الامبراطورية المغولية، وبين ١٧٥٧ و ١٧٦٣ خرج الفرنسيون من الهند، واصبحت شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) السيدة الفعلية في البنغال وبيهار واوريسا (كانت الشركة تقوم بخدمة امبراطور المغول!). وخلفت الحكومة البريطانية الشركة التجارية فيما بعد.

وفي الجهة المقابلة من العالم الاسلامي نجح المغرب في المحافظة على استقلاله من هجمات العثمانيين والاسبان. وقد قضى المغاربة (١٥٧٨) على جيش برتغالي ضخم. وفي سنة ١٥٩١ اجتازت حملة مغربية الصحراء الكبرى واستولت على السودان الغربي. وكانت هذه الحملة ادعى للاهتمام من اجتياز القوزاق لجبال اورال في الوقت ذاته.

كان استعمال الاسلحة النارية سببا في نجاح المغاربة، اذ ان خصومهم لم يعرفوها. واستعمال الاسلحة النارية ـ الصغير منها والكبير مثل المدافع ـ هو سبب تفوق العثمانيين على الصفويين. ومهارة المغاربة العسكرية (في السودان) والحكام القلة الذين كانوا يديرون شؤون الجزائر وتونس وطرابلس كان سببها ان هؤلاء كانوا دوما يزوّدون بالخبراء والجنود الماهرين والفنيين الذين كانوا يردون الى البلاد من الغرب المسيحي: المسلمون الذين خرجوا واخرجوا من اسبانية، والاسرى المسيحيون، سواء في ذلك الذين اسلموا ام الذين احتفظوا بدينهم، والمغامرون الاوروبيون الذين « تتركوا » لان مثل هذه الخطوة كانت تفتح امامهم مجالات من النجاح لا مثيل لها في بلادهم.

ومع ان التكنولوجيا الغربية كانت قد قطعت شوطاً بعيداً في التقدم، الا انها لم تكن تستطيع التغلب على الاعداء الذين تحميهم ارضهم. فالمدافع المغولية، التي كان يدير امرها مرتزقة اوروبيون، لم تستطع التغلب على بلاد الغات. والعثمانيون الذين قاوموا

الجيوش الغربية والروسية والايرانية، لم يتمكنوا من منع الدولة السعودية الاولى في نجد، وذلك بعد عودة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣- ٩٢) واتفاقه، على العمل في سبيل الدعوة الاصلاحية، مع محمد بن سعود (١٧٤٥).

٧٩ــ شرق اسية ١٦٤٤ــ ١٨٣٩

كانت مدنيات شرقي آسية آخر المدنيات التي تعرضت لزخم المدنية الغربية الحديثة، بحيث يحدث ذلك نتيجة ثورية على مسيرة تاريخ المدنية المهاجمة. ان اليابان عزلت نفسها (بين ١٦٢٢ و ١٦٤١) عزلا تاما. فلم يسمح لليابانيين بالخروج من البلاد، والاجانب من التجار كانوا يدخلون ميناء واحدا فقط. ومع ان الصين استمرت بالسماح للتجار بالتعامل والاقامة في مكاو، فانها هي ايضا منعتهم (١٧٦٠) من الدخول إلا الى مكان واحد. وقد منعت اليابان (١٦١٢) والصين (١٧٢٣) رعاياها من اعتناق المسيحية او التمرس بشعائرها. وكان المنع في اليابان ادق.

كانت تجارة الصين مع الغرب خلال السنوات ١٦٤٤- ١٨٣٩ اكبر من تجارة اليابان، اطلاقا ونسبيا، الا ان الصين كانت حاجتها الى هذه التجارة اقل من حاجة اليابان، لان الصين كانت لا تزال مكتفية ذاتيا اقتصاديا، ولم تزد التسهيلات التجارية للغربيين في الصين الا بعد الحرب الانكليزية ـ الصينية ١٨٣٩- ٤٢. وقد ازداد الدخل القومي لليابان خلال فترة العزلة الاقتصادية (١٦٤١- ١٨٥٣).

والصين في عصر اسرة تشنغ (المانشوية) استمرت نظرتها الى الامور داخلية وخلفية، كما كانت ايام اسرة منغ. ولكن الذي حدث ايام اسرة منغ كان رد فعل على الاحتلال المغولي. اما المانشو فقد تقبلوا المدنية الصينية بكاملها. وقد استمر نوعا الادب غير التقليدين في عصر تشنغ وهما القصة والتمثيلية.

اوصل العلماء الكونفوشيون في عصر تشنغ المحافظة الى الغاية. فقد رفضوا صيغ الكونفوشية الجديدة. وكانت غايتهم العودة بالكونفوشية الى النوع الذي كانت عليه في عصر هان وو ـ تي. وقد كان علماء عصر تشنغ ماهرين في معالجتهم النقدية للنصوص والوثائق التي بين ايديهم.

اما في اليابان فان ايازو وخلفاءه كانوا يروجون لصيغة من صيغتي الكونفوشية الجديدة. لكن البوذية لم يضيق عليها. بل ان ييمتسو (١٦٢٣- ٥١) فرض على كل مواطن ياباني ان يسجل في واحد من الهياكل البوذية، بوصفه علمانيا، وذلك كي يتأكد من انه ليس مسيحيا. وكان ثمة احياء للعناية بالشنتو، باعتبارها دينا وطنيا لم يأت من الخارج - من الصين او الهند الصينية.

وقد جمع الامبراطوران (من اسرة تشنغ) كانغ - هسي (حكم ١٦٧٢- ١٧٢٢) وتشين - لنغ (حكم ١٧٣٦- ٩٦) الادب الصيني الموجود من العصور باجمعها. وطُبعت المجموعة الاولى في ٥٠٠٠ مجلد في سنة ١٧٢٨، اما ما جمعه الثاني فقد بلغ ٣٦,٠٠٠ مجلد. وقد اكتفي بنسخ سبع نسخ منها ولم تطبع! وقد منع تشين - لونغ الكتب التي لم تعجبه. اما كانغ - هسي فقد صنف قاموسا. كما وضع تشين - لونغ سلسلة كتب توضح اراءه السياسية.

من الناحية العسكرية انجزت اسرة تشنغ ثلاثة اشياء: الاول القضاء على حركات المقاومة ضد المنشو في الجنوب والثاني وقف التقدم لروسي في حوض امور والثالث القضاء على المغول الغربيين.

فالمغول الغربيون كانوا قد اعتنقوا البوذية الماهانية التيبتية (الربع الثالث من القرن السادس عشر)، واقامت احدى قبائلهم (١٦٤١- ٢) الدالاي لاما حاكما في لاسا. وقد هاجم غلدان من قبيلة من المغول الغربيين، منغوليا الشرقية التي كانت تحت سلطان اسرة منشو، فأيد المغول الغربيون غلدان في اعتدائه، فاثار هذا الامر المنافسة للسيطرة على الدالاي لاما، وربح المنشوريون السباق (١٧٥٠).

في القرن الثامن عشر طرأ على المغول ما ازالهم من المجال القتالي الذي شغلوه نحو اربعة الاف سنة. فقد هاجم تشين لونغ (حكم ١٧٣٦- ٩٦) بقية من المغول الغربيين (دزونكار) في عقر دارهم، فتغلب عليهم واستولى على منطقة ولاية سيكيانغ الحالية حيث كانت توجد جالية اسلامية تتبع الدزونكار. وتغلب تشين - لونغ عليهم كان فيه القضاء على آخر امبراطورية سهوبية اوراسية متفجرة (١٧٥٨- ٩). والواقع هو ان البداوة الاوراسية جاء اجلها سنة ١٦٥٢ لما تصادمت قوتان مستقرتان في حوض نهر آمور هما اسرة تشنغ والامبراطورية الروسية، وكانت كل منهما تستعمل الاسلحة النارية.

في سنة ١٧٧٤ عقدت معاهدة كوجك كنارجة (كونشوك كنارتشة) بين العثمانيين والروس، وبموجبها نقلت دولة القرم (وهي آخر واحدة من الدول التي خلفت القبيلة الذهبية) من العثمانيين الى الروس. وفي ١٧٨٣ ضمت الامبراطورية الروسية القرم اليها. وفي الوقت ذاته كان انتشار البوذية بين المغول سببا في التقليل من شأن القتال والحرب بينهم، كما ان ضغط السكان اخذ يتناقص بسبب الاقبال على الرهبنة (البوذية). وهذان التبدلان في اوضاع البدو الرعاة الاوراسيين قاداهم الى الحياة الهادئة. وهكذا فان عنصرا دينامكيا خرج من حياة اويكومين العالم القديم، بعد ان عاش ديناميكيته نحو اربعة الاف سنة.

ومنذ ١٧٥٧ تخلصت الصين من خطر البدو البرابرة الاوراسيين الذي كان يحيق بها لمدة تقرب من الفي سنة. فاندفع تشين ـ لونغ في هجوم نحو الجنوب ضد بورما (١٧٦٦- ٧٠) وضد فيتنام (١٧٨٨- ٩) وضد نيبال (١٧٩٠- ٢). الا ان هذه الحملات التي قادها تشين ـ لونغ كانت، مثل حروب اورانغزيب، تخفي وراءها ضعفا داخليا اجتماعيا واقتصاديا في الامبراطورية.

كان الاكثر جدية في نواحي الضعف هو الازدياد المذهل في عدد السكان خلال المئة سنة المنتهية في ١٨٣٩. وقد لا تكون الارقام المدونة كلها صحيحة، لكن الواقع هو ان عدد السكان ازداد اكثر بكثير من قدرة البلاد على انتاج المواد الغذائية، الامر الذي تم انجازه في القرن السابق. والنباتات التي استوردت من العالم الجديد لتزرع في مناطق غير الصالحة لزارعة الارز، ادت الى تعرية التربة بعد اجتثاث الغابات. وقد بدأ دخل الفرد من الفلاحين الصينيين بالهبوط قبل نهاية حكم تشين ـ لونغ.

في اليابان ازداد عدد السكان. فقد بلغ في سنة ١٧٢١ نحو ثلاثين مليونا، وظل العدد على حاله الى العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر، مع ان الانتاج الزراعي استمر في نموه، واستمر القطاعان الصناعي والتجاري في الاقتصاد الياباني في التوسع. ولكن بسبب التوزيع غير المتكافىء للثروة، من حيث الحصول عليها ومن حيث انفاقها، لم يزد عدد السكان. فالفلاح الفقير الذي هجر الارض ليعمل اجيرا في المدينة او الريف لم يكن بامكانه الزواج وانجاب الاسرة بسهولة. والاغنياء من الملاكين كانوا يحملون على نضاء بعض السنة في العاصمة بحيث ينفقون فوق طاقتهم، ليكونوا تحت نظر الامبراطور. والاغنياء الحقيقيون كانوا اصحاب الاعمال،

الذين كانوا يزوغون من دفع الضرائب، وكانوا مكروهين، لكنهم كانوا اصحاب الثراء. ومثل على ذلك شركة متزوبي (لا تزال الى اليوم احدى اكبر المؤسسات المالية في العالم) التي وصلت سنة ١٦٩١ (وكان عمرها نحو سبعين سنة) ان تكون الممول لدولة الوقت ثم للبلاط الامبراطوري بعد ذلك.

في سنة ١٧٩٣ سلم ممثل جورج الثالث، ملك بريطانية، رسالة الى تشين - لونغ. صيغ رد الامبراطور عليه بطريقة تظهر ان الصين لا تزال البلد الكافي لذاته، والذي لا يغلب، والمملكة المتوسطة (للارض) السيدة. ولم يكن الامبراطور يعرف ان التوازن في القوى الحربية قد تبدل لمصلحة الغرب منذ خمسة قرون. لكن كان في اليابان شخص واحد هو هياشي شيهاي (١٧٣٨- ٩٣) الذي كان عنده نوع من الحس بهذا التبدل. فقد نشر (١٧٨٦) كتابا بعنوان « بحث في المشكلات الحربية لبلد بحري ». فقد ازعجته نشاطات الروس البحرية في شمال المحيط الهادي. ان الروس كانوا قد اصبحوا غربيين بالتبني. والبريطانيون والفرنسيون والاميركان القريبون من الهولانديين، لم يكونوا ظهروا على افق اليابان الجنوبي.

٨٠ــ المجال الحيوي ١٧٦٣ــ ١٨٧١

ان القرن المليء بعظائم الامور، من ١٧٦٣ الى ١٨٧١، شهد اهم حدث وهو التوسع المفاجيء في سلطة الانسان على الكائنات البشرية بالذات وعلى الطبيعة غير البشرية. وهذه الزيادة في السلطة البشرية تمت عن طريق ضم التجديد الاجتماعي مع التكنولوجي. ففعالية الجنود والعمال الصناعيين زيدت عن طريق اخضاعهم لنظام صارم، وتدريبهم على العمل بآلات واسلحة لم يسبق لقوتها مثيل، وعن طريق تنظيم عملهم بفعالية. فقد بدأ انشاء الجيوش المحترفة النظامية في الغرب اواخر القرن السابع عشر. وفي العقود المتأخرة من القرن الثامن عشر، كان التنظيم الذي كان يطبق في ساحات العرض العسكري اصبح يراعى في المصانع المدنية، والتقنية التي كانت قد استعملت لثقب انبوبة المدفع استخدمت في تركيب مكابس الالات البخارية. واذا نظرنا الى القضية خارج المجال العسكري، فان المفاجأة في ازدياد السلطة البشرية يبرر تسميتها ثورة، مع العلم بان تعيين نقطة ابتداء ثورة تكنولوجية واقتصادية بالدقة المطلوبة، اكثر صعوبة من تعيين وقت انطلاق ثورة سياسية او حرب.

ان الثورة التكنولوجية والاقتصادية التي بدأت في بريطانية خلال الربع الثالث من القرن الثامن عشر، بدلت الزراعة وتربية المواشي والصناعة تبديلا تاما. وفي سنة ١٨٧١ كانت هذه الثورة قد انتشرت خارج بريطانية الى القارة الاوروبية، وكانت تبدأ في اميركا الشمالية واليابان. ولا تزال هذه السيرة تقوى في العقد الثامن من هذا القرن. وليس ثمة ما يدل على ان نهايتها قريبة؛ الا انه قد اصبح واضحا الآن ان الثورة الصناعية عكست اتجاه العلاقة بين الانسان والمجال الحيوي.

وقد مهر الانسان، بطبيعة الحال، المجال الحيوي بطابعه، ولكن، حتى تلك الساعة، كان الانسان، مثل بقية العناصر الحية في المجال الحيوي، مضطرا ان يقبع في حجر

كان المجال الحيوي قد سمح له بالاقامة فيه. وكل نوع تعدى الحدود المقبولة عرض نفسه، في الماضي، لخطر الفناء. وفي الحقيقة فان الانواع جمعاء، بما فيها الانسان، كانت تعيش الى يومها تحت رحمة المجال الحيوي. وقد عرّضت الثورة الصناعية المجالَ الحيويَ لاحتمال القضاء عليه على يد الانسان. ولما كانت جذور الانسان عميقة في المجال الحيوي، وما كان لها ان تعيش بدونه، فان حصول الانسان على القوة التي تجعل المجال الحيوي غير صالح للعيش فيه هو وعيد يطلقه الانسان على الانسان منذرا اياه بان استمراره مهدد.

ان ازدياد السيطرة البشرية في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر كان اصلا انجازا بريطانيا محليا، لكن هذا الانجاز البريطاني كان قد تلد في اقطار غربية اخرى الى سنة ١٨٧١، وهذا يسر للغرب كلياً ان يتفوق، موقتا، على بقية الاويكومين. وهذه السيطرة الغربية على العالم كانت الحدث الثاني البالغ الاهمية في القرن (١٧٦٣- ١٨٧١). والحدث الثالث في هذا القرن كان ردة الفعل في اقطار غربية ضد الضغوط الغربية. والمكانة الرابعة، اذا عددنا الاحداث بالنسبة الى اهميتها، تحتلها مشكلات الغرب الداخلية. والثورة الصناعية لا يمكن اعتبارها واحدة من هذه المشكلات. ذلك بان هذه مع انها بدأت في قطر غربي، فانها من حيث المدى تخص « المجال الحيوي ».

كانت غاية الذين صنعوا الثورتين الزراعية والصناعية من البريطانيين ان يصلوا الى الحد الاقصى من انتاج الثروة المادية. وقد جاء هذا في وقته: اذ ان سكان بريطانية والبعض الآخر من الاقطار الغربية كانوا قد بدأوا، في الجيل السابق مباشرة، يزدادون بشكل متسارع. وعلى كل فان المجددين لوسائل لانتاج لم يبغوا نفع الجماعة. انهم كانوا يقصدون الافادة الفردية. انهم رفعوا الانتاج الاجمالي الوطني الى درجة دراماتيكية، لكنهم، في الوقت ذاته، زادوا في عدم المساواة في توزيع حصص هذا الانتاج وعدم المساواة في ملكية الارض والمصانع التي كانت اداة الانتاج.

ان بعض طرق الانتاج التقليدية والتي كانت نسبيا ضعيفة - مثل الزراعة على مقياس صغير، وقيام هذه الى جانب صناعات ايضا على مقياس صغير مثل الغزل والنسيج - قضي عليها. واصبح الانتاج، في شكليه الزراعي والصناعي، يُنظم الآن تنظيما دقيقا ومكلفا من حيث وحداته الكبيرة. وهذه التغيرات المتلازمة ادت الى انتقال السكان باعداد كبيرة من الريف الى المدن الصناعية الجديدة. ومعظم هؤلاء المهاجرين جردوا حتى من ظل

لاستقلال اقتصادي لعلهم كانوا يتمتعون به قبلا. وبين السكان المتزايدين بسرعة كانت النسبة المئوية للمستخدمين (بفتح الدال) الذين كانوا يتعيشون من بيع خدماتهم مرتفعة جدّاً بالمقارنة مع النسبة المئوية للمستخدمين (بكسر الدال) او الذين يعملون لحسابهم الخاص.

والتغيرات في احوال المعيشة والعمل وفي توزيع الدخل والملكية زادت الدخل العام وكان الثمن الظلم والالم. وليس من الممكن معرفة مساحات الارض التي نقلت الى الملكيات الخاصة (بقوانين صدرت عن البرلمان). والحصص المقبولة بالنسبة الى الموردين والمستثمرين والمستخدمين (بفتح الدال) في ارباح الصناعة هي موضع خلاف. ولكن المهم هو ان نقل الاراضي الى الملكيات الكبيرة حال دون الفلاح والعمل الزراعي الصغير الكافي لمعيشته، وان هذا الفلاح لما انتقل الى المدينة صانعا كان الاجر الذي يحصل عليه ضئيلا، يكاد لا يكفيه.

هذه كانت نتائج فيها تناقض وتعاسة بشرية جاءت في اعقاب الزيادة في انتاج الثروة المادية. وكان الباعث على ذلك الطمع، وقد خرج هذا الطمع الآن عن طوق القانون والعادة والضمير. في سنة ١٧٧٦ نشر آدم سميث كتابة « بحث في طبيعة ثروه الامم واسبابها »، وقد جاهر فيه برأي خلاصته انه لو ان كل فرد سمح له ان يتبع رغبته الاقتصادية الشخصية، لكان في ذلك خير نتيجة للمجتمع بكامله. وقد تجاهل الناس المحاذير التي ابداها سميث نفسه، والفكرة بالذات لم تكن مقنعة. والحرية التي تمتع بها الانتاج والتي شجعت الطمع اضيف اليها فوضى المنافسة وخسارتها. وقد كان للمنافسة الاقتصادية غير المقيدة ضحايا اكثر مما كان فيها منتصرون.

اصبح العمال الصناعيون طبقة اجتماعية جديدة غريبة عن المجتمع الذي كان السبب في قيامها. وكان السلاح الوحيد في ايدي العمال الصناعيين هو المساومة الجماعية مع المستخدمين. وكان من الضرروي ان يقوم تضامن وثيق بين العمال كي ينجحوا في المساومة. ومن ثم فقد اخضع العمال انفسهم الى طغيان من صنعهم، كي يقاوموا طغيان ارباب العمل الذي فرض عليهم. وقد منعت هذه التضامنات قانونا (١٧٩٩) لكنها اعتبرت قانونية فيما بعد (١٨٢٤- ٥). وهكذا فحرب الطبقات قد بدأت، وانتشرت، مع الثورة الصناعية من بريطانية الى اقطار اخرى.

ان المستخدمين وخصوم العمال كانوا، على العموم، قساة، ولكنهم كانوا اذكياء

جريئين لا يُقْهرون. فهناك نموذج اركرايت (١٧٣٢- ٩٢) الذي سجل باسمه عددا كبيراً من الاختراعات لم تكن من صنعه. وهناك جيمز وَط (١٧٣٦- ١٨١٩) الذي ساعده الحظ في ان عثر على من يدعمه ويسمح له بان يفيد من اختراعه. واكثر المخترعين وقعوا فريسة المستثمرين. وهناك من المخترعين من وصلوا الى اختراعاتهم بطريق التجربة. وط كان شيئا مستثنى. فقد كان العلم والتكنولوجيا توأمين مفيدين عنده. والوحي الذي جاءه في جامعة غلاسغو اثمر في مصنع بولطن في برمنغهام. ان وط لم يتلق تعليما جامعيا، لكنه كان صديقا لبلاك (١٧٢٨- ٩٩) الذي كان استاذا للكيمياء. وفي القرن التاسع عشر اخذ الكيميائيون الاكاديميون، وخاصة في الجامعات الالمانية، اخذوا بالاستفادة من عملهم في الامور الصناعية مباشرة وبانتظام.

والتحسينات التي ادخلها وط على الآلة البخارية جعلتها صالحة للانتاج الصناعي وللجر، وللضخ كذلك. واول سفينة بخارية سارت سنة ١٨٠٧ واول قاطرة بخارية سارت على سكة حديد سنة ١٨٢٩. والآلة البخارية هي ماكنة، واستعمال الآلات هو الصفة التكنولوجية المميزة للثورة الصناعية. إن الادوات قديمة قدم الانسان، وتحسينها يزيد في القوة العضلية للانسان لكنها لا تحل محل هذه القوة. اما الآلة فانها تريح الانسان من القيام باي عمل عضلي قطعا، وتقوم بالعمل على مستوى ونطاق وسرعة تفوق مقدرة الانسان الطبيعية. وهذا ينطبق على جميع اصناف الآلات ـ القارب والسفينة الشراعية والمدفع.

كان استعمال الآلات، بالمقابلة مع استعمال الادوات، نادرا حتى الثورة الصناعية. اما عند قيام الثورة الصناعية فقد اصبح استعمال الآلة امرا عاديا. ولم تظل الطاقة الطبيعية المستعملة في الآلات مقصورة على الريح والماء الجاري والمفرقعات والبخار. ففي سنة ١٨٤٤ استعملت الكهرباء بنجاح لنقل رسالة تلغرافيا. ان اختراع الادوات المعدنية خلق الحداد. واختراع الالات التي يدفعها البخار خلق المهندس. قوة الريح وقوة الماء نظيفة، لكن البخار يحتاج الى حرق وقود، ومن ثم فان ذلك يلوّث الجو. على ان هذا الخطر لم تدركه البشرية الا بعد مرور قرنين على الثورة الصناعية. عندها اتضح ان المجال الحيوي اصبح ملوثا، فضلا عن ان الانسان اخذ يستهلك المواد التي لا تتولد ثانية، والتي لا بد منها لتأمين معيشته.

قبل الثورة الصناعية اتلف الانسان اجزاء محدودة من المجال الحيوي، فتعرت التربة،

بسبب اجتثاث الاشجار، واستهلكت المعادن بسبب التعدين في منجم. لكن كان البر والبحر لا يزالان واسعين وغنيين.

وكانت الشعوب الغربية قد سيطرت على بقية البشرية قبل الثورة الصناعية، منذ القرن السادس عشر. وهذه العملية استمرت حتى ١٨٥٣. ومع انه كان ثمة بعض صدمات لقيتها المحاولات الغربية (ومعها روسيا) في محاولتها السيطرة على العالم، فانه في سنة ١٨٧١ (او بعد ذلك بقليل) كانت الدول الغربية وروسيا تسيطر على العالم.

وكانت ثمة محاولات، في بعض الاقطار، لتقليد اوروبة عسكرياً اي تقليد المدنية الغربية، على اعتبار ان انتصار الغرب على بقية العالم كان عسكريا اصلا. فهناك محاولة العثمانيين ايام محمود الثاني (حكم ١٨٠٨- ٣٩) ومحمد علي باشا في مصر (١٨٠٥- ٤٩) وباي تونس (١٨٤٠ وما بعدها) وملك تايلاند واليابان.

ومع ان المحاولات الذي ذكرت لتقليد المدنية الغربية كانت ناجحة، فان في اليابان كان نجاحها باهرا. اما في الدولة العثمانية (محمود الثاني) وفي مصر (محمد علي باشا) فقد كان المسار اصعب، وكان لا بد من التخلص من المماليك المصريين (تم ذلك لمحمد علي سنة ١٨١١) والانكشارية في الدولة العثمانية (فعل ذلك محمود الثاني ١٨٢٦). والجيشان النظاميان اللذان حلا محلهما، وخاصة الجيش المصري اثبت عن جدارة في اعماله العسكرية ان لحساب الدولة (في نجد وفي اليونان) او ضدها (في سورية). وكذلك اثبت الجيش العثماني مقدرته في الحرب التركية - الروسية (١٨٢٨- ٩).

ولم يكن يكفي الحاكم (غير الغربي) ان يستأجر عددا من المستشارين والمدربين الغربيين للقيام بالعمل، كان لا بد له ان ينشيء الفرقاء المدربين من اهل البلاد كي يقوموا بالعمل. وقد وجدت الدولة العثمانية، في وقت مبكر، جماعة من اليونان العثمانيين الذين كانوا حلقة الوصل المناسبة. اما بطرس الاكبر ومحمد علي باشا وغيرهما فكان لا بد لهم من ان يوجدوا هذه الفئة. وقد فعل الكثيرون من هؤلاء الحكام ما فعله محمد علي باشا - ارسلوا من ابناء البلاد طلابا الى الغرب ليتعلموا.

وهؤلاء الذين تعلموا في الغرب كانوا يعيشون في عالمين. والعيش في عالمين تصحبه محنة. والمحنة الروحية التي بلي بها الروس في القرن التاسع عشر، اثارت في بعض النفوس ادبا رائعاً يعبر عن هذه المحنة. وقد تجلى ذلك بشكل خاص في

قصص تورجنيف (١٨١٨- ٨٣) ودوستويفسكي (١٨٢١- ٨١) وتولستوي (١٨٢٨- ١٩١٠)، هذا الادب الذي اصبح كنزا عالميا مشتركا.

وفي الغرب، في القرن التاسع عشر، كان للالمان دور كبير: كانْتْ (١٧٢٤- ١٨٠٤) كان اكبر فلاسفة الغرب وغوته ١٧٤٩- ١٨٣٢ كان اكبر شعراء العصر. وهذا النجم الالماني الساطع بز الشهابين الانكليزيين شلّي (١٧٩٢- ١٨٢٢) وكيتس (١٧٩٥- ١٨٢١). وقد بلغت الموسيقى الغربية الذروة على ايدي موزارت (١٧٥٦- ٩١) وبيتهوفن (١٧٧٠- ١٨٢٧). وهذا النجاح المنقطع النظير للثقافة الالمانية كان بعكس حالتها الاقتصادية والسياسية.

كان في عالم العلم رجلان لهما علاقة بالمرض. فادوارد جنر (١٧٤٩- ١٨٢٣) اهتدى (١٧٩٨) إلى انه يمكن اكتساب المناعة ضد الجدري بالتطعيم، وفي سنة ١٨٥٧ اكتشف باستور (١٨٢٢- ٩٥) وجود البكتريا. وقد كانت خسارة الحياة عند الانسان وعند الحيوانات الاليفة، بسبب جهل هذين العنصرين القتالين، اكبر من الخسارة على ايدي الحيوانات المفترسة. ولما اكتشفت البكتريا، اصبح من الممكن مقاومتها بنجاح. ولم يبق عدو هناك في المجال الحيوي بالنسبة للانسان سوى الانسان نفسه. وقد كان تطبيق العلوم على التكنولوجيا يقوي الانسان وتطبيق العلوم في مجال الطب الوقائي كان يؤدي الى ازدياد متسارع في عدد سكان المجال الحيوي، بسبب تخفيض نسبة الوفيات اكثر مما كان ضبط النسل ينقص السكان. وقد نشر الاقتصادي ت.ر. مالتوس كتابه « مقالة في السكان » (١٧٩٨)؛ وهو الكتاب الذي اوحى الى تشارلز داروين (١٨٠٩- ٨٢) فكرة « بقاء الانسب »، وهي الكلمات التي تظهر عنوانا ثانيا في كتابه « اصل الانواع » الذي نشره (١٨٥٩).

بين اواسط القرن الثامن عشر ونشر كتاب اصل الانواع ظهرت بعض الافكار الجديدة حول الخليقة. فبافون خرج على التقليد التوراتي القائل بان الخليقة كلها تمت مرة واحدة، وارتأى بان هذه التنوعات الخَلْقية كانت نتيجة تبدلات خلال العصور الطويلة. وقد جاء بعد لَيَل (١٧٩٧- ١٨٧٥) الذي وضع « مبادىء الجيولوجيا » (١٨٣٠- ٣)، والذي قراءه داروين ايضا. وقد اقضت نظرية داروين مضاجع المسيحيين المؤمنين. إذ انه احل الطبيعة المتخيرة محل الاله المختار للوصول الى بقاء الانسان الاقوى والانسب.

واهم من نظرية داروين عن ميكانيكية التبدل الحياتي، كانت نظرته الى ان الحياة في المجال الحيوي هي ديناميكية وليست ستاتيكية (قارّة). وثمة شبه بين ما فعله داروين في حقل علم الاحياء وما فعله هيغل (١٧٧٠- ١٨٣١) للفلسفة من حيث جعلها فرضية ومقابلها وتركيبها، وجاء مندل (١٨٢٢- ٨٤) الذي وضع قواعد الوراثة، والذي نشر تحقيقاته، في ١٨٦٤- ٦، لكن هذه ظلت مجهولة الى سنة ١٩٠٠ .

وشهد هذا القرن، بالنسبة للاحداث الحربية والسياسية، ثورة الولايات المتحدة واستقلالها (١٧٧٦- ٨٣)؛ واستعادة وحدتها بعد الحرب الأهلية (١٨٦١- ٥)، وتوسعها عبر اميركا الشمالية من الساحل الواحد الى الساحل الآخر (١٧٨٣- ١٨٥٣). وقد شهد القرن نفسه محاولة فرنسة الثانية (١٧٩٧- ١٨١٥) لتوحيد العالم الغربي سياسياً تحت سيطرتها، وذلك في محاولة نابليون، الذي اعاد تجربة لويس الرابع عشر في حروبه (١٦٦٧- ١٧١٣). وقد قامت، في اعقاب فشل نابليون، دولة وطنية في ايطالية (١٨٥٩- ٧٠) ودولة وطنية المانية (١٨٦٦- ٧١). وهكذا فان الترتيب السياسي للجزء الغربي من العالم نجح، خلال هذا القرن، في قيام مجموعة من الدول الوطنية المستقلة ذات السيادة، واصاب محاولة توحيد الغرب سياسياً نكسة اخرى.

على ان العالم الغربي الذي عرفه نابليون كان اوسع من العالم الغربي في ايام لويس الرابع عشر. ذلك بانه في الفترة التي مرت بين الرجلين كانت روسيا والهند وشمال اميركا قد دخلت منطقة النفوذ الغربي. فروسيا كانت امكاناتها العسكرية غير محدودة؛ واملاك الغرب فيما وراء البحار كانت تحت النفوذ البريطاني بسبب تفرد الاسطول البريطاني بالسيادة البحرية، وكانت قيمتها الاقتصادية ذات قيمة كبيرة في اي نزاع.

وقد وجدت الممتلكات البريطانية السابقة في اميركا الشمالية انها، بعد استقلالها السياسي، بحاجة الى الاتجار مع بريطانية. وكذلك اميركا اللاتينية التي كانت تابعة لاسبانية (والتي كانت تابعة للبرتغال وهي البرازيل)، والتي كانت قد استقلت في سنة ١٨٢١. إلا ان الولايات المتحدة وهذه الدول الجديدة كانت على العموم، اسواقا للمنتوجات البريطانية. وهذه الموارد المادية الآتية من وراء البحار كانت العصب الحيوي في الخصومة البريطانية الفرنسية كما جاءت نتيجة الانتصار البريطاني.

في سنة ١٨٢٣ اعلن رئيس الولايات المتحدة يومها، مونرو، مذهبه السياسي القاضي

بان لا تتدخل الدول الاوروبية في اميركا اللاتينية سياسيا، وان تحمي الولايات المتحدة استقلال هذه البلاد. وقد افادت بريطانية من هذا الاعلان، لانها كانت تهتم باقتصاديات البلاد لا بالتدخل السياسي فيها.

مرت بالعالم الغربي خلال القرن المذكور (١٧٦٣- ١٨٧١) ثورات متعددة، لكنها كانت مختلفة، من حيث النوع، واحدتها عن الاخرى. فالثورة الصناعية في بريطانية كانت تكنولوجية اقتصادية واجتماعية، ولم تكن سياسية، ولو انه كانت لها نتائج سياسية لما سن البرلمان قانوناً سنة ١٨٣٢ كان نقطة ابتداء لنقل السلطة السياسية من ملاكي الريف الى الطبقة المتوسطة في المدن. والثورة التي قامت في اميركا الشمالية وانتهت باستقلال الولايات المتحدة لم تكن تكنولوجية ولا اقتصادية ولا اجتماعية، بل سياسية محضة. والثورة الفرنسية (١٧٨٩) كانت سياسية واقتصادية واجتماعية. فقد نقلت السلطة من التاج الى الطبقة المتوسطة المدنية، ونقلت ملكية الاراضي الريفية من الارستقراطية الى الفلاحين. في بريطانية كان صغار الملاكين في الريف اصبحوا يعملون فلاحين بالاجرة او انهم كانوا يدفع بهم نحو المدينة ليكونوا عمالا مأجورين. على العكس من ذلك فان الملاكين الاحرار في الريف صمدوا، بل وزاد عددهم لانهم رحلوا الى اراض بكر في الغرب، حيث لحق بهم المهاجرون من اوروبة. والولايات المتحدة ظلت امة من المواطنين الذين يملكون مصدر رزقهم، وكذلك اصبحت فرنسة. هذا باستثناء الافارقة السود الذين حملوا رقيقا الى الولايات المتحدة واستوطن اكثرهم الجنوب.

كان استرقاق الافارقة ونقلهم الى اميركة لا يقل وحشية عن القضاء على سكان البلاد الذين كانوا فيها قبل كولمبوس. وقد الغي الرق قانونا في اكثر البلاد الاميركية في القرن المذكور، بدءا من سنة ١٧٦٣. وسواء أتم الالغاء اما بالثورة (هايتي عشر سنوات ١٧٩٣- ١٨٠٣) او بالحرب الاهلية (الولايات المتحدة ١٨٦١- ٥) او سلماً، فقد خلف وراءه عاهات اقتصادية واجتماعية. فالعمال الصناعيون في الولايات المتحدة وفرنسة وبريطانية ظلوا يشعرون بالبعد بالنسبة الى « مؤسسة » الطبقة المتوسطة. فقد ظلوا قلة في المجتمع في كل من هذه الدول الثلاث، سواء منهم الذين اقاموا في المراكز الاقتصادية الجديدة ام الذين هاجروا الى المدن الصناعية (بريطانية).

إن صانعي الثورة الفرنسية من الطبقة المتوسطة (١٧٨٩) استغلوا تذمر العمال

المدنيين، لكنهم لم يفعلوا شيئا لتحسين اوضاع هؤلاء. بل انهم تصرفوا مثل نظرائهم في بريطانية. وقد ازالت الطبقة المتوسطة في فرنسة القيود التقليدية على الحرية الاقتصادية الفردية، ولكن لم يكن ثمة بديل لذلك. ومحاولات البوليتاريا الباريسية ان تحول الثورة السياسية الى ثورة اجتماعية في ١٧٩٥ و ١٨٤٨ و ١٨٧١ قضي عليها بالقوة. وفي بريطانية امل العمال (الصناعيون) بالاتحادات العمالية. وقد نالت بريطانية دفعة ثانية في الميدان السياسي بالنسبة لهؤلاء المواطنين بين ١٨٦٧ و ١٨٧٢ (كانت الدفعة الاولى سنة ١٨٣٢)، لكن هذا كله لم يحسن اوضاع العمال الصناعيين لا هنا ولا هناك.

اثارت مصائب العمال الصناعيين وموافقة الطبقة المتوسطة عليها موجة كارل ماركس (١٨١٨- ٨٣)، ناعلن عن ديانته الجديدة، واساسها « الحتمية التاريخية » التي تحل محل الاله الخالق. وقد اراد ماركس ان يعزي البروليتاريا عن مصيبتها القائمة باعلانه انه من المحتم ان تقوم في النهاية « ثورة خير » فتزول الخصومة بين البروليتاريا والطبقة المتوسطة ويقوم مجتمع « لا طبقات فيه ».

لم يعمر ماركس بحيث يرى ان الظلم الاجتماعي زال ضرره. لكن هنري دونان (١٨٢٨- ١٩١٠) نجح في سنة ١٨٦٤ على التوقيع على « اتفاق جنيف » الاول القاضي بانشاء « اللجنة الدولية للصليب الاحمر » لتخفيف ويلات المصابين في الحروب من الجنود.

كان دور بريطانية خلال القرن المذكور قياديا - في خيره وشره، لا في الغرب فحسب ولكن في العالم باجمعه. فقد انتصرت على فرنسة (قبيل هذا مباشرة) في الهند والاميركتين ووحدت الهند لاول مرة في تاريخها، وهذا يسر للمستعمرات البريطانية في اميركا الشمالية ان تستقل عنها. وظلت شركة الهند الشرقية التجارية (الانكليزية) تتحكم في شؤون الهند حتى سنة ١٨٥٧. (وبعدها انتقلت السلطة الى الحكومة البريطانية بالذات). وبريطانية ساهمت مع روسيا واسبانية في هزيمة نابليون، ومن ثم فقد ظل الغرب مقسما بين دول محلية مستقلة ذات سيادة، في عصر اخذت الثورة الصناعية تزود كلا من تلك الدول بسلاح لم يسبق لفتكه مثيل. وقد اصابت بريطانية مقتلا من الصين لما هاجمتها وانتصرت عليها(١٨٣٩- ٤٢).

كانت هذه اعمالا ضخمة. لكن اضخم عمل قامت به بريطانية كان دفع الثورة

الصناعية. ففي عملها هذا رجحت كفة توازن القوى بين المجال الحيوي والانسان الى جهة الانسان، وهذا ما انتهى الى ان الانسان اصبح في قدرته ان يفسد المجال الحيوي بحيث لا يصلح للعيش فيه لجميع المخلوقات، بما فيها البشرية بالذات.

٨١ـ المجال الحيوي ١٨٧١ـ ١٩٧٣

بدا، في سبعينات القرن الحالي، ان المجال الحيوي يحيق به الخطر الكبير بسبب التلوّث، بحيث انه قد لا يعود صالحاً للعيش لاي شكل من اشكال الحياة، وذلك بفعل واحد من خليقة هذا المجال الحيوي وزبانيته، وهو الانسان. وكانت تتضح للناظر نظرة تاريخية بان سيطرة الانسان على المجال الحيوي كانت تتزايد باستمرار. واذ بلغ الانسان مبلغ البشرية كان قد تجرد من جميع الادوات والأسلحة الطبيعية التي حُبي بها، الا انه كان قد زُوِّد بعقل واع كان قادرا على التفكير والتخطيط. كما انه كان له عضوان طبيعيان ـ دماغه ويداه ـ اللذان كانا الاداتين الماديتين لتفكيره وتخطيطه ومحاولاته لتحقيق اهدافه بالفعل.

ان الادوات كانت ملازمة للوعي البشري. ومقدرة الانسان على استعمال الادوات مكن له من الحفاظ على كيانه في حقل التنافس في المجال الحيوي خلال العصر الحجري القديم المتأخر، وهو الفترة التي تشغل، اطلاقا، اطول مدة من التاريخ البشري حتى اليوم. فمنذ بدء العصر الحجري القديم المبكر والانسان ـ قبل ٧٠ ـ ٤٠ الف سنة، يقف موقف الهجوم من بقية المجال الحيوي. ولكن سيطرة الانسان النهائية لم تتم فصولا الا منذ بدء الثورة الصناعية، وهي مدة لا تزيد عن قرنين من الزمان. فقد زاد الانسان في قوته المادية بحيث انه اصبح خطرا حتى على مجرد بقاء المجال الحيوي. لكنه لم يزد امكاناته الروحية. والفجوة بين هذه وبين قوته المادية كانت، نتيجة لذلك، تتسع تدريجا. وهذا النمو في الفرق هو مزعج حقا. والتغيير الوحيد المعقول في تركيب المجال الحيوي الذي يمكن ان ينقذ هذا المجال هو زيادة القدرة الروحية للانسان. بذلك يمكن ان يحال دون تدمير المجال الحيوي ـ ومعه تدمير الانسان نفسه. والتدمير

هذا - اذا تم - سيكون سببه الطمع المسلح بقدرة تؤدي الى القضاء على الاهداف المبتغاة اصلا.

وثمة اعراض عديدة تدلنا على الأثار المخربة المترتبة على ضغط الانسان على المجال الحيوي، كما تبدو في سبعينات القرن الحالي. فسكان المجال الحيوي يتزايدون بسرعة متناهية، وهذا العدد الضخم من السكان يتمركز في مدن جبارة. ولما كانت اغلبية سكان الارض لا يزالون معوزين، فان هذه المدن لا تخرج عن كونها امتداد لبلدان أكواخ، طفيلية ملحقة بالاصل، يقطنها العاطلون عن العمل او غير الصالحين للعمل والمهاجرون من الريف حيث كانت اكثرية البشرية تعيش وتعمل منذ ان اخترعت الزراعة في العصر الحجري الحديث. والمدن تدور حول الارض خطافات على شكل طرق - السرعة للسيارات او مدارج للطائرات. والاقلية من السكان المنتجة للسلع الصناعية والمواد الغذائية والمواد الخام العضوية - وهذه الاقلية تلجأ، في هذا الانتاج الى عمليات والات معقدة وميكانيكية بالات ضخمة - هي (اي الاقلية المنتجة) التي تلوّث الغلاف المائي والغلاف الهوائي في المجال الحيوي بما تفرزه لهذه العمليات السلمية. انها تلوث المجال الحيوي حتى عندما لا تسقط اوراق النبات ولا تقتل الحيوان (البشري وغير البشري على السواء) عمدا عن طريق العمليات الحربية المدمرة.

في سنة ١٨٧١، وحتى الى سنة ١٩٤٤، اي قبل ان تحطم الذرة، كان يبدو من غير المعقول ان المحيط والجو في المجال الحيوي يمكن ان يلوثا بكاملهما الى درجة السم بصنع شيء ضعيف هو الانسان، الذي هو بالذات منتوج من منتوجات المجال الحيوي. وتبدو مقدرة الانسان في جعل المجال الحيوي بكامله غير صالح للعيش في افناء بعض اصناف الحيوانات البرية - ولكن الانسان نفسه وحيواناته الاليفة لا تتمتع بالمناعة ضد الفناء. وبعض هذه - اي الحيوانات الاليفة - تصاب بالتسمم دون ان تكون النشاطات البشرية موجهة نحوها عمدا.

ان النمو الطبيعي للمدن كان عظيما في حدود عمر اولئك الذين ولدوا سنة ١٨٨٩ (مثل مؤلف هذا الكتاب). فقد شهدوا انقرة واثينا تنتقلان من مدينتين صغيرتين الى مدينتين عملاقتين منذ سنة ١٩٢٢.

ومنذ ١٩٢٩ اختفى الريف الياباني قرب مضيق شيمونوذيكي تحت عبء الشوارع

والمنازل. والحي الذي ولدت فيه ونشأت فيه في لندن، قد تبدل منذ الحرب العالمية الثانية، مثل بعض الاحياء اليابانية، الى حد لا يمكن معه التعرف عليه. فبعد ان هدمت القنابل الالمانية البيوت في هذا الحي، اقامت فيه الايادي الانكليزية طريقا مرتفعا تمر فيه السيارات وغيرها.

ان ابن لندن المولود سنة ١٨٨٩، في اسرة من الطبقة المتوسطة، احس بان ١٤ آب (اغسطوس) سنة ١٩١٤ كان وقفة مذهلة في القرن ١٨٧١- ١٩٧٣. فبالمقارنة مع السنوات ١٨٧١- ١٩١٣، تبدو السنوات ١٩١٤- ١٩٧٣ كأنها زمن محن اوقعت البشرية بكاملها نفسها فيها. فقد كانت هناك حربان عالميتان كانت الحرب في كل منهما (والحرب في حد ذاتها جريمة) سفاكة ومدمرة على شكل لم يعرف من قبل. لقد كان ثمة سفك دماء في تركيا وفي المانية وفي الهند. ووقع عرب فلسطين ضحايا. واصاب التبتيين والاكثرية الافريقية الوطنية في جنوب افريقية المحن. ولا تزال واحدة من « الحروب الدينية » قائمة في ايرلندا بوحشية. والطبقة المتوسطة في الغرب انخفض مستوى معيشتها انخفاضا واضحا نسبيا كما اصاب المهاجرين، من غير الغربيين، من الريف الى البلدان الاكواخ (الملحقة بالمدن الضخمة). وبالمقارنه مع السنوات الاليمة ١٩١٤- ٧٣، فان سنوات ١٨٧١ و ١٩١٣ تبدو وكأنها عصر ذهبي في ذكريات الغربيين من الطبقة المتوسطة الذين كانوا قد بلغوا اشدهم سنة ١٩١٤، والذين امتد بهم العمر الى السبعينات الحالية. ومع ذلك فعندما يلقى الى القرن ١٨٧١- ١٩٧٣ بكامله بنظرة الى ماضيه، يتضح ان الامل الذي كان الحال السائد بين ١٨٧١ و ١٩١٣، لم يكن له ما يبرره.

فالانكليزي من الطبقة المتوسطة الذي ولد سنة ١٨٨٩ كان يظن (من السن التي اصبح يعي فيها العالم المحيط به حتى سنة ١٩١٤) ان الجنة الارضية في متناول يده. فالعمال الصناعيون سيعطون حصنهم الحقيقية من انتاج البشرية العام، واقامة حكومة برلمانية مسؤولة سيتم في المانية وسيتحقق في روسيا، وسينعم المسيحيون الذين هم تحت الحكم العثماني بحريتهم، وعندها يصل الناس الى تحقيق الآمال النهائية للحياة على الارض.

لم ينتظر الغربيون ان يروا الغاء للحروب. وبعض الغربيين ـ مثل البعض في المانية والبعض الآخر في دول البلقان ـ لم يكونوا ينتظرون عودة الحروب فحسب، بل كانوا

ينتظرونها حتما. لكن حتى اكثر الميالين الى الحروب من الالمان مثلا كانوا يتصورون حروبا قصيرة مثل حروب بسمارك ولم يتصوروا حروباً تقابل حروب نابليون او حروب الثلاثين سنة (١٦١٨- ٤٨) في المانية او الحرب الاهلية في اميركا الشمالية (١٨٦١- ٥).

والحروب التي قامت بين ١٨٩٤ و ١٩٠٥ كانت حروبا قصيرة او اقليمية، ولم تمسّ العالم (الحرب الصينية ـ اليابانية، ١٨٩٤- ٥، والحرب الاسبانية ـ الاميركية ١٨٩٩- ١٩٠٢، وحروب البلقان ١٩١٢- ١٣ والحرب الروسية ـ التركية ١٨٧٧- ٨، والحرب الروسية ـ اليابانية ١٩٠٤- ٥).

وبالنسبة الى طفل انكليزي من جيل مؤلف هذا الكتاب كانت الامور تبدو سنة ١٨٩٧ (وهي السنة التي احتفل فيها البريطانيون باليوبيل الماسي للملكة فكتوريا التي تولت العرش سنة ١٨٣٧) وكأن العالم الذي وُلد فيه قد تخطى التاريخ. اذ ان التاريخ كان معناه، بمنتهى السذاجة، صفحة سابقة من الظلم والقسوة والالم التي تركتها الام « المتمدنة » خلفها، الى لا عودة. كانت المدنية الغربية مدنية، وكانت فريدة. وكان قيامها وسيطرتها على العالم بمثابة مكافأتين حتميتين لخصائصها، و « المدنية » جاءت لتبقى، ولذلك اصبح التاريخ الآن امرا عقيما.

ان الانجازات التي قام عليها هذا الامل كانت عظيمة. ولكن كلا من هذه الانجازات كان ناقصا، وكان يحمل في طياته بذور الازعاج المستقبلي. وفي السبعينات بدت النقائص واضحة للعيان. لكن بين ١٨٧١ و ١٩١٤ لم يكن من اليسير تبينها.

على سبيل المثال، تحرير الاقنان في روسيا (١٨٦١) والغاء الرق في الولايات المتحدة (١٨٦٣) والبدء بالغاء الرق في البرازيل (بدءاً من ١٨٧١) ظهرت كأنها معالم ساطعة على طريق الجنة الارضية. لكن الاقنان الروس لم يحصلوا على الارض، والسود في الولايات المتحدة لم يتخلصوا من العنجهية والحقد والتفرقة. وبالنسبة الى العمال الصناعيين في البلاد الغربية فان وضعهم الاقتصادي تحسن، لكنهم، بسبب التقدم التكنولوجي في تنظيم الصناعات ـ مثل الزناد الناقل وخط التجميع ـ اصبح العمال رجالا ونساء مرتبين علميا للقيام باعمالهم. وبذلك ظلوا غرباء روحيا عن المجتمع الذي اوجد هذه الطبقة الاجتماعية.

وقيام الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية (١٨٧٠- ٧١) اعتبر عامل استقرار في

تركيب الاوبكومين السياسي، اذ ان الدولة الوطنية المستقلة ذات السيادة اصبحت هي الوحدة السياسية القياسية.

ومنذ سنة ١٨٧١ لم تقم حرب (سوى الحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٤- ١٩٠٥) اشتركت فيها دولة او اكثر من الدول الكبرى. (وبريطانية، مثلا، لم تشترك في حرب روسيا مع تركية او مع اليابان). واحتلال روسيا للمناطق الوسطى في اسية لم يؤد الى حرب بينها وبين بريطانية. وبين ١٨٨١ و ١٩١٢ اقتسمت الدول الغربية (بريطانية وفرنسة والمانية وبلجيكا والبرتغال وايطالية وروسيا) افريقية وشرق اسية والصين خاصة، دون ان تقع بينهم حرب قط.

وكان ثمة ما يدل على ان السلم متحافظ عليه الدول الكبرى، ومتحافظ على النظام ايضا حتى بعد ان عزل وليام الثاني امبراطور المانية بسمارك (١٨٩٠). وقد كان يومها ثمان دول - وثلاث منها فقط، روسيا والولايات المتحدة واليابان، كانت خارج اوروبة. ومع ان الدول الاوروبية كانت ذات سيادة، فقد وجد المؤلف الحالي انه في سنة ١٩١١ لم يحتج الى جوار سفر الا في تركية ورومانيا، وانه كان يبدل الجنيه الانكليزي، او الليرة الفرنسية الذهب في قرية يونانية بنقد فضي قد يكون فرنسيا او ايطاليا او بلجيكياً كما يمكن ان يكون يونانيا. فالحدود السياسية لم تكن قد اصبحت حواجز نقدية او عوائق في طريق الافراد.

ومع ذلك فقد كان ثمة ما ينذر بالشر. ففرنسا لم تقبل بخسارة الالزاس واللورين لالمانية (١٨٧١)، ولم يقبل المواطنون هناك بان يكونوا رعايا الرايخ الالماني الثاني. كان بسمارك يحول دون عقد تحالفات. وبعد سقوطه قامت هذه التحالفات: اتفاق فرنسي روسي (مع ملحق عسكري) ١٨٩٢- ٣، فرنسة وبريطانية الاتفاق الودي ١٩٠٤، واتفاق بين بريطانية وروسيا ١٩٠٧، وبدأت المانية تنافس بريطانية كدولة بحرية (١٨٩٨). هذه الدول كانت تخطط للتعبئة وللعمليات العسكرية.

ومع ان الدولة الوطنية اصبحت، منذ توحيد ايطالية والمانية (١٨٧٠- ٧١) هي الوحدة الطبيعية العادية والحقة سياسياً، فان مناطق شرق اوروبا لم تحصل على هذا الحق. فبولاندا كانت مقسمة بين روسيا وبروسيا والنمسا. واليونان والبلغار والعرب ورومانيا كانت لا تزال تنتظر اليوم الذي تحصل فيه على « اراض تابعة لها » لا تزال تحت حكم العثمانيين او اسرة هابسبورغ. ومثل ذلك يقال عن ايطالية.

وهكذا فان البنية السياسية للاويكومين كانت، قبيل الحرب العالمية الاولى، متوترة بسبب فشلها في ان توجد في شرق اوروبة ما تم عليه الترتيب في غرب اوروبة واصبح الامر العادي. ولكن حتى لو ان الاراضي « المغتصبة » المذكورة جميعها، ولو ان الاراضي المحتلة جميعها، حولت الى دول وطنية، لظل التوتر قائما. وذلك بسبب النزاع الذي لم يحل بين المطالب السياسية والحاجات الاقتصادية للبشرية.

كانت الدولة الوطنية المحلية المثال السياسي للشعوب الاوروبية ولعدد متزايد باستمرار من الشعوب الاخرى، التي اخذت بالمؤسسات الغربية. وقد ظهر تعلق الشعوب الاوروبية بالوطنية في مقاومتهم الناجحة للمحاولات التي قام شارل الخامس وفيليب الثاني ولويس الرابع عشر ونابليون على التوالي لاعادة المسيحية الغربية الى الوحدة السياسية ايام تيودوسيوس وشارلمان. ومع ذلك فان الوحدة السياسية كانت تتنافى زمنيا مع الحياة الاقتصادية، منذ ان اندمج الاويكومين بسبب سيطرة الصينيين والبرتغاليين والاسبان على تقنية الملاحة في المحيط في القرن الخامس عشر. والدمج الاقتصادي للاويكومين الذي بدأه البرتغاليون والاسبان كان قد قطع شوطا ابعد بسبب الثورة الصناعية في بريطانية.

فالى وقت الثورة كانت اكثر السلع التي تبادلتها التجارة العالمية من الكماليات. ولكن بسبب الثورة الصناعية صارت السلع المتبادلة تزيد فيها كميات الاشياء الضرورية للحياة. والمستثمرون البريطانيون الذين بدأوا الثورة الصناعية ربحوا ربحا طائلا على الاموال الطائلة التي انفقوها في الآلات، اذ صارت بريطانية مصنع العالم. ومنذ ذلك الوقت اصبحت بريطانية تصدر المصنوعات وتستورد المواد الخام والمواد الغذائية، على مقياس عالمي. وقد حافظت التجارة العالمية على هذه الابعاد التي تحيط بالكرة الارضية لما، بعد سنة ١٨٧١، انتزعت المانية والولايات المتحدة وغيرهما من البلاد من بريطانية احتكارها لهذه التجارة، اذ سارت سيرتها.

كانت نقطة البدء في دمج الاويكومين اقتصاديا اختراع البرتغاليين للسفينة الشراعية التي تمخر عباب المحيط. وتتمة هذا الدمج كانت في تدشين الاتحاد العالمي للتلغراف (١٨٦٤) وتدشين الاتحاد العالمي للخدمات البريدية (١٨٧٥). كانت البشرية يومها قد اخذت بالاعتماد على التوحيد العالمي على المستوى الاقتصادي، لكنها ظلت ترفض التخلي عن العزلة الوطنية، على المستوى السياسي، وهذا الانحراف لا يزال

مستمراً بالرغم من الدمار الذي سببه منذ سنة ١٩١٤. والتفكك الذي نتج عن ذلك في القضايا البشرية قد بلغ إلى حد انه يهدد بشلّ المجتمع البشري بكامله باستثناء اقلية من الفلاحين والصيادين وجامعي الطعام التي لا تزال تعيش على ما تنتج او تجمع لنفسها، دون ان تأسرها السوق العالمية.

بلغت السفينة الشراعية الغربية الحديثة الذروة في تطورها خلال الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٩٠، اذ كانت تقاتل معركة خاسرة مع السفينة البخارية المنافسة لها، والتي انتجتها الثورة الصناعية. وقد كان هذا ايضا العصر الاخير للموسيقى الغربية الكلاسيكية الاسلوب، التي وصلت الذروة عند منقلب القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر في اعمال بيتهوفن (بيتوفن). والاسلوب الغربي الحديث في الرسم كان قد تجاوز قمته لما انتقلت الاولوية من الايطاليين والفلاندريين الى الاسبان والهولانديين، حول السنة ١٦٠٠. والسفينة الشراعية الكلاسيكية حلت محلها السفينة البخارية لما اضاف اليها وط التحسين المهم. وقد جمد الاسلوب الطبيعي في الرسم لما اخترع فن التصوير (الفوتوغرافيا). وخلال السنوات التي مرت بين ١٨٧١ و ١٩١٣، وهي فترة سلم ورخاء في الظاهر، كان الرسامون ومؤلفو الموسيقى يتخلون عمدا عن تقليد طويل الامد، وكانوا يبحثون عن صيغ للتعبير مختلفة اختلافا جذريا. من المؤكد انهم احسوا ان الاسلوب « الكلاسيكي » لفنونهم قد استُنفِد، كما لو كان منجما للفحم استخرج كل ما فيه. وبدا في السبعينات، في نظرة خلفية، كأن الفنانين الغربيين ادركوا بالحس المسبق، وهم يتمتعون بفترة من الجو الهادىء، بالعاصفة التي ضربت المجتمع الاوروبي في الجيل اللاحق. ان الفنانين لهم هوائيات بسيكية التي تحس، مسبقا، بالاحداث الغريبة المقبلة.

واذا نحن اردنا ان نضع لائحة موازنة لتجارب البشرية واعمالها بين ١٨٧١ و ١٩٧٣، لوجدنا ان اول ما يطالعنا هو هذا العدد الضخم من الاكتشافات والاختراعات. كان الانسان الغربي قد توصل الى اكتشافات واختراعات ذات بال خلال القرون الثلاثة التي سبقت ذلك، لكنه ني الفرن الذي ينتهي في ١٩٧٣ تخطى الانسان انجازاته السابقة في هذه الميادين. فرويد (١٨٥٦- ١٩٣٩) نقل التصرف في المستويات غير الواعية من البسيكية البشرية الى المستوى الواعي. وابنشتين اعطى الفيزياء مجالا اوسع اذ اعتبر ان الملاحظة هي تفاعل. فالناظر (الملاحظ) هو نفسه

جزء من العالم الطبيعي الذي يقوم بملاحظته خلال الزمان والمكان. واكتشاف وجود الالكترونات وطبيعتها (كشف ج ج. طومسون ١٨٩٧) برهن على ان كلمة الجوهر الفرد، (اثوم) هو تسمية خاطئة. لقد ثبت ان « الجوهر الفرد » ليس وحدة لا تقبل الكسر - لقد كانت عالما شمسيا قائما بذاته. وقد تنبأ بذلك رذرفرد (١٨٧١- ١٩٣٧) في سنة ١٩٠٤؛ فقد تعرف الى ماهية النواة، ونجح في تحطيمها (١٩١٩). وقد تم اكتشاف تركيب النواة لما تعرف تشادوك الى وجود النيوترون وطبيعته (١٩٣٢). وهذه الاكتشافات في مجال الفيزياء قادت العلماء الفيزيائيين، بدءاً بما قام به نيلزبور (١٨٨٥- ١٩٦٢)، الى الاعتراف بحقيقة اسلوبية المعرفة واسسها وهي : ان حادثة معينة معروفة يمكن التعرف اليها بطريقتين لا تختلفان فحسب، ولكنهما لا يمكن ان تلتقيا ولا يمكن ان تمر التجربة بهما في الوقت ذاته. ومع ذلك فان الطريقتين صحيحتان ولا يستغنى عنهما.

ومع ان المطاط (الكوتشوك) كان قدامى ميزر - اميركا يستعملونه لصنع الطابات، وكان النفط يستعمل في النار اليونانية في الامبراطورية الرومانية الشرقية، فان هاتين المادتين شهدتهما الفترة بين ١٨٧١ و ١٩٧٣، تستعملان للدواليب ووقودا للاحراق الداخلي في الآلات. ومن هنا امكن صنع السيارات والطائرات. وهذا منح الانسان عن طريق الطيران، مكانا في الجو كان خاصا بالحشرات والطيور والخفافيش.

وقد كانت ثمة احداث دراماتيكية في مجال الاكتشاف الجغرافي والتاريخي - فاكتشف الانسان القطبين ووصل ابى القمر، ونقب عن اثار المدنيات السابقة من السند الى كريت.

وابرز الاكتشافات والاختراعات التي توصل اليها الانسان خلال السنوات المئة الاخيرة، هي التي جاءت في ميدان الطب والجراحة. فاكتشاف المخدر (البنج) يسر للجراحين القيام بعمليات جراحية قد لا تُتَخيَّل. ومعرفتنا ان البعوضة تنقل حمى الملاريا والحمى الصفراء، يسر محاربتها ومحاربة المرضين معها.

لكن اختراعات الانسان واكتشافاته كان لها اثارها السيئة في المجتمع. فالطيران والبارود مكنا الانسان من القاء القنابل من الجو، بحيث كانت تصيب المقاتلين والآمنين على السواء. وفي غضون اقل من نصف قرن من اكتشاف وجود الالكترون

(١٨٩٧) القيت القنبلتان على هيروشيما ونغازاكي. وفي سنة ١٩٧٣ كان الغاز الذي تنفثه السيارات قمينا بان يجعل هواء المجال الحيوي غير صالح للتنفس.

وتقليل نسبة الوفيات له نواحيه المختلفة. فهناك زيادة في عدد السكان. وهناك اطالة الحياة لاشخاص مشكوك في امر افادتهم هم من اطالة حياتهم.

كانت وظيفة الحكومة، قبل الثورة الصناعية، تكون في حفظ القانون والنظام، وشن الحروب عند الحاجة. ولكن بعد قيام طبقة العمال الصناعيين، بسبب الثورة الصناعية، حتم على الحكومة ان تعنى بالمجتمع صحيا واجتماعيا وتعليمياً وما الى ذلك.

في البلاد التي لا يزال للقطاع الخاص في اقتصادها الغلبة والتي لها حكومة ديمقراطية (اي بريطانية)، فان التشريع الاجتماعي البرلماني وعمل اتحادات العمال مكّن للاغلبية من العمال الصناعيين من منتجي الحرارة والضوء الى منظمي احواض الموانىء والشوارع، ان يحصلوا على مزيد من النفع مقابل ما تحصل عليه الطبقة المتوسطة، وبخاصة اصحاب المهن الحرة كالمعلمين ومن اليهم. واصحاب المهن التي تتحمل المساومة لا يحبون ان تتدخل الحكومة في امور المهنة او التجارة او الصناعة، لأن ذلك يعطيهم المجال لنيل اكثر ما يمكن من الربح الخاص لا النفع الجماعي فقط.

واتحادات العمال تنجح في مساوماتها وفي الحصول على المنافع لافرادها في الدول الديمقراطية البرلمانية، اما في الاتحاد السوفيتي والدول التي تشبهه فان العمال، صناعيين كانوا ام زراعيين، مسيرون بحكم قوانين صارمة تصدر عن حكومة تسلطية. والحكومة السوفيتية تعتنق ايديولوجية ماركسية. لكنها تدير البلاد على الطريقة التي كان يتبعها القيصر الروسي من قبل. وقد ايد الفلاحون الروس ثورة اكتوبر (١٩١٧) املا في ان تتحسن احوالهم ويمتلكون بعض الارضين على نحو ما اصاب فلاحي فرنسة بسبب الثورة الفرنسية (١٧٨٩). لكن كل شيء في روسيا أمم ـ الارض ومصادر الثروة والمصانع. والعامل هو الآخر يعمل تحت تنظيم بيروقراطي دقيق.

الا ان الاتحاد السوفيتي هو، مثل المملكة المتحدة، حكومة رعاية اجتماعية، على طريقته الخاصة، وذلك اذ قورن بروسيا القيصرية. فقد نشر التعليم ووزعت الثروة توزيعا افضل من ذي قبل. لكن الدول جميعها، بقطع النظر عن ايديولوجيتها، ظلت دولا مستعدة لشن الحروب. والحروب هي همجية دوما، والحربان اللتان عرفهما القرن

العشرون اشتهرتا، بالاضافة الى همجية الحرب بالذات، بما قتل فيهما من المدنيين.

ولعلّ الحادثين اللذين يمكن ان ينظر اليهما بشيء من العطف في حربي القرن العشرين هما: مقاومة الشعب التركي (١٩١٩- ٢٢) للدول الخارجة منتصرة من الحرب العالمية الاولى، ومقاومة الشعب البريطاني (١٩٤٠- ١) لالمانية التي كانت تحسب نفسها منتصرة، وكان ذلك موقتا. وقد كان من حسن حظ الشعب التركي ان وجد مصطفى كمال (اتاتورك) يومها، كما ان الحظ خدم الشعب البريطاني اذ يسر له تشرشل.

وفي الهند شهد القرن الحالي قيام غاندي (١٨٩٦- ١٩٤٨) الذي كان يختلف عن لينين ومصطفى كمال، في انه لجأ الى سياسة اللاعنف واللاتعاون (مع السلطة). وكان غاندي يحب ان يقطع الصلات الاقتصادية بين الهند والغرب، كي يجنب الهند الدخول في مجال العالم المُمَكْنَن.

وقد انتهى الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية سنة ١٩٤٧، وذلك بقسمة البلاد الى الهند وباكستان، لا على قواعد غاندي (قتل غاندي سنة ١٩٤٨). وقد رافق هذا الاستقلال والتقسيم عذاب وهجرات وقتل وتشريد.

ومثل هذا الذي حدث في الهند حدث في أماكن كثيرة. وهذا اتحاد جنوب افريقية المستقل. ان اقلية اوروبية الاصل تحكم اغلبية حكما فيه غلبة وقهر لان الاغلبية الافريقية هذه سوداء. وهذه فلسطين ـ شرد اهلها العرب واستولى اليهود المهاجرون على بيوتهم واملاكهم.

لقد اشرنا من قبل الى التناقض بين التقسيم السياسي للاويكومين الى دول وطنية ذات سيادة والوحدة التي يتمتع بها الاويكومين على المستويين التكنولوجي والاقتصادي. فالحاجة ماسة الآن الى قيام تنظيم سياسي حكومي يشمل الكرة الارضية بكاملها، ليحفظ هذه الدول من اعتداءاتها المتكررة، ولاعادة التوازن بين الانسان والمجال الحيوي، اذ ان هذا التوازن قد اضطرب بسبب ما جمع الانسان من قوة مادية ناشئة عن الثورة الصناعية.

ان البشرية تأخذ بخناقها ازمة خانقة، وهي لا تقل في شرها عن الحربين العالميتين، والمستقبل مزعج.ان البشرية تستطيع ان تستمر في العيش في هذا المجال الحيوي بضعة مليون سنة اخرى، هذا اذا لم يؤد عمل الانسان الى جعل المجال الحيوي هذا غير

صالح للعيش في وقت قبل ذلك. لكن الانسان الآن يستطيع ان يجعل المجال الحيوي غير صالح للعيش في المستقبل القريب، ومن ثم فانه من المحتمل ان الناس الاحياء قد تقصف اعمارهم فجأة عن طريق نكبة من صنع الانسان، يمكنها ان تدمر المجال الحيوي وتقضي على البشرية جمعاء، مع ما هناك من اشكال اخرى للحياة. هاتان هما احتمالان ـ لكنهما ليسا الخيارين الوحيدين.

ان المستقبل لا يمكن تقريه، لانه لم يصلنا بعد. وامكانات المستقبل غير محدودة، ومن ثم فليس من الممكن ان نتنبأ عنه من اعتبارات الماضي. كل ما حدث في الماضي، قد يحدث ثانية، ولا شك، اذا ظلت الاحوال على ما هي عليه. لكن حادثة سابقة ليس من الضروري ان تحدث ثانية؛ انها واحدة من عدد من الاحتمالات. وبعض هذه الاحتمالات لا يمكن تنظيرها، لانها ليس لها سوابق معروفة. وليس ثمة من سابقة لهذه القوة التي تسلط بها الانسان على المجال الحيوي على النحو الذي تم خلال القرنين من ١٧٦٣ الى ١٩٧٣. وفي هذه الاحوال المذهلة ثمة نبوءة واحدة يمكن ان يقدمها الواحد وهو متأكد منها ان الانسان، وهو ابن الام الارض، لن يعيش بعد جريمة قتل الام ان هو اقترفها. فالعقاب هو القضاء على النفس!

٨٢ـ نظرة الى الماضي ـ ١٩٧٣

إن المستقبل ليس موجودا بعد، والماضي انتهى امره، ومن ثم فان احداث الماضي لا يمكن تبديلها. وعلى كل فان هذا الماضي الذي لا يمكن تبديله لا يُعطينا المظهر نفسه دوما وفي كل مكان. فنظرتنا الى علاقة احداث الماضي الواحدة بالاخرى، والى الاهمية النسبية لكل منها، واثرها ـ كل هذ يتغير بتغير المكان والزمان اللذين تنظر منهما الى حادثة معينة ـ فالشخص نفسه الذي يعود بنظره سنة ١٨٩٧ الى حادثة قديمة يراها بشكل آخر اذا نظر اليها سنة ١٩٧٣. اما اذا كان الناظر يتفحص القضية الماضية نفسها في الصين سنة ٢٠٧٣ او في نيجريا سنة ٢١٧٣، فان الرؤى تختلف.

منذ ان اصبح آباؤنا بشرا عاشت البشرية حياتها (باستثناء القسم الاخير منها وهو جزء من ستة عشر جزءاً منها) في العصر الحجري القديم المبكر. وفي هذه الحالة فان الجماعة التي تعيش على جمع الغذاء كانت صغيرة عدداً وكانت تسكن رقعة واسعة. فالتجمع كان معناه الانتحار.

كانت التكنولوجيا في ذلك العصر ثابتة، لكن قبل ٤٠,٠٠٠ سنة (او على أي حال ليس قبل اكثر من ٧٠,٠٠٠ سنة) كان ثمة تقدم سريع مفاجىء في التكنولوجيا. فقد استبدلت الادوات القديمة بادوات افضل. ومنذ ذلك لوقت والتكنولوجيا تتقدم، لكن تقدمها لم يكن مستمرا. كانت تمر بالبشرية فورات اختراعات تكنولوجية، وهناك وقفات تعترضها. والثورات الرئيسة الى اليوم هي: العصر الحجري القديم المتأخر (تحسن في الادوات وتدجين الكلب)، والعصر الحجري الحديث (تحسن في الادوات وتدجين حيوانات اخرى ونباتات واختراع الغزل والنسيج وصنع الفخار)، وثورة الالف الخامس ق.م. (اختراع الشراع والدولاب والتعدين والكتابة)، والثورة الصناعية (توسع كبير في المكننة). وتقدم التكنولوجيا لم يكن مستمرا، لكنه كان تراكميا.

والتكنولوجيا هي المجال الوحيد الذي تقدم فيه الانسان، اما « الاجتماعية » البشرية فلم تتقدم على النحو ذاته.

وكان اهم ما نجح فيه الانسان تكنولوجيا هو تدجين الحيوانات واختراع الزراعة (في العصر الحجري الحديث). فقد ظل هذان اساس ما تبقى من تقدمه التكنولوجي حتى في عصر الثورة الصناعية، كما كان اساس المدنيات التي قامت ثم انقرضت.

إن جماعة القرية في العصر الحجري الحديث كانت كبيرة بالنسبة الى ما سبقها، لكنها لم تبلغ من الحجم ما يمنع افرادها من الاتصال والتعارف، ولم تكن تتطلب بعد اختصاصات معينة، إلا انها كانت بمعزل عن غيرها من القرى الاخرى. لكن « الاجتماعية » البشرية (في القرية هنا) كانت اساس العلاقة بين الناس وبين الجماعات.

وقد يبدو غريبا ان الفلاحين الذين كانوا يعيشون (سنة ١٩٧٣) جماعات قروية من اسلوب العصر الحجري الحديث كانوا اكثرية البشرية، لكنهم كانوا يساقون بسرعة من الريف الى المدن ـ الاكواخ المحيطة بالمدن، فيما كانت المكننة التي وجدت اصلاً لتنظم امور الاشياء غير الحية صناعيا، اصبحت تستخدم في الزراعة وتربية المواشي. يضاف الى هذا ان فلاحي الاويكومين قد مرت عليهم، الى الان، خمسة الاف سنة وهم يتحملون اعباء مدنية مركبة معقدة. وقد حدث هذا لانه في الالف الرابع ق.م. انتج التقدم التكنولوجي فائضا اقتصاديا: استخدم بعضه في الحروب، ووزع بعضه توزيعا غير عادل، بحيث استولت اقليه على اكثره. والتقدم التكنولوجي في الالف الرابع اقتضى قيام اختصاصيين (معدنين وحدادين ومخططين ومنظمين للاعمال العامة مثل الري وتصريف المياه الخ). وكان ثمة توزيع للثروة الناشئة عن الحياة الاقتصادية الجديدة، ولكنه توزيع غير عادل، فضلا عن انه اصبح ارثيا. والظلم الاجتماعي والحرب هما ثمن هذا الثراء الجماعي، وهما العلتان الاجتماعيتان اللتان جاءتا من المدنية ولا تزالان تعصفان بالبشرية اليوم.

وقد كان الانسان، منذ فجر المدنية، يبدو عليه تناقض في سيره التكنولوجي وتصرفه الاجتماعي. والتقدم التكنولوجي الذي مر على الانسان، وبخاصة بين ١٧٧٣ و ١٩٧٣، زاد في قوته وثروته. والفجوة الخلقية بين قوة الانسان الطبيعية على صنع الشر ومقدرته

الروحية لتصريف هذه القوة قد اتسعت اشداتها. وهذا هو الذي فرض على البشرية ان توقع نفسها في مصائب كبيرة خلال الخمسة الاف سنة الماضية.

وتقدم الانسان الاجتماعي حدده عجز الانسان روحيا. وهذا الامر انعكس على التقدم التكنولوجي. فقد تعقدت التكنولوجيا بحيث انها اقتضت تعاونا كبيرا بين المعنيين، لكن المكننة الحديثة التي زادت الثروة والانتاج، جعلت العمل بحد ذاته اقل ارضاء (للعامل) نفسيا، ومن ثم خلق عاملا قلقا، فانحط مستوى الانتاج.

في فجر المدنية زيد الانتاج في مجاري دجلة والفرات الدنيا عن طريق تصريف المياه من المستنقعات وحفر الاقنية للري. اذ ان الجماعات القروية القائمة هناك لم تكن كافية للامور التكنولوجية اللازمة، فكان لا بد من حشد جماعات جديدة، لا رابطة « اجتماعية » بينها. وهذه الجماعات الجديدة انشئت لها مؤسسات خاصة لاستيعابها. لكن هذه المؤسسات كانت مصطنعة، وكانت سريعة العطب، لذلك كان بين مؤسسيها رغبة في ان يلجأوا الى القسر لضمان استمرارها طمعا في الحصول على التعاون اللازم من السكان.

وقد كانت المؤسسة « الرئيسة » التي صنعها الانسان من فجر المدنية هي الدولة. فمنذ ذلك الحين والدول تتجاور وتتعاون وتتقاتل ـ وهذه الحروب بينها هي من عاهات المدنية. وكان النموذج العادي للدولة هو دولة محلية ذات سيادة تحيط بها او تجاورها دول اخرى من نوعها. يوجد اليوم في الاويكومين نحو ١٧٠ دولة. وخطوط الاويكومين السياسي اليوم هي الخطوط نفسها التي كانت في ايام السومريين في الالف الثالث ق.م.

والدول ذات السيادة المحلية مؤسسة غريبة. فحتى المدينة ـ الدولة، ولندع اية صيغة اخرى جانبا، هي وحدة اكبر مما يمكن ان تكون العلاقات الاجتماعية فيها شخصية. وفي الجبهة الاخرى فان اكبر الدول المحلية لا تزيد عن كونها واحدة من عدد من الدول. انها تستطيع ان تقوم بحرب، لكنها لا تستطيع ان تزود الناس بالسلام.

ومجموعة الدول المحلية ذات السياسية التي تعمر الارض لا تقدر على الحفاظ على السلام، ولا هي قادرة على انقاذ المجال الحيوي من التلوّث الذي صنعه الانسان او الحفاظ على المواد الطبيعية التي لا يمكن تعويضها. وهذه الفوضى المسكونية على المستوى السياسي لا يمكن ان تستمر لمدة اطول كثيراً في اويكومين اصبح وحدة

على المستويين التكنولوجي والاقتصادي. فالذي يحتاج اليه العالم هو جسم سياسي على سعة الكرة، مكون من خلايا صغيرة (نسبياً) بحيث يحس الواحد بالدفء في العلاقات الشخصية والمواطنية العالمية في دولة ـ العالم. وعلى كل فان الاويكومين الآن لا يمكن توحيده بالاساليب التقليدية البربرية المخربة القائمة على الفتح العسكري. فالاسلوب هذا اذا اعتمد في توحيد الاويكومين انتهى الامر به الى القضاء عليه.

ويبدو، من استقصاء تاريخ الدول السومرية والهلينية والصينية والايطالية، ان العالم اليوم لا يمكن ان يوحد إلا تطوعا، وانه لن يُقْبِلَ على هذا التطوع إلا شبه مكره على ذلك، ولذلك يبدو من الممكن ان مثل هذه الخطوه ستأخر الى ان توقع البشرية نفسها في كوارث ترغمها في النهاية على قبول الوحدة السياسية.

وقد يبدو لنا، في هذه المرحلة من تاريخنا، نحن الكائنات البشرية، ان نغبط الحشرات الاجتماعية. ومع ذلك فيظل الانسان، بالاضافة الى انه طبيعة وجسم، يتمتع بروح. وهذه الروح تملك الوعي. ومن ثم فان الانسان يمكنه ان يختار ـ اما الخير او الشر.

والذي يتوجب على الانسان ان يتجه نحوه، في علاقاته وخياراته، هو المحبة. ففي الاويكومين، في عصر الثورة الصناعية يجب ان يوسع نطاق المحبة البشرية بحيث تشمل جميع العناصر التي يتكون منها المجال الحيوي، الحي منها والذي لا حياة فيه.

هذا ما كان يفكر به (سنة ١٩٧٣) بريطاني مولود سنة ١٨٨٩.

لعلَّ قلة من الناس يدركون ان مؤسسة الدولة قد فشلت، المرة بعد الاخرى، خلال ٥٠٠٠ سنة، في ان تحقق حاجات البشرية السياسية، وان مثل هذه المؤسسة لا بد من ان تكون، في مجتمع يشمل الكرة الارضية، عابرة اليوم ايضاً، وهذه المرة اكثر من اي زمن مضى. ان عدد دول الاويكومين المستقلة قد تضاعف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فان هذه البشرية المجزأة سياسياً يزداد اعتمادها على بعضها تكنولوجيا واقتصاديا يوما بعد يوم.

فهل تغتال البشرية الارض ـ الام او ان الانسان ينقذها. انه يستطيع ان يغتالها باساءة استعمال قوته التكنولوجية المتزايدة. والخيار الآخر هو ان الانسان يستطيع انقاذها بالتغلب على الطمع العدواني الانتحاري الذي كان الثمن الذي حصلت عليه الارض ـ الام لقاء هبتها الحياة للكائنات الحية بما فيها الانسان.

يؤرخ المؤرخ البريطاني الكبير أرنولد توينبي في هذا الكتاب للأحداث التي صنعت تاريخنا منذ القرن الثالث حتى أيامنا الحاضرة. وفيه يدرس الحضارات الأولى في ما بين النهرين من سومرية وبابلية وفي بلاد الشام وبلاد فارس وفي مصر القديمة وبلاد الإغريق. ثم ينتقل إلى الحضارة الميزواميركية، الرومانية، المسيحية الغربية، البزنطية، الإسلامية، الفارسية، الصينية، الهندية، وقيام الحركات القومية في أوروبا. وفي الأقسام الأخيرة من الكتاب يبرز توينبي بوضوح «فلسفته التاريخية» ومفهومه «لاويكومين» العالم الجديد المندمج بفضل انفتاح الحضارات بعضها على بعض وتمازجها وتقاربها.